النجف

في ربع قرن

منذ سنة ١٩٠٨

تأليف

محمد علي كمال الدين

تحقيق وتعليق

كامل سلمان الجبوري

النجف
في ربع قرن

النجف

في ربع قرن

منذ سنة ١٩٠٨

حقائقه ووثائقه ومذكراته مع تاريخ العراق السياسي
لم تنشر من قبل

تأليف

محمد علي كمال الدين

تحقيقه وتعليقه

كامل سلمان الجبوري

دار القارئ
طباعة نشر توزيع

المواهب
للطباعة والنشر

جميع الحقوق محفوظة

الطبعة الأولى

١٤٢٦هـ - ٢٠٠٥م

دار القارئ للطباعة والنشر والتوزيع

تلفون: ٠٣/٤١٣٢٥٦ - ٠٣/٩٠٢٩٤٤

Email:dar_alkari@hotmail.com

بسم الله الرحمن الرحيم

تقـديم

من جملة ما حصل عليه المتحف الوثائقي لثورة العشرين في النجف، مسوّدات كتاب (النجف في ربع قرن) تأليف المغفور له السيد محمد علي كمال الدين، أحد رجال السياسة والفكر في العراق خلال فترة الاحتلال البريطاني وما بعدها. وقد تقدّم بإهدائها مع مجموعة من أوراقه ومقالاته المنشورة في الصحف والمجلات، ولده المغفور له السيد عبد الكريم كمال الدين.

وقد كُتبت هذه المسوّدات بدفاتر وأوراق مختلفة الأحجام والأقلام وأحبار مختلفة، وكثر فيها الحذف والتعديل، إلاّ أنها كانت مهمة فيما تحمل بين ثناياها من معلومات شاب عاصر الكثير منها، وتنبهات أديب كان في طليعة الشباب الواعي الذين كان لهم دور مهم في الأحداث السياسية لا سيما في الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠، خصوصاً في الجانب الأدبي والإعلامي.

قمت بتوحيد معلومات تلك الأوراق والمسوّدات بنسخها المتعددة، وأوراقها المتناثرة، مثبّتاً لنصوصها كما هي، محافظاً على الأمانة العلمية والتاريخية، بالرغم من **أن ما تضمنته من آراء قد لا تمثّل إلاّ وجهة النظر الشخصية لكاتبها**، وعلّقت على بعض الأمور التي يجب الوقوف عندها.

وقد عزّزت الكتاب ببعض الصور الفوتوغرافية النادرة والوثائق التي يحتاجها الموضوع.

كما ألحقت بالكتاب نصّين مهمّين أشار إليهما في ثنايا الكتاب وهما:

١ ـ منهاج الرشاد لمن أراد السداد: للشيخ جعفر كاشف الغطاء.

٢ ـ تنبيه الأمة وتنزيه الملّة: للشيخ محمد حسين النائيني.

وبعد أن جَهُز الكتاب للطباعة، وإذا برسول من عائلة المغفور له السيد عبد الكريم بن السيد محمد علي كمال الدين يحمل لي نبأ وفاة (أبي علاء) ودعوتهم للإتصال بهم.

وذهبت إلى بغداد والتقيت بالعائلة الكريمة، وإذا بهم يبلغوني بوصيّة الأستاذ عبد الكريم بأن يسلّموا أوراق والده السيد محمد علي إلى الداعي ويتصرف بها ما يراه مناسباً.

ومن تلك الأوراق نسخ أخرى من هذا الكتاب التي قابلتها من جديد مع ما لديّ.

وهكذا كانت هذه النسخة كاملة كما أرادها كاتبها ـ رحمه الله ـ

وفي الوقت الذي أُكبر فيه عزيمة الفقيد وثقته، وأُقدّر شعور عائلته الكريمة، أتقدم بإهداء عملي هذا إلى روحه الطاهرة. آملاً من العلي القدير أن يرزقه ثواب الأبرار بآبائهم، ويجزيه جزاء الصالحين.

ولا بدّ من الإشارة إلى أن هناك تداخلات ببعض الاصطلاحات التي أطلقها المؤلف حسب ما يراه وعاصره: كالموالين، والموادعين، والمسالمين، والمأجورين، والعملاء، والخونة وغيرها، فقد أوردتها كما جاءت على لسانه.

أما التوقيت الوارد فهو على الساعة العربية أو الغروبية الأذانية، وفيها تكون الساعة الأولى هي أول ساعة بعد أذان المغرب، ويستمر التوقيت إلى ٢٤ ساعة.

هذا ما استطعت تقديمه إلى القارىء العزيز على العجالة، وكلي أمل أني قد قمت بجزء من الواجب الذي تحتمه عليَّ خدمة الوطن العزيز وتراثه القيّم.

وما التوفيق إلاّ من عند الله.

حسبي الله ونعم الوكيل.

الكوفة في يوم الخميس — **كامل سلمان الجبوري**

٩ ذي القعدة ١٤٢٤هـ — **مؤسس المتحف الوثائقي**

١ كانون الثاني ٢٠٠٤م — **لثورة العشرين في النجف ومديره سابقاً**

(كتاب النجف في ربع قرن منذ سنة ١٩٠٨)

توطئة

سوف نحاول ان نحدث القارئ في كتابنا (النجف في ربع قرن) احاديث ممتعة احاديث شيقة كان لا يجدها بل
تتقاعد عنها الكتاب عنها. ولا ندري ماذا سيكون اثر حديثنا عند خيال القارئ وفي قراءته نفسه غير انا نرجو في قلمنا
حيادية كما هو قائم بواجب مسؤولية علينا ما نأمل او نصل الى ما نصبو اليه
ولا يظنن القارئ انا سنستقصي كل الحوادث النجفية او انا سنعرض امامه كل الحوادث التاريخية والاجتماعية
والسياسية والحربية بصورة مستفيضة وبالبت ان نستوعب كل المستمسكات المبعثرة والمطوية والمنسلة من زوايا
الاهمال ليسهل على الباحث القيام بكل هذا الواجب الصعب المراس على انا سوف نذكر ما وقفنا عليه وندون ما تصل
اليه ايدينا وسنكشف للقارئ [illegible] اسرارا [illegible] اسرارا ورموزا طويت بين جدران
هذا البلد المقدس فلا يستطيع الباحث التعرف لها والوقوف على مكامنها اسرارا قصرت يد الادارة عن لمسها وضاق ذرع
السياسة عن الوصول اليها على حين ان الشباب النجفي يريد جهادا مضنيا لا هوادة فيه ولا اوقاتا يريد سبيلا واحدة
يسير معها الشباب صفوفا متراصة وكتلا متحدة لا تكل ولا تني غير مكترثة بما يقف امامها من العراقيل ولكن من
ابن الشباب النجفي ان يتصف ويتراص والقوم بين مشرق ومغرب من اين لهذا الشعب المهضوم ان يتفاهم مبدئيا
وقد عسرت عليه دراسته وطمس من ايامه ذلك وقد قيدت ايدي الوطن وحرمان من معرفة اهم مدنه (النجف)
وانت ايها الشباب النجفي هل تجد معاداة فلسطين؟ وتشعر بغير التعرف الى [illegible] غير اعطاء [illegible] قيمته
الاجتماعية واثره المادي والادبي في هذا الوطن [illegible] ان [illegible] الشعب الا ان [illegible]
او حدثت فالشباب في [illegible] ايها الشعب على [illegible] ذلك ان تقديم [illegible] الى اعادة البلاد وسيادته؟
[illegible] والاركان [illegible] فيكفيهم [illegible] لو كان [illegible] سلم الى [illegible]
[illegible]
[illegible] وانا [illegible] ان [illegible] الشباب [illegible]
[illegible] الوحدة الشعبية [illegible]
وستجد ايها الشباب النجفي [illegible] نقدمه هامة في [illegible] الشباب [illegible] المغرب [illegible]
[illegible] مسهبة [illegible] مواضيع [illegible] في المقدمة [illegible] النجف [illegible]
الماضية [illegible] النجف [illegible] الفصول
[illegible] النجف [illegible] الاعمال الجبارة

الصفحة الاولى
بخط المؤلف

محمد علي كمال الدين

ترجمته بقلمه

السيد محمد علي كمال الدين
مؤلف الكتاب

ولد السيد محمد علي كمال الدين في النجف سنة ١٩٠٠م تقريباً.

وتعلّم في الكتّاب.

ثم انصرف إلى الدراسة الانفرادية لفروع اللغة وعلم المنطق وأصول الحديث لدى جملة من الأساتذة، منهم: السيد سعيد، والسيد رسول كمال الدين، والشيخ حسين الحلي. ونجح في تلك الدراسة وتفوّق إلى درجة أن تتلمذ عليه فئة من الطلاب في قسم من تلك العلوم، وقد رافق تلك الدراسة الاتجاه إلى التجديد. فقد شرع بمطالعة الصحف والمجلات والكتب الحديثة المصرية منها والسورية والعراقية منذ الثانية عشرة من عمره تقريباً. وكان ذلك: أما في دار الكتب (قراءة خانة)، أو في المكتبة المرتضوية، أو مما يستعيره من كبار الأدباء.

وقد تعلّم شيئاً من التركية في المدرسة الرشدية المسائية في النجف.

وفي سنة ١٩١٩م غمرته الأعمال السياسية للقضية العراقية حتى اعتمد عليه الحزب النجفي السري فأوفده إلى بغداد كمندوب مفوض لمقابلة المرحومين محمد جعفر چلبي أبو التمن، والعالم السيد محمد الصدر؛ وذلك للحيلولة دون تشكيل ـ مجالس الألوية ـ التي عبّر عنها المحتلون بعربون الاستقلال.

ومن أعماله في الثورة العراقية سنة ١٩٢٠ مرافقة معسكر الثوار المرابط في جنوب شرقي الحلة، وقام بتسجيل مذكرات مهمة عن سير المعارك اليومية مدة بقائه هناك، وربما توفق إلى تأليف كتاب في الثورة العراقية، وعندما عاد من الجبهة اشترك هو والمرحوم السيد محمد عبد الحسين بإصدار جريدة (الاستقلال النجفية) بعد أن اشترط عليه الحزب أن يكون مشرفاً مسؤولاً عن كل ما يحرر فيها. وكان يقوم بمهمته في بناية الحزب فينظر في كل ما ينشر في الجريدة، كما يشرف على التصحيح بالرغم من أن السيد سعيد كمال الدين أبى عليه تسجيل اسمه في صدر الجريدة بحسب الأصول كمدير مسؤول ورئيس تحرير.

وقبيل سقوط مدينة الكوفة هرب هو وزملاءه وهم: المرحوم معالي سعد صالح، والشاعر الشهير السيد أحمد الصافي، والشيخ علي الكتبي. وكان هو والمرحوم سعد

متجّهين صوب الكويت حيث والده العالم المرحوم السيد عيسى كمال الدين المعتقل من قبل الانكليز هناك منذ الحرب العامة.

وبعد بضعة أشهر قضياها في الكويت تمكنا بمناسبة زيارة السيد طالب ـ وزير داخلية العراق ـ لابيه المرحوم السيد رجب النقيب، تمكنا من مبارحة الكويت إلى بغداد، وبشفاعة النقيب ووساطة المرحوم السيد عيسى والد السيد محمد علي.

وبعد الوصول إلى بغداد قبل المترجم له السيد محمد علي تلميذاً في (كلية دار المعلمين) بعد امتحان عسير. وتخرج فيها في حزيران سنة ١٩٢١[١]، ولما عينته الوزارة معلماً في النجف تعهد للوطنيين بالنجاح في تأسيس مدرسة أهلية تضم مدرستين مسائية ونهارية، فقام بكتابة مفردات العلوم التي تدرس فيهما، وبتنظيم الطلب إلى وزارة المعارف فوافقت على تأسيس مدرسة (الغري الأهلية) ـ سنة ١٩٢٢م، والمترجم له هو الذي أعلن افتتاح القسم المسائي، وهو أول من درس فيه، ونظم إدارة المدرسة متطوعاً.

وكان لتخرجه في دار المعلمين تأثير عملي في الإنصراف إلى الدراسات الحديثة المختلفة: العلمية منها والإجتماعية والأدبية والتربوية. وقد ساعدته سنّه ودراسته القديمة على القيام بعملية التمازج بين الثقافتين مع أستخلاص من مزيج صالح يلائم التطور الفكري السريع. كما ساندته الدراسة الحديثة على السير مع عجلة الزمن ومواكبة التيارات الفكرية، وقد ظهر ذلك بجلاء ووضوح في نتاجه الفكري، أي فيما نشر من بحوث دقيقة ومقالات، وما القاه من محاضرات وخطب، وفيما ألفه من كتب قيمة.

وقد رأينا قبل إلقاء نظرة على ذلك النتاج أن نقدم للقارىء نبذة من مقال كان باكورة نتاجه كتبه في أوائل سنة ١٩٢٠م في وقت لم يتجاوز فيه عدد الكتّاب العراقيين العشرين. وقد نشره في العدد الثامن مجلة (اللسان) في ص٢٢٠ وإليك أيها القارىء الصدر الأول من المقال قال ما نصه:

---

(١) عُين معلماً في المدارس الابتدائية فمديراً، ثم عُين مدرساً في المدارس الثانوية أستاذاً للأدب العربي فيها، وأخيراً ملاحظاً لمجلة المعلم الجديد، ثم احيل على التقاعد بطلب منه عام ١٣٧٩هـ/ ١٩٥٩م. وانجه إلى تكميل مؤلفاته وتهذيب كتاباته.

(سياحة خيالية في خيمة عمر الخيام)

دارُنا صاح خيمة في قِفار ذات بابين من دجى ونهارِ
ومقيل لكلّ غادٍ وسارِ

هاك فانظر آثار عشر مئات مثل جمشيد بعض تلك الرفات
فادنُ وانظر أطلال أربع بهرا م وكم من جاؤوا وجدوا ذهابا

دخلت خيمة الخيام من بابها الشرقي فما سرت وتخطيت أكثر من عدة صفحات من ديوان شعره إلا ورأيتني في دار هو أوسع دار حوت أنوار الحقيقة وأشعة الخيال فشاعت عيني نحو ما فيها، ووقع نورها الخافت الضيئل على آيات بينات، وحقائق ناصعة، ودُرر أشعار صافية، وغرر تخيلات باهرة. على أن عينيّ لم تكونا أوسع من عين السهى، ولكن لا بُدّ للصبح أن يتجلى لذي عينين.

وبصصت في أديم تلك الدار خطوطاً معوّجة وسطوراً غير منتظمة، وثنايا مُتفرّقة تدلُ كما يدل ما تكثر فيها من رفات مخلوق لا تعده المئات والألوف بينهم جماشيد وبهرامات بأنها بقايا قصور تمثلت فيها العظمة، وقد كانت تعلوها المقصورات بأساطينها الشاهقة البديعة وأروقتها الهندسية. وتضم في صدر ساحتها بدائع الأزهار، ومحاسن الأشجار لتمرح بينها الحور والولدان، ولكن الدهور ضربتها بمعولها فقلبتها ظهراً لبطن وعجزاً لصدر... إلى آخره.

وقد جرى الكاتب على هذا المنوال في عرض جملة أدوار من شعر الخيام مع تحليلها والضرب في خيالها وفلسفتها.

وقد آن أن نلقي نظرةً على مؤلفات المترجم له على ألاّ تتجاوز موضوعاتها والغاية من تأليفها:

١ـ كتاب (سعد صالح): وعنوانه يدلُ على أن موضوعه تاريخ حياة المرحوم سعد صالح. وقد طُبع ببغداد في تشرين الأول سنة ١٩٤٩م وهو كتاب قيم، سجل فيه تربية المرحوم، وتطوّر آرائه في السياسة والأدب والإجتماع، كما سجل ضمنا التربية والتطور الفكري في النجف ـ القديم منها والحديث ـ وقد قرض الكتاب زمرة من زملائه الوزراء كما قرضته الصحف المحلية.

٢ـ رسالة (أحاديث المثالية والواقعية): نشرت في أعداد من جريدة (الهاتف) للسنة

الثانية عشرة من عدد ٤٢٢ ـ ٤٣٠ بدأت بتاريخ ٢٦ تموز سنة ١٩٤٦م، وكان موضوع الرسالة نقض لمذكرتين كانت الأولى بعنوان: (مذكرة في مستقبل التربية والتعليم في العراق) وهي للدكتور فاضل الجمالي. والثانية بعنوان (تعليق على مذكرة في مستقبل التربية) وهي للأستاذ عبد الفتاح إبراهيم. والمترجم له نحا في أحاديث رسالته منحى المحاورات الأفلاطونية وكانت غاية هذه الرسالة هي تخطأة المناهج التربوية لعبد الفتاح الممعنة في اليسارية، وتخطأة مناهج الجمالي الضاربة في اليمين. ثم اختار طريق وسط بين المنهجين يأخذ منها بالصالح الملائم للوضع العراقي.

٣ـ **كتاب (النجف في ربع قرن)**: نُشر منه بعض ما يختص بالثورة النجفية ضد الاحتلال في مجلة (البيان) النجفية[١]. وهو يتناول حياة النجف العامة منذ سنة ١٩٠٥م حتى سنة ١٩٣٠م. وقد حوى من الأعمال والحركات السياسية والفكرية ما يعلي شأن العراق عامة والنجف خاصة[٢].

٤ـ **كتاب (رسالة الأمة العربية، أو أعمدة الحكمة السبعة)**: نُشر قسم منه في أعداد مجلة (الإعتدال) للسنة السادسة. كما نُشر بعضه في مجلة (الغري) لسنتها العاشرة. والكتاب يعطي صورة صادقة لاخلاق العرب، وللعوامل المباشرة في النهضة التي قاموا بها.

٥ـ رسالة (في تيسير اللغة العربية): سبق للمؤلف أن نشر بعض آرائها في جريدة (العراق) للسنة التاسعة عشرة في كانون الثاني سنة ١٩٣٩م، وكان المنشور على صورة تقرير يُراد به مُعارضة اللجنة التي ألفتها وزارة المعارف المصرية. والرسالة تتضمن آراء نافعة وبعضها مبتكر وهي ترمي إلى تيسير اللغة نفسها لا إلى تيسير قواعد اللغة خاصة، كما عليه تقرير اللجنة[٣].

٦ـ **رسالة في تلخيص وتنسيق (مرشد المتعلّم)** المعرّب عن كتاب إنكليزي شهير من قبل الأستاذ الغمراوي المصري. وتقع الرسالة في خمس وعشرين صفحة من القطع الكبير.

---

(١) السنة الأولى ١٩٤٦م.
(٢) هذا الكتاب.
(٣) طبع عام ١٩٦١م.

والمطّلع على الكتاب وما هو عليه من الغموض القاتم والتشويش المنهك الممل يدرك فضل ما قام به محمد علي كمال الدين من جهود بحيث أصبحت آراء المؤلف سهلة على كل مطالع، والرسالة غير مطبوعة.

٧ ـ **رسالة (في الإجتماع)**: وهي مدرسية تطابق مقرر السنة الثالثة للمتوسطات. أملاها على طلابه دروساً، وهي حوالي الستين صفحة من قطع الربع، وغير مطبوعة أيضاً.

٨ ـ **رحلة (إلى سورية ولبنان)**: طبع بعضها في جريدة (الغروب) في العدد ٢٦ بتاريخ ٣ كانون الثاني سنة ١٩٣٥.

٩ـ **كتاب (في علم المنطق)**: **ألّفَهُ** سنة ١٩٢٨ ـ ١٩٢٩م، يراعى فيه أمرين: أن تكون اللغة سهلة، وأن تكون الأمثلة التطبيقية من واقع الناس وشؤونهم الحياتية وهو غير مطبوع، وتوجد منه ما عدا نسخة المؤلف نسختان، واحدة لدى الفاضل عبد الغني الحكيم من أهالي (علي الغربي)، والثانية لدى أحد المحامين ببغداد[1].

وللتدليل على غزارة علم المترجم له رأينا أن نسوق أمثلة ناطقة من كتاباته لتكون

---

(١) وله أيضاً كتاب (**التطّور الفكري في العراق**)، طبع عام ١٩٦٠م ضمن آراءه الخاصة بالحركات الفكرية والاجتماعية التي طرأت على العراق منذ مطلع القرن العشرين حتى قيام ثورة ١٤ تموز ١٩٥٨م.

كما طبع له ذكرى (السيد عيسى آل كمال الدين) عام ١٩٥٧، جمع فيه المقالات والقصائد التي قيلت بمناسبة مرور أربعين يوما على وفاة والده، مع مقدمة إضافية عن حياته وجهاده، وله أيضاً (المعلومات المدنية) مجموعة محاضرات ألقاها على طلابه في المدارس الثانوية أثناء توليه تدريس مادة (التربية الوطنية)، لعلها هي (رسالة في الاجتماع) الواردة تحت رقم (٧) في مؤلفاته، أما كتاب (**معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى**) والذي نشره المرحوم علي الخاقاني مستعيناً بالمرحوم الأستاذ كاظم المظفر على إعداد الكتاب للنشر، وقد تعدّت مهمة الناشر الرئيس ومساعده حدودها التي رسمتها لها قواعد النشر العلمي، تلك الحدود التي تفرض عرض النص الأصلي بالشكل الذي أراده المؤلف دون زيادة أو نقص. ومن خلال تصفحنا للكتاب، نقرر على سبيل الترجيح لا الجزم، ان دور الناشر الرئيس وهو الخاقاني تعدى حدود النشر المعتادة سواء كان ذلك بالإضافة إلى النص، أو الحذف منه، أو إعادة تنسيقه، أو تزويده ببعض ما ورد فيه من صور ووثائق، وربما الأغلبية العظمى منها، وما إلى ذلك مما لا يخفى على المختصين من قرّاء الكتاب بصورته التي وصلت إلينا. ومهما تكن نسبة الإضافات كثيرة أو قليلة فهي غير مباحة في نظر أهل صناعة التحقيق والنشر العلميين.

إن المادة الأساسية لهذا الكتاب هي «**مذكرات السيد محمد علي كمال الدين**» التي قمت بالتقديم لها والتعليق عليها وقد طبعت في بغداد عام ١٩٨٦م. وللمقارنة يمكن مراجعة نشرة الخاقاني ص٧ ـ ١٣٢ مع نشرتنا للمذكرات.

مسك الختام، وهذه هي:

١ـ من مقال له تحت عنوان: **(التطور الفكري في النجف)** المنشور في العدد الأول من مجلة (الإعتدال) للسنة الثانية، قال:

كان لعهد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م رجّة عنيفة، وصدمة قوية للفكر القديم.

ومما قاله:

ولكن هل كانت للفكر القديم قابلية لذلك الانفلات! هل كان للفكر القديم استعداد للانعتاق! وما هي تلك المُلابسات لهذ الإستعداد وتلك القابلية! وما هي تلك المؤهلات!

نعم، كان للفكر القديم مؤهلان أساسيان لبعث القابلية والاستعداد، هما:

أولاً: تحديد التقليد الروحي الديني وتقييده في الفروع الدينية فقط من ناحية العامة المقلّدة.

ثانياً: سعة باب الاجتهاد في الدين وإطلاقه من ناحية الخاصة فيما عدا أصول العقائد، فكان للعامة مجال النظر والمناقشة والبحث والاستنتاج، فالأخذ برأي خاص وبنتيجة ترضي رغبة العاطفة وتسد حاجة الوطنية. وكان للخاصة والمجتهدين مجال أوسع وسبيل معبدة توقف معها النظريات الدينية مع الآراء المستحدثة على إختلاف ألوانها وأنواعها، سواء السياسية منها أم الفلسفية، الاجتماعية، أم الأدبية.

ومن هنا يعرف القارىء عوامل سرعة تطور الفكر النجفي وانطباعه بالطابع الجديد، وأيضاً يعرف توغل ذلك التطور وتخلل جميع الطبقات على العموم، وما دام في التجدد لذة للنفس، وما دام في التطور متعة للعاطفة، ومدام التطور لا يعاكسه الدين أو يحاربه؛ فماذا يمنع الشيوخ أن يعتنقوه ويأخذوا بمستحدثاته فضلاً عن الكهول والشبان؟!

ألم تكن ضرورة الحياة وناموسها الأعظم تدفع إلى هذا التطور؟!

ألم تكن قابلية التحول الطبيعية في الإنسان تدفع إلى هذا التجدد...» إلى آخره؟!

٢ـ ومنها مقال تحت عنوان: **(تطور علم الكلام في رسالة إنقاذ البشر من الجبر والقدر)** للشريف المرتضى المتوفى سنة ٤٣٦هـ نشرها في العدد ٢٢٠ من مجلة (الرسالة المصرية) للسنة الخامسة بتاريخ ٢١ سبتمبر ١٩٣٧ قال الكاتب:

«قال الشريف: وأعلم أن أول حالة ظهر فيها علم الكلام وشاع بين الناس في هذه الشريعة، وهو أن جماعة ظهر منهم القول بإضافة معاصي العباد إلى الله سبحانه؟ وكان الحسن بن أبي الحسين البصري ممن نفى ذلك، ووافقه في زمانه خلق كثير من العلماء كلّهم ينكرون أن تكون معاصي العباد من الله، منهم محمد الجهني، وأبو الأسود الدؤلي، ومطرف بن عبد الله، ووهب بن منبه، وقتادة، وعمر بن دينار، ومكحول الشامي، وغيلان وجماعة كثيرة لا تحصى، ولم يك ما وقع من الخلاف يومئذ يتجاوز باب إضافة معاصي العباد إلى الله ونفيها عنه وغيره من هذا الباب». انتهى كلام المرتضى.

وقد حلل الكاتب فقرات المرتضى بأن وفاة أبي الأسود سنة ٦٩هـ، تدل على أن نظرية النفي سبقت ذلك، ومثلها نظرية نسبة المعاصي لله، ودللّ بنظرية الخوارج بتكفير ذوي الكبائر ومنهم الصهرين بعد حوادث مقتل عثمان، وحروب الجمل وصفين. ومما قاله الكاتب في نظرية علماء النفي ما هذا نصه:

«أما علماء النفي فيظهر لنا أن المرتضى يرى أنهم جمع غفير من السلف الصالح، فإنه بعدما ذكر سلسلة صالحة من التابعين ألحقها بقوله: مع جماعة كثيرة لا تحصى، والمنطق يحكم في ذلك، فإن من سواد الأمة، ورجال العمل فيها مسوقين طبعاً؛ لرفض نسبة معاصي العباد إلى الله، ذلك القول الذي ينفر منه الحس ولا يقبله العرف، فقد عسر على فهم الناس، الإذعان بأن الكفر والفسق وسائر الإجرام التي ترتكبها العصاة عادة أن تنسب إلى الله وهو في الوقت نفسه العادل الرؤوف الرحيم. فكان رأي هؤلاء القول بالعدل وأنهم ينفون أن تنسب معاصي العباد إلى الله.

ويضيف المرتضى إلى ذلك أنه لم يكن في ذلك الدور الذي حصرناه بين ٦٠ ـ ٩٠هـ غير بحث المعاصي نفياً وإثباتاً».

٣ـ وله محاضرة تحت عنوان: (علم أمير المؤمنين) ألقاها في جميعة المنتدى في النجف بمناسبة أسبوع الإمام، وقد طبعت في مجموعة بعد أن صدرتها لجنة الجمعية بكلمة تقدير قيمة نرى أنها صادفت محلها.

وقد تضمّنت المحاضرة أن الإمام تفرّغ إلى رئاسة جامعة المدينة المنورة، بما ضمت إليها من أكابر العلماء من أسرى روما وفارس وسورية ومصر والعراق مدة تزيد

على خمسين عاماً، ثم لخص الكاتب ألوان علم الإمام في صنفين: الإلهيات والدولة؛ وعرض في الدولة أموراً مهمة، منها: نقل العاصمة إلى العراق المتحضر. ومنها: ضرورة وجود أمير في الدولة بر أو فاجر. ومنها: أن بيت المال ملك للأمة لا للخليفة نفسه.

أما في الإلهيات فقد عرض أبحاث القضاء والقدر والوجود والصفات. ونحن نسجل قسماً من بحث المحاضر في إثبات الخالق من طريق بحث الوجود الفلسفي، ففي خطبة له[1]، قال: (كائن لا عن حدث موجود لا عن عدم).

وفي خطبة أخرى[2]، قال: «الحمد لله الذي بطّن خفيات الأمور، ودلّت عليه أعلام الظهور، وامتنع عن البصير، فلا يمن من لم يره تنكره، ولا قلب من اثبته يبصره».

وأيضاً من خطبة له[3] قال: «الحمد لله الذي لم تسبق له حال حالاً فيكون أولاً قبل أن يكون آخراً، ويكون ظاهراً قبل أن يكون باطناً».

وفي خطبة له[4]، قال: «الأول الذي لم يكن له قبل فيكون شيء قبله، والآخر الذي ليس له بعد فيكون شيء بعده، والرادع أنسي الأبصار عن أن تناله أو تدركه».

ومن خطبة له، قال: «ليس لأوليته ابتداء، ولا لأزليته أنقضاء، وهو الأول ولم يزل، والباقي بلا أجل».

سادتي: في هذه الأمثلة القيّمة من خطب أمير المؤمنين نجد منهج الفلاسفة في إثبات الوجود بارزاً، وذلك في كينونة واجب الوجود، وأنه غير حدث متأثر بالزمان، وأن وجوده الذاتي غير مسبوق بالعدم، فإن كل هذه معان ومسالك فلسفية.

وكذلك قوله: أن أعلام الظهور وسمات الوجود تدل على وجوده إلى درجة أن عين من لم تره لا تنكر وجوده، وكذا عقل من لم يبصره.

---

(١) ج١ ص٢٥.
(٢) ج١ ص٢٩٢.
(٣) ج١ ص٤٧١.
(٤) ج٢ ص١٣٨.

ولم يقتصر أمير المؤمنين في بحثه الفلسفي على إثبات الوجود، بل تعدّاه إلى إثبات الوجوب لهذا الوجود كما يفهم من قوله: العدم سبق حالته حال أخرى، فإن معنى ذلك أنه تعالى لم يسبق بالعدم.

وكما يفهم أيضاً من بيانه أنه تعالى لم يسبق سابق في أوليته، ولم يلحق لاّحق في أخريته، غير أن أمير المؤمنين سلك مسلك الإستقرار لا مسلك الاستنتاج أخذ به الفلاسفة.

٤ـ ومنها: أي آثار المترجم له. مقال افتتاحي خطير نشر في جريدة (صوت الأحرار) بتاريخ ٢٦ أيار سنة ١٩٤٦ تحت عنوان (عهد الطغيان وعهد التحرر) بدأه بقوله:

«لم يعهد هذا البلد العاج بالكرامة أغوالاً مرعبة، وأشباحاً مخيفة متجسدة في بعض أبنائه قبل خمس عشرة سنة، ولم يكن من أبنائه من عظم طغيانه وتضخّم جسمه، وفرش منخريه ليخيف أبناء هذا البلد المطمئن إلى عزته».

ومما جاء فيه:

«وقد ملأوا أجواء السماء ـ سماء الوطن ـ في تلك السنين العجاف، وبغيوم مدلهمة من التخويف والترهيب، وهم في خلالها يكشّرون عن أنياب الأغوال الآثمة، ويسطون ببراثن الطناطل حتى أوشك أن يعود إلى مخيلة الأمة المرهفة الحساسة، ذلك البيع الذي طمسته الأيام من هواجس أغوال القرون الوسطى المنبعثة من الصحراء. . .» إلى آخر المقال.

٥ـ ومنها: محاضرة القاها في (نادي البعث) ببغداد تحت عنوان (أحاديث في القومية) ونشرتها جريدة (اليقظة) في الأعداد ١٠٤٦، ١٠٤٧، ١٠٤٨ بتاريخ ١٤ شباط سنة ١٩٥١م، نقتطف بعض ما جاء فيها، قال:

«نحن نرى أن للقومية لونين: عاطفياً وعقلياً؛ أما النوع العاطفي: فهو الذي يستقر في بؤرة الشعور بحيث لا يبقى للعقل ذلك التأثير والسلطان، وإنما يكون السلطان للخيال والوجدان والإرادة وربما تجاوز ذلك إلى اللاشعور فتتكون عند ذلك طبيعة

لا ارادية تتجاهل العقل والمنطق، وتتجلى ظاهرات هذه العاطفة بميلنا الشديد وتضحياتنا الغالية في سبيل أبناء قومنا أينما حللنا وارتحلنا، ولكن هذه العاطفة لا تتأصل إلا بعد توالي طبقات عديدة في قرون ودهور وهي التي ندعوها بالقومية الطبيعية، ذلك أنها طبيعة القوم التي يتميز بها عن الأقوام الآخرين كما يتميز الإنكليزي عن الفرنسي، ويتميز هذان عن العربي والتركي والفارسي على أننا نرجح أن صفة ذا التمييز لا تفسر بما يسمونه بالجنس والسلالة والرس ولا بالسحنة وحجم الجمجمة وثقلها ومقاييسها المصطنعة، وإنما هي وراء ذلك، هي فطرة خاصة لما يوضح العلم حدودها بعد. وكل ما نعرفه أنها ظاهرة لعدة روابط طبيعية تتصل بالبيئة والمناخ والاقتصاد والتغذية والسكن والازياء والرحم والولاء والالحاق والمصاهرة والتعاهد».

ومنه قوله:

«النوع الثاني هو فكرة القومية بمفهومها واصطلاحاتها العلمية الحديثة، وهي لا تخرج عن كونها ظاهرةً اجتماعيةً تستند إلى عدّة روابط اجتماعية أهمها المصالح المشتركة.

وهذه المصالح تتصل بالكتل المرتبطة في ملكية الأرض، والغرض منها التعاون على حفظ النظام وقيام العدل، وتدوير السياسة، وصيانة الواجبات الحقوق الفردية والاجتماعية وتنظيم الحياة الاقتصادية، ولكن لا يدين بهذه الفكرة أو يأخذ بهذه الظاهر إلاّ الواعون وهم الطبقات والأفراد الذين تتوفر لديهم جملة عوامل أهمها: . . .».

ومن المحاضرة قوله: «لقد آن أن نبحث عن القومية المُثلى لتكون نبراساً لنا في هذه الحياة؛ إنني أرى أن أمثل القوميات هي التي تمكّنت من المحافظة على القوميتين ولائمت القومية الطبيعية مع طابع القومية الاجتماعية وتمسكت بخصائص القوميتين جميعاً، ولا يحصل ذلك إلا بتمسك الأفراد والجماعات بعدة نواميس طبيعية، والأخذ

بنواميس أخرى اجتماعية أمثال نواميس التطور والتماثل الاجتماعي والأخلاقي والعاطفي. . . إلى آخر المحاضرة».

٣٠/ ١٢/ ١٩٥٣ — محمد علي كمال الدين[١]

---

(١) توفي ببغداد يوم الاثنين ١٦ شوال ١٣٨٥هـ/ ٧/ ٢/ ١٩٦٦م. فحمل إلى النجف فدفن فيها، ورثاه أصدقاؤه وعارفوه.

وقد أرخ وفاته الشيخ علي البازي بقوله:

محمد العلي مذ غاب له ... تجاوبت محافل التأبين
وأنكلت لفقده مدارس العلوم والتدريس والتدوين
فذا لسان الحال عن أسرته ... فيه يعزي سادة التكوين
لمن يسل تأريخه: (نجيبه ... ننعى افتقاد ابن كمال الدين)

كما أرخ وفاته العلامة السيد محمد حسن الطالقاني بقوله:

قضى عليٌّ والمعالي معاً ... وافتقد الفضل به ربّه
وأضحت الفصحى تنادي أسًى ... مضى الذي ملكني قلبه
صيّرها ثكلى وقد راعها ... أن لا ترى في رهطه شبهه
ومذ أصيبت بالقنوط انثنت ... سائلة عن فقده صحبه
هل راع هذي الناس ما راعني ... أرخ: (بلى قد أكبرت خطبه)

النجف
في ربع قرن

منذ سنة ١٩٠٨

تأليف
محمد علي كمال الدين

تحقيق وتعليق
كامل سلمان الجبوري

النجف في ربع قرن
منذ سنة ١٩٠٨م

توطئة:

سوف نحاول أن نتحدث للقارىء في كتابنا (النجف في ربع قرن) أحاديث ممتعة، أحاديث شهية لكن لا لجدتها، بل لتقاعد قلم الكُتّاب عنها، ولا ندري ماذا سيكون أثر حديثنا عند خيال القارىء أو في قرارة نفسه، غير إنا نهمز في قلمنا جادين، كباحث قام بواجب عسى أن نبلغ ما نأمل، أو نصل إلى ما نصبوا إليه، أمامه كل النواحي التاريخية والإجتماعية السياسية والحربية بصورة مستفيضة.

ويا ليت أن تستخرج كل المستمسكات المبعثرة والمطوية فتنشل من زوايا الإهمال ليسهل على الباحث القيام بمثل هذا الواجب الصعب المراس على إنا سوف لا ندخر وسعاً في تدوين ما تصل إليه أيدينا، وسنكشف للقارىء أسراراً لا نبالغ لو رأينا إستحالة كشفها أسراراً ورموزاً طويت بين جدران هذا البلد المقدّس، فلا يسع الباحث التعرف عليها والوقوف على مكانها، أسراراً قصَرت يد الإدارة عن لمسها، وضاق دماغ السياسة عن الإحاطة بها، على حين أن الشباب الشعبي يريد نهجاً واضحاً لا عوج فيه ولا أمتاً، يريد سبيلاً واحداً يسير معها الشباب صفوفاً متراصةً، وكتلاً متحدةً لا تكلّ ولا تني، غير مكترثة بما يوضع أمامها من العراقيل، ولكن من أين لهذا الشباب الشعبي أن يتصفف ويتراص؟ والقوم بين مشرّقٍ ومغرّبٍ.

من أين لهذا الشباب الشعبي المعصوم أن يتفاهم مبدئياً؟ وقد عسرت عليه دراسة وطنية.

من أين له ذلك وقد قصر شيوخ الوطن وأركانه عن معرفة أهم مدنه (النجف).

وأنت أيها الشاب الشعبي هل تجد منجاة تطمئن إليها، وتعتصم بها غير التعرف إلى بعضنا، غير إعطاء كل منا قيمته الاجتماعية وأثره المادي والأدبي في هذا الوطن. فأنا أن بحثت وتشرت فإليك أيها الشباب الشعبي، أنا أن قصصت أو حدثت إلى

الشباب في نواديك أيها الشعبي، على أني لا أرى في ذلك خلفاً لتقديم كتابي إلى عاهل البلاد وسيدها.

أما السادة الشيوخ الأبطال الأشاوس، والأركان المضحون، فيكفيهم من التعظيم والإكبار، ولو كان لدينا سُلّم إلى السماء لاصعدناهم إليها، لو كان لدينا جنة عدن لما فاتتهم مقاصيدها، لو كان لدى الشباب أو لدى أخيه الفلاح قصور لاحللناهم علاليها.

وأملنا من خطراتهم أن تتم راحتهم، وأن يطول هدوئهم كي يدعو الشباب يعمل لمستقبله متمسكاً بالوحدة الشعبية تاركاً وراءه غمزات الماضي ولمزاته.

أملنا فيهم أن يطووا صحف التاريخ الصفراء.

وستجد أيها الشباب الشعبي كتابنا هذا يضم بين دفتيه مقدمة هامة في تاريخ النجف السياسي للقرن الثالث عشر الهجري، وعدة فصول مسهبة تتضمن أبحاثاً ومواضيع طويلة، وستجد في المقدمة طابع النجف وكيانه وأخلاق سكانه، وحوادثه الماضية، إلى ما هنالك من الأبحاث التي تصوّر (النجف) وتُثير أمام القارىء قيمة (النجف) الحقيقية. كما ستجد بين طيّات الفصول محكمات ثمينة، وأقيسة صحيحة، واستقصاء دقيق عن أعمال الرجولة والبطولة في النجف، مع نتائج تلك الأعمال الجبارة.

النجف الأشرف (شعبي)

مقدمة الكتاب

فكرة عامة عن النجف
في القرن الثالث عشر الهجري

١ ـ نشأة النجف، مركزها، طابعها.
٢ ـ النجف والوهابية.
٣ ـ النجف والسياسة.
٤ ـ النجف ودور التكامل.
٥ ـ ظاهرة انصداع الوحدة النجفية.
٦ ـ حائل، طريق النجف الاقتصادي.
٧ ـ الحكم العثماني في النجف.
٨ ـ النجف والهجرة الأجنبية.

مقدّمة الكتاب

فكرة عامة عن النجف
في القرن الثالث عشر الهجري

١ـ نشأة النجف، مركزها، طابعها:

نشأت النجف في أحضان السياسة الدينية، فنالت مركزاً دينياً سامياً بين مدن العالم الإسلامي، واحرزت مكانة سياسية ممتازة بين مدن العراق، كما حصلت بموقعها في رأس هضبتها العالية على كيان سام.

فقد كوّنت في نهاية طف الحماد شبه مسناة إلى وادي بحيرة النجف المنخفضة عنها، وكانت هضبة النجف حصن الفرات الحصين تحميه بمنعتها الطبيعية، أو أنها كانت حدّاً طبيعياً يفصل صحراء نجد والجزيرة عن الفرات كما يزعم ذلك النجديون، بل هي مفتاح الفرات الأوسط ومنها مدخله، طالما اصطدمت صخرة النجف القاسية مع غزاة نجد فلم يطيقوا ذلك الاصطدم وولوا الأدبار، وربما كانت مناعة هذه الهضبة الطبيعية أقوى عوامل تكوين مدينة الحيرة التاريخية في جنوبها الشرقي، ربما كانت هي الباعث إلى أشادة قصر الخورنق، وهي المساعد على انتشار الأديرة وقصور الرهبان هنا وهناك في النجف وحواليها قبل الفتح الإسلامي، وقد تكون هذه المنعة هي الدافع للمناذرة على اتخاذها حماهم ومعتصم إمارتهم.

لا ينكر أن هضبة النجف هي المركز الحربي المنيع القائم أمام سيل جيوش الجزيرة المنهمرة، يحول بينها وبين العراق ووادي الرافدين، وربما كان وقوف راحلة الجيش الإسلامي عندها وضرب أطنابه في كوفتها واتخاذها مركزاً لحركاته الحربية من الأدلّة الساطعة على منعتها الطبيعية، وقد تمثلت منعة النجف في بسالة سكانه وقاطنيه، أولئك السكن الذين نجهل أن معظمهم أولسنا في صدد البحث إلى أي القبائل يمت هذا السكن الكريم بأصله، ونحيل هذا البحث إلى علماء النسب، ولكن السنن الاجتماعية في سكنى المدن وتحضيرها تقضي بأن السكن النجفي أما من بقايا أهل الحيرة وقصور

الرهبان المندرسة، أو منها ومن الكوفيين وجوارهم من القبائل العربية قبل الفتح وبعده.

وعليه لا غرابة إذا حمل النجفي من العروبة شهامتها وفضيلتها وتورث شمم آبائه وكرم طباعهم، كما ليس من بدع إذا إحتفظ النجفي من العراقية والشعبية الصلابة عودها ودهائها ومدينتها المتقادمة.

وكان حقيق بأبن بطوطة الرحالة الشهير أن يعرض في رحلته مدينة النجف والنجفيين، وحقيق بالنجف اليوم أن يفخر بإطراء ابن بطوطة ببلده منذ أكثر من ستة قرون. وقد تمثل في الطابع العربي والعراقي طيلة تلك الحقب والأجيال.

وكان للنجف لوقوعها في طرف العراق وابتعادها عن مجازر الملوك الفاتحين والبرابرة المكتسحين كان لها أن تنمو في الإرادة، ويتأصل في نفسية السكان بذر الإستقلال الذاتي وحبّ الحرية المطلقة حيث لم يغمرها سيل الاستبداد، استبداد الحكومات في العراق، وجل ما يستنتجه الباحث في الشذرات التاريخية وفي سير العلماء والصالحين ـ وأكابر المصلحين عن النجف وعن الحكومات التي حكمتها ـ أن السلطة التنفيذية كان زمامها غالبا بيد سدنة الحرم العلوي المطهر؛ ومن هذا النوع حكومة الملالي التي انقرضت على عهد الملا يوسف في العقد السادس للقرن الثالث عشر الهجري، ولم يكن العامل على انقراض صورة الحكومة العثمانية التي بدأت في أواخر حكومة الملا يوسف، بل هناك عوامل جمّة أهمها: انشقاق سكان النجف، وانقسام وحدتها إلى الزگرت والشمرت إذْ لم يكن لممثل الحكومة العثمانية في النجف أي مساس في جميع شؤونها، بل كانت حكومة الملا يوسف تضطلع بإدارة شؤونها بنفسها سواء الداخلية منها أو الخارجية، فهي تحكم معاهداتها وتعقد روابطها مع بدو الجزيرة والقبائل العراقية المجاورة لتحفظ طريق القوافل التجارية بينها وبين الشام من جهة، وبينها وبين الجزيرة من ناحية أخرى، كما تؤمن طريق الحج ذلك الطريق الذي لا يسير قطاره إلا ويسوقه ويحدده السائق والحادي النجفي والنجدي معاً.

ومن شدة أواصر الإتصال والإرتباط بين النجف والجزيرة نجد أن الشبه ظاهر بين نشأة النجفي ونشأة ابن الجزيرة المبتنية على أساسين هامين:

أولهما: البأس والمغامرة.

وثانيهما: الجود وكرم الخلال، فيرى الزعيم النجفي شاهراً حسامه بيمناه، وناشراً الرغيف للضيوف بيسراه. ومن ورائه القوة، قوة البلد وصلابة القوم والعشير، ولولا هذه الخلال النجفية، ولولا هذه الخصال الحميدة البارزة، ولولا تلك العوامل الطبيعية التي ذكرنا لاستحال على النجفي المحافظة على بلده من غزاة الجزيرة طيلة القرون الأخيرة على حين إنعزال النجف عن العراق على حيث أنها على طريقه إلى قلبه إضافة إلى التباين المذهبي بين عرب النجف ونجد.

٢ـ النجف والوهابية[1]

ناهيك في كيان النجف وقوتها ما لاقته منها جيوش الوهابية التي غمرت سهول الجزيرة وهضابها، وخضع لها ولسلطان آل سعود كل أمارات الجزيرة العربية تقريبا. فقد بدأت الوهابية تصفية حسابها مع الجزيرة وقبائلها، وبعد انتهائها من هذه التصفية زحف غزاتها على الأطراف فاكتسحوا أولاً بلاد الإحساء، وأرعبوا إمارة الكويت، وفشل سليمان باشا والي بغداد عن إسترداد الإحساء رغم قوة حملته وعدّته ومدافعه، فنشطت الوهابية من عقال، وزاد طمعها، فزحف جيشها المنتصر على العراق تحت قيادة الأمير عبد العزيز السعود فاكتسحت كربلاء المقدسة ونهبت القبر المقدس، وعبثت به، وذلك سنة ١٢١٦هـ الموافق ١٨٠٢م، وقد إريقت دماء سكانها في الأسواق حتى قيل أن عدد قتلاها الأبرياء بلغ الأربعة آلاف، ثم ساقت هذا الجيش الوهابي سورة الظفر، فعرج إلى النجف، أو أنه قصدها تنفيذاً لخطة دُبِرت، ولكنه وجد النجفيين على أتم استعداد للدفاع، فاضطر أن يضرب في عرض الجزيرة.

وقد علّل صاحب كتاب «تاريخ نجد الحديث» أسباب إحجام الجيش الوهابي بوجود بحيرة النجف حينذاك، ولكن لا ندري كيف يوفق هذا التعليل، مع استئناف الوهابية هجومها على النجف بعد أربعة أعوام، والبحيرة لما تزل، ولو عرف حضرته إن بحيرة النجف تشغل جنوب النجف فقط لتجنب هذا التعليل، والحقيقة التي يعرفها

---

(١) حول هذا الموضوع، انظر: «العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية» للشيخ جعفر كاشف الغطاء ص١٠٨ ـ ١١٧.

النجفيون أنهم صدموا جيش الوهابية من جهة (الجبانة)، وغنموا منه واضطروه على الرحيل عن النجف رغم ذهب القبلة العلوية الوهاج، ورغم سورة الظفر والطموح إلى الاستزادة من الغنم الثمين.

وكانت فاجعة كربلاء أهم خطيئة سياسية ارتكبتها الوهابية ضد الشيعة من ناحية، وضد الحكومة من ناحية أخرى، فاستأنف سليمان باشا تأليف جيش جديد ولكن الثورة الكردية الطارئة عرقلت زحفه، وتألبت إيران الشيعية، وأعد فتح عليّ شاه حملة يبلغ مائة ألف محارب لغزو الوهابية في عقر دارها، ولكن حرب الروس المفاجئة أوقفت زحف الحملة.

أما النجف فقد أصبحت بركاناً ثائراً تتنسم أخبار الوهابية لكن الوهابية ولّت وجهها شطر الحجاز لمصادفة موسم الحج.

وفي سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م خدمها الطالع بإستيلائها على مكة المكرمة، وهدمت أضرحة الأولياء، وأنتهبت جميع التحف والنفائس المودعة في بيت الله الحرام، فكان مثلَها مثلَ من بال في بئر زمزم، لذلك عظم شأنها، وطار صيتها، وإستفحل أمرها، وأمر مذهبها الوهابي، غير أنهم رغم الظفر لم يستطيعوا النوال من المدينة المنورة، ولكنهم كرّوا على مدينة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم سنة ١٢٢٠هـ/ ١٨٠٥م، وتمكنوا من إكتساحها فهدموا قبور الأولياء من بينها قبر أئمة البقيع عليهم السلام، وإنتهبوا جميع ما في الحرم النبوي من الجواهر والتحف وباعوها بالمزاد العلني. فكانت هذه الانتصارت المتتابعة أكبر مشجع ومحرض لجيش الوهابية على الكرّة لسحق النجف.

وفي سنة ١٢٢١هـ جهز الأمير سعود العبد العزيز وقاد حملة هائلة وكبس بها النجف فجأةً وبيّاتاً فصدّهم الخفراء، واستيقظت الحفيظة النجفية، فجالدهم الأبطال وأخرجوهم من البلد فمكثوا على حصارها أياماً فلم يجدوا لهم منفذ ضعف ولم يفوزوا ببعض ما يحلمون، وبيناهم مصممين على إطالة مدة الحصار ضربتهم فرسان خزاعة في أقفيتهم فولّوا منهزمين يحملون عار الإنكسار، غير أنهم قصدوا مدينة (السماوة) فجالدهم أهلها، وكان نصيبهم منها نصيبهم من النجف، ولو سألنا الجيوش الوهابية لماذا هاجمت النجف بيّاتاً ولم تجهر بالهجوم نهاراً؟ لماذا لم تبدأ النجف في زحفها؟ لحارت ولم تجد لها عذراً مبرراً غير الخشية من بسالة النجفيين المعروف.

عاد جيش الوهابية إلى نجد يسوقه الخذلان وتحدوه الهزيمة، فلم يطل صبر أميره على عار الفشل. وقاد سنة ١٢٢٢هـ حملة تقدر في عشرين ألفاً من المقاتلين (وهذا العدد الضخم يساوي ضعف نفوس النجف العام حينذاك تقريباً) فحصن النجفيون سورهم، وأحاطوه بالمدافع والبنادق ذات الفتيل، وفاجأها الجيش الوهابي ليلاً كما هي عادته فلاقى منها ناراً حاميةً، اضطرته على تركها، ومنها زحف على مدينة (الحلة) فوجدها موصدة الأبواب على أشد ما يكون من الإستعداد لنضاله فتجنبها، وقصد كربلاء التي جرأته على الاستهانة بها لأول مرة فحاصرها نهاراً حصاراً شديداً وحاربه أهلها من أعلى السور إلى أن عجز عن فتحها، غير أنه في طريقه عاث في القرى والمزارع فساداً وقتل كثيراً من الفلاحين.

ثم زحف صعدا إلى شمال الفرات علّهُ يسد بعض جشعه أو يلطف عن خذلانه، وتمكن من اكتساح مدينة (هيت) وسرعان ما تمذهب أهلها بالمذهب الوهابي، سيّما قبيلة عنزة لأ حيث تجمعها مع عائلة السعود رابطة النسب والقبيل.

وقد استحكمت مبادىء الوهابية في نفوس عنزة بعد مدة وجيزة حتى عمدت قبيلة عنزة بدورها إلى الزحف على الأماكن المقدسة منذ سنة ١٢٢٥هـ وعسكرت بجيوشها بين النجف وكربلاء أيام زيارة شعبان وقطعت السبل، وحصرت البلدين، وأنتهبت قوافل الزوار من العجم، وحُجز قسم منهم في الحلة حيث الطريق منها إلى النجف وكربلاء حينذاك، فلم يفوزوا في زيارة العتبات المقدسة، ومع ذلك لم تتمكن عنزة من البلدين، وعادت إلى منازلها.

يرى القارىء من تعدد الزحف على النجف وتعاقبه يصحبه الفشل.

إنّ النجف برهنت على منعتها وقوة شكيمة أهلها، ولذلك حددت للجيوش الوهابية حداً طبيعياً هو دون هضبة النجف إلى الجزيرة.

هنا ملاحظة لا بُدّ لنا من الجهر بها قبل إنهاء موضوع النجف والوهابية، هي لفت نظر القارىء إلى إنّا نبحث في تاريخ مضى بأهله، وفي وضع طويت صفحته، ومن شأن الباحث أن ينقد الحوادث ورجالها، فإذا ما نقدنا جيش الوهابية وتطرف مبادئها فليس معنى ذلك الطعن في صحة النظرية في حين أنها دينية ولسنا من أبطال هذا الميدان، وإنما جلّ قصدنا تمثيل وجهة نظر النجف، بل والعراق كله نحو تلك المبادىء في ذلك

العصر، فربما توقفنا إلى بعض ذلك، ولا ضير لو أدركنا الخطأ، وأيضاً نأمل أن لا يشتبه على القارىء فيتصوّر وجهة نظر النجف إلى السلطنة المجاورة هي هي بالأمس، أو أنها تغيّرت وتبدلت، فلسنا في صدد هذه المقارنة الآن.

وأظن أن كل عراقي يود تمتين روابط الجوار مع الجارة الكريمة، كل عراقي صميم يكبر عظمة السلطان حيث يحمل أحد ألوية العروبة، ويحافظ على كرامتها. والنجف بنوع خاص ينتظر ساعة فتح طريق الحج؛ ليعيد روابط مع قوم الفهم وألفوه منذ قرون وأجيال.

الآن وقد أنهينا الملاحظة يجدر بنا تحليل موضوع النجف والوهابية.

نعم، لقد أوقفت النجف تيار المبادىء الوهابية، وطعنت آمال دعاتها في الصميم، ولو قدّر للوهابية اجتياح الفرات لكان العراق في مقدمة الأقطار المعتنقة للوهابية، وعليه يرجع الفضل في درء الخطر الوهابي بالدرجة الأولى إلى النجف، كما يجب أن لا نبخس المذهب الشيعي أثره في مكافحة الوهابية؛ بل يكاد يكون له وحدة الأثر الأكبر في هذه المكافحة.

وأيضا لا نتناسى صلابة الشيعة في مبادئهم ومقدساتهم فإن انتهاك حرمة كربلاء حول الموضوع عن إطماع الغزاة والقبائل إلى صراع مذهبي إلى إهاجة مكامن المذهبي الشيعي، ويقظة الشيعة عامتهم وكبارهم وعلمائهم أو بالحري يقظة العراق جله.

وهل في العراق عرب غير الشيعة، وهل في العراق قبائل قحطانية أو عدنانية صريحة من غير الشيعة؟ اللّهمّ إلاّ النزر اليسير، واصبح النضال والصدام ذا لونين لون معنوي ديني يبتنى على الكتاب والسنة وسيرة الصحب والتابعين، ولون سياسي حربي يبتنى على امتشاق الحسام والشجاعة والصبر.

وهل تقف الوهابية أمام المذهب الشيعي الذي جالد المذاهب الأموية والعباسية مع حكوماتهم وجيوشها وسلطانها طيلة تلك القرون المنصرمة، وخرج منها فائزاً منتصراً حاملاً لواء العلوية المقدس، فقد آل الحرب بين مذهبين قويين، المذهب الشيعي والمذهب الوهابي، غير أن المذهب الشيعي انتصر أخيراً في سوق الشيوخ حوالي سنة ١٢٢٣هـ، وأنزل في الوهابية ضربة قاضية على يد شيعة الغراف وسيوفها الباترة تحت رئاسة أمراء المنتفك، إضافة إلى فشل الوهابية في الغزوات المتقدم ذكرها.

ولما رأى الأمير سعود عزلة مذهبه عن جميع المذاهب، وعرف تألب الحكومة العثمانية والإيرانية عليه اتخذ مع الأخيرة خطة المسالمة، وبهذه الخطة سالم النجفيين ووادعهم، وأعاد طريق الحج الإيراني العراقي، واستراح من غزو فتح علي باشا الذي كان يخافه، وانتجت سياسة الوهابية هذه الإستفادة إقتصادياً.

لنعد مع القارىء إلى عوامل تلك الإنكسارات الوهابية أمام النجف، وربما عزاها البعض إلى سور النجف الماثل الآن، في حين أن السور الحالي لم يتم بناؤه إلا حوالي سنة ١٢٣٠هـ، أما السور الذي تحصّن فيه النجفيون فهو غير هذا، وكان واطئاً لا يزيد إرتفاعه على ثلاثة أمتار، لذلك أمكن الجيش الوهابي أن يتسلقه إلى البلد، وهذا السور لا يختلف عن أسوار أكثر مدن العراق والجزيرة حينذاك يشبه أسوار الحلة والسماوة والزبير وكربلاء، ومدن الرياض والدرعية وبريدة، وغيرها.

٣ـ النجف والسياسة:

لقد مرّ على القارىء حديث النجف والوهابية، وعلى ضوء تلك الحوادث يمكنه أن يعرف أن النجف ولجت باباً من أبواب السياسة ولتكن دينية، وليكن بطلها شيخ الطائفة كاشف الغطاء الذي قاد النجف وأحسن قيادتها، ودليلنا على ذلك الكتاب الذي قدمه إليه (داود باشا) والي بغداد، ذلك الكتاب الذي بعث به شيخ الوهابية الأمير عبد العزيز السعود إلى علماء العراق يدعوهم إلى الأخذ بالمذهب الوهابي، وقد طلب داود باشا إلى كاشف الغطاء أن يرد على الكتاب فرد عليه برسالة دعاها (منهج الرشاد لمن أراد السداد)[1] وقد جاءت الرسالة على أهم النقاط التي لحظها الوهابيون على المسلمين وردت عليها روايتنا بعد ما أدرجت نص كتاب الوهابية. وقد قدم هذا الرد إلى الوهابية في وقته، طُبعت هذه الرسالة في الهند طبعاً رديئاً. والرسالة وإن يكن عنوانها ديني ففيها من النظريات السياسية والإجتماعية والإصلاحية الشيء الكثير، ولا يبعد أن يكون هذا الشيخ هو السبب في تأليب الحكومة الإيرانية وتسويقها جيشاً ضد الوهابية كما أسلفنا ذلك.

وشاءت الظروف أن تأخذ بيد هذا الشيخ إلى معامع السياسة والحروب، فقد

---

(١) سيأتي نصّ الرسالة محققاً في الملحق الثاني بآخر الكتاب.

صادف حرب روسية وإيران فشدد النكير على روسية القيصرية، وأفتى في وجوب دفعها عن ثغور المسلمين، وتعرّض لسياسة قيصرها (بطرس) ومقاصده نوّه عن ذلك في باب الجهاد من كتابه (كاشف الغطاء).

وتابع سيرته نجله العلامة الشيخ موسى فتداخل في سياسة الحكومتين العثمانية والإيرانية بأن جند للحكومة الإيرانية أن توادع الحكومة العثمانية، وذلك عندما صادف ذهابه لزيارة الإمام الرضا في إيران سنة. . . . ، وكذلك حفيده الشيخ حسن كاشف الغطاء فقد شكل وفداً مهيباً من النجفيين حمل أمامه القرآن الكريم، وقابل في الكوفة قائد الحملة العثمانية نجيب باشا الذي سحق كربلاء، وقصد النجف في العقد السابع للقرن الثالث عشر الهجري فعرض الشيخ للباشا إطاعة النجف، وطلب إليه أن لا يتعرض بجيشه إلى مدينة النجف الآمنة فكان ما طلب.

ولعلّ من أهم المسائل السياسية التي ضرب فيها العلماء بسهم هي مسألة فتوى السيد [محمد] حسن الشيرازي، فقد أفتى بتحريم استعمال التنباك، وذلك بناءً على اتفاقية عقدت بين الحكومة الإيرانية والمستر تالبوت في إحتكار تنباك إيران لمدة خمسين سنة، وبسبب هذا التحريم ترك الأهلون استعماله والمتاجرة به بتاتاً. وعلى هذا الأساس أنفصم عقد الإتفاق وخابت الشركة الأجنبية (تالبوت وشركاؤه) في تنفيذ سياسة حكومتها من هذا الطريق، وكان ذلك في سنة ١٨٩٢م.

٤ـ النجف ودور التكامل:

أظن أننا بسطنا أمام القارىء صفحة بيضاء من تأريخ النجف السياسي على ضوء الحوادث التي حدثناه بها، وقد تجلّت لديه مناعة النجف وبسالة سكانه في الأمثلة التي أوردنا، وربما ساعدتنا الظروف على البحث والتنقيب عن تاريخ النجف السياسي إلى ما قبل القرن الثالث عشر، فإنّا نعتقد أن هاتيك القرون تضم بين طياتها جسام الحوادث وكثار الأدلة، فإن الصورة التي أزلنا عنها الستار تشف عن صور تقدمتها، والوضع الذي المحنا إليه يدل دلالة صريحة على أوضاع سبقته، وعلى وقوع حوادث سياسية أو حربية هامة في أزمان متفاوتة. فقد رجت بالنجف وأهلها لئن تنال ذلك التمركز الاجتماعي، وخلقت منها مدينة تحاول مصارعة الجزيرة إذ ليس من سنن الأجتماع أن تبلغ مدينة ما دور التكامل بعد أعوام معدودة، وعقيب حوادث بسيطة يحدثنا الشيوخ

والطاعنو السن في النجف أنهم شاهدوا بلدهم مركزاً لحل بعض القضايا والمشاكل بين بعض قبائل الجزيرة وقبائل العراق وحضره، وإنها كانت مركزاً للموادعات والأحلاف، وإنها كانت تنافس في مكانتها جميع مدن الجزيرة، وتنازع حائل والرياض والمدينة المنورة في تجارتها حتى كانت تعد في مصاف تلك المدن حين أنها سيف العراق المشهر دائما وأبداً.

أما العهد الذي بلغت به دور التكامل السياسي والاجتماعي، فنحن نرجح أنه كان قبل سنة ١٢٢٧هـ، أي عند عهد انقسامها على نفسها إلى فريقي الركرت والشمرت؛ ذلك لأن طبيعة الإجتماع لا يعتريها المرض والتفسخ إلاّ بعد إجتيازها دور التكامل سنّة الله في خلقه، غير أن هناك تجد حوادث يتمسك المؤرخون بأهدابها، وإليها ينسبون جميع دواعي الإنقسام.

٥ـ ظاهرة انصداع الوحدة النجفية:

الظاهرة والحادث الذي تجلّى فيه إنصداع الوحدة النجفية هو حادث السيد محمود الرحبي[١] الشريف الهاشمي رئيس أراضي الرحبة ـ جنوب النجف ـ في ست ساعات تقريباً، وذلك في العشرة الثالثة من القرن الثالث عشر الهجري، وحديث هذا السيد غريب في بابه لا يتذوقه إلا النجفي. وإلى القارىء ملخصه:

كانت للشريف الرحبي أخت عضلها عن الزواج أنفة منه وكبرياء، وإن شئت فقل خروجاً على سنن الطبيعة ومبادىء الدين، وكانت سوق عادة العضل رائجة بين السادة الأشراف خلال القرون الإسلامية الأخيرة، وذلك لانقراض سلطانهم واندثار حكومتهم، وكان جميع ذوي المكانة السامية المتوارثة يلجأون إلى هذه العادة بعد أن يعبس الدهر في وجوههم ويتصلبون في المحافظة على عادات أسلافهم بقصد أن يكرموا أنفسهم كي يعظموا في نظر الناس.

نعم، لا بُدّ وأن تراض كبرياؤهم بعد ما يتقادم عهد أسلافهم وتنسبهم الظروف تلك التقاليد، وتمسكا بهذه العادة الشائنة صمم السيد على بقاء أخته عذراء، مما اضطرها

---

(١) حول هذا الموضوع، انظر: العبقات العنبرية لكاشف الغطاء، ص١٢٨ ـ ١٣٧، ماضي النجف وحاضرها، ط٢/ ١/ ٣٣٠ وما بعدها.

أو اجير ابن عمها وخطيبها ـ كما قيل ـ على شكايته لدى شيخ الطائفة مفتي النجف الشيخ جعفر كاشف الغطاء، وكان هذا الشيخ قدس سره شديداً في دينه، لا تأخذه في الله لومة لائم، ينفذ وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويرى ذلك الوجوب، وطلب إلى السيد الرحبي أن لا يحول دون إقتران أخته، فلم يرتدع، وطلب إليه الحضور فلم يلب الطلب، فاضطر الشيخ إلى إنفاذ جماعة مسلحة من النجفيين ليأتوا بالسيد قهراً، فكبر على السيد هذا التدخل في شؤونه الخاصة، وحارب الجماعة النجفية متحصناً في قصره بالرحبة، وتبادلوا معه إطلاق الرصاص، وقد تردد بعض النجفيين في أمر هذا الحصر، ولكنهم تمكنوا أخيراً من النفوذ إلى القصر من طريق الماء وإنتهت المعركة بمقتل السيد وإنتهاك حرمته، الأمر الذي يرضاه الشيخ طبعاً.

وهنا تجد مشكلة ثانية هي أن هذه النتيجة القاسية لا تتفق مع سنن العرب وعرفهم، ولا تتمشى مع تقاليد تقديس العراقيين لعموم السادة الأشراف، والعرف لا يبرر إنفاذ هذه الجماعة إلى السيد في شأن أخته، بل يعتبر ذلك تجاوزاً على شرفه، ولكن النجفيين كانوا مسوقين بيد تقاليدهم الدينية، وبأمر عالم المطاع، فالعراك الحقيقي صار بين التقاليد الدينية وبين السنن العرفية، وكان أن تغلبت العاطفة الدينية آنيا، ولكن سرعان ما صدتها عاطفة العرف والعادة ذلك حينما شاهدوا السيد صريعا يتخبط في دمه.

لقد آبوا إلى النجف والتشاؤم شعارهم ينعى بعضهم الآخر سوء مغبة إراقة ذلك الدم الطاهر، فأدى ذلك إلى الشجار والإنقسام فالإقتتال بينهم في حين أنهم لا يزالون في طريقهم إلى النجف.

وإنكشفت غبرة الإقتتال عن مشكلة ثالثة هي مقتل أحد أفراد عائلة آل بقر الشام. بلغت الجماعة النجف تحمل قتيلها تاركة وراءها السيد جثة يفور دمها. وعندها يحدث هياج في أفكار النجفيين عظيم، وتصطدم الآراء وتفترق النفسيات بين عموم طبقات النجف، وتتعاقب الوفود، والمراجعة بين ذوي القتيل ابن بقر الشام وبين جماعة القتل، فلم تثمر حتى يأس الناس من إصلاح ذات البين، وآخر وصية إلى القتلة نفذها جماعة القتيل. كيف ترضى بالدية الأبطال المشردل. فاضطر أن يرد عليهم جماعة القاتل. افعلوا ما استطعتم نحن زكرتية.

ومنذ ذلك شاع استعمال الكلمتين: (رگـرت). (شمردل) في القبيلتين حتى أصبحت أعلاماً عليها بالغلبة، وشمردل من ألقاب الأسد، أما رگـرتي فكلمة لا تزال شائعة في العراق والجزيرة يستعملها الرجل الضعيف المال المنقطع إلى سلاحه إتخذه داره ووطنه.

منذ ذلك العهد لقحت الفتنة، وانصدعت الوحدة النجفية في الصميم سيّما وقد انحاز إلى فريق القتيل رئيس النجف الملا يوسف ـ سادن الحرم العلوي حينذاك ـ ونحن نرى أنه أخطأ في هذا الإنحياز غير أن البعض يلتمس له عذراً بدعوى أنه صهر السيد الرحبي القتيل إضافة إلى أن قتيل بقر الشام من المقربين إليه وجواره.

وعلى أي حال كان في مقدور الملا يوسف إتخاذ خطة الحياد فيخفف سورة الخصام بين الفريقين، وربما تمكن أخيراً من الإصلاح وعلاج الوحدة النجفية. اللّهمّ إلا أن تكون الوحدة في غير صالحه، ولكن الأيام برهنت على نقيض ذلك فقد سلبت منه السدانة من هذه الطريق، طريق الإنقسام والإنحياز ولا يذهب بنا الظن أن النجف كلها أصبحت متطاحنة، فقد لجأ كثير من النجفيين إلى التمسك بخطة الحيدة، وإنقلعوا إلى التجارة، ونشأ منهم طبقة ذات مكانة إجتماعية في النجف لحد الآن. كم اختار البعض الآخر الهجرة من النجف إلى مختلف المدن، منهم من توطن جبل حائل وتمركز ونال حظوة لدى أميرها، وقد جنى جميع هؤلاء ثمرة حيادهم تجنبهم في غمرة الفتنة وانحيازهم عن عطبها.

٦ـ حائل، طريق النجف الاقتصادي:

كأننا بالقارىء وقد استنتج من مطاوي بحثنا أن الروابط بين النجف والجزيرة كانت عن طريق حائل وإمارة شمر بحكم طريق الحج والمناسبات التجارية.

نعم، أضيف إلى ذلك أنه لم تتوتر العلائق يوما ما بين النجف وشمر، كما إنا لم نعثر بين ثنايا جميع الحوادث المنصرمة في أن شمر عمدت إلى الإساءة والعداء الصريح المعلن ضد النجف. وبالطبع كانت نتيجة هذه المودعة والحب المتبادل أن يكون الطرفان كتلة ضد مناوىء الطرفين.

يحدثنا شيوخ النجف: إن النجفيين قبل قرن تقريبا سيّروا أول نجدة قوية إلى شمر ضربت غزاة قبيلة عنزة الذين كانوا محيطين في ركب لشمر يحمل تجارة حائل إلى

النجف؛ ضربتها في أقفيتها ونشلت الركب والتجارة عنوة، وهذه الروابط المحكمة تضيء أمامنا سبيل الإتجاه السياسي الذي كان ولا يزال ماثلاً في النجف.

فقد كان ولا يزال مذهب النجف السياسي مشايعة شمر، ومجانبة الرياض والسعود مع قبيلة عنزة. وأكبر دليل على تمتن الروابط بين النجف والرشيد إيفاد الأخيرين وكيلاً عنهم يُدعى ناصر الخشمان الذي سكن النجف طيلة حياته تقريبا، وكان يمثل الرشيد في المهام السياسية لدى الأتراك أيضاً. وقد شاهدنا نحن هذا الوكيل في أواخر عهده ولا نعلم فيما إذا سبقه آخر في هذه الوكالة وهو المرجح لدينا، وكانت قيمة مشايعة النجف إلى قبيلة شمر عظيمة.

وبمناسبة هذه المشايعة أسوق للقارىء مثالاً بريئاً هو خير ظاهرة لهذه المشايعة، وقد شاهدت هذا الحادث عياناً، وتأثرت به عاطفتي وأنا إبن السابعة من العمر تقريبا. ذلك إن ثارت براكين حرب شعواء بين قبيلتي شمر وعنزة في وادي بحيرة النجف وكنت أتسلق المترب العالي القريب من بيتنا مع الجمهور، شحذت بصري مع المتطلعين، أرهفت أذني لسماع أصوات البنادق وأحاديث الجمهور، وإذا به يتفاءل في فوز شمر وخذلان عنزة، ولم أزل أتذكر الأقاصيص عن بطولة شمر مع كيل المديح والإطراء، كما أتذكر الطعن والتقريع الموجه إلى عنزة، ومنذ ذلك الحادث طبعت نفسي على حقد عظيم ضد عنزة وبضده إلى شمر.

أمّا وقد استمع القارىء إلى أحاديث النجف وشمر والوشيجة بينهما، فقد أصبح من الهين لديه تحليل عوامل انغمار النجف في معترك سياسة الجزيرة آنذاك والتطلع إلى أخبارها وغزواتها اليومية.

وقد بلغ توغل النجفيين في حائل منتهاه حتى اتخذت واسطة استعمارهم الاقتصادي إلى سائر نواحي الجزيرة، وتوطن النجفيون المدينة المنورة وقرى الجوف ـ جنوب سورية ـ وقد انتظمت المواصلات بين النجف وحائل، وكثر التردد وتزوج العائلات النجفية وتربية الأطفال هناك، كما تعددت المصاهرة حتى توصل أحد عائلة آل مرزة إلى مصاهرى آل الرشيد أنفسهم، ونال البعض الأخر لدى أمراء آل رشيد مقاماً يشبه الوزارة، ومن مظاهر هذه الروابط المحكمة مدح كثير من الشعراء النجفيين أمراء آل رشيد، كما نجد ذلك في دواوينهم.

ولم يجهل آل سعود هذه العلاقة المتينة بين النجف وحائل، كما لم يتفهم بعض النجفيين وعداؤهم إلى آل سعود. على أن آل سعود على بصيرة من دهاء النجفيين وكبير نفوذهم في الجزيرة، لذلك كانوا يتحينون الفرصة لسحق النجفيين، وبعدما مكنتهم الظروف الجائرة من اكتساح أمارة آل رشيد بين سنة ١٩١٤ ـ ١٩١٨م بادر أميرهم فأمر قائده بإرغام النجفيين على مبارحة حائل بين عشية وضحاها، في حين أن البعض منهم يتقادم عهد سكناه إلى قبل مائة عام، وجاء هذا الإخراج بخسارة على النجفيين لا تقدر في الأموال والعقار.

٧ـ الحكم العثماني في النجف:

ولعلّ أجلى صفحة تمثل مركز النجف الحربي والسياسي تمثيلاً صحيحاً هي تلك الحوادث الحربية مع الحكومة العثمانية، تلك الحوادث التي آلت إلى سقوط الحكم العثماني، ونحن سنطرق هذه الناحية بالتحدث عن قسم من تلك الحوادث بصورة مختزلة:

لقد استنتجنا من محاكمة الحوادث التي يقصها المعمرون النجفيون، أن العثمانية استهلت حكومتها في النجف بإيفاد ممثلي العقد الأول للقرن الثالث عشر يقال أن اسمه: يعقوب، واتخذ لدار الحكومة خاناً من محلة (المشراق) ويدعى (خان الحاكم) ـ لحد الآن ـ وبحكم اشتداد فتنة الزگرت والشمرت تنازل الملا يوسف إضطراراً إلى إصطياغ حكومته النجفية بالصياغة العثمانية وإلى تسري نفوذ الحاكم العثماني، وقد توفي الملا يوسف حوالي سنة ١٢٦٠هـ، ولكن بعدما نمت الفتنة وتأصلت جذورها حتى أتت على سدانة الملا يوسف وسلبتها منه قبل وفاته، ولم ينطفىء لهيب تلك الفتنة، ولم يخب أوارها، فقد حدثت في العقد السابع من القرن نفسه حرب دامت ليال وأياماً، فكان من الحكومة العثمانية أن جهزت حملة قوية أرغمت معها الفريقين على الجلاء عن النجف، وقبضت بيدها الحديدية على سبعة أبطال بارزين فأعدمتهم، وشهرت بجثث بعضهم في البلد إرهاباً، وكان من بين هؤلاء المعدومين أولاد الفيخراني الأخوان مهدي وعبود.

ومكث فريقا الزگرت والشمرت منبثين في قرى الفرات طويلاً يضنكهم فقر الجلاء وذل الغربة عدة سنين، توصل خلالها السيد سلمان إلى التفاهم مع بعض موظفي

الحكومة العثمانية القريبين منه، وساعده الطالع أن أوفدته رئيساً للنجف، فرفضت له هذه الرئاسة المستحدثة عليه فرضاً، وفوّضت إليه ألا يهبط البلد ممن عرفوا بإثارة الفتن وتدبيرها، فكان ما أرادت، وأوصد السيد سلمان أبواب البلد في وجه من أراد فعاد إلى أمنه عدة سنين، ولكن الحكومة العثمانية إنغمست في حرب مع روسية سنة ١٢٩٣هـ وطلبت تجنيد قسم (الرديف) من النجفيين فما كان إلا أن اتحد المطلوبون من الفريقين وثاروا في وجه حكومتهم، وبعد حين جهزت حملة قوية مالأها البعض من الشمرت، وحاصرت الثائرين الجيرة وسور البلد فاضطروا إلى النزول في أبار القناة وأنفاقها، وتمكن معظمهم من النجاة بأن خرج من الأبار للقناة شرقي النجف، وعادوا إلى الجلاء في القرى والأرياف.

ولكن لم يمر يوم على سكون النجف وهدوءها بضع سنين حتى اصطدمت مع الحكومة العثمانية مجددا في سنة ١٣٠٨هـ، ذلك لأن حماقة القائممقام والشرطة سوّلت لهم منع المواكب الحسينية عن التظاهر في الصحن الشريف أيام العشرة الأولى من شهر محرم الحرام، ولم تجد معهم كل وسائل الإقناع التي توسل بها النجفيون، فما كان إلا أن خرجوا على أوامر الحكومة خضوعا لتقاليدهم المذهبية، وزاد الطين بله أن القائممقام أمر الشرطة فأطلقت الرصاص على المواكب وهي في الصحن الشريف فقتل كثير من الأبرياء مع إمرأة، رغم هذه الجسارة وهذا الإقدام لم تتمكن الشرطة من الثبات واضطرها النجفيون إلى الالتجاء والإختفاء في دار الحكومة.

ومنذ هذا الاعتداء الصريح غير المشروع منذ هذه الإستهانة والإستهتار في التداخل بالقضايا الدينية والمذهبية، منذ هذا القتل الفظيع في المجمع الديني المقدس يبدأ تاريخ انقلاب رأي النجفيين في حكومتهم، يبدأ تغير إتجاه النجفيين نحو الحكومة العثمانية فتكون مدة حكومتها الشرعية التي هي برضا من النجف، ورغبة من أهلها لا تتجاوز نصف قرن، وذلك منذ حكم الحاكم يعقوب وحلوله بالنجف حتى هذا الحادث الذي تجلّى فيه سخط عموم طبقات النجف سخطاً نفسياً على الحكومة العثمانية، واصبح النجفي يعتقد أن الحكومة العثمانية حكومة معادية لا يطمئن إليها.

وبدأ النجفي يتحين الفرص للخروج على حكومة غاصبة، وحكم غاشم، وأنتج هذا الانقلاب النفسي ضئالة الحكم العثماني، فكانت البلد فوضى، مما جر إلى

استئناف القتال بين الزگرت والشمرت حوالي سنة ١٣١٠هـ، دامت المعركة ثلاثة أيام جلبت الحكومة خلالها حملة قوية أنزلت في الفريقين ضربة شديدة، واعتقلت معظم زعمائهم في بغداد مثل السيد محمد علي طبار الهوى، والملا سلطان، والسيد محمود السيد سلمان وغيرهم، غير أنها أطلقت سراح السيد طبار الهوى، وبعثت به مديراً إلى ناحية شثاثة تخلصاً من دهائه، ويقال أن الحكومة دست له سماً فقتلته، ومع ذلك لم تنته مشكلة النجف، بل زادت تعقداً وضربت الفوضى أطنابها، واضطربت حبل الأمن. وما كان عهد سنة ١٣٢٤هـ/ ١٩٠٦م إلا وتجددت الفتنة بأبناء بقر الشام أيضاً فأعاد التاريخ نفسه حيث بدأت بهم لأول مرة قبل قرن تقريباً، وذلك على أثر حادث هو مقتل الأخوين محمد وصكبان ـ أولاد عزيز بقر الشام ـ خطأً وليلاً من قبل حرّاس محلة (العمارة) وهم من الزگرت جماعة عطية أبوگلل، وقد أعاد عزيز تاريخ آبائه بعين تلك الأدوار والفصول حيث أبىٰ قبول الدية، وأثارها حرباً دموية كان الجيش العثماني يساند فيها جانب الزگرت، وانتهت وانجلت المعركة عن مقتل عزيز بقر الشام نفسه برصاصة طائشة.

أما الحكومة العثمانية فلم يبق لها أي مركز سياسي أو حربي، واستحوذ الشيوخ على الحكم وتضاءل نفوذ الحكومة إلى درجة أن عصابة نجفية مدت إلى قتل مدير ناحية الكوفة في البلد نفسه، وذلك بينما هو يطارد تلك العصابة، والمدير يدعى أمين افندي بن ليلى كما يدعي رئيس العصابة عبود شوشي.

ومن جراء تعاقب هذه الحوادث في أعوام متتالية خلقت الظروف في النجف طبقة هادمة أقلقت الراحة العامة، واتخذت النهب والسلب طريق تعيشها، وسلبت القوافل وقطعت الطرق عن النجف، حتى استاءت عموم الطبقات من ذلك الوضع، وأسفر بالأخير عن وقوع فتنة بين أقسام فريق الزگرت نفسه بين آل سيد سلمان وبين عطية أبوگلل حوالي سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م، وقد مالأت الحكومة آل سيد سلمان فكانت بين الطرفين مجزرة غير أن وساطة بعض العلماء ساعدت على إيقافها تدعم هذه الوساطة قوة الحكومة، وطلبوا من عطية وجماعته الجلاء. ونزل في قصره عند أراضي الرهبان، ولكن القائممقام راشد باشا جلب حملة نفذها إلى القصر بعدما انضمت إليها جماعة المحاربة من آل سيد سلمان فاضطر عطية حيث عجز عن مقاومة الحملة ومدافعها التي

أمطرته بنيرانها، اضطر إلى الرحيل هو وجماعته حتى ضاقت به أرض العراق، ولم يفز بالرجوع إلى النجف إلا في عهد ناظم باشا الوالي الذي أعلن العفو العام عن الهاربين من أيدي السلطة.

هذه سلسلة من الحوادث الحربية عرضناها أمام القارىء إستطراداً، ومررنا عليها بدون محاكمتها وإيضاح عوامل تكوينها، واعطاء التفاصيل عن عددها وخططها، حيث لا علاقة لذلك الإطناب في موضوعنا مباشرة. وجل غرضنا أن يستنتج القارىء ما آل إليه وضع النجف من المكانة الحربية حتى أصبح البلد بعاملي الزگرت والشمرت وكأنه حصن حربي حصين، وساحة معارك دامية، فيها مارس النجفيون أنواع النضال والجلاء، وشب ابناؤهم على اللعب بالحديد والنار بحيث لم تبق لديهم للمعارك صعوبة، ولا لإراقة الدماء حرمة وحراجة، بل كانت كلها عادة مألوفة. على أن القارىء سيجد لنا عذرا في بحث هذه الناحية عندما يطالع الفصول الآتية من هذه الرسالة.

٨ـ النجف والهجرة الأجنبية:

لقد كشفنا القناع عن بعض نواحي الموضوع (تاريخ النجف السياسي) وقد لذَّ لنا طول البحث وتذوقنا حوادثه وقصصه، ولكن لا أظن أننا أجدنا التصوير، أو قدرنا على حبك رسومه. ونظن أن الملل أدرك طبع القارىء، ونظن أن السأم بالغ فيه، ولكن من أين يأتي لنا جمال الحبك والتصوير ونحن في إرتباك مما نقاسيه عند جمع أسس الموضوع؟ كيف يتأتى لنا السبك والترصين ومواد الموضوع مطمورة في الصدور أو مدفونة في القبور. ولنا في ذلك لبعض العذر أمام القارىء. ولنا في ذلك كل العذر أمام الحقيقة.

ولنعد بالقارىء فنبحث ناحية هامة من تاريخ النجف السياسي والاجتماعي هي ناحية تاريخ هجرة الأمم الأجنبية وأثر هذه المهاجرة في القومية والوطنية والأخلاق وما إليها.

يصح أن نبدأ تأريخ الهجرة إلى النجف بمعناه الصحيح في بحران الفترة بين اعتداء الوهابية على كربلاء سنة ١٢١٦هـ وبين حملة نجيب باشا والي بغداد واكتساحه كربلاء حوالي ١٢٥٨هـ، فقد فضلت المهاجرة من الأعاجم أن تسكن النجف، ورغبت عن كربلاء بعد تلك النكبات التي مُني بها سكان كربلاء، ولكن الهجرة كانت مقتصرة على

طبقة الروحيين الذين كانوا آمين المدرسة الكبرى حينذاك (كربلاء) التي تجاوز عمرها القرن أو يؤمونها من الأقطار الشيعية، وبواسطة تحول هذه الهجرة إلى النجف أضيف تراث هذه المدرسة العلمي إلى مدرسة النجف، وقد بدا نجم هذه بالصعود، وتضاعف عقيب حملة نجيب باشا التي نالت من حرمة كربلاء، وقد بلغ هذا النجم أوجه في بدء القرن الرابع عشر فأشغلت النجف مكانة كربلاء، وأصبحت النجف مدرسة الشيعة الكبرى حيث تقاطرت قوافل المهاجرة من مختلف الأقطار الشيعية القاصية والدانية، ولم تقف الهجرة عند الطبقة الروحية، بل انتشرت قضية الجوار الدينية جوار الأمام عليه السلام أنتشرت بين عموم الشيعة، وطبعت بشكلها الديني الشريف مما جرَّ إلى تكاثر جموع المهاجرة، فاحتشدت النجف بالسكان وعمد الوطنيون للتعمير، وأشادة الدور في العرصات الخالية، وتواردت سيول التبرعات من محسني الشيعة في الأقطار البعيدة لإقامة المدارس العلمية.

ولولا حوادث النجف الحربية التي ذكرنا، لولا الفوضى وضعف الحكومة لكانت مدينة النجف أربعة أضعافها، ولكانت النجف على غير ما نراها عليه اليوم.

وقد رحب النجفيون مبدئياً بالأجانب وعاملوهم ضيوفاً كراماً لا سيّما وقد جلبوا معهم ثروة لم يحلم بها النجفيون الذين اعتادوا عيش الجزيرة، وراجت على عهدهم سوق التجارة، وجدّت روح العمل مع قلة الأيدي العاملة مما ساعد أخيراً على كثرة توارد المهاجرين من الفعلة والصناع الأجانب، حتى جر إلى خلق روح التنافس وبدأ ناموس التنازع بينهم وبين الوطنيين يفعل فعله، فاضطر الأجنبي أن يقاوم بعض الأعتبارات المعنوية التي تساعد الوطني على التفوق بأن يكتفي بنصف أجر الفاعل الوطني، وكان ذلك بإمكان المهاجر الأجنبي المنفرد بنفسه، كان بإمكان التاجر المهاجر أن يرضى من الربح القليل، وكذلك الصانع المهاجر إضافة إلى وجود صنعته التي تساعده عليها شتى العوامل.

أما الوطني فالأمر معكوس أمامه تماما تتقاذفه تكاليف الحياة، ويثقل عاتقه إعاشة العيال والأسرة الكثيرة العدد، وتضنكه واجبات القتيل ومصاريفها الفجائية الباهضة.

إذاً ماذا تكون النتيجة؟ لا بُدّ وأن تكون نتيجة هذا النزاع الملح مغلوبية العامل الوطني وتقهقره في ميدان العمل فانكساره.

وما حيلة العامل الوطني أمام هذه العوامل الغالبة، ماذا يصنع الحيكة وقد نازعهم حيكة المهاجرة؟

ماذا يصنع المعمار والبنّاء والنجار والحداد والبقال والعطار والخراز ـ النجفيون ـ وقد نازعهم من لا يقل عنهم مهارة إذا لم يفقهم، وهكذا بقية ذوي الصناعات والمهن والحرف؛ لذلك نجد بعض العائلات النجفية تركت مهنتها وصناعتها مضطرة واتخذت طريقة غيرها تؤمّن معها حياتها، وتركت ميدان العمل خالياً للأجنبي مثل النحاسة، لا أظن أنه بقي من النجفيين الصميميين من يتعاطاها الآن.

ومن هنا نجد في أسماء بعض العلائلات النجفية عناوين مهنهم مع عدم ممارستهم لها الآن مثل: بيت الحداد، وبيت الإسكافي، وبيت الشماع، وبيت الصراف، وبيت الفحام، وبيت أبو السبح، وربما كان غيرهم، هذه هي النتيجة المباشرة البارزة من نزاع الوطني والمهاجر.

بقي علينا أن نبحث من تأثير هذه النتيجة في نفسية الوطني وأخلاقه إزاء المهاجر الأجنبي الذي سدّ على الوطني أبواب رزقه ونكبه في أسباب حياته، وتجاوز حدود الضيافة إلى التطفل والتحكم والتملك والتداخل في جميع شؤون النجف الاجتماعية والاقتصادية، والغريب أن الحكومة العثمانية بدل أن تضع حدّاً لهذا الوضع زادت بأن ساعدت الأجنبي في جنديتها التي كانت تسوق الشاب القوي العضل من ساحة العمل إلى ساحة الحروب ليخلو للأجنبي الميدان.

نعم، كانت النتيجة أن ثارت النفسية النجفية ضد الأجانب وخرج العرب النجفيون على أصول الجوار وآداب الضيافة، وعادات الضيوف، وكان من حق النجفي أن يخرج على الأجنبي، من حقه أن يعتبره غاصباً أو عادياً بل عدواً لدوداً، ومن حق الوطني أن يستهين شأن الأجنبي أن يحتقره ويجتنبه أو يطعن بنسبه.

أما النتيجة فطبيعية خلقتها ضرورة الحياة والاجتماع، ولسنا في صدد صحة هذه الطعون أو مشروعية هذا التجنب والاحتقار، ولعلنا نعتقد خطأ معظمها فلا ضير على أخواننا جماعة المهاجرة، وشأن الباحث أن يصوّر الحالة كما كانت عليه في عهدها. هكذا انقلب شعور النجف نحو الأجانب بعد أعوام قليلة، وهكذا أصبح النجفيون يعرقلون تقدم هذه المهاجرة ما استطاعوا إلى ذلك سبيلاً.

وهنا يجد لنا البحث في ما تركته هذه المهاجرة من أثر ضمن الأعوام المنصرمة في القومية العربية النجفية في شمائلها وخلالها في لغتها الكريمة وآدابها، وكان للمهاجرة أن تعمل أثرها، كان للمهاجرة أن تشوه الطالع العربي رغم الروح العربية النجفية الشرود، ورغم ما ذكرنا من عوامل الحقد النجفي. لذلك نرى النجفي يفتخر في أنتصاره نوعا ما على الأجنبي، وجدير بالباحث أن يعلن بهذه المفخرة للنجف خاصة من بين اضرابها من المدن.

أما الأسباب التي ساعدت النجفي على إنتصاره وتغلبه على هذه المشكلة فنذكر منها عاملين أساسيين نعتقد أن لهما مفعولها:

١ ـ قرب عهد الهجرة إلى النجف الذي لم يتجاوز القرن.

٢ ـ الثورات المتتابعة التي قام بها فريق الزكرت والشمرت التي ضربت النفوذين الحكومي والأجنبي حينذاك وعرقلت سير الهجرة.

لذلك نرى الطابع العربي في النجف ماثلاً على أشدّ ما يكون من قوة، نرى الخلال والأخلاق العربية مفخرة النجفي وثوبه الفضفاض، نجد اللغة العربية وآدابها هي السائدة بين عموم الطبقات، إلا بعض أسماء الأدوات الأجنبية اندست في لغة العامة، والقليل من الوطنيين من يعرف إحدى اللغات الأجنبية، بل انعكست القضية فتأثر الأجانب بالطباع العربي، واستحالت القوافل الأولى منهم إلى عرب وطنيين حازوا على كل الميزات القومية العربية تقريباً حتى ساد في النجف على معظم المهاجرة نفسها أدب اللغة والشعور العربي وكذا العادات والأخلاق. ولذلك نجد من المهاجرة عدّة عائلات سامية ذات فضيلة وعلم منهم آل القزويني، وآل بحر العلوم، وبعض آل الخليلي. ومعظم أبناء هاته العائلات الكريمة يحمل من العروبة والطابع العربي ما يزيدهم فضيلة وعلماً وأدباً.

وعليه لا يصح للباحث أن يقارن بين النجف وبين بعض المدن، فإن الأخيرة استعجم بعض عربها الأقحاح واصطبغت العجمة حتى ملامحهم وسحنهم، وظهرت في لهجة لغتهم بصورة جلية.

لقد ذهب بنا الشعور اللذيذ مذهب العجب والغرور في بلدنا النجف وطوّحنا بالقارىء أن يشمل بخمرة الفوز والإنتصار، وظن النجفي أو كاد يظن أن النزاع أدركه

الفشل، وظن أن الصراع قد انتهت مأساته وطويت صفحته، مع أن الأمر خلاف ذلك وعلينا أن نجتنب الغرور، وندري الحال الجديدة فقد انعكس الموضوع على طول الخط، وزان ذلك العاملان المتقدم ذكرهما (تقريباً) اللذان حافظا على طابع النجف، وربما إنعدما تماما مع تطاول العهد.

وإنما بدأت القضية أيها الوطني النجفي دوراً جديداً وطلعت علينا بتاريخ جديد، وهذا نتيجة تطور الحياة الاجتماعية في النجف التطور الذي شمل جميع النواحي تقريباً فقد اكتفى عن الحيوانات، والخيول المطهمة، والإبل الكريمة بالسيارات والعربيات، واستغني عن المكارين بالسواق، وأبدلت الفوانيس بالمصابيح الكهربائية وآلاتها وعمالها، وجرت المياه بالأنابيب التي لا بُدّ وإن تنكب السقائين وجيواناتهم كما نكب المكارون من قبلهم، وهكذا بدأت تتبدل الأزياء والقيافات، وأدوات الزينة، وتتطور الأبنية، ولا بُدّ أن يستتبع هذا التبدل تطور في جميع النواحي الاجتماعية، ومن القضايا الإجتماعية أن البناء إذا ردم من أساسه مبدئياً يصبح عرضة للتغير والتبديل والتحسن والتشويه حسن ما يحيطه من العوامل والظروف.

فعلى الشباب النجفي والحالة هذه واجب حسن اختيار المواد الإنشائية وانتقاء الصناع والمهندسين، ونبذ المواد غير الصالحة للبناء مع المحافظة على الهندسة القومية والريازة العربية، ولا يذهب الظن بالقارىء إنّا نسيء بعملنا هذا إلى المهاجر المنصف فإنا لا نقصد في محاولتنا هذه إلا الدفاع عن قوميتنا، وهذا مما لا ينكره كل عاقل يقدس قوميته. وستنجلي للقارىء صحة نظريتنا هذه بعد ما يطالع موضوعاً آتيا (طبقات السكن الحالي وأثر كل طبقة) سوف نتطرق فيه إلى بعض تأثيرات الأجانب.

الآن وقد انهينا المقدمة، ونورنا القارىء عن حالة النجف، فسوف تنبسط أمام الحوادث التي سنعرضها، وتتجلّى لديه عواملها ومحاكماتها تلك الحوادث الجلى التي أشغلت أهم صفحة من صفحات تاريخ العراق السياسي.

وإلى القارىء الفصل الأول من الكتاب:

الفصل الأول

١ ـ جغرافية النجف التأريخية وأماكنها العامة .
٢ ـ الصحن الشريف أكبر مجمع عام .
٣ ـ جامع الهندي .
٤ ـ طبقات السكن النجفي الحالي وأثر كل طبقة .
٥ ـ مكانة النجف ومنزلتها بين المدن .
٦ ـ النفوذ الأجنبي في النجف على عهد الحكومة العثمانية .

١ـ جغرافية النجف التاريخية وأماكنها العامة:

لم تسمح لنا الظروف بترسيم خارطة النجف لتبرز النجف صورة الحوادث وأماكنها جلية، لذلك اعتضنا بهذا الموضوع الشبيه بالترسيم الحربي دللنا فيه على مواضع الحوادث سيّما وأن البلد في تطور هندسي كبير، وهو أحداث مدينة النجف الجديدة. وتخريم السور من عدة أماكن مما سيغير شكل المدينة.

تقع مدينة النجف على هضبة جرداء، تتخللها تلول ووادٍ يخترقها، ترتفع عن سطح البحر حوالي ٥٠ متراً تقريباً، تطل من غربها وجنوبها الغربي على أراضي بحيرة النجف الجافة والمنخفضة عنها في ١٥ متراً تقريباً، وفي سفح هذه الأراضي تبدو للعيان صخور الذكوات المسماة (الطارات) تتخللها الأغوار والمناجم الصخرية والطينية المتآكلة بالسيول وبمعاول العامل النجفي، وحول هذه الأراضي بساتين النجف ونخيلها الجميلة، ومن هذه المجموعة المتناقضة يتكون منظر النجف الجميل صباح وعصراً.

وغير خفي ما في هذه الإرتفاعات والإنخفاضات والصخور والمغاور وما ينتج عنها من المناخ الجاف والحار من تأثير الظاهر على صلابة نفوس أهاليها، ومتانة أخلاقهم، سيّما وإنها تتصل في نجد والجزيرة مباشرة، وفي شمال النجف الجبانة ـ مقبرة الشيعة المقدسة ـ تنقل إليها موتاهم من جميع الأقطار يتخلل هذه الجبّانة طريق القوافل والسيارات إلى كربلاء، وتمتد الجبّانة إلى جزء من شرق النجف يخترقه طريق الخط الحديدي والقوافل إلى الكوفة.

أما جنوب النجف وبقية شرقها فهو أرض منبسطة منها طرق السيارات إلى الكوفة وأبي صخير، وقد أنشأت فيها الآن مدينة النجف الجديدة، تحاط المدينة بسور فخم[1] يبلغ ارتفاعه ١٤ متراً، محاط في خندق عرضه ستة أمتار عميقة أربعة، شيد هذا السور أمين الدولة آل نظام الدولة جدّ العائلة الشهيرة، شيده سنة ١٢٣٠هـ تقريباً بوصية من المرحوم محمد حسين خان الصدر الأعظم للحكومة الإيرانية، يتشكل السور من ستة

---

(١) هدم هذا السور برمته ولم يبقَ منه أثر ولا عين.

أضلاع مختلفة تتخللها الأبراج والحصون المنيعة والثقوب الحربية، كما تتخللها أربعة أبواب فقط هي: **مدخل النجف ومخرجه العام، بابان منها متقاربان شرقي البلد**، يخرج من أحديهما إلى الجبانة، وطريق كربلاء وهي خاصة في محلة المشراق، تعلوها بناية شيّدتها جميعة الأتحاد التركية مركزاً لفرعها يحاذي هذه الباب خارج السور مترب مرتفع تكوّن من أتربة بناية السور، ومما تقذفه البلدة من الأتربة والرمول، وفي هذا المترب جرت العادة أن تضرب الأطناب الحربية، وفي سمائه رفعت أعلام المجاهدين والثوار، وسيأتي ذكر ذلك في الفصول الآتية.

والباب الثاني يدخل منه إلى محلة البراق ويخرج منه إلى خط الكوفة الحديدي، وعلى الجانب الأيمن لهذا الخط (للخارج من النجف) بمسافة مائتي متر يوجد خان منعزل بناه الحاج عطية أبوگلل[1] أثناء الفترة بين عهدي الحكومتين العثمانية والأنكليزية، واتخذته السلطة المحتلة مركزا للشرطة، ولم يزل إلى هذا العهد، ولا يزال شعار بريطانيا ماثلاً على جبهة بابه، وفي هذا الخان حاصرت الحامية البريطانية خلال الثورة النجفية الأولى ـ كما سيأتي بحثه في موضوع خاص، ويقابل هذا الخان بناية ضخمة أسسها العثمانيون سنة ١٩١٤م مدرسة من تبرعات الأهلين وهي سراي الحكومة في الوقت الحاضر.

وعند انتهاء مدخل البابين تبتدىء رحبة البلد العام، وكان في وسطها نصب تذكار الدستور العثماني، كان حول هذه الرحبة دار الحكومة العثمانية، واشغلته السلطة المحتلة عدة أشهر، وفي الوقت الحاضر هو المستشفى الملكي.

وحول هذه الرحبة الثكنة العثمانية التي بنيت على أنقاضها مدرسة الغري الأهلية[2] ـ وسيأتي ذكر هذه المدرسة ـ وفي وسط هذه الرحبة أبنية وحوانيت وخان تملك معظمها البلدية، من بينها دار القائممقام.

وقرب الأخيرة بناية ضخمة شيدت شيلاناً إلى ضيافة زوار الإمام عليه السلام، بناها الحاج معين التجار منذ ٢٥ عام تقريباً. وفي هذا الميدان والثكنة والسراي ودار

---

(١) خان عطية، وقد هدم أيضاً ولم يبق له أثر.

(٢) هدمت هذه المدرسة بعد سنة ١٩٨٠م.

النجف في مطلع القرن التاسع عشر

القائممقام وقعت عدة معارك يأتي حديثها في الفصول الآتية.

أما الثالث من أبواب النجف **فهو الجنوبي الغربي المعروف (باب الشتابية)**[1] تتصل به محلة الحويش، ومن هذا الباب طريق النجف إلى أراضي البحر، وعند مخرجه محاذياً للسور متربان عظيمان يرتفعان على دور البلد والسور في خمسة عشر متراً تقريباً، وهما على جانبي الطريق العميق إلى البحر، تكونا من أتربة السور ومما تقذفه البلد، وكان الشرقي منها مركزاً لخنادق الثوار النجفيين، حيث يطل على البحر وعلى الأرض المنبسطة جنوب البلد وشرقيه تلك الأرض التي اتخذها الجيش البريطاني مسرحاً لحركاته في الثورة النجفية ضد الاحتلال. كما سيأتي تفصيل ذلك.

والباب الرابع يقع غربي البلد يسمى (باب الثلمة)[2] وهو مخرج المحلة الرابعة للنجف (العمارة)، وعند مخرج هذا الباب دار عطية أبو كلل المدعوة (الدرعية) تشبهاً بدرعيتي آل سعود وآل رشيد، وحذاءها طريق تصل وديان أراضي البحر وطرق بساتينه، كما تتصل بالباب طريق أخرى مما يلي السور تصلها في جنوب الجبانة المار ذكرها، ووراء الجبانة في طريق كربلاء لم تزل آثار ثلاث سلاسل من الخنادق حفرها الجيش المحتل واتخذها خطوطاً دفاعية عند الثورة النجفية.

لقد أطلنا البحث على القارىء مضطرين، وصورنا له جغرافية النجف الطبيعية والتأريخية، وعينا مواقع محلاته، بقي علينا معرفة أن الصحن الشريف يقع في منتصف البلد تتصل به المحلات في أسواقها، وفي أبواب منه خاصة بكل محلة[3]، والذي يسوقنا إلى البحث عن هذا الصحن إنه مجتمع النجف العام.

---

(١) أصل الكلمة باب (باش تابيه) على نحو الإضافة، والتابية في اللغة التركية اسم للرابية أو للقولة (البرج) ولقرب هذا الباب من الرابية أو القولة الكبيرة أضيف إليها، ويصحف اليوم إلى باب (اشتابيه).

(٢) أزيلت هذه الأبواب جميعها مع هدم السور وطمسه في السنين الأخيرة، كما أزيلت (الدرعية) عن بكرة أبيها في السنوات المتأخرة عام ١٩٨٠ وما بعدها.

(٣) تهدم قسم من هذا السور على عهد الحكومة التركية، فصارت ثلمة كبيرة من قبة الصفا إلى الباب القديم فعرف بباب الثلمة، وعمرت هناك دور كثيرة، وأول من عمّر بها الحاج عطية أبوكلل، ونزل حوله كثير من الناس، ثم صارت محلة واسعة خارجة عن السور، وفي سنة ١٩٨٠ هدمتها الحكومة، ورحّلت أهلها إلى الأحياء الجديدة، ولم يبق لها اليوم أثر ولا عين.

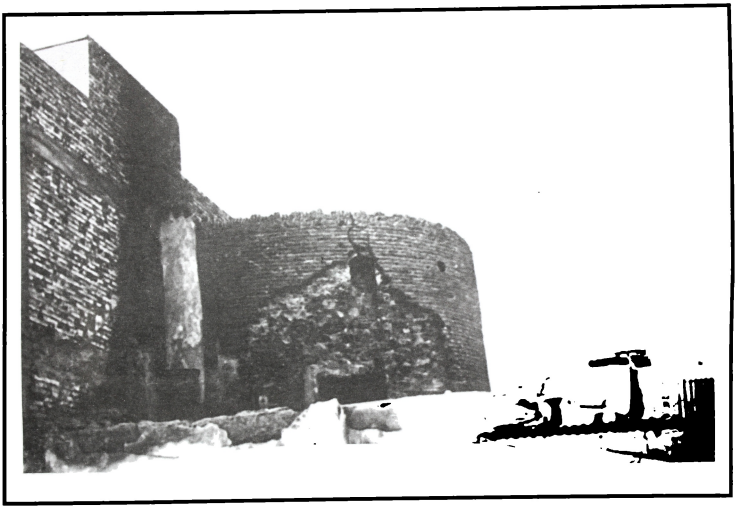

من بقايا السور المحيط بالنجف

٢ـ الصحن الشريف أكبر مجمع عام:

هذا الصحن هو المجمع العام للنجف، يرتاده النجفيون من الفجر إلى ما بعد العشاء بساعتين تقريباً، يحتشدون به احتشاداً عظيماً عند الصبح وفي المساء، فيشكلون في كل بقعة حلقات لكلّ صنف ومهنة، فتجد التجار بأنواعهم، ، الحيكة البنائين والنجارين والحدادين والنقاشين إلى غير ذلك من أرباب الصنائع والمهن والحرف، كما نجد حلقات الروحانيين والشعراء والأدباء والمحدثين والقرّاء تلاميذ المدرسة الحديثة، وكل هذه الحلق الجميلة والجماعات المنتظمة، تتحادث وتتناقش في صنعتها ومهنتها، وتعرض الآراء القيمة، والنقود الصحيحة في مختلف القضايا الإجتماعية والاقتصادية والعلمية والأدبية القديمة والحديثة بكل أنواعها، وأفراد هذه الحلقات مطلقة الحرية تنتقل من حلقة إلى غيرها، ويجني أعضاؤها من كل زهرة ما حلا وطاب، وتلقح الأزهار ببعضها، فتشمل الفكرة الحديثة والنظرية الجديدة كل الطبقات بأسرع من البرق، وسرعان ما تتوحد الآراء وتختمر الأفكار، وتتشابه اللغة والأساليب. ولا يقتصر هذا المجمع الهائل على الرجال فقط بل يحشر فيه الشباب، وتجتمع في رواق الحرم قسم عظيم من النساء، كما تستعرض في هذا المجمع جميع الحوادث والأخبار اليومية عن جميع نواحي العراق بل عن معظم أقطار العالم الإسلامي، وتصدر عن هذا الحصن جميع الأخبار والحوادث إلى سائر نواحي العراق بسرعة غريبة، حيث تجتمع فيه يومياً مئات الزوار الوافدين والمسافرين. وفي هذا المجمع تعالج قضايا البلاد السياسية والإجتماعية، وتحلل أعمال المصلحين وحياة المفسدين، وتختمر المقترحات، وفي هذا الصحن بدأ علاج قضايا السياسة الأستعمارية وفضحت أساليبها، وفيه تقام المظاهرات، وتلقى الخطب الرنانة، وتنظم الخطط لتشكيل المؤتمرات والأحزاب والأعمال الهامة. وفيه تبدأ فكرة المؤامرات الثورية الدموية فيكون هذا الصحن الشريف منتدى النجف العام بل منتدى الشيعة أو منتدى العالم الإسلامي، حيث يتصافح فيه أهل مختلف الأقطار والمدن الإسلامية، وتسود بينهم روح التفاهم والوئام.

وفيه يدرس النجفي عقلية تلك الجماعات والأمم ووضعها السياسي والاقتصادي والجغرافي فتتأثر نفسية النجفي تأثراً عميقاً، وتألف إلى تلك الجماعات والأمم

الصحن الحيدري

وإلى مدنها وأقطارها، وتحن لها وتعطف عليها، وترى النجفي يتطلع إلى أبنائه ويشارك سكانها فرحاً فيما يصيبون من خير، وترحاً فيما يصابون من شر. وقد نتج عن هذه التربية في الصحن الشريف، وعن هذ التأثر الروحي العميق لدى النفسية النجفية نحو سائر الأقطار العربية والطوائف الإسلامية أمران هامان:

أولهما: تقلص الأنانية النجفية تدريجاً حتى أصبح النجفي عربياً يكبّر قومه، ومسلماً يقدس المسلمين، فلا يرى فرقاً كبيراً بين وطنه العراق وبين سورية والحجاز ومصر وغيرها من البلاد العربية والإسلامية، وكذا لا يؤثر بلده النجف على بغداد والبصرة والموصل وغيرها، كما أنه بعيد عن التعصب الطائفي الذميم كل البعد، وبعكسه النجفي الذي لا يتوفق إلى تربية هذا الصحن الشريف، وينشأ خارج النجف، فقد وجدناه يعود إليها وقلبه مفعم بالعصبية، وطبعه متأثر بها. وياليت لو أدرك عقلاء الناس؟ وتنكبوا العوامل التي تولد روح العصبية في هذه النفسية الطيبة وتركوه سليماً لا يرى فرقاً بين أبناء قومه أو وطنه.

وثاني الأمرين: طموح النجفي وشوقه للأسفار، والضرب في البلاد الإسلامية طولاً وعرضاً في كل سنة وعام، فلا يجتاز الإنسان مدينة أو قرية، ولا يطوف قطر وبلاداً إلا ويجد فيها عدداً من المسافرين النجفيين سواء في سورية أو في الحجاز أو في الهند وإيران أو في سائر أنحاء الجزيرة العربية.

هنا تسألنا الوطنية، وتلّح في سؤالها القومية. ما هو واجبكم نحو هذا الصحن الشريف ونحو تربيته؟

نعم، جدير بنا نحن المسلمين عامة، وحري بنا نحن العراقيون خاصة أن نقدس هذه التربية الصحيحة والواجب يقضي أن نعمل على استمرار هذا الصحن في تربيته هذه وتشجيع المجتمعين فيه على التصلب في مبدئهم القويم بأن يقدسوا عموم المسلمين كي يثابر المصلي والمحدث والمتضرع جميعهم بالدعاء إليه تعالى في تأييد الإسلام وعموم المسلمين ومشارق الأرض ومغاربها، وما أعظم المضار الناجمة لو أنقلبت تربية هذا الصحن إلى الأنانية وإلى سموم التفرقة المهلكة والعياذ بالله، وفي عها العثمانية عظة وذكرى لقوم يعقلون.

٣ـ جامع الهندي:

لا بُدّ لنا من الإشارة إلى جامع الهندي المعروف فهو ثاني مجمع في النجف بعد الصحن ويقع قريباً منه في سوق القبلة[١]، وقد بنيت أساسات هذ الجامع العظيم على العلم والتقوى، واستحالت أحجاره إلى دراسة وتقشف في الدين الحنيف. يرتاده الدارسون والمصلون من قبل طلوع الشمس إلى غروبها تدرس فيه الفلسفة الروحية والفقه وأصول الحديث، وقواعد اللغة وآدابها إلى غير ذلك من العلوم الدينية والأدبية، كما يتعبد فيه المتعبدون إلى ما بعد العشاء.

وفي هذا الجامع العظيم اقميت وتقام الآف الاحتفالات المختلفة منذ سنة ١٩١٠م كما سيأتي بيانها في الفصول الآتية. ومنها الاحتفالات ضد الإحتلال وهو من هذه الناحية يشبه جامع الحيدرخانة في العاصمة غير أنه سبق بأن أقيمت فيه المظاهرات والاحتفالات ضد الأجانب على عهد الحكومة العثمانية، وفي هذا الجامع أنشدت الشاعرة النجفية باللغة العامية قصيدة مطولة مستهلها:

«يصفقه مسجد الهندي ما أبقت عقل عندي»

وذلك عقيب مظاهرة أقيمت فيه عند بدء الثورة كان التصفيق فيها حاداً جداً.

٤ـ طبقات السكن النجفي الحالي وأثر كل طبقة:

القارىء ننحرج عن التوغل في هذا الموضوع حذراً من الشطحات ومس الكرامات، وعسى أن لا يحمل بحثنا على الأغراض والمقاصد، وسوف نسير في الموضوع سير كاتب وصّاف أو باحث إجتماعي يحاول إبراز الحقيقة.

لا نتفق نحن والإحصاء الرسمي في أن عدد نسم السكان ثلاثون ألفاً، ونعتقد أنه يبلغ الخمسة والثلاثين. وينقسم هؤلاء السكن إلى ثلاثة أقسام:

أولها: وأكثرها عدداً وأهمها (طبعاً) العراقيون، ويضم هذا القسم فريقي الزكرت والشمرت اللذين تغلب عليهما لقب المشاهدة، وكذا سدنة الحرم المقدس، ومعظم

---

(١) أُسس هذا المسجد في أوائل القرن الثالث عشر الهجري في عصر الشيخ حسين نجف الكبير، ثم طرأت عليه عمارة ثانية سنة ١٣٢٣هـ وهي العمارة الموجودة إلى يومنا هذا. وفي ١٥ شوال ١٣٧٥هـ اشترى فقيه عصره السيد محسن الحكيم دارين متصلين بالمسجد، وجعل بعضهما ساحة مكشوفة، جعل قسم منها مقبرة ومكتبة عامة.

التجار، وبعض أرباب المهن والصنائع، يبلغ عدد هذا القسم عشرين ألفاً تقريباً يضاف إليه فريق العرب من الروحانيين البالغ عددهم الثلاثة الآف تقريباً. ولهذا القسم النفوذ الصحيح والسيطرة الحقيقة في البلد سواء منهم الروحيون أو السدنة الذين لهم النفوذ الأدبي والديني أو التجار الذين لهم النفوذ الإجتماعي أو المشاهدة الذين لهم النفوذ الحربي وفيهم رئاسة النجف العملية التي تخشى صولتها ويرجى عطفها.

وقد مرّ على القارىء حياة هذا الفريق، وكيف أنه أضرّ النجف من وجهة التقدم العمراني والاعتزال عن الطبقة الحاكمة، والتباعد عن النظم والقوانين المتبعة في الدولة حينذاك، بل الاعتزال عن العراق تقريباً. وكذا كيف أحست للنجف في الناحية القومية فمنع الأجانب من التغلغل في حياة البلد ومجتمعها وحال دون أفساد قوميتها ولغتها وعاداتها.

والقسم الثاني: وهم الأقلية المهاجرة وفيهم التاجر والصانع المحترف، ويبلغ عددهم السبعة آلاف تقريباً، وقد امتزج بعضهم مع إخوانهم النجفيين امتزاجاً تاماً، وقد تجنّس بعضهم بالجنسية العراقية يحمل لها شعوراً طيباً وحساً شريفاً وأفراد، منهم واسى أخوانه النجفيين في جميع الحوادث والأعمال التي نحن في صدد البحث عنها، ومعظمهم من اتخذ خطة العزلة والحياد يعيشون بينهم فكأنهم لم يسكنوا النجف، وكأن النجف لا تعرفهم، ولكن النشاط والمواهب التي وهبوا بها والعوامل التي تقدم ذكرها ساعدتهم على خلق كيان لهم مستقل تدعمه روح التعاون بينهم، وأظن أنهم أصبحوا في غنىً عن الوطنيين في معظم حاجياتهم الضرورية والكمالية. وكأنهم من هذه الناحية أبناء بلد آخر حال في النجف وقد امتلكوا الدار والعقار.

والغريب أن معظم هاته المهاجرة ترغب عن وطنها الأصلي، وقيل أن بعضهم سافر إلى وطنه ولكنه سرعان ما عاد إلى النجف يحمل ذكرى إحساسه الطيب نحو النجفيين، والأغرب من ذلك ما اشتهر أخيراً من أن وطنهم الأصلي يعتبرهم عراقيين فلا يأتس لهم.

فجدير بنا نحن ـ النجفيين ـ والحالة هذه أن نزيد في مجاملتهم وأن يكن الأجنبي ثقيلاً.

قد يقال أن روح التضامن جعل منهم كتلة قوية يمكنها المحافظة على مميزاتها القومية ولا يتسرب إليها الوهن والانحلال. وقد يقال أن قد أصبح لهم شأن بفضل

اختلاطهم واحتكاكهم مع بعض ذوي النفوذ والسلطان، ومع ذلك لا أدري أن كانوا يقصدون مزاحمة الوطنيين؟؟؟ غير أني لحظت في لغة أفراد من الوطنيين نغمة اللغة الأجنبية، وفي البعض الآخر تغير في مخارج الحروف وفي تركيب بعض الجمل الأمر الذي يؤلم الوطني الغيور على قوميته.

القسم الثالث من السكن النجفي: الروحيون، وهم طبقة الخاصة في النجف. وهذا القسم نوعان:

[الأول]: الروحيون العرب الوطنيون المتقدم ذكرهم.

والنوع الثاني: الروحية المهاجرة، ويبلغ عدد أفرادها الخمسة آلاف تقريباً. وإذا أضفنا إلى هذا العدد الثلاثة آلاف من الروحيين العرب يبلغ عدد الطبقة الروحية الخاصة الثمانية آلاف تقريباً، والفروق الإجتماعية بين العرب الروحيين المهاجرين كبيرة جداً فإن معظم القسم الأخير تزينه صفات المهاجر الصحيح، غالباً ما تتكتل أفراده وزمره في المدارس الدينية منقطعة إلى الدراسة بغير أهل ولا عيلة ويتجنبون الإختلاط مع النجفيين ما أمكن.

أما مركز هذا القسم الروحاني بين سائر أقسام النجف فيشبه في كثير من الوجوه بعض طبقة الأفندية بين سواد بغداد ووجهائها، فهم أقوياء كل القوة في النواحي الأدبية والمعنوية ضعفاء أزاء تلك الطبقات في النواحي العملية والمادية، وإلى هذه الطبقة العالمة المهاجرة منها، والعربية يعود فضل التطور الفكري والثقافة الماثلة في النجف الآن، وكانت لهم السابقة في اعتناق المبادىء الوطنية بعد أن اشبعتها بحثاً وتمحيصاً، واجتهدت بصحتها نظرياً، وإنها لا تصطدم مع القضايا الدينية، وهي التي نهضت بمعظم المشاريع الأدبية، وفي أكثر الحركات ضد الأجانب (إلا بعض أفراد من سائر الطبقات) كما سيظهر ذلك في غضون فصول، رسالتنا هذه.

قدمنا أن هذا القسم الروحي نوعان: عرب، ومواطنون من المهاجرة، ولكن النفوذ لدى أي نوع والزعامة الدينية في أيهما، وهل تطورت وتحولت ومتى؟

نعم، الرئاسة الدينية الآن لدى النوع الثاني بدأ دورتها فيه منذ قرن تقريباً، وانتهى دور تحولها في النوع العربي الأول حتى بلغ أوجه منذ خمسين عاماً تقريباً، ومعظم العلماء المجتهدين المقلدين الآن منهم، وعنهم تأخذ عامة الشيعة مسائلها الدينية

الفرعية؛ ولذلك سوف يرى القارىء في فصولنا الآتية أكثر الأعمال والتطورات تظهر بأسماء الأعلام البارزة كما هي سنة الإجتماع والحقيقة أن معظم أو جلّ الأعمال لغيرهم فإن في حياة العالم الروحية والدراسية والقضائية، وفي انقطاعه إلى ربه ما يحول دون التوغل في المسائل السياسية، وإن شذ منهم أحد فلا قياس عليه، فيكون زمام الأعمال بيد الأعضاء المتنفذة من هذا القسم، ويكون تدوير شؤونها تحت سلطة الأعضاء القوية من النوعين المهاجر والعربي.

وقد اختلفت في تدوير هذه الإدارة أيدي هذين النوعين، وكان للنوع المهاجر أن تقدم وسبق في إدارة الأعمال والحركات الوطنية منذ عهد الدستور العثماني، وكان النوع الثاني مساعدها الأكبر، ولكن قبيل الحرب العامة تغلب النوع الأول وباشر العرب من الروحيين يديرون أهم الأعمال إلى العهد الحاضر.

وعلى كل حال النجف تشكر جهود هذا القسم بنوعيه، والعراق يدين لهم إلى الأبد سواء العلماء المجتهدين أو الأعضاء والأفراد العاملين من العرب والمستعربين.

٥ـ مكانة النجف ومنزلتها بين المدن:

لمدينة النجف مكانة ومنزلة كبرى ليست في العراق فحسب بل في جميع العالم الإسلامي والذي كون هذه المنزلة السامية الدين المقدس، والدين وحده كفل تمصير النجف ومكّن لها مركزها إذ ليس في النجف من المؤهلات الطبيعية لتكوينها مدينة فلا ماء ولا زرع ولا ضرع، بل ولا مناجم طبيعية تجتذب الأيدي العاملة والسكن فيها، وكل ما نالته من التجارة والصناعة فمن طريق الدين الحنيف فهو مصدر حياتها، وقد تمثل هذا الدين الحنيف في قبر الإمام عليه السلام، وما ضم من الأرواح القدسية، ومن هذا الإمام العظيم وقبره المقدّس تتفجر ينابيع المياه، وتتدفق موارد الثروة، وبفضل هذا الإمام الأعظم تدرجت هذه المدينة ونالت منزلتها الكبرى. ربما استخف البعض بمنزلة النجف كمدينة صغيرة بين كبار المدن العراقية، ولكن العالم الإجتماعي المدقق يعرف مقدار تمركزها في نفوس الشيعة، ويستحيل أن تجد شيعياً تحرم مخيلته من صورة النجف كما يستحيل أن تجد شيعياً تمكنه زيارة النجف، ويحجم عن هذه الزيارة وكلهم يتمنى لو سكن النجف، بل يعتقد معظم الشيعة أن ليس هناك علوم دينية في غير النجف، بل ولا فنون أدبية وشعراء وأدباء بارزين.

لقد سيطرت النجف على العادات العراقية فما عادة يتخذها النجفيون في نواديهم ومجالسهم في أفراحهم وأحزانهم، في مآكلهم ومشاربهم إلا وأقتدت بها سائر المدن العراقية معجبة مفتخرة.

سيطرت النجف على المسلك والازياء، فلا يستعمل النجفي طريقته في الزيارة والمعاشرة والمجاملة والمراسلة، ولا يلبس نوعاً من الملابس إلا واستعملت في معظم مدن العراق.

تحكم سلطان النجف المعنوي على الغرائز والطباع، فعندما تقدم ارادة النجف على مقاومة الحكومة تسارع سائر المدن مقتفية أثرها في الإقدام على تلك المقاومة، ولا يجرىء النجفيون على التصريح بمبدأ أو رأي إجتماعي أو سياسي إلا وتبعها معظم نواحي القطر.

فالنجف هي القدوة والقائد المتبع، والذي يستلفت نظر الباحث أن قدوة هاته المدن اختيارية بل شبه عاطفية تستاق سائر المدن بإرادة لا تنبهية بدون محاكمة ولا قيد أو شرط.

وأظن أن هذا السلطان النفسي للنجف لا يوجد نظيره لسائر المدن ولا لأمهات المدن العراقية.

نعم، اقتدى البعض في بعض المدن المهمة، ولكن بصورة قسرية وبواسطة المؤثرات الخارجية التي لا قيمة لها لدى التحليل النفسي على أن للخلال والشمائل العربية النجفية أثراً فعالاً في دعم ومساندة الدين لتمكين مركز النجف.

والأمثلة على إقتداء العراقيين بالنجف كثيرة. في سنة ١٩١٥م ثارت النجف في وجه الحكومة العثمانية، وما أن تغلبت عليها إلا وسارعت كربلاء والشطرة وأبو صخير والكوفة والسماوة والحلة فثارت في وجه تلك الحكومة وطردتها حرباً في ظرف شهر تقريباً، والأغرب أن معظم الثائرين النجفيين كان من قسم المشاهدة فقط، أما بقية الأقسام فقد كانت تعاضد الحكومة العثمانية، وكانت أبطالها تقود جيوش الأمة العراقية مغامرة في ساحات القتال ضد جيوش الإحتلال الزاحفة فيرى القارىء أن النجف قامت بحربين عظيمين متناقضين تمام التناقض في وقت واحد.

ويرى القارىء أن العراق انقاد إلى النجف رغم هذا التناقض والتبلبل في المبادىء

والمعتقدات والأعمال. وإلى أي شيء انقاد العراق، انقاد إلى المجازر والحروب فهل يتأتى لمدينة في العراق أن تقوم بهذه الأعمال العظيمة، هل يتأتى لطائفة في العراق أو لحكومة عراقية أن تقوم بتنظيم هذه الأعمال؟ أليس في هذا المثال دليل عملي على مركز النجف ومنزلتها.

ومن الأمثلة جواب بعض زعماء أحد ألوية العراق المهمة في مسألة استفتاء شكل الحكومة سنة ١٩١٨م بأنهم يختارون ما اختارته النجف، وذلك عندما طاف الحاكم السياسي البريطاني العام بطيارته في جميع نواحي العراق مبتدءاً بالنجف لغاية استفتاء الأمة في شكل الحكومة التي تصبو إليها.

ومن الغريب أن هؤلاء الزعماء لم يكونوا على علم من رأي النجفيين، وقد أصروا على عدم التصريح برأيهم بصورة استقلالية بل اكتفوا بالتقليد الأعمى للنجف، والأمر الذي أوجب سخط ذلك الحاكم.

٦ـ النفوذ الأجنبي في النجف على عهد الحكومة العثمانية:

سنتحدث عن النفوذ الأجنبي في النجف على عهد الحكومة العثمانية، وهذا الحديث ذو شجون، وفي هذا الحديث عبر وذكرى.

وفي هذا الحديث يتعثر القلم، ويتلعثم اللسان، حذر أن تكشف خبايا الزوايا، فتسود وجوه وتبيض وجوه. ويعسر علينا في هذه العجالة تنقيب الدفائن. ويكفينا أن نتحدث عن الموضوع بصورة عامة تأتي على أثر هذا النفوذ وعلى نتائجه، يعود هذا النفوذ إلى حكومتين أجنبيتين بريطانيا وروسية القيصرية.

ويبدأ النفوذ البريطاني منذ تاريخ مباشرة بريطانيا في إعطاء وتوزيع خيرية (أودة) من هو اودة؟ وما هي خيريته[1]؟

---

(١) وقف أوده، أو خيرية أوده:

أثارت الأموال القادمة من هذا الوقف لتوزيعها على رجال الدين والفقراء وطلاب العلوم الدينية وأهل الخير والتي تعرف بـ «فلوس الهند» جدلاً بين الطلاب ومشاحنات بين بعض المتولّين لتوزيعها. ولورودها في هذه المذكرات، لذا لا بُدّ من الحديث عنها:

(أوده) هي مقاطعة في أواسط شمال الهند تقع بين نهري جمنا والغانج كانت تابعة لسلطنة دهلي. وقد أصبحت مستقلة بين ١٧٢٤ ـ ١٨٥٦م. أسس فيها سلالة شيعية سعادة خان الذي كان حاكماً للمغل في أوده وأعلن استقلاله عن دهلي عام ١٧٢٤م، واعترف فيها الإنكليز دولة مستقلة عام ١٧٧٤م، =

= ومنحوا (النوّاب) السابع غازي الدين حيدر لقب ملك. حلت محل دهلي وأصبحت العاصمة لكنهو مركزاً علمياً وثقافياً عظيماً. أخلص ملوكها للمذهب الشيعي وشيدوا في لكناو ضرائح الأئمة الشيعة تماثل الضرائح الأصلية. خلع الإنكليز آخر ملوك السلالة واجد علي شاه عام (١٨٤٧ ـ ١٨٥٦).

وقد أثقلت سلطات الاستعمار البريطاني كاهل حكامها بالضرائب حتى أوصلت الدولة إلى الإفلاس.

أما عن الأموال التي ترد العتبات المقدسة، يقول الأستاذ جعفر الخياط في موسوعة العتبات المقدسة، الجزء الأول من القسم الخاص بمدينة النجف، ص٢١٤ ـ ٢١٧:

«كان غازي الدين حيدر ملك أوده قد أوقف مبلغاً قدره (١٢١,٠٠٠) روبية في السنة لتصرف صدقات إلى مستحقيها في المدينتين المقدستين ـ كربلاء والنجف ـ فوجدت حكومة الهند التي ورثت مسؤوليات شركة الهند الشرقية نفسها في موقف الناظر على هذا الوقف. وكان توزيع هذا المبلغ في كل سنة يثير عدداً من المشاكل... على أن السير أرنولد ويلسن يورد في كتابه (بين النهرين ١٩١٧ ـ ١٩٢٠م) وهو كان منشأ هذا الوقف، أن اللورد (أمهرست)، حاكم الهند العام، كان قد استقرض مبلغاً جسيماً من ملك (أوده) بمناسبة الضائقة المالية التي حصلت بنشوب الحرب في بورما سنة ١٨٢٥م. وكان القرض بقيمة عشرة ملايين روبية، لكن ملك (أوده) قد اشترك بدلاً من تسديده إليه أن تقوم حكومة الهند بصرف الريع المستحق عليه إلى الأبد، بنسبة ٥٪، على جهات خاصة منها بعض الناس والطبقات في النجف وكربلاء. وقد حصلت بعد ذلك تعقيدات كثيرة بسبب غموض الوقفية والشروط المدرجة فيها وخشي الأتراك من أن تتخذ مدفوعات هذا الوقف لأغراض تخريبية تتجاوز حدود الوقفية.

أما الدكتور جون هوليستر مؤلف كتاب (شيعة الهند) فيقول: إن ملوك (أوده) كانوا قد وضعوا للاستثمار في قروض حكومية مبلغاً يقدر بثلاثة ملايين ونصف المليون باوند استرليني، ليصرف على أفراد أسرهم ومتعلقيهم. وظل نسل هؤلاء يتقاضون ربح ذلك المبلغ بالنسبة الأصلية بحيث يبلغ مجموعه في كل سنة شيئاً يزيد على أربعة عشر لكاً من الروبيات. وقد كان البعض من مستحقي هذا الوقف متعودين على توزيع بعض المبالغ في العتبات المقدسة الموجودة في مكة والمدينة وكربلاء والنجف الأشرف، ونظراً لأن قسماً منها لم يخلّف وريثاً أو وصية خاصة في هذا الشأن فقد ظلّ ما يستحقونه يبعث كله إلى العتبات المذكورة».

وقد شرح لوريمر في كتابه (دليل الخليج) ص٢٣٦٩ ـ ٢٤٠٦ في القسم المخصص للعراق الذي دوّن فيه وثائق شركة الهند الشرقية بالتفصيل ملابسات توزيع أموال ذلك الوقف وأورد أسماء الذين كان يستلمون رواتب ثابتة أو من يقومون بتوزيع تلك الأموال.

ويذكر الشيخ محمد حرز الدين في كتابه (معارف الرجال) ٢/ ١٠٨:

«... قبضها أولاً السيد علي بن السيد رضا بن السيد محمد مهدي آل بحر العلوم الطباطبائي النجفي (ت١٢٩٨هـ) ثم قبضها بعده السيد علي بن السيد محمد تقي بن السيد رضا آل بحر العلوم، ثم تولاها طوائف من الناس توزيعاً، وأعدل السيد علي الأول بصرفها وقد هاجت عليه بعض المرتزقة بدعوة التظلم ورفعوا شكاية إلى بغداد، واشتد الأمر أيام السيد محمد.

وعرضت هذه الخيرية على الشيخ محمد طه نجف، فأجاب بعد الاستعاذة والبسملة ﴿قل يا أيها=

أودة، ذلك الأمير الهندي الذي كان قد أقرض بريطانيا مئات الألوف من الربيات أثناء حرب الترنسفال، ولكن أنف حضرته وتعاظم عن استلامها عند التسديد.

إذاً ما هو الرأي في أمر هاته المبالغ، وما الحلية؟ فكان الرأي الاستعماري إيداعها لدى البنك على أن توزع أرباحها على فقراء مدينتي النجف وكربلاء بمعرفة الحكومة البريطانية، وكانت هذه المبالغ تقدم إلى أفراد خاصة من قسم المهاجرة النجفية والكربلائية، ولكن القنصلية البريطانية وجدت في هذه المبالغ الطائلة الدواء الناجع لزيادة النفوذ واستمالة واستهواء نفوس ضعاف الناس واحلال المكانة البريطانية فيها، فتولّى القنصل بنفسه توزيع تلك الدراهم.

= الكافرون لا أعبد ما تعبدون﴾. فقال له الرسول: أنا مسلم، فأجابه: نعم ولكنك آلة للكافر، وقال له الرسول ثانياً: قبضها قبلك جماعة من المسلمين، فتمثل الشيخ بقول الشاعر:

أيهـا السـائـل عنهـم وعنّـي ... لسـت مـن قيـس ولا قيـس منّـي

وبلغ الدولة العثمانية هذه المحاورة فسرّت بذلك.

وعرضت هذه الخيرية على الحاج ميرزا حسين الخليلي أيضاً وكنت حاضراً في مجلسه الخاص ـ الكلام لحرز الدين ـ فهممت بالقيام لكي أنصرف فمنعني الشيخ من الانصراف وبعدما أخلي المجلس لرسل الإنكليز من المسلمين من أهل أفغانستان. ثم وجه الشيخ سؤالاً لي في هذا الأمر ما نصه: ما تقول أيها الشيخ بذلك فأجبته إن سرت سيرة الشيخ الأنصاري بإعطاء كل ذي حق حقّه يجب عليك قبولها، وإلاّ لا يحسن منك أخذها، وقصدت بهذا وجه الله وقاومت المترفين وقرّبت من الضعفاء. ثم حدث ما حدث في المجلس...».

أما الشيخ علي الشرقي فيقول في كتابه (الأحلام):

«... في النجف توزيعة لكل ثلاثة أشهر تسمى تقسيم فلوس الهند، أو خيرية أوده، وكانت حصتي منها نصف مجيدي شهرياً، وفلوس الهند هذه تحبيسة من أحد راجات الهند... راجة أوده وسببها أن الإنكليز كانوا في ضائقة مالية فعقدوا قرضاً بفائض نسبي، واشترى راجة أوده قسماً من الاستدانة، وبعد أن تحسن الوضع المالي عند الإنكليز أرادوا إطفاء ذلك القرض، ويقول الراجة لمستشاره المالي أنه لا يريد أن يقبض المبلغ بل يتركه منحة لا يتوهموا أنه في حاجة إليه...

وكان المستشار مؤتمناً فيحول فكرة ذلك السخيف إلى فكرة أفيد وأعود قائلاً له: يمكنك أن تشعرهم بعدم حاجتك، وفي نفس الوقت تقوم بمبرة كبيرة، إن فائدة القرض الرسمي تبلغ خمسة عشر ألف روبية شهرياً، فاجعلها أثلاثاً محبسه.... تلك للصرف على مقبرة العائلة ومن يلوذ بها. وثلث على مجتهدي كربلاء، وثلث على مجتهدي النجف، يصرف شهرياً بإطلاع الحكومة الإنكليزية بصفتها حكومة الهند فيوافق الراجة، وتحرر وثيقة بذلك، وأول عام وصلت فيه هذه المبرة إلى النجف هو عام ١٢٨٠هـ، وقد لعب الإنكليز أدواراً للدعارة، والتدخل في كربلاء والنجف بواسطة هذه المبرة الجارية انها حتى اليوم توزع، ولكن بواسطة الحكومة الهندية لا الإنكليزية».

وقد توغل في ذلك بعد إعلان الدستور العثماني في سنة ١٩٠٨م عندما شاهدت بريطانيا استفحال النفوذ الالماني في الدولة العثمانية، ثم تمكن الألمان من الحصول على إمتياز خط (برلين ـ بغداد) وقد انتظم بفضل هذه الدراهم الخيرية قلم استخبارات واسع النطاق، عظيم المفعول، ورفع ونظم عن النجف التقارير الشفهية والتحريرية المسهبة، وقد نشط القنصل للعمل أكثر حينما علم أن هناك بذوراً تبذر ضد أساليب الاستعمار، وإن هذه البذرة قد تعهدها بعض مفكري النجف، وإنها صادفت تربة خصبة وذلك سنة ١٩١١م فباشر بنفسه توزيع تلك الدراهم على فقراء النجف.

وكان لتكرار قدومه إلى النجف أكبر وقع وأعظم دعاية بريطانية، حيث تراه أثناء تجواله بالمدينة محاطاً بجماعات الفقراء في الأزقة والأسواق والمدارس ينقب عن ذوي القداسة والورع، ويزورهم في أماكنهم ويبذل لهم العطاء لوجه الله تعالى! وما أشدني استغراباً حينما صادفته مرة محفوفاً بموكب كبير من الناس فولج أحدى المدارس وانخرطت في زمرتهم فاخترق صحن المدرسة الواسع، وسار تواً إلى زاوية تحوي بعض الغرف، واسرع إلى غرفة مختفية عن الانظار بدون دليل، ورفع قبعته، وأستأذن ودخل على صاحبها وهو علوي إيراني، ولم يعبأ به العلوي فجلس القنصل القرفصاء على حصير بالٍ متواضعاً، فتحادثا في الأدب الفارسي وباللغة الفارسية، وعند الوداع دس تحت فراش العلوي كمية من الدراهم. ولم يفتني أن أسأل قداسة العلوي مستنكراً. لماذا زاره القنصل البريطاني؟ وما هي الرابطة بينهما؟ فلم تقنعني أجوبته المقتضبة رغم صغر سني. ولعظم انفعالي من هذا المنظر غير المألوف عمدت إلى الاستفسار عن هوية ذلك العلوي الشيخ الوقور فظهر أنه لم يكن من الروحيين رغم قداسته وسكناه، وإنما لحضرته صفة الدروشة ومرشدي الطرق، كما أن له اليد الطولى في الأدب الفارسي.

وإذا ما أردنا نحن والقارىء تحليل هذه المشاهدة البريئة (مشاهدة شاب صغير) نجد أن الحادث وإن يكن بسيطاً في ظاهره، ولكنه كبير في مغازيه، ذلك لأنه في بلد مثل النجف، ولأن المشاهدة بريئة لا يشوبها الغش والزيادة والنقصان، ولأن بطلي الحادث القنصل البريطاني والعلوي الروحي.

ومن سير الحادث يمكننا أن نعرف أن للقنصل معرفة سابقة بالعلوي وأمثاله واطلاع

على خارطة المدرسة، وينتج عن ذلك إحاطته في خارطة النجف التفصيلية وتعرفه بالشخصيات المتنفذة والمسيطرة على العقول ويتبع ذلك دراسته لسلوك النجفيين وآدابهم وأخلاقهم وعاداتهم.

ولم نسق هذا الحادث لأنه الفريد في بابه فإن حوادث المقابلات والإجتماعات وأحاديثها مع مختلف الطبقات كثيرة ومهمة. ويهون الخطب إنها كانت مع قسم المهاجرة على الكثر، وإذا تأتى لشاب مثلي أن يقف على هذا الحادث صدفة فكيف بالكبار والمتنفذين والمتطلعين للحوادث.

نعم، لا بُدّ وأن أطلع هؤلاء على أمور هامة جداً. أما موقفي إزاء هذا الحادث فقد انطبعت في نفسي صورة محزنة عن مصير هذه البلاد ولمست بيدي ما ستتمخض به الليالي لهذه الأمة.

أما موقف النجفيين إزاء القنصل ودراهمه الخيرية وزياراته ومقابلاته فقد كثرت الإشاعات والدعايات أن بريطانيا حكومة تجارية لا غرض لها في التداخل بجميع شؤون البلاد الإجتماعية والمعنوية على إختلاف أنواعها، وكثرة الأقاصيص الملفقة عن سير الحكم في الهند وانتظامه، وأصبح الأهلون ينظرون إلى حكومتهم شزراً والحقد والضغينة تملأ نفوسهم، ويتمنى الكثير لو رأى بريطانيا تحكم هذه البلاد، غير أن القسم المتيقظ من الروحيين عمل على مقاومة هذه الدسائس والدعاية الصاخبة غير أن تأثيرها على الدهماء كان ضئيلاً.

نعود بالحديث إلى سياسة روسية القيصرية، لقد عينت روسية نائباً لقنصلها تاجراً من مهاجرة النجف وهو قوقازي الأصل يدعى (أبو القاسم الشبرواني) وقد قام في دوره هذا النائب بتنفيذ سياستها عن طريق إظهار قوتها، واتخذ له داراً رفع عليها العلم الروسي حوالي سنة ١٩١١م تقريباً، وكانت عظمة حكومته القيصرية أكبر مساعد لتبوئه مكانة عالية بين النجفيين وتداخله في بعض مسائل الإدارة المحلية باسم (رعايا روسية) لأدني مناسبة، والحكومة حينذاك تخشى سطوة الروس وسلطانهم.

ولم يدخر القائممقام عبد العزيز بك وسيلة تمكنه من تحطيم سياسة القنصليتين إلى أن قامت قيامة الحرب العالمية سنة ١٩١٤م وعندها تحطمت السياسية الروسية تحطيماً تاماً.

أما السياسة البريطانية فقد تمكنت في النفوس أكثر حيث أن وجائب الحرب ومعداتها اضطرت العثمانيين إلى تجنيد الرجال وإلى الاستيلاء على البضائع التجارية والحبوب والحيوانات، وتدفع بالجميع إلى ساحات القتال، الأمر الذي أوجب بعد الشقة شقة الخلاف بين عموم الأهلين وبين حكومتهم حتى بلغ عداء النجفيين للعثمانيين منتهاه، رغم اشتراك العلماء في الحرب ضد الإنكليز يصحبهم بعض النجفيين، ورغم تفانيهم في الوعظ ونشر الدعاية لتعداد مساوىء الانكليز وحلفائهم، مع ذلك كله لم يزل معظم النجفيين حاقداً على العثمانيين وأنساً بالإنكليز، وقد جهر الكثير من النجفيين فيما تنطوي عليه نفوسهم بعد أن طردوا الحكومة العثمانية في ثورتهم ضدها.

وهنا يتساءل القارىء كيف انقلبت هذه النفسية النجفية الساخطة على الحكومة العثمانية الراغبة إلى الإنكليز، وحولت اتجاهها بعد فترة وجيزة لا تتجاوز السنتين إلى عداء نفسي عظيم إلى الإنكليز، وسنبحث عن ذلك في موضوع خاص.

الفصل الثاني

التطور الفكري في النجف

١ ـ الصحف والكتّاب والأدباء .
٢ ـ المطابع والمؤلفات .
٣ ـ النوادي والمكتبات العامة .
٤ ـ مدرسة الغري الأهلية .

كان لعهد إعلان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م رجة عنيفة وصدمة قوية للفكر القديم صدمة مفاجأة لم يألفها الفكر القديم الجاحد. ولم يعد لها ما إستطاع من قوة بل لم يتصورها ولم تخطر له ببال ولم تعين منه هذه الصدمة هدفاً خاصاً، ولم تتحر منه تلك الرجة ناحية معينة، بل تناولت جميع نواحي العقلية القديمة، واعلنت عليها حرباً ضروساً لا عهد لها بأساليبها.

لم تكتف بتمزيق العقلية السياسية القديمة، وتقطيع أوصالها، ولا بمحاربة الفكرة الأدبية والعادات والمسالك المنطبعة في نفسية السكن، بل حاولت أن تصدم بعض العادات الدينية المتوارثة، فكان نضالاً شديداً، وكان صراعاً منهكاً، وكانت حرباً شعواء بين العقل القديم والتجدد الفكري الحديث.

فبماذا تمخضت هذه الحرب؟ وماذا كانت نتائج ذلك الصراع؟ كانت النتيجة بدء تاريخ التطور الفكري العام، وإنفلات الفكر من قيود اثقلت كاهله طيلة العصور الماضية المظلمة.

ولكن هل كانت للفكر القديم قابلية لذلك الإنفلات؟ هل كان للفكر القديم استعداد للإنعتاق؟ وما ذلك الإستعداد وتلك القابلية؟ وما هي تلك المؤهلات؟

نعم كان للفكر القديم مؤهلان أساسيان بعثا فيه القابلية والاستعداد وهما:

١ ـ التحديد للتقليد الروحي الديني وتقييده في الفروع الدينية فقط من ناحية العامة المقلدة.

٢ ـ توسع باب الاجتهاد في الدين وإطلاقه من ناحية الخاصة (فيما عدا أصول العقائد) فكان للعامة مجال النظر والمناقشة والبحث والاستنتاج والأخذ برأي خاص وفي نتيجة ترضي رغبة العاطفة وتسد حاجة الوطنية، وكان للخاصة والمجتهدين مجال أوسع، وسبيل معبدة، نوفق معها النظريات الدينية مع الآراء المستحدثة على إختلاف ألوانها وأنواعها سواء السياسية منها أو الفلسفية والإجتماعية منها أو الأدبية.

ومن هنا يعرف القارىء عوامل سرعة تطور الفكر النجفي وانطباعه بالطابع الجديد، وأيضاً يعرف توغل ذلك التطور، وتخلله جميع الطبقات، وما دام في التجدد لذة للنفس، وفي التطور متعة للعاطفة، وما دام التطور لا يعاكسه الدين أو يحاربه فماذا

يمنع الشيوخ من إعتناقه والأخذ بمستحدثاته فضلاً عن الكهول والشبان. ألم تكن ضرورة الحياة وناموسها الأعظم يدفع إلى ذها التطور، ألم تكن قابلية التحول الطبيعية في الإنسان تدفع إلى هذا التجدد؟ فالتجدد في النجف بجميع مناحيه مدين إلى هذا الدين الحنيف، والتطور لجميع ألوانه مدين إلى علماء الدين، فلئن كان في التطور الأوربي لعصر الاصلاح عراك مريع ونضال مستمر آيته التكفير والنفي والتبعيد أو القتل فلم يكن في تطور النجف إلا شيء طفيف يكاد أن لا يذكر (إذا صح هذا القياس)، ولئن استغرق التطور الأوربي عهداً طويلاً فلم يتجاوز ولن يتجاوز التطور النجفي الثلاثين عاماً.

ولئن ناقش البعض نظريتنا هذه مدللاً في بعض الظاهرات المعاكسة للتطور التي تبدو بين آونة وأخرى فستكفل الإجابة على مناقشة السنن الإجتماعية لهذه التطورات، وما لا بُدّ أن يندمج في جسمها من الأعضاء الفاسدة، وما لا بد من أن يتخلله من الأدران والأمراض.

ويكفي لصحة النظرية وثبوتها وجود الأسس والعوامل المقومة لها، وها أن المدرسة الحديثة في النجف بعد أن ضاقت بها غرفها وجدرانها ومناهجها لم تكتف بولوج الجوامع، بل انسدت في المدرسة القديمة إندساساً، ودخلت حوزتها ومكتباتها وغمرت في دراستها بدون إستئذان وبدون مجاملة، فكانت ضيفاً متحكماً في المرافق، وكان زائراً متداخلاً في جميع الشؤون والأساليب.

نظرة بسيطة إلى حياة النجف قبل ربع قرن، وإلى ما كانت عليه من الإنطماس في لجة عمياء، وإلى حياة النجف اليوم نجد أن البون شاسع، وإن المقارنة لا تصح إلا بالعلائق الضديّة.

أليس في البلد اليوم حركة فكرية عنيفة؟ أليس في البلد اليوم إنقلاب فكري شامل أتى على جميع النواحي العقلية.

أما ظاهرات هذه الحركة الفكرية فتتجلّى للباحث في عدة مشاريع ومؤسسات قيمة، القائم منها الآن والمندثر، وسوف نحدث القارىء عن تاريخ نشأتها وعن مجاري تطورها كي تسهل معرفة عوامل تدرج النجف الفكري، وتتضح خطوات ذلك التدرج والتطور، لعلّ في ذلك دروساً وعبراً، لعل في ذلك أمثلة جلية تفيد الجيل

الحاضر الملقي على عاتقه إكمال المهة واستثمار نتاجها، لعل في ذلك قضايا بديهية يكون منها الشباب اقيسة صحيحة تعضده في رسالته وتنير إمامه نهج الانتاج، وطريقه جني الثمار.

والفلاح الذي لا يحسن الاستثمار أيها الشباب كالمحروم منه، سواء بسواء، والفلاح الذي يضع الثمار تحت رحمة المفاجئات الطبيعية أيها الشباب مثله مثل من غضبت عليه الطبيعة وحرمته من مرافقها.

يعود بنا البحث إلى ألون هذا التطور الفكري. ولعلّ القارىء استخلص منه أربعة: التطور الأدبي، التطور الإجتماعي والعمراني، والتطور السياسي، والتطور الحربي وأحزابه السياسية.

وسنبحث الآن في مواضيع التطور الأدبي:

١ـ الصحف[١] والكتّاب والأدباء:

إذا صح ما قيل أن الصحف رسل المدنية إلى الجيل الجديد، وإذا صح ما قيل أن الصحف خير ظاهرة للحركة الفكرية، فحري بالنجف أن تطلع علينا بصحف قيمة، غيران بعض المؤثرات الخارجية قعدت بهذه الصحف.

فضعف المادة، وقلة ذات اليد، حال دون تقدم الصحيفة النجفية بل شوهها وأضعف مادتها، ودفع بارباب المواهب السامية والاقلام المرهفة إلى معترك الأعمال، في وظائف الدولة ودواوينها غالباً، على أن النجف لم تعدم بعض الصحف التي قام بتحريرها أفراد من الشاب المتطلع.

وليس عهد مجلة الحيرة، جريدة الفجر الصادق، جريدة النجف ليس عهدها ببعيد.

أما الكتبة والأدباء النجفيون فسل عنهم الصحف السورية والعراقية تنبئك عن أبحاثهم وفرائد مقاطيعهم الشعرية، ويصعب علينا استحضار عدد اسمائهم، وإن أردنا المقارنة بين أمس النجف ويومه، وبين حال النجف الحاضرة وحالتها قبل ربع قرن لم

---

(١) لزيادة الاطلاع، انظر: تأريخ الصحافة النجفية، للمرحوم الأستاذ عبد الرحيم محمد علي. مجلة البلاغ الكاظمية، السنة الثالثة ١٣٩٠ ـ ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م، الأعداد/ ٥ و٧ و٨ و٩ و١٠.

نجد في النجف حينذاك ولا كاتب واحد على طراز العصر بتاتاً.

نعم، كان في النجف أدباء بارزون، وشعراء مجيدون، ولسوق الأدب رواج حسن، ولكن على الطراز القديم، ولدى فريق خاص من الروحانيين، لم يكن في النجف معروفاً اسم الجرائد والصحف، بل تدعى (القسطات)[1] وهي لفظة تركية، ولم يزل أحد الشيوخ يدعوها بهذا الاسم حتى الآن. أما قارؤوها فلا يتجاوزون عدد أصابع اليد، مثل المرحوم السيد مهدي البغدادي، والمرحوم أغا أسد خان، والعلامة الشيخ جواد الجواهري، والمرحوم السيد جواد الكليدار، والسيد الشريف المولى محمد علي بحر العلوم، والملا علي أمين الصندوق، على أنهم كانوا يطالعون الصحف سراً وبتحفظ.

وكانت صحف المطالعة جريدة الزوراء البغدادية، وجريدة الإقبال البيروتية. هكذا كانت قيمة الصحافة قبل الدستور. أما بعد اعلانه سنة ١٩٠٨م فقد بدأت الصحف تتعاقب إلى النجف، ورأينا البريد يحمل في حقيبته بعض الصحف السورية الجديدة وفي مقدمتها مجلة العرفان، تلتها بعد حين جريدة البلاغ البيروتية، فالمقتبس، ثم الحارس والبرق اللبنانية، وبعد أشهر طلعت علينا الصحف المصرية كالمؤيد، والمقطم، والمتقطف، فالهلال، والأهرام، والنيل، وتلتها صحف الأستانة ـ عاصمة دولتنا حينذاك ـ مثل جريدة الإتحاد لصاحبها عبد العزيز شاويش المصري، وجريدة طنين التركية لسان حال حزب الإتحاد، وثم مجلة المنتدى الأدبي العربية لصاحبها أحمد عزة بك الأعظمي، وأيضاً جريدة حبل المتين التي تصدر في الهند باللغة الفارسية، وكان لها رواج كبير لدى الإيرانيين، كما كانت ترد بعض الجرائد الإيرانية ولكنها متقطعة لاضطراب حبل الأمن في إيران.

ولم يعن النجفيون في جرائد بغداد ولم يشتركوا بها أو يراسلوها، حيث لم يجدوا فيها ما يروي ظمئهم إلى العلم والمعرفة الحديثة، غير أن البعض كان يطالع (جريدة الزهور) البغدادية لسان فرع حزب الإتحاد ببغداد لصاحبها رشيد الصفار، ومجلة (لغة العرب) لصاحبها الأب انستاس الكرملي.

---

(١) القسطة: تحريف لكلمة (غازيتا) الأوربية، وتعني الجريدة.

وربما هال القارىء كثرة عدد الصحف الواردة للنجف فاستنتج كثرة قارئيها، ولكن لا أظن أن عدد القارئين يتجاوز المائة من اخواننا الإيرانيين، والخمسين من العراقيين الموظفين والأهليين، ومعظم هؤلاء المطالعين من الروحيين، وكانوا يتحرجون من الجهر بقراءة الصحف في الأماكن العامة كالأسواق والمجالس العامة وفي الصحن الشريف، إنما يختبئون عند قراتها.

والويل كل الويل لمن تراه العامة حاملاً صحيفة بيده حيث ينهال عليه السب والشتم والطعن على أن لا يرى أو يسمع ما أمكن.

ولكن هي التضحية التي يقوم بها بعض أفراد تأصلت مبادئهم، وتشربت نفوسهم روح الاخلاص؛ هي التضحية تدفعهم إلى صدم العامة، وتحملهم على تلقي الصعوبات والأذى بصدر رحب في نيل غرضهم السامي ومثلهم الأعلى.

وكان هذا العدد القليل من القارئين يلتهم الصحف إلتهاماً، يطالعها بتمحيص وجدية لا مزيد عليها، ويتناقش في معاني بعض الجمل والكلمات وفي مغازي المقالات وأغراض الكتاب. وربما وجدوا في ذلك صعوبة لعدم دراستهم الفنون العلمية الحديثة، ولقلة اعتيادهم على أساليب الكتابة الحديثة، غير أن المثابرة وطول الممارسة أبلغ الكثير منهم درجة النبوغ، وسار بهم شوطاً بعيداً في مضمار الصحافة، فراسلوا الصحف السورية والمصرية، واحتكروا مجلة (العرفان) وجريدة (جبل عامل) الطافحة بقصائدهم الفريدة ومقالاتهم القيمة، وقد جرأ البعض على إصدار مجلة باللغة الفارسية باسم (درّة النجف) سنة ١٩١٢م، وأظن إنها طبعت في بغداد، ولم يصدر منها أكثر من عددين[1]؛ ثم عقبتها في اللغة العربية مجلة (العلم) لصاحبها الاستاذ العلامة

---

(١) تحت هذا العنوان صدرت في النجف مجليتن باللغة الفارسية:

الأولى: مجلة الغري أو درّة النجف، صاحبها ومدير تحريرها: أغا محمد المحلاتي وصاحب الامتياز حاج شيخ حسين أصفهاني، وتطبع في المطبعة العلوية بالنجف. صدر عددها الأول في ذي الحجة ١٣٢٧هـ بـ ٦٢ صفحة، وعددها الثاني في ١٨ صفر ١٣٢٨هـ في ٣٢ صفحة.

الثانية: مجلة درّة النجف، صاحبها ومديرها أغا محمد محلاتي، صدر عددها الأول في ٢٠ ربيع الأول ١٣٢٨هـ، وقد أُحيط عنوان المجلة: من الأعلى بـ «وناديناه من جانب الطور» ومن الجهة اليمنى «الواد الأيمن من البقعة المباركة» ومن الجانب الأيسر «فلما أتاها نودي من الشاطىء» واستمرت حتى العدد العاشر في ١٠ ذي القعدة ١٣٢٨هـ. =

هبة الدين الشهرستاني[1] رئيس مجلس (التمييز الجعفري) حالياً، وكانت تطبع في بغداد أيضاً، وبفضل الصحافة ودراستها السائدة أصبح أكثر قرّاء الصحف من رجالات البلاد في إيران أو في بلادنا.

وهنا نقطة ألفت نظر القارىء إليها هي أن الصحافة في النجف لم تسبق بأية وسيلة أخرى من وسائل الثقافة فتكون لها أفضلية السبق سيّما الصحف العربية منها وبالأخص مجلة (العرفان)، وصحف سورية وصحف مصر، فقد كانت غذاء النجف العلمي الحديث، وغذاء كل أقسام الجزيرة العربية بل وحتى غذاء البلاد الإيرانية أيضاً. والحق يقال كان لها الفضل الأكبر في هذا التطور الماثل.

ومن الصحف التي استفادت منها النجف عند اندلاع لهيب الثورة جريدة (الفرات)[2] لصاحبها الشيخ باقر الشبيبي، ثم جريدة (الاستقلال النجفية)[3] لصاحبها محمد السيد عبد الحسين المحامي وكنت زميله بالتحرير، كما كنت مصححها الوحيد، وقد قامت الجريدتان بتدوين بعض حوادث الثوار، ونشرت بعض المناشير، وردّت على نشرات الطيارات الموقعة باسم الحاكم السياسي العام.

٢ـ المطابع والمؤلفات[4]

لم يكن في النجف قبل ربع قرن حتى ولا مطبعة حجرية، وكان العلماء والمؤلفون يتكلفون كثيراً في إرسال مؤلفاتهم إلى مطابع الهند أو مطابع إيران الحجرية، ويصرفون في هذا السبيل أموالاً طائلة. وكان معظم تآليفهم بأسلوب قديم. وحوالي سنة ١٩١١م تشبث جماعة لجلب مطبعة حديثة من الهند بواسطة صاحب جريدة (حبل المتين)

= وما أورده السيد كمال الدين من أنها صدرت ١٩١٢م، وأنها تطبع في بغداد فهو سهو.

(١) صدر عددها الأول في آخر ربيع الأول ١٣٢٨هـ/ ٢٩ مارت ١٩١٠م، واستمرت لمدة سنتين، وتوقفت عند صدور العدد التاسع لسنتها الثانية في أول جمادى الأولى ١٣٣٠هـ. وكانت تطبع في مطبعة الآداب ببغداد.

(٢) صدر منها خمسة أعداد، الأول في ٢١ ذي القعدة ١٣٣٨هـ، والخامس الأخير في ٢ محرم ١٣٣٩هـ.

(٣) صدر منها ثمانية أعداد، الأول في ١٨ محرم ١٣٣٩هـ/ ١ تشرين الأول ١٩٢٠م، والثامن الأخير في ٣٠ محرم ١٣٣٩هـ/ ١٣ تشرين الأول ١٩٢٠م.

(٤) لزيادة الإطلاع حول الموضوع انظر: معجم المطبوعات النجفية، للشيخ محمد هادي الأميني. ومقدمته حول تأريخ الطباعة في النجف.

العدد ١ (صحيفة ١) من السنة الاولى

الفرات

المكاتبات باسم جريدة الفرات
لا ترد الرسائل نشرت او لم تنشر
العنوان — النجف — الفرات

قيمة الاشتراك وتدفع سلفاً
من سنة ليرة في النجف وليرة ونصف
ليرة في خارجها
وعن كل شهر ... في الداخل
الخارج وفي الداخل
ثمن النسخة ...

النجف — السبت — جريدة اسبوعية سياسية ادبية — مؤقتاً — ٢١ ... ١٣٣٨ سنة

﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾

والحمد لله في كل نعمة وعند كل بداية والصلاة على نبيه المبعوث على حين فترة النبيين خير البرية وعلى آله وصحبه (وبعد) فقد ...

﴿ العراق يقاوم الحكم الاستبدادي ﴾

الصفحة الأولى من جريدة الفرات

للكاتبات باسم جريدة الاستقلال
مدير سياسي الجريدة ورئيس تحريرها
السيد محمد عبد الحسين
مديرها
السيد عبد الرزاق
اجرة الاعلانات السطر قرشان

الاستقلال

قيمة الاشتراك
عن سنة خمس مجيديات في النجف
وست مجيديات في خارجها
وبدل كل شهر ١٠ قروش صحيحة
لا ترد الرسائل نشرت ام لم تنشر
ثمن النسخة نصف قرش صحيح

النجف السبت [illegible] محرم سنة [illegible] جريدة سياسية ادبية اجتماعية تصدر في الاسبوع [illegible] الموافق ١ تشرين اول سنة ٩٢٠

بسم الله الرحمن الرحيم

حمداً وشكراً وسلاماً ، وبعد لقد آلمنا خلو البلاد من الصحف الوطنية وعدم اهتمام الكتاب وحملة الاقلام [illegible] هذه الايام الحرجة فدفعتنا الوطنية الى اصدار جريدة الاستقلال في النجف الاشرف [illegible] في نشرها في بغداد ، لترد اباطيل المختلفين [illegible] وتنشر مظالم [illegible] [illegible] الاستقلال [illegible] [illegible] في البلاد العراقية ، ولكن كيف [illegible] ذلك [illegible] الوسائل ؟

اجل ان [illegible] الوسائل لا تقوى على الوقوف [illegible] صاحب الحزم والارادة القوية ولا تحول [illegible] [illegible] الاستقلال [illegible] الامة [illegible] وتصدر في الاسبوع [illegible] [illegible]

[illegible] الشهر ١٠ قروش صحيحة [illegible] [illegible] التوفيق

السر [illegible] كوكس
وسياسة [illegible] في العراق

غادر كوكس العراق قبل [illegible] اشهر قاصداً لندن [illegible] مسألة [illegible] واستقلال العراق [illegible] [illegible] مستقبل العراق [illegible] الارواح في بحر لا يدرك ساحله

وصل كوكس « لندن » [illegible] [illegible] الحكومة البريطانية [illegible] البصرة [illegible] [illegible] الاستقلال [illegible] [illegible] المؤسسات والتصريحات [illegible] تقضي باستقلاله [illegible] [illegible] الحركة الوطنية [illegible] [illegible] وعدنا كوكس [illegible] البصرة ([illegible]) [illegible] العراقيين ؟ [illegible] العراق [illegible]

[illegible] الاستقلال وراء الحرب فلا شك [illegible] مصائب الرجال [illegible] الامة العراقية [illegible] كرم ، وان كان [illegible] سياسة الاستبداد [illegible] [illegible] [illegible] اعمده لم يرد جورج [illegible] فان الامة العراقية [illegible] [illegible]

ولكن [illegible] السياسية [illegible] [illegible] [illegible] بغداد [illegible] [illegible] في تشكيل الحكومة الوطنية العراقية [illegible]

[illegible] [illegible] [illegible] كوكس [illegible] الحكومة [illegible] البصرة [illegible] الانكليز [illegible] بالحكومة [illegible] كوكس [illegible] [illegible] واجب الامة العراقية الناهضة [illegible] [illegible] [illegible] [illegible]

الصحفة الأولى من جريدة الاستقلال

فحصلوا على مطبعة صغيرة سقيمة.

وفي سنة ١٩١٢م نشط جماعة الفوا شركة مساهمة لجلب مطبعة حديثة وفد النجف بعض الآتها في بدء الحرب الكونية سنة ١٩١٤م وتعطلت عن العمل مدة الحرب أي إلى سنة ١٩١٨م، وعند انتهاء الحرب استأنفت عملها ولم تزل قائمة بعملها، يديرها أحد المساهمين المدعو السيد محمود ويقع مركزها في محلة العمارة.

وبمقتضى ناموس المنافسة جلب الشيخ صادق الكتبي مطبعة ثانية على حسابه الخاص قبل الحرب العامة ولم تزل مثابرة على عملها، وقد كفلت هاتان المطبعتان طبع الجرائد النجفية والكتب والدواوين والنشرات.

أما **التأليف والتدوين** فقد أستهل العلامة الشيخ محمد حسين كاشف الغطاء في كتابه (الدين والإسلام)، وأعقبه العلامة هبة الدين في كتابه (الهيأة والإسلام)، وتلاهما الشيخ رضا الأصفهاني فنشر كتباه (نقد فلسفة داروين) سنة ١٩١٤م، والعلامة الشيخ جواد البلاغي ألف عدة كتب في الرد على الإرساليات البرستانية، كما أنه وجهت الهمم إلى طبع الكتب والدواوين فطبع ديوان العلامة السيد محمد سعيد حبوبي سنة ١٩١٢م، وتلاه ديوان المرحوم السيد إبراهيم الطباطبائي، وديوان عمنا المرحوم السيد جعفر الحلي، وأيضاً طبعت مجموعة (العراقيات) التي حوت بعض فرائد أشهر شعراء العراق، وأيضاً طبع كتاب (العقد المفصل) الأدبي للمرحوم السيد حيدر الحلي، وهكذا تدرجت النجف في حركة المطابع والطبع والتأليف.

٣ـ النوادي والمكتبات العامة:

من مظاهر الحركة الأدبية في النجف المكتبة العامة بالحسينية في جادة السلام بمحلة العمارة، وهي تحوي قسماً كبيراً من الكتب الحديثة والقديمة، ولم تزل يؤمها المطالعون، وهي موقوفة أحد الأحرار الإيرانيين تغمده الله برحمته، وقد كان مكتب للمطالعة في فرع نادي الإصلاح يقوم به بعض الشباب.

أما قبل هذا التطور فلم نكن نسمع باسم نادي أو مكتبة بهذا الطراز، وأول مكتبة للمطالعة أسسها أبناء العلماء سنة ١٩١١م في دار بسوق محلة (العمارة)، ولم يطل عمرها، ثم تأسست مكتبة بدلاً عنها قام بشؤونها الشيخ حسين الصحاف، وكنا نطالع فيها مختلف الصحف والمجلات.

الشيخ محمد باقر الشبيبي
صاحب جريدة الفرات النجفية

السيد محمد عبد الحسين
صاحب جريدة الاستقلال النجفية

وبعد ذلك أسس الشيخ عبد الرحيم بلبلة مؤسس المدرسة المرتضوية مكتبة في جناح مستقل من بناية المدرسة في دار الفاضلي، جمع فيها أنواع الكتب والمجلات والجرائد، وقد استفاد المطالعون من هذه المكتبات إستفادة تذكر.

وأخيراً أعادت مدرسة الغري الأهلية تاريخ تلك المكتبة في دار الفاضلي سنة ١٩٢٢م غير إنها لم تبلغ درجة مكتبة عبد الرحيم في جميع شؤونها.

وفي هذا العام سعى القائممقام السيد جعفر حمندي في إشادة نادٍ للموظفين، وقد باشر به وقارب أن يتم إنشاؤه.

٤ـ مدرسة الغري الأهلية:

كانت أمنية تضطرب في خلد أحرار النجف إستوحوها من المدرستين الأهليتين الإيرانيتين اللتين كانتا في النجف قبل الحرب العالمية الأولى، وهما العلوية والمرتضوية، ومن الكلية الأهلية الإسلامية في بيروت؟ تلك المعاهد التي اتخذت مواكر للقوميين الاستقلاليين ومراكز أعمالهم وحركاتهم الجبارة، وهذه الأمنية هي تأسيس مدرسة أهلية قومية؟ على غرار تلكم المدارس، لتكون وكراً لقوميي النجف عوضاً عن زوايا المدارس الدينية ودواوين البيوت التي لم تعد وافية بالغرض بعد انتهاء الثورة وتشكيل الحكومة العراقية سنة ١٩٢١، ولم يزل أحرار النجف على اعتقاد تام بأن الجهاد السياسي لم ينته عهده، وأنه أضيف إليه واجب آخر لا يقل عنه أهمية وهو الجهاد لنشر الثقافة.

وكان البارز من بين هؤلاء الأحرار العرب ـ على قلتهم ـ هو السيد سعيد كمال الدين، لأن الأستاذ العلامة معالي الشبيبي كان لا يزال غائباً في سورية؟ نشط هذا السيد باندفاع وتطرف ـ عده كثير من الناس تهوراً ـ فنظّم عدة اجتماعات شخصية في عدة أماكن دعا إليها الأحرار على اختلاف ثقافتهم ومهنهم ومراكزهم الاجتماعية، وجرت مداولات وتشجيع، وبعد بضعة أشهر تمكنوا من جمع جملة من الشباب بصفتهم طلاباً ليلقي عليهم بعض الشيوخ المعممين درسين في الجغرافية والحساب على الطراز القديم وذلك في سطوح الجوامع؟

وبعد أشهر صادف تخرجنا في دار المعلمين العالية؟ فأشرت عليهم أن يشكلوا هيأة ويضعوا منهجاً ويستأذنوا من المعارف، وفعلاً شكلوا هيأة وقدموا طلباً لا تزال نسخته

الثانية الموقعة بتواقعيهم محفوظة لدينا وهذا نصها :

بواسطة حضرة قائممقام النجف المحترم لحضور حضرة وزير المعارف المفخم :

منهاج مدرسة الغري والعلوم التي سوف تدرس فيها :

١ـ أدبيات اللغة العربية .

٢ـ المعلومات الدينية .

٣ـ التأريخ .

٤ـ الرياضيات .

٥ـ الطبيعيات .

٦ـ الجغرافيا .

٧ـ اللغات الحية وبالأخص الإنكليزية .

٨ـ الرسم والأعمال اليدوية .

٩ـ الرياضة البدنية والألعاب وكرة القدم .

١٠ـ الخطابة .

١١ـ الأناشيد .

المعروض : إننا لما رأينا الإقبال الشديد من سكان مدينة النجف الأشرف على العلم والتعليم على الطراز الحديث، وأن ليس هناك معهد علمي يتلقى به أبناؤنا العلوم على الطريقة الحديثة فتفوق مداركهم، وتثقف عقولهم، حسبما يقتضيه العصر الحاضر سوى مدرسة ابتدائية أميرية واحدة. وحيث أن هذه غير كافية لجمع شتات الكثيرين الذي يتعطشون لتحصيل العلم من أبنائنا، مست الحاجة إلى إنشاء مدرسة أهلية ابتدائية تدرّس فيها العلوم المندرجة أعلاه ليلاً لشبابنا، ونهار لصبياننا، وقد دعوناها بأسم مدرسة (الغري) وستكون لغة التدريس فيها اللغة العربية الشريفة، وعينا لها مديراً مسؤولاً من أدباء النجف الأفاضل وهو السيد حسين كمال الدين .

آملين من وزارة المعارف المحترمة أن تنفضل بمنح الرخصة لفتحها في القريب العاجل، وها نحن مستعدون لكل ما يلزم لإنشاء هذه المدرسة، ومستمرون على التبرع لها من الأهلين والمحسنين، والأمر إليكم .

٢٣/ ٤/ ١٣٤٠=٢٢/ ١٢/ ١٩٢١؟

قبلت متبرعاً أن أكون مديراً مسؤولاً عن مدرسة الغري.

حسين السيد عيسى كمال الدين

التوقيع

أسماء الموقعين:

سعيد كمال الدين	كاظم السيد علي
يوسف أبو عجينة	محسن أبو عجينة
يحيى حبوبي	كريم السيد سلطان

وقد تبرّع النجفيون فعلاً بكمية قليلة من المال؟ تداركت نقصها أريحية أحد مشايخ الشامية المدعو الحاج جاسم آل جياد تبرع بمبلغ إيجار المدرسة لمدة سنتين مهما بلغ، وبمرتب شهري قدره عشر ربيات، وعند تأخر الإيجازة من وزارة المعارف صمم السيد سعيد على المباشرة بفتح المدرسة، فأستؤجرت دار الفاضلي في محلة المشراق، وجمع من الأعضاء بعض الأثاث، وبدأ السيد حسين كمال الدين بتسجيل الطلاب المسائيين قبل كمال صنع الأثاث، وعنوان المدرسة، وبوشر بالتدريس المسائي تحت إدارته في ليلة ٢٧ جمادى الآخرة سنة ١٣٤٠ للهجرة المصادف آخر شباط سنة ١٩٢٢م، وأول درس ألقي كان من قبل محمد علي كمال الدين أحمد معلمي الأميرية الابتدائية.

وفي الليلة الثانية تبرّع للتدريس أيضاً الشيخ قوام الدين نجم الدين أحد خريجي دار المعلمين والمعلم في المدرسة الأميرية، وبقيت المدرسة مقتصرة على التدريس المسائي مدة شهر تقريباً تدرس في خلالها الرياضيات واللغة والخطابة، وقد تولّى هذا الدرس محمد علي كمال الدين؟ والهيئة منكبة عتلى تجهيزها، وهم يتساءلون عن أسباب تأخر الإجازة، فعزاها بعضهم إلى ما أدخله السيد سعيد في الطلب من الأمور التي لم تألفها المعارف وهي اعتبار النشيد والخطابة كدروس مستقلّة، ودمج مدرستين في مدرسة واحدة، ولا سيّما أن التدريس المسائي لم يكن معروفاً في العراق بهذا الشكل، ولكن السيد سعيد يقول: لا بُدّ أن نعلّم المعارف ما لا تعرف، وبعد سنة تقريبا أجازت المعارف التدريس الليلي في بعض المدارس، ولكنها لم تدخل النشيد في مناهجها كدرس مستقل إلا سنة ١٩٢٣م.

نعود بالبحث إلى تجهيز المدرسة.

قررت الهيأة أن تقيم حفلة افتتاح كبيرة تدعو إليها مختلف الطبقات في النجف والفرات الأوسط وغيرها؟ وأن تكون الدعوة بأسم أعيان النجف والمتنفذين فيها ليسهل جمع التبرعات، فعملت على جمع هؤلاء، فتمكنت الهيأة بعد جهود من اجتماع الآتية أسماءهم.

١ـ المرحوم العلامة الشيخ جواد الجواهري.

٢ـ المرحوم الشريف السيد محمد علي بحر لعلوم.

٣ـ المرحوم العلامة الشيخ عبد الرضا الشيخ راضي.

٤ـ العلامة الكبير المصلح . . . . الجزائري.

٥ـ الحاج محسن شلاش.

٦ـ السيد سعيد كمال الدين.

وقد وافقوا مبدئياً على تأسيس المدرسة وإقامة الحفلة غير أنهم رفضوا مباشرة أي عمل في هذا الشأن، وزادوا عدم جواز نشر ذلك عنهم خشية من الرأي العام، ولم تجد بهم محاولات السيد سعيد، غير أن المرحوم الجواهري أسر إليه أن يعمل ختماً تحت عنوان الهيأة العلمية، ويدعو الناس بهذا الختم؟ وقد نفذ ذلك فعلاً، وكان الموقع عليه السيد سعيد نفسه؟ ودعا إلى الحفلة بالإضافة إلى النجفيين جماعة كبيرة من الوطنيين في الفرات الأوسط وبغداد وذلك في يوم ٢٧ رجب المصادف مارت سنة ١٩٢٢م؟ وخطب مرحباً بالمدعوين السيد حسين كمال الدين، وألقى الدكتور محمد مهدي البصير خطبة مسهبة حرض بها المدعوين على التبرع، وبلغ ما تبرعوا به (٤٠٠٠ ربية) = ثلاثمائة دينار.

وخلال شهر رجب قرر الهيأة تعيين الملا سلمان معلماً، وقبل حفلة الافتتاح عينت المرحوم السيد جعفر الكيشوان معلماً؟ وفي يوم الافتتاح نفسه بدأت المدرسة النهارية بالدوام.

أما إجازة المعارف فلم تصل إلى الهيأة على ما أتخطّر، ممّا حدا بالمدعوين من بغداد أن ينبهوا الوزير فكتب إلى الهيئة كتاباً موقعاً بتوقيعه لا يزال محفوظاً لدينا وهذا نصه:

بناية مدرسة الغري الأهلية قبل تهديمها، وقد كانت مقر الثكنة العسكرية العثمانية

زيارة الملك فيصل الأول إلى النجف عام ١٩٢٥

«حضرة الفاضل السيد حسين كمال الدين أفندي الحلي المحترم مدير مدرسة الغري الأهلية في النجف الأشرف:

تلقيت بمزيد السرور خبر فتح مدرستكم الأهلية في النجف الأشرف فأهنئكم على هذا النجاح الذي سيخلد لكم ذكراً جميلاً في قلوب محبي العلم والأدب.

وأشكركم شكراً جزيلاً على همتكم العالية ومجاهداتكم المتوالية في سبيل خدمة العلوم والمعارف في تلك التربة الطاهرة الزكية عاصمة العلم في الممكة العراقية.

أرجو أبلاغ تشكراتي إلى بقية الأفاضل والأشراف الذين قاموا بتأسيس هذه المدرسة وإلى كل من مدّ يد المساعدة إليها.

هذا وأني متأكد بأنكم ستواظبون على أعمالكم التي تعود بالنفع العظيم على هذا الوطن العزيز وستذللون كل المصاعب التي تقف حائلاً دون وصولكم إلى غاياتكم النزيهة.

وأسأل المولى سبحانه أن يوفقني لمعاضدة هذا المشروع مادياً وأدبياً في الحال والاستقبال. وبالختام أتمنى لكم التوفيق مع تقديم الشكر والامتنان».

التوقيع: وزير المعارف ـ هبة الدين

إن المدقق كتاب معالي الوزير الخالي من الرقم والتاريخ والذي لم يشر فيه إلى الطلب المقدم من الهيأة والمدير المسؤول يجد أنه كتاب خصوصي لا رسمي وأن يكن مفعماً بالعواطف النبيلة والتشجيع القانع والمواعيد الكريمة، وقد فهم كل فرد من الأعضاء ذلك ولكنهم أعرضوا عن هذه الناحية، ولم يعيروا المعارف أهمية تذكر، فقد كانوا على يقين بعجز المديرية ومستشارها عن إعطاء الأمر بسد المدرسة، وفي عين الوقت اعتبروا كتاب الوزير وثيقة ونشطوا للعمل معتمدين على أنفسهم في تقديم التضحية بأموالهم وأوقاتهم ومكانتهم الاجتماعية، وقد نفذوا جميع مقرارتهم التي كادت تكون يومية وهي إيجار الدار، وتأثيث المدرسة، وتعيين بعض المعلمين وإقامة حفة الافتتاح ثم قرروا الأمور الآتية:

١ ـ عمل منهاج لهيأة المدرسة.

٢ ـ الأخذ بنظام وزارة المعارف في إدارة شؤون المدرسين على أن يكون المرجع الهيأة نفسها.

٣ ـ عيّنوا جابياً لمالية المدرسة وهو محمود الحاج عبد الله الششترلي في شعبان سنة ١٣٤٠هـ ـ نيسان سنة ١٩٢٢م، وذلك لما أنسوه من نشاطه وصراحته وإخلاصه.

٤ ـ تحديد عدد صفوف المدرسة وهي واحد للمساء، وأول وثانٍ وثالث للنهار.

٥ ـ تقدير أجور الطلاب الشهرية وهي ربية واحدة نهاراً وربيتان ليلاً.

٦ ـ مسك سجلات للواردات والتبرعات.

٧ ـ طبع الوصولات و(الدبالك) وختمه بختم الهيأة.

٨ ـ تنظيم ميزانية تقريبية لهذه السنة وهي ١٩٢١ ـ ١٩٢٢م وهي كما يأتي:

ربية

٤٠٠٠ من حفلة الافتتاح

١٢٠٠ التبرعات الشهرية

٠٠٠٠ إيجار الدار

١٢٠٠ أجور الطلاب الشهرية

٩ ـ عينت الهيأة يحيى أفندي ق، مديراً للمدرسة.

كما عينت عبد المنعم العكام معلماً وذلك في منتصف شعبان فكان ملاك المدرسة على الوجه الآتي:

١ ـ يحيى ق أفندي الموصلي	مديراً للمدرسة
٢ ـ السيد جعفر الكيشوان	معلماً نهارياً
٣ ـ الملا سلمان الملا علي	معلماً نهارياً
٤ ـ الشيخ عبد المنعم العكام	معلماً نهارياً
٥ ـ محمد علي كمال الدين	متبرعاً ليلاً
٦ ـ قوام الدين نجم الدين	متبرعاً ليلاً

وعندما باشر يحيى ق وجد المدرسة سائرة حسب المبادىء القومية المنطبعة بها النجف وحسب التربية الحديثة بمنهاج حديث، وكان قومياً متطرفاً متخرجاً في دار المعلمين، فترك إدارة مدرسة الكفل الأميرية مستقيلاً فزاد المدرسة حماساً بخطبه الرنانة، وأحدث درساً مهماً جداً، وهو تعليم ألف باء، وتدريب الملا سلمان على

أصول تعليمها.

وأعلن أنه يعلّم الأمّي القراءة والكتابة في ثلاثة أشهر، وبذلك تقدمت المدرسة تقدماً محسوساً، وأحدثت أعماله وخطبه وخطب الأستاذة والطلاب في كل ليلة انقلاباً في البلد، وقد أهاج هذا الانقلاب الرأي العام، وأثار حسد بعض الروحيين والمتقشفين في الدين، الأمر الذي ترك أحد الطلاب المسائيين أن يستفتي عالماً إيرانياً فأفتى بحرمة الدراسة الحديثة، فاضطرّت الهيأة للعمل على أخذ فتوى بحليتها من مجتهد عربي، وهو المرحوم الشيخ أحمد كاشف الغطاء، فتعارضت الفتوتان وأحبط سعي الرجعيين من هذه الناحية، غير أنهم سلكوا مسلكاً آخر فاقنعوا قارئاً (روزخون) عربياً أن يحارب المدرسة وكان مستأجراً من بعضهم، فرقى المنبر في الصحن الشريف فطعن بالمدرسة والهيئة والطلاب والمعلمين، فردّ عليه الطلاب علناً، وشكته المدرسة إلى الحكومة فرجع واعتذر على المنبر وطلب من المدرسة أن تصفح عنه.

وبفضل نشاط يحيى ق، اعتبرت الأشهر التي داومت فيها المدرسة سنة كاملة، وأصبحت المدرسة في مركز حصين. وحيث أن هذه السنة هي سنة التأسيس، وهي الحجر الأول في بناء المدرسة فنرى من واجبنا عرض أسماء المتبرعين والعاملين والمشجعين من باب التقدير وعرفان الجميل.

فمن هؤلاء الكرام في داخل النجف: معالي الحاج عبد المحسن شلاش، والسيد إبراهيم السيد باقر، وأمين شمسة، والسيد ضياء الخرسان، وعبد الصاحب هويدي، وحميد زاهد، ومكي الشكري، وعبد الرزاق الحاج مسعود، وحميد الحاج أحمد مرزة، وعزيز عجينة، وعلي السكافي، ويوسف رجيب، وحسن الحاج أحمد مرزة، وغني الششترلي، والسيد حسن زيني، ومهدي عجينة، وجعفر حسين مرزة، والحاج رؤوف الشلاش، وعيسى الخلف، والحاج عبد الرزاق شمسة، والحاج جعفر شمسة، والسيد عزيز الرفيعي، ومحمد مرزة، والحاج عبد الرزاق شمسة، والحاج جعفر شمسة، والسيد عزيز الرفيعي ومحمد مرزة، والحاج عبد الرسول شريف، والحاج علي كبة، والسيد نوري كمونة، والسيد ناصر كمونة، والسيد هاشم كمونة، والشيخ غني الجواهري، والشيخ عبد علي الطرفي، ومحمد باقر زوين، ومحمود الحاج عبد الله، والسيد عبود السيد مهدي، والسيد حسين جريو، وكردي بن عطية، وتومان

عدوة، وعباس أبو شبع، وهادي جلو، ومغيض الحاج سعد، وغيرهم.

وأما الذين في خارج النجف فهم كثيرون أيضاً، وفي طليعتهم السيد الشهم الغيور السيد قاطع العوادي خدم المدرسة بماله وجاهه ووساطته، ومحمود الشاهبندر أعطى المدرسة راتباً شهرياً قدره خمسة عشر ربية، والسيد سعد صالح، والدكتور مهدي البصير، وصالح جبر، ومحمد الباقر ـ خدموا المدرسة بجاههم ووساطتهم ـ هذا ما يحضرنا من أسماء الأشخاص، وربما فاتنا من لا يقل عمن ذكرنا تضحية بالمال أو بالعمل، هكذا كان سير المدرسة في سنتها الأولى ذكرناه بصورة متناهية من الإيجاز، فإن هناك جهوداً وأعمالاً يستحيل تسجيلها.

وإلى القارىء السنة الثانية:

السنة الدراسية ١٩٢٢ ـ ١٩٢٣

استعرضت الهيأة في عطلة السنة الدراسية سير المدرسة للسنة المنصرمة، واتساع ملاكها للسنة الجديدة، فقررت إيفاد المدير المسؤول السيد حسين كمال الدين إلى بغداد لعرض ذلك على أنظار جلالة الملك المعظم باعتباره عاهل العرب وزعيم القومية، فنجح السيد حسين بمهمته، وتشرف بحضرة الملك، وتلطف عليه بثلاثة أمور مهمة:

أولاً: جعل المدرسة تحت رعايته باعتبارها مدرسته الخاصة.

ثانياً: تخصيص مرتب شهري لها قدره ثلاثمائة وخمسون ربية تدفع من الخزانة الملوكية الخاصة.

ثالثاً: إيصاء المعارف بتخصيص منحة للمدرسة.

وعندئذٍ قررت الهيأة أن يكون ملاك المدرسة التخميني للسنة الجديدة على الوجه الآتي:

ربية

٤٢٠٠ المرتب من جلالة سيدنا الملك

٢٤٠٠ التبرعات الشهرية

٢٤٠٠ أجور الطلاب الشهرية

١٠٠٠ منحة المعارف
٦٠٠ إيجار المدرسة الشهري

١٠٦٠٠ المجموع

وقررت القيام بانتخاب جديد للهيأة على أن يكون عدد أعضائها عشرة ما عدا السكرتير، فكانت النتيجة على الوجه التالي:

١ ـ السيد سعيد كمال الدين	رئيساً
٢ ـ كريم السيد سلطان	أميناً للصندوق
٣ ـ محسن أبو عجينة	عضواً
٤ ـ كاظم السيد علي	عضواً
٥ ـ يوسف أبو عجينة	عضواً
٦ ـ السيد يحيى حبوبي	عضواً
٧ ـ السيد حسين كمال الدين	مديراً مسؤولاً
٨ ـ السيد ضياء الخرسان	عضواً
٩ ـ أمين شمسة	عضواً
١٠ ـ حميد الحاج أحمد مرزة	عضواً
١١ ـ عبد الرزاق مسعود	سكرتيراً

ثم قررت ملاك المدرسين على أن يكون محمد علي كمال الدين المستقيل من المعارف معاوناً للمدير، وبلغته في شهر شباط سنة ١٩٢٣ فكان الملاك على الوجه التالي:

١ ـ يحيى أفندي	مديراً
٢ ـ محمد علي كمال الدين	معاوناً للمدير
٣ ـ السيد جعفر الكيشوان	معلماً
٤ ـ عبد المنعم العكام	معلماً
٥ ـ الملا سلمان الملا علي	معلماً
٦ ـ محمد حسن القطيفي	معلماً

٧ ـ سيد علي السيد سلمان معلماً

٨ ـ علي الملا قاسم معلماً

كما قررت أن تفتح في النهار صفين رابعاً وخامساً، وفي الليل ستة صفوف على أن يدعى السادس الصف الراقي وتدرّس فيه بعض علوم ومناهج الصف الأول المتوسط فيكون مجموعها ١١ صفاً ما عدا دورات الأميين.

وقررت فتح مكتبتين لمطالعة الطلاب الليليين والنهاريين على أن تجمع الكتب من ذوي الإحسان، واحضرت لهما الأثاث الضروري، وعملت أنظمة للجان، والاشتراك والمطالعة والاستعارة، ونجحت فعلاً، غير أن المكتبتين سدّتا قبل إنتهاء السنة؛ وذلك أن مدير المكتبة الليلية دس تصويراً لمصطفى كمال أتاتورك، وفي عين الوقت عمل إخبارية إلى ساطع بيك الحصري المدير العام حينذاك للمعارف بأن نزعة آل كمال الدين كمالية ـ أي تركية ـ بدلالة تلك الصورة المعلقة في المكتبة فحضر ساطع للتفتيش بنفسه، ونزل في بيت الحاج محسن شلاش، ومنه عرف أن المدرسة قومية عربية متطرفة فباح لها بمهمته، وأعلمني الحاج سراً فوجدت الرسم معلّقاً ورفعته، وعند حضور ساطع علّق غيره فانتبهت ورفعته وأخرجت الشاب من المكتبة، وهكذا نجونا من الدسيسة.

ثم قررت الهيأة الاتفاق مع آل حسين النجم لبناء عرصة لهم على شكل يلائم المدرسة لقاء بدل إيجار قدره اثنتان وخمسون ليرة ذهباً على أن تدفعها المدرسة سلفاً وعن سنتين، وقد عملت لها الإدارة خارطة بسيطة وبقيت تراقب البنية فصارت المدرسة ذات ميزة على مدرسة الحكومة اشغلتها قبل إنتهاء السنة الدراسية، واستقال في خلال السنة السيد علي السيد سلمان وتعيّن محمد رضا مانع بكتاب الهيأة المرقم ٣ والمؤرخ ٩ رجب ١٣٤١ هـ المصادف مارت سنة ١٩٢٢م.

السنة الدراسية ١٩٢٣ ـ ١٩٢٤

في عطلة السنة المنصرمة حول المعاون بصفته مديراً للمدرسة الأهلية الفيصلية بكربلاء بموافقة الهيأة وطلب من كربلاء، وقررت زيادة ملاك السنة الجديدة بتعيين المرحوم يوسف رجيب أحد طلاب الصف الراقي، وأيضاً عينت غني الغروي، وعبد المولى الطريحي، وذلك بناءً على إحداث صف سادس نهاري وسابع ليلي.

وقررت الميزانية التخمينية بمبلغ أقل من وارد السنة المنصرمة؛ وذلك لخطأ التخمين في السنة المنصرمة، وظهور النقص في التبرعات مع ازدياد المصروفات.

وعند المباشرة بالدوام لم يحضر الأستاذ يحيى ق من الاصطياف في الموصل فتجمهر الطلاب الليليون ظناً منهم أن الهيأة فصلته غير أن جماعة من أذكياء الطلاب تمكنوا من إقناعهم بضرورة تبديله بمن هو أعلم منه؟ فطلبوا من الهيأة تبديله وهم آسفون لأضطرارهم إلى هذا الطلب.

وصادف هذا الطلب هوى من الهيأة نظراً للضعف الذي ظهر منه بعد ما أصيبت عيناه بالرمد، وبهذه المناسبة استقال محمد رضا مانع، ومحمد حسن القطيفي فقررت الهيأة إيفاد السيد حسين كمال الدين، وعبد الرزاق مسعود إلى بغداد لسد نقص المدرسة، فأعلنوا في الصحف وعينوا مصطفى السوري معلماً، ثم راجعهم محمد علي ناصر المصري بمعرفة سعد صالح فعينوه مديراً، فقرر الملاك على الوجه التالي:

١ ـ محمد علي ناصر	مديراً
٢ ـ السيد جعفر الكيشوان	معلماً
٣ ـ عبد المنعم العكام	معلماً
٤ ـ الملا سلمان	معلماً
٥ ـ يوسف رجيب	معلماً
٦ ـ السيد مصطفى السوري	معلماً
٧ ـ غني الغروي	معلماً
٨ ـ أحمد يحيى البغدادي	معلم النشيد
٩ ـ عبد المولى الطريحي	معلماً
١٠ ـ محمد الطريحي	معلماً

وبعد بضعة أشهر استقال عبد المنعم العكام، وعبد المولى الطريحي! وعين المرحوم عبد المهدي البرمكي وصالح شمسة على ما أظن، وبوجود المدير الجديد حدث ما يأتي:

١ـ تدريس اللغة الإنكليزية ليلاً ونهاراً.

٢ـ تدريس الجبر في الصف الراقي.

٣ـ سيادة النظام الصارم عوضاً عن الحرية المتطرفة.

وإزاء ذلك خسرت المدرسة نظريات التربية الحديثة لجهل المدير بها، ولذلك منع تطبيق المنهج الدراسي المقرر من المعارف فحرم الطلاب من الاشتراك في امتحان البكلورية في حين أنه كان مقرراً من الهيئة.

وخلال السنة أقامت المدرسة حفلة فخمة لجلالة سيدنا الملك حضرها أكابر المملكة فطلبت إليه الهيأة أن يتفضل بالتوسط إلى الأوقاف بإعطاء مرتب شهري مساعدة للمدرسة، وبإعطاء مساعدة مالية لأقامة بنية المدرسة القائمة الآن. وبهذه المناسبة نستعرض تأريخ هذه البنية:

بناية الغري الحالية:

قبل تأسيس المدرسة كنا ذاهبين للكشف على دار الفاضلي أنا والسيد سعيد، والسيد كريم السيد سلطان، ومحمود الحاج عبد الله، وبينما نحن سائرون ومنهمكون بالتحدث فيما نحن قادمون عليه إذا بالسيد سعيد ينحاز عنا فجأة مطلاً على الثكنة العسكرية العثمانية الخربة من ثنية الجدار المتهدم فاستبطأناه واقتربنا منه فإذا هو يخاطبنا: انظروا هذه هي مدرسة الغري، وسوف تعتاض عن قسوة الجيش العثماني بقداسة العلم وعطفه فضحك بعضنا وقال: المثل العام: (اثبت عرش ثم انقرش) ولكنه تبسم جاداً قائلاً: سوف ترونها.

وفي تلك الليلة أعلن أمام الهيئة ضرورة العمل على استحصال الثكنة من وزارة المالية، ووافقت الهيئة على ذلك مبدئياً، ثم قررت تقديم طلب إلى الحكومة، ثم شفعوا الطلب بعرائض وتابعوها بإيفاد السيد سعيد للقيام بالتشبث الشخصي في بغداد، وبعد شهور أستأنف العمل وذهب إلى بغداد، وبعد بضع سنين تمكن بواسطة سيدنا الملك المعظم، ومسعى جماعتنا في بغداد، وهم السيد قاطع العوادي، والحاج محسن، وسعد صالح، والدكتور مهدي البصير وغيرهم؛ تمكن من حمل مجلس الوزراء على تقرير إعطائها إلى المدرسة وإبدال سجل الطابو بإسمها وصدرت الإدارة الملكية بذلك.

ولنعد إلى العرض الذي قدمته الهيأ إلى جلالة الملك خلال الحفلة فقد أمر جلالة وزير الأوقاف بإعطاء مرتب شهري قدره مائتان وخمسون ربية، وأمر الهيأة أن توفد إليه

السيد حسين لقضية المنحة للبنية ولزيادة منحة المعارف، وفعلاً أوفدته وبعد تشبثات تمكن من تعيين منحة مقدارها خمسة آلاف، فكتب السيد حسين أن يباشروا بالعمل، وكان التحويل على يد الحاج محسن. والفضل الأكبر في الحصول على هذا المبلغ يعود إلى جلالته وإلى السيد حسين، وإلى الحاج محسن شلاش، وبقي المبلغ لدى الحاج، وقررت الهيأة المباشرة بالعمل تحت إشراف الحاج من حيث الصرف وهندسة البناء حسب رغبته، فاختار الحاج سعيد معماراً، وقد عارضت أنا في ذلك كل المعارضة طالباً جلب مهندساً فنياً لوضع خارطة حسب التربية الحديثة، وافقني معظم أعضاء الهيئة، غير أن الحاج كان بعيداً عن مثل هذه الأساليب، فأسست البناية على شكل يقرب من شكلها الحالي القائم، ولكن قبل أن ترتفع الأسس بمقدار متر نفذ مبلغ الخمسة آلاف ربية، وأوقف العمل نظراً لعمق الأسس، ونجح السيد حسين في إبلاغ المعارف منحتها إلى ألفين ومائتين للسنة الجديدة.

الشغب ضد المدرسة

وفي منتصف هذه السنة الدراسي حدث شغب عنيف جداً كاد أن يقضي على المدرسة، بل على النهضة الحديثة، وعوامل هذا الشغب كثيرة متنوعة متلابسة شجعتها الصفوف المسائية التي أحدثها معلمو الأميرية وانفصال يحيى ق، وشدة المدير الجديد في النظام.

ومن هذه العوامل:

فصل أو انفصال بعض الطلاب المسائيين أو عدم نجاحهم.

ومنها النعرة الطائفية لدى بعض موظفي الحكومة ومعلميها.

ومنها تحرشات بعض المنتمين للمدرسة بعواطف بعض الرجعيين الدينية.

ومنها استعمال الكشافة للخوذة والسروال القصير.

ومنها تدريب معلم النشيد أحمد يحيى للطلاب على الفيفرة وتشكيل فرقة لذلك.

ومنها استعمال الآلة الموسيقية (الأرغن) مع فرقة الفيفرة في رواية أقامتها المدرسة.

ومنها النعرة العنصرية المتحفزة لدى بعض العناصر الأجنبية في النجف.

ومنها الحسد القاتل في نفوس بعض الناس ضد أشخاص صارت لهم حظوة أو

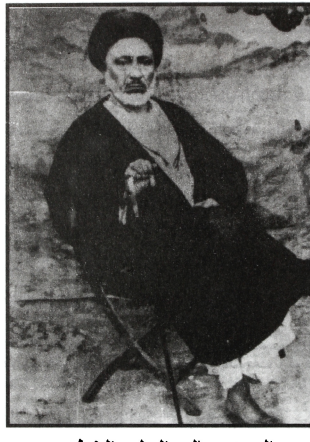

السيد صالح الحلي الخطيب

ظهور لدى الجميع.

إن هذه العوامل كوّنت كتلة قوية ضد المدرسة ظاهراً وضد النهضة حقيقة، وقد وجدت هذه الكتلة في المرحوم السيد صالح الحلي (الروزخون) عنصراً قوياً لإثارة الرأي العام بما يلقيه على المنابر من الخطب الرنانة والمواعظ المثيرة في الصحن الشريف ليلاً فعملت معه صلة سرية لتحركه كيف تشاء، وهو معروف في جميع الأوساط بعدم التورع بالطعن بالناس، وتوجيه أقبح التهم إليه مهما بلغوا من الفضيلة وحسن السيرة والتدين، ويسلك لذلك طريقة الإرشاد الديني والمصلحة العامة، وبذلك اتسعت دائرة المعارضين للنهضة الحديثة من مختلف الطبقات، وأخذ يهيب بالعامة منادياً من فوق المنبر أن يتجمهروا ويضربوا الأحرار ويخربوا مدرستهم.

ومن جراء ذلك حدث انشقاق في البلد، وتبلبلت الأفكار، وازداد الجدل والنزاع بين الأفراد والجماعات، في الأسواق والأماكن العامة والخاصة، وقع شجار بين الشبان تشاكوا به إلى الشرطة والمحكمة، وتفاقم حتى أدى إلى التجمهر فتوارى بعض الأحرار، وتصلب معظمهم، وحمل السلاح سرّاً ليحمي نفسه أو ليحمي السيد سعيد حيث كان هدفاً للناقمين، ولكن عقلاء المتجمهرين أبرقوا إلى الداخلية وإلى المعارف، كما اشتكى الأحرار إلى المتصرف والحكومة المحلية.

غير أن نشاط الأحرار، وصلتهم بالمتصرفية بواسطة محمد علي كمال الدين مدير الفيصلية، وصلتهم ببغداد بواسطة السيد حسين كمال الدين الموجود هناك، حمل المتصرف مولود مخلص باشا أن يحضر بنفسه إلى النجف ويوقف بعض المتهوسين ويغرمهم.

ومن نشاط الأحرار البرقية الموقعة من سكرتير الهيأة عبد الرزاق مسعود بتأريخ ٢ ـ ٢ وهذا نصها:

«كربلاء. مدرسة الفيصلية كمال الدين: صباح اليوم احتشد آل .... بإيعاز الحلي، وضربوا صالح شمسة وسواه. بلغ المتصرف .... رزاق».

فكتبت الكتاب الآتي:

«سعادة الرجل الكبير متصرف لواء كربلاء المفخم. ترون طيّه نفس البرقية الواردة باسمي الآن من كاتب الهيأة المؤسسة لمدرسة الغري المدعو عبد الرزاق الحاج مسعود ولا يخفى أن آل .... من المشاهدة ذوي السلاح وأن صالح شمسة أحد مدرسي

الغري في النهار وتلامذتها في الليل، وهو من عائلة شريفة تسكن محلة (الشمرت) هذه أعمال السيد صالح الحلي الروزخون، واقبلوا فائق احترامي سيدي.

ملاحظة: يظهر أن الضرب لم يقع على صالح شمسة فقط، بل عليه وعلى سواه من متعلقي المدرسة.

محمد علي كمال الدين»

وبعد أن قدمت كتابي، ذهبت إلى المتصرف بنفسي فأخبرني أنه سيصل مفتش المعارف، ووصل عند المساء فعلاً وهو المرحوم محمد الزين اللبناني، الوديع والطيب السريرة، فبكرنا معاً إلى النجف وكلفني المتصرف أن أوضح له الحالة برقياً، وفي السيارة وضحت للمفتش حالة الحزبين المتطاحنين، وهولت له أمرهم، ووصفت هياج المعارضين بقوى مادية وأدبية، وبالغت كثيراً في وصف جماعة الأحرار في القوة والكثرة والسلاح، وصفت له ذلك كي لا يفاجيء بهياج المعارضين، وفعلاً استقبلنا جماعة من المعارضين فقدمتهم إليه بأسمائهم، ولم أترك المجال لبيان معارضتهم ولكنهم طلبا إليه أن يرافقهم إلى اجتماع لدى المجتهد المرحوم الشيخ أحمد كاشف الغطاء فحسنت له أن يعهدهم ويصرفهم لنذهب معاً، فدخلنا على جمهور من مختلف الطبقات ملأ البيت مما يدل على إحكام المؤامرة وصلتها ببغداد وكربلاء أيضاً.

ولا ندري هل كان للمستعمرين يد في ذلك؟! فوقفت اتصفح الوجوه وجهاً وجهاً بدقة وبنظرات تهديد ووعيد، خففت وطأة كثير منهم وأريت نفسي لمولاي الشيخ عمداً فرحب بي الشيخ قائلاً: «عمي تفضل»، فشكرته وعلى وجهي علامات الاستغراب.

وكان الشيخ محاطاً بالهائجين بين واقف وقاعد وكلهم يتكلمون ويرسلون الشتائم والتهم إرسالاً، ولم يذكر أسم آل كمال الدين إلا واحداً أو اثنان فزجرهم الشيخ قائلاً: «أرجوكم أن لا تغتابوا أحداً ولا تسعوا ولا تخرجوا عن موضوع الإصلاح، وأرجو السكوت»، وبعد لأي سكتوا فطلب من المفتش أن يفتش المدرسة. هل تدرس القرآن الكريم؟! والدين الحنيف؟! وهل يدرسون ما يخالف ذلك؟! ورجا منه إعلامه بما يجد وما يفعل.

فقال المفتش: وهل ترون في تدريس علم الجغرافيا والتاريخ والأشياء ما يناقض

الدين؟!

فأجابه الشيخ: نحن لا نعادي العلم غير أن بعض الحضور نادى بالحرمة، ولكن اسكتوه.

فقال المفتش: أنا لا اعتقد بوجود ما ينافي التقاليد، ومع ذلك سأعلمكم كما تأمرون.

وعند خروجنا انفردوا بالمفتش وهمسوا في آذنه أن وجوده برفقتي ما يسيء إليهم، فاستأذن، غير أنه وعد أن يحضر إلى المدرسة بعد مقابلة القائممقام، فذهبت إلى المدرسة وأحضرت عبد الرزاق مسعود، والسيد يحيى حبوبي، وكتبنا برقية شكوى مستعجلة إلى المتصرف باسم هيأة المدرسة، أوضحنا خطورة الحال فأسرع إلى النجف عصراً، وأمر بإلقاء القبض على أفراد من حاشية السيد صالح الحلي، فأوقفوا ووبّخ القائممقام والشرطة وطلب من المعارف تحويل بعض معلمي مدرستها.

أما المفتش فقد حضر حسب الموعد فوجد المدرسة تسير بانتظام لم يعهد مثله في المدارس والهدوء سائد، والجدية واضحة، والنظافة كما يجب أن تكون، وقايس بين الجدول العام والدراسة في الصفوف، ومن حسن الصدف أن حضر درساً للقرآن، وسأل الطلاب وناقشوه بصراحة في مختلف المواضيع، وعند مبارحة المدرسة عرضت عليه أن يجتمع بجمهور الأحرار المجتمعين في مكان ما، فاعتذر مكتفياً بما شاهد من الانتظام وعدم الخروج على التقاليد، ولو قدّر لي أن يلبي طلبي لما استطعت أن أجمع بعض ما أدعيت وأن جهدت؟!

ولكن المتصرف هو الذي حل المشكلة ورجع إلى كربلاء في اليوم التالي، غير أن جبن وزير المعارف وأثر كتابات بعض الرجعيين عليه. وهو المرحوم أبي المحاسن. ساقته أن يقدّم اقتراحاً يراه القارىء في كتاب قائممقام النجف وهذا نصه:

العدد ٨٦٤ بتاريخ ١٥ مارت ١٩٢٤

١ـ لحضرة السيد محمد علي بحر العلوم المحترم.

٢ـ لحضرة الحاج عبد الرزاق شمسة المحترم.

٣ـ السيد عبد الحسين سرخدمه.

٤ـ السيد سعيد كمال الدين.

٥ـ الحاج رؤوف شلاش.

٦ـ السيد هاشم كمونة.

٧ـ السيد باقر زيني.

٨ـ السيد ضياء الخرسان.

٩ـ الحاج سعيد مرزة.

١٠ـ محسن جلبي أبو عجينة.

١١ـ يوسف أبو عجينة.

١٢ـ السيد يحيى حبوبي.

تحية واحتراماً ـ وبعد: بناءً على طلب وزارة المعارف، وعطفاً على أمر وزارة الداخلية الجليلة المبلّغ إلينا من سعادة متصرف اللواء بكتابه المرقم ١٣٥١ والمؤرخ ٢٧ شباط ١٩٢٤م.

١ ـ قد اقتضى تبديل وتنسيق هيأة مدرسة الغري الأهلية في النجف الأشرف بتشكيل هيأة جديدة لمدرسة الغري وأن يداوموا على إصلاح العمل في المدرسة المذكورة وفقاً للمنهاج الذي سوف نبينه لحضرتكم، وأن السيد محمد علي آل بحر العلوم يحل في الهيأة المدرسية بمثابة رئيس ثان.

٢ ـ لا يدخل ولا يقبل أحد إلى العضوية في هذه المدرسة إلاّ بمعرفة قائممقام القضاء، وأن استقالة أحد العضوية تتقدم إلى القائممقام أيضاً.

٣ ـ بما أن هذا العمل من أول الأمور المحترمة، وسبباً لترقي العلوم والمعارف في النجف الأشرف فالمرجو الدوام والاهتمام بذلك.

هذا ولحضرتكم مزيد الاحترام.

التوقيع

قائممقام النجف

عبد العزيز

١ـ صورة منه:

سعادة متصرف لواء كربلاء ـ إشارة لكتابه المذكور رقمه وتاريخه أعلاه.

٢ـ صورة لجناب مدير مدرسة الغري الأهلية المحترم ـ للمعلومات.

أما الهيأة فقد أسفت لقرار وزير المعارف كل الأسف، ذلك القرار الذي وضع مقدرات المدرسة العلمية رهن تصرفات الموظفين الإداريين الكيفية، فتأثر السيد حسين، ولم يزل في بغداد وعمل هو وجماعته بجدية ضد قرار الوزير واضطره أن يسحب قراره وينقضه، فاستأنفت الهيأة الأولى عملها، مع العلم أن الهيأة المقترحة من الوزارة لم تعقد ولا جلسه واحدة.

نعود بالحديث عن الشغب، إلى ما آل إليه أمر السيد صالح الحلي بطل الرواية، لقد ألقت الشرطة القبض عليه بكربلاء في زيارة رجب، ونفي إلى الفاو رأسا واعتقل هناك، وهكذا ختمت رواية الشغب ضد المدرسة في خلال السنة الدراسية ١٩٢٣م - ١٩٢٤م.

المدرسة في السنة الدراسية ١٩٢٤م - ١٩٢٥م

افتتحت الهيأة السنة الجديدة بتقرير ملاك المدرسة وميزانيتها التخمينية على الوجه الأتي:

ميزانية المدرسة بالربيات

٤٢٠٠	مرتب جلالة سيدنا الملك
٢٢٠٠	منحة المعارف
٣٠٠٠	مرتب الأوقاف
٢٠٠٠	أجور الطلاب
٢٠٠٠	التبرعات المختلفة
١٣٤٠٠	المجموع

ملاك المدرسة

١ - محمد علي ناصر المصري	مديراً
٢ - سامي نصير المصري	معلماً
٣ - عبد المعطي حجازي المصري	معلماً
٤ - الملا سلمان الملا علي	معلماً

٥ ـ السيد جعفر الكيشوان	معلماً
٦ ـ يوسف رجيب	معلماً
٧ ـ السيد حسن الرفيعي	معلماً
٨ ـ محمد الطريحي	معلماً
٩ ـ حميد شكر	معلماً

بنيّة المدرسة:

زار جلالة سيدنا الملك المعظم النجف فذكرته الهيأة بوعده بإكمال البنيّة فأحاطتها عنايته الكريمة، وكشف بنفسه عن الأسس، وقد حدث في هذه السنة حادثاً خطيراً كان من شأنه القضاء على المدرسة لولا أن صادف حدوثه عند قدوم جلالة سيدنا الملك إلى النجف، وهذا الحادث تتصل أسبابه بالمبادىء القومية التي شيدت على أساسها المدرسة كما أشرنا إلى ذلك سابقاً.

ومن الجدير بالذكر أن القوميين في النجف ومنهم القائمون بالمدرسة لم يفهموا من القومية غير العنصرية المتطرفة التي صادفت في تربة النجف منبتاً خصباً حيث كان التنازع في النجف متأصلاً بين الجالية الإيرانية والعرب في النواحي الاقتصادية والأدبية والاجتماعية، ويتقادم عهده إلى مائة عام أو أكثر.

ومن جراء ذلك كان المنتمون إلى المدرسة يتحركون بحركات، ويرسلون كلمات استفزازية ضد إخواننا الإيرانيين، في حين أن القومية الإيرانية لا تقل عن أختها العربية تطرّفاً إن لم تزدها.

وهذه الحال ولدت شجاراً عنيفاً بين الأفراد والجماعات، وإلى اعتزال وتكتل لا يتفق مع مصلحة البلد، ومن المؤسف أن يثور البركان يوم قدوم سيدنا الملك وقرب انتهاء السنة الدراسية.

ومجمل الحادث إن البلدية أمرت بتزيين الأسواق، وتعليق الأعلام فعلّق أحد إخواننا الإيرانيين علماً إيرانياً كبيراً جداً ملأت سعته فضاء السوق متدلياً بحيث يمس رؤوس المارة ومن بينهم الملك، فلم تفهم العنصرية العربية من هذا العمل إلا تحدياً من العنصرية الفارسية ـ وربما كان ذلك ـ الأمر الذي أهاج طلاب القسم الليلي، ولما امتنع صاحبه من إنزاله أنزله الجمهور، وربما صدر من الصبيان ما يخالف الآداب،

وهذا كثيراً ما يقع في مثل هذه الحالة عادة.

فثارت ثائرة إخواننا الإيرانيين فأضربوا عن العمل واجتمعوا في دار أحدهم، وطلبوا من القنصل أن يخبر الحكومتين، ولكن القائممقام ومدير الشرطة اعتذروا إلى القنصل وأوقفوا بعض الأشخاص والطلاب وقد كتب القنصل إلى حكومته برقية تتضمن ما ذكرنا، ولكنه نسب الحادث إلى السيد إبراهيم وهو محض افتراء، ونشرت صورة البرقية في جريدة (حبل المتين) الصادرة في الهند باللغة الفارسية في عددها ١٦ من السنة ٣٣ بتاريخ ٢٦ حزيران سنة ١٩٢٥م، كما نشرت برقية أخرى صادرة من أعيان الجالية في النجف بالمضمون نفسه وكانت البرقية مرسلة إلى المحمرة لتبرق إلى طهران بتوسط السيد علي شاه طالبي.

وقد علّقت الجريدة المذكورة على البرقيتين تحريضاً للحكومة الايرانية وللسفارة الإنكليزية في طهران، وتساءلت عما فعلوا أما المتهمون ومنهم السيد إبراهيم، والمرحوم يوسف رجيب، والمرحوم عبد المهدي البرمكي[1]، على ما أتخطر فلم يثبت إتهامهم فأطلق سراحهم، والحقيقة أن المتهمين الحقيقيين هم جمهور من الناس والطلاب.

وعلى كل كان الحادث مؤسفاً وقد ألجأ أفراداً من الجالية إلى الهجرة، ودفع الحكومة الإيرانية أن تعجّل بفتح طريق (خرم شهر) التجارية، وبالعمل على تنظيم ميناء خورموسى، وبتحويل التجارة الإيرانية عن طريق العراق، فتضرر التاجر العراقي والمالية العراقية لنقص وارد (الترانسيت) غير أن العراق انتفع معنوياً بتقلص نفوذ تلك الجالية.

---

(١) عبد المهدي بن إبراهيم بن خليل بن الحاج جعفر بن جواد بن حسين بن يوسف المعلى، ولد في النجف سنة ١٣٢٠هـ/ ١٩٠٢، من عائلة تعمل بتجارة الأقمشة، من الشباب المتنورين، يمتلك ثقافة عالية، وجرأة متناهية. اشترك في المهرجانات والمظاهرات الوطنية المنددة بالإنكليز. ساهم في الثورة العراقية ١٩٢٠، فقد كان من الناشئين المجددين الذين قاموا بتنفيذ مقررات رجال الثورة. وله مواقف وطنية معروفة، مارس مهنة التعليم متنقلاً بين النجف وناحية الحرية وهور الحمار وكربلاء والكوفة وكثرة تنقلاته هذه كانت لصلابته ومواقفه، وما زال في الخدمة حتى توفي فيها ببغداد ونقل إلى النجف فدفن فيها سنة ١٣٥٩هـ/ ١٩٤٠م.

جلالة سيدنا وبنية المدرسة:

انتهزت الهيأة فرصة قدوم سيدنا فذكرته بوعده بإكمال البنية فأحاطتها عنايته الكريمة، وكشف بنفسه الأسس المشادة، وأسف إن كانت الخارطة على هذا الشكل، ومع ذلك أمر بإصلاح ما يمكن إصلاحه فنفذ فعلاً وشكر القائمين بالمدرسة، وخاطب السيد حسين موعداً إيّاه أن سيوصي الأوقاف بإكمال البنية.

ثم قررت الهيأة إيفاد السيد حسين إلى بغداد فقابل جلالة الملك المعظم، ووافقت الأوقاف على منح عشرة آلاف ربية لإكمال البنية وحولتها فعلاً، وقررت الهيأة أن يكون أمين الصندوق مديراً للإنشاء، والعضو المرحوم يوسف عجيبنة مراقباً، على أن توقع قوائم الصرف منهما ومن المعمار المرحوم الأستاذ يوسف. ومما يذكر إن هذا الأستاذ كان متبرعاً بالعمل.

وفي آخر شهر نيسان تم تشييد البنية وشغلتها المدرسة وأجريت حفلة كبرى للافتتاح استعملت فيها الموسيقى بتدريب أكر رؤوف الذي تعين لهذا الغرض، وقد ابتيعت الآلات من مدرسة الحلة.

وكان مدير المدرسة محمد علي ناصر قد استقال لمرض ألمّ به، ولسوء تفاهم حدث، وذلك بعد شهرين من افتتاح المدارس، وقررت الهيأة أن يخلفه سامي نصير بصفته مديراً، وعندئذٍ نفذ قرار الهيأة في أن تطبق المدرسة مقرر المعارف في التدريس وعند انتهاء السنة اشترك طلاب السادس النهاري بامتحان (البكلوريا) ونجحوا جميعاً ولم يشترك طلاب الصف الراقي المسائي.

الصف الثانوي:

بعد نجاح طلاب الصف السادس عقدت الهيأة عدة اجتماعات للمذاكرة في فتح صف ثانوي للسنة القادمة ليجمع جميع الناجحين في مدارس النجف وكربلاء، ولوائي الحلة والديوانية ووازنوا بين ما يصرف على هذا الصف وبين ما يدفعه هذا العدد من الطلاب، فوجدوا أن المدرسة إذا لم تربح مادياً فليس هناك من خسارة إضافية إلى ما تكسبه المدرسة من السمعة الأدبية، وزيادة المخصصات من المصادر المختلفة فقررت إيفاد السيد سعيد كمال الدين إلى بغداد لأخذ الإجازة من المعارف.

الصف الثانوي والمعارف:

عرض السيد سعيد على المعارف المقترحات التالية:

١ـ توحيد الصفين الخامس والسادس في مدرستي الغري والحكومة لغرض الاقتصاد بالمعلمين والغرف وغيرها.

٢ـ توافق الهيأة على إجراء هذا التوحيد في مدرسة الحكومة بشرطين: مساعدة الغري بمختبر وزيادة المخصص، وفتح مدرسة أولية لقاء قيام الغري بفتح الصف المتوسط.

٣ـ موافقة الهيأة على أن تقوم المعارف بفتح الصف الثانوي، وهي تكفل عملية التوحيد وفتح الأولية.

غير أن ساطع بك رفض جميع المقترحات بحجة عجز الغري الأهلية عن القيام بالصف الثانوي وبحجة عدم موافقة المالية على زيادة ميزانية المعارف للقيام بالمشروع، فعاد السيد سعيد من بغداد بخفي حنين غاضباً على ساطع لأعذاره الواهية ووقوفه حجر عثرة في سبيل من يخدم التعليم بالمجّان، فما كان من الهيأة إلا أنها اجتمعت وقررت فتح الصف الثانوي متحدية تصرفات ساطع.

ولما اطلع الحاج محسن على هذا القرار تظاهر بالموافقة لاعتقاده بأن هذا القرار سيلجأ المعارف على القيام بالمشروع، وبذلك تحصل النجف على الخدمة المطلوبة في رفع مستوى التعليم، وقد جدّت الهيأة في تنفيذ قراراها، وأعلنت في الصحف فتح الصف الثانوي، وطلبت مدرسين لهذا الغرض، الأمر الذي أثار غضب ساطع بك، وأخذ يتهدد ويتوعد شفاها، وربما كتب بذلك إلى المراجع التي تهمها الأمور، مما حمل الحاج محسن أن ينصح الهيئة أن تعيد النظر بقرارها.

السنة الدراسية ١٩٢٥ ـ ١٩٢٦

في خلال العطلة نفذت إدارة المدرسة قرار الهيأة فاستأجرت محلاً خاصاً للصف الثانوي وأثثته وسجلت الطلاب وباشروا في الدوام نهاراً، فقام مدير الغري سامي نصير بتدريس الرياضيات واللغة الإنكليزية والطبيعيات وهو كفوء لذلك، وهم بانتظار تعيين مدرس آخر للاجتماعيات وغيرها، ولكن الحاج محسن كرر تحذير الهيأة من مغبة عملها، راجياً إعادة النظر بقرارها، مما أوجب انقسام الهيأة على نفسها، الأمر الذي

اضطر السيد سعيد إلى الاستقالة مصراً على وجهة نظره، وتبعه السيد يحيى الحبوبي، ومع ذلك كان سامي نصير ماضياً في سبيله بحيث أحرج موقف المدير المسؤول السيد حسين بتصرفاته الصبيانية، وبمناسبة هذه الاستقالة تشكلت الهيأة على الوجه التالي:

١ ـ السيد محمد علي بحر العلوم	رئيساً
٢ ـ السيد عباس الكليدار	عضواً
٣ ـ نقيب الأشراف	عضواً
٤ ـ الحاج رؤوف شلاش	عضواً
٥ ـ الحاج مهدي شمسة	عضواً
٦ ـ السيد ناصر كمونة	عضواً
٧ ـ السيد حسين كمال الدين	عضواً
٨ ـ محسن أبو عجينة	عضواً
٩ ـ المرحوم يوسف أبو عجينة	عضواً
١٠ ـ عيسى الخلف	عضواً
١١ ـ عبد الرزاق مسعود	عضواً وأميناً للصندوق

ودعي الحاج محسن للعضوية فأجاب أنه عضو عملاً، ولذلك كان يحضر الجلسات دائماً ويشترك في المقررات، ولما رأت الهيأة الجديدة تأخر المعارف في فتح الصف الثانوي قررت تأييد قرار الهيأة السابقة على أن يكون الصف مسائياً لا نهارياً، وبهذا القرار اضطر ساطع بك إلى فتح المتوسطة وأعلن ذلك، وأوفد مفتشاً طلب من الهيأة رسمياً سد الصف المسائي لتقوم المعارف بفتحه من قبلها.

وإلى القارىء صورة جواب المدير المسؤول إلى المعارف المحفوظة نسخة منه لدينا وهذا نصّه:

«حضرة صاحب السعاد المدير العام للمعارف المحترم.

غب التحية والأخلاص.

أقدم لسعادتكم الصورة الواردة من الهيأة المؤسسة لمدرسة الغري جواباً عن كتابكم المرقم ١/ ٤٧/ ـ٣٢٧ والمؤرخ ٢ كانون الأول سنة ١٩٢٥م، وهو كما يأتي:

بعد قبول احتراماتي الفائقة.

لقد قرأت الهيأة الكتاب المرقم ١/ ٤٧/ ٣٢٧٩ والمؤرخ في ٢ كانون الأول سنة ١٩٢٥م الوارد من سعادة المدير العام للمعارف وشكرته على كل ما جاء فيه من التوصيات المفيدة لمصلحة البلاد، لذلك فإن الهيأة قررت إلغاء الصف الثانوي النهاري وتوصي بتنفيذ قرارها هذا حالاً، وسوف تنظر الهيأة بمسألة التدريس الثانوي مساءً في الغري بعد المداولة الشفهية مع سعادة المدير عند حضوره النجف حسبما ذكر في كتابه هذا.

المدير المسؤول

حسين كمال الدين»

وعلى أثر هذا الكتاب انحلّت المشكلة وفتحت المعارف الصف في عين المكان، وأرسلت مديراً ومدرساً وأثاثاً، وهكذا نجحت البلد في فتح المتوسطة. وقد كتب سامي نصير مقالاً عرض فيه هذه القضية مفصلاً ونشره في جريدة النجف.

وقررت الهيأة بقاء ميزانية المدرسة كما كانت في السنة المنصرمة، وقررت الملاك على الوجه الأتي:

١ ـ سامي نصير المصري	مديراً
٢ ـ ملا سلمان	معلماً
٣ ـ محمد فتيان الراوي	معلماً
٤ ـ يوسف رجيب	معلماً
٥ ـ كاظم حبوبي	معلماً
٦ ـ أكرم رؤوف	معلماً
٧ ـ علي الملا قاسم	معلماً
٨ ـ عبد المهدي البغدادي	معلماً
٩ ـ عبد القادر البغدادي	معلماً
١٠ ـ كاظم موسى الغروي	معلماً

وقررت الهيأة اهتمام المدرسة بإقامة الروايات والحفلات، وتنظيم الكشافة تنشيطاً للمدرسة من الإنكماش الذي عراها من جراء مظهر المتوسطة، ولم يكن لهذه التدابير كبير جدوى لولا القسم الليلي المنظم، والسمعة التي حازت عليها سابقاً. وقد اشترك

طلاب الليلي والنهاري في امتحان البكلوريا، فكانت في نجاحها السابعة بين مدارس العراق، وحازت على ٥٩٪.

هذا ما أمكن تسجيله عن مدرسة الغري في خلال السنين الخمسة الأولى، تلك المدرسة التي لها أكبر نصيب في نهضة النجف الحديثة، مستعينين على ذلك ببعض المذكرات التي سجلناها حينذاك، وبعض المستمسكات التي حافظنا عليها. وأيضاً بالذكريات التي لا تزال صورها وأحاديثها تتابع في مخلتنا وحافظتنا، وغرضنا الحقيقي من نشرها تحفيز أخواننا الوطنيين وزملائنا الذين اشتركوا في الخدمة لينشروا ما لديهم من معلومات لم نذكرها أو لم نكن نعرفها، ومن انتقادات لما كتبنا كيما يكون تسجيل الحقائق التاريخية على وجهها الصحيح، ولا سيّما الذين اشغلوا وظيفة أمانة الصندوق، وقاموا بالصرف فأننا لا نعلم من هذه الناحية ولا حرفاً واحداً ولذلك أهملناها.

وأننا نرجو من الشباب المثقف المتجدد العذر حيث لم نرجع سير المدرسة وأعمالها إلى الأساليب التربوية والأبحاث النفسية، ولم نربطها بالنظريات الاجتماعية بما لدينا من المعلومات عن حياة الرجال الذين سيّروا المدرسة فإن ذلك يحتاج إلى أبحاث أخرى تخضع للتحليل والمحاكمة. كما نرجو العذر عن أسلوب الكتابة والتوبيب والتنسيق.

والعذر عند كرام الناس مقبول.

***

الفصل الثالث

التطور الإجتماعي والعمراني

١ ـ النجف بين القديم والجديد.
٢ ـ المستشفيات والمستوصفات.
٣ ـ الخط الحديدي.
٤ ـ الكهرباء.
٥ ـ مضخات الماء ومشاريع الجداول.

١ـ النجف بين القديم والجديد:

يحار الباحث المتطلع إلى أحول النجف وأطوارها في الحياة، فإذا هيأت له الصدف أو منحته الظروف أن أندس بين جماعة أو في شبه ناد منها ماذا سيجد؟ وماذا سيرى؟ . . . يجد صورة مصغرة من المجالس العباسية في بعض أوساط ذلك العصر ماثلاً الآن أتم التمثيل، يرى ازياءها وهندامها، أفرشتها وآدابها المجلسية، منظرها ومرآها إلى غير ذلك من وسائل الإجتماع، يراها.

عن ذلك القالب القديم أو مطبوعة بطابعه حذو النعل بالنعل، غير أنه مشّوه مشوب ببعض أساليب الحياة الجديدة، ترى الثياب والجلالبيب وارفة، والعمائم مصفطة ومصنعة لدى البعض، والعقل متأطرة على الأرؤس لدى البعض الأخر، وبتعبير آخر تجد القديم محسوساً بمظهره محتشماً في وضعه، فإذا ما استخبرت القوم وحادثتهم كذب الخبر الخبر.

نعم، هم عباسيون في طابعهم العلمي وفي كتبهم الدراسية، ولكن معظمهم مولج في التجدد، آخذ بأسبابه، والبعض متجدد ومتطرف في هذا التجدد، مسرف فيه، ضارب في الأدب الحديث وطرقه التحليلية بسهم، آخذ في النظريات الإجتماعية المتطرفة، أو إنها أخذت منه مأخذها، والأغرب أنهم ينحون في خيالهم منحى شعراء المهجر، وينظمون على رويهم، وهم مع ذلك لا يقلدون في جميع هذه النواحي تقليداً أعمى، بل طالما احتدم جدالهم ومناقشاتهم في محاكمتها.

هذه صورة بسيطة عن حياة الطبقة الملقبة بـ(الطبقة القديمة) في نظر شباب المدرسة الحديثة، ولكن فات الشباب أن الثقافة لم تكن يوماً ما بدراسة آلية ضيقة تذهب بالإستقلال الفكري وتندس بين المناهج التعليمية حتى تأتي على نباهة الفكر والحس فتطمسها، وعلى جذور الخيال والشعرو فتخمدها، وإذا ما أراد الشباب أن يأخذ بأسباب الثقافة فعليه بالمطالعة والتوغل فيها، عليه بالبحث والاستقصاء فيه.

لقد أومأنا للقارىء إلى بعض مظاهر الحياة المحسوسة في النجف ولوحنا له إلى بعضها الأخر. أما إذا وفق الباحث إلى إيلاج الدور، بيوت الطبقتين القديمة والشباب الحديث. أما إذا وفق الباحث إلى كشف ما في طبقات تلك البيوت وإلى بحثها

ودراستها بصورة قليلة، لوجد الحياة جامدة كما كانت عليه قبل ربع قرن تقريباً.

إن في الأثاث أو في طرز المعيشة، أو في الأبنية وهندستها، هكذا يجد الباحث حياة النجف الإجتماعية متناقضة متقاربة، غير إنها سائرة إلى التجدد بخطى واسعة، وبقدم ثابتة، وليس أدل على ذلك من مدينة النجف الجديدة التي أحسنت تخطيطها يد المهندس، وقسمتها إلى عدد من المستطيلات، يحتوي المستطيل على ثمان قطع من كل قطعة دار، وقد بوشر في تشييدها منذ سنة ١٩٣٢م، وقد أوشكت أن تتصل الأبنية، وهي بطبيعتها مائلة إلى الوضع الصحي، حيث تغرس في دورها الحدائق، إضافة إلى حديقة البلدية الجميلة، وحديقة الأطفال، وابنية المدارس، والمستشفى الملكي، ونادي الموظفين، ونحن نعتقد إنها ستكون ملجأ التجدد والمتجددين، عاجلاً أو آجلاً، كما ستكون مغرساً لمدينة الأجيال القادمة.

ولا ننسى همة القائممقام السيد جعفر حمندي في اعمارها، وهي تقع جنوب شرقي البلد، ويفصلها عن السور الذي خرق قبالة كل جادة من جاداتها.

٢ـ المستشفيات والمستوصفات:

اعتقد أن ليس أدل على تقدم أمة أو بلد التقدم الفكري المطلوب من تعدد المستشفيات والصيدليات والاطباء الحديثين في ذلك البلد، وبالطبع على أن لا تكون محتشدة بالمراجعين.

في النجف اليوم طبيباً للحكومة وللبلدية عدا الاطباء الخصوصيين، وأيضاً عدة صيدليات إضافة إلى صيدلية الحكومة، والكل يواصل عمله الليل بالنهار، والناس حولهم محتشدون.

أما حالة النجف قبل ربع قرن فمما يرثى له، ويتوجع عليه رغم وجود طبيب واحد للحكومة مع صيدلية بسيطة، ولكن من ذا كان يراجعه من الأهليين؟ بل ومن ذا يقترب من صيدليته؟ أو تطمئن إليه نفسه، لا أبالغ لو قلت أن الأيام تمضي عليه والاسابيع ولا يرى مريضاً، والذين يعالجون المرضى هم المتطببون، على أن قسماً عظيماً من الدهماء كان لا يراجع ولا يعالج مريضه لدى المتطببين، كيف والمرض في اعتقادهم مرسل من الله تعالى، ولا يعرفون أن ذلك يخالف نظرية المذهب هي أن الخير من الله والشر من الإنسان.

النجف عام ١٩١٨ – صورة جوية

هذا هو شعور النجف قبل عشرين عاماً، أما الآن فلم تكتف المعالجة في بغداد بل في مستشفيات سورية ولبنان، يحاولون العلاج بكل الوسائل الممكنة مهما كلفتهم من المصاريف الباهضة.

وقد تجلّت أمام انظار جلالة سيدنا الملك هذه الحاجة عند زيارته النجف في هذا العام، فأمر بتأسيس مستشفى حديث في محلة النجف الجديدة، وبوشر في بنائه فعلاً على أن يكون المستشفى القديم مستوصفاً. ولم تكن أول بادرة من عناية جلالته بالنجف التي تقدسه.

٣ـ الخط الحديدي:

كان حادث مد الخط الحديدي بين النجف والكوفة أعظم آية من آيات المدينة فاجئت القوم مفاجئة، وهو أول حادث جديد فتح باب الجدل بين القديم والجديد، غير أن الوهم الفكري القديم المتأصل في النفوس تمكن من المكافحة والدفاع وموه الحادث أمام الناس، وألبسه ثوباً من التفاهة والبساطة، وأراه عملاً يمكن لأي حدّاد القيام به ما دام الحديد وساعد الحداد ومطرقته وبوتقته.

وفي مثل هذا المنطق، وفي مثل هذه الأساليب تغلب الفكر القديم واطمئن الناس إليه، ولكن البذور أشغلت لها في النفوس مراكز.

تأسست شركة هذا المشروع المساهمة بسعي المرحوم عبد الرحمن الباچچي، ومحمد صالح الشاهبندر سنة ١٩٠٤ ـ ١٩٠٧م تقريباً، وإن عدد سهامها ١٢٠٠٠ سهماً، وقد تمكن الحاج محسن شلاش أن يزيد سهامه، ونظراً لدهائه وكثرة سهامه تمكن من التصرف في المشروع والتوكل منه. وبهذه الطريقة استفاد الحاج نفسه، كما نال المساهمون النجفيون بعض الفائدة.

وكان لهذا الخط الأثر البالغ في تقدم النجف العمراني، حيث ارتبطت في الكوفة اقتصادياً، وتوحدت تجارة المدينتين، وانتظم طريق المواصلات النهري.

وبفضل هذا الخط أصبحت النجف من المدن النهرية ذات المواني‌ء المهمة، وأصبحت الكوفة الميناء التجاري الوحيد من طريق الفرات إلى البصرة، كانت السفائن ترسي وتقلع منه يومياً، تورد البضائع التجارية وتصدرها إلى الفرات الأوسط دائماً وأبداً، غير أن هذا الخط تضاءل شأنه أخيراً، فقد هاجمته السيارات، وسدت دونه

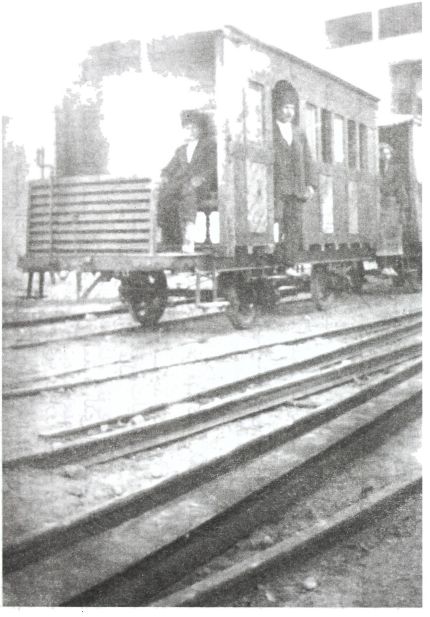

السكة الحديدة بين النجف والكوفة

الحاج معين التجار

السبل، وأن ابخست الأجور، وأكثرت العرض، وعلى هذا الأساس الاقتصادي توقف طلب التجار في هذا الخط ونقص الإحتياج إليه ورغبوا عنه.

٤ـ الكهربـاء:

ربما ظن القارىء أن حديث الكهرباء في النجف سهل يسير، نيّر وضّاء، بأن يستمد ذلك الحديث من اسلاكها، أن يستضيء من قدح زنادها، ولكن لا أيها النجفي، فقد بحثت بين أمواج هذا النور فلم أجد شيئاً، وتلمست فيه الخير تلمساً، فلم أهتد إلى خير، ولعلّ في عيني غشاوة، وفي عيني ظلام، ولعلني استنير بغير ما يستنير به الناس.

ألم تر أن وزارة الاشغال الجليلة استنارت على ضوء هذه الكهرباء، وسمحت للمرحوم الحاج معين أحد مثري الأجانب أن ينير الحرم العلوي المقدس، وأن ينير النجف من ظلامه الدامس باسم الخير وللخير وحده، وباسم البر والاحسان وآية هذا الخير أن تعفو الوزارة آلات هذه الماكينة من الكمرك، وإن تعفي الكهرباء في النجف من الضريبة، وأن تعفى من جميع رسوم البلدية، وإن، وإن، وإن.

ألم تكن هذه الإعفاءات بحق، وكان لا بُدّ من تقديم المكافئات لصاحب المشروع الخيري الذي ينير الحرم بدون أجر، وبدون مقابل، فهل فوق هذا النور تحتاج الوزارة لدرس المشروع من مزيد؟! كلا، ثم كلا، كيف تحتاج وزارة الاشغال إلى الاستيضاح ولديها مئات المهندسين والفنيين؟ ألم يقدم هؤلاء كشوفهم؟ ألم يعرف هؤلاء أن النجف تسع ماكينتين للكهرباء بدلاً من واحدة؟ ألم يعرف هؤلاء أن هذه الماكينة ستكشف بنورها عن مجرى من الذهب وإنها ستدر على صاحبها أموالاً طائلة وإنها ستصبح أكبر مورد تجاري.

أما الوزارة ومستشارها الفني فقد عجزوا عن فهم كشوف هؤلاء الفنيين، كما إنها قليلة الاختبار في الأماكن الدينية من جوامع ومساجد وكنائس، ولا تعلم إنها تستثنى من الضرائب العامة ومن أجور الماء والكهرباء غالباً.

نعم، الفهم كل الفهم، والمعرفة كل المعرفة لدى الموظفين الاداريين الذين خدموا الوطنية في انجاز هذا المشروع الخيري، وأناروا الشهب بهذا النور الأجنبي الوضاء، فليشكر وطنيتهم التأريخ، ولتطلب لهم العروبة المجد السامي على مر السنين والأعوام.

تأسس هذا المشروع سنة ١٩٢٥م، ورغم العيوب المتقدمة، ورغم أنه مشروع أجنبي فهو يسمى مشروع عمراني سبقت النجف فيه أكثر المدن العراقية الهامة.

٥ـ مضخات الماء ومشاريع الجداول:

الماء وما أدراك ما الماء في النجف، عقدة العقد، ومشكلة المشاكل، ماذا اتحدث، أعن تاريخ هذه المشكلة من الماضي القريب، أم عن تأثيرها المليء بالأسى والألم.

ولكنا نتقيد بالبحث عن ربع قرن ولا نتوسع، فنستعرض أسماء الملوك والأمراء والوزراء والعلماء ورجال الأثراء الذين حاولوا إجراء الماء من الفرات إلى النجف، ولا نستعرض مختلف القنوات والجداول من نهر الشاه، التاجية، نهر الطهمازية، نهر الهندية الحالي، وغيرها التي شقت للنجف ولأهل النجف.

وليس عجيب لو بدأنا الموضوع بالأسى والألم، فقد شاهدنا النجف قبل خمس وعشرين عاماً، يقتل أهلها الظمأ طيلة فصل الصيف من كل سنة تقريباً، فتضطر الطبقة الفقيرة، وقسم من الطبقة الوسطى أن يحملوا ويحملن جرارهم وجرارهن صغاراً وكباراً ليستقوا من قلبان تحفر وسط نهر السنية الذي كان قد جف وانقطع معينه، ولا تسل من زحام الحرائر الظماء على المورد الآسن، ولا تسل عما تفعل حرارة الصيف وسموم القيض في تلك الطريق الوعرة النائية.

هذا هو الأسى والألم، هذا هو البلاء والخطب.

أما سائر الطبقات فتبتاع قربتي الماء بما يقارب المائة والخمسين فلساً الآن، وشاهدنا النجف في ذلك الدور تتجمهر أمام أهل الحل والعقد، وأمام إدارة البرق شاكية أمرها إلى المراجع العالية، ولكن ليس من سامع، ولكن ليس من مجيب.

وشاهدنا قبل عشرين عاماً وأهلها عطاشى في غير الحالة والدور الذي اسلفنا، غير أن معظم الزحام صار حول عربيات الخط الحديدي في الميدان العام، وحول صناديقها التي تنقل مياه الفرات من الكوفة، ولكن الزحام أعظم، والتضارب في علب الماء الفارغة أشد من ذلك، لقلة عدد صناديق النقل، فما أحزنه منظراً، وما أوحشه مرأى، يثير المروءة، ويبعث الغيرة، ولكن من هم الخصم لهذا الشعب العاطش؟! وإلى من تتوجه الغمزات، وقوارص الكلمات؟

نعم، كنت تشجب وجه تلك الحكومة الحمقاء وأربابها المفسدين، ولكن إلى متى الصبر على هذه المآسي؟ وإلى متى القنوط أمام هذه الحال؟ أما آن أن تحول وهذه مضخات المياه روت أراضي الديوانية، وسقت عاطشها!!

أنشأت شركة مساهمة أحد اعضائها رئيس البلدية، ورئيسها المرحوم السيد جواد الكليدار، والحاج محسن الشلاش أمين صندوقها، على أن يكون رأس مالها خمسة عشر ألفا من الليرات، وعلى أن تبلغ سهام البلدية فيها ٢٥٪ من مجموع السهام، ووزعت بقية السهام على تجار العراق، وجمعت أثمان بعضها، وقدمت البلدية لقاء سهامها ما يقرب من الثلاثة آلاف ليرة، وتم الإتفاق مع أحد البيوت التجارية في بغداد لجلب المضخة من أوربا، وذلك عام ١٩١٣م تقريباً.

وصلت الأنابيب إلى البصرة، وبقي بعضها فيها، ونقل معظمها إلى النجف، وألقي على طول الطريق إلى الكوفة، ولكن الماكينة نفسها لم تصل النجف، وقد فاجئتنا الحرب العالمية سنة ١٩١٤م فحالت دون وصولها، وآلت الحال بالأنابيب إلى الخراب والدمار، فقد تصرف المحتلون في أنابيب البصرة ثم في أنابيب النجف حتى تلف كثير منها، إضافة إلى احتراق بلدية النجف مع سجلاتها وسنداتها عقيب الثورة النجفية في وجه الأتراك، ولا تسل كيف احترقت؟! ولماذا احترقت؟! وهل لحساب هذه الشركة يد في ذلك الاحتراق والاتلاف. لا أدري.

ولكن هكذا راجت الإشاعات حينذا، وعل كل حال لقد ضاع حساب الشركة، فلا تسل أيها القارىء ماذا آل إليه رأس المال؟ هل سددت به أقساط المضخة كلها أم بعضها، وعلى فرض إنها لم تسدد، ماذا صنع في رأس المال المجموع.

نعم، نعرف أن معظم السهام لم تسدد لأصحابها، وإن أحدهم رفع قضية على أمين الصندوق مبلغها مائة ليرة، توكل عنها المحامي سعد صالح فكسب الدعوى رغم مرور الزمن عليها. ولا ندري كيف كسب هذه القضية وقد أكلتها النار في حينه، برأت ذمة أمين الصندوق وخرج من التهم والاقاويل فائزاً منتصراً.

أما وقد أكلت النيران هذه الشركة فسوف لا يصفو حسابها إلا عند رب يطول حسابه؟ هكذا ختمت المضخة بمأساة، وهكذا فشل المشروع (ولو أن معظم الانابيب لما تزل ملقاة على قارعة الطريق)، وهكذا عاد الياس والقنوط إلى قلوب النجفيين على

أشد ما يكون الياس والقنوط، وسخطوا على الطبيعة، وعلى أحكامها.

وإذا ما حل يوم الاحتلال الاسود، وإذا ما توسطنا عام ١٩١٧م، وإذا بالغرباء عن البلاد والاعداء لأهلها يضعون مضخة في (أبي صخير) مصدر جدول النجف لتصعد إليه بماء الفرات، فإذا الجدول مترع بالماء العذب، وإذا الجدول طافح، يواصل جريه برحلتي الشتاء والصيف، ويروي البلد وأهله وبساتينه من الظمأ.

هنا يتلمس النجفي نواظره، ويتحقق خبره وخبره متسائلاً: كيف زاول الماء مجراه في النجف، وكيف واضب على سقي الزرع والضرع والإنسان؟ إنها لمعجزة لم يؤتها الصلحاء، وإنها لاية لم يؤتها العلماء، فهل لدى القوم سحر، أو لدى القوم طلاسم، أو إنهم حظوا بحلولها؟ هكذا يردد صدى سور النجف أحاديث النجفيين ولغطهم.

الآن وقد تجلى للقوم إنهم لم يخلقوا عطاشى، وإن لا مانع من جريان الماء إلى النجف الآن، وقد تجلى كذب الرؤى والاحلام، وإن أبت الأقدار أن تروي النجف الآن وقد أزال الري عنهم غفلة العطش، فليشمروا عن ساعد الجد لتأسيس مشروع ثابت للماء، وها أن الحاج رئيس التجار أحد مثري بلاد الأهواز ومحسنيها قد حل النجف زائراً.

هل لك أيها المحسن أن تعمل صدقة جارية فتجلب مضخة لري النجف العطشى؟...

نعم، ولكن هل العلماء والعيون مستعدون لأخذ صك التنازل من أرباب الأنابيب الملقاة، وعلى أن يبرأوا من (امتيازهم) الذي بأيديهم، وهل تسمح الحكومة بزرع الأراضي المجاورة كي ينهض واردها بما تحتاج إليه الماكينات من نفقات؟

انبرى العلماء والعيون لتحقيق هذه المقترحات لدى أرباب الحل والعقد، وزيد أن ينفق وفر الوارد (إذا كان) في عمل مستشفى كبير ومساعدات الفقراء، وكان أحد ابطال هذه الرواية الحاج عبد المحسن الشلاش ـ طبعاً ـ غير أن عينه العبرة تنظر خلسة إلى الأنابيب الملقاة باسى وحرقة ولا مزيد عليها، تنظر إليها قبل أن يقبرها المشروع، وقبل أن تدفن ملكيتها، وذهبها الوهاج من عيني الحاج!

ولكن هل إلى الخلاص من سبيل؟ وهذا أمر واصل، وهل إلى التلافي من حيلة؟! وهذا خطب نازل، إذاً فلينظر؟؟

وبعد مراجعة طالت آمادها، وبعد أبحاث كثر الدرس فيها، وبعد تداول بين هنا وهناك، وبين هنا وهناك، وإذا بالخطة قد تغيّرت من حال إلى حال، وإذا بالموضوع قد انقلب من صورة إلى أخرى، وإذا بالمشروع قد تبدل وتغير من مضخة إلى جدول.

لعمري هذه الخطوة السياسية الأولى في إضاعة اتجاه الموضوع. غير أن دخائل الأمور تدعوني إلى الآخذ بقول القائل:

(لعـل لهـا عـذراً وأنـت تلـوم)

ومع كل ذلك فقد جرى عقد الإتفاق، وأحال المحسن الكبير الحاج رئيس ثلاثة ألكاك الربيات لدى البنك لتصرف في سبيل شق الجدول من قرب الكفل موازياً للفرات متجهاً جنوباً إلى (أبي صخير)، على أن ينعطف إلى أراضي بحيرة النجف.

أجتمع في الكوفة أربعون مهندساً، وباشروا العمل مدة طويلة، صرفوا خلالها ثلاثين ألفاً من الربيات، وحفروا من مصدر الجدول مسافة غير قصيرة، وهنا يتغير الحال، وينقلب الوضع مرة أخرى، وتروج الاشاعات في أن الجدول فاشل لا محالة، وأن كشوف المهندسين نقضت غزلها، وأن الرصد المالي لا ينهض بالمشروع، وإذا بالأوامر تصدر في إيقاف العمل، وإذا بالأوامر تصدر في نقل المهندسين، وإذا بالجدول خال تسفي فوقه الرمول، وإذا بالجدول خاوٍ:

كـأن لـم يكـن بيـن الحجـون إلـى الصفـا أنيـس ولـم يسمـر بمكـة سـامـر

ولكن هل يعلم القارىء من هو المشرف على مشروع الجدول؟ هل يعرف من هو المسيطر على المهندسين والعمال؟ أجل، هو الوزير النجفي، أو وزير المال طبعاً؟ وهل القارىء على علم من هو وزير مال الدولة أنذاك؟

نعم، هو الحاج محسن الشلاش، فشل المشروع، وسحب ذلك المحسن الكبير بقية إحسانه ورصده من المصرف، وذهب إحسانه ينعى النجف بين طيات التاريخ، وأصبحت الثلاثة الكاك الربية في خبر كان.

أما النفس النجفية الزكية فقد كانت لاهية ثملة في خمرة المشروع، ولم تع ما خبأته لها الاقدار، ولم يلم إلا أفراد منها في بعض عوامل هدم المشروع، الأمر الذي كان منها موقع الصاعقة المفاجئة، والداهية الداهمة، وماذا هي صانعة؟ وماذا هي فاعلة؟ إنّا لله وإنّا إليه راجعون.

قدمنا أن قد أصبح النجفي مقتنعاً بنجاح مشروع المضخة، غير أن المثري النجفي لم يعهد هذا النوع من التجارة، ولم يعتد التعامل به، فليستأنف جهاده في تحقيق المشروع ويسير به بقوة الاستمرار، ليعمل على إستمالة الحاج معين صاحب الكهرباء مع إشراك الحاج رئيس، ليشحذ النجفي همته في تحقيق أمر لم يكن يحسن دراسته، ولم يتبين طريقه، مدفوعاً بالعمل لصالح النجف كما تراءى له، ولكن الحقيقة أنه كان عاملاً لصالح بلده من ناحية واحدة، وعاملاً لصالح صاحب المضخة من نواحٍ شتى، أو أنه كالحفر لحتفه بضلفه، لا تقل هل وافق الحاج معين؟ بل قل هل هو في حاجة إلى المداولة والاقناع؟ هل يحتاج رب الكهرباء إلى الاستنارة وقد دلّته كهرباؤه من أين تؤكل الكتف؟ وقد دلّته خبرته الطويلة أن المشاريع الخيرية، والملابسات الدينية خير وسيلة لانجاح التجارة.

فكان له أن اذنت له الحكومة في عمل مضخة على نحو شرايط المضخة المتقدمة، وعلى نحو من التحفظات المذكورة، ولكن هل قيدت الحكومة تلك الشرايط والتحفظات بصورة تحريرية؟ لا أدري!

جلبت الماكينة، ومدت الأنابيب، وجرت المياه سنة ١٩٣٠م، فكانت كاختها الكهرباء خيراً للنجف، وإحساناً للنجفيين، ومورداً لصاحبها عظيماً، وصفقة لصاحبها رابحة، وتجارة لن تبور، وآية ذلك أم تعفى الماكينة وأدواتها من الكمرك؟ وآية ذلك أن تعفى من ضرائب الحكومة، وأن تعفى من رسوم البلدية، وأن، وأنْ.

لا تأسف أيها النجفي البسيط، لا تأسف أيها النجفي البائس القانط على ما فات، لا تغضب أيها المهاجر من باحث عراقي في شأن عراقي، يكشف فيه النفسيات على وضح النهار، ويبرز الحقائق كما هي! ألا تعلم إنّا في عصر النور، ألا تعلم إنّا في عصر تصعد فيه المياه إلى قمم الجبال الشامخة بأيسر سبيل، وبأقل ثمن وأجر!

ألم تعلم أن النجف ليست أول مدينة مدت فيها أنابيب المياه، وليست بأقل أهمية أو بأقل سكنى من بعض المدن العراقية التي أسس فيها التجار النفعيون المضخات؟

هذه أسئلة لك أن تثبتها أو تنفيها، ولكن الحقيقة ناصعة، وقد دللنا عليها، وأن أبيت إلا المزيد فسل عن مصاريفها البسيطة، وسل عن إيرادها السنوي.

يميناً أني لا أبالغ بأن لو قلت أن إيرادها يساوي إيراد مالية القضاء كله أن لم يزده،

وعليه هل يبقى مجال لتسميتها خيرية، خيرية، وفي سبيل الخير والبر، والأحسن، اللهم إنها تجارية، تجارية وفي سبيل النفع والمال.

وخير لك أيها النجفي أن تكون تجارية كي تستفيد الحكومة والبلدية من رسومها وضرائبها ويغرم وكيلها، ويجازى فيما إذا اخل بالشرائط أو إنه لم يقم بتصفية الماء وتعقيمه وترويقه أما ثمن الماء فثق أنه لا يمكن أن يزيد على الفحش الذي هو عليه الآن.

والغريب أن وكيلها لم يقم لحد الآن مد الأنابيب إلى البلد.

ما هذا الإحجام أيها الداهية؟ أو لست تحب أن يكمل التجهيز، ويتم الغرس فيبلغ الإيراد ذروته العليا.

وبالتالي أصرح بملء فمي أن مشكلة الماء سلسلة أغلاط متماسكة بعضها برقاب بعض اشتركت في ارتكابها العثمانية والإدارية المحلية والتجار النجفيون.

وبعد انتهاء مشروع هذه المضخة انتهى دور المشكلة أو كاد، غير أن دور التفكير في مسألة الماء لما ينته بعد، فاقترح بعض النجفيين على الإدارة المحلية أن تسعى أو أن تسمح بشق جدول من (أبي صخير) إلى النجف على أن تتكلف وزارة الري شيئاً من مصاريف هذا الجدول غير كشوف مهندسيها، ومراقبة العمل فتشبثت إدارة قضاء النجف وأخيراً ساعدتها إدارة قضاء أبي صخير.

وأمر قائممقام النجف السيد جعفر حمندي على انجاز المشروع فكان، وبوشر في العمل، وشرع ذووا العلاقة ممن لهم أراضي في البحر قديماً، فحفروا القسم الذي في أراضيهم، وعلى هذا الأساس كمل الجدول سنة ١٩٣٢م، وعملت في النجف حفلة أجراء النهر تحت رئاسة القائممقام حضرها جماعة من زعماء أبي صخير مع قائمقامها، وكان مجيئهم في سفن صغار حملتهم في الجدول إلى النجف، وقد دعي المشروع (جدول الأمير غازي)، وبفضل هذا المشروع باشر النجفيون في غرس وزراعة أراضي البحر الغامرة.

الفصل الرابع

التطور السياسي في النجف

- التربية السياسية .
  ١ ـ فرع حزب الإتحاد والترقي .
  ٢ ـ الهيأة العلمية وأعمالها .
  ٣ ـ إتفاق الحزبين وأعمالهما الجبارة .

التربية السياسية:

لم تشأ النجف المنصرفة خاصتها إلى الروحية السامية، أو لم يشأ محيطها البعيد عن مجاري السياسة وعن مراكزها الأصلية أن تعمد إلى دراسة النظم السياسية، أو أن تخلق مدرسة تُدّرس فيها الفنون السياسية، كما لم تقم إبطال السياسة في الدور العثماني الطويل في احداث تلك المدرسة بالعراق كله فضلاً عن النجف.

بقيت مدرسة النجف الكبرى بعيدة عن هذا الفن الحيوي وعن بطولته الجبارة طيلة الأجيال المنصرمة في حين إنها تمارس كل الأساليب والفنون العلمية على إختلافها تقريباً.

بقيت النجف حتى بدأ ربع القرن الذي نحن فيه لا تعرف عن السياسة والساسة رأياً ولا علماً ولا فلسفة، وكأنها لم تسمع دوي ساسة أوربا ونظرياتهم، ولم تحس حتى باعمالهم واساليبهم وهم منها قاب قوسين أو أدنى.

لا تعرف النجف أراء فلاسفة الاغريق وربما لم تطلع على كتبهم وفلسفتهم السياسية في حين إنها درست وتدرس كل نواحي الفلسفة الاغريقية الرياضية منها والآلهية والطبيعية.

هكذا وجدت النجف في دراستي لحياتها طيلة ربع قرن، وربما كن مخطئاً، أو ربما كنت مغالياً. وربما كان في الزوايا خبايا ـ كما يقال ـ والخبايا العلمية في النجف كثيرة، والزوايا الدراسية في النجف أكثر وأكثر.

وإذا فرضنا وجود تلك الخبايا في الدراسة السياسية فأرى أن المطوى في الخفا، كالمعدم سواء بسواء، كنا ولم نزل نرى ونسمع في النجف دراسة فلسفة أرسط وسقراط وأفلاطون وغيرهم من فلاسفة الإسلام، ويحلل جهابذة النجف وفلاسفتها أراء أولئك ومعتقداتهم الآلهية والطبيعية والرياضية، ولكنا لم نره، ولم نسمع أن لهم رأياً في الحرية، وفي فلسفة الديمقراطية والجمهورية.

ولم تكن النجف تعرف معتقدات فلاسفة الرومان في السياسية، ولم تدرس نظرية (بوليبيوس) الدورية في ضرورة تطبيق أنواع الحكومات الثلاثة الملكية والاسطوقراطية والدمقراطية بصورة دائرية متعاقبة حفظاً لصالح الأمم ودولها، كما لا تعرف شيئاً عن

نظرية الجمهورية التي دعى إليها شيشرون في كتابه (الجمهورية) ونحن لا نغالي لو قلنا أن النجف كانت محرومة من هذه الناحية الدراسية ومفتقرة إليها.

ولا يذهب بنا الظن أن هذه الدراسة تتعاكس والمذهب الشيعي أو تتضارب معه لا وكلا بل بالعكس، وسيرى القارىء كيف تتمسك السياسة بأذيال هذا المذهب المقدس. وسيتضح له ذلك في الأدلة التالية:

أولاً: أن أكبر دعامة بل أعظم أساس يبتني عليه المذهب الشيعي هو سلطان العقل، فهو الحكم المطلق للنظر في الوجود، وفي إثبات واجبه، وفي الاعتقاد بأصول الدين الإسلامي الخمس.

فلا يكتفي هذا المذهب الفلسفي في التقليد الأعمى ـ بما ذكرنا ـ بل يفرض على كل شيعي راقياً كان أو منحطاً أن يلجأ إلى الدراسة العقلية المجردة التي توصله إلى الاعتقاد بجميعها، وإن تكن الدراسة بسيطة.

ويصرح العلماء الآلهيون أنه لا يقبل عمل المكلّف ولا عبادته الروحية أن لم تكن أصول اعتقاداته متأتية عن طريق المنطق والعقل، ولا يتحرج المذهب الشيعي من فتوة الدراسة وموقف الدارس فيها الذي هو إلى التشكيك اقرب منه إلى الاعتقاد.

نعم، يوجب عليه القيام بالفروع طيلة تلك الفترة فحسب كما تجب عليه بدونها، فإذا كان هذا شأن المذهب في دراسة أسسه، وإذا كان المذهب يشجع معتنقيه بهذه الدرجة إلى الدراسة العقلية؟ فماذا يمنعهم من دراسة فلسفة السياسة؟ وإذا كان المذهب الشيعي لا يوقف قابلية الإنسان الطبيعية بل ينشطها ويخلي لها الميدان في دراسة أي علم أو فن، متى شاءت، وأنّى شاءت، فهل يصح أن يقال أن المذهب يقف عقبة دون الدراسة الساسية، ولكن الحقيقة الناصعة أن العقبة الكأداء في سبيل هذه الدراسة هي الحكومات الإسلامية وأربابها أنفسهم، وإن شئت فقل هي الدسائس الأجنبية التي تعمل على غشية العيون وصم الآذان.

ثانياً: هل يعرف القارىء موضوع الاجتهاد في ديننا الحنيف وأثره العظيم في هذا الدين؟ وهل يعلم أن الاجتهاد كان دعامة نهضة الخلفاء وأعمالهم الجبارة؟ وأنهم على هذا الأساس القويم أقاموا صورح الخلافة وشيدوا منار الهدى.

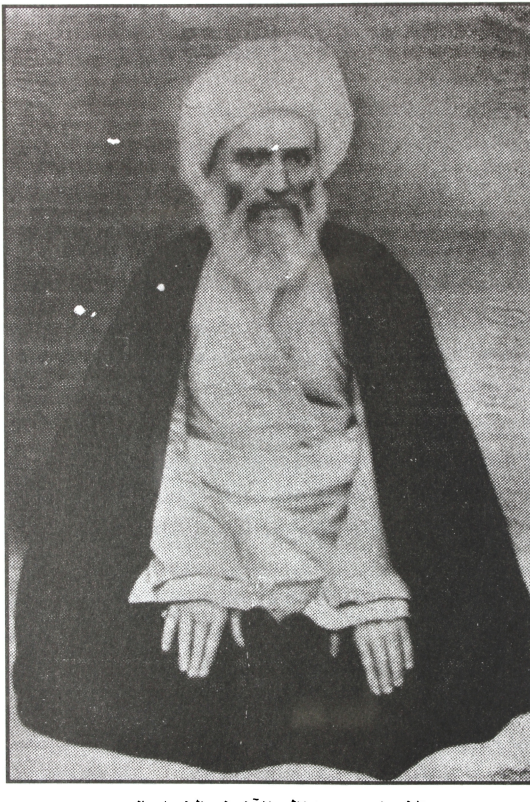

الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني

لم يغلق المذهب الشيعي الأمامي باب الاجتهاد، بل أبقاه على مصراعيه، وجعل من المجتهدين نواباً عموميين أناط بهم ولاية المسلمين العامة، وأطلق لهم عنان الفكر في تفهم الكتاب، وفي دراسة السنة، وتحليل الحديث ليتميز صحيحه من سقيمه، وضعيفه من قويه، ومتواتره من آحاده، وناهيك في هذا الإطلاق الفكري للمجتهد من القواعد الجلي لهذا الدين ولهذه الأمة التي طال العهد بينها وبين نبيها الأعظم، وأصبحت في حياة لم تعهدها، وفي أدواء لم تنتظرها، وفي محنة ضاق مخرجها، وتطور عظيم لم تألفه.

فما بالنا نحن نعقل افكارنا بأيدينا، ونطفىء جذوة ذكائنا بقصد منا وأختيار؟ لم يشأ الشيعي أن يغلق أبواب الاجتهاد، أو لم يشأ أن يضع فكره في إطار غيره، أو أن يدمج شعوره وخياله في شعور شخص تصرمت عليه القرون والأجيال. وهذا كتاب الله، وتلك سنة نبيه، فليمعنن النظر فيه المجتهد متى شاء. وإذا كان ملاك المفكر عرضه لتأثير البيئة والمحيط والزمان والمكان، وإذا كانت الأفكار لم تحدد قابلياتها، ولم يقف دون العبقرية فيها حاجز، ولم يحل دون المثل العليا حائل، فما بالنا ندفع بأفكارنا إلى متابعة فكر له بيئته ومحيطه وزمانه ومكانه، أليس من الجائز لمجتهد هذا العصر أن يستنتج من ظواهر الكتاب والسنة، ومن المحاكمات المحاكمات العقلية العلمية المأخوذة من الأصول والقواعد الفنية المسلمة ما لم يستنتجه مجتهدو العصر المنصرم!

ألم يكن من الممكن لمجتهدي العصور القادمة أن يستنتج ما يستنتجه مجتهدو هذا العصر ومن تقدمهم.

هكذا تملص مجتهدو الشيعة، وهكذا سار المذهب الشيعي من آخر عهد لهم في الإمام الثاني عشر لحد الآن، أو منذ سنة ٣٢٨ هجرية لحد اليوم.

وبفضل هذا الإجتهاد أصبح الدين الحنيف خاضعاً إلى ناموس التطور ولو في بعض النواحي، وأصبح يتخطى العصور والأجيال، ويحمل مشعله المجتهد لينير به أي شأن شاءه من شؤون الإجتماع، وأية حياة مستحدثة، وأي لون من ألوان الثقافة سياسياً كان أو علمياً أو أدبياً.

ولنضرب للقارىء مثلاً من أثر هذا الإجتهاد في معتنقيه ومتابعيه، ففي الأمثال

حكمة، وفي الأمثال عبرة، وفي الأمثال روعة وجلال.

في شهر شباط من سنة ١٩٠٨م ولّي عرش إيران محمد علي شاه، وبدأ هذا الداهية يعمل على تحطيم الدستور الإيراني، وعلى حل مجلسه النيابي، هذا المجلس وذاك الدستور اللذين أجهدا العلماء في تشكيلهما سنة ١٩٠٧م على عهد مظفر الدين شاه، لقد تمكن محمد علي شاه من هدم المجلس، وتعطيل الدستور، وقتل وسجن ونفي أبطاله في ٢٣ حزيران ١٩٠٨م الموافق ٢٣ جمادى الأولى ١٣٢٦هـ، فماذا سيكون موقف مجتهدي النجف يا ترى؟ سواء كانوا من الإيرانيين الصميميين أم من العرب العثمانيين، وجميعهم تحت سيطرة عبد الحميد، عدو الأحرار من كل نوع ولون، وهذا الحدث الجديد موضوع يجب البحث والمناقشة وإعطاء الرأي فيه.

وهذا الحدث الجديد سياسة بحته في الدين، وهذا الحدث الجديد تطور عام شامل لجميع نواحي الحياة، وهذ الحدث الجديد فلسفة جديدة نظريات مستحدثة.

لم يكتف المجتهدون بنشر الفتاوى في ضرورة إعلان المجلس والدستور، بل نشطوا للعمل تحت أسرار النجف وطلاسمها، ونظم بينهم وبين إيران قلم استخبارات واسع النطاق، يضرب أبطاله آباط الإبل والأفراس، يقطعون الصحاري والمهامة، يحملون فتاوى العلماء في خلعهم الشاه محمد علي دست الحكم، ويبثون الدعاية الصاخبة إلى عواصم إيران ومدنها وقراها وريفها وشعابها، وكلها تستنهض إيران للذب عن دستورها، وتعرض الفتاوى الدينية بوجوب تلك النهضة، في حين أن هذه البطولة الروحية كانت من الخوف والرعب على أشد ما يكون حذراً من فتك عبد الحميد وقسوته المعروفة.

وما أعظمها ساعة لم أزل ولا أزال أتخطرها وأنا طفل حينذاك، تلك الساعة التي أرتبك فيها برق النجف إلى الاستانة، وطارت الاشاعة بقرب وقوع حادث عظيم، فقد إستسلم العلماء للقضاء، وايقنوا أن عبد الحميد أحسن بأعمالهم التي تهامس فيها النجفيون منذ شهر، وأصبحوا في حيرة من أمرهم لا يدرون ماذا سيخبىء لهم القدر، ولم تنقض تلك الساعة الرهيبة فيهتز برق الإستانة إلا وهتزت لنبئه القلوب وأنشرحت الصدور.

وإذا بالنوح ينقلب إلى فرح، وإذا بالخوف والرعب ينقلب إلى مهرجان إعلان

الدستور العثماني بموافقة عبد الحميد نفسه، وذلك يوم ١٠ تموز سنة ١٣٢٦هـ ١٣٢٤هـ عثمانية الموافق ٢٣ تموز سنة ١٩٠٨م أي بعد شهرين هدم محمد علي شاه المجلس الإيراني.

مضت أيام تلتها غيرها جرى خلالها أنتخاب النواب وإذا بفتنة عظمى يثير بركانها المعممون في الأستانة بتدبير من عبد الحميد لتحطيم البرلمان ونوابه، فزاد غضب علماء النجف ومن حولهم الأحرار الإيرانيون والعثمانيون الذي وحدّتهم المحنة، فطيروا برقية إلى عبد الحميد إليك مضمونها:

«بعد أن عارض محمد علي شاه الدستور أفتينا بحكم الله تعالى في خلعه، وألزمنا الناس في عدم اطاعة أوامره، فإن اقتفيت أثره وأتبعت سوره فسوف تلقى ما لاقاه».

وقد خشي الناس عاقبة هذه البرقية التي تطاير منها الشرر والتهديد والوعيد لأعظم طاغية، ولكن النفوس الكبيرة في ذات الله يتلاشى أمامها الخوف والرعب، وقد قال أحدهم: «لا خشية من برقية كانت في جنب الله».

وهكذا كان، حيث لم تمر أيام قلائل إلا والبرق يستفتي العلماء في خلع عبد الحميد وتخليف محمد رشاد، وماذا ينتظر من هؤلاء العلماء الذين سري عن قلوبهم غير تطيير برقيات الفتوى والتبريك في خلع عبد الحميد وتخليف محمد رشاد وذلك يوم ١٣ نيسان ١٩٠٩م.

وهنا يتساءل القارىء هل توقف العلماء عن القضية الإيرانية طيلة هذه المدة؟ لم يفتر العلماء عن السير فيها ولا لحظة واحدة، وعقيب تعطيل الدستور واعلان الإنقلاب العثماني، جهد المجتهدون بأعمالهم، وزاد نشاطهم فليبعثوا بالوفود إلى إيران، وليقوموا بأعمال جبارة سجلها لهم تاريخ الإنقلاب الإيراني بأحرف من نور، ولم يحل عام ١٩٠٩م إلا وتم عزل محمد علي شاه واعلن الدستور الإيراني، وبوشر في إشادة المجلس المهدوم، وبعثت الحكومة الدمقراطية من جديد تولية ابنه أحمد شاه على عرش إيران.

فيرى القارىء أن العامل الأعظم للقيام بهذه الأعمال الجبارة هو الاجتهاد في الدين، وهنا يجب أن نلفت نظر القارىء إلى وجود فرق عظيم بين أبطال الانقلابين العثماني والإيراني، فإن معظم أبطال الأول من أمراء الجيش وضباطه ومن أحزابهم

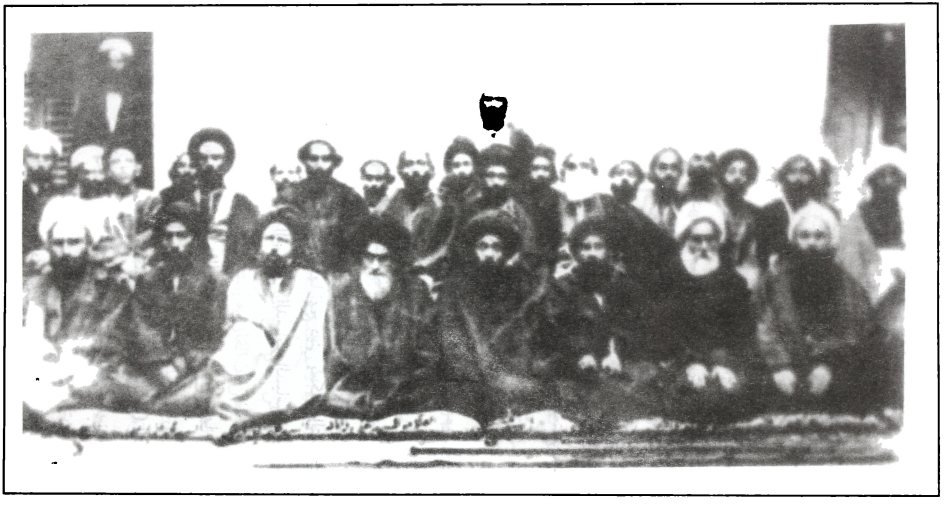

علماء النجف عند خروجهم إلى جبهة العمارة لمدافعة الاحتلال البريطاني عن ثغور الإسلام في الحرب العامة عام ١٣٣٤ هـ.

الجالسون من اليسار إلى اليمين:

الشيخ ...؟ ، السيد محمد علي بحر العلوم، السيد محمد بن السيد كاظم اليزدي، السيد علي الداماد، السيد مصطفى الكاشاني، السيد أبو القاسم الكاشاني، الشيخ محمد جواد صاحب الجواهر، الشيخ...؟.

السياسية السرية، أن في بلادهم أو في أوربا.

أما أبطال الإنقلاب الإيراني فمعظمهم من الروحانيين، قامت أعمالهم على أساس الدين وعلمائه المجتهدين، وإلا فلم تكن إيران في ذلك العصر من التقدم الفكري والثقافي ما يسمح لها بعدد كبير من الرجال المتجددين الذين يفهمون صالح الأمة ووسائل انقلاباتها، اللهم إلا أفراد قلائل.

وأظن أن القارىء تذوّق حديث هذا المثل، فأقتنع بأهمية الإجتهاد، وأنه أكبر وسيلة إلى ولوج السياسة، وإلى دراسة فلسفتها، فهل يبقى مجال للقول بأن الدين عثرة في سبيل دراسة السياسة في النجف كما اتضحت أمامه أهمية فتح باب الإجتهاد.

وإن هذه الباب كشف للأمة طرقاً وسبلاً واضحة مستنيرة، يمكن أن تنهج معها أي سبيل شاءت حسن الظروف والأزمان، وفاق التطور العالمي والتشكيلات الدولية، كما أتضح لديه نجاة هذه الأمة وخلاصها من شكل الخلافة المتبع لدى العثمانيين، ومن وحدة السلطتين الدينية والدنيوية فيها.

وهذا لا ينافي أن يكن للشيعة الإمامية خليفة معصوم في كل زمان، فإن أسس المذهب الشيعي يسوغ للمجتهد أن يعمل قوته الاجتهادية في جميع الشؤون. وسوف لا تضطر الشيعة إلى تعطيل موضوع الخلافة، وسوف لا تضطر حكومة إيران الشيعية إلى إسقاط هذا الموضوع، ولا إلى حذف المادة الخاصة في الدين من القانون الأساسي، الأمر الذي اضطرت إلى أرتكابه الحكومة التركية، وسوف لا تضطر حكومة إيران إلى سلوك هذا الطريق الوعر ما دام لها نهج ديني يمكنها التمسك فيه، وما دام المذهب الشيعي لا يرى في تطبيق القوانين والدساتير السياسية إبتداعاً في الدين أو إحداث أمر فيه ليس منه في شيء.

ربما يتساءل القارىء عن المصادر الدينية التي أستنتج منها هؤلاء المجتهدون أحكامهم، وعن مدرك تلك الفتاوى!

نعم، لقد ضمنت الرسالة المسمّاة (تنبيه الأمة وتنزيه الملّة) التي أتم تأليفها أحد المجتهدين[1] في ربيع الأول ١٣٢٧هـ وعلّق عليها بقية المجتهدين فطبعت ونشرت في

---

(١) تأليف الشيخ محمد حسين النائيني، وقد أوردنا نصّ ترجمتها في الملحق الثالث بآخر الكتاب.

وفته، وأتت هذه الرسالة على معظم الأدلة الدينية الموجبة للعمل في نظريات الحرية والمساواة وضرورة تطبيق الشكل الديمقراطي من الحكم وما يليه من تشكيل المجالس النيابية، وتنظيم ميزانية الدولة.

وقد استنتجنا من تلك الرسالة بعض الدعائم الهامة في حيثيات الحكم والفتاوى وهي كالأتي:

١ ـ قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

٢ ـ الولاية العامة التي خولها لهم مقامهم الاجتهادي.

٣ ـ المحافظة على صالح الأمة الإسلامية العام.

٤ ـ الدفاع عن ثغور البلاد وطرد عادية الأجنبي.

٥ ـ الأخذ بقاعدة ولاية الحسبة ـ بمعنى تبرع الولاية قربة إلى الله تعالى ـ تلك الولاية التي يمكن للمجتهد إعطاء الإذن بها.

٦ ـ قاعدة الشورى بين جميع أفراد الأمة.

٧ ـ منصوبية المقام الإمامي.

هذا ما إستنتجناه نحن من تلك الرسالة المهمة، وقد نشرت في مجلدات (العرفان) تباعاً، وفيها آراء أخرى عالية جداً، لا يسمح لنا الوقت في استيعابها، ولا يغرب عن البال أنه كما جاز للمجتهدين أن يأذنوا في هذا الشكل العام من الحكم بمقتضى تلك الاسس فلهم أن يأذنوا بأي شكل آخر من الحكم ترتأيه ثورة الأمة، وتقضيه المصحلة العظمى، وترتضيه قاعدة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

يعود بنا البحث عن الموضوع الذي أبتعدنا عنه كثيرا للتدليل عليه وهو (تربية النجف السياسية)، وأظن أن القارىء إستنتج من بحثنا هذا أن مدرسة النجف الكبرى لم تبدأ البحث في المواضيع السياسية إلا عند سنة ١٩٠٨م.

كما علم القارىء أن هذا البحث لم يكن فنياً ولا نتيجة عن دراسة منظمة، ولكن بقي علينا أن نبحث من أين نزلت هذه المواضيع فحلّت النجف، ومن أتى بها فوضعت في ساحة البحث، ويلوح لنا إنها وصلت عن طريق النقل والرواية، أولاً أكثر من طريق المطالعة التي قامت بترويجها الصحف المصرية والسورية فوصلت النجف أخيراً.

وهذا النقل جاء من ناحيتين: أولاهما على لسان مروجي سياسة الدولتين

المتنافستين والمتنازعتين النفوذ في العراق وإيران حينذاك وهما بريطانيا وروسية وقنصلياتها.

وأخراهما: على لسان الأحرار الإيرانيين والعثمانيين.

ولم نزل نسمع من أحاديث الشيوخ أن المرحوم السيد مهدي البغدادي كان أحد أبطال السياسة الأحرار، وكان على علم وعلى مضض من بعض الشائعات السياسية التي كان يدسها أفراد معدودون هم أجانب عن النجف وعن البلاد، وأذناب للأجانب أيضاً.

إلى هنا عرضنا أمام القارىء صفحة هامة من تربية النجف السياسية في نشأتها الأولى، وفي عوامل تلك النشأة. وسنعرض كيفية تطور هذه السياسية، وما أحاط بها من المؤثرات والملابسات وما تخللها من تشكيل الأحزاب مع أعمالها السياسية الجبارة، وحركاتها الثورية القهارة، التي قامت بها النجف طيلة ربع قرن حتى بلغت درجتها السياسية العظمى في نظر اعظم دول العالم، تلك الدرجة التي تضاءلت أمامها بغداد مركز الولاية وأم العراق، وسنتحدث عن ذلك في المباحث الآتية:

١ـ فرع حزب الإتحاد والترقي وأعماله في النجف:

لقد عمد الشيخ جعفر بن الشيخ علي آل مانع يساعده الأستاذان محمد رضا الشبيبي، ومحمد سعيد كمال الدين، وسعوا سعياً حثيثاً إلى تشكيل فرع لحزب الإتحاد العثماني في النجف، وذلك عقيب إعلان الدستور العثماني في سنة ١٣٢٦هـ الموافق سنة ١٩٠٨م[١].

وقد كثر منتسبو الحزب، وتجلت أهميته عند إنضمام بعض الشيوخ وكبار الموظفين مثل: الشيخ علي مانع، والسيد مهدي البغدادي، واليوزباشي مصطفى أفندي عاصم، وملا حسن الملا حسين النجم، والحاج سلمان أبو حميد، وغيرهم من زعماء النجف وأعيانها.

وكان هذا الفرع أول حزب سياسي على ما نعلم صريح معلناً منهاجه وتعاليمه

---

(١) تألف أول فرع لهذا الحزب في بغداد، وذلك على أثر إعلان الدستور (المشروطية) في قيظ سنة ١٣٢٦هـ/١٩٠٨م، وبعدها تأسست فروع أخرى في باقي المدن.

الخاصة، ويمكننا أن نعتبره حجر الزاوية السياسية في النجف، أو مبدأ تاريخ النجف السياسي المحض، وبعد أيام من تشكيله في دار آل مانع استؤجرت له داراً قرب باب الصحن (باب الطوسي) وجهز بالأثاث اللازم وألقيت فيه القصائد والخطب، ومما قيل فيه قصيدة للسيد محمد سعيد كمال الدين ضمنت في بيتين منها تأريخ تشكيل حزب الإتحاد وإعلان الدستور والبيتان هما:

ذكروا العدل في التواريخ قدماً ... وأبانوا صلاحه للعبادِ
ما رووه وأرخوه: (كيوم ... قام تأسيس مجلس الإتحادِ)

١٣٢٦هـ

وقد أرتأى جودي بن قنبر أغا أحد مؤسسي الحزب ضيق دار الحزب، فتبرع بدار له تقع قبالة الحسينية الحالية في جادة السلام، وصادف قدوم ثريا بك أحد أقطاب جمعية الإتحاد منتدباً من قبلها، فوجد الحزب مؤسساً، غير أنه حاول توسيع نطاقه أكثر، وفي أثناء المداولات وفد إلى النجف عمر نظمي أحد أقطاب الإتحاد أيضاً فإنضم إلى الفرع كل العناصر القوية في النجف مثل: السيد الشريف السيد محمد علي بحر العلوم، والسيد علي نجل السيد جواد سادن الحرم، والسيد مسلم زوين (دلاوه)، والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، ومعظم أكابر النجف واشرافها وزعمائها من جميع الطبقات العربية العراقية، وشكلت لجانه، واعلن منهاجه، وتطورت الرئاسة فيه من الشيخ علي مانع إلى محمد افندي البنياشي، فالسيد بحر العلوم، وانتظمت مراسلات الفرع مع المركز في سلانيك ثم الأستانة، وقد قام بعدة أعمال نذكر منها ما يأتي:

١ ـ حصل على فتاوى من العلماء في صحة نظرية الدستور، وقدمها إلى أولياء الأمر في الأستانة.

٢ ـ نشر مبادىء الحزب، وبث تعاليمه، ونفذ جميع مقاصده، وفضح سياسة الحكومات الأوربية الاستعمارية، واطماعها في الحكومتين العثمانية والإيرانية ونوّر العلماء والهيأة العلمية في كثير من الدسائس المهلكة التي تحيك أحابيلها القنصليات الاجنبية، وعمل الفرع على تحطيمها، وطالما فضح أمر بعض المتجسسين، وسعى إلى نفي الموفدين منهم من خارج البلاد، ولا نبالغ لو قلنا أن جمعية الإتحاد وفرعها في النجف خدما القضيتين العثمانية والإيرانية معاً

خدمة عظمى سوف يطالع القارىء بعضها في المباحث الآتية.

٣ ـ شيّد الفرع بناية خاصة له تحتوي على صالة وعدد كاف من الغرف وهي الماثلة أعلى إحدى أبواب المدينة، وفي جنبها مركز البرق والبريد الآن.

٤ ـ حمل الفرع رئيس البلدية وعرض للعلماء بواسطة الهيأة العملية وحرضهم فطيّروا برقيات في خلع عبد الحميد كما بينا ذلك.

٥ ـ أقامت الجمعية نصباً تذكارياً في الميدان، وهو اسطوانة مثمنة جميلة رمز للجمعية والدستور، وفي أعلاها زخرف كتب عليه بالحروف البارزة (حرية، عدالة، إخوة، مساواة). ولكن بناء طويلة، الأمر الذي جر إلى فتح باب الجدل بين صغار تلامذة اللغة العربية في معاني الكلمات وأوازنها وتصريفها، فكان وزن (عدالت)، فعالت ولكن هل هي ثلاثية من عدل أم رباعية من عدلت؛ وأيضاً كيف يكون تصريفها، وكنت عرفت شيئاً عن هذه الكلمات وإن الخطأ في إملاءتائها فحاولت إفهام أترابي الصغار أن القصد منها العدل، وأضطررت أن أحدثهم عما سمعته من السيد سعيد كمال الدين في انقلاب الحكومة فلم استطع التعبير، أو لم يستطيعوا فهم حديث لم يألفوه، فسخروا مني، ونقضوا بياني في وزن (حريت) وتصريفها، فعجزت أيضاً.

ولا تسل أيها القارىء عن الدهماء المحتشدة حول الإسطوانة وعن أحاديثها واحلامها، فقد كانوا يسألون عن الغرض من هذه الكلمات أثناء قراءتها، ولكنهم اتفقوا جميعاً على التشاؤم من هذه الإسطوانة، وإنها ستكون مبعث المصائب والحروب والأهوال والفقر والجوع، يتحادثون (عيش وشوف الله الساتر) وربما كان هذا الشعور سائداً معظم طبقات النجف.

ولو حاول الباحث تعليل مبعث ذلك الشعور لما إستطاع إلى ذلك سبيلاً، ولعمري يحار المرء في تحليل مثل هذا الشعور الشعبي، ويعسر عليه الوقوف على مصادره وأسباب انبعاثه، ولكني أرى حدس الشعب أو حسّ الجسم الإجتماعي تختلف كثيراً عن حسّ الأفراد، وهي فيه أقوى وأمتن وأوسع وأبلغ، يسمع الشعب الهمس وراء الجدران، ويرى الخفايا من وراء الحجب، ويدرك القضايا ونتائجها كما يجب أن تكون، ويتخيل الحقائق المطوية في زوايا الخفاء، فإذا هي متجلية لديه، ماثلة أمامه،

ولا ينكر أن في البشر عبقريات أغفلتها الأعين، ونوابغ لم يتعرف إليهم الناس أو أنهم عمدوا ألا يظهروا للناس شخصياتهم الحقيقية، ومداركهم السامية، وذلك أما حباً بالعافية، وركوناً إلى الراحة، أو لدواعي أخلاقية أخرى، أو لنقص غريزي آخر حال دون أن يبرزوا بأنفسهم، فدثروا قابلياتهم، وزجوها في سجون الإهمال، ولكنها كالكهرباء الكامنة سرعان ما تشع ويسطع نورها عند أضعف إحتكاك فتضيء للشعب الطريق، وتنجلي أمامه الحقائق قبل حدوثها بأزمان وأزمان.

وهكذا صدقت عامة النجف من تشاؤمها ونبوءتها، فقد توالت على البلد بل توالت على العالم أنواع الحروب والخطوب، وانهالت الكوارث والمصائب طيلة ربع قرن.

٢ـ الهيأة العلمية وأعمالها:

لقد حدثنا القارىء في موضوع التربية السياسية عن صفحة هامة من الأعمال السياسية التي كانت إلى السر أقرب منها إلى الجهر والعلانية تلك الأعمال التي هيأت الأفكار وساعدت على تشكيل فرع حزب الإتحاد، تلك الأعمال التي قام بها أبناء العلماء وبطانتهم والمنتسبون إليهم، ولكن بإسم العلماء وبعنوان العلماء، والآن وقد حصحص الحق، والآن وقد تجلت الشمس لذي عينين، والآن وقد عمرت البلاد أنوار الحرية، وأصبحت البلاد العثمانية نيابية دمقراطية تسير في سبيل لاحب من العدل، والآن وقد تأسست الجمعيات السياسية في طول البلاد العثمانية وعرضها، فلم يبق مجال للتكتم السابق في الأعمال.

وقد آن أن تؤسس الهيأة العلمية من أبناء العلماء وبطانتهم والمنتسبون إليهم البارزون في الوطنية والعلم والحنكة والدهاء، وخالطت عناصر هذه الهيأة ولكن معظمها من الإيرانيين والأقلية من العرب العثمانيين، وهنود الإنكليز، وترك روسية، فقد جهزوا أعضاء الهيأة باعمالهم في صالح البلاد الإسلامية عامة، وفي صالح إيران خاصة، وأصبحت جميع أعمال العلماء تظهر باسم الهيأة العلمية فكان لهذه الهيأة كيان عظيم، وفي سنة ١٣٢٧هـ الموافق سنة ١٩٠٩م أي بعد خلع عبد الحميد يقال أن الهيأة عملت على عقد جلسة عامة أنتخبت من بين أفرادها عشرة أعضاء عاملين ليشتغلوا باسم الهيأة يرأسهم المرزة مهدي نجل الملا كاظم المجتهد، ومن بين الأعضاء السيد هبة الدين رئيس مجلس التمييز الجعفري فاهتم الأعضاء في تنظيم شؤونها، وطبعوا لها

خاتماً، وعملوا منهاجاً بموجبه تعقد الجلسات، وتضبط المقررات، فكثر عدد المنتسبين والمتبرعين لها.

أما أعمالها فكثيرة ومهم جداً نذكر منها ما يأتي:

١ ـ طبع المناشير والفتاوى بآلة جيلاتين وارسالها إلى إيران والهند.

٢ ـ إيفاد الرسل إلى معظم الأقطار الإيرانية لبث الدعاية.

٣ ـ إيجاد صلة متينة العرى بين العلماء والحزب الدمقراطي في إيران، وتزويده بالمعلومات والإرشادات القيّمة التي يستمد معظمها من حزب الإتحاد العثماني.

٤ ـ استحصال موافقة العلماء وإقرارهم لمعظم أعمال الحزب الدمقراطي في إيران.

٥ ـ اتفاق الحزبين الإتحادي والهيأة العلمية في النجف.

وإلى القارىء بحث هذا الإتفاق أو بالأحرى هذا التوحيد، والأعمال التي انتجها.

٣ـ اتفاق الحزبين واعمالهما الجبارة:

لقد مكث ثريا بك في النجف كثيراً، يدرس حالة النجف الإجتماعية وأفكارها ومبادئها السياسية، فوجد أن الحزبين متلابسين في بعض الاعضاء، ووجد الأفكار ممهدة لتوحيد المسعى، والإتفاق في العمل، فراجع مركز الحزب طبعاً مستحسناً هذ الإتفاق.

وبعد أن أكمل تشكيل الفروع في لواء كربلاء كله، عاد إلى النجف ثانية، وحبذ إجراء هذا الإتفاق، وقرر الحزبان ذلك، وكانت النتيجة أن انعقدت جلسة الإتفاق والتأخي علناً، تلك الجلسة التاريخية العظمى، وقد عقدت في مدرسة المرزا حسين المرزا خليل، وضمّت معظم العناصر القوية للحزبين، وألقيت فيها الخطب الحماسية من الطرفين في ضرورة هذ الإتفاق، وتوحيد المسعى، لتكوين جبهة قوية، عاملة ضد الاستعمار الاجنبي ودسائسه، ثم تصافح أعضاء الحزبين وتعاقدوا وأقسموا يمين الإتفاق، وشربوا نخبة بسرور لا مزيد عليه، وكانت الرايتان العثمانية والإيرانية تخفقان في صدر القاعة مائلتان إلى بعضهما. رمزاً لأتفاق الرايتين أيضاً.

صورة تذكارية لاتفاق الهيئة العلمية في النجف مع ثريا بك مندوب حزب الاتحاد والترقي العثماني على الثبات في نصرة الحرية. «عن: تراجم مشاهير الشرق».

صورة أخرى لاتفاق الهيئة العلمية مع ثريا بك

وقد أخذوا تصويراً تذكارياً وضم معظم أقطاب الحزبين، فكان فرع حزب الإتحاد واعضاؤه وعلم عن اليمين، وحزب الهيأة العلمية والعلم الإيراني عن اليسار، يتوسط الحزبين منضدة يعلوها المصحف الكريم، وقد تصافح ثريا بك والشيخ عبد الرحيم بلبلة كل يمثل حزبه، وقد نشر هذه الصورة التاريخية جرجي زيدان في كتابه مشاهير الشرق[1].

غير أن تطفل الشيخ عبد الرحيم أغاض الهيأة العلمية ورئيسها المرزا مهدي، مما جرَّ إلى وقوع سوء تفاهم بين أعضاء الهيأة العلمية نفسها.

وكان لهذا الإتفاق قيمته السياسية، ومغزاه صدّى ودوياً في مكان القنصليات الأجنبية، لا سيّما روسية.

كان في هذا الإتفاق خلق صلة نفسية عظيمة المفعول بين أمتين عظيمتين، العثمانية والإيرانية.

كان في هذا الإتفاق إئتلاف المذهبين العظيمين الشيعي والسني، ويمثل الأول أعضاء الحزبين كليهما، ويمثل الثاني ثريا بك مع بعض الأعضاء من الموظفين العثمانيين، وقد أعاد هذا الإتفاق ذكرى تاريخ الأمة الإسلامية ووحدتها في صدر الإسلام.

وقد طويت في هذا الإتفاق جميع صحائف تاريخ المذاهب المفعمة بالحوادث السوداء، والجدل الشائن والمماحكات، وأصبح جميع الأعضاء بنعمته إخواناً، العلماء منهم والأمراء والحكام والزعماء والضباط والتجار والصناع على إختلاف عناصرهم ومذاهبهم، أصبحوا كلهم وهم مشتركون بالسراء والضراء، أخواناً سواسي كأسنان المشط، ومصداق قوله ﴿إنما المؤمنون أخوة﴾.

وكانت نتيجة هذا الإتفاق أن أختلط الأهالي النجفيون مع الضباط والموظفين، وتعاشروا وبلغ الإمتزاج درجة غير منتظرة، حتى تصافح الروحيين العرب والعجم مع بعض الأمراء من السنة العرب والعجم، ولكن تصاحفاً أخوياً صريحاً لا كلفة فيه ولا رياء ولا نفاق، بل تباحثوا وتصارحوا في أخطاء التأريخ الإسلامي وفي اغلاط أبطاله

---

(١) تراجم مشاهير الشرق ج١/ ص٢٠٤.

الذين لقحوا الفتنة لقاء مآربهم السياسية في حين أن الأمر كان في العراق معكوساً قبل حين والقضية كانت بالضد من ذلك تماماً، ليس في النجف فقط بل في جميع نواحي البلاد العراقية الشيعية، وإن شئت فقل لدى أهالي عشرة ألوية من بين ألوية العراق البالغة أربعة عشر لواء، فقد كان العداء بين الطائفتين مستحكمة حلقاته، متقادمة عهوده، وكانت البغضاء بين الحكومة العثمانية وبين شيعة العراق على أشد ما يكون عليه العداء، وثورات الشيعة متتابعة يرون أن الحكومة غاصبة غير مشروعة.

ورغم هذه النفسيات المتنافرة، وهذه البغضاء والضغينة، سرعان ما أتتلفت القلوب، وجمعتها المصلحة المشتركة والخوف من عدو غاشم مشترك، وهكذا قضت السنن الإجتماعية، وتحكمت المصالح في نفسيات الطوائف والشعوب والأمم، ففي يوم تجمع العدوين في حضيرة واحدة، وفي آخر تضرم بين الأمة الواحدة أو بين الملة الواحدة حرباً ضروساً تمحق الأرض محقاً.

ولست أدري ولا المنجم يدري، ماذا يخبىء القدر لهاتين الطائفتين الكريمتين بعدما تراءى لبعض الكبار والأمراء، وتوهموا أن البلاد تخلصت من عدوها المشترك، وأن البلاد نالت قضيتها كاملة، وأصبحت صحف البلاد وأربابها الأطفال في تربيتهم السياسية والضعاف في إيمانهم القوي والشعبي يحملون الحطب يذكون فيه نيران العداوة، ويزيدون لهيب الحقد والسخط، وقى الله هذه الأمة شرها.

والآن لنعد إلى الموضوع، موضوع الإتفاق بين الحزب الإتحادي، والهيأة العلمية في النجف، فقد تجلّت هذه الظاهرة، ظاهرة الإتفاق وسطعت أنوارها في حادث إصطدام محمد علي باشا المخلوع ونشوب الحرب بينه وبين الأمة الإيرانية، معتصماً بالقنصلية الروسية، وحكومتها وضباطها، القوزاق، فقد أقيمت الإجتماعات العظيمة المتتابعة في مدرسة المرزا حسين بالنجف، وضمّت هذه الإجتماعات من أول يوم جميع العناصر والاقطاب العثمانية والإيرانية العربية والعجمية، وكان من بين الخطباء المتحمسين الداعين إلى مجابهة الأجانب السيد طاهر أفندي أحد الضباط، والسيد مسلم زوين، وتوالت الإجتماعات في هذه المدرسة المباركة، ونشط الحزبان المتحدان للعمل سوية، واختلطت الإجتماعات السرية والعلنية، وبعد مناقشات ومداولات هامة قرروا بالإجماع ضرورة سفر العلماء المجتهدين والأحرار المخلصين

إلى البلاد الإيرانية إنتصاراً للشعب، وكان قائممقام النجف آنذاك راشد بك.

وأعلن العلماء وجوب الجهاد والدفاع ضد روسية نصيرة محمد علي شاه، ولكنه وجوب كفائي، إذا قام به البعض سقط عن الآخر.

سافر العلماء إلى كربلاء وجمع عظيم من الأحرار الإيرانيين والعرب العثمانيين وبيناهم ينتظرون تكامل جميعهم وإذا ببرقيات التباشير تترى في خذلان محمد علي شاه ونصرائه الروس، وإستيلاء الأحرار على البلاد الإيرانية، فلم تبق ضرورة للسفر، وسقط تكليف الجهاد عن عواتق مسلمي العراق، وعاد العلماء بموكبهم وجمعهم مستبشرين بالفوز والإنتصار، وكان هذا الفوز مدعاة لإحكام الروابط بين الحزبين، وقد استمروا في الأعمال متكاتفين[1].

وقد نشط الحزبان للعمل أكثر بين سنة ١٩١٠ ـ ١٩١٢م الموافقين سنة ١٣٢٨ ـ ١٣٣٠هـ على عهد قائممقام النجف عبد العزيز بك في ولاية جمال باشا الذي لقب بالسفاح أخيراً.

وكان هذا القائممقام أحد أقطاب جمعية الإتحاد الذين لا يُسألون عن أعمالهم وهم يَسألون، وجاءت الصدف بإعلان إيطاليا الحرب ضد الحكومة العثمانية، فإحتلالها طرابلس الغرب إضافة إلى إعتداء اسطولها وإطلاقه القنابل على موانيء الأناضول وبيروت المطمئنة، واضطرت الحكومة إلى إعداد عدتها سياسياً وحربياً فأوعزت إلى موظفيها أن يتقربوا إلى الشعب أكثر، وأن يبالغوا في هذا الاقتراب بالتودد، وإذا بالقائممقام عبد العزيز يزيد بإنغماره في الوسط النجفي، فلا يخرج عن محفل إلا ويزور آخر، ولا يبرح مدرسة علمية إلا ويلج مثلها، ولا ينبع من زاية إلا ويغور في أضيق منها، يتقلب بين أحضان العلماء منفذاً سياسة دولته وحزبه، ويقابل الناس ويعاملهم بلطف ودعة، وبالأخص الطبقتين الوسطى والفقيرة، وبفضل سياسته الرصينة اقيمت المظاهرات، ونظمت البرقيات والعرائض من منتسبي الحزبين، ومن العلماء انفسهم احتجاجاً على إعتداء إيطاليا.

ولم تفاجأ النجف بهاته التظاهرات مفاجأة، بل تقدمتها أمثالها كما أسلفنا، فكانت

---

(١) انظر: ملحق رقم (١) الخاص بالوثائق في آخر هذا الكتاب.

تقام في الصحن الشريف مرة، وفي الجامع الهندي أُخرى، وطوراً في المدارس الروحية حتى أصبحت النجف بركاناً للتظاهرات والاضرابات المتوالية، وعبد العزيز بك يحف به سائر اعضاء الحزبين، يقف بين الناس خطيباً يكشف لهم معميات السياسة الأجنبية، وأعمال إيطاليا في طرابلس يعضده خطباء الحزبين.

ولم تنته المفاجئات ضد هذه الأمة ومقدساتها بل زاد في الطنبور نغمة أن دهمها خطب جلل، ومصاب فادح ألاَ وهو إجتياز جيوش القوازق الروسية الحدود الإيرانية بحجة المحافظة على رعاياها في إيران، فما اجتاحت تبريز وبلغت خراسان حيث مرقد الإمام علي الرضا عليه السلام، وذلك عملاً بالإتفاقية الروسية الإنكليزية التي اطلع عليها الإيرانيون أخيراً، وكانت موقعة منذ عام ١٩٠٧م الموافقة سنة ١٣٢٥هـ وهي تتضمن استخدام روسية شمالي إيران منطقة نفوذ لها، كما تستخدم بريطانيا جنوب إيران منطقة لنفوذها، إضافة إلى مناصرة الشاه وضمان سيادته الدائمة[1].

وحملت أنباء إنتهاب الروس لقسم من مكتبة الإمام وإرسالها إلى بطربورغ عاصمة الإمبراطورية حينذاك، وزيد تجاوز الجيش على الحرم واستخدامه اصطبلاً إلى غير ذلك من الأعمال المنكرة، ولم تؤخذ بعض هذه الانباء بنظر عامة النجف موقع التصديق إلا في شهر محرم حيث عودة الزوار من خراسان، فكان لأنباء الزوار أكبر وقع على النجفيين، وأعظم حادث أهاج الأفكار، فكان هذا الحادث أبلغ سلاح إستخدمه القائممقام عبد العزيز في إثارة العامة أثناء العشرة الأولى من شهر محرم الحرام موسم المآتم والإجتماعات والتظاهرات الدينية، يلج المآتم الكبيرة ويطلب من القرّاء أن ترثي البلاد الإسلامية، من طرابلس الغرب وخراسان وأن يوضحوا للناس صور الحروب الدموية في تلك البلاد، ما آلت إليه حال أهليها وعلمائها ومساجدها ازاء اعتداء إيطاليا والروس فتتألم الناس وتصخب، ولم يكفه ذلك، أو لم يطفىء لهيب حماسه حتى وقف بنفسه يخطب في الناس مراراً وتكراراً، وفي جنبه السيد مسلم زوين، وكان إذا خطب تحسس وبكى فأبكى الناس، يعضده السيد مسلم، الطويل الباع في إثارة العامة، وإلهاب الغيرة والحفيظة، وعندئذٍ قامت قيامة النجف، فأختلطت التظاهرات

---

(١) حول هذه المواقف وما يليها، انظر أيضاً الملحق رقم (١) الخاص بالوثائق.

والإجتماعات في مصيبتين عظيمتين عثمانية ـ إيرانية.

ومن عظم النكبة عطل العلماء مدارسهم ودروسهم وزيد. بإضراب المصلين عن الجماعة، وكان الصحن الشريف في فوضى دائمة، تتجمهر فيه الناس، ويقف بينهم المتحمسون يلقون خطباً مسهبة في أحوال أوربا وسياستها ونواياها نحو هذه البلاد، ويفضحون خططها الاستعمارية، ويوضحون تقدم تلك الدول العلمي والصناعي والحربي، ويكتبون ضرورة مقاومتهم بسلاحهم بالآيات الكريمة، والأحاديث النبوية، ويختمون خطبهم بالبكاء والضجيج فيبكي بعض الجمهور.

أما بطل الرواية عبد العزيز فيرفع التقارير إلى حكومته ويعمل على إرسال الإحتجاجات وإيصالها إلى مختلف دول العالم ويهيىء الوسائل لنشر فتاوى العلماء في وجود الدفاع.

وقد أكثر من جمع التبرعات وإرسالها إلى حكومته ولم تقف أعمال عبد العزيز عند هذا الحدّ، بل تطفل فتداخل في بعض الشؤون الخاصة، وعمد إلى التوفيق بين اجتهاد السيد كاظم اليزدي المغفور له، وبين إجتهاد بقية العلماء، وهو يجهل أن يتجاهل، أن لكل مجتهد رأيه، وحاول إقناع المرحوم اليزدي على الإتفاق مع بقية العلماء والإشتراك في تلك الأعمال والتظاهرات.

وقد بذل لذلك قصارى جهده لما للسيد المذكور من النفوذ الديني العظيم لدى الأكثرية الساحقة، وسلك لكسب موافقته مختلف الطرق فلم يفلح، وقد توسط الأمر بعض الشيوخ من الروحيين.

وبعد مراجعة طويلة ومداولات كثيرة ومناقشة وجدال دامت أشهراً حتى سئم الناس هذا الإختلاف، وخافوا سوء مغبته، أضطر المرحوم اليزدي إلى أن يأمر بعقد إجتماع عام، وأعلن بذلك، ونادى المنادي يطلب خروج الناس إلى وادي السلام، فسارع عموم النجفيين ذكوراً وإناثاً، صغاراً وكباراً، حتى كادت تخلو المدينة تقريباً، وغص الوادي بالناس ينتظرون رأي السيد وكلمته الأخيرة في أمر الجهاد، ودفاع العدو، وألقى الخطباء من العرب والإيرانيين خطباً حماسية ابكت العموم، وأثارت فيهم نيران الحمية، فعلت الأصوات، وكثر الضجيج، وكادت تتقارب الأفكار حتى تأثير ذلك الموقف المهول في ذلك الوادي الصامت بين تلك القبور والأجداث.

وعند الحادية عشر وصل السيد بين التهليل والتكبير، وارتقى منبراً عالياً فضج الناس بالبكاء والعويل فرحاً في ساعة زوال الإختلاف، وتوجعاً لما أصاب المسلمين، وبعد برهة هدأ الجميع وسكت سكوتاً عميقاً ينصت لإستماع كلمة السيد الأخيرة، ودعاءه الثمين، وإذا بالسيد ينوه بكلمات متقطعة فاترة خالية من التألم والحماس، وفارغة من كل معنى سياسي ضد أية دولة أو حكومة، وإنما هي مجرد دعاء بسيط لم يتجاوز العشرين كلمة تقريباً وفي حينه سرى ذلك الفتور إلى نفوس الجمع المحتشد سريان الكهرباء، وسرعان ما بردت العزائم، وخمدت نيران الحماس، وقد عقبه الشيخ جواد الجواهري فرقى المنبر موضحاً ومبلغاً للناس كلمات السيد وما حوته من المغازي، فلم يستطع تحوير تلك الكلمات المنقطعة إلى الغاية المتوخاة من عقد ذلك الإجتماع، رغم محاولته تلك، وعليه فقد خاب هذا الإجتماع وخسرت صفته هذه المظاهرة الكبرى، ولم يحصل منها بعض ما كان يتطلبه أكابر الأحرار واقطاب الحزبين، وذهبت أتعاب القائممقام عبد العزيز أدراج الرياح، ويئس الجميع من إمكان توحيد رأي السيد مع آراء بقية العلماء يأساً تاماً. ومع ذلك لم تخل هذه المظاهرة من فائدة، فقد تمخضت عن أمرين:

أولهما: عدول بعض مقلّدي السيد عنه لشدة إنفعالهم النفسي من الوضع الذي شاهدوه وأستغربوا أمره.

وثانيهما: تصلب بقية العلماء في رأيهم، وإعلانهم الفتوى بوجوب الدفاع وجوباً عينياً على كل مسلم ومسلمة، ونشطت الأحزاب للعمل، فطبعوا صور الفتاوى بآلة التصوير، وبعثوا بها إلى عموم الأقطار الإسلامية.

ومعلوم أن الدفاع أعظم عبادة يقدسها المسلمون، وهي أهم تشريع في ديننا الإسلامين الحنيف.

ثم أعلن العلماء عزمهم على السفر إلى إيران، لدفاع الروس عنها، وتهيأ جمع غير قليل من النجفيين العرب منهم والعجم، وباشروا يعدّون عدّة السفر من مال وسلاح وعتاد، وجمع قسم من التبرعات، وضربوا أطنابهم على جبل السلام خارج المدينة، والمراسلة جارية على أشدها بين كبار العلماء في النجف وكربلاء والكاظمية لإعداد عدّة السفر إلى إيران، وبالأخير تعين يوم ٢٠ ذي الحجة ١٣٢٩هـ الموافق ١٩١٠م

لزحف العلماء والمجاهدين من طريق كربلاء تحت رئاسة الشيخ ملا كاظم (قدس سره) يصحبه من المجتهدين الشيخ عبد الله المازندراني، وشيخ الشريعة، والسيد مصطفى الكاشي، ومن علماء العرب الشيخ عبد الهادي البغدادي، والشيخ حسن علي القطيفي، وعمنا المرحوم السيد صالح الحلي، وقد سبقهم الأخير بجماعته إلى الكاظمية ينتظر إجتماع العلماء هناك.

وقد أحرج موقف الكثير من المقدسين في هذا السفر الطويل إلى إيران، لا سيّما العرب منهم، وكان الفصل خريفاً، والمسافر لا يبلغ إيران إلا في فصل الشتاء القارص، ولكن لا مندوحة من هذا السفر، لأن جيش الروس توغل في إيران يقصد العاصمة طهران، والتكليف الشرعي تجلت أسبابه ودواعيه، ولا تسل عن حالة النجف الفكرية، فقد أصبحت في اضطراب عظيم، أو لم سبق في تأريخها الديني مثل هذا الحادث الذي أوقف فيه المسلم في مفترق طريقين، أما أن يسلك طريق الزيغ، أو أن يسلك طريق الهدى، غير أن في اجتهاد السيد اليزدي الحيادي كان أحسن مخرج لكثير من الناس المقلدين له، ولكن على أي حال استحالت القضية إلى فتنة في الدين عمياء، وكانت امتحاناً دينياً عظيماً أثار الصراع والجدل الديني، وسرى العداء حتى إلى الأسر والطبقات فكان الأب وابنه، والأخ وأخوه، كل يرمي الآخر بالمروق من الدين، وفي هذا الإمتحان العظيم تمخضت الحقائق وبرزت الشخصيات الصلبة في ذات الله، وافتضح الدجالون المرائون، وتضاءلت مكانتهم في أعين الناس.

ولا ننسى القائممقام عبد العزيز، فقد كان والحق يقال بيت القصيد في جميع هذه الأعمال والحركات حتى في إعداد المعدّات وجمع التبرعات، وتنشيط المجاهدين بالخطب الحماسية.

ولا يظنن القارىء أن عبد العزيز ترك السيد اليزدي بعد خيبته في محاولته الأولى، فقد سلك إليه سبلاً أخرى تلوح بالقوة، وتمكن أخيراً من الإستحصال على فتوى في الجهاد، وأخذت صورها سراً بآلة التصوير دفعت إلى إيران، ولكن بطانة السيد أعقبتها برسائل تعاكسها، ولم تبق أي أثر لمفعولها.

هنا نلفت نظر القارىء إلى نقطة هامة يعاب على الباحث إغفالها بعدما حدثناه عن تلك الأعمال الجبارة، وعرضنا عليه صوراً من الحوادث والحركات السياسية وما هي

تلك النقطة؟

هي بدء اختمار التربية السياسية في النجف، أو بدء الإنقلاب الفكري العام الشامل، وذلك نتيجة البحران الفكري العظيم الذي جابهته النجف خلال المدة بين سنة ١٩٠٧ـ١٩١٢م فقد عالجت النجف في هذه الأعوام الخمسة شتى المواضيع الإجتماعية والسياسية المستحدثة، وحاز فيها النجفيون على درجة طيبة من الدراسة السياسية، فقد بحثوا عن أوربا بحثاً ضافياً، حكوماتها نفوسها، قواها البرية والبحرية، صناعتها، مقاصدها الاستعمارية، معاهداتها إلى غير ذلك من المواضيع القيمة.

إني لا أغالي لو قلت إنها أعطت النجف وأطلعتها على بعض دراسة الكليات العالمية، ولم تختص هذه الدراسة في طبقة خاصة، بل شملت جميع طبقات النجف العليا والوسطى والسفلى، وردد صداها في جميع بيوت النجف ومدارسها في حين أن جميع مدن العراق حينذاك الصغيرة منها والكبيرة كانت في هدوء وسكون عميق لا تعرف عن هذه الدراسة إلا نتفاً تسمعها عن النجف ولا تعقلها غير أن أثرها كان بالغاً في كربلاء والكاظمين فقط.

ومن هنا وجدنا بعض علماء هاتين المدينتين يشتركون في قضايا فتوى الدفاع، ومنهم المرزا محمد تقي الشيرازي، والسيد إسماعيل الصدر، والشيخ مهدي الخالصي، والسيد حسن الصدر، والشيخ حسين زين العابدين تغمدهم الله برحمته، وقد عزموا على السفر مجاهدين إلى إيران تحت رئاسة الشيخ ملا كاظم المتقدم ذكره.

النتيجة غير المنتظرة:

هنا يتساءل القارىء هل زحف المجاهدون بمعداتهم وسلاحهم من النجف، ومتى قوّضوا أخيامهم، وهل طبقوا منهاج السفر الذي أسلفنا، وماذا كانت نتائج تلك الحركات العنيفة والأعمال الجبارة، ماذا حل بالمجاهدين وبأطنابهم، وماذا صنع العلماء ودبر أقطاب السياسة الدينية، بماذا قام الدهاة الشيخ جواد الجواهري، وعلي زين العابدين، والمرزا مهدي؟..

نعم، وقف دولاب سياستهم جميعاً، وأخمدت نيران حماستهم الملتهبة، وكمّت أفواههم الصاخبة، وفرّق جمعهم المحتشد، وذلك لنزول آية سماوية برحابهم، وإنفجار ظاهرة طبيعية بين رخامهم، وصدمة عنيفة خلطت حابلهم بنابلهم، وذلك

بحلول المصاب المنتظر، ووقوع الكارثة الفجائية في هلاك رئيس الحركة، وقائد الجيش السياسي الحربي الشيخ الملا كاظم عند فجر اليوم المعين للرحيل وسفر المجاهدين، وهو يوم ٢٠ ذي الحجة سنة ١٣٢٩هـ، فما طلع نهار ذلك اليوم إلا بعد أن طوت ليلته صحائف ذلك الحلم المفزع، فما طلع نهار ذلك اليوم إلا بعد أن فرق ظلامه منهاج الحركة الجبار، وحطم خطط أبطاله وآمالهم الجسام، وأصبح جميع الأحرار الزاخر يضرب أخماساً بأسداس، يحرقون الأرم، يفرحون يصخبون، يبكون بألم وحرقة لا مزيد عليها.

وفي حزن عميق يعجز عن وصفه اللسان والقلم، وإذا بذلك الزحف والسفر ينقلب إلى مآساة، وإذا بذلك الرحيل يتحول إلى تشييع جثمان الفقيد زعيم الحركة الأكبر، وتجمهر النجفيون وهم في فزع عظيم، لهول الحادث، ولمكانة هذا الإمام العظيم في قلوب العموم، وكان التشييع عظيماً تسوده الحيرة واليأس والحزن العميق، وعليه فقد وقف دولاب الحركة والسفر إلى إيران، ونقصت حرارة النفوس الملتهبة، وخمدت ثورتها، وأطمأنت النفوس المترددة، ولكنا مع ذلك نرى أن الحادث حادث موت الزعيم لم يخل من فائدة للقضية نفسها، وللنجف أيضاً، فقد تمكنت المبادىء في نفوس الأحرار واستحالت إلى إيمان قومي ثابت شقّ فيها ثوب الدين، وحلت الإرادة والأعتماد على النفس محل التواكل، والإلتجاء إلى العلماء، وتجلّى التطور الفكري والعمل السياسي ضد الأجانب بأجلى مظاهره.

أما أسباب وفاته فقد كتب عنها الأستاذ الشهرستاني في الجزء السابع للمجلد الثاني من مجلة (العلم) الصادرة حينذاك بأنه توفي بالخناق القلبي كما هو تقرير طبيب الحكومة، وزاد بقوله: «وقيل إنه مات مسموماً بتفاحة أهديت إليه في كربلاء».

نعود بالبحث إلى الأحرار وإلى القائممقام عبد العزيز، فقد اسقط بيدهم بعد وفاة الفقيد سيّما القائممقام عبد العزيز الذي لم يتمكن من استثمار جهوده الجبارة، وأضطر إلى تقديم إستقالته، إذ اصطحب السيد مسلم زوين مجاهدين إلى طرابلس الغرب.

أما أسباب هذه الإستقالة فقد علمت من ثقة أن القنصل الروسي تمكن بواسطة جواسيسه الذين توصلوا إلى بطانة السيد كاظم اليزدي، فاستحوذ على أحدى الصور الأربعة من فتوى السيد في وجوب حرب روسية، تلك الفتوى التي حصل عليها عبد

العزيز نفسه، كما مر بيان ذلك، فكانت هذه الورقة إحدى مستمسكات القنصل في عزل عبد العزيز من وظائف الدولة، ولست بناس منشور عبد العزيز إلى النجفيين قبيل مغادرته النجف، ذلك المنشور المملوء إعجاباً بالنجف وتقديراً وحباً للنجفيين.

أما فرع الحزب فقد ضعف شأنه بعد عبد العزيز، وتضاءل بعد تحويل جمال باشا، وانقرض بعد سقوط الوزارة الإتحادية، وتشكيل الوزارة الائتلافية بدلاً عنها.

أما الحكومة الروسية فقد انسحب جيشها من إيران طبقاً للسياسة الروسية بالبريطانية التي بدأت تتوحد حذراً من السياسة الجرمنية الزاحفة.

وأيضاً لقاء معاهدة عقدت بين إيران وروسية، وكانت في صالح الروس طبعاً، وبعد حين تركت الدولة العثمانية طرابلس الغرب وعقدت الصلح مع إيطاليا سنة ١٩١٢م الموافقة ١٣٣٠هـ.

فكان لهذه المصادفات، ولتلك المعاهدات الصلحية أن تنقص من لهيب الحركات بالنجف، وكادت تطفئها، فقد انفرط عقد الهيأة العلمية وتفرق معظم أعضائها إلى إيران وسائر الأقطار الإسلامية، إضافة إلى سدّ حزب الإتحاد واستفحال أمر الفكرة العربية وانتشار مبادئها بين شبان النجف. وسنبحث عنها في فصل قادم، غير أن حرب البلقان الطارئة وأعمال جيوشها البربرية ضد البلاد العثمانية ساعد على مواصلة الآلام، وتصلب المبادىء في تلك النفوس التي حازت على شطر من الهدوء السياسي المؤقت.

***

الفصل الخامس

التطور الحربي في النجف وأحزابه

- التربية الحربية في النجف .

١ الثورة النجفية ضد الحكومة العثمانية .

٢ ـ عهد الفترة في النجف .

٣ ـ النجف والحرب العالمية .

٤ ـ عهد الاحتلال في النجف والحزبان السياسي والحربي .

٥ ـ ثورة النجف أو قبس الثورة العراقية .

عوامل الثورة النجفية ١٩١٨ ضد الاحتلال .

فصول المأساة .

٦ ـ الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ .

٧ ـ حوادث النجف أثناء الثورة العراقية .

التربية الحربية في النجف:

لقد عرضنا أمام القارىء في موضوع (تأريخ النجف السياسي في القرن الثالث عشر الهجري) صورة واضحة من تربية النجف الحربية، وأظهرنا أن النجف ابنة الجزيرة في حروبها وكفاحها، وانها تظاهر قبيلة شمر وحايل في نزعتها الحربية، كما أنّها حاربت الوهابية وجيوشها، وقاومت الحكومة العثمانية في عدة معارك.

وبعبارة أصح عرضنا طابع النجف العربي وأنه يشف عن طابع الجزيرة في بيئتها الحربية، بل في جميع خلالها وخصالها، وقد دللنا على ذلك بإسهاب، وعليه يمكن للقارىء أن يتبين من ذلك البحث الوافي، وفي إستطاعته أن يستنتج من الابحاث والصور الحربية التي سنعرضها أمامه في المواضيع الاتية.

إن العامل الأساسي في تكوين التربية الحربية في النجف هو طول المراس والمران، وكفى في المراس عاملاً على خلق النشأة الحربية والتدريب على أساليبها القومية، غير إنا نود أن نشير إلى عادة وأن تكون بسيطة في ظاهرها، فإني اعتقد أن لها أثرها وأنّها كبيرة في مغزاها.

هل رأيت أو سمعت أيها القارىء العادة المألوفة بين أولاد النجف عادة (الحرب) أو المحاربة؟

ينقسم الأولاد من عمرهم بين العاشرة إلى الثامنة عشر عاماً إلى فريقين بمقتضى أقسام المدينة، يتوافدون عصر كل يوم إلى خارج السور كل من ناحية، وعند الساعة العاشرة غروبية أو الخامسة بعد الظهر تقريباً تنشب بينهم الحرب في ميدان واسع يبلغ طوله ألف متر وعرضه أربعمائة متر تقريباً، وأداة الحرب المهمة (المعجال) المقلاع، وهي أداة يحيكها الأولاد بأنفسهم حياكة بديعة متينة، ويعملون لها سابقتين من السفائف القطنية أو الصوفية ويستخدمونها لرمي الحجارة بقوة فائقة إلى بعد يتناسب وحربهم، ويتخلل ميدان هذه الحرب متارب شاهقة، مرّ علينا ذكرها مع سهل ووادي ومغارات عميقة إضافة إلى خندق السور، والمحارب يجد الحجارة أو العتاد في جميع هذه موفورة، ويتنازل الفريقان في جبهة تساوي عرض الميدان تقريباً، يحتشدون فيها بعدد يناهز الألف غالباً، فتستعر نار الحرب بينهم، وتنتظم خطط الهجوم والدفاع،

حيث تدافع إليها الحاجة كما يتكون الجناحان والقلب بصورة طبيعية فترى وتسمع طلقات بالمقاليع تتناوب وتتزايد وتتناقص، وترى قذائفها تئن وتدوي مالئة الفضاء، وهي تنصب على المتحاربين كالمطر.

وفي وسط هذا المعترك اشباح الأولاد تدافع وتناضل وهم على أشد ما يكون من الحذر أن تصيبهم تلك القذائف من الصخور والحصى والحجر التي ربما قارب حجمها كرة الهوكي، فترى المحارب يتحرك يميناً ويساراً، ويتنقل وينحني أو يقفز ويلقي بنفسه على الأرض تخلصاً من تلك القذائف المصوبَة التي يغلب أن ترميه فيما إذا أصابت موضعاً من جسمه، وأن يكن جريح هذه الحرب لا يفزعه الدم، ولا يدركه الهلع، وسرعان ما تسعفه القوة الإضافية وتضمد جراحه.

وعلى هذه الصورة يستديم العراك حتى غروب الشمس التي تُردد في السقوط وراء هضيبة الجزيرة قليلاً ما برحت ناظرة إلى الاشبال المتطاحنة، ولم تشأ أن تغيب غالباً إلاّ بعد أن تشاهد غلبة أحد الفريقين، وانهزام الآخر، ولست ناسياً صلابتي بالدفاع في تلك الحرب الضروس، كم تبهجني الآن ذكريات صور الهجوم الغائر، وكم تطربني أصوات زملائي المهاجمين، ركضا غير مكترثين لما يعترضهم من العلالي الشاهقة والوديان السحيقة، طالما ألمتني ذكريات إنكساراتنا سيما عندما نتسلق المتارب ونحن مهزومون، وقذائف الأحجار في أقفيتنا.

ولا يذهب بنا الظن أن الأصابة والجروح في هذه الحرب كثيرة، وذلك لعظم مهارة المتحاربين في أساليب تجنب تلك الأحجار المتواردة رغم تمرنهم على التسديد وإصابة الهدف.

وأتذكر لحد الآن أنّي لم أجرح اكثر من أربع مرات طيلة السنين التي زاولت فيها هذه الحرب المرغوب اليها، في حين أن عدد جراحاتي كان اكثر في لعبة كرة القدم مع قلة مزاولتي لها، وهكذا شأن جميع من أعرف من زملائي الذين مارسوا اللعبتين، وأدركوا التربيتين.

كما لا يظن القارىء إنّا نقفل من هذه الحرب ونحن متخاصمون أو متعادون، بل نسارع إلى الصحن الشريف، أو إلى الجادات أو الأسواق إخواناً واصدقاءً حيث نقضي هزيعاً من الليل. فكأن تلك الحرب لم تكن إلاّ لعبة شريفة عامة لا غضاضة فيها يدل

على ذلك سرعة إتحاد الفريقين فيما إذا قصدتهم الشرطة وطاردتهم، وربما حاربوا الشرطة متفقين ايضاً، وتسهل علينا محاكمة هذه الحرب وما تبعثه في النفوس من الشجاعة والبأس، وما تبثه من الأصول الحربية الأساسية، والقواعد العسكرية الضرورية، وما تخلقه من القوى المعنوية، حيث يتدرب الولد على أساليب الهجوم، فالاستيلاء على المراكز المهمة والدفاع عنها، والتقهقر والانسحاب إلى الخطوط المستحكمة وانتهاز فرصة نقض الهجوم أو دعم المواقع الضعيفة وإنجادها، وسدّ الثغرة الشاغرة في الصفوف، والتصلب في المحافظة على القلب والحذر من حركة الالتفاف التي يعقبها الأسر، إلى ما هناك من أساليب الحرب.

ومن الغريب أنا وجدنا أثر هذه الحرب حرب الأولاد بارزاً فيهم بعد أن أصبحوا رجالاً، فقد رأينا شجعان أولئك الأولاد أنفسهم أبطال النجف وبواسلها في الحرب النارية، كما رأينا الضعفاء منهم محافظين على جبنهم في النهاية.

هذه هي العادة الجميلة التي وجدنا مفعولها في تربية النجف الحربية، وارى أن من واجب الحكومة عدم منعها، إذا لا لوم على الحكومتين العثمانية والإحتلالية فيما إذا حاربت أو حالت دون تربية أبناء الوطن على الحرب والمجازفة، ولكن ما هو عذر حكومتنا الوطنية؟

وإذا ما أردنا مقارنة هذه اللعبة مع بعض الألعاب كالمصارعة والملاكمة وكرة القدم والهوكي، لوجدنا هذه الألعاب أشد خطراً بجميع نواحيها وفي حين أن لعبة الحرب أطول فائدة، وأسهل لترويض الجسم، وإلى هذه النقطة ألفت نظر إخواني المعلمين النجفيين.

الآن وقد أنهينا الموضوع (التربية الحربية) فسنحدث القارىء عن الثورات والحروب والمعامع النجفية ضد الحكومات، وسيجد القارىء ضمن هذا الفصل بعض مواضيع إجتماعية وسياسية وتشكيلات حزبية اضطررنا إلى ذكرها في البحث وانتظام تسلسل الوقائع التاريخية بمقتضى تعاقب السنين.

١ـ الثورة النجفية ضد الحكومة العثمانية:

لقد تطرقنا في موضوع (تاريخ النجف السياسي للقرن الثالث عشر الهجري) إلى صورة من العراك بين النجف وبين الحكومة العثمانية، وانتهى هذا العراك عن أوائل سنة

١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م حيث التدابير التي قامت بها الحكومة في إنزال ضربتها على الطبقة المحاربة، وكانت هذه الضربة خير علاج خفف من غلوائها، فمال أفرادها إلى السكون، ورضخت للأقدار طيلة الخمسة سنين التالية، سيّما بعد أن سجن عطية أبو كلل بالتهمة المختلفة في استلابه خزانة الدولة عند تحميلها إلى كربلاء.

فإذا ما حلّت سنة ١٣٣٢هـ/ ١٩١٤م وكانت الحرب العالمية وسيق النجفيون إلى الجندية الالزامية زرافات ووحداناً، ونزلت كارثة إنكسار الجيوش وضياع البصرة، عاد معظم النجفيين إلى بلدهم ونفوسهم مضطربة بين الإنصياع إلى صوت الضمير وأوامر الدين بمكافحة جيش أجنبي زاحف.

وبين التمرد على أمراء وقواد رغب معظمهم عن الحرب، وفضّلوا الهزيمة وعجزوا عن تدوير شؤون الجيش، وتنظيم حركاته إضافة إلى عجز تلك الحكومة التي أضاعت ردشها.

ولكن ليس في الناس من لم يستمع إلى قوله تعالى: ﴿ولا تلقوا بأيديكم إلى التهلكة﴾ [البقرة: ١٩٥]، وهل أعظم تهلكة من تلك الحرب العظمى، تلك الحرب التي لم يألفها الناس ولم يدربوا على مكافتحها، وهل أكبر من هذه الطامة، وهل أنكى من هذه النار الأكلة بدون طائل، وبدون جدوى، فليتمرد الفارون من الجندية، وليختبئوا وليتزوا في بيوت البلد، وفي الضواحي والقرى، بادرت الحكومة المحلية وشرطتها تطاردهم والحّت في المطاردة، غير أن العلماء وكانوا قد أعلنوا وجوب الجهاد عالجوا الموضوع من طريق الجهاد نفسه، وأقنعوا ولاة الأمر أن يرفقوا معهم تلك العصبة الفارة ويلقون بها في ساحة القتال، وهكذا كان، غير إنّ الهزيمة التي أصابت جيش الشعيبة ومجاهديها في شهر جمادى الأولى سنة ١٣٣٣هـ/ رجب ١٩١٥م ثم أصابت جيش القرنة وجيش الحويزة ومجاهديها أعادت الفارين إلى أهلهم مرة أخرى، فأستأنفت الشرطة مطاردتهم وزادت فشددت الخناق على النجف بنوع خاص ذلك بتدبير ودهاء، والقائممقام بهيج بك الذي إستنجد الحكومة فنفذت إليه حملة تبلغ الألف من الجنود، وجهزته بمدفعين ومعدات، فكأن ساحة الحرب تحولت إلى النجف، وكأن موضوع الجهاد إنقلب إتجاهه، وإذا بالقائممقام يوال أوامره الصارمة إلى الشرطة والمختارين أن يسوقوا جميع من يجدون من الرجال في الأسواق

والبيوت إلى الثكنة العسكرية (مدرسة الغري الحالية) فأزدحمت هذه الثكنة الواسعة بعد ساعات، وغصت بالعناصر الأجنبية وبالعجزة وأبناء العشائر، ولم تكتف الشرطة فعمدت إلى تفتيش النساء المصونات في بيوتهن أملاً أن يجدوا بينهن أحد الجماعة الفارة فعظم الأمر في نظر عقلاء النجف الذين لا يزالون يحذرون سوء مغبة الفتنة على الحكومة والأهلين، وكانوا حاجزاً يحول دون نيران الشباب المتوقدة، وفاوضوا القائممقام ونصحوه أن يقلع عن خطته سيّما أحرار البلد ومصلحوها، فقد صارحوه في ضرورة سحب هذه الحملة ومغادرتها النجف، كي تطمئن الأفكار التي هاجت وسخطت بوجودها كما اقترحوا عليه أن تهمل الحكومة جندية هذه البقية الضئيلة في النجف حذراً من ثورة النجفيين التي لا بُدّ وأن تجر إلى ثورة الفرات كله، فما كان من القائممقام إلاّ أن يتظاهر بالنزول عند رأيهم والإنصياع إلى مشورتهم غير أن أعماله كانت بالضد من ذلك تماماً، ويقال إنّه كان يستمد آراءه من بعض النجفيين الذين كادوا له، وأن القائممقام اعترف بذلك أخيراً ولكن بعد خراب البصرة.

إذاً ماذا ينتظر من النجف المضطرمة ناراً؟ ماذا ينتظر من الأسد السجين المغاض؟ وهل تكفي المبادىء الدينية لردع النجف، وإن تكن متغلغلة في نفسية بعض أفراده على أنا لم نعهد في هذه المبادىء أن تمكنت من الحيلولة دون ما تطلبه حياة الجماعة وضروراتها، كما لم تستطع أن تقف حائلاً دون الغرائز الطبيعية الثائرة.

والتاريخ يحدثنا أن الدين يساير الإجتماع، ويخدم ضروراته، وإذا ما تعاكستا ادركته الخيبة. وإذا ما عمدت الحكومة أن تحرج موقف الأمة إلى أقصى حدّ فماذا ينتظر من هذه غير الخروج ألم تكن هذه الحكومة نفسها التي أراقات دماء الأبرياء في موكب العزاء وسط الصحن الشريف عند سنة ١٣٠٨ كما مر بيانه.

ولا أكتم القارىء أنّي كنت إتحادي النزعة إلى حد التطرف، ولكن أعمال الحكومة الجنونية، وتفاقم الحالة أرتني مشروعية خروج النجف، وهكذا كان:

في ليلة..... من شهر جمادى الاخرة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م ولج النجف ثُلّة مسلحة من عصابة الفارّين فاصطدموا مع عسس الشرطة، وما أن بزغت الغزالة إلا وإنضم إليها قسم أخر، ودوت طلقات بنادقهم نحو الثكنة، ولم ينتصف النهار إلاّ وقد توارد النجفيون المسلحون من كل حدب وصوب، واشتركت عموم المحلات في

الحرب، وحاصرت الجيش والشرطة والموظفين في ملاجىء الحكومة ضمن الميدان (تبتدىء من بناية مدرسة الغري الحالية، وتنتهي عند الدور المطلّة على الثانوية).

وفي اليوم الثاني تمكنوا من الاستيلاء على السراي (المستشفى الملكي الآن). وفي اليوم الثالث احرجوا موقف الثكنة، وخرقوا جدران المخبز (الأكمكخانة) المتصل بها شمالاً، فأطلقوا على الثكنة وأصلوا حاميتها ناراً حامية، فأعطت يد السلم عصراً، وأنتهب الثوار جميع ما فيها، وتوزع أفراد جيشها ضيوفاً لدى النجفيين، غير أن قائد الحملة القائممقام عزت بك مع ضابطه، خرجوا من باب صغير للسور داخل الثكنة ركبوا عربات التراموای إلى الكوفة، ومنها خفرهم الكوفيون إلى الحلة.

وفي حينه احرق الثوار الثكنة التي تطاير لهيبها وزحفوا على البلدية وعلى الخان الكبير القريب منها (خان الهنود الآن)، فوجدوا الجيش منسحباً إلى الشيلان كما انسحبت إلى الشيلان حامية الدور والخانات قبالة بيت القائممقام.

فيرى القارىء أن الحملة تمزقت ولم يبق غير الشيلان العاري عن الشرفات، فعند الساعة الحادية عشر ونصف غروبية اذعن القائممقام نفسه للأمر الواقع، وألقى السلاح فأحضر السيد محمد حسن سادن الحرم الشريف حينذاك، ودخل عليه ومعه جماعة من زعماء الثوار ثم نادوا يطلبون تفرّق الثوار حيث سلم المحاصرون.

ولكنهم قضوا تلك الليلة السوداء هناك وهم على أشد ما يكون من الخوف والذعر في صبيحة اليوم الرابع دفعت الشهامة النجفية واغرت أبطالها أن ينشلوا الموظفين رحمة بعائلاتهم من ذلك الحصر الرهيب في ذلك اليوم الرابع المفزع، ورجوا منهم الموافقة ففرح الموظفون بنبل أصدقائهم الذين أحاطوا كل عائلة بسياج من النار والحديد، وحملوا معهم جميع أثاث بيوتها فسري عن نفوس الموظفين وعن عائلاتهم وأطفالهم بعد أن أصبحوا ضيوفاً كراماً، وكان القائممقام نفسه ضيف السيد سادن الحرم، غير أن المشكلة في إخراج القائممقام من ملجأ الحصر إلى بيت السيد، وهنا يتمثل منظر مؤلم ومخز في وقت واحد، لسقوط كيان الدولة في شخص هذا القائممقام الأهوج، ومخز للسخرية والإهانة التي لاقاها من جمهور الأطفال الذين إلتفوا حوله يصفقون إلى أن أدخل بيت السيد، ولولا الحصن السيار الذي كونَه الزعماء وأولادهم لأصبح القائممقام في خبر كان. وقد دبّر الزعماء أمر تقسيم سلاح الجيش وذخيرته في

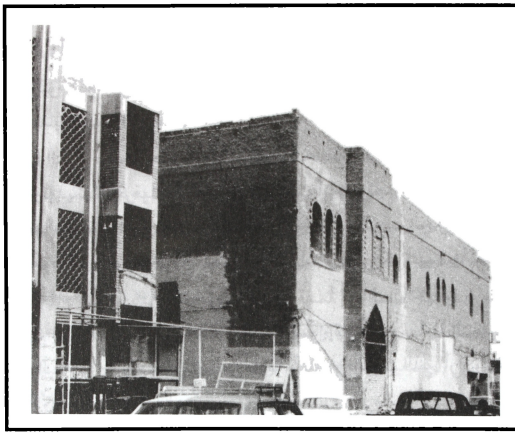

خان الشيلان

الأسرى الانكليز في خان الشيلان

تلك الليلة، وأخذ كل قبيل نصيب.

وفي اليوم الخامس اقترح السيد محمد حسن أن يجتمع الموظفون وعائلاتهم جميعاً مع بقايا الجند والشرطة في بيته. فنقلوا إليه معظمهم وأبى البعض.

وهكذا انتهت صفحة جبروت القائممقام والحماقة والرعونة بمأساة انتهاب مراكز الحكومة وتهديمها وحرقها بعد حرب دامت ثلاث أيام لم تجد معها تلك القوة القاهرة ولا مدافعها ومعداتها، بل محقت تلك الحملة محقاً، وطردت الحكومة العثمانية من هذا البلد طرداً أبديا، وزاد خروج جميع مدن الفرات وطرد حكومتهم تبعاً للنجف.

وبعد ختام الرواية بادر النجفيون فجمعوا قسماً من المال جهزوا به بقايا الجند ودفعوا بهم إلى مدنهم، أما الموظفون الذين أنسوا إلى حسن معاملة النجفيين فمنهم من اختار البقاء في النجف، ومنهم من سافر بأهله في الوقت الذي أراد، ومن بينهم القائممقام وعياله.

بقي علينا أن نبحث نظرية هذا القائممقام ورأيه الأداري إذا لم نستطع تحليل شخصيته الغريبة عن هذه البلاد، لم يجد جميع عقلاء النجف حلاً لأعمال هذا القائممقام غير الضعف في الإدارة، وعدم تقديره النتائج المتوقعة، وهو الداء الوحيد الذي يبتلى به الموظفون الإداريون غير أنا نرى أنه زاد ضعفه الإداري استهتاره في مبادئه الإنحادية وإطلاق تلك الحكومة الحمقاء يد أمثاله، إضاف إلى سخطه البالغ على أمة وبلاد لم تمت إليه بصلة قوية، وهكذا شأن الموظفين الذين يختلفون والشعب في قوميتهم أو في مقدساتهم.

ومن هنا لم نجد أي أثر للإرشادات القيمة التي عرضها عليه أكابر النجف وأحرارها المخلصون، وبعد الحادث بأيام وصل النجف وفد الحكومة، ومن جملة أعضائه عباس علي آل سبع أحد أكابر الكوت، ونوري بك مبعوث لواء كربلاء في المجلس النيابي، فبسط النجفيون امامه أعمال ذلك القائممقام، وأظهروا الطاعة للحكومة، وجمعوا قليلاً من السلاح والذخيرة مع المدفعين وسلموهما، وأبقى الوفد ضابط الشرطة الحاج رمضان افندي ليقوم بوكالة القائممقام بموجب طلب من النجفيين، ثم تعين أمين بك الطرابلسي قائممقاماً، وشكلت شرطة أهلية تحت رئاستهم، وبعد اشهر ابدل الحاج رمضان في أمين زكي بك مفتش المعارف الآن، وقد تمكنوا أن يعيشوا في

النجف، ولكن في بيت رئيس البلدية الحاج عبد الرزاق آل شمسة وهم عاطلون من القوة والسلاح والحكم، وأظن أنهم مكثوا في النجف طيلة مدة الفترة ولم يبارحوها إلاّ عند سقوط بغداد.

٢ـ عهد الفترة في النجف:

إن حديث عهد الفترة في النجف بين الحكمين العثماني والإحتلالي لذيذ، يتذوقه الباحث الإجتماعي، يتعرف فيه على اخلاق النجف ومبلغ توغلها في المدينة والإجتماع والتحضر، فإن عهد السنين بين النصف الأول من سنة ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م وبين أوائل سنة ١٣٣٥هـ/ ١٩١٨م كاف أن يكون مثالاً ومقياساً للحكم على أخلاق النجف ونفسيات أبنائه، سيّما وقد أطلقت الأخلاق والنفسيات من عقال وكسرت أغلال القوانين الوضعية والأوامر العسكرية الصارمة، فلم تبق لها سلطة تستطيع معها أن توقف التزاحم والتنافس، أو أن تحجز رؤوس الأموال، وتحبس الأملاك والعقار، وأصبح الميدان واسعاً لأبناء الطبيعة الأقوياء، الذين لامسوا حرارتها، وتزودوا من نسيمها.

لم يحل عهد الفترة إلاّ واستلم النجفيون زمام الحكم كاملاً، بجميع مظاهره ووسائله، وأصبح زعماؤهم القضاة والحكام الإداريون، وتحت سيطرتهم جباية الأموال، وعلى عواتقهم حفظ الأمن الداخلي والخارجي إلى غير ذلك من المسؤوليات العظيمة التي لا بُدّ وأن ينوء بأزاءها كاهل النجف، لولا أن النجف لم تفاجأ بهذا الانقلاب.

فقد مرَّ على القارىء ضعف الحكم العثماني في النجف ومبلغ تمرد النجفيين بحيث لم يكن لدى حكومتهم غير المظاهر الكاذبة، وكان لدى النجفيين نصيب من الحكم مارسوا فيه بعض أنواع السلطة، عمل النجفيون على محافظة الأمن الداخلي، فعقدوا المعاهدات بين قبيليهم وأسرهم ونظموا شرطة الأمن تحت إدارة ضباط الشرطة العثمانيين ـ المار ذكرهم ـ وكافحوا الفتن الداخلية، فنجحوا بعض النجاح رغم أن العالم كله في بحران الفتن والثورات والحروب من أقصاه إلى أدناه، حالفوا بعض العشائر ووادعوا البعض الآخر لغاية المحافظة على أمن النجف الخارجي، غير أنهم أخطأوا في محاولتهم ضم إدارة الكوفة إلى النجف الأمر الذي أغاض قبيلة بني حسن

الضخمة، فجرَّ ذلك إلى وقوع معركتين هائلتين حوالي الكوفة، انتصر النجفيون في الأولى، وغشي المتحاربين الليل في الثانية، وبلغ عدد المتحاربين في الأخيرة ثمانية الآف محارب تقريباً، ولم تكن هذه المعارك فاصلة، فتدارك عقلاء النجف خطأهم وأعرضوا عن إدارة الكوفة، وكان من بين وسطاء الصلح حضرة القائممقام مع أمين زكي بك المار ذكرهم.

والذي ساق النجفيون إلى إهمال الكوفة هو خوفهم من الجيوش العثمانية؛ لذلك نجدهم ينفذون نجدة إلى كربلاء عند ورود الحملة التأديبية إليها في شهر مايس ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م، واشتركت هذه النجدة بالدفاع فعلاً، ولم تعد إلى النجف إلا بعد أن أحاطت بالحملة جموع العشائر وظهرت أمارات الخيبة في حركاتها، كما سيروا نجدة أخرى إلى الحلة عندما اكتسحها عاكف الالباني في شهر اغسطس سنة ١٣٣٤هـ/ ١٩١٦م وكانت نجدة النجف سبباً لنفور العشائر المحيطة بالحلة واشتراكها في حصر جيوش عاكف ومقاتلتها، وبعد أن حارب النجدة ثلاثة أيام وأيقنت خيبة الحملة عادت إلى النجف.

مالت النجف إلى الطمأنينة نوعاً ما، وكادت تستقر إلى وضع الإدارة الذي اختطته (فأنَ الموظف التركي ليس له من الحكم شيء كما أسلفنا) واضطر العثمانيون أن يغضوا الطرف عن أعمال النجفيين، وتظاهر هؤلاء أنهم لا يزالون على اتصال تام مع حكومتهم، وساعد على ذلك العلماء المجتهدون وبطانتهم وألوف العشائر والأحرار النجفيون الذين لا يزالون مجاهدين في خطوط الحرب ضد الإنكليز إضافة إلى وسطاء الحكومة الموفودين للنجف بين أونة وأخرى، ولم يمنع ذلك ارتباط البعض الآخر من النجفيين مع الإنكليز بواسطة بعض الجواسيس والجيشان المتطاحنان لا يزالان مترابطين، فجيش الاتراك في ناصرية المنتفك، وجيش الإنكليز في القرنة، وبعد بضعة اشهر احتل الإنكليز ناصرية المنتفك في ٢٤ تموز ١٣٣٣هـ/ ١٩١٥م، وتمركز الجيش العثماني في قضاء السماوة، والنجفيون في نجوة عن ميدان القتال، والحكومتان مضطرتان إلى المسابقة في إستمالة النجفيين أملاً في نفعهم، وتخلصاً من شرهم، ونتج عن هذا الوضع إنتظام دولاب التجارة، وتمركزها في النجف من بين مدن العراق بدلاً من بغداد التي اضطرت إلى التعامل مع النجف.

يتاجر إلى النجف أبناء الجزيرة وسورية ومدن الخليج، أما تجارة البصرة العظمى فلا يستطيع جلبها بين الحديد والنار غالباً، إلا النجفيون المسلحون، وكانت تفد إلى النجف قوافل التجارة بأنواعها، وتصدر عنها يومياً بكميات هائلة جداً، والتجار يفدون ويبارحونها جماعات، جماعات حتى غصّت الخانات والحوانيت وكثير من البيوت بالبضائع التجارية، وصارت رؤوس الأموال لا تسعها إلا الأكياس، ولا تطيق حملها إلاّ الحيوانات. ولم يحل سقوط بغداد في ١١ آذار سنة ١٩١٧م/ ١٣٣٥هـ دون مواصلة وسير التجارة، فقد رغب الإنكليز عن إشغال الفرات الأوسط قبل تحصين بغداد، وإبتعاد الأتراك عنها، فبقيت النجف مستمرة على وضعها التجاري والإداري، غير أن الموظف التركي..... ملتحقاً بالمنسحبين، ولم يبسط الإنكليز سلطانهم وقوتهم عليها إلاّ في أوائل سنة ١٣٣٦هـ/ ١٩١٨م.

ومن هنا نجد النجف وقد أمتلأت ثروة، وأصبح فقيرهم غنياً، وضعيفهم قوياً، وصعلوكهم سيداً، ومن الأنواع التجارية التي تعاطاها النجفيون بكثرة عظيمة تجارة السلاح بأنواعه وذخيرته.

إذاً ماذا يستنتج القارىء من الحال التي صارت إليها النجف من القوة والعزة والحكم والثروة، إضافة إلى فوزها في جميع حروبها، وهل ينتج هذا الوضع غير الإعتداء بالنفس والسلاح والعشير، وهل ينتج غير غطرسة الشاب بسلاحه وشجاعته.

هكذا عاشت النجف في عهد الفترة، حتى طفح كيل غرورها وعجبها وبينا هي على هذا الحال الذي وصفنا من سعة في العيش، والحرية المطلقة، ومن كمال الاستعداد للحوادث الطارئة، إذ فاجأها عهد الإحتلال، إحتلال الجيوش الزاحفة بعد استقرار الأمر ببغداد، وكان النجفيون متشائمين من سوء المعاملة التي سار عليها الجيش الإحتلالي في البصرة والقرنة والمنتفك وبغداد، والتي شاهدها بعضهم، ولكنهم مع ذلك رضخوا للقوة والقدر.

٣ـ النجف والحرب العالمية[1]؟

ماذا أحدثك أيها القارىء، والحديث ذو شجون وبلية، هذه البلدة عظيمة،

---

(١) للبحث عن التفاصيل، انظر: كتاب «النجف الأشرف وحركة الجهاد ١٩١٤» للمحقق.

ومصابها أعظم، فبينا هي في دور اليقظة والانتباه فيما يخبئه القدر لهذه الأمة، بينا هي جادة في أفهام الراي العام ما يريده الأوربي للبلاد من الاستعمار والاستعباد.

وإذا بكارثة الحرب العالمية تفاجئها بهولها فتهتز الأرض هزاً، وتدك الرواسي دكاً، تلك الحرب العظمى أو حرب سنة ١٩١٤م.

وهنا يقف النجف موقفه المشرف، وتتجلى نتائج تلك المعارك السياسية الدينية الهائلة التي استدامت ست سنوات تقريباً.

وهنا تتجلى أثار التطور النجفي السياسي التي تمخضت عن تلك التظاهرات والمؤامرات والصراع والجدال السياسي الذي بسطنا حوادثه.

هنا نتوفر أدلة ضرورة الدفاع عن البلاد وتزيد وتغرق في الزيادة. دخل النجفي دور العمل الجدي والتضحية الفائقة بالنفس والنفيس، وأسقط في يد ذلك الحزب الذي كان متمسكاً باهداب الحيدة عن التداخل في قضية البلاد والاستعمار الأجنبي، وتحطمت جميع الأدلة والبراهين التي لاذوا وراءها طيلة عهد تلك الحركات العنيفة، فأتفقت كلمة عموم العلماء في وجوب الدفاع المقدس، واحتشد علماء البصرة ونواحيها ومجاهدوها في الدفاع عن البصرة تحت رئاسة المرحوم الشيخ إبراهيم المظفر، وجالدوا الجيوش البريطانية في وقع (سيحان) شرقي البصرة، وكان عدد المجاهدين ألفين تقريباً، وهي أول معركة برز فيها العلماء في ميادين القتال، فتمكن الجيش العثماني أن يقف في وجه الإنجليز قليلاً، وذلك في ١٥ تشرين الثاني سنة ١٩١٤م، ولكن ضعف الجيش العثماني مادة ومعنى أطمع الإنكليز وجرأهم على مواصلة الزحف، قلنا ضعف الجيش العثماني، والأصح أن نقول بعدم وجود جيش عثماني مدافع.

نعم، توجد جموع كثيرة تدعى بهذا الإسم، ولكن لا أظن أنها حازت ولا على صفة واحدة من صفات الجيوش الدولية، أو على عدة بسيطة من عددها، كيف يمكن تسميته جيشاً محارباً، وضباطه وأمراؤه غير مدربين على وضع خطط الحرب كما يجب؟ إضافة إلى رغبتهم عنها.

وزاد في الطين بلة امارات الخليج وامراؤها الكرام الذين رافقت رجالهم الجيوش الزاحفة كأدلاء ومرشدين ووسطاء وساعدوا في نقل الذخيرة، بان قدموا أهم

الصورة الأولى لخروج المجاهدين من النجف

ويظهر السور الخارجي للمدينة

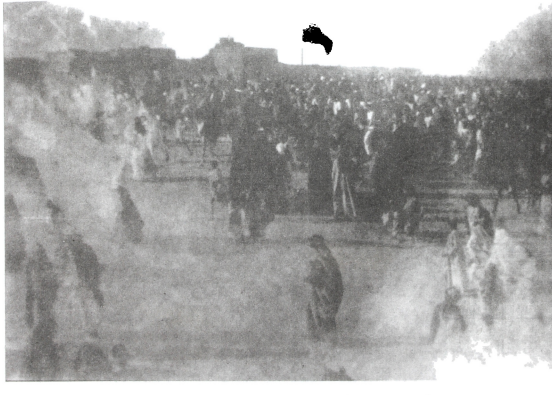

الصورة الثانية لخروج المجاهدين من النجف

ويظهر السور الخارجي للمدينة والعلم الحيدري الشريف

وسائطها، وعلموا الأجنبي طرق البحر الوعرة في وسط لجج الخليج، وباعوه الأطعمة والحبوب الضرورية للحياة. هنا يسأل القارىء ألم يكن لدى هؤلاء علماء يحرمون هذه المساعدة؟..

نعم، ولكن معظمهم لا يستطيع أن يختلف مع الأمير، فهم أشبه بمعظم قضاة الدولة العثمانية آنذاك.

فلنعد إلى النجف وأعماله، وها هي البصرة قد سقطت في ٢٣ تشرين الثاني سنة ١٩١٤م، وهل رسل البصريين تترى إلى العلماء مستنجدة مستعطفة، فهل يكفي طلب العلماء أن يمد الله البصريين بملائكته؟ وهل يئس البصريون من حكومتهم؟

عقدت إجتماعات العلماء وقرروا الذهاب إلى ساحات الحرب، وانغمر كثير من النجفيين في بحران تلك المعارك المهلكة رغبة واختياراً، لا عن طريق الجندية الإجبارية، واندفع العلماء إلى ساحات القتال، وصافحوا قواد العثمانية وسندوهم في سياستهم وخططهم، إقتفى أثرهم زعماء القبائل وجيوشها الجرارة، وأختلط العلماء وبعض منوري النجف مع الجيوش المحاربة، وقاموا بدعاية صاخبة تحريضاً على القتال.

هنا نقطة نستلفت نظر القارىء إليها، هي حرمان النجف حينذاك من معظم أقطابها، أقطاب تلك المعارك السياسية أيام الدستور التي أوضحنا أعمالها، فقد سافر هؤلاء قبل الحرب العامة إلى مختلف الأقطار الإسلامية، وهلك بعضهم، الأمر الذي لم يضمن خسارة البلاد وإحتياجها إلى دهائهم وإخلاصهم غير الإيمان الديني والقومي الحار الذي لم يحمله علماء العرب وروحيوها، أولئك العلماء الذين انبثوا بعدد لا يقل عن الف روحي لكل واحد منهم نفوذه المتغلغل في نفوس القبائل التي نهض بها، والكثير منهم أبناء تلك القبائل، فكان لهم الأثر البالغ في الدعاية إلى الزحف والنفير، سيّما وقد كان بعضهم يشترك في المعامع الحربية بنفسه، ومن هذا القبيل المرحوم الشيخ عيسى مال الله، فقد تقدم المهاجمين على مقاطعة (مزيرعة) غربي القرنة يوم ٦ كانون الأول سنة ١٩١٤م، وتمكنوا على استرجاعها من الإنكليز عنوة، وفي هذه المعركة فاضت روح الشيخ المذكور، غير أن الأتراك أضاعوا هذا الإنتصار ولم يستطيعوا الثبات في (مزيرعة) وزادوا أن سلموا مدينة القرنة، وقدموا أنفسهم، أسارى

علماء النجف الذين حضروا إلى الكاظمية للتوجه إلى ساحة الجهاد بجبهة كوت العمارة وهم من اليسار إلى اليمين: الشيخ عبد الرسول الناصري وقبل الشيخ اسحاق الكيلاني الرشتي، السيد هبة الدين الشهرستاني، وخلفه السيد ...؟ الشيخ جواد الشبيبي، الشيخ محمد جواد صاحب الجواهر، وخلفه الشيخ محمد جواد الجزائري، السيد محمد بن السيد كاظم اليزدي وخلفه السيد جعفر بحر العلوم، الشيخ ...؟ وخلفه الشيخ...؟ السيد مصطفى الكاشلني، وخلفه ولده السيد أبو القاسم الكاشاني، السيد محمد علي بحر العلوم، وخلفه السيد...؟، شيخ الشريعة الأصفهاني، وخلفه السيد ...؟ السيد علي الداماد، الشيخ...؟ الشيخ..؟ السيد عبد الرزاق الحلو، وقبل السيد محمد سعيد الحبوبي، وقبل السيد محمد شبر والد السيد علي شبر، الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ عبد اللطيف الجزائري.

(التقطت هذه الصورة في دار السيد جعفر عطيفة فيما بعد في شهر محرم ١٣٣٣ هـ/ تشرين الثاني ١٩١٤م)

دون حرب في ليلة ٨ كانون الأول سنة ١٩١٤م.

انشطر العلماء إلى شطرين، ترأس الأول المغفور له السيد محمد سعيد حبوبي، رافقه كثير من مجاهدي النجف، وأفراد من الفارين من الجندية، فعسكر بجماعته وبث رعاية عظمى للجهاد، وأبرق إلى معظم نواحي العراق البيتين الآتيين:

لسيفُ والخنجر ريحاننا ... أُفٍ على النرجس والآسِ
ترابنا من دم أعدائنا ... وكأسنا جمجمة الراسِ

لم يزمع السيد على السفر في طريق الفرات الغربي إلاَّ وقد إزدحمت حوله جموع لقبائل المسلحة، ولم يبلغ ناصرية المنتفك إلاَّ وقد ضخم جيشه، وعندها إنضم إليه لمغفور له الشيخ باقر حيدر وهو الرئيس الروحي المطاع في سوق الشيوخ ونواحيها، وبواسطة الأخير تضاعف عدد الجيش بمجاهدي المنتفك، وإذا ما أزمعوا السفر إلى لشعيبة، ـ قرب البصرة ـ بلغ عدد الجيش الثلاثين ألفاً من بينها الفان من أكراد لشمال، فأجبروا الإنكليز على إيقاف الزحف، وعلى تقسيم حملتهم إلى جبهتين: لفرات ودجلة، فكانت هي الخطة التي إتبعها القائد الجديد سليمان عسكري بك، ولكنه أخطأ فأطال على هذا الجيش الجرار الإنتظار في الصحراء حتى تواردت نجدات لإنكليز وحصنوا مواقعهم اشد تحصين، ولم تجد معه نصائح العلماء والرؤساء، وكأنه يحاول مضيعة الوقت ولا يهمه أمر الإنتصار، وبعد مرور ستة أشهر بردت معها لعزائم، وذاق الجيش الأمرين، وحف مع قوة الجيش التركي يوم ٤ نيسان سنة ١٩١٥م وهجموا على خنادق الإنكليز وهم في العراء لا يعرفون عن أساليب هذه الحرب الدولية شيئاً، فكان نصيب هجومهم الفشل والخيبة أمام نيران الرشاشات والمدافع الضخمة، فانهزموا شرَ هزيمة أمام خنادق الشعيبة والبرجسية، ومن هول ما لاقوه لم يقفوا عند مقر جيوشهم، بل قوضوا خيامهم ملتحقين بأهلهم لا يلوون على شيء، وكان عدد المشتركين بالحرب عشرين ألفاً، ثلاثة أرباعهم من العشائر، وقيل أن الجيش النظامي وقف وقفة مشرفة.

وكانت نتيجة هذا الإنكسار وانتحار القائد سليمان عسكري بك، ورجوع السيد الحبوبي، والشيخ باقر حيدر، ومن معهم إلى ناصرية المنتفك، ولكن الهزيمة لم تثن عزم هذين الزعيمين الدينيين، فقد وقفا سدّاً منيعاً دون تقدم الإنكليز، إلى أن عاجلتها

المنية هناك تألما وتأثرا على ما أصاب المسلمين من الإنكسار.

وكانت وفاة الحبوبي في شهر شعبان سنة ١٩١٥ ونقل جثمانه إلى النجف، كما تعقبه المرحوم الشيخ باقر، ودفن في النجف أيضاً.

ويعرف المطلعون على وفاة هذين العالمين أن لآلام الحرب أعظم أثر على وفاتهم.

فكان للإنكليز أن يعملوا على إحتلال الناصرية فسوقوا حملة كبيرة تالب عليها قبائل سوق الشيوخ وهم حجام وآل حسن وآل شدود والجوابر، تلافياً لما نالهم من الخيبة في الشعيبة، وكان أبرز علمائهم أولاد المرحوم الشيخ باقر حيدر وفي مقدمتهم الشيخ محمد حسن وأيضاً السيد عناية، فكانت حروب هائلة حول عكيكة، وحول السوق نفسه، وذلك في ٦ تموز سنة ١٩١٥م، وبعد الخيبة في هذه المعارك خمدت جذوة العشائر حتى أنهم لم يشتركوا في الدفاع عن الناصرية، بل تركوا المفرزة العثمانية تجالد وحدها حتى فنيت تقريباً وتم إحتلال الناصرية في ٢٤ تموز سنة ١٩١٥م.

أما الشطر الثاني من العلماء فقد تعدد فيه الإعلام منهم: شيخ الشريعة، والسيد مهدي السيد حيدر، والسيد عبد الرزاق الحلو، والسيد مصطفى الكاشي، والشيخ موسى الشيخ تقي آل زاير دهّام، والسيد علي الداماد، والسيد حيدر السيد نور، وكان هدف هؤلاء العلماء دجلة، فاستنهضوا قبائل شرقي العمارة، وألفّوا جيشاً عظيماً، وتمركزوا قرب القرنة، وانضمت إليهم عشائر الإمارة، وعشائر هور الحمار، فبلغ عدد جيشهم العشرة آلاف تقريباً، وانضموا إلى الجيوش العثمانية التي اتخذت مقاطعة (أبو عران) مركزاً لخنادقها، وساعدوا الجيش على تحصين هذا الموقع بالتعرضات والمناوشات التي يقومون بها يومياً، حتى صار (أبو عران) حصناً قوياً يخشاه الإنكليز، ولا ننسى المغامرات التي قام بها المجاهدون النجفيون المرافقون للعلماء، فطالما انتدبوا للمواقف الصعبة، كاستطلاع مواقع العدو، ووضع الالغامات في النهر، ومن هؤلاء السيد إبراهيم السيد محمد باقر.

أما الإنكليز فقد أرتأى قوادَهم أن من الحكمة اتخاذ خطة الدفاع في هذه الجبهة، حتى إذا هجم جيش الشعيبة بدأواهم بالتعرض على (أبي عران) وهم على وجل منه، ولم يكن في إستطاعتهم اختراق خطوطه بسهولة، ولكن جبن القائد حليم بك كما يقول

القائد طاونزند البريطاني، هو الذي حمله على الانسحاب غير المنتظر، وذلك يوم ١ حزيران سنة ١٩١٥م.

وهذا الانسحاب الفجائي هو الذي خلق الجرأة والمغامرة في الزوارق الحربية، وساقها على تعقيب الجيش المنهزم حتى العمارة، فأخذ منها ذلك القائد حليم بك أسيراً.

ولا تسل عما أصاب العلماء من المصاعب في تلك الهزيمة المفاجئة، فقد تركوا جميع أثقالهم حتى أن الشريعة أضاع كتاباً الفه في تاريخ تلك الوقائع، فلا غرو لو سقطت العمارة بعد ثلاثة أيام، أي يوم ٤ حزيران سنة ١٩١٥م.

وهناك جمع آخر من العلماء مكثوا في العمارة طويلاً، غير مزمعين الإلتحاق في جبهة القرنة، وهم: السيد محمد السيد كاظم اليزدي، والمرحوم الشيخ مهدي الخالصي، والمرحوم الشيخ جعفر الشيخ راضي، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ حسن علي القطيفي، غير أن الحوادث الطارئة، والظروف التي اكتنفتهم كوّنت منهم جبهة ثالثة، هي جبهة الحويزة والأهواز.

وإلى القارىء مختصر ما حدثنا به سيدنا الوالد وغيره من الثقات الذين اشتركوا في معامع هذه الجبهة:

عند ثوران الحرب العالمية كان والدنا السيد عيسى في ناصرية الأهواز من بلاد إيران، وهو أحد العلماء الذين يفدون إليها بين آونة واخرى، ومعه أخي السيد حسين أفندي قاضي كربلاء الآن، فاطلعوا على خطة جديدة للإنكليز، بأن أرسلوا من طريق الأهواز أحد ضباط الإستخبارات مزوداً بالمال يعضده الشيخ خزعل برجاله وكتبه إلى عماله لغرض إثارة بعض قبائل العمارة المرتبطة بالشيخ خزعل إرتباطاً قديماً مبنياً على أساس الطمع المالي، وغايتهم قطع خط الرجعة على جيش العثمانية بالقرنة كي ينهوا الحرب بايسر طريق فاتفق والدنا سراً مع الشيخ عاصي ـ أحد زعماء قبيلة بني طرف بالاهواز ـ وخرجوا من الناصرية في أواخر كانون الثاني سنة ١٩١٥م، وأثاروا قبيلة بني طرف الضخمة، وحاولوا أن يقبضوا على الإنكليزي الذي اضطر أن يرجع خائباً.

ولم يكتف والدنا، بل وضع خطة محكمة ليحمل معها العثمانيين على الزحف من طريق الاهواز إلى البصرة، وذلك بان ترك ابنه السيد حيدر بين العشائر ليقوم بعمليتين

مهمتين هما :

أولاً: تنظيم عرايض من العشائر إلى الحكومة لعثمانية وإلى العلماء يطلبون فيها إرسال قسم من الجيش كي يقوموا بواجب الجهاد .

ثانياً: أن يؤلف عصبة مجاهدة من إناس اشتهروا بالصلاح في بلادهم، ويرسلهم إلى العلماء أن يتوسطوا في تكوين الجبهة الحربية الجديدة .

أما الوالد نفسه فقد إجتاز الحدود إلى العمارة، وحلَّ بين ظهراني العلماء يحبذ لهم هذا الطريق، وكانت حجته القاطعة العمليتان التي وضع أساها ونفذوا حرفياً .

وبهذه الطريقة تمكن من حمل الأمراء العثمانيين وأولئك العلماء المترددين على خلق هذه الجبهة .

فزحف العلماء ومعهم ثلة من الجيش العثماني تحت قيادة المقدم توفيق بك الذي لقب أخيراً (الخالدي) يرافقهم جمع عظيم من قبيلة بني لام الضخمة، كما التحقت بهم أخيراً قبائل الفرات الشرقي، وهم بعض قبائل عفك والدغارة، فاضطرب الإنكليز من هذه المحاولة التي هددت آبار النفط في الاهواز وسوقوا مفرزة استحكمت قرية (الأمنية) قبالة مدينة الناصرية، ثم زحفت من طريق الحويزة، فاصطدمت الحملة العثمانية والمجاهدون عند مقاطعة (غيد الدعي) في أوائل شباط سنة ١٩١٥م، فمنيت المفرزة بهزيمة شنعاء، تركت وراءها مدفع صحراء، غير أن تعب القبائل وهول ما رأوا مع جهلهم بما سيلاقون أمامهم حال دون استثمار هذا الإنتصار، فلم يطاردوا تلك المفرزة لتنفيذ خطة زحفهم على الناصرية فالمحمرة .

وقد حاول سيدي الوالد توسيع هذه الجبهة، فبعد أن زوَّد توفيق بك في أحوال تلك العشائر وعقليتها السياسية اتفق هو والسيد محمد رضا السيد صافي أحد أفاضل النجف وله بنو عم متنفذون في تلك الاقطار، وتوغلوا في الاهواز، وعبروا نهر قارون إلى الضفة الشرقية، وأثاروا القبائل هناك، غير أن الشيخ خزعل نازلهم بجيشه فانتصر على الثائرين .

أما الحملة العثمانية فقد رابطت في مقاطعة (أم الحليب) عدة أشهر ولم ينسحب إلا بعد انكسار جيش القرنة وإستيلاء الإنكليز على العمارة، الأمر الذي اضطر هذه الحملة أن تقاسي المصاعب في انسحابها إلى الكوت براً، وقد عاد علماء هذه الحملة إلى

بلادهم أيضاً بعد جهاد دام عدة أشهر.

وحري بنا أن نطري الأعمال التي قام بها البطل الشيخ عبد الكريم الجزائري، فقد كان محور هذه الحملة وقائد سياستها.

لقد اضطرنا سير الموضوع إلى عرض هذه الحوادث التي مررنا عليها مراً وخطفناها خطفاً، وهدفنا الوحيد أن يعرف القارىء نتفاً من أعمال أولئك العلماء الجبارة طيلة المدة بين منتصف تشرين الثاني سنة ١٩١٤م إلى نهاية مايس سنة ١٩١٥.

ويرى القارىء أن العلماء جالدوا الإنكليز أكثر من سنة، وأوقفوا زحفهم بقوّة الإيمان والدين والقومية، فقد كان عزم الإنكليز أن يحتلوا بغداد في كانون الثاني سنة ١٩١٥ وقد اعلنوا بذلك نظراً إلى ضعف الجيش العثماني المتناهي.

ولا يظنن القارىء أن مدة السنة التي تعطلت خلالها الجيوش الإنكليزية قليلة، بل هي فوق المستطاع نظراً إلى استعداد الإنكليز وكثرة نارهم ومالهم ووسائطهم وانتظام جيوشهم، والحالة في جيش العلماء بالضد من ذلك تماماً.

نرجو أن يسامحنا القارىء لو دعونا الجيش (جيش العلماء) إذ لا يصح لنا، بل لا تجيز لنا شريعة التاريخ أن ندعوه (جيش الحكومة العثمانية).

نعم، يبدأ تاريخ نضال الجيش العثماني من بعد إنكسار جيوش العلماء، أي بعد شهر مايس سنة ١٩١٥م إلى نهاية الحرب.

والقارىء يجد النجفيين في هذه المعارك منغمسين في الثأر والدم إختياراً منهم وعداء للأجانب، رغم جهل الحكومة العثمانية وأعمالها المنكرة التي لا تتفق مع جميع المقدسات الدينية والإجتماعية والوطنية كما يجد النجفيين وقد أحسنوا القيام بالدعايات الدينية والوطنية فخلقوا بها معنوية للجيش، كما يظهر ذلك خلال سطور كتاب طاونزند، وأيضاً خلال كتاب السر ولسن الحاكم السياسي العام، ولا نغالي لو قلنا أن النجفيين قاموا بوظيفة الحكّام السياسيين خير قيام، وكان لهم شأن عظيم يسجله لهم التاريخ بمداد الفخر.

نعود بالقارىء إلى حديث والدنا السيد عيسى، الذي تركنا في وسط الأهواز، ولولا أنه قام بأعمال جبارة يفتخر بها كل عراقي، فضلاً عن النجفي لتحرجنا من عرضها للقارىء:

السيد محمد سعيد الحبوبي في مسجد السهلة بالكوفة قبيل مغادرته إلى الجهاد، مع مجموعة من أبناء أسرته وتلامذته.

الجالسون من اليمين إلى اليسار: الشيخ باقر القاموسي، الشيخ...؟، الشيخ محمد علي السخيلي، السيد محمود الحبوبي الشاعر، السيد حسين شقيق السيد محمد سعيد الأوسط والد السيد عبد الغفار، وبحجره ولده عبدالله المتوفى ١٩٨١، السيد محمد سعيد الحبوبي، الشيخ حسن الحلي والد الشيخ أحمد، السيد عبد الهادي شقيق السيد محمد سعيد الأصغر، السيد...؟ الحكيم، السيد محسن الطباطبائي الحكيم، وبحجره ولده السيد يوسف.

الواقفون من اليمين إلى اليسار: السيد رؤوف بن السيد عبد الهادي الحبوبي، السيد فضل بن السيد حسين الحبوبي، السيد رشيد بن السيد جاسم الحبوبي، السيد عبد الحميد بن السيد عبد الهادي الحبوبي، الشيخ ...؟ ،الشيخ...؟، الحاج خضر معله، السيد هاشم بن عبد الهادي الحبوبي، السيد سلمان بن عبد الهادي الحبوبي.

لقد أرتأى أن يقترب من آبار النفط مجرى الدم الإنكليزي وشركة (دارسي)، فأثار قبائل مدينة (رامز) للزحف على عبادان وآبارها ونفطها، فأضطر الإنكليز والشيخ خزعل أن يبذلوا ما إستطاعوا من حول وقوة ومال، فتمكنوا أخيراً من إيقاف زحف الثوار مدة طويلة إلى حين إنكسار جيش القرنة، فتفرق الثوار وسافر الوالد إلى أصفهان عامداً على هدم السياسية البريطانية فيها، ومحاولاً إثارة القبائل الإيرانية سيما قبائل البختيارية وقبائل القشقائية العظمى، وساعدته بطانة كانت لسان الترجمة بينه وبين الإيرانيين، فنشطت أعماله قسماً من الأحرار الدموقراطيين، وحاولوا اغتيال القنصل البريطاني في أصفهان، فاضطر إلى مبارحتها للبصرة، وصادف اجتياح الجيوش الروسية شمال إيران، فعمل على إهاجة العلماء والأشراف للقيام في وجه الروس والإنكليز، واستولى على إدارة البرق والبريد وخابر حكومة طهران والقنصل العثماني فيها، وجهز جيشاً يبلغ الأربعمائة مقاتلاً بعث به إلى طهران يدفع عنها عادية الجيش الروسي الزاحف، وكان على اتصال مع القنصل الألماني بأصفهان، ولكن من طريق المراسلة، وراسله الضابط الألماني (وسموس) ذلك الداهية الذي أثار جنوب إيران.

وبعث الوالد إليه مناشير طلب إليه نشرها في صفوف الجنود الهندية المرابطة هناك حينذاك، وبتأثير هذه المناشير اختل الجيش البريطاني نوعاً ما.

ولكن فراغ كيسه من المال في مدينة اصفهان مع كثرة عدد بطانته وعدم تنازله لاستلام الذهب الألماني الذي تكرر عرضه عليه بدون حساب، اضطره إلى مبارحة اصفهان إلى بهبهان ـ من أعمال ششتر ـ فأثارها، ولكن ذلك لم يرق في اعين البختيارية الذين لا يزالون على إتفاق مع الإنكليز، فحاربوا جيشه الذي سلَحه ونظمه بنفسه في ثلاثة معارك انتصر فيها، غير أن استفحال أمر الدساسين عمل على تخذيل جيشه فجأة، فأضطر إلى التسليم، وبعث به البختيارية إلى مسجد سليمان حيث مركز آبار النفط في الأهواز، فأستلمه هناك قنصل بريطانيا بالمحمرة مع الشيخ حنظل حاكم الناصرية الذي كانوا موفودين لهذه الغاية، واعتقله الإنكليز في المحمرة لدى الشيخ خزعل، وإستغرقت مدة مناوئته للإنكليز أكثر من سنة ونصف، وبعد مرور شهر بعث به إلى الكويت وأعتقل هناك ولم يطلق سراحه إلا في نهاية سنة ١٩٢٢م فتكون مدة إعتقاله خمس سنوات ونصف تقريباً.

ولا يظنن القارىء أن النجف وعلمائها ألقوا السلاح ومالوا إلى الراحة بعد أن بلغوا بلدهم وأهلهم عقيب اهوال الحروب والمعارك، وعقيب تلك الانكسارات وإحتلال الإنكليز للعمارة ولناصرية المنتفك.

فقد خلقت منهم النجف اشداء في ذات الله لا تلين قناتهم، فقد عملوا على إثارة قبائل الغراف بين الناصرية والشطرة، فنهض هؤلاء لوحدهم وقاموا بعدة معارك هائلة أوقفت تقدم الإنكليز وتجاوزهم ناصرية المنتفك في الفرات، واستدام حربهم ستة أشهر تقريباً، وكان عالمهم المطاع الشيخ عبد الحسين مطر، ولاندري فيما إذا كانت هذه القبائل على اتصال مع الجيش العثماني بواسطة عجمي بك السعدون!.

كما أن العلماء كرروا زحفهم للجهاد مرة ثانية عندما وجدوا ضرورة لزحفهم، وذلك عندما بلغ الإنكليز سلمان باك، واجتمع العلماء في الكاظمية يحرضون الناس على القتال وحضر بعضهم معركة سلمان باك في يوم ٢١ تشرين الثاني ١٩١٥م التي انكسر فيها الانكليز، وتحطمت آمالهم، ولم يعد العلماء إلى النجف إلاّ بعد أن رأوا عدم الضرورة إلى وجودهم ذلك لتوارد الجيوش العثمانية المدربة بكثرة، ولكن كان رجوعهم بعد سقوط حامية الإنكليز في الكوت، وبعد أن أشتركوا في الحروب الجهنمية بين الكوت والعمارة خلال مدة الحصار، والبعض منهم رافق الجيوش إلى النهاية، أي إلى سقوط بغداد بيد الإنكليز.

ولم تهن ولم تضعف عزائم النجفيين على مناهضة الإنكليز حتى بعد سقوط بغداد، ويرى القارىء ويسمع حديث ثورة النجف عند عهد الإحتلال في بحث خاص.

الآن وقد انهينا الموضوع، فنلفت نظر الوطني إلى نتيجة يمكنه أن يتعرفها من بين ثنايا حوادث هذا الموضوع، وهي إستيلاء قسم العرب من العلماء على تدوير شؤون هذه الحرب، وتوغلهم في التداخل لجميع مواضيعها، وتطوراتها، مع وجود أفراد من العلماء العجم.

أما أسباب هذا الاستيلاء فهي صلة القربى بين القبائل وعلماء العرب من جهة، وكثرة تماسهم بالقبائل وتعرفهم إلى عاداتها وأخلاقها ولغتها من ناحية أخرى.

وإذا ما تعرف القارىء إلى هذه النتيجة المباشرة فسوف يتلمس بيده كيف تتعاون الأيادي العربية النجفية الدينية منها والسياسية فتقبض على محور حركة التطور

النجفي؟ وكيف تتنحى عنها الأصابع العجمية تدريجاً، حتى لم يبق للعجم بعض ذلك الشأن الذي كان لهم أبان الدستور العثماني سنة ١٩٠٨م. وعليه يمكن للباحث أن يعتبر تاريخ الحرب العظمى هو مبدأ تاريخ. . . . علماء العرب الدينيين للتداخل بل التوغل في مجاري السياسية الدينية والوطنية، تلك السياسة التي خدمت الشباب العربي المثقف وسندته في جميع أعماله وأحزابه للقضية العربية عامة، وللقضية العراقية خاصة. كما سنتحدث عن ذلك.

٤ـ عهد الإحتلال في النجف والحزبان السياسي والحربي:

لم يشأ المحتلون بعد سقوط بغداد في أيديهم يوم ١١ آذار سنة ١٩١٧م أن يشكلوا حكومتهم في النجف، بل في الفرات الأوسط كله، ولهم في ذلك بعض العذر طالما كانت جيوش العثمانية على مقربة منهم، غير أنهم سارعوا فضربوا في اقفية العثمانية إلى ما وراء هيت في جبهة الفرات، وإلى ما وراء تكريت في دجلة.

ومع ذلك لا يزالون مترددين في تشكيل حكومتهم، وطال ترددهم وأبطاء وكانت الحكمة في هذا التردد، وكان الدهاء في هذا الإبطاء بعد ما امتلكت جيوشهم الجرارة أعالي الفرات سهوله ووديانه، في حين انهم على اطمئنان تام من أن الأكثرية الساحقة بالنجف تمالىء الإنكليز وتعادي العثمانية، حتى اعتقد بعيد النظر من النجفيين أن الإنكليز سيتركون النجف على الوضع الذي هي فيه إلى أمد بعيد، حيث تتبدل ظروف الحرب وأوضاعها.

فقد درس ساسة الإنكليز أحوال النجف وتعمقوا في هذه الدراسة من تاريخ احتلال البصرة، بل منذ ابعد من ذلك، وراقبوا تطور النجف خلال الحرب مراقبة تامة، وكأنهم على اتصال دائم بالنجف، وفي تماس شديد مع النجفيين، ونفسية النجفي، وقوة بأسه، ونزوعه إلى الحرية، لذلك لم يصغ سياسيوها إلى الاقتراحات في تشكل حكومة الإحتلال بالنجف وفيماجاورها، ولم يكترثوا إلى تشكيلات بعض الأجانب والوطنيين ممن صادفهم الضرر في عهد الفترة وحكومتها الأهلية، كما لم يطمئن موفدوهم إلى الوضع الذي وجدوا النجف عليه، وذلك في العشرة الثانية لشهر نيسان سنة ١٩١٧م، عقيب إحتلال بغداد بأشهر، وكان الموفدان سكرتير الحاكم السياسي العام (السير هيوبرت يونغ) مع بريطاني يصحبهم عطية أبوكلل، ومظاهر الأحوال ونتائج أعمال

الوفود تدلنا على رغبته عن التسرع في تشكيل حكومة الإحتلال بالنجف كما يلوح ذلك من مذاكرات ذلك السكرتير التي نشرت في جريدة الطريق سنة ١٩٣٣م.

وكم كنت أتمنى حينذاك أن تتشكل حكومة الإحتلال بالنجف، حيث كنت واثقاً أن المزاج النجفي والوضع الذي هو وفيه لا يتفق مع أوضاع الإحتلال، كنت أودّ الإحتلال ليرى الإنكليز كيف تصارعهم البطولة النجفية لوحدها، ولتكون هذه المصارعة مثال الجرأة والإقدام أمام أنظار العراقي المستكين إلى الذلة والخنوع، فكان ذلك، وكان ما وددت وأملت، فلم يكد ينتهي عام ١٩١٧م إلا وطفح الغرور العسكري في نفوس المنتصرين وجاش الجبروت الاستعماري الذي ضاق ذرعاً من سياسية اللين والضعف التي جرع مرارتها من النجفيين طوال مدة الحرب. وهاته تقارير الجواسيس التي تميل مع السياسية حيث مالت تعطيه عن علماء النجف وأحرارها وبعض زعمائها ألواناً وألواناً، وهذا عطية أبو كلل أحد زعماء فريق الزكرت، انتهبت جماعته قافلة تجارية لقبيلة عنزة قدمت لتمتار من النجف، وزادت القافلة أن اتهمته بالمتاجرة مع الترك، فقدمت إلى السر برسي كوكس مثالاً محسوساً هو وبضاعة ذلك التاجر الكبيسي الذي ادعى ابتياعها من عطية نفسه، تلك البضاعة التي لا تحوي غلاً على(القلاي والزنبق) والتي لا تهرب لغير الاتراك، وقد حرم الإحتلال المتاجرة بها، ولم تجد في عطية إعادة منهوبات القافلة، ولم تقبل أدلته وبراهينه في تبرئته من قضية عنزة، وافتراء التاجر الكبيسي، وتوالت عليه عن لسان ارباب السلطة في بغداد ألوان المواعيد والتهديدات، وطلب إليه الحاكم السياسي أن يحضر إلى بغداد فتمارض، ولما أصرّت السياسية، تصلب عطية وقاطع الإنكليز، فانقطع حبل الودّ والمراسلة القديمة، وانفصمت عرى السلسلة الذهبية.

وهذه المقاطعة هي التي رغب إليها الجبروت العسكري، وهذه التي صبّت إليها السياسة، فليقدم بطل السياسة السربرسي إلى النجف، وهو واثق بأن أكثرية سكانها من جانبه، وليقابله الزعماء والأعيان والاشراف ما عدا عطية، وليزر العالم المبرز السيد كاظم اليزدي ليتناجى معه، ولا ندري أن كان ذلك السيد قام بوساطته وتحدث إلى السير برسي بشأن قضية عطية، غير أن المقاطعة أُعلنت، واضطرب عطية أشد إضطراب.

الآن وقد أعلن عطية عداءه للإنكليز، فلتنشط الجمعية السرية لتكثير عدد منتسبيها، حيث استفحل أمرها، وعظم شأنها.

كنا حدثنا القارىء عن بعض أحزاب النجف السياسية منذ عهد الدستور العثماني، ثم عن أعمال النجف السياسية والحربية قبل الحرب العامة وخلالها، وسوف نحدثه عن المبدأ العربي واضرابه، وحديثنا الآن عن أعمال بقايا الحزب المحافظ في المبادىء العثمانية أو المبادىء الإسلامية.

لم تلن صلابة أفراد هذا الحزب، ولم يقطعوا الصلة بالأتراك، بل لا يزالون يعملون على النكاية بالإنكليز، وينتهزون الفرصة لإيجاد سوء التفاهم بين الفرات الأوسط والحكومة المحتلة من جهة، كما بادروا إلى مراسلة الجيش التركي في عانة من جهة أخرى، وذلك على لسان عجمي باشا السعدون الذي كان ضارباً خيامه في (اللصف) شمالي غربي النجف بما يناهز التسعين ميلاً تقريباً، بعدما شكلوا جميعة سرية دعوها (جمعية النهضة الإسلامية) وكان راس هذه الجمعية الشريف السيد محمد علي بحر العلوم، وكان اعضاؤها الإداريون عباس أفندي الخليلي، والسيد إبراهيم السيد محمد باقر، والكاتب الشيخ محمد علي الدمشقي، ومن ورائهم الاستاذ الشيخ محمد جواد الجزائري، والشيخ محمد حسين البغدادي، والشيخ كاظم الخليلي، ولا أعلم أن كان لزميلنا السيد أحمد الصافي الشاعر ضلع في هذه الأعمال، ذلك لأنه كان عربي النزعة، وإن يكن عباس المذكور صديق الجميع، دعاه كما دعاني، وكرر الدعوة للاشتراك معه في حزبه، غير أن المبدأ العربي لا يسيغ لنا هذه التضحية والمغامرة في سبيل الاتراك، غير أني والسيد احمد الصافي على علم وإطلاع في معظم أعمال الزميل عباس.

وعلى كل حال لقد تمكن هؤلاء الأعضاء النشاط أن يجمعوا حولهم عدداً غير قليل من متطرفي النجف، وصنعوا خاتماً باسم الجمعية، وأكثروا من لصق الإعلانات، ونشر المناشير المثيرة لحفيظة الاهلين، تارة باسم الجمعية، وطوراً بتوقيع مستعار (فتى الإسلام) وكان مقر إجتماعاتهم غرف خاصة بعباس في مدرسة بيت آل الخليلي، أو في حانوت تجاري مشترك بين الأخير وبين السيد إبراهيم، وربما إجتمعوا في ديوان السيد بحر العلوم، أو هنا وهناك، وانتظم بريد المراسلة بين الجمعية وبين عجمي باشا المكلف في ايصالها إلى قلم الاستخبارات الألماني في عانة، وكان ضابطه الكبتن

(بريسل).

يعود بنا البحث إلى نتائج زيارة السر برسي للنجف، فقد أوفد الميجر بلفور حاكماً سياسياً، وأتخذ الكوفة مقراً لحكومته باسم (حكومة لواء الفرات الأوسط) التي شكل صورتها بمساعدة الشيخ علوان الحاج سعدون الزعيم العام قبيلة بني حسن، كما جلب معه قوة صغيرة بدأت تتجول بين الكوفة والنجف، ثم استعرضت حول النجف، فزاد ارتياب عطية، حيث تواترت الاشاعات أن الإنكليز يريدون به سوءاً وبالغت القوة بتوالي الاستعراضات، واتجهت ذات يوم مستعرضة حول (محلة) عطية نفسه في خارج البلدة، وما أن قاربتها إلاّ وقد رماها البعض من جماعة عطية بالرصاص، ظناً منهم إنها تحاول أن تقبض على عطية، وقد قتل من الجند المستعرض واحد، وجرح آخر.

ورغم هذا الاعتداء لم يعمد الجند إلى المقابلة بالمثل، وكانت نتيجة هذا الاعتداء أن توتّرت العلاقات بين الإنكليز وبين جماعة عطية، أو بينهم وبين النجف إجمالاً وبادر الحاكم بلفور إلى تعزيز قوته ومركزه بالكوفة، وبعد مرور أيام حلقت طيارة بريطانية في سماء النجف وهي نذير الإرهاب والسخط وقد حان للجمعية أن تعلن عداءها، وأن تنتهز الفرصة لتوسيع شقة الخلاف، فعمد بعض اعضائها وحرض على رمي الطيارة بالرصاص، غير انها لم تقابل هذا الاعتداء بمثله.

وهنا يتساءل القارىء عن رأي عامة النجف وخاصتها تجاه هذه الأعمال المنذرة بالويل والثبور.

لقد انتبه النجفيون لما ترمي إليه السياسة البريطانية من الضرب على يد عطية وجماعته، أو بالأحرى من ضرب النجف والإيقاع بها.

إذاً لا مناص لهم من المجاملة والمصانعة، فتجمهروا على عطية بعد وقوع حادث قتل الجندي المتقدم ذكره، ورغبوا إليه أن يبارح البلد، وكانت حجة عطية قوية، إذ لم يبد منه ما يستوجب هذه التحرشات الصامتة من الإنكليز، تلك التحرشات التي لم تنطل مغازيها على أحد، فما معنى الحكم عليه لقاء تهمة؟ وما الغرض من استعراض الجند؟ وما هذا الوعيد، وما تلك الشائعات والأعمال لتوريطه بدم الجريمة؟

فكان من حق عطية أن لا يلبي طلب النجفيين، وإلى أين يذهب بماله وعياله، وهذا الميجر (ليجمن) ملك البر وقبائله، وهذه السياسة البريطانية نفذت في حايل وبلغت

قلب الرياض.

الآن وقد تجلى للحاكم بلفور وضع النجف وغرور أهلها، فليتذرع بالروية والصبر، وليعمل على تأسيس حكومته، وليكثر من التردد إلى النجف من الكوفة ليراقب حركات النجف المزعجة، وهو صابر على مضض، ينتظر توارد القوة الكبرى، وينتظر سنوح الفرصة المساعدة على سحب هكذا قوة من جبهة القتال التركية البريطانية، وربما وجد في إنتصار الجيش شمال تكريت الفرصة المطلوبة، فعمد إلى عطية، وكريم سعد، وكاظم الصبي، وبالغ في توبيخ خصوص الأخير بدار الحكومة، وذلك لحادث نهب تجارة عنزة ـ المتقدم ذكره ـ غير أن كاظم صبي لم يذعن لتوبيخه، بل قابله بالمثل. وسرعان ما انتشر الخبر في البلد، وتجمهر النجفيون على السراي، وحاولوا الهجوم عليه، ولكن عقلاء النجف لجأوا في دورهم إلى المصانعة والصبر، وحاولوا دون المتجمهرين بدعوى عدم وجود قوة مقاومة غير شخص (بلفور) الذي لا بُدّ وأن يعامل كضيف في البلد، غير ان أعضاء الجمعية استغلوا الحادث فعلا، وانتهب بعض أثاث السراي بتحريضهم، وأوفدوا إلى (أبي صخير) عباس الحاج نجم أحد منتسبي الحزب، فاثار بسلاحه البلد، وأنتهب دار الحكومة، ولم يظفر بالميجر (لجمن) الذي كان مسارعاً في مبارحة (أبي صخير) قبل برهة.

أما الكوفة فقد ازدحمت بقبائلها، وكادت تهاجم دور الحكومة، ومعاون الحاكم السياسي المدعو (سركيس) وهو من نصارى بغداد، غير انه تمكن بواسطة علوان الحاج سعدون أن يوقف هائجهم.

ولنعد إلى (بلفور) الذي حافظ على حياته السيد سادن الحرم العلوي، وأسرع به إلى بيت حميد خان، فقد حاول بعد الظهر أن يعزم إلى الكوفة بأن يركب فرساً، غير أن أفراداً من النجفيين حالوا دون تحقيق هذا السفر بأن صوبوا بنادقهم على الفرس، وعلى دار حميد خان، الأمر الذي اضطر جماعة بلفور إلى تغيير خطة السفر. وعند العصر سفّر سراً، ولما بلغ الكوفة شمّر عن ساعد الجد إلى تنفيذ خطته التي عمد إليها ـ كما أسلفنا ـ فكان أن يهتز البرق بما لاقاه في النجف من الإمتهان، وكان أن يهوّل في بوادر ثورة عظمى تطاير شررها إلى الكوفة وإلى (أبي صخير) وإذا بالجيوش البريطانية تترى تجرّ بعضها بأذيال بعض، وإذا بالفرات الأوسط يصبح ساحة حرب تتسابق فيها

الجيوش إلى إحتلال المواقع المحصنة، وإلى إعتلاء العلالي في المدن والقرى، والبر والنهر، فما كان من النجفيين المخلصين إلى عطية، إضافة إلى أعدائه إلا أن يتألبوا عليه فيرحل بأهله إلى كبد البادية معتزلاً هذه المآزق، ولم ياسف الحزب على سفر عطية أسفاً حقيقاً، حيث لم يكن معتنقاً مبدأهم، وربما اعتبره البعض أنه مناوىء لهم، غير أن هناك عواملاً شخصية اضطرت عطية إلى العداء.

ألم يذهب ولده البكر تركي ضحية لكمة من بريطاني على جسر بغداد أبان الإحتلال جرّت عليه تلك اللكمة المرض فالهلاك لغير ما سبب؟ ألم يتهم عطية بالتهم المتقدم بيانها؟ أليس في إستطاعة المحتلين أن يسلبوا ثروته الطائلة التي جمعها خلال الحرب كما هو المعروف عن سياستهم؟ أليس في إستطاعتهم أن يحطموا زعامته وشخصيته... فهذه عوامل مهمة أقلقت، راحة عطية، وتسلسلت بعضها مع بعضه، وليس لها أيّة علاقة بالحزب، فكان من حق الحزب أن لا يأسف على عطية أسفاً حقيقياً، أو بالأحرى أن تكون نفسية الحزب مترددة بين الرضا مما أصابه، وبين الغضب منه.

وعلى كل حال لقد أنهزمت السياسة النجفية بانهزام عطية، ونشط الحاكم (بلفور) إلى تشكيل حكومته على أحسن ما يكون عليه الانتظام، وعيّن حكّام بريطانيون في النجف، وفي جميع مدن الفرات الأوسط.

أما الحزب النجفي فقد هدأت سورته، وخفّ صوته، عمد إلى السر والكتمان في مراجعته مع الجيوش التركية وقلم استخباراتها، وأوفد عباس الحاج نجم إلى عجمي باشا فالرمادي يحمل وثائق الحزب إلى قائد الحملة العثمانية في الفرات أحمد بك، أوراق يطلب إليه المساعدة المادية للقيام بثورة ضد الإحتلال، فأحسنت القيادة وفادته، وبواسطته أنتظمت المراسلة بين الجمعية والجيش.

ولنعد إلى وصف حالة النجف وإلى دراسة نفسية أهاليها أزاء هذا الحدث الجديد، ألا وهو الحكومة البريطانية الحديث، وهذا الجيش العرمرم.

تشكلت الحكومة الإحتلالية وتمركز قسم عظيم من الجيش في الكوفة وفي طريقها إلى النجف حتى ضاقت بذلك العسكر دورها وبساتينها.

لقد فوجىء النجفيون بهذا الجيش، فما أن شاهدوا عدّتَه وعدده، ومدافعه وذخائره، طياراته ودباباته، بواخره ودراجاته، إنتظامه وقوة شكيمة أفراده، ولم يكن النجفيون ناسين الجيش العثماني فهل تصّح مقارنة ذلك الجيش الذي مارس حياته، وتلمس نقصه بأنفسهم؟!

ما أن شاهدوا ذلك إلاّ وقد ضعفت نفوسهم، وطأطأوا رؤوسهم الشامخة، وتقلصت أجسامهم فخجلوا من تلك الغطرسة التي كانوا علها بالأمس، فألقوا سلاحهم وخبأوا بنادقهم، ومعظمهم ذاهل من هذا الجيش، يشعر بالعداء السياسي والإجتماعي ضده شعوراً تاماً، ولكنه لا يتبين مؤهلات هذا العداء وعوامله وأسبابه، وإنما كان أثره متقمصاً في النفس الباطن، غير أن شنشنة الجيش وأعمال أفراده أهاج ذلك العداء، وأيقظ تلك النفس النجفية.

وماذا ينتظر القارىء من هذا الجيش الخليط بأنواع البشر؟ وماذا ينتظر من الغطرسة والجبروت. ماذا ينتظر من جيش يشعر بأن هذا السكن أشد أعدائه، وأن هذا السكن محارب له بالأمس، وإنما فتح بلادهم بالقوة والنار؟

هل تنتظر منه الرأفة والشفقة؟ هل تنتظر المجاملة واللطف في سيره ومعاملاته؟ أم هل ينتظر من حاكم السياسية أن يلين جانباً للأهلين وأن يتساهل في معاملاتهم؟ وهذا الجيش من حوله، وهاته القوة تزيد في روحه العسكرية ناراً ولهيباً!! بل هل في أمكان زعماء هذا الجيش العرمرم، وهل في إستطاعة حكامه أن يغيّروا اتجاهه النفسي، وأن يأثروا على ما في طباعهم الملتهبة من عداء لخصومهم؟

لا أظن بعض ذلك.. وهنا يدرك القارىء حراجة موقف النجفيين المرغمين، ويلمس بيده صداماً معنوياً عنيفاً بين الغطرسة والجبروت العسكري المتمثل في غلظة الطبع، وخشونة السلوك، وبين العزة النجفية والحرية الشخصية ـ التي سبق شرحها ـ والتي تلطفت بمظاهر المجاملة، وتوادعت بمسالك الخضوع القسري، وتزينت بمرأى اللين، تصحبه أَنات الأسى والأسف على ما فات، وواهات ذكرى مؤلمة لعهد مضى، ضمّ بين طياته العزة والشرف.

لقد خضع النجفي للقضاء والقدر. ولكن كانت نتيجة هذا الخضوع انتزاع حب الأجنبي من نفوس أكثرية السكن بعد بضعة أشهر، وانقلب إلى عداء وبغض عظيم أثار

غليان في النفوس، يلتهب بين الجوانح، ويتطاير في الفضاء حسرات، رسالته بين الناس نظرات العيون الساخطة، والابتسامات المغتصبة المتبادلة، أثناء الأحاديث، ثم ماذا كان؟ صار بثَّ الشكوى بعد كتمان، وجرت المصارحة فيما كان، وما سيكون.

الآن وقد اختمر البغض والعداء الصارخ، الآن وقد بلغت روح النجفي التراقي، فليعد الحزب السياسي تجربته التي تسرَّع فأخطأ فيها، وليعمل ما إستطاع إلى العمل سبيلاً، فليفاوض، وليعاهد، وليكتّل، وليدس ما شاء من أنواع الدسائس والسموم، لقد تمكن الحزب من إستمالة كريم الحاج سعد ـ أحد أبناء زعماء فريق الشمرت ـ فكان لانخراطه في الجمعية أكبر فوز، وبادر بمعونة البطل الحاج نجم فشكلوا حزباً ثورياً سرياً بلغ عدد أبطاله ما يناهز السبعين بطلاً أقسموا اليمين المقدس على التضحية والقيام بالثورة ضد عدو لم يرع في البلاد إلاً ولا ذمة، وكانت صورة قسمهم على الطريقة الحربية النجفية المعتادة بأن يضعوا كمية من الشعير في طبق يعلوها الكتاب المقدس والخنجر، فيحلف المنتسب وهو محاط بأبطال أشداء مدججين بالسلاح عرفت في معظمهم الشجاعة والإقدام، ومن أبى الإنخراط في حزبهم يحلفونه أن لا يبوح بسرهم، وإلا فيعرض نفسه لإنتقام الجمعية الفعالة.

ومن تشكيل هذا الحزب الدموي يدرك القارىء مبلغ تغلغل الحقد ضد الإحتلال كما يعرف ذلك من إختلاف مهن أفراد الحزب وتفاوت أسرهم ومحلاتهم وطبقاتها في المجتمع النجفي مقدار ذيوع هذا الحقد واستقصائه كل الطبقات.

وأعظم ظاهرة نلمس منها هذه الحقيقة هي عدم إحاطة الإنكليز في معظم أعمال الحزبين، في حين إنكشاف أمرهما لدى معظم النجفيين مما يدل على إجماع النجفيين ورغبتهم في النكاية بالمحتلين والتحرش بهم، لذلك لم يتصد أحد إلى إخبار الإنكليز حتى المتزلفين إليهم والمتملقين لهم، ولم يتصل بهم أمر هذا الحزب الدموي إلا قبيل إندلاع لسان الثورة، أي بعد مرور أشهر على أوضاع الإحتلال التي أسلفنا، وعقيب تمكن الإنكليز من ناصية البلاد وإنشائهم المراكز الحربية المستحكمة، وتوطىء سير الإدارة، الأمر الذي أزال من قلوبهم تلك الريبة، أو كادت تزول، لذلك نراهم بادروا إلى سحب جنودهم تدريجاً، فلم تبقَّ إلا المراكز يشغلها قسم ضئيل، هكذا يتراءى لنا، وربما أخطأنا الظن والحدس فأن كانت لدى الإنكليز المعلومات الكافية عن حركات

النجف، غير أن هناك ضرورة جدت في الحرب ألجأتهم إلى هذا السحب الذي لطفوه أن أبدلوا حاكم النجف بخيرة رجالهم السياسيين المحنكين (الكبتن مارشل) ذلك الشاب الأديب، غير أنه لم يستطع، بل يستحيل عليه معاجلة ذلك الداء النفسي الذي تاصل في النجف، لذلك مضت في سبيلها وباشرت في إيقاد نار الثورة.

٥ـ ثورة النجف أو قبس الثورة العراقية:

انتهزت الأحزاب فرصة انسحاب الجيوش، مراعية مجرى تيار النفسية النجفية المضطرم، الذي كاد يفلت، فقررت ايقاد نار الثورة في النجف وكربلاء والكوفة وأبو صخير والجعارة وقبائلها، وذلك بواسطة النجفيين المنبثين في نفس تلك المدن، وأيضاً بناءً على مواعيد وعد بها بعض زعماء تلك القبائل على أن تقع الثورة في يوم واحد وهو يوم ١٠ آذار سنة ١٩١٨م/ ٦ جمادى الأخرة سنة ١٣٣٦هـ، وفعلاً أوفدت الأحزاب السيد إبراهيم لتنفيذ القرار في كربلاء، غير أنه خاب أن أوصل الجواسيس بكربلاء أمره إلى الشرطة قبل اليوم المعيَّن للثورة فدعته واستكلفته للحضور في إدارتها يومياً، ولم يثن عزمه غير عدم نضوح الأهلين للقيام في وجه السلطة.

ويجوز للباحث أن يخطيء سير السيد إبراهيم الذي أدى إلى افتضاح السر، وكان عليه أن يكتم عن الكربلائيين أمر النجف وخطتها كي لا يتصل ذلك بحكومة النجف التي سارعت في تدبير أمرها فعلاً، والذي هوَّن الخطب ضيق الفرصة، فلم يتمكن المحتلون من جلب القوى، ولكنهم تيهأوا للطارىء المنتظر.

إسمع يا أخا الثقة والوطنية محمد علي كمال الدين، سوف تدوّي عند طلوع الشمس أول طلقة نارية ثورية من العراقيين في وجه الإحتلال فلتكتمها، همس بها وهو مسرع لسبيله، أتعرف من هو الهامس أيها القارىء؟ هو أحد أولئك الأبطال الذين أثارتهم الحفيظة، فانغمسوا في تلك الثورة وحروبها، ولو أنه لم ينخرط مبدئياً بين أعضاء أحزابها السرية، أعني به عبد الرزاق بك عدوة، أحد قائممقامي الدولة في الحكم الحاضر.

لتدو طلقات الرصاص عند بزوغ الشمس بعدما هدأ دويها مدة ستة شهور، فقتل الكبتن (مرشل)، وجرح رفيقه المهندس مع بريطاني ثالث، ولم تَجدهم مسدساتهم،

وليستشهد اثنان من الثوار.

لقد «وقعت الواقعة، ليس لوقعتها كاذبة»، هل يصدّق العراقي المستكين أن بقيت في العراق يد تستطيع الحركة الإدارية أو غير الإدارية في ذلك الظرف الملتهب بالنيران؟ ظرف الحرب العالمية، هل يستطيع عراقي أن يجرأ على القيام بهذه المحاولة وفي العراق جيش متل يناهز ربع مليون؟

لم يكد أحد في العراق يصدق بوقوع هذا الحادث، اللهم إلاّ أولئك النزر من النجفيين الأقوياء النفوس، والذين كرعوا من الحرية أثمن كؤوسها. اللهم إلاّ أولئك النجفيين الذين يشهد تأريخهم بمثل هذه المغامرات.

وأظن أنَّ القارىء لا يستكثر ذلك على بلد بينها وبين الكوفة قاب قوسين أو أدنى، تلك الأرض التي أدارت دولاب التاريخ الإسلامي حيث شاءت...

أليس من حق ابن القبائل الباسل أن يكذب هجوم عصابة مُسلحة من الحضر على دور السلطة البريطانية الرهيبة؟

أليس من حق ابن بغداد أن يحيل هذا الإقدام على أناس ضعاف في المال، ومفلسين في الدراسات المدنية الفنية؟ ومن يدري من أولاء، وهؤلاء، وأولئك، إن النجفيين مطبوعين على الحنكة والدهاء؟ خلقوا والحرية والجرأة والإقدام.

لم ينجح الثوار في محاولتهم للاستيلاء على حصن الرشاشات فوق سطح البناية، لتناقص عدد المهاجمين عند الهجوم، فليسرع حاكم اللواء الميجر (بلفور) من الكوفة إلى النجف فيرسل القتيل والجرحى إلى الكوفة، وليضع خطة الدفاع عن الحامية، وليمثل الحنكة والجرأة البريطانية فيلج البلد ويقابل زعماءها، فيتظاهر أن ليس للنجف يد في الحادث، ويطلب إليهم أن يهدأوا البلد، وينادي مناديه بفتح الأسواق، ولكن الثوار تداركوا الأمر فأسرع كريم الحاج سعد مع بعض رجاله إلى إطلاق الرصاص على الشرطة المنبثة في البلد، وعلى الميجر (بلفور) نفسه، غير إنهم أخطأوه، سرعان ما استولى النجفيين على سلاح شرطة البلد وألقى هؤلاء بأنفسهم في ذمة السيد مهدي سلمان ـ أكبر زعماء الزكرت ـ فآواهم وأحسن إليهم هم وسائر صغار الموظفين، ومكثوا لديه حتى انتهاء الثورة.

أسرع بلفور إلى طلب القوة، وإذا بجموعها تتابع من ساحات القتال العثمانية إلى النجف، ولا أظن أن عدد أفرادها زاد على ثمانية آلاف بما فيهم العمال، غير أن التظاهرات التي يقوم بها الجيش الإنكليزي عادة، وحركة التنقل السرية والعلنية مع كثرة المعدات والسيارات والدبابات والعربات والطيارات خدع أبصار الأهلين، فكان أقل تقدير، شاع بينهم هو أربعون ألفاً، سيّما وقد أشغل الجيش شواطىء الكوفة ودورها، وضرب خيامه واسلاكه في طريق الكوفة إلى النجف.

لقد تمركزت القوة الزاحفة في مقام (كميل بن زياد) ـ التابعي الشهير ـ وانتهكت حرمة قبّته، بأن جهزت بالمدافع والرشاشات، وزحفوا نحو البلد واحتلوا ضفاف النهر اليابس الممتد من مدينة النجف إلى الفرات، عند مشرعة (علوة الفحل) فكان خير خندق اوصلهم إلى بناية الحامية، وفكّوا عنها الحصار، وشقوا منه خندقاً طوق شمال النجف حتى بلغ طرات وادي البحر، كما حفروا خندقاً في جنوب شرقي النجف قطع طريق أبو صخير، حتى بلغوا به طرة البحر أيضاً. وبهذا التخطيط أطلوا على وادي البحر من جهتين، فملكوا ما فيه من جدول سقي النجف الوحيد مع بساتينها.

ولما رأى الإنكليز إحجام النجفيين عن منازلتهم في خنادقهم اقتربوا من البلد في تطويقها بخندق ثان فثالث وحددوها بالأسلاك الشائكة حتى أصبحت النجف قفصاً حديدياً يعسر منه بالإفلات، والسيارات المصفحة تجول حول البلد تمطرها برشاشهاتها.

لقد حاول الثوار قبل وصول القوة أن يستولى على البناية المحاصرة بإحراق بابها بالنفط والنار ليلاً، وأيضاً بالهجوم عليها من الأبنية القريبة منها، فلم يفلحوا، وبعد توارد القوة وضعوا خطة الدفاع وتحصنوا في ابراج السور المرتفعة، وخندقوا في التل الجنوي الشامخ، ومع ذلك كانوا ينتهزون فرصة الهجوم، ولما أنسوا من أنفسهم الضعف مع إزدياد قوى الزاحفين بتطاول الأيام عزموا على الهروب ليلاً.

وفي ليلة السابعة عشرة من مدة الزحف عزموا على الخروج بإشارة من دماغ النجف المفضال الشيخ جواد الجواهري، وكانت ليلة حالكة مدلهمة بالغيوم والرعد والبرق الخاطف، ولما حاولوا اختراق الأسلاك الشائكة ثارت في وجوههم نيران الخنادق، فكانت معركة هائلة لم يعمد إليها النجفيون، بل أضطروا إليها، كما أن الإنكليز عمدوا

إلى نقض هذا الهجوم غير المقصود بهجوم من قبلهم ظهروا فيه بالعراء، وقصفت مدافعهم ورشاشاتهم وكادوا يبلغون التل، غير أن المحايدين في البلد سارعوا إلى سلاحهم وأرسلت من الأبراج والسور والتل نيران حامية اضطرت المهاجمين على التقهقر، تاركين جملة من القتلى والجرحى.

وبعد خيبة هذه المحاولة يئس النجفيون من الإفلات كما عرف الإنكليز إستحالة الفوز ليلاً لما لاقوه من قوة النار التي جابهتهم فكان هذا الحادث سبباً لفتح باب المفاوضة ومداخلة زعماء القسم المحايد من النجفيين الحربيين بصفته وسيطاً للمفاوضة، سيّما وقد مضى السغب والظمأ بالناس، وعمّت المجاعة حتى بلغ سعر وزنه الحنطة خمس ليرات ذهباً، وفقدت جميع المواد الضرورية والكمالية وأضطر بعض الناس إلى ذبح الحمير للإستفادة من لحومها وخوفاً عليها من الهلاك جوعاً.

أما الماء فقد منَّ الله برحمته من أمطاره المتتالية، ولا ننسى التمر الذي سعره متهاوداً، فقد أصبح الغذاء الوحيد لكثير من النجفيين، ومع ذلك فقد مات بعض الفقراء جوعاً، وكذلك ماتت جميع القطط، وقد شاهدت الكثير منها تئن في الطرق وهي تعالج سكرات الموت جوعاً.

ولا تسل عن حيرة الناس في أمرها، فقد كانوا يدورون حول الصحن الشريف المغلق الأبواب، ذاهلين ويدور الشيوخ والنساء والأولاد في الأسواق والجوامع وهم في خوف وأضطراب عظيمين، تمطرهم الرشاشات والبنادق من جهة، ويتوقعون العاقبة الوخيمة فيما إذا دخل الجيش الزاحف إلى البلد فاتحاً مستبيحاً من جهة أخرى، وقد تصاعدت الأدعية والتضرعات الحارة إلى باريء النسم كي يزيل هذه الكارثة.

لم تفت زعماء المحايدة هذه الفرصة بعد أن فتح الإنكليز باب المفاوضة، ولم يمانع الثوار أو ولم يستطيعوا أن يمنعوهم عن مقابلة قائد الحملة وحاكمها في بناية الحامية، وتعددت هذه المقابلات، ومنها تمكن قواد الحملة من الوقوف على وضع البلد وروحية الثوار ومراكز ضعفهم، ومبلغ قوتَهم، وانقسام البلد تجاه الشيخ الزاحف، إضافة إلى عدم اشتراك العُزَّل من السلاح وهم معظم النجف من تجار وروحيين وفقراء وأجانب، علاوة على الجوع الذي فتك بهم، لذلك كان للقواد أن يتصلبوا في مطاليبهم، واقترحوا أن يستسلم قتلة مرشل إلى الحملة طوعاً بدون قيد

ولا شرط، ولم يكن بينهم من أولاد الزعماء، فكانت فتنة أريد بها انقسام الثوار على أنفسهم، غير أنّها لم تنطل على الثوّار الذين فضلوا الحرب على الإستسلام، ولكن الوسطاء لم تنقطع مفاوضاتهم في كل نهار.

وفي مساء الثاني والعشرين من مدة الحصار سمعت من بعض هؤلاء المفاوضين، كلمات فهمت منها أن الهجوم النهائي قريب. وعند طلوع شمس يوم الثالث والعشرين الموافق ١١ نيسان سنة ١٩١٨م.

بدأ قصف المدافع على التل الجنوبي بأقصى هوله، وفي منتهى شدّته دام عشرين دقيقة تقريباً، وتحت ستار هذا القصف هجم قسم الكركة والسيخ فاعتلوا التل بالقنابل اليدوية وولجوا خنادقه بدون كبير مقاومة.

وهنا يستغرب القارىء هذه الهزيمة بعد تلك المقاومة العنيفة، غير أن الظروف والعوامل التي أحاطت بالثوار كان لها الأثر البالغ، فقد علمت الحملة أن معظم الثوار يبكر إلى أهله للفطور بعد سهر الليل الطويل، وخاصة في هذا اليوم، حيث لم يبق في التل إلاّ شباب سئموا تلك الخنادق التي ملأها المطر في تلك الليلة، ولم يحاول الثوّار التحصن في دور محلة الحويش لمقابلة المنتصرين، أو منع عن هذا التحصن، فقد كان معظم اهالي هذه المحلة محايداً، لذلك ظهرت فيها عقيب إحتلال التل بنصف ساعة أول بادرة من بوادر خضوع النجف واستسلامها، فقد اندفع موفودوها إلى الحملة يحملون العلم الأبيض وكانوا من الشرطة اللاجئة إلى السيد مهدي السيد سلمان، وبعد مرور نصف ساعة من هذا الاستيلاء حصن الجند التل والسور الذي حوله، وإذا بالقوّاد والحاكم السياسي ينحدرون إلى المحلة وأسلاك التلفون تواصل معهم إلى دار السيد كاظم اليزدي (قدس سره) فزاروه زيارة إخلاص وتبجيل وتعظيم، ويقال إنّهم طلبوا إليه أن يكلم من شاء من المسلمين في المدن القريبة والبعيدة مخبراً عن سلامته وسلامة الحرم المقدس من قنابل المدافع وكان غرضهم إذاعة هاته التصريحات في البلدان الإسلامية المتألمة بل الصاخبة على هذا الحصار والهجوم على بقعة يقدسونها.

الآن وقد خذل الثوار وتفرقوا وأختبأوا في البيوت، وصرّح بعض المحايدة في شماتتهم، فليسارع الجيش إلى إحتلال السور وأبراجه والدور الملاصقة له، وليضعوا ما شاؤوا من الأسلاك الشائكة في جادة السور المحيطة في البلد، وحول جميع أبوابها

ومداخلها، وكان الجند مصوباً بنادقه، فلم تقع أعينهم على نجفي إلا وأردوه قتيلاً، فلم يطمئن الناس على المدينة من الإستباحة إلا بعد مضي يومين من الإستيلاء حيث منع إطلاق الرصاص على الأبرياء الذين قتل منهم ما يقارب العشرين بريئاً، وذلك بعد أن تمت تحصينات الجيش واكمل تخريب وتهديم معظم الأبنية خارج السور منها محلة يبلغ عدد دورها الأربعمائة داراً تدعى محلة (الثلمة) ومنها الدور المستندة للسور وتبلغ الخمسمائة بيتاً تقريباً.

أما الثوار المختبئون فقد تسلح لهم بعض أولئك المحايدين يبحثون عنهم في بيوتهم وبيوت الأقارب والأصدقاء ويقدمونهم إلى القيادة طعمة سائغة، فما كان من السلطة إلاّ أن زادت صلابة، وطلبت جميع المتهمين بالإشتراك في هذه الثورة حتى الذين لم ينتسبوا إلى الحزبين السياسي والدموي، وضاعفت أطواق الحصر فجدّ المحايدون في التفتيش، وروعوا العائلات، وأكثروا من تقديم الشباب إلى السلطة والنجفيون يجرعون الأمرين الجوع والعطش، إضافة إلى الرعب والاضطراب، ولم ينته هذا الحصار إلاّ بعد مرور خمسة وأربعين يوماً عجافاً سلم خلالها للسلطة ١٤٠ شاباً تقريباً غير أن السلطة أجازت في الأيام الأخيرة خروج بعض العائلات بصك من عبد الحميد معاون الحاكم السياسي بالنجف، والسعيد من يحصل على ذلك الصك غير أن المشكلة العظمى مشكلة ولوج العائلات من ذلك الطريق الضيق، وطريق الأسلاك الشائكة الملتو الذي لا يزيد عرضه على نصف متر ويستطيل في عرض الميدان حتى مخرج باب البلد تتخله أنواع الحرس المسلحة من إنكليز إلى أكراد غلاظ شداد، والناس مكتظة في جنب الأسلاك صفوفاً وهم على كثرتهم صامتون واجمون كأن على رؤوسهم الطير، وتعلو وجوههم صفرة وغبرة لا أستطيع وصفها، ويستحيل أن تسمع صوتاً بين ذلك الزحام غير أصوات أولئك الشرطة والجند، والذي يؤلم الغيور أكثر أن هذا الحرس المنبث ومنه البريطاني مفوض في الكشف على المرأة المصونة للتفتيش على أولئك النفر المختفين، فكانت الألوف المزدحمة تشاهد بأم رأسها الجند يكشف عن حجاب المخدرات، وإذا ما نفذت بصيرتك إلى نفوس تلك الألوف وإذا ما وعى قلبك حفيف أرواح هذه الجمع فلسوف تفزعك براكين الحسرات والأنات المتصاعدة دخاناً إلى رب السماء ولسان حالها، ما ذنب هاته الجموع، وما جناية هؤلاء النساء

والأطفال، فإذا كان عدد المحاربين مائتين وإن شئت فقل ألفاً، فما جريرة الأربعين ألفاً من النسم البريئة، وإذا امتنع المائتان عن التسليم مرة واحدة، ففي إستطاعة الجيش الغالب أن يلقي عليهم القبض بدون هذا الحصار، وفي أية ناحية اتجهوا إليها ولكن شاء ربك أن يعمي بصيرة السياسة الأجنبية وأن يذهب برشدها فيخلق منها رجالاً ينقضون ما بنت ويهدمون ما أسست، وشاء ربك أن يكون من أعمال أولئك الأجانب رجالاً يبعثون بروح هذه الأمة المتقمصة، وما كان أشدني فرحاً وسروراً من تلك الأعمال ومن هذه النتائج التي أكاد أتلمسها فلتطبع في نفوس النجفيين ضغائن واحقاد عظيمة، ولتتأصل في نفوس الشيوخ والنساء والشباب والأطفال.

ليتك أيها القارىء ترى مشهد يوم فك الحصار وقد هرج النجفيون تاركين بلدهم، هائمين على وجوههم، مولّين عن منبع الظلم والقسوة يستبقون إلى نجاة لم يكادوا يصدقون أن ظفروا بها ماشين على الأقدام يحملون أمتعتهم وأفرشتهم وأطفالهم على ظهورهم وأرؤسهم نساءً ورجالاً وشباناً يلتفتون جيد المذعور، وكان الظلم يتبعهم، والرعب يصحبهم، فتفرقوا كالجراد المنتشر في جميع مدن الفرات وقراه، ونزلوا ضيوفاً لدى أقربائهم وأنسبائهم وأصدقائهم أو في ضيعهم، ومنهم من أسرع إلى بلده القديم الحلة، السماوة، كربلاء، العمارة، البصرة، الكاظمية، بغداد.

فلا تكاد تطرق مدينة أو قطرة إلا وتجد النجفيين أمامك. النساء يحدثن مالاقين من هول الكارثة وهن باكيات، والرجال يستعرضوا الحوادث بقلوب مكلومة، والعراقيون يشاركونهم في أوجاعهم وآلامهم ساخطين على عدو تجلت نواياه، ومخض زبده، والقارىء يعلم مبلغ قدسية النجف في نفوس سائر طبقات الشعب العراقي بل في نفوس عموم الأقطار الإسلامية.

هل عرفت أيها القارىء كيف هدّم الجيش البريطاني في ٤٥ يوماً جميع ما أشادته السياسية في قرن وخسرت معظم آمالها وأمانيها، وأصبح العراق لا يطمئن إلى جميع إصلاحاتها السياسية والاجتماعية.

يعود بناء البحث ما آل إليه أمر الثوار الذين أصبحوا رهن السجون في الكوفة، فقد نفت السلطة مائة شخص منهم بدون محاكمة وأجلتهم إلى قرية (سمربور) في الهند،

وأحالت أربعين منهم إلى محكمة عسكرية بينهم عضوان من الحزب السياسي هما المولى الشريف السيد محمد علي بحر العلوم، وإبراهيم أفندي، وتشكلت المحكمة برئاسة قائد الحملة، والأعضاء الميجر (لجمن) مع ضابطين، وللترجمة (جاد غاوي المصري) وعرضت المستمسكات وهي سبعة عشر كتاباً عثر عليها الإنكليز بين أوراق شعبة الاستخبارات الجرمنية في مدينة عانة، وقد نفى السيد بحر العلوم هذه الكتب حيث لم تكن بخط يده، ولا موقعة بتوقيعه، كما نفى السيد إبراهيم تلك الكتب بحجة أنه لا يحسن الكتابة، فكيف يمكن أن يكون سكرتيراً للحزب.

واستمعت المحكمة إلى شهود الدفاع الذين طلبهم المتهمون من وجهاء النجف، فلم يحسن الشهود أساليب الدفاع، فصدر حكم المحكمة العرفية عليهم بالإعدام، وأبدل في اليوم الثاني ذلك الإعلان بالسجن المؤبد، كما حكمت بالسجن المؤبد على الأستاذ محمد جواد الجزائري، ولكن غيابياً وبالإعدام على عباس الخليلي.

وأشد أحكام هذه المحكمة صرامة هو الحكم بالإعدام على أحد عشر شاباً من أعضاء الحزب الدموي، وقد نفذ فعلاً في العشرة الثانية من شهر مايس سنة ١٩١٨م/ ٢٢ شعبان سنة ١٣٣٦هـ.

ولكن بعد أن أعدَّ الجيش عدّته لتنفيذ هذا الإعدام فقد أصبحت وحدات الجيش منبثة في جادات مدينة الكوفة وأسواقها، والمخافر، ودور الحكومة، مصوّبة نيرانها نحو البلد، وكأنها على استعداد لقتال.

نعم هو قتال وإعدام الأحد عشر شاباً في خان محسن شلاش، وعلى مشهد جمع عظيم من زعماء القبائل ورؤساء النجف، أحضروا ليروا هذا المشهد، كان غرض الإنكليز إضعاف النفسيات طبعاً، وقد فاتهم أن في هذا المنظر دليلاً مشهوداً على قسوة الإنكليز وجبروتهم وعدائهم، وهو وحده كاف لتوليد أعظم حقد ضد الإنكليز، كيف! وقد كانوا أحضروا هؤلاء الزعماء في ١١ نيسان سنة ١٩١٨م إلى قرب النجف المحاصرة ليشاهدوا الهجوم، وإطلاق المدافع على النجف، وكان غرض الإنكليز إطلاع الزعماء إنهم لا يقصدون ضرب المدينة والحرم، بل وجهتهم التل وخنادقه فقط، ولكن فات الإنكليز أن كان لهذا المشهد أبلغ أثر في قلوب الزعماء وكان لدوي المدافع والرصاص أعظم مثير لحفيظة شيوخ الشامية والخزاعل والهندية. وقد تمنى

كل واحد منهم لو مات شهيداً في قتال الإنكليز وسط نيران تلك المعركة حول أسوار النجف. وقد همس أحدهم في هذا المجتمع بعنوان الدعاية: «هذا يوم لا بُدّ لهؤلاء الحضور نظيره».

لقد ذهبنا بالقارىء بعيداً عن مشاهد المشنقة ومجتمعها المفجع، وهؤلاء الأبطال يرقون إليها فتزهق أرواحهم، وهؤلاء المشاهدون حالت القوة حتى بين عيونهم والبكاء فلتنزف قلوبهم دماً، ولتغل افئدتهم حقداً وضغينة، فما يوم الثورة ببعيد.

وإلى القارىء اسماء ضحايا المشنقة:

١ـ كاظم الصبي.

٢ـ الحاج نجم.

٣ـ كريم الحاج سعد.

٤ـ أحمد الحاج سعد.

٥ـ محسن الحاج سعد.

٦ـ عباس علي.

٧ـ علوان علي.

٨ـ محسن أبو غنيم.

٩ـ مجيد دعيبل.

١٠ـ جودي ناجي.

١١ـ سعيد العبد.

ففي ذمة الله يا شهداء المشنقة، وفي ذمة الله يا صرعى البطولة والشهامة، وها أن جثثهم تنقل أكداساً إلى النجف، وتقبَر شمال خط التراموای، جنوب مقبرة الهنود في ثلاثين قبراً تقريباً على حافة الكري اليسرى، وهي ثلاث مجصصات لأولاد سعد الحاج راضي، ولم تجصص مقابر الباقين في جنبهم.

ولا تسلني أيها القارىء عن معالم قبورهم، فالنجفيون يعرفون أنهم أهملوها فلم يضعوا لها نصباً ولا أثراً، ولا أدري متى يُقدِّر الشباب قيم الأعمال، ويعظم بطولة الأبطال، فيتدارك هذه الوصمة.

أما السيد بحر العلوم فقد صار اعتقاله لدى الشيخ خزعل ـ أمير المحمرة حينذاك ـ

كما لجأ إليه الشيخ محمد جواد الجزائري، الفار من وجه السلطة، ومكثا هناك حتى إنتهاء الحرب العامة.

لقد تركنا المنفيين يسحبون أثقال السلاسل الحديدية إلى الهند، وقد تبعهم بقية محكومي المحكمة، ولنسرد لك أسماء بعض مشاهيرهم:

عبد الرزاق بك آل عدوة، سعد الحاج راضي وولداه، حمود الحار واخوته، تومان عدوة، محمد أبو شبع، تومان بقر الشام، حامض صبي، حساني المختار، علي حبيبان وأخوه، الشيخ إبراهيم، مجيد طبّار الهوى، وغيرهم.

ولم تكن أهوال الأسر والنفي بأقل من مشاهد المشنقة وجور المنتصرين وتحكماتهم، وها نحن نقص للقارىء بعض ما حدثنا به عبد الرزاق بك:

لقد كبّل الأسرى بالحديد زوجاً من يدين ورجلين، وبعد أن قاسوا عذاب الركوب والنزول المزودج في الطريق إلى بغداد فالبصرة، شحنوا في باخرة إلى الهند، وقد لاقوا من الإمتهان والضرب الموجع ما يفوق حدَّ الوصف.

وقد زادت مصيبتهم في باخرة الهند بأن وضعوا قرب آتون الباخرة على أنه أضيق من حجر الضب، وهم كما وصفنا لايستطيع أحدهم أن يأتي أي عمل ضروري إلا ورديفه معه. لقد أصلاهم حرّ البحر، وحرّ الأتون، فأتقدت أفئدتهم الملتهبة بالآلام، ودّوا لو أنهم يرمون في البحر، فاصطدموا مع الحارس وحربته مرتين جرح بعضهم خلالها، فاضطر الكرنل أن يصعد بهم حيث الهواء الطلق.

ها هي بومباي فليتزع الأسرى ألبستهم وأدرانها لأول مرة، وليلقوا عنهم الحديد والأصفاد، فأبدلت بملابس مناسبة يظن إنها أحضرت من قبل جمعية إسلامية هندية لقد حملها القطار إلى (سمربور) شمال الهند، وأراهم في قلعة عظيمة ضمّت ثلاثة عشر ألفاً من الأسرى، وهنا وجدوا الرفاه ولين المعاملة، ورخي العيش، فتنفسوا الصعداء ولم يعودوا إلا بعد إعلان الهدنة، على أنهم أوقفوا بالبصرة معتلقين حتى كفلهم ذوو قرباهم بمبالغ طائلة، فأسرعوا إلى النجف، وقد تأخر بالبصرة أربعون من فقرائهم مدة اربعة شهور أُخر، لا كفيل يكفلهم، فهزت الحمية غيدان آل عدوة الذي كفلهم وحده بأملاكه، فعادوا إلى أهلهم مسرورين، وقد تراوحت مدة الأسرى بين ٨١ ـ ٢٢ شهراً.

وقبل إنهاء الموضوع نأخذ بيد القارىء إلى بادية النجف، حيث تركنا عطية ضارباً أطنابه في فيافيها قبل الثورة، يستعلم أحاديثها عن كثب، نافضاً رداءه من غبارها، راجياً أن تصحح السياسة خطأها نحوه، ولم يخطر له ببال أن الميجر (لجمن) أمير البادية الجديد يوعز إلى صنائعه من عنزة أن تغزوه على حين غرة، وذلك عند خضوع النجف.

لقد انتهبت بيوت عطية الشعرية وجميع أمواله الوفيرة، وهام ذووه والأفراد الذين معه في عرض البادية متفرقين، وإذا بعطية نفسه قرب قرية (الشنافية) وحيداً لم يكد ينزل من ظهر فرسه ليستريح برهة إلا وقد زادت المصيبة أن جفل الفرس وضرب عرض البادية، وتركه يقلب وجه الحيرة في مصيره بعدما أصبحت أمواله نهباً مقسماً وتفرق عنه ذووه، ولا يعلم ماذا حلَّ بهم، ولسان حاله لتحمد الله يا عطية وابتسم لهذا الدهر العابس اليوم، وليست هذه النكبة الأولى من نوعها، فطالما عبس الدهر لك، ولكنك قابلته بصلابتك وإبتسامتك، ولما لم تكن أنت ولا أحد أولادك وبني عمك ملوثاً بدم الثورة النجفية؟؟ فلتعتمد على الله فهو الكفيل لحل المشاكل.

لقد بكّر عطية إلى (الشنافية) وقدمه معاون الحاكم السياسي، وكان الحاكم يلقب بين الدهماء (أبو رويشات)، فأحيل عطية إلى محكمة الكوفة، فحكمت بنفيه هو وأولاده إلى الهند، ولم يعد منها إلاّ عند سنة ١٩٢٤م.

لقد عرضنا أمام القارىء لوحة عريضة عن الثورة، بقي علينا أن نستعرض حالة النجف بعد خمودها:

هاته المدافع مصوبة! وهاته الأشراك مشتبكة! وهذه الجيوش سكرى في غطرستها! هاته دور خربة، وتلك خاوية خالية لها يشأ أن يؤوب إليها أهلها، وهذه بيوت نائحة باكية أهلها، وهؤلاء السكن يعضون على آلامهم، ويغصون في حسراتهم غصّاً، وهم يقدمون إلى السلطة مختلف سلاحهم وغراماتهم، وقد حنوا ظهورهم لضربات الجند الموجعة بسبب وبدون سبب، وأعدّوا دراهمهم للغرامات الباهضة المتوالية لأدنى خطأ في السير، أو لأدنى مخاصمة نفطية ولو بدون إشتكاء، حتى تنازل النجفي إلى مصانعة أناس سفلة معظمهم من الأجانب، اصطنعهم الإنكليز إلى

مقاصدهم ولم يكونوا في البلد بالعير ولا بالنفير، واستكان للأحكام العسكرية الكيفية.

إن أنسَ لا أنسى ذلك الحاكم البريطاني (كرينهوس) تتقدمه زبانيته بالأسواق في روحاته وجيآته يومياً وهم يزأرون في وجوه الناس باللغة الفارسية (أي زنه قحبها باشيد) ومعناه: يا ذوي النساء الفواحش قفوا. والويل كل الويل لمن لا ينتبه من أصحاب الحوانيت فلا يقف على أقدامه تعظيماً للحاكم، حيث تتوالى عليه ضربات أعقاب البنادق، ويساق إلى السجن أو إلى التغريم من أولئك الزبانية ومن حاكم النجف الوقور.

ماذا أعرض أمام القارىء عن ذلك العهد، عهد القسوة الصارمة والتحكم الجائر. الأنكىٰ من ذلك تحدي الإحساس والعمل على قتل النفسيات، فليس في نظر القوم شريف ولا وضيع ولا شيخ ولا شاب ولا رئيس ولا مرؤوس، بل الكل زنوج ولا يستحقون غير الإمتهان والتحقير، يلكم الرجل أشد اللكمات لأنه لفت نظره وهو مار، ويضرب أشد الضربات لأنه يبتسم مع رفيقه، ويضرب ويسحق لأنه لم ينتبه أن الجندي البسيط قادم يجب أن يشق له الطريق.

يؤخذ عقال الشاب من راسه ويضرب بالأرجل، وليس لذلك من سبب غير إضعاف النفسيات، وكسر الشمم النجفي، ولكن بدون نظر إلى العواقب، وبدون مقارنة بين الحكمين السابق الضعيف، واللاحق الذي رأيت، وأيضاً بدون مراعاة إلى عقلية الشعب وعاداته وأخلاقه، والحرية التي كان عليها، ناهيك بالنقص المعنوي الماثل لدى أولئك الجنود الذي لم يطل عهدهم عن المناجم، ولم يحشروا أو يتعرفوا من هذا العالم غير الآلة الصامتة، والأداة الحديدية، وفي الوقت نفسه يغمرهم الغرور إنهم في عداد أبناء المدينة الحديثة، والنجفي يحس أنهم أبعد عن الأخلاق البشرية والمسالك الأدبية التي تمثل الإنسان الحقيقي، وبتعبير أصرح فكأن السلطة وأربابها بعد الثورة أبت أن تزيد الطين بلّة، وأن تنزع ثوب المدنية الشفاف.

ماذا يهمنا من أمر السلطة، وما جنته على سياستها وعلى النجف بما أتته من سيء الأعمال قبل الثورة وخلالها وبعدها، والذي يهمنا أن نشكر تلك الدعاية النجفية الصارخة التي أحكم بثّها أناس يناهز عددهم الأربعين ألفاً، كلهم جادّون في إذاعتها

بعد فك الحصار؛ تلك الدعاية التي صدمت السياسة البريطانية، وأحلّت محلها من الحقد ما لا تقدر على محوه الظروف والأزمات، ولا أظنني في حاجة إلى بيان النتائج المباشرة لتلك الثورة النجفية التي لم ينصفها التأريخ.

لو أراد البحاثة المؤرخ أن يتصفح مآسي الثورة النجفية لعرف عوامل انتباه الشعوب ويقظتها، وكيفية نضوجها، فتنهض للذود من حياضها، كما يتعرف إلى العوامل النفسية الفعّالة التي دفعت النجفيين للعمل على إيقاد نيران الثورة العراقية ضد الإحتلال، وأيضاً يتعرف إلى الدوافع والدعائم المباشرة المحسوسة التي حملت الفراتيين على القيام بتلك الثورة العظمى، والتضحية الكبرى بنوع خاص.

وعليه فسوف يستريح الباحث المحلل من عناء البحث والتنقيب عن عوامل الثورة العراقية المباشرة، ولا يتورط بما يشير إليه الكتّاب البريطانيون عن عوامل الثورة في إنها تركية قام بها قسم من ضباط الترك، وإنها بلشفية أو فارسية. وكان الأحرى بهم أن يقولوا: إنها كوفية، نبتت في تراب الكوفة، ونشأت عواملها، وثارت براكينها في هذه البلاد التاريخية.

الآن وقد أسدلنا الستار على مشاهد هذه الثورة، وختمنا فصولها، فهل آمن القارىء معنا أن الثورة النجفية هي قبس الثورة العراقية، وإنها مبعث إنقلاب العراق؟

عوامل الثورة النجفية ١٩١٨ ضد الإحتلال[1]؟

لم تقم الثورات بين الناس بسهولة ويسر، بل لا بُدّ لها من مؤهلات نفسية ومادية تقومها، ومن عوامل خارجية فعّالة تدفع بالأمة أو القوم إلى ولوج مسالك التضحية الوعرة، ولم ينغمر الناس يوماً في أواسط نيران الثورة لمجرد إرادتهم ورغبتهم لا سيّما إذا كانت ضد حكومة قوية مسيطرة، وبنوع أخص إذا كان لتلك الحكومة ثقة متمركزة لدى الأمة ومغلغلة في النفوس.

ومن هنا ندرك صعوبة دراسة عوامل الثورة النجفية ضد الإنكليز أولئك القوم الذين

---

(١) ـ نشرت بعض فصول هذا البحث في مجلة البيان النجفية، السنة الأولى ١٩٤٦.
ولغرض البحث في التفاصيل، انظر كتاب: «النجف الأشرف ومقتل الكابتن مارشال ١٩١٨» للمحقق.

سلكوا مختلف الأساليب والطرق لبث دعوتهم في العراق وبذلوا الغالي والرخيص قبل الحرب العامة بزمن بعيد وخلالها أيضاً، ولكنا سنعرض العوامل التي وقفنا على تطورها في وقته ما أستطعنا إلى ذلك سبيلاً:

١ـ زوال الثقة بالإنكليز:

لقد بدأت تتقلص الثقة بالإنكليز من نفوس السواد النجفي العام تدريجاً في بحران خلو النجف من حكومة ما، أو عندماحكمت نفسها بنفسها في بحران سنة ١٩١٥م، وفي خلال السنتين ١٩١٦ ـ ١٩١٧م، فقد كان التجار النجفيون يحملون مع بضاعتهم من البصرة بضاعة أخرى هي أساليب الحكم الإحتلالي الكيفي هناك.

فلم يكن هؤلاء التجار مثات بل ألوفاً بحيث يصح أن نقول أن التجارة تحول مجراها عن بغداد إلى النجف وأشغلت النجف مكانة بغداد التجارية ـ وأصبحت إحدى أسواق البصرة ـ وكان هؤلاء الألوف يحتكون بالإنكليز بحكم تجارتهم التي لا تصل إلى النجف إلا بعد تحمل أنواع العذاب من الإنكليز، وألوان المغامرة في طريق الفرات البري والنهري الممتلىء ـ بالعشائر المتمردة إضافة إلى الجيوش التركية المتربصة ـ.

وكان من السهل عليهم أن يقارنوا بين الجيشين والحكومتين، غير أن صدى مشاهدات هؤلاء التجار كان خافتاً أمام قسوة العثمانيين في الكارثة التي مثلها عاكف بك في الحلة. وفي كربلاء في آواخر سنة ١٩١٦م ولكن لم يلبث هذا الصدى أن راج في أوائل سنة ١٩١٧م، وأصبح سمر المجالس النجفية هو تلك الأوامر والضرائب والأعمال التي ينفذها الإحتلال على البصرة والناصرية وما إليهما بقسوة في حين أن النجف تزدهر بحرية كاملة لم تحلم بها من قبل، وزعماء النجف ينصّب عليهم الذهب إنصاباً بإسم المتاجرة مع الإنكليز، وبإسم الجهاد من العثمانيين المتسابقين فيخطب ودهم.

هكذا أخذت تتحطم الثقة بالإنكليز من نفسية السواد الذي عليه وحده المعلول في نهضات الشعوب، فإن الطبقة الخاصة لا تنجح في أعمالها إلا إذا أسندها السواد ودعمها، فقد كانت الطبقة الخاصة بالنجف تعمل على مكافحة الدعاية البريطانية منذ اعلان الدستورين الإيراني والعثماني عام ١٩٠٨م وبذلت قصارى جهدها فلم تفلح بل زاد نشاط الدعوة، وتمركزت الثقة بالإنكليز في نفسية السواد، على أن هذه الطبقة لم

تكن قليلة العدد أو المكانة بل كان في ضمنها كثير من علماء الدين وأتباعهم وحاشيتهم إضافة إلى طبقة المتجددين الذين انتموا إلى الأحزاب السياسية القائمة أنذاك.

كما وقد رأينا هذه الطبقة أول من شايع العثمانيين خلال الحرب العامة وانضم إلى صفوفهم بدون قيد ولا شرط، ومع ذلك كان اثرها على نفسية السواد النجفي ضئيلاً بدليل ثورة سواد النجف ضد العثمانيين أنفسهم خلال سنة ١٩١٥م في حين إنغماس الطبقة الخاصة بين خطوط القتال في جنب العثمانيين.

نعم، كان لها أثر كبير على العشائر الذين لم تنلهم قسوة العثمانيين فدفعت بهم إلى الجهاد باسم الدين وسندت بهم الجيش العثماني، وعلى الإجمال كان تاثيرها على نفسية السواد النجفي ضئيلاً نسبة، غير أن مشاهدات أولئك التجار النجفيين وأحاديثهم في أهوال وقسوة حرب الإنكليز التي اصطلى بنارها بعض النجفيين، تظافرت هي ونظرية الطبقة الخاصة، وعندها تمكنت من إزالة الثقة بالإنكليز وكبح جماح الدعاية الإحتلالية عن نفسية السواد النجفي العام.

٢ـ زوال الثقة بالأجانب عامة:

كان للتجارب القاسية التي مثّلها الحكم العثماني بالنجف وللمشاهدات والحوادث الحربية مع الإنكليز الأثر الفعال في تكوين شعور عام لدى السواد، زالت معه الثقة بالأجانب عامة أو كادت، وقد بدأ هذا الشعور المقدس يفعل فعله في بعث الكيان القومي وفي التفلت من تلك الإستكانة المزفتة ومن تحكمات الأجانب المرهقة، غير أن هذا الشعور كان طبيعياً لا إرادياً، فهو كالشك والحيرة لا يدري صاحبه ماذا يعمل لتحقيق شعوره الذي لم يتبين معالمه ببراهين وأدلة منطقية، وعلى كل حال كان هذا الشعور مبعث الأمل اللامع وقد تجلت مظاهره عند إنتهاء دور الفترة أو عند سقوط بغداد ١٧ آذار ١٩١٧م وكانت قد ساعدته عدة عوامل أخرى خلقتها ظروف الفترة ولا بُدّ لنا من ذكر هذه العوامل كي ينبسط أمامنا الموضوع:

١ ـ الخوف من بطش الإنكليز الذي مثّلوه في منطقة الإحتلال بنفي بعض الرجال وجمع الأموال بطرق وأساليب مختلفة يعتقد التاجر النجفي إنها غير مشروعة، وربما كانت ذلك.

٢ ـ النفوذ والأمرة التي حاز عليها النجفيون بعد زوال الحكم الأجنبي وشمول هذا

النفوذ جميع نواحي الفرات الأوسط وبلوغه البصرة تقريباً.

٣ ـ الغرور والاعتداد بالنفس المنبعثة عن الشجاعة والسلاح الوفير والعدة المبتذلة، فقد اصبح في النجف ما لا يقل عن ستة آلاف مسلحاً محارباً.

٤ ـ الحرص على وضع النجف الذي كان مورداً للمتاجرة العامرة ولجباية الضرائب التي ملأت خزائن النجفيين.

٥ ـ الدور الذي قام بتمثيله معظم الطبقة السياسية المثقفة التي كانت تدين بالمبادىء العربية واستقلال العرب منذ نشأتها الأولى في الأستانة وسوريا ومصر سنة ١٩٠٩م، فقد بثت الدعاية الواسعة لإنهاء تحكمات الأجانب، وكان من أبطالها السيد سعيد كمال الدين، والشيخ علي الشرقي، والشيخ محمد رضا الشبيبي، والشيخ محمد رضا الجعفري، والشيخ عبد الحسين الحلي، وعبد العزيز الجواهري، والسيد حسين كمال الدين، والشيخ محمد حسن الشبيبي.

٣ـ العوامل المباشرة للثورة:

في بحثنا السابق أتينا على العوامل غير المباشرة للثورة النجفية، أو أتينا على العوامل التي أزالت عن النفسية النجفية تلك الثقة العمياء بالإنكليز، وبما أن زوال الثقة لا يمكن ان يكون عاملاً على إيقاد نار الثورة. فعلينا أن نبحث عن العوامل المباشرة لإيقاد نارها، وها نحن نسرد العوامل، مراغب تطوراتها وتسلسل حوادثها، وهذه هي:

١ ـ صادف بعد مجيء حاكم الإحتلال السياسي إلى النجف في شهر نيسان سنة ١٩١٧م أن انتهبت جماعة عطية أبوگـلل (بكاف فارسية) أحد زعماء النجف قافلة تجارية لقبيلة عنزة المشايعة للإنكليز من جماعة فهد آل هذال أحد زعمائها، وكان الدافع لهذا الإنتهاب هو إمتناع القافلة عن تأدية الضريبة (الخاوة) إلى عطية، الأمر الذي أوجد إستياء الحاكم البريطاني.

٢ ـ بعد ذلك الحادث إتهم الإنكليز الشيخ عطية بالمتاجرة مع العثمانيين في المواد المحرمة(القلاي والزئبق) وذلك حسب شهادة تاجر من أهالي قرية (كبيسة) الذي اشترى تلك المواد من عطية نفسه ونقلها تحت حمايته من النجف، ثم سلمها إلى الإنكليز رأساً بصفته جاسوساً، الأمر الذي بعثَ في نفس عطية

الخوف والتظاهر بالامتعاض من الإنكليز.

٣ ـ نفوذ زعماء النجف وعدم إفساحهم المجال للحاكم البريطاني في تشكيل الحكومة وممارسة السلطة كما يرغب إليه الإحتلال.

٤ ـ حركات جمعية النهضة الإسلامية السرية المؤسسة من غير ذوي المبادىء العربية تحت إشراف الشريف السيد محمد علي بحر العلوم ومباشرة الشيخ محمد جواد الجزائري، ثم قيام هذه الجمعية بنشر المناشير وتعليق الإعلانات المنددة بالسياسية الإحتلالية وإتصالها [تحريرياً برئيس قلم الاستخبارات العسكري الألماني الكبتن (بريسل) في عانة بوساطة عجمي باشا السعدون الذي كانت منازله في اللصف ـ شمال غربي النجف ـ بما يناهز (٩٠ ميلاً)][1]، بالحاكم العسكري (أحمد اوراق) ومع قائد العشائر عجمي بك السعدون في الجيش العثماني الإسلامي.

٥ ـ تعزيز الإنكليز شرطتهم المحلية بمفرزة هندية حلت الكوفة تثبيتاً لمركز حكومتهم المستحدثة وقيامها بحركات استفزازية بأن تتجول حول سور مدينة النجف يومياً مما بعث الريبة ورواج الشائعات أن الإنكليز يريدون بالشيخ عطية سوءاً، وذات يوم اجتازت الجبّانة من الشرق إلى الغرب مما يلي نهاية محلة العمارة، فأطلق جماعة عطية الرصاص في وجهها وشاع أنه قتل جندي وجرح أخر، والمفرزة لم ترد على النار بمثلها، ولم يتخذ الحاكم اي إجراء ضد هذا الحادث واكتفى بتعزيز مفرزته بأخرى.

٦ ـ وبعد مرور أيام على الحادث حلقت طائرة في سماء النجف لإرهاب المعتدين فانتهز أعضاء جمعية النهضة هذه الفرصة لتوسيع شقة الخلاف، فرموا الطائرة بالرصاص، ولكن السواد النجفي العام لم ترق له هذه الاعتداءات على الإنكليز المنتصرين لا سيّما الطبقة غير المسلحة والطوائف الأجنبية والطبقة المسلحة المعادية إلى عطية والحاسدة له على مكانته لدى الإنكليز أنفسهم فإن هذا

---

(١) ما بين المعقوفين منقول من خط السيد محمد علي كمال الدين ـ مؤلف الكتاب ـ وأما المثبت في شعراء الغري ٧/ ٣٥٩ نصه: «واتصالها بالحاكم العسكري (أحمد اوراق) ومع قائد العشائر عجمي بك السعدون في الجيش العثماني الإسلامي».

السواد النجفي العام بالرغم من زوال ثقته بالإنكليز لم يَرَ ضرورة لإعلان العداء، إضافة إلى الخشية على البلد الآمن المطمئن من حرب الإنكليز الأقوياء، فتجمهر السواد مع الأشراف والأعيان والزعماء الآخرون وهددوا عطية ووبخّوه وطلبوا إليه أن يبارح البلد كي لا يكون سبباً لإيقاد الفتنة مع الإنكليز، وقد اعتذر هو أنواع المعاذير [مدللاً على براءة ساحته وعدم عدائه للإنكليز، فأكتفى الإنكليز بذلك، وتدرعوا بسياسة المجاملة وغضوا الطرف مؤقتاً عن تلك الاعتداءات][1].

٧ ـ وعقيب شهرين من ذلك الحادث هدأت النجف وأطمأنت وكادت تتناسى تلك الحوادث، وإذا بالحاكم (بلفور) الذي انتصر جيشهم أخيراً في شمال سامراء يطلب حضور عطية وكاظم صبي ـ أحد زعماء النجف ـ وكريم بن سعد الحاج راضي وهو زعيم ثالث، لديه فيطالبهم بقضية إنتهاب قافلة عنزة مجدداً، وفي الوقت نفسه يعمل على تحقيرهم وإغضابهم بوسائل صبيانية بأن أقامهم وأقعدهم عدة مرات متوالية فأدى ذلك إلى الشجار مع كاظم صبي، وسرعان ما أنتشر في السوق الخبر، وتجمهر المسلحون من جماعة هؤلاء حول دار الحكومة ـ السراي ـ (وكانت بناية البرق والبريد اليوم)[2].

وكان اتباع هؤلاء الشيوخ الثلاثة هم من أكثرية المسلحين النجفيين، وكانت جمعية النهضة قد تكاثر منتسبوها من حملة السلاح فانتهزت فرصة هذا الشجار وعمدت على توريط النجف، فأنتهب بعض رجالها كراسي مدخل (السراي) ولكن الأشراف والأكابر والزعماء الآخرين سرعان ما أطفأوا الفتنة وحرسوا الحاكم رافقوه حتى عند سفره إلى الكوفة عصراً.

---

(١) ما بين المعقوفين من خط السيد محمد علي، وأما المثبت في شعراء الغري ٧/ ٣٥٩ ـ ٣٦٠ نصه: «... والمعاذير بان يرمي المفرزة لم يكن بأمره أن الضربية (الخاوة) يشترك فيها جميع شيوخ النجف علاوة على إنها لا تختص في النجف وإنما يجيبها كل الفراتيين في مناطقهم، وأنه لا يزال على صداقته مع الإنكليز بدلالة وجود عزيز خان أخ حميد خان مع افراد آخرين بين أسحابه المسلمين، فاكتفى الحاكم الإنكليزي بهذه المعاذير وتذرع بسياسة اللين مؤقتاً غير ناس قضية المتاجرة بالمواد الممنوعة وهذه الغطرسة والغرور».

(٢) أي يوم كتابة البحث.

٨ ـ لم تكتف الجمعية بما قامت به أثناء الفتنة بل أرسلت في وقته أحد منتسبيها (عباس الحاج نجم) لإثارة مدينة (أبو صخير) وقتل الكولونيل لجمن فلم يعثر عليه ولكنه هجم على السراي وحرقه فانحلت حكومته، وعلى أثر هذا الحادث جلبت الحكومة المحتلة إلى الكوفة قوة هائلة بالنسبة إلى مدينة كالنجف وطبقوا إدارتهم وسلطتهم المطلوبة واكتفوا في معاقبة عطية بجلائه وأسرته من النجف إلى البادية وقصورها بعيداً وذلك في أواخر سنة ١٩١٧ .

٩ ـ كان جيش الإحتلال ثقيلاً على النجفيين في حركاته الاستفزازية واستعراضاته ومعاملاته وكانت تحكمات الحاكم وأذنابهم في ممارسة السلطة أشد ثقلاً وأنكى، ولكن الخوف أضطرهم إلى الإستكانة على مضض وإلى طمر ذلك السلاح الجميل الذي رافقتهم معه العزة والغطرسة طيلة ثلاث سنين تقريباً .

وليس ينسى النجفيون مشهد التشهير الذي دعاهم إليه منادي الإحتلال العلني فغص بهم عند الميدان والمتارب المحيطة به حتى قبر سيد عزيز ـ في وسط الميدان ـ فقد عروا شاباً من ثيابه وهو من الأُسر المعروفة وجلدوه على عجزه لمخالفة نُسِبت إليه، ولم يبق لدى النجفيين طريقة إزاء هذه القوى الرهيبة والجيوش الجرارة الخشنة إلى أن عمدوا إلى الكتمان في المحالفات والموادعات بينهم من جهة . وبينهم وبين بعض العشائر الريفية المتوقفين ساعة النكبة من ذلك الحاكم السياسي الذي وقع معه الشجار والتجمهر المتقدم بحثه .

١٠ ـ وكان الجو ملائماً لحرب النهضة السري فأكثر مشايعيه، وكوّن حزبين ـ سياسياً، وحربياً ـ يرتبطان كل الارتباط بوسطاء منهم أحد الأعضاء النشطاء المخلصين السيد إبراهيم السيد باقر؛ فقد قام بعدة أعمال أهمها أنه زود عباس الحاج نجم بتقارير أوصلها إلى مدينة (عانة) لجلب التعاليم والاستعانة بالجيش العثماني في حين أن الإنكليز باشروا بتغير خطتهم وسحب الجيش من النجف، وربما كان ذلك لضرورة عسكرية . غير أن الراجح أنهم لم يدركوا خطر الحزبين لم يتصل بهم خبرهما، ولذلك اكتفوا بالشرطة المحلية وإيفاد حاكم أديب طيّب الأخلاق مستشرق هو الكبتن (مارشال)، وبذلك نشطت أعمال الحزبين وأنشأ الحزب المسلح فروعاً في الكوفة و(أبي صخير) والحيرة

والشامية، وقرورا إيقاد نار الثورة في يوم معلوم، ولكنهم حاولوا إدخال بعض الكربلائيين في حزبهم فانتدبوا لهذا الأمر السيد إبراهيم فكان الكربلائيون سبباً لانكشاف السر.

هذه هي معظم العوامل المباشرة التي أوقدت نيران الثورة النجفية ضد الإحتلال ومن خلال حوادثها يتضح للقارىء، إن الثورة نتيجة سعي حزب معين بدون علم اكثرية السواد النجفي وبدون رغبة من الطبقة الخاصة ولا سيّما طبقة العلماء والتجار وأرباب الثراء سواء العزل من السلاح أو الذين أجبرتهم أوضاع الحرب على التسلح به وهم له كارهون.

أما حملة الفكر العربية أو الائتلافيون ـ حسب اصطلاح ذلك العصر ـ أمثال من تقدمت أسماؤهم، وفاتنا أن نذكر من بينهم الشيخ محمد رضا الشبيبي، والشيخ محمد حسن حيدر، والشيخ محمد حسن بن الشيخ محمد رضا الشبيبي، والشيخ علي الشرقي، والشيخ باقر الشبيبي، ومن يتبعهم من الشباب وأبرزهم أحمد الصافي، وسعد صالح، وعلي الشيخ عبد علي الكتبي، وصاحب المقال، فقد كانوا على اتصال وثيق بحزب النهضة سراً ينشطونهم لغرض إيقاع الفتنة بين السواد النجفي والإنكليز، ولكن اختلاف المبادىء حال دون الاشتراك الفعلي.

وهنا تتوارد على الخاطر أسئلة على جانب عظيم من الأهمية تتعلق في عوامل تبدل هذه النفسية النجفية الموادعة للإنكليز بعد مضي سنتين اثنتين من تأريخ هذه الثورة التي تؤرخ لها أي عند سنة عشرين عند ثورة العراق الكبرى، وهذه هي الأسئلة، كيف أصبح النجفيون بعد مضي سنتين حاقدين معلنين عداءهم للإنكليز؟ كيف أجمعت كلمة النجفيين عامة على التضحية بكل شيء للنكاية بالإنكليز؟

إن الذي ساقنا إلى عرض هذه الأسئلة هو وجود الأجوبة عليها واضحة في حوادث هذه الثورة النجفية الموجعة، وفي صورها المفترعة، ونتائجها المباركة فيما جرى فيها من فجائع ومآسي على مسرح هذه المدينة المقدسة.

نعم، إننا سنعلم لماذا أبلى النجفيون عامة أحسن البلاء في الثورة العراقية، ولماذا كانوا هم السّباقون فيها، وإليك يا آبن النجف بعض ما حل في بلدك الأمين، ففي ثورة النجف التي تدعوها (ثورة حاج نجم)، وإليك فصول من هذه المأساة مع ما يتعلّق بها

ويتخلل فيها من مفاوضات وأحداث وملابسات وآراء وأنباء محاولين أبرازها حقيقة تأريخية كاملة للناظر والأسباب والمسببات والنتائج:

فصـول المأسـاة:

والآن نعرض عليك أيها النجفي، فصول هذه المأساة مع ما يتعلّق بها ويتخلل فيها من مفاوضات وأحداث وآراء وملابسات، محاولين أبرازها حقيقة تأريخية كاملة للناظر والأسباب والمسببات:

١ـ تفاقم الأمر وتدبير الثورة:

لقد تفاقم أمر الحزبين السياسي والدموي حتى بلغ أعضاء الحزب الدموي المائتين من الشباب المسلحين بينهم بعض أولاد شيوخ النجف إضافة إلى الشيخين كاظم صبي، وعباس علي الرماحي، وكانت كتل الحزب ثلاثاً:

١ـ كاظم صبي، وعباس الرماحي.

٢ـ كتلة الحاج نجم.

٣ـ كتلة أولاد سعد الحاج راضي.

وأكثر الكتل تحمساً الثانية فالثالثة، ويظهر لنا أن الحاج نجم كان على علم من استخبار الإنكليز بمقررات الحزب لذلك فاجأ الحزب بخطة نظمها وأوعز إلى جميع الأعضاء أن يجتمعوا عند منتصف الليل لتنفيذ خطة الهجوم على دار الحكومة تلك الخطة المقررة مبدئياً في جلسات سابقة متعددة، فوافق قسم عظيم من الأعضاء، وأتفقوا أن يكون مقر إجتماعهم جبّانة النجف قرب دار الحكومة على أن يستعملوا كوفيات بيضاء وهي زي الشرطة المحلية (شبانة) التي شكلها الإنكليز فحضر منهم ما يناهز المائة على أن معظم الحضور فضلوا أن يكونوا قوة احتياطية حول دار الحكومة، فقسمهم الحاج نجم إلى قسمين قسم في بناية المدابغ المجاورة إلى دار الحكومة من الجهة الغربية، والقسم الثاني من الإحتياط اشغل دار الحكومة (السراي) الحالية، و«كانت هذه الدار فارغة حينذاك والحكومة تشغل خان عطية أبوگلل الذي هو مركز الشرطة الآن»[1]، إن الذي اختار الهجوم منهم لا يبلغ عددهم العشرين وتسللوا

---

(١) أي عند كتابة هذا البحث. =

إلى باب دار الحكومة حوالي الساعة الواحدة بعد منتصف الليل من يوم ١٩ مارت سنة ١٩١٨م الموافق ٦ جمادى الآخرة سنة ١٣٣٦هـ وقد عرفنا منهم الذوات الآتية اسماؤهم[١]:

= وفي أحدىٰ أوراق السيد كمال الدين ما نصه: «وقبل أن يخرجوا من البلد كانوا مجتمعين في بيت عبد حميمة وهو في محلة الحويش قرب بيت زوين.

خرجوا من البلد الساعة ٥ ليلاً اي بعد أذان المغرب بخمس ساعات، وهم مائتان تقريباً، وطريقهم من جانب المهدي، وعندما اقتربوا من الأفيز لم يبق منهم إلا مائة، وتفرق أو فر الباقون، وعند ذلك عارض بعضهم في الاشتراك بالهجوم زاعماً أنهم يبقون خارجاً ليقابلوا العسكر فيما إذا لم يفلح المهاجمون، ولذلك طلب مهم الحاج نجم أن ينحازوا فانحاز معظمهم، وعندها قسمهم قسمين: قسم احتل المدابغ والآخر احتل محل السراي الذي كان فارغاً... والكل كانوا لابسين الكوفيات علامة أنهم شبانة».

(١) جاء في ثورة النجف للأسدي ص٢٤٥ نقلاً عن عودة الشكري، أن عدد المهاجمين سبعة وعشرين شخصاً منهم:

١ـ الحاج نجم البقال.
٢ـ عودة الشكري.
٣ـ عبد حميمة.
٤ـ مجيد دعيل.
٥ـ جودي ناجي.
٦ـ محسن أبو غنيم.
٧ـ السيد جاسم طبار الهوى.
٨ـ صادق الأديب.
٩ـ حميد عيسى حبيبان.
١٠ـ حسين كنو (ابن خالة حميد حبيبان).
١١ـ مطرود الجعباوي.
١٢ـ هادي الحسن الحداد.
١٣ـ السيد جبر (ابن أخت الحاج نجم).
١٤ـ السيد سعدون العامري.
١٥ـ عبد عويد العامري.
١٦ـ خطار العبد.
١٧ـ حميد أبو السبزي.
١٨ـ عبد الحمامجي.
١٩ـ حبيب (صانع السيد منصور الرفيعي).
٢٠ـ كريم الطيّار النذّاف.
٢١ـ حسين كور (الملقب حسين العرب). =

١ ـ الحاج نجم البقال.
٢ ـ محسن أبو غنيم.
٣ ـ مجيد بن الحاج مهدي دعيبل.
٤ ـ حميد عيسى حبيبان.
٥ ـ عبد حميمة.
٦ ـ علوان البودليهم الفتلاوي.
٧ ـ عبد الحمامجي.
٨ ـ سعد العامري.
٩ ـ صادق الأديب.
١٠ ـ شمران العامري.
١١ ـ حميد أحمد ياسين أبو السبزي.
١٢ ـ السيد جعفر السيد حسن الصايغ.
١٣ ـ حسن من البو جوري.
١٤ ـ حبيب بن جاسم خضير.
١٥ ـ خطار بن سلطان البديري.
١٦ ـ جودي ناجي.
١٧ ـ جاسم السيد محمد علي طبار الهوى[١].

٢ـ الاطلاقة الأولى:

لقد طرق الحاج نجم باب (السراي) فردّ على الحارس الهندي بادعائه أنه بريدي (بوسطة) وسمّى نفسه حسن الگصراوي (وكان حسن هذا شرطياً محلياً من أهل القصور في بادية النجف ومهمته نقل بريد الإنكليز المنبثين في الشامية) وعند فتح الباب عاجل محسن أبو غنيم ذلك الهندي بطعنة خنجر أردته قتيلاً، ولما ازدحمت العصابة في

= ٢٢ـ مشكور بن بجاي العامري.
٢٣ـ السيد مهدي السيد حمادي.

(١) في هامش البحث: «جاسم السيد محمد طبار الهوى، دخل الأنيز بدون سلاح، ويدعي أهل الحادث بأنه كان جاسوساً ولذلك لم يتسلح...»!!.

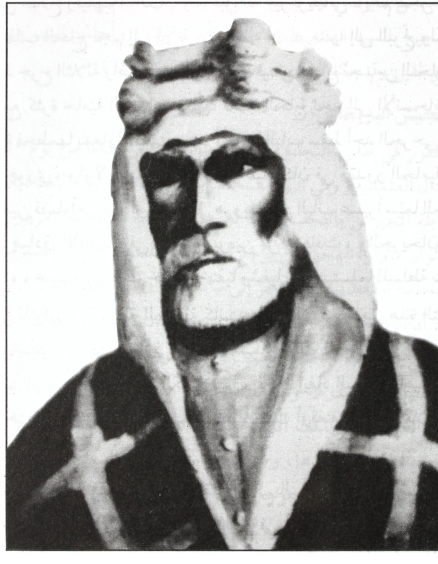

الحاج نجم البقال

المدخل صوب الكابتن مارشال مع رفيقيه مسدساتهم على المهاجمين ـ وكانوا مضطجعين في أسرة النوم وسط الساحة ـ ولكن العصابة سبقتهم بإطلاق النار فخروا في الأرض وأجهز الحاج نجم عى مارشال.

وفي ذلك اليوم نشرت جريدة (العرب) في بغداد لسان حال الإحتلال بلاغاً رسمياً يتضمن أن الثوار قتلوا الحاكم مرشال وجرحوا ضابطاً آخر.

وقد أغفل البلاغ رفيقهم الثالث ـ وقد قيل أنه غير بريطاني ـ ولم تتجل لي الحقيقة وعلى الأثر طلب الحاج نجم إلى ثلاثة من رجاله أن يصعدوا إلى البرج ولكن رشاش البرج المتيقظ جرح الثلاثة واضطرهم إلى النزول فيئس الحاج نجم من النجاح لقلة عدد المهاجمين مع كثرة حامية البرج وتحصنها فعمد الحاج نجم إلى الإنسحاب من باب جانبية صغيرة فحطمها بمعاول كانت معهم، وعند الباب سقط أحد الجرحى الثلاثة ميتاً وهو حسن جوري، ولولا نار العصابة الاحتياطية لكان في مقدور الحامية أن تقضي على المهاجمين قضاءاً مبرماً، أو أن تجعل هروبهم من الباب عسيراً سيّما الجرحى وقد توفي منهم ـ صادق الأديب ـ في بيته بعد يومين من الحادث، والجريحان الآخران، حميد حبيبان، وحبيب بن جاسم خضير اختفيا وشفيا ولم يستسلما للسلطة بتاتاً.

وقد ظهر للثوار أن السلطة المحتلة كانت على علم من تدبير هذه الثورة وذلك بواسطة الجواسيس في النجف وفي كربلاء سيّما أولئك الذين تجلى لهم الأمر من تشبث إبراهيم السيد باقر في إثارة الكربلائيين، فكان إيفاد السيد إبراهيم إلى كربلاء وبالاً على الحزب وعلى السيد إبراهيم شخصياً حيث أوقفته شرطة كربلاء قبل الثورة بيوم.

وعند بزوغ شمس ذلك اليوم وبعد مقتل حاكم النجف مارشال أسرع حاكم لواء الشامية والنجف الميجر (بلفور) من مقر اللواء في الكوفة إلى النجف، وضع خطة للدفاع عن الحامية، وفي عين الوقت استخدم دهاءه وحنكته وجرأته بأن تظاهر في نفي التهمة عن مدينة النجف وأن الهاجمين عصابة غريبة عن النجف، ثم دار في أسواق البلد وقابله رئيس البلد السيد مهدي السيد سلمان، فأقرّه على ما تظاهر به حتى أن المنادي نادى بأمر بلفور بأن يفتح الناس حوانيتهم ويعودوا إلى مزاولة أعمالهم ولكن الشرطة التي وزعها الحاكم على المحلات صادف قسم منها في محلة المشراق أفراداً

مسلحين من الحزب وهم أولاد سعد واتباعهم فتحرش الشرطة بهم وتبادلوا إطلاق الرصاص فقُتِل شرطيان ولكن أولاد سعد لم يكتفوا بذلك بل سارعوا هم وابتاعهم إلى الميدان وأطلقوا الرصاص على بلفور نفسه وذلك عند رجوعه من السوق غير أنهم أخطأوه.

أما الشرطة المنبثة في المحلات فسرعان ما استولى النجفيون على سلاحهم، وكان معظم أفرادها من أخواننا الإيرانيين الذين لم يجربوا السلاح والحرب، ولذلك بادر أكثرهم مستجيراً بالسيد مهدي السيد سلمان فأجارهم، وأحسن إليهم هم وعائلاتهم مع سائر الموظفين وقد مكثوا في بيته حتى نهاية الثورة.

٣ـ زحف الجيش البريطاني:

أسرع بلفور في طلب النجدة وغذا بالجيوش تتابع إبتداءاً من يوم ٢٠ آذار تاركة ساحات القتال العثمانية، وفي اليوم نفسه نشرت جريدة (العرب) البغدادية بلاغاً رسمياً يتضمن احاطة الجيوش بالنجف، كما نشرت الجريدة نفسها بعد مرور يومين بلاغاً رسمياً أن الثوار حاولوا الهجوم في يوم ٢١ منه فلم يفلحوا، وأظنه يقصد محاولة الثوّار حرق باب الحامية بالنفط ليلاً الذي جَرّ إلى تبادل إطلاق الرصاص طبعاً.

أما عدد أفراد الجيش الزاحف فلا أظنه تجاوز الثمانية الآف ضارب نار، غير أن التظاهرات التي يقوم بها الجيش الإنكليزي عادة وحركة النقل السرية والعلنية وكثرة المعدات والسيارات المدرعة والعربات والطيارات وما يتبعها من عمال وخدم كان يخدع أبصار الفراتيين، ولذلك أقل تخمين شاع بينهم وهو أربعون ألفاً، وقد اشغل الجيش شواطىء الكوفة ودورها، وضرب خيامه واسلاكه الشائكة في طريق الكوفة إلى النجف كما ضربها كذلك في جنوب الكوفة وشماليها. وتمركزت القوة المحاربة في مقام (كميل بن زياد) التابعي الشهير، والذي يبعد عن النجف أكثر من كيلومترين، وانتهك الجيش حرمة هذا التابعي البطل الصالح بأن جعلت من قبته وكراً للمدفعية، واشغل الجيش متارب الجدول الممتد من مشرعة (علوة الفحل) على الفرات شمالي الكوفة إلى النجف، وحفروا خنادق في القسم الجنوبي منه، فكان هذا الجدول خير خط يتصل بالحامية المحاصرة، ولكن مما وراء (المهدران) الذي يحاذي مقبرة السيد عزيز الياسري وهذا الجدول يُعرف بـ (كري الشيخ).

٤ـ وساطة العلماء:

جاء في بلاغ رسمي نشرته جريدة العرب: إنَّ العلماء في يوم ٢٢ منه خاطبوا رجال السلطة المحتلة يرجون التساهل مع النجف، فكتب حاكم اللواء إلى العلامة السيد كاظم الطباطبائي يستنكر أعمال النجفيين ويحرض العلماء على مساعدة الحكومة للعمل على إستتباب الأمن، كما أرسل الحاكم الملكي العام في العراق كتاباً مؤرخاً ٢١ منه وهذا نصّه:

إلى حضرة آية الله الحاج سيد محمد كاظم الطباطبائي دامت بركاته.

لقد اصدر صاحب الدولة قائد الجيش العام الأوامر اللازمة بإخماد الفتنة التي وقعت في النجف الأشرف، وكدرت خاطره كثيراً، وقد أصدر أيضاً الأوامر بإلقاء القبض على المفسدين الذين سببوا هذه الفتنة وبالمحافظة على سمعة البقعة المباركة الشريفة وسمعة حضرات العلماء الأعلام دامت بركاتهم والمجاورين لذلك البلد الطاهر. ولا شك في أن القبطان (بلفور) سيطلع حضرتكم على هذه الأوامر التي إن لم يطعها أهالي النجف الأشرف ويرضخوا لها فلا بُدّ أن تحصل بواسطتهم المضايقة على حضرات العلماء الأعلام الساكنين في النجف الأشرف، وأنا على يقين بأنكم ستساعدون السلطات البريطانية وتعاونونها بثاقب فكركم وعالي همتكم وحسن نيتكم على تهدئة أحوال البلد الطاهر، وإخماد الفتنة الحالية إذ إنّكم تعرفون حق المعرفة حسن نية الحكومة المعظمة ومساعيها الكثيرة التي تبذلها لإعلاء المبادىء التي يدين بها أهالي العراق وإنقاذ شعوبه من المظالم والمفاسد السابقة، وإنا لمنتظرون نتيجة مساعيكم المشكورة أدامكم المولى ملاذاً للإسلام والمسلمين.

في ٢١ مارت سنة ١٩١٨ التوقيع

الحاكم الملكي العام في العراق

عند ورود هذا الكتاب سرّاً بواسطة السيد مهدي السيد سلمان ـ الوسيط بين الطرفين ـ تهامست الطبقة الخاصة مستنكرة حماقة هذين الحاكمين بطلبهم العون من علماء الدين المجردين من السلطة الزمنية، والعزل من السلاح، والمحرومين من النفوذ بين جميع رجال السلاح من النجفيين وهم طبقة (المشاهدة) من الزكرت والشمرت، وكان هذان الكتابان أكبر دليل على ضعف السياسة البريطانية عطفاً على

السيد محمد كاظم اليزدي

السياسية العثمانية فقد أضاعا عليها عدداً كبيراً من المناصرين الأقوياء، ونشطا حزب الأحرار الائتلافيين على العمل للإستقلال عن هذه الأمم الحمراء.

٥ـ شروط السلطة المحتلة:

نشرت جريدة (العرب) أنه عقد في ٢٢ مارت المصادف ٨ جمادى الأخرة مجلس مختلط من الحكّام البريطانيين وبعض المشايخ، وبعض العلماء الأعلام وهم صنايع الإنكليز المعروف حينذاك بعلماء (الأفيز ـ دار الحكومة) فقرروا الشروط الآتية:

١ ـ تسليم القتلة ومن أشترك معهم بالفتنة تسليماً مطلقاً بدون قيد ولا شرط.

٢ ـ تسليم غرامة حربية هي ألف بندقية، وغرامة نقدية هي خمسون ألف روبية (٣٥٠٠) دينار تقريباً على أن يجمعها الشيوخ المخلصون من محلات النجف التي كانت لهم يد في الفتنة.

٣ ـ تسليم مائة شخص من المحلات الثائرة إلى الحكومة المحتلة لتسفيرهم من النجف بصفتهم أسرى حرب.

كما أن أولئك الحكام عقدوا وقرروا وابلغوا من حضر المجلس بأن النجف ستبقى محاصرة حصاراً شديداً إلى أن تنفذ الشروط.

هذه هي مقررات المجلس المختلط التي أعلنتها جريدة العرب.

أما نحن النجفيون فلم نسمع عن هذا المجلس اينَ اجتمع وكيف ومتى؟ وإنَّما الذي شاع بين الجماهير أمر الحصار. ونظن أن هذا المجلس قد تشكل في الكوفة فقد كانت البلد بيد الثوار ودار الحكومة شبه محاصرة فلا يمكن أن يجتمع أعضاؤه في النجف.

أما بعض المشايخ الذي أشار إليه فلا يتجاوز علوان الحاج سعدون ـ رئيس بني حسن ـ وبعض جماعته المجاورين الكوفة، ولكن من هو هذا البعض من العلماء الأعلام؟!

إن هذا البعض لا يتجاوز عددهم أصابع اليد كلهم من غير العرب العثمانيين كانوا نكرات لم يكن يعرفهم قبل الإحتلال حتى المجاور إلى بيوتهم، وقد لقبهم النجفيون حينذاك بعلماء (الأفيز) دار الحكومة، من هؤلاء الشيخ محمد أغا الهندي، والسيد أبو القاسم الإيراني الملقب نفسه بالعلامة، والشيخ الإيراني حينذاك، والسيد هاشم الهندي، والشيخ.....، والشيخ.....، ولم يكن الوسط العلمي في النجف

يضعهم في مصاف صغار العلماء فضلاً عن المجتهدين، وليس القصد من هذا البيان توهين شأنهم فإنهم يعرفون صحة ما نقول وهي الحقيقة التأريخية.

٦ـ الخطة الحربية:

لقد باشر الجيش الزاحف في شق خندق يبتدىء من كري الشيخ ـ المار ذكره ـ من نقطة فيه شمالي شرق المدينة لغرض تطويق شمالي المدينة على أن يمتد الخط فيبلغ طارات وادي المسحب وعندئذ ينقطع طريق كربلاء وصلتها بالنجف، وأيضاً شق الجيش خندقاً آخر يبتدىء من الخط الحديدي متجهاً نحو الجنوب ليقطع الطريق (أبو صخير) على أن يبلغوا به طارات البحر جنوب النجف.

وهذان الخطان يكونان ثلثي قوس الدائرة حول النجف فلم يبق إلاّ قوس الغرب وهو واد البحر وبساتينه المنخفضة عن مستوى المدينة بما يقرب من عشرة أمتار، وبما أن طرفي هذين الخطين يطلان على الوادي المذكور من جهتين فيكون هذا الوادي وبساتين النجف والجدول الوحيد لسقي النجف تحت رحمة ذينك الخطين العسكريين، وقد أضاف الجيش إلى ذلك أن جعل التلول والطرات الصخرية المطلة على البحر أوكار المدفعية ورشاشاته علاوة على الأسلاك الشائكة التي مدت مع الخطين، وقد قام الجيش بحفر هذه الخطوط منذ ١٩ منه حتى ٢١ علناً منتهزاً فرصة المذاكرات بين الحاكم والسيد مهدي، ومن بعد ذلك اتخذ الليل ستاراً لأعماله.

٧ـ التحرش بالحامية المحاصرة وخطة الدفاع:

بعدما يئس الثوار من مفاوضات السيد مهدي فكر بعضهم بالتحرش بالحامية مرة ثانية فحمل عباس الخليلي الأديب المعروف نفطاً في شكوة، وزحف مع جماعة ليلاً لحرق باب الحامية وذلك في ليلة ٢١ منه، ولكن العملية لم تنجح ولم تحترق الباب وقوبلوا من المحاصرين بنار حامية فلم يتمكنوا على الهجوم من الأبنية المجاورة، وهذا التحرش هو الذي عبرت عنه البرقية الرسمية بالهجوم كما ذكرنا ذلك سابقاً.

وعلى أثر هذا الفشل أتخذ الثوار خطة الدفاع، ولم ينازلوا الجيش الزاحف في العراء بتاتاً، وإنما تحصنوا في أبراج (السور) الشاهق المحيط بالنجف إحاطة السوار بالمعصم، وخندقوا في أعلى التل الجنوبي الشامخ والمطل على وادي البحر وبساتينه.

٨ـ شعور الفراتيين أزاء الثورة:

لـم يكـد يصـدق الفـراتيـون إن بقيـت فـي العـراق يـدٌ تستطيـع الحـركـة الأراديـة أو اللا إرادية في ذلك الظرف الملتهب، أو بقيت في العراق نفوس تجرأ على القيام في وجه جيش محتل ظافر جرار دوخ الجيوش الألمانية والعثمانية والقبائل العراقية لقد وقعت الواقعة، ﴿ليس لوقعتها كاذبة﴾، وقام أولئك الأفراد من النجفيين في وجه ذلك الجيش وحكومته المسيطرة ولا ندري هل كان الفراتيون على علم من حقيقة الثورة والثوّار، وأنَّ حزباً وعصابة قامت بهذه المحاولة وحدها دون أكثرية النجف أو دون رغبة أكثرية النجفيين ما عدا البعض الذين كانوا على صلة بالحزب.

وعلى كل لقد تجاوبت شواطىء الفرات أصداء صوت النجف المدوي، وعلم الفراتي أن هذا النجفي الصلب العود ثار في وجه هذا المحتل الجديد، وأنَّ هؤلاء النجفيون وإن كانوا حضراً عادوا إلى عزتهم ولم يطيقوا الرضوخ والإستسلام أكثر من ستة شهور المنصرمة على مضض بينما بقي أبناء القبائل يرزحون تحت نير الذل والاستكانة فكان شعور أبناء القبائل باعثاً لثورة نفسية جامحة إضافة إلى ما يحمله أبناء الفرات نحو النجف من التقديس الديني والاحترام للعلم والأدب.

وكانت هذه الثورة مدعاة إلى التفكير والبحث في مصير هذه البلاد فيما إذا تمركزت هذه الحكومة ذات القوة والسلطان، وفرغت من حرب عظمى شغلتها عن تنفيذ رغبتها، ولذلك رأينا السلطة المحتلة اعتبرت النجف إحدى سوح القتال، وساقت إليها جيشاً عرمرماً وكأنها إعتبرت الفرات كان ثائراً، ولكنها مع ذلك أعلنت على لسان جريدتها المأجورة العرب في ٢٢ منه أن بعض القبائل على الفرات عرضت أن تساعد المحتلين في محاربة النجف، أما نحن فلا نستبعد صدور ذلك من بعضهم على سبيل الخداع والتظاهر الكاذب، أو لغرض استطلاع رأي الحاكم نحوهم ومعرفة تقديرهم لهذه الثورة كما إننا لا نستبعد تعمد الحكام السياسيين على الكذب.

٩ـ وساطة العلماء أيضاً:

نشرت جريدة العرب ما يأتي: في ٢٥ مارت المصادف ١١ جمادى الآخرة وصل إلى قائد الجيش العام كتاب من علماء النجف طلبوا فيه رفع الحصار ومنح الأمان والعفو العام عن النجفيين فرد الحاكم العام بالكتاب الآتي:

إلى حضرة حجة الإسلام السيد محمد كاظم الطباطبائي، وحضرات العلماء الأعلام في النجف وإلى أهاليها.

وصلنا كتابكم فأمعنا النظر فيه وأنّكم لمحقون في وضعكم بأن الحكومة البريطانية رؤوفة، وأسطع برهان على ذلك تلك الرأفة التي عومل بها النجفيون في الحادثتين اللتين وقعتا في الستة شهور الماضية، برهان آخر على تلك الخطة السليمة التي سنتبعها في تنفيذ الشروط المشترطة عليكم، فإننا لم نوقع العقاب بالأهالي الذين لم يخالفوا القانون بل أولئك الذين خرقوا حرمته ومن ساعدهم على ذلك، وفي إستطاعة النجف الأشرف أنّ تخرج سالمة من مأزقها الحالي إذا خضعت للشروط التي سبق وعرضناها ففي إمكان حضرات المجتهدين والعلماء الأعلام لا بل الأحرى عليهم أنْ يطهّروا بلدتهم من مفسديها كما وعليهم مساعدتنا على اتباع العقاب بأولئك الذين اقترفوا تلك الجريمة، وعلى من حرضوا على إرتكابها، وسوف لا تقصر الحكومة في منح الصفح متى آن الوقت المناسب.

فليتأكد سكان البلدة المسالمين بأننا سنعاملهم بالحسنى إذا أظهروا باعمالهم أنهم يستحقون منا تلك المعاملة، ولقد مضت سبعة أيام على مقتل القبطان مرشال، ومع ذلك لم يعبّر لنا أهالي النجف الأشرف عن خضوعهم، ولم يقوموا بشيء ما لإرجاع القانون والنظام إلى نصابيهما، والسلام.

يظهر للقارىء من إستهلال هذه الرسالة إنها جواب على رسالة وساطة وإستعطاف من قبل العلماء إلى السلطة شفقة على الأبرياء والعجزة والنساء والأطفال، أما نحن فلا نعرف عن هذه الرسالة شيئاً، غير أن الذي شاهدناه أن السيد مهدي كان يفاوض السلطة ويتصل بها بين حين وآخر، وأنه يتكلم بلسان العلماء والبلد بمعونة الشيخ جواد الجواهري الغيور على مصلحة البلد، ولم نسمع أن السيد كاظم تنازل فكتب بخطه مسترحماً، ومن الجائز أن تكون الكتابة تعبر عن لسانه، وبتوقيع آخر أمثال الشيخ جواد وبعض الوجهاء.

وعلى كل لقد حلل العلماء هذا الجواب تحليلاً منطقياً دقيقاً وفهموا منه أن الاتهام موجه إلى العلماء وغيرهم؛ وذلك من قوله (في تنفيذ الشروط المشترطة عليكم) وفهما أنَّ العداء موجه إلى المدينة ودون استثناء من قوله (في إستطاعة النجف الأشرف أن

تخرج سالمة من مأزقها الحالي) كما فهموا أن الكتاب يخصهم بالاتهام، ويحط من كرامتهم بطلبه منه أن يطهروا بلدتهم من مفسديها، وأن يساعدوه على إنزال العقاب بالثوار، فقد أراهم قواد عسكريين أو جنوداً مهرة في القتال أو مهندسين فنيين تنتج معاملهم الأسلحة في الجوامع والمساجد ليل نهار.

وعلى الإجمال لقد كان لهذه الرسالة التي خوطب بها السيد كاظم والعلماء والأهلون أعظم الأثر على النفسية النجفية ولا سيّما العلماء، ونخصُّ السيد كاظم منهم فقد فوجىء بهذا الكتاب الشديد في حين كان المعروف عنه أنّه لا يعادي الإنكليز، ويتجنب السياسة، ويتهمه المنافسون بممالئة الإنكليز وإذا بأصدقائه الإنكليز يخاطبونه بهذه اللغة، لغة المستشرقين المتعصبين.

لقد كان هذا الكتاب نصراً عظيماً للوطنيين المخلصين إلى بلادهم وضربة قاضية على السياسة البريطانية في الوسط العلمي الديني وأصبحوا يحللون جميع تصرفات السلطة المحتلة ويتهمونها بأشنع التهم ويصدقون كل ما قيل ويقال عنها، وقد ناقشوا جميع ذلك حسب تعاليمهم وأصولهم الدينية فأجمعوا على حرمة التعاون معهم، وجهزوا بذلك واقتنعوا أن السياسية البريطانية لا تتميز عن السياسة العثمانية إلا بالقسوة والحط من كرامة العلماء، والحقيقة أن بوادر النصر بعثت الغرور الأوربي فدفعت الضباط البريطانيين على إضاعة جهود السياسة الإنكليزية وأموالها الطائلة منذ قرن.

١٠ ـ التناقض في سياسة الحاكم:

بينما قامت سياسة الحاكم على مثل ذلك الكذب وعلى تضييق نطاق الحصار حول النجف بتجهيز تلك الخطوط بالأسلاك الشائكة إذا هم يوقفون جباية الضرائب في الفرات الأوسط، ويعمدون على تلطيف زعماء العشائر، وتقديم الرشوة إليهم بإسم المساعدة والسلفة الزراعية أو حفر الجداول والأنهار إضافة إلى التظاهر بحسن نواياهم، وانهم المعتدى عليهم بمقتل الحاكم مارشال، وإنهم يقدسون الدين ويحترمون مقام النجف الديني.

١١ ـ المعركة الأولى:

كان الثوار يفكرون في الهجوم غير أن قلّة عددهم، وعدم عطف الأهلين على حركتهم أوقعهم في مشكلة التردد، ولما تطاولت الأيام أنسبوا من أنفسهم الضعف إزاء

ازدياد قوى الزاحفين، لذلك عزموا على الهروب في الليلة السابعة عشر من أيام الحصار، وكان ذلك براي من دماغ النجف المفكر الشيخ جواد الجواهري.

وكانت ليلة حالكة مدلهمة بالغيوم والرعد والبرق الخاطف، وعندما حاولوا اختراق الأسلاك الشائكة ثارت في وجوههم نيران الخنادق فكانت معركة لم يعمد إليها النجفيون فقصفت مدافع الإنكليز ورشاشاتهم وظهروا في العراء ناقضين هجوم النجفيين، وكادوا يبلغون التل الجنوبي غير أن المحايدين من النجفيين دفعتهم حفيظتهم وسارعوا بسلاحهم فملئوا التل والسور والأبراج وأرسوا نيراناً حامية أصطك الجو بدويها إصطكاكاً فأضطر الهاجمون إلى التقهقر تاركين بعض القتلى والجرحى.

أما الثوار الذين حاولوا الإفلات فلم يصابوا بأذى حيث كمنوا في تلك الكهوف والمغاور، وكان في إمكانهم الإفلات، غير أن البعض منهم عدل عن ذلك وفضل البقاء في النجف مهما كانت النتيجة، فاضطر إلى موافقتهم الباقون شهامة منهم وأضاعوا تلك الفرصة التي لم تسنح لهم بعد ذلك، ومما يستلفت النظر عدم وجود ضحايا من الثوار والأهلين في هذه المعركة التي دامت ساعة تقريباً وتحرش الثوار في خلالها بالحامية أيضاً ولكن الذي يعرف النجف وتحصنها بسورها الشاهق الضخم لا يستبعد امتناعها عن نيران ذلك القصف.

١٢ـ مخاوف المتحاربين والسياسة العسكرية:

لقد درس الإنكليز في هذه المعركة (المعركة الأولى) قوة النار التي واجهوها وعرفوا استحالة الفوز عنوة فلجأوا إلى درس حالة النجف وجددوا المفاوضة لتكون سبيلاً لإلقاء بذور الفتنة بين النجفيين أنفسهم، وعاد زعماء الحزب المحايد المسلحين إلى التوسط بأمر المفاوضة فكانت هذه المفاوضة فرصة ثمينة أطلع فيها المحتلون على حالة الثوار والبلد العامة فقد تضعضعت معنوية الثوار من جراء النار التي شهدوها ومن سخط النجفيين الذي تجلّى بعد هذه المعركة سيّما وقد مضَّ السغب بالناس، وعمت المجاعة حتى بلغ سعر وزنة الحنطة خمس ليرات ذهباً، وفقدت أو أخفيت جميع المواد الضرورية والكمالية واضطر بعضهم إلى ذبح الحمير للاستفادة من لحومها وخوفاً عليه من الهلاك جوعاً فبيعت في السوق علانية.

أما الماء فقد من الله برحمته فأنزل أمطاراً أسبوعية فلم يبلغ الظمأ مبلغ الجوع ولم يضطر الأهلون كثيراً إلى مياه الآبار (الشاهية) المرة على أن الجيوش عملت على ردم الآبار وقناتها التي كانت تصل النجف بالفرات بأن استخدمت بنائي الكوفة في ذلك، والمشكلة مشكلة الغذاء في مدينة ذات واد غير ذي زرع، غير أن تمر البصرة المكدس أنقذ الموقف فقد كان رخيصاً وكثيراً فأصبح الغذاء الوحيد لكثير من النجفيين.

ومع ذلك فقد هلك بعض الفقراء جوعاً، وكذلك هلكت جميع الطيور والقطط، ومن أغرب ما شاهدت أن القطط اضطرت إلى أكل التمر (ولم تكن معتادة على أكله في النجف قبلاً)!

ولم أنس منظرها المحزن وهي تتقلب في الطرقات بكثرة وكأنّها تستنجد المارة بموائها ونظراتها وهي تعالج سكرات الموت جوعاً، وقد أصبح السواد النجفي في حيرة عظيمة في خوف وإضطراب عظيمين من سوء العاقبة فيما إذا دخل الجيش إلى البلد المقدس فاتحاً مستبيحاً فكانوا يملأون الجوامع وأدعيتهم وتضرعاتهم تتصاعد إلى السماء لعل الله يزيل هذه الكارثة.

وانتهز المحايدون فرصة عودة الإنكليز إلى المفاوضة ولما يمانع الثوّار، أو أنهم لم يستطيعوا المنع عن مقابلة قائد الحملة وحاكمها السياسي (بلفور) في بناية الحامية التي تمت صلتها بالجيش في الكوفة، وتعددت هذه المقابلات والرسل، ومنها وقفت على وضع البلد العام وعلى معنوية الثوار المحطمة ومبلغ قوتهم ومراكز ضعفهم وانقسام البلد وسخط معظمها على الثوار. لذلك أصر القائد على تصلبه في مطاليبه وأن الثوار لا يزالون يفضلون النزال على الاستسلام، ولكن الوسطاء لم تنقطع مفاوضاتهم فكان إذ دبر أمر الهجوم الأخير، وفازت السياسية العسكرية فوزاً مبيناً.

١٣ـ الاستيلاء على التل وعلى المدينة:

عند بزوغ ٧ نيسان سنة ١٩١٨م بدأ قصف المدافع على التل الجنوبي بأقصى هوله ودام خمسين دقيقة تقريباً وتحت ستار هذا القصف هجم قسم الگركة والسيخ فأعتلوا التل بالقنابل اليدوية، واحتلوا خنادق الثوار فيه بدون مقاومة كبيرة وبسقوط التل تم

الاستيلاء على النجف[1]، وسكتت أصوات البنادق ولا أعرف من قتل في التل غير (محمد الطريحي) أما كيفية صعود التل فقد صنعوا ليلاً سلماً من أكياس التراب بجنب

---

(١) جاء في إحدى أوراق المؤلف قصاصة نصّها:

«حدثني (علي حسين علي عودة) النجفي (وهو أحد أنسبائنا) نقلاً عن شخص هو أحد السقائين في النجف المدعو (علي دوگي) قال: إنه في صبيحة احتلال الإنكليز للجبل، حاول اجتياز العقد الذي عليه باب مدرسة (الشيخ ملا كاظم في محلة الحويش) خارجاً من بيته في أحد الأزقة، وإذا بإنكليزي شاهر مسدسه وهو يقول: (لا تخاف تعرف سيد مهدي السيد سلمان) فقلت: نعم. فقال: رافقني إلى بيته، وفي الطريق وقف على باب المدرسة المتقدم ذكرها، فسأل عن أصحاب الحوانيت في جنبها بأسمائهم؛ فقلت له: كيف عرفتهم؟ قال: أنا في هذه المدرسة مدة سبع سنين أدري فيها، وغرفتي في الطابق السفلي.

وعند ساحة الحويش وقف وطلب مني أن أجلب السيد مهدي وحده، فذهبت وأخبرته وجاء معي، فطلب من السيد مهدي إحضار عبد الحميد خان فحضر، واتجهوا جميعاً إلى الجبل لمقابلة القائد. ويقول علي دوگي، قيل لي أن هذا الإنكليزي هو (بلفور) نفسه.

أقول: ومن هذه الرواية نفهم كيف تعلم (بلفور) اللغة العامية فاستطاع أن يدير لواء (الشامية والنجف) في عهد الاحتلال.

وقد سألت صديقنا (محمد وجيه ستمتي) النجفي أن بلفور كان يتكلم العامية العراقية برطانة إنكليزية.

وحدثني نسيبنا (علي عودة) أيضاً نقلاً عن (حسن هادي إدريس) وعمره حين حدث يبلغ ٧٠ عاماً، وهم يتصلون بآل (كرماشة) في محلة العمارة في النجف (وكانت أسرة حسن من أسر النجف التي اتخذت مرافقة الحجاج إلى الحجاز بعنوان (حملة دار) مهنة تعاش بها. وهذه المهنة كانت عظيمة في الدور العثماني، وكان عدد الحجاج من العراق وإيران وقفقازية والتركمان يبلغ الألوف حينذاك.

يقول حسن: أن أباه استخدم معهم في طريق الحج شاباً يتجاوز العشرين سنة يدعى (رضا) وكان يحسن الطبخ، وسكن النجف ثلاث سنين يرافقهم في الحج. ويدعي أنه تشاجر معه مرة في الطريق فعاقبه.

ويقول حسن: أنه اجتمع بلورنس في خلال الحرب فسأله عن أبيه وأخوانه وأهل المحلة وأظهر أنه هو ذلك الشاب المدعو (رضا).

ويقول حسن: أنه خاف منه نظراً لما صدر منه سابقاً. فقال له: لا تخف أنتم أكرمتموني وآويتموني.

أقول: نفهم من هذه القصة أن (لورنس) كان في هذه الديار في الجزيرة من قبل الحرب الأولى بسنين.

يقول موسى شربة النجفي: أنه يظن أن حسن هادي إدريس توفي في أوائل سنة ١٩١٧، أو في آخرها.

تتمة لحديث (علي عودة) عن حسن هادي إدريس: أن لورنس هو الذي عرّفه وسأله عن أبيه وأخوته، وأنه تعجب من أسئلة يوقعها إنكليزي فأخبره أنه رضا. وذكّره بالاعتداء الذي حدث منه فاضطرب حسن وخاف ولكنه طمأنه بدلالة إحسان أبيه المرحوم إليه، وأخبره أنه كان يتأخر في نقل المياه والأحطاب بسبب أنه يختلي ليسجل مشاهداته وأنه كان يحصي خطوات الإبل معتبراً الخطوة مقياساً للمسافة. وهكذا يسجل المسافات».

منحدر التل وغربيه حيث لا ينوشهم رصاص السور، ومن هذا السلم كان الصعود والهجوم.

وربما أستغرب القارىء هذه الهزيمة بعد تلك المقاومة غير أن الظروف التي أحاطت بالثوار تهون هذا الاستغراب فقد عملت الحملة في خلال المفاوضة أنّ معظم الثوار يترك الخناق مبكراً إلى أهله للفطور بعد سهر الليل. وفي هذا اليوم خاصة لم يبق في التل إلا شباب سئموا تلك الخنادق المليئة بمياه المطر في تلك الليلة، وربما خدعوا على ترك التل من قبل من كانوا على علم بساعة الهجوم أو أنهم إضطروا إلى ذلك اضطراراً من قبل أهالي هذه المحلة.

فقد شاهدنا وقت الهجوم بعض رجال هذه المحلة تحصن في مدرسة الشيخ ملا كاظم متظاهراً ضد الثوّار المرابطين في التل كما شاهدنا عقيب إحتلال التل بدقائق أول بادرة لخضوع النجف فقد اندفع موفدو الشرطة اللاجئون رافعين علماً أبيض غير أن الجنود رموا حامل العلم فوقع صريعاً في الجادة أمام جدار مدرسة الملا كاظم المقابل للتل وسحبه الأطفال من رجله إلى رحبة الحويش (الصغير) مشيعين له بالسخرية واللعنات.

وقد نشرت جريدة (العرب) بهذا الصدد في العدد ٨٩ البلاغ الرسمي وهذا نصه:

«في ٧ نيسان سنة ١٩١٨م احتلت الجنود البريطانية التلول ويمكننا الآن من موقفنا المشرف أن تعضد السيد مهدي السيد سلمان ـ شيخ محلة الحويش ـ الصادق للحكومة وأن تردع العصاة عن القيام بأعمالهم العدائية».

ومما لفت نظرنا ما قام به ثلاثة من كبار الضباط الإنكليز بعد إحتلال (التل) بساعتين من الدخول إلى المدينة من طريق محلة الحويش، وقد سحبوا معهم سلك التلفون وذهبوا رأساً إلى بيت المجتهد السيد كاظم اليزدي الطباطبائي، ويقال إنَّه تحادث مع الحاكم العام في بغداد تلفونياً سائلاً عن سلامته وسلامة البلدة، والغرض من ذلك بعث الاطمئنان في نفوس الشيعة في مختلف الأقطار وإزالة وساوسهم.

١٤ـ اليومان العصيبان:

أختبأ الثوار في البيوت واحتل الجيش (السور) وأبوابه والدور الملاصقة له، ووضعوا الأسلاك الشائكة في جادة السور المحيطة بالمدينة، كان الجنود مصوبين

بنادقهم فلم تقع أعينهم في خلال الجادات والأزقة النافذة إلى جادة السور على نجفي صغيراً كان أو كبيراً رجلاً أو وأمرأة إلا ورموه بالرصاص عن بعد فأضطرب الناس أشد الإضطراب ودامت هذه الحالة مدة يومين، والذي شاع بين الناس أنَّ عدد القتلى والجرحى في خلال اليومين العصيبين ما يزيد على عشرين بريئاً.

وأعتقد أنَّ العدد يزيد على هذا كثيراً، فإنَّ الغريب والفقير والمشرد لا تبلغ أنباؤهم الناس ومما جرى في خلال هذين اليومين العصيبين تخريب جميع الأبنية والبيوت المشادة في أواوين السور وعددها لا يقل عن خمسمائة بيت، وكذلك جميع البيوت في خارج السور ومنها محلة تدعى محلة عطية أو (الجديدة) ـ وهي تقع في جنوب محلة العمارة ـ مما يلي مقام الإمام زين العابدين وعدد دورها لا يقل عن خمسمائة أيضاً فيبلغ عدد الدور المخربة خلال اليومين ألف دار تقريباً، لا تسل عما ذهب فيها من التلف والضياع والنهب في الأثاث وتوابعها.

فإنَّ معظم هؤلاء السكان أسرعوا ناجين بأنفسهم وأطفالهم وعائلاتهم إلى داخل المدينة تاركين معظم ما يملكون، ومما جرى في هذين اليومين تحصين هذا السور الشاهق المطل على المدينة تحصيناً يعجز عنه الوصف مئات الألوف من أكياس الرمل نظمت في أواوين السور وممرة أو سطحه الأعلى، وفي الأبراج ووراءها طريق الجنود في الطابقين السفلي والعلوي ومن خلالها تظهر أفواه المدافع والرشاشات والبنادق مصوبة على أهل هذا البلد الذي كان آمناً، وياله منظراً مفزعاً تضطرب عند تصوره الأعصاب.

وفي خلال هذين اليومين تسرب إلى الأذهان أن هذه الأعمال هي مقدمة للاستباحة غير أني لم أفهم من استباحة الجيوش التاريخية أكثر مماوقع في خلال هذين اليومين سوى التنظيم، فقد روى المؤرخون الخوف والرعب والجوع والعطش، ووصفوا اليأس والحيرة، ووصفوا النجاة بالنفس هكذا كان حتى أنَّ سكان البيوت الواقعة عند رؤوس الجادات قرب السور لا يصلون إلى بيوتهم إلا من بيوت أخر أبوابها في الأزقة في حين أن (كل جادات النجف تنفذ إلى السور) وعليه ليس من الإنصاف أن نبخس هذا الجيش أشياءه قوته وبطشه وقسوته، ونقلل من شأنه عن جيوش هولاكو وتيمورلنك ونيرون، وهل إستطاع هؤلاء أن يخربوا ألف دار في خلال يومين في مدينة صغيرة مثل

النجف؟ أو أنهم حصروا مدينة بكاملها لأجل عصابة عدد الأصابع لمدة شهر ونصف، وهذه هي مصائب اليومين.

١٥ـ التصلب في تنفيذ الشروط:

بعد إجراء ذلك التحصين والإستيلاء على مداخل البلد ومخارجها، بحيث أصبحت صندوقاً حديدياً مغلقاً وبيدهم مفتاحه، بعد كل ذلك تجلى الجبروت العسكري والغطرسة العسكرية، فصمموا على تنفيذ الشروط بنصها، وربما زادوا عليها، فنشرت طيارتهم منشوراً مؤداه أن لا نفك الحصار ما لم تنفذ الشروط ويستسلم مائة وخمس وعشرون من الثوار، فالمائة (وعشرون) اسرى حرب والـ (٥) تصنع بهم السلطة ما تشاء، ولكن ممن يطلبون ذلك؟ يطلبونه من أهل البلدة أنفسهم أن يقبضوا على كل هؤلاء ويقدمونهم طوعاً، فكان طلباً قاسياً غريباً، سداه إيقاد نار الفتنة، ولحمته الفساد والحماقة في الحكم، فأي حكم هذا الذي يسوق الناس بالقوة على إستعمال السلاح، وأنواع القسوة ضد ذوي رحمه وأهل بلده!.

أمّا العُزّل من السلاح فهم أزاء هذا الطلب في معزل تام، بل هم في حالة استسلام إلى كل بلاء ينزل بهم من هؤلاء وأولئك، ولكن ماذا يصنع المسلحون المحايدون الذين وصفنا، هل يستطيعون أن يتملصوا من طلبات الجيش الذي ضيق نطاق الحصار وزاد شراكه!! لم يكن بإستطاعتهم ذلك بعد أن ظهر بعضهم بالمظهر الذي سبقنا، وبعد أن بعثت الأحقاد القديمة لدى بعض آخر سامحهم الله.

١٦ـ أيام الحصار العصيبة وإستسلام الثوّار:

لقد نفذت مياه الأمطار المخزونة، وشحّت الأمطار كما هي عادة أواخر أيام نيسان، وباع الفقراء كل غال ورخيص في سبيل شراء الطعام، فقد مضت عليهم مدة شهر بدون عمل، ومعظم العمال في النجف يعملون بأجر يومي، يضاف إلى ذلك نفاذ الحبوب لكثرة السكان حتى أصبحت البلدة في أحرج المواقف، واضطر المسلحون المحايدون إلى اتخاذ طرق الخديعة والإقناع لبعض الثوّار الأقوياء بضرورة التسليم، وأن هناك محاكمات ودفاعاً، وحجتهم تخلص النجف وفقرائها الأبرياء مما هم فيه، كما اتخذوا طرق القوة والإرهاب مع الضعاف من الثوار، والبعض منهم أتخذ القوة حتى مع بعض الأقوياء لعداء قديم، فكان هؤلاء وأولئك يروعون عائلات الثوار

السيد مهدي السيد سلمان

الكابتن وليم م. مارشال الحاكم
السياسي للنجف الذي قتله
النجفيون في ١٩ آذار ١٩١٨.

وعائلات أقاربهم وأصدقائهم وجيرانهم حيث يداهمونهم فجأة ليلاً أو نهاراً ويفتشون البيوت ويهددون بالسلاح.

وكان النجفيون في تأريخيهم الحربي الماضي لدى أقل ضرورة ينزلون إلى آبارهم، فيسلكون في طرق توصل بعضها ببعض، وتوصل الجميع في آبار القناة خارج النجف، ومن تلك الآبار وقناتها يتخلصون من المآزق، ولكن الجيش البريطاني لم تفته هذه النقطة، لذلك بنى جميع أفواه الآبار خارج النجف، ووضع حراساً على بعضها، وردم الآخر، ولم تمض مدة إلا وبدا الثوار يُقادون إلى السلطة بيد إخوانهم النجفيين فرداً فرداً في كل يوم، والناس يزدادون ضيقاً كلما تطاول الزمن.

وبعد مرور خمسة عشر يوماً من الحصار توسَّط الشيخ محمد تقي المجتهد المعروف، ببرقية، وهو في سامراء حينئذٍ لدى حكومة الإحتلال في رفع الحصار وإيصال الماء والطعام إلى البلد المنكوب. وقد سمعنا ذلك بعد رفع الحصار، وقد شاع في خلاله أن السيد كاظم اليزدي الطباطبائي أوفد المرحوم الشيخ جواد الجواهري، والشيخ محمود أغا الهندي أحد علماء الأفيز، وقابلا القائد ورجوا إليه هذه الأمور:

١ ـ إعادة جريان الجدول، والسماح لبعض السقائين أن ينقلوا الماء إلى البلد.

٢ ـ السماح للعلماء وبعض الجاليات الأجنبية ومن لهم صلة بالإنكليز بالخروج إلى الكوفة.

أما الأمر الثاني فأجازته السلطة، ولكن بتذاكر إجازات (باص)، ولا يتحقق هذا الخلاص من المأزق إلى بعد تفتيش دقيق، حتى للعائلات، من قبل الجيش، على أن يذهبوا إلى الكوفة، وأخيراً تساهلوا بهذه الإجازة نوعاً ما، ولكن لا تكون إلا بصك من عبد الحميد خان معاون الحاكم السياسي، والسعيد من يحوز على هذا الصك، ولكن المشكلة العظمى، مشكلة ولوج العائلات في ذلك الطريق الضيق، طريق الأسلاك الشائكة، الملتو الذي لا يزيد عرضه على نصف الياردة، ويستطيل من مدخل السوق الكبير في عرض الميدان بخط ذي انحناء وإنكسارات حتى باب البلد بطول خمسين متراً تقريباً، ويزيده ضيقاً وإزعاجا ما يتخلله من أنواع الحرس المسلَّح من إنكليز إلى أكراد غلاظ شداد.

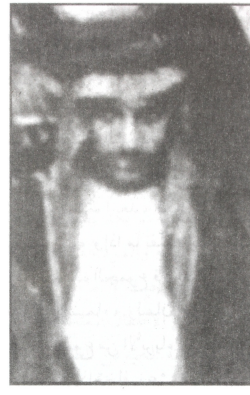

كريم الحاج سعد

كاظم صبي

الحاج عطية أبو كلل

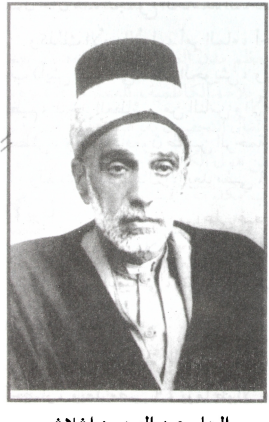

الحاج عبد المحسن اشلاش

وعلى هذا الحال يخرج الأهلون الأبرياء مع عائلاتهم وأطفالهم، والنجفيون مكتظون في جنب الأسلاك صفوفاً مزدحمة، وهم على كثرتهم صامتون واجمون كأن على رؤوسهم الطير، تعلو وجوههم صفرة وغبرة لا أستطيع وصفها، ولا تكاد تسمع الأذن في ذلك الزحام العظيم من الناس غير أصوات أولئك الشرطة والجند الأبيض، والذي يثير حفيظة الغيور أن هذا الحرس المنبث وفيه البريطاني مخوّل الكشف على المرأة ورفع حجابها للتفتيش على أفراد من الثوار لم يسلموا بعد، فكان المزدحمون يشاهدون الجند وهم يكشفون حجاب بعض المخدرات، وإذا ما نفذت بصيرتك إلى نفوس تلك الألوف، وإذا ما وعى قلبك خفقان قلوب هذه الجموع فلا بُدَّ وأن تفزعك الحسرات الخافتة المحرقة، والأنات المتصاعدة إلى السماء، ولسان حالها: ما هي جناية هاته النسوة، وما ذنب هؤلاء الأطفال، وهذه الجموع من الأبرياء؟ وإذا كان عدد الثوار مائة وخمس وعشرون فما جريرة الأربعين ألفاً، وإذا تخلف عشرة أشخاص من هذا العدد مختبئين في أماكن لم يهتد إليها أحد ففي إستطاعة الجيش الغالب أن يلقي عليهم القبض في وقت آخر بدون هذا الحصار، وفي أيّة جهة اتجهوا إليها، هكذا كان لسان حال هذه الجموع الحاشدة المحصورة الأسيرة.

وكذلك الأمر الأول، أمر الماء، أجازته السلطة بتذاكر خاصة وضعوا لها مأمور في باب (أيش تابيه) في محلة الحويش، ولكن لا ينالها في الأهلين أو السقائين إلا ذو حظ عظيم، فتجد العطاشى من الناس والأطفال حول الأسلاك الشائكة، يبكون من حرارة العطش، وهم يتدافعون طالبين الرحمة من ذوي القسوة والجبروت.

ولم تنته هذه الحال إلا بعد مضي ٢٩ يوماً، فتكون مدة إنقطاع صلة النجف بالعالم ٤٩ يوماً.

إلى أن تم إستسلام ١٠٠ نفراً من الثوار، ولم ينج إلا القليل، ومن بينهم أحد أعضاء الحزب السياسي، عباس الخليلي.

١٧ـ يوم الإنطلاق:

في يوم ٦ ايار سنة ١٩١٨م المصادف ٢٥ رجب سنة ١٣٣٦هـ، رفع عن النجف الحصار، وبعد مضي ٤٩ يوماً طوالاً عجافاً، تسمع الآذان المرهفة صوت البشير بعد ذلك الياس المُمِّض والخوف المريع، والخضوع والذلّ والخشوع، والاستسلام

للقضاء والقدر، يستبشر النجفيون بفك الحصار، وإذا هو يوم تاريخي يتمثل فيه أروع المشاهد، يوم ٦ مايس ١٩١٨م، يفلت النجفيون من القفص فيهرعون هاربين من بلدهم نابذين بيوتهم ومساكنهم، مولين عن مشاهد الظلم والقسوة، وهم هائمون على وجوههم، ماشون على الأقدام، يحملون أمتعتهم وأفرشتهم وأطفالهم على ظهورهم وعلى رؤوسهم، نساءً ورجالاً، شيباً وشباباً، فامتلأت برية النجف بهذا السواد المستبق إلى نجاة لم يكد يصدق أن ظفر بها وهو واجم صامت، يخفف وطئه على الأرض حذر البلية والموت من هذه الجيوش التي ملأت البر، يسير سواد هذا الجمع الناعم المتحضر حيث لا ماء ولا زاد، فتكبوا العجوز العمياء، ويعثر بأذياله الشيخ الطاعن، وتبكي الأطفال المتعبة، فتغص أمهم في نحيبها كي لا تزعج صمت البر أو تهيج عاطفة هاته الجيوش الظافرة، يسيرون وهم يلفتون جيد المذعور يمنه ويسرة. وكأن الظلم يتبعهم. والرعب يصحبهم.

لم تكد مقدمة هذا السواد الزاخر إلى الكوفة وإلى أبي صخير، إلا وقد هرع كثير من أهاليها، فهذا يحمل الزاد، وهذا ينقل الماء، وذاك يسوق الحيوانات لإسعاف الهلكى والضامئين والمتخلفين.

لقد تفرّق هذا السواد كالجراد المنتشر في معظم مدن العراق وقراه، فغصت بهم السماوة، الحلة، الشامية، الديوانية، الهندية، كربلاء، الكاظمية، العمارة، البصرة، بغداد، فلا تكاد تستطرق مدينة أو قرية إلا وتجد آمال النجفيون يعرضون إلى إخوانهم مشاهد ذلك الحصار، تتحدث النساء بما لاقين من هول الكارثة، وهن باكيات فيبكين من حولهن، ويستعرض الرجال الحوادث بقلوب مكلومة، فيشاركهم السامعون في أحزانهم وأتراحهم، ساخطين جميعاً على عدو مَخَّض زبده وتجلّت نواياه، سيّما وللنجفيين قدسية بلدهم ومكانتها الروحية في نفوس جميع طبقات العراق، بل في نفوس معظم الأقطار الإسلامية.

ومن هنا نعرف أن السياسة الأجنبية عميت بصيرتها، وذهب رشد رجالها، فنقضت جميع ما بنته في أكثر من قرن، وهدمت جميع ما أشادته بهذه المدة الوجيزة (٤٩ يوماً)، وهي إشادة إلهية، خلقت من الأجانب أناساً ولدت سيئات أعمالهم الحقد في نفسية الأمة، وبعثت بروحها المتقمصّة، فأصبح معظم الفراتين لا يطمئنون إلى

جميع أعمال الإحتلال وإصلاحاته السياسية والاجتماعية.

١٨ـ تنفيذ شروط مجلس الحكّام العسكريين:

لقد تمّ تنفيذ شروط مجلس الحكام العسكريين الثلاثة ـ المتقدم ذكرها ـ والذي أُذيع منشور في بيانها ـ كما قدمنا ـ بل زيد عليها بإستلام أكثر من ألف بندقية، وباستيفاء أكثر من خمسين ألف روبية، ولكن من أموال الثوار أنفسهم، لا من أهل المحلات، كما هو منطوق المادة (٢) وسيأتي الإحصاء التخميني لتلك المبالغ، أما المستسلمون فقد بلغ عددهم ١٢٠ أسيراً بإضافة الشيخ محمد جواد الجزائري الذي جاء لقبه خطأ (الجساري) في القائمة المطلوبة، ولذلك لم يقبض عليه خلال الحصار، بل استسلم طوعاً في الكوفة بعد فك الحصار وإنحلال المجلس العرفي، وبعد التأكد من سلامته على حياته.

وإذا ما أضفنا إلى هذه الكمية القتيلين: صادق الأديب، وحسن جوري، والناجين بأنفسهم: عباس الخليلي، وحميد حبيبان، وشمران العامري، يصبح المجموع (١٢٥) شخصاً، وكانت نجاة الأخير بأعجوبة، فقد خرج من خان السجن مع حارس هندي لقضاء حاجته على الشاطيء، وعندما بلغه ألقى بنفسه وغطس زاحفاً في قاع النهر حتى عبره إلى الضفة اليمنى ونجا بنفسه. وهناك شخص يدعى الشيخ محمد علي الدمشقي كان ناسخاً للجمعية السياسية وقد طلب أيضاً ولكن خموله وعدم معرفة الناس له أنقذه من الشر والنفي.

كانت النتيجة المتممة للموضوع هي:

القتلى والجرحى اثناء الهجوم:

١ ـ حسن من البو جوري (قتل اثناء الهجوم على الأفيز).

٢ ـ صادق الأديب (جُرح في باب الأفيز، وتوفي في بيته بعد يومين).

٣ ـ حميد حبيبان (جرحا أثناء الهجوم، وأخفيا، وشفيا ولم يستسلما للسلطة بتاتاً).

٤ ـ حبيب بن جاسم خضير.

السيد محمد علي بحر العلوم

الشيخ عبد الكريم الجزائري

الشيخ محمد جواد الجزائري

الشيخ محمد علي الدمشقي

الفـارون :

١ ـ شمران بن عبد الله العامري (فرَّ سابحاً في النهر) .

٢ ـ سعد العامري (يُظن أنه قتل أثناء الهجوم على الكابتن مارشال) .

٣ ـ عباس الخليلي .

المشنوقون :

١ ـ كريم الحاج سعد .

٢ ـ أحمد الحاج سعد .

٣ ـ محسن الحاج سعد .

٤ ـ سعيد (مملوك الحاج سعد) .

٥ ـ كاظم صبي .

٦ ـ محسن ابو غنيم .

٧ ـ عباس علي الرماحي .

٨ ـ علوان علي الرماحي .

٩ ـ الحاج نجم البقال .

١٠ ـ جودي ناجي .

١١ ـ مجيد الحاج دعيبل .

وقد دفنوا في حافة (كري الشيخ) اليسرى، وراء بئر ابن عبيد، وكان شنقهم يوم ٢٢ شعبان .

كما شنق بالكوفة (كاظم بن الحاج مهدي البستاني) بتهمة أنه يحمل مكاتيب إلى محمد العبطان رئيس الخزاعل، وقد كان بريئاً، كماسجنوا محمد العبطان المذكور ثم أطلق .

الأسرى (المنفيون) :

أ ـ محلة المشراق :

١ ـ السيد محمد علي بحر العلوم .

٢ ـ سعد الحاج راضي .

٣ ـ مغيض الحاج راضي .

٤ ـ راضي الحاج راضي .
٥ ـ عرّاك بن عزيز كور الشمرتي .
٦ ـ زبالة بن عزيز كور الشمرتي .
٧ ـ عبد الله الروازق .
٨ ـ جدوع الروازق .
٩ ـ تومان الغضبان بقر الشام .
١٠ ـ حسين بن صگبان بقر الشام .
١١ ـ فنجان بن صگبان بقر الشام .
١٢ ـ متعب بن صگبان بقر الشام .
١٣ ـ الحاج رديف بن الحاج مهدي ثالثة .
١٤ ـ محمد بن الحاج مهدي ثالثة .
١٥ ـ مجيد بن عزيز طالب .
١٦ ـ السيد سلمان بن السيد علي الحجّار .
١٧ ـ السيد جبر السيد حمادي الفحّام .
١٨ ـ محمد بن الحاج حسين الصنم .
١٩ ـ عزيز بن جاسم الحارس .
٢٠ ـ عبد الله بن إبراهيم الرويشدي .
٢١ ـ خضر بن عباس الصراف .
٢٢ ـ السيد هادي بن السيد حسن السلطاني .
٢٣ ـ الشيخ إبراهيم الإيراني (المومن) .
٢٤ ـ بشير (مملوك الحاج راضي) .

ب ـ محلة البراق :

٢٥ ـ عطية بن محمود صبي .
٢٦ ـ حامض بن محمود صبي .
٢٧ ـ حسون بادرنك صبي .
٢٨ ـ سلمان بن محمد صبي .
٢٩ ـ طنوش بن علي الرماحي .

٣٠ ـ حنتوش الرماحي .
٣١ ـ مطشر الرماحي .
٣٢ ـ حسون أبو جحيفة الرماحي .
٣٣ ـ ناصر الحسون الرماحي .
٣٤ ـ حساني الحاج عبود المختار الرماحي .
٣٥ ـ مجيد الحاج عبود المختار الرماحي .
٣٦ ـ جبر بن الحاج شبيب جبرين .
٣٧ ـ حسين جبرين .
٣٨ ـ علوان الملا .
٣٩ ـ حسوني العلوان الملا .
٤٠ ـ أخو حسوني العلوان الملا .
٤١ ـ حسيني بن محمد الصراف .
٤٢ ـ أحمد بن حسن الصراف .
٤٣ ـ السيد أحمد بن السيد حسين العذاري .
٤٤ ـ حسن بن شاهين .
٤٥ ـ عبود صخيلة بن سلمان عنوز .
٤٦ ـ غازي جواد طوبة .
٤٧ ـ شعلان بن عباس أبو نصيحة .
٤٨ ـ عبود نورية .
٤٩ ـ حتروش (نسيب غيدان شعبان) .
٥٠ ـ علوان من عشيرة إلى دليهم الفتلاوي .
٥١ ـ حبيب أبو الجاموس .
٥٢ ـ محمد بن حمادي الدبي .
٥٣ ـ عزيز بن مهدي الأعسم .
٥٤ ـ علي بن مهدي جوزة .
٥٥ ـ شنون المعمار .

الحاج مغيض سعد راضي

حسين صبگان بقر الشام

الحاج نجم العبود العامري

تومان عدوة

بغداد و أطلق).

٨١ ـ عبد الحاج محمد الحممچي .
٨٢ ـ غلوم بن رضا ملكي (وفي نسخة أخرى : قلوب ملكي) .
٨٣ ـ محمد بن جبر العامري (وفي نسخة أخرى : محمد الجبار) .
٨٤ ـ حسن الگصراوي .
٨٥ ـ حسين علي كور .
٨٦ ـ جواد مطرقانة .
٨٧ ـ ناصر حسن حاجي .
٨٨ ـ نجم العبود العامري (الكوفة) .
٨٩ ـ عزيز بن جاسم الجيلاوي .
٩٠ ـ كريم بن عبود الجيلاوي .
٩١ ـ الشيخ محمد جواد الجزائري .
٩٢ ـ عباس بن مطر .

د ـ محلة الحويش :

٩٣ ـ الحاج محمد أبو شبع .
٩٤ ـ عباس حسون أبو شبع .
٩٥ ـ عبد يوسف أبو شبع .
٩٦ ـ خليل أبو شبع .
٩٧ ـ هادي بن عبد الحسين أبو شبع .
٩٨ ـ تومان بن غيدان عدوة .
٩٩ ـ عبد الرزاق علوان عدوة .
١٠٠ ـ مسلط بن حبيب الحار .
١٠١ ـ سعيد بن حبيب الحار .
١٠٢ ـ حمود بن عبد الحسين الحار .
١٠٣ ـ مهدي بن حبيب الحار .
١٠٤ ـ عبد بن عيسى حبيبان .
١٠٥ ـ علي بن عيسى حبيبان .

١٠٦ ـ حميد أحمد ياسين (أبو السبزي).
١٠٧ ـ جعفر السيد حسن الصائغ.
١٠٨ ـ عبد حميمة (النداف).
١٠٩ ـ طماطة بن سعيدان.
١١٠ ـ إبراهيم السيد باقر.
١١١ ـ الحاج وادي (العبد).
١١٢ ـ جواد بن خنياب.
١١٣ ـ مجيد أو (حميد) بن عباس بن حميد ياسين.

وعلى هذا فيكون المجموع:

١١ المشنوقون.
٤ القتلى والجرحى.
٣ الفارون.
١٠٧ أسرى حرب[١].

إذا مااستثنينا محمد جواد الجزائري، ومحمد علي بحر العلوم من القائمة (حيث اعتقلوا عند خزعل) وأضيف الحاج كاظم والحاج جواد المسير، يبقى عدد القائمة ١٠٧.

هؤلاء الثلاثة لم يدخلوا في حساب القائمة، والثالث سجن في بغداد:

١ ـ الحاج كاظم آل مسير (شيخ عشيرة الكرد بالشامية).
٢ ـ محمود الحمود الحبيب (من أهالي الحيرة).
٣ ـ الحاج جواد آل مسير (من عشيرة الكرد في الشامية ـ سجن في بغداد).

وقد صادروا جميع الأموال والدراهم العائدة للمنفيين:

ـ سعد الحاج راضي: ما يساوي اثنا عشر ألف ليرة نقداً، وهذا غير أمواله من خيل وسلاح، وهدموا بيته.

ـ السيد جعفر الصائغ: نقود خمسمائة ليرة، ومثلها اقمشة.

---

(١) لدى جرد الأسماء في اوراق السيد كمال الدين ظهر أن مجموع الاسماء (١١٣).

ـ كاظم الصبي : مبلغاً عظيماً من النقود وكذلك من الأموال التجارية .

ـ محمد مطر : بضاعة تساوي ثلاثمائة ليرة .

ـ الحاج حسين أبوگلل : بضاعة تساوي أربعمائة ليرة .

والأخيران لم يكونا بالنجف طيلة مدة الحرب والحصار ، وقبض عليهما عند وصولهما من البصرة ، وذلك بعد إلقاء القبض على النجفيين .

ـ رشيد هادي إدريس : نقود ثمانمائة ليرة وهي دراهم ضمانة التمر الذي كان في الكوفة[1] .

---

(١) بين أوراق السيد كمال الدين تقرير منفرد ويضم معلومات وفوائد لا غنىً عنها في هذا المضمار ، نصّه :
لقد تطور الاضطراب في النجف في شهر اكتوبر ١٩١٧ (تشرين الأول) بالارتباط مع مسائل (أسئلة) الحصار ، وبناء على زيارة السير برسي كوكس لهذه المنطقة في شهر ديسمبر ١٩١٧ (كانون الأول) فإن عدة فرق قد رابطت في أوائل يناير (كانون الثاني) في الكوفة التي تقع على بعد خمسة أميال شرقي النجف . ولقد أوحى هذا العدد الصغير إلى أهل النجف أننا نقاسي ضغطاً كثيراً في كل الأماكن الأخرى وعلى هذا فقد أطلقوا على دورية خيالة من على الجدران ، كما أنهم أطلقوا نيراناً كثيرة على إحدى الطائرات التي حلّقت فوق المدينة ، ثم هاجموا دوائر الحكومة في النجف نفسها ، وأرغموا السيد آغا حميد خان وأتباعه الرسميين وكلهم من أهل الجزيرة على الهرب إلى الكوفة . فكانت العقوبة مكونة من ضريبة قدرها ٥٠٠٠٠ روبية و٥٠٠ بندقية ، بالإضافة إلى تسليم زعماء الحركة الحاج عطية أبوگلل وكريم بن حاجي سعد ومع الأخير قد هرب ، لكن القادة الشيوخ جمعوا قيمة الغرامة بالقوة مع مبالغ خاصة بهم من السكان البارزين الأبرياء من الاشتراك في هذه الفوضى وسلموا ٥٠٠ بندقية غير صالحة للاستعمال ، وفي نفس الوقت عسكرت قوات كبيرة في الكوفة مع قوة أخرى في معسكر خارج أسوار النجف .

وفي أول فبراير (شباط) أرسل السير برسي كوكس الرئيس (الكابتن) و.م. مارشال إلى النجف كمساعد للرئيس (كابتن) ف.س.س. بلفرو من حكومة السودان المدنية ـ الذي كان موكولاً إليه أمر قطاع الشامية منذ أكتوبر (تشرين الثاني ١٩١٧) والذي يصفه كاندلر بأنه من خيرة وأحكم الرجال . والذي كان أيضاً وحده كفأ قديراً لهذا العمل الشاق ، فقد كان يجيد التكلم بالفارسية ومضى عشرة شهور كضابط سياسي مساعد في مدينة الشيعة ومقام الكاظمية حيث كان محترماً من الجميع . وكان أمله أن يعود إلى إنكلترا في صيف ١٩١٨ لكي يتزوج ، ولكن عندما عرض عليه مركزه بالنجف فإنه وضع أموره الشخصية جانباً إلى حين ، حتى يتسنى له القيام بهذا العمل لعظم مسؤوليته . وقد أوقف نفسه لهذا العمل بلباقة جعلته محبوباً عند رجال الدين الذين أحضر لهم توصيات قيّمة من أخوتهم في الكاظمية .

وفي أوائل مارس (آذار) كان الموقف قد تحسن ظاهرياً فسحبت القوات ولكن بتحفظ لما عهدوه وقد أعرب عن هذا كل من بلفرو ومارشال وبدأت إشاعات تهديدنا بالانهزام وعودة الانزال تتردد بعنف مع وفرة التفاصيل حتى عرفنا ـ بما لنا من خبرة ـ أن هناك مصادر خارجية تغذي هذه الإشاعات .

وفي صبيحة يوم ١٩ نيسان تنكر بعض النجفيين في زي «الشبانة» وحصلوا على أمر مرور إلى خان=

= عطية، وبعد أن تخلصوا من الحراس قتلوا مارشال (المسكين) وجرح ضابط العمل الذي كان معه جرحاً بليغاً، وقد طارد الحراس البنجابيون الثوار. وصل الكاتبن بلفور من الكوفة ودخل المدينة ومع أنه أطلقت عليه وعلى قوانه نيران كثيرة إلا أنه نجح في تخليص نصف الشرطة الذين قتل من بينهم إثنان في السوق، أما الباقون فقد تحصنوا في منزل السيد مهدي السيد سلمان. ولو أن النجفيين انتظروا بضعة أيام لما قتل الكابتن مارشال ولما اتخذت الإجراءات التي نتجت عنها لأنه في الأسبوع الثاني في السادس والعشرين من آذار استسلمت جميع القوة التركية في الرمادي على الفرات.

وكان الجنرال مارشال سريعاً في عمله فحوصرت مدينة النجف بشدة بقوة كبيرة تحت إمرة الجنرال ساندرز وأعلنت الشروط الآتية:

١ ـ تسليم بعض الأشخاص الذين عرف أنهم كانوا زعماء الحركة والذين، يعتقد أنهم كانوا بين المهاجمين بدون قيد ولا شرط.

٢ ـ غرامة قدرها ١٠٠٠ بندقية.

٣ ـ غرامة مالية قدرها ٥٠٠٠٠ روبية.

٤ ـ ترحيل ١٠٠ شخص كأسرى حرب للهند.

٥ ـ في انتظار إجابة هذه المطالب ستحاصر المدينة وسيقطع عنها تموين الغذاء والماء.

لقد كانت فترة حرجة في تاريخ الإدارة المدنية، وكان وضع مثل هذه الشروط تحدياً للعناصر المتعصبة في كل الجزيرة، وكان تعلقاً منا بحقنا وواجبنا وغايتنا لنحكم دون أن نتهاون في نظرتنا إلى المطالب المتطرفة لأولئك القلائل الذين نصبوا نفسهم حكاماً في المدينة والذين أصبح رجال الدين أمامهم لا حول لهم ولا قوة لأنهم كانوا من جانبنا في هذه الأثناء، كان التوتر شديداً، وكنا نخشى أن تحدث ردود أفعال غير مرغوب فيها في بعض الجهات ـ وقد أضافت عناصر السنة في بغداد شيئاً إلى متاعبنا باغتيالهم صراحة لاضطرارنا للقبض على هذا الوكر السام ـ أما شيوخ الشيعة في الجزيرة وإيران فقد اتصلوا بأقرب البريطانيين الرسميين وأبلغوه مخاوفهم من حدوث شرط عام وقدموا مطالب سخيفة للتوفيق أو مقترحات لحسم النزاع. وقد تحركت حكومة إيران وعبرت عن مخاوفها لوزير بريطانيا حتى لا يتأثر الشعور الديني بتلك الأشياء تأثراً عنيفاً. وحاول الرقيب الحربي أن يمنع هذه الأشياء ولكن الجنرال مارشال أمن بالنشر وليحدث ما يحدث.

وقد حاصر مكتبي في بغداد وسطاء متطفلون يحملون عروضاً غير موكولين بها ـ لتوطيد الصداقة ـ ووصلت خطابات مجهولة تهدد باغتيالات مختلفة ـ كماوردت برقيات من حكومة الهند ومن مكتب الهند تصور مدى المخاوف التي يمكن أن تحدث نتيجة هذه التصرفات الشديدة، أما السير برسي كوكس الذي كنت على اتصال دائم به فإنه الوحيد الذي لزم الصمت في حكمة وتشجيع.

وفي السابع من إبريل (نيسان) أخذت القوة المحاصرة بقيادة الجنرال ساندرز جماعة المونذز التي كانت مسيطرة على المدينة، أما بقية موظفي الحكومة الباقين بالنجف فقد انسحبوا، وما جاء يوم ٤ مايس حتى كان كل الأشخاص المهمين المذكورين قد سلّموا وأعلن رفع الحصار عن المدينة.

ولم تطلق طلقة واحدة في خلال هذه الفترة من الزمن وحتى القيام بهذه الأعمال. وكانت صلاته الدائمة محفوظة مع المجتهد الأكبر السيد محمد كاظم اليزدي.

لقد تشكلت محكمة عرفية في الكوفة لمحاكمة المجرمين وأن نتائج محاكمتهم أدت إلى صدور حكم الاعدام على ١١ شخصاً وبالسجن على تسعة أشخاص بمدد مختلفة من ٦ سنوات إلى السجن المؤبد. وكان ضمن الأشخاص الذين حكموا بالإعدام بعض رؤساء العصابة في المدينة وكانت الأدلة ضدهم واضحة تؤيدها الوثائق التي وجدت في حيازة ضباط الألمان الذين ألقي القبض عليهم في الفرات، تشير بكل وضوح بأن هناك في إيران يراد اغتيال الضباط البريطانيين كخطة مدبرة من قبل الضباط الألمان. وقد وجدت خطط لاغتيال الضباط في البلدان المجاورة ولكنهم أخفقوا لأن مؤامرة النجف بدأت قبل أوانها. وأن صدور أحكام الأعدام هذه كانت سبباً لورود سيل من الرسائل والبرقيات من جهات شتى تصر على أن أوصي القائد العام أن يخفض الأحكام على الشيوخ وزعماء العصابات وتنفذ على الشخصين اللذين قتلا الكابتن مارشال، وأثير القانون الإسلامي الذي يمنع إعدام أكثر من شخص واحد عن قتل واحد. وجاءت الوفود من السادة العلماء تؤكد اضطراب الأحوال وهياج الرأي العام فيما إذا نفذت أحكام الاعدام.

بلفور الذي كان هو الحاكم المحلي المسؤول عن إدارة المنطقة وقف حائلاً دون التخفيض ولقد قبلت برأيه كما أخذ به الجنرال مارشال، ونفذ حكم الاعدام على ١١ شخصاً في الكوفة في صباح ٢٥ مايس.

وجاءت النتيجة مدهشة إذ بعد ساعات من تنفيذ الحكم أخذ كليدار النجف يستقبل الناس في داره في قلب المدينة، فحضرت هذا الاحتفال وبرفقتي بلفور وكريتهوس الذي جلبته من ششتر حيث قام بأعمال نافعة خلفاً عن مارشال.

ولقد خطب الكليدار بحضور الوجوه والذوات وكثير من العلماء معبراً عن ابتهاج الأهلين لخلاصهم من أيدي القتلة الجناة، وعبّر عن تمنياته أن تكون إدارة المدينة متوحدة مع إدارة سائر الجهات، ورجاءه أن تعين الأهلين في تحقيق أمنيتهم القصوى بإيصال أنبوب الماء من الفرات إلى النجف.

وختم خطابه بإهداء سيف شرف إلى بلفور متمنياً له أن يدافع عن مصالح المدينة والأهلين في المستقبل كما دافع عنها في الماضي، وأهدى إليَّ خاتماً ذهبياً ثميناً ومفتاحاً فضياً كرمز على أن أمنية أهالي النجف أن تكون أبواب مدينتهم وأبواب قلوبهم مفتحة دائماً إلى وكلاء الإدارة المدنية. وخوفاً من توقيف حكم الاعدام في آخر لحظة على بعض الزعماء، فقد أبقيت نية تقديم الهدية طي الكتمان.

لقد كان لتنفيذ حكم الاعدام تأثير بليغ في جميع أنحاء العراق لا سيّما بين القبائل. فقد وردني من عبارات الرضا والارتياح عقيب وقوعه أكثر مما سبقه من رجاءات العفو. وكان التأثير في النجف بالجملة حسناً إذ انكسرت شوكة الفتنيين المتناوتين، الزُّرت والشمرت في المدينة ولم تعد هذه فيما بعد مصدر خطر ضد حكومة القطر.

ومضى بلفور بعد تلك الحوادث بإجازة إلى وطنه مخلفاً في مركزه رونالد وينگيت بن السير ريجينالد وينگيت من موظفي الإدارة المدنية في الهند. وتحت إدارته خطت أعمال تنظيم وتجديد الإنشاء الإداري في لواء الشامية خطوات واسعة. فأنشئت قوة من الشرطة النظامية في النجف وعين موظفون من العرب في شُعب أم البعرور وأبو صخير وهور الدخن والمشخاب والغماس. وجرت محاولة لوضع مشاريع ري مختصرة ولبناء الطرق.

٦ـ الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠[١]

حزب الثورة العراقية ومكتبها في النجف:

تكوّن هذا المكتب بصورة طبيعية، وهو مكتبة متواضعة لبيع الكتب وتجليدها، ولبيع ونشر الصحف السورية والمصرية، تعود هذه المكتبة إلى صاحبها الفاضل عبد الحميد الزاهدي[٢] صاحب المكتبة الوطنية في بغداد اليوم.

تقع المكتبة في أحد أواوين صحن الضريح العلوي الشريف في النجف، وعي أشبه بندوة معلنة تختلف إليها الطبقة المتجددة من شعراء وأدباء وكتاب وغيرهم، وسندرج اسماءهم طبقة فطبقة.

ونبدأ بالطبقة المفكرة والمجاهدة التي سيَّرت جميع الطبقات منذ فكرتها الأولى التي بدأت في سنة ١٩١٨م لليوم الذي أطلق فيه رصاص الثورة بالرميثة يوم ٢ تموز ١٩٢٠م[٣] وهم:

الشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ محمد رضا الشبيبي، والسيد محمد سعيد كمال الدين، والسيد محمد رضا الصافي، والشيخ باقر الشبيبي، والسيد حسين كمال الدين، والشيخ علي الشرقي، والشيخ محمد جواد الجزائري، والسيد سعد صالح، والسيد أحمد الصافي، والسيد محمد علي كمال الدين. وهناك طبقة روحية عليا تولت معظم الأعمال خلال الثورة إلى انتهائها وهم:

الشيخ عبد الكريم الجزائري، الشيخ جواد الجواهري، الشيخ عبد الرضا راضي، الشيخ مهدي الملا كاظم، والشيخ الجزائري كما يرى القارىء أهم عضو في الطبقتين الروحية والمتجددة، أو هو همزة الوصل بين جميع الطبقات، بل كان أيام الثورة محور الحركة ومجرى التفكير للثورة والثوار والعلماء، المجتهدين والمثقفين يسانده في

---

(١) للبحث في التفاصيل انظر كتاب: «النجف الأشرف والثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠» للمحقق.

(٢) انظر: توفيق زاهد ـ التاريخ السائر في ذكرى عبد الحميد زاهد الثائر ـ ط بغداد، ١٩٧٨.

(٣) بدأت هذه الفكرة بعد بضعة ايام من إعلان القرار المشترك بين بريطانيا وفرنسا الذي أعلن في باريس ولندن ونيويورك والقاهرة وذلك في سنة ١٩١٨م وجرت بين خمسة أشخاص والمقترح هو محمد علي كمال الدين، والباقون هم السيد سعيد كمال الدين، والسيد سعد صالح، والسيد حسين كمال الدين، والسيد أحمد الصافي، وقرروا أن يضموا إليهم الطبقة المثقفة وهم: الشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ محمد رضا الشبيبي، والسيد محمد رضا الصافي، فكان ما أرادوا. (كمال الدين).

جهاده الشيخ جواد الجواهري، وزعماء القبائل مع بعض أفراد الطبقة الأولى المثقفة.

والطبقة الثالثة هم: الحاج محسن شلاش، والشيخ محمد حسن الجواهري، وعبد الأمير الشكري، ومحسن أبو عجينة، ويوسف أبو عجينة، والسيد علي الحلي، والشيخ عبد الغني الجواهري، والشيخ عبد الحسين مطر.

والطبقة الرابعة: عبد الحميد الزاهدي، والشيخ باقر الجواهري، والحاج عبد النبي الشكري، والحاج حمود معلة، وعبد الحميد المرزة، والحاج علي كبّة، وأمين الشمسة، والسيد علوان الخرسان، والحاج سعيد المرزة، والحاج رؤوف شلاش، والسيد جواد زيني.

والطبقة الخامسة هم: السيد يحيى الحبوبي، والسيد ضياء الخرسان، ومكي الشكري، وعبود المرزة، عبد الرزاق الحاج مسعود، والسيد حسين الرفيعي، والشيخ محمد علي قسام، والشيخ حسين الصحاف، والشيخ محمد الشبيبي، والشيخ عبد علي الطرفي، وعبد الحسين الحلي، والشيخ محمد الوائلي، والشيخ حسن الشيخ مهدي، والشيخ محمد حسن المحبوبة، والسيد محمد زوين، والشيخ جعفر قسام، وعبد الرسول شريف، والسيد علي هادي الحبوبي.

والطبقة السادسة هم: الشيخ سعيد الخليلي، والملا علي الدلال، وابنه سلمان الملاّ علي، وعلي بن قاسم أفندي، والسيد صالح البغدادي، والشيخ حسين الحلي، ومحمد علي الصحاف، ورؤوف الجواهري، والشيخ محمد علي الخليلي، ونعمة الشيخ كاظم.

وهناك طبقة إشتغل بعض أفرادها مع الطبقة الأولى المتجددة، وكان لهم الأثر الفعال في تشجيع الحزب العامل، لأنهم من الطبقة المسلحة، ونحن نذكر المفكرين منهم وهم: السيد هادي زوين، والسيد كريم السيد سلمان، والسيد كاظم السيد سلمان، وعبد الرزاق عدوة، ومحمد أبو شبع، ورسول تويج، وتومان عدوة، وحمود الحار، والحاج محمد الحاج عبد الله الهندي، وعبد الصاحب هويدي.

وقد تبع السيد هادي من نجفي الحيرة المسلحين، وغيرهم ما لا يقل عن ألف مسلح، وتبع محمد أبو شبع ورسول تويج ما لا يقل عن خمسمائة من نجفي الكوفة وغيرهم، وتبع الباقين ما لا يقل عن مائة وخمسين مسلحاً باسم الجيش الوطني

المحارب، وصرف محمد الهندي على الجيش الوطني ما لايقل عن عشرين ألف ربية من خالص ماله.

وكانت هذه المكتبة مركزاً إلى المراجعة في أوقات مختلفة، وهي في عين الزمن مرتبطة في مركز الحرب السري كل الأرتباط، وأعضاء هذا الحزب هم أغلب أفراد الطبقة الأولى، وقد استغنى هذا الحزب مع مكتبه عن وضع البرامج على ورق مستغنياً عن ذلك بما تحلى به أعضاؤه من الثقة المتبادلة والإخلاص والتضحية، غير أنَّهم إتخذوا لهم مركزاً وهو غرفة في ساحة في زاوية مخفية في مدرسة الملاّ كاظم المجتهد في محلة (الحويش)، وقد دعاها الحزب بغرفة السياسية، وهي تعود للسيد محمد علي كمال الدين.

وفي هذا المركز تعمل جميع المقررات والوثائق والمراسلات والأعمال والنشرات السرية بعد أن يمهد لها في المكتب المتقدم ذكره أو في المجالس الخصوصية.

وكان هذا الحزب مع مكتبه مصدر جميع الأعمال قبل الثورة، بل مصدر معظم الحركات الوطنية منذ الحرب العامة، وقد قام بعض أفراد هذه الطبقات مع الطبقات الأخرى بالثورة النجفية ضد الإحتلال سنة ١٩١٨.

قام هذا الحزب السري مع مكتبه ببث الدعوة للحركة الوطنية سيّما بعد أن أنضم إليه زعماء قبائل الفرات الأوسط وساداته أمثال: السيد علوان الياسري، والسيد قاطع العوادي، والشيخ عبد الواحد الفرعون، والشيخ علوان الحاج سعدون، والشيخ غثيث الحرجان، والشيخ شعلان أبو الچون (أبو الكون).

وكان لإستفحال أمر الحزب أثر عظيم على المجتهدين من العلماء، فقد تركهم في أمر واقع واجتهد أعضاء الحزب السري في إفهام المجتهدين أن للبلاد حق المطالبات الأدبية، وحرية الاختيار بموجب مواد الرئيس ولسن[1]، فما كان من هؤلاء

---

(١) وهي المواد التي طرحها السير أي. تي. ولسن نائب الحاكم الملكي العام في العراق لاستبيان وجهة نظر العراقيين في الأمور التالية:

أولاً: هل يرغبون في دول عربية واحدة، تحت الوصاية البريطانية، تمتد من الحدود الشمالية لولاية الموصل حتى الخليج؟

ثانياً: هل يرغبون، في هذه الحالة، في رئيس عربي بالاسم يرأس هذه الدولة الجديدة؟

ثالثاً: من هو الرئيس الذي يريدونه في هذه الحالة؟.

المجتهدين حسب الأسس الدينية إلا أن وضعوا هذا الموضع في بوتقة التحليل والبحث والجدل العلمي الديني، وبعد مباحثات أصولية وفقهية أفتى معظمهم بضرورة المطالبات الأدبية فقط.

وكان هذا التكتل والوفاق بين شيوخ الدين وبين حزب البلاد وزعماء الشعب مدعاة للاتصال والتحرش بأكابر بغداد فأبطال دمشق من العراقيين سيّما محمد جعفر جلبي أبو التمن، والسيد محمد الصدر، غير ان هذا الأتصال ظهر أثره بعد وصول محمد رضا الشبيبي إلى دمشق سنة ١٩١٩م لدى أبطالها أكثر منه لدى غيرهم.

وبعد أن تجلى أمر الحزب وأعماله إلى رجال الإحتلال وعرف معظم أعضائه بدأ الإحتلاليون يحسبون له ألف حساب، ويعملون على إفساد خططه، وتفريق أعضائه، وتهديدهم وإضرارهم مادياً وأدبياً. فأضطر الحزب إلى توسيع دائرته ونشط للعمل على إدخال بغداد والموصل ولواء الغراف ولواء العمارة إلى ميدان العمل فنجح وحالفه بعض زعماء الغراف وكذلك بعض زعماء لواء العمارة.

ودخلت بغداد للميدان بقوة لا مثيل لها يغذيها أبطال دمشق مادياً[١] وأدبياً، وقام هؤلاء الأبطال بحركة العصابات في شمال العراق والجزيرة[٢]، ولكنها ويا للأسف بقيت في موضعها ولم تتسع ولم تدم حركاتها، بل أطفئت في أقل من شهر؛ وذلك في نهاية مايس ١٩٢٠م تقريباً. وكانت هذه الحركة ـ حركة العصابات ـ مشجعة للبعض من الأحزاب التي عمت العراق، ومخيفة للبعض الآخر خاصة وقد ظهرت غطرسة الإحتلاليين.

باشروا بعقد المؤتمرات لوضع الخطط للضرب على يد العاملين سيّما الفرات الأوسط وحزبه، فأوقد الحزب محمد علي كمال الدين وفوضه في مفاوضة أقطاب بغداد في الإسراع للعمل المثمر قبل نزول الضربة، وأكتفى الموفد بمفاوضة محمد

---

(١) ينفي رجال الثورة ومفكريها ورود أموال أو ذخائر من سوريا إلى العراق، سوى مبلغ لا يتجاوز ٤٠٠ جنيه دفع في أوائل سنة ١٩١٩م ـ أي قبل نشوب الثورة بسنة ـ لكي يصرف على بعض الجمعيات العراقية التي كانت حينذاك في أبان تأسيسها.

وللإطلاع على تلك الآراء انظر: عبد الرزاق الحسني: الثورة العراقية الكبرى، ط٣، ص٢٢٤ـ٢٤٥.

(٢) يقصد حركات تلعفر والجزيرة.

جعفر جلبي أبو التمن، وأنتجت المفاوضة أن يجمع أبو التمن شمل حزبه ويفاوضه في الخطط اللازمة وعلى أن يحضر إلى كربلاء بمناسبة منتصف شعبان[1] هناك.

وانتهز الحزب في النجف هذه الفرصة ودعا جميع الرؤساء والزعماء المتحالفين إلى الحضور في كربلاء.

وانتهى مؤتمر كربلاء على تشكيل وفود في كل بلد لتبدي الوفود آراء الشعب إلى حكامها وإصرارها في الإختيار، وقرر أن لا يتصل الزعماء والرؤساء بدور الحكومة مهما أمكن، وقرروا أيضاً أن يبارح المجتهد الشيخ محمد تقي كربلاء بعد عقد المؤتمر في داره، ولكن بعد انفضاض المؤتمر ناقش حزب النجف، خاصة في مركزه، هذه المقررات، فأقرها ما عدا مبارحة المجتهد كربلاء خشية أن ينشط الحزب المعارض بها.

وأضاف الحزب النجفي أن يقام في بغداد وفي جميع المدن العراقية المآتم الحسينية والمواليد النبوية تحت ستار الدين في الجوامع، هناك تلقى الخطيب لتكون نواة لإقامة المظاهرات وانتخاب الوفود المفاوضة وعلى أن تبدأ بغداد في ذلك؛ لأنها أبعد عن الثورة المسلحة، وقد افهم الحزب هذه المقررات بلسان رئيسه الجزائري حضرة المنتدب أبو التمن الذي زار النجف يوم ١٥ شعبان.

وبعد هذا المؤتمر نفذت خططه وقامت قيامة بغداد، تلتها سائر المدن ونظمت الوثائق والاحتجاجات في كل مكان وأرسلت بيد إبراهيم كمال ـ أحد أبطال دمشق ـ فذهب بها ولكنه لم يكد يصل حتى أنحلت الحكومة العربية هناك.

وكان للحزب وللمكتبة ومعتمدون في معظم مدن العراق، فمعتمده في بغداد أبو التمن، والسيد محمد الصدر، والوسيط إليهما غالباً محمد باقر الشبيبي أو أخوه جعفر الشبيبي، ومعتمدهم في الرميثة والسماوة الشيخ رحيم الظالمي، وفي كربلاء الشيخ أحمد الملاّ كاظم، ومحمد حسن أبو المحاسن، وفي الحلة الشيخ مهدي البصير، والسيد محمد الباقر، ومحمد السيد موسى كمال الدين، وفي الدغارة السيد كاظم عوزي، وفي عفك والهاشمية والجزيرة السيد قاطع العوادي، وفي الغراف الشيخ علي

---

(١) ١٣٣٨هـ، المصادف ٥ أيار ١٩٢٠م.

الشرقي، غير أن الأخير لم يستطع على تنفيذ خطة الحزب في إثارة الغراف إذا ما وقعت الثورة، الأمر الذي أوجب سخط بعض أعضاء الحزب بدون مبرر، ومعتمد الحزب في الناصرية الشيخ عبد الحسين مطر، وفي سوق الشيوخ الشيخ محمد حسن حيدر، وفي البصرة الشيخ عبد المهدي مظفر، وفي الحيرة وأبي صخير السيد هادي زوين، وفي الكفل وما جاورها عبد الأمير الشكري، وفي الكوفة محمد أبو شبع ورسول تويج.

وبواسطة هؤلاء المعتمدين كانت صلات الحزب والمكتب دائمة مع معظم البلاد وكان الحزب على علم بجميع مايجري من الأوامر والحركات العسكرية والسياسية لحكّام الإحتلال ولجيشه الجرار.

وكان هذا المكتب يقوم بتوزيع النشرات السرية والصحف الواردة من دمشق ومن غيرها التي يقرر الحزب إذاعتها، على أن الحزب كان شديد الحذر والتكتم في أعماله ومراسلاته أولاً، ويتخذ أغرب الطرق لإخفائها، ومن هذا القبيل الوثائق والكتب المرسلة إلى الحجاز وسورية فقد أخفاها صاحب المكتبة نفسه بين طيات جلد نسخة من القرآن الكريم، وأوفد بها الحزب محمد رضا الشبيبي في سنة ١٩١٩م تلك الوثائق المتضمنة مطاليب العراق في الاستقلال والمنددة لسياسة الإحتلال وطلب فيها إلى الملك الحسين إيصالها إلى مؤتمر السلام وإلى الحكومة الأميركية.

وهذه الوثائق كانت كثيرة وعظيمة وقّع عليها معظم زعماء الفرات الأوسط وبعض زعماء الغراف عدا أهل مدن الفرات من علماء وتجار وأعيان وشبان، وعلى أساس هذه العرائض وغيرها أعلن استقلال العراق في دمشق بحضور الموفد النجفي الشيخ الشبيبي[1].

---

(١) فيما يلي نص إحدى المضابط التي حملها الشبيبي إلى الشريف حسين:

إلى ملك العرب الحسين بن علي

السلام عليكم ورحمة الله.

أما بعد،

فإن الحلفاء في الحرب العظمى، أذاعوا على سكان العراق في هذه الأيام منشوراً عاماً فحواه أنهم لم يحاربوا إلاّ لتحرير الشعوب، وأن يكون لكل شعب من الشعوب حق تقرير مصيره بنفسه، وإدارة شؤونه من قبله، ولم يكن لهم نية الفتح والاستعمار، وبناءً على هذا طاف الحاكم الملكي العام في العراق، واجتمع بكافة الزعماء والرؤساء والعلماء، طالباً إليهم أن يبدوا رأيهم في النقاط التالية:

أولاً: في حدود المملكة العراقية، وما إذا كانت الموصل جزءاً من العراق أم لا؟ =

وقد قام المكتب بنشر العلم العربي الوارد إلى الحزب من سورية[1] بيد رسل من البدو ولأول مرة رسمت صورة العلم العربي على جدار في مركز الحزب، ودسه المكتب إلى أحد الخياطين المنتمين للحزب فعمل منه علماً ورفعه على سطح سوق الخياطين، ثم وزع في جميع المدن الفراتية والقرى والأرياف.

وبعد أن وقعت واقعة الثورة وثارت رصاصة الرميثة عظم شأن المكتب وتطوّر أمر الحزب وأصبح علنياً باسم (الحزب الوطني) فرفعوا العلم العربي في دار حكومة الثوار في النجف والكوفة والحيرة، وأرسل علم رفع في كربلاء باحتفال مهيب[2]، ولأول مرة حمل الجيش الوطني النجفي العلم العربي وسار إلى جبهة المسيب، ثم عم استعمال العلم لدى سائر جيوش الثوار.

وقام المكتب خلال الثورة في نشر النشرات التي يطبعها الحزب ويقوم بتنظيمها محمد باقر الشبيبي، وتتضمن سير المعارك في مختلف ميادين الثورة، وقام بنشر جريدة (الفرات) التي صدرها الحزب، وجعل رئيس تحريرها محمد باقر الشبيبي[3]، وكذلك قام الحزب بنشر جريدة (الإستقلال) النجفية بعد احتجاب جريدة الفرات[4]،

= ثانياً: في الحكومة التي يرغبون فيها، والأمير الذي يملكونه في البلاد؟

وبعد المداولات والمذاكرات، أبلغوا الحاكم السياسي البريطاني العام في العراق بأن الموصل جزءٌ لا يتجزء من العراق، وطلبوا إليه تأسيس حكومة، عربية، دستورية، على أن يكون أحد أنجال جلالتكم ملكاً على العراق كما يبلغكم تفصيله المندوب السامي من قبل عموم العراقيين الشيخ محمد رضا الشبيبي، والله ولي التوفيق.

التواقيع

(١) يحتفظ المحقق بنسخة من صورة العلم العربي الوارد من قبل المؤتمر العراقي في دمشق مرسلة إلى السيد محمد بن السيد حسن الصدر الكاظمي.

(٢) رفع العلم في كربلاء على دار البلدية يوم الخميس ٢٣ محرم ١٣٣٩هـ/ ٦ تشرين الأول ١٩٢٠م عند تنصيب السيد محسن أبو طبيخ متصرفاً للواء كربلاء من قبل الثوار.

يذكر السيد علي البازركان في (الوقائع الحقيقية ص١٩١): ذهبت إلى السوق في النجف بعد تعيين السيد محسن أبو طبيخ في منصبه واشتريت الأقمشة الحريرية اللازمة لعمل العلم العربي العراقي، وذهبت إلى أحد الخياطين وعلمته كيفية صنع العلم ذا أربعة ألوان، وبعد أن انتهى من خياطته أخذته وسافرت إلى كربلاء وبصحبتي السيد طه البدري لتهيئة أسباب الزينة والمتصرف الجديد.

(٣) صدر منها ٥ أعداد، كان الأول في يوم السبت ٢١ ذي القعدة ١٣٣٨هـ والأخير في يوم الأربعاء ٢ محرم ١٣٣٩هـ.

(٤) صدر منها ٨ اعداد، كان الأول في يوم السبت ١٨ محرم ١٣٣٩/ تشرين الأول ١٩٢٠م والأخير في يوم=

ولكن بدراهم شاب كان لاجئا للثوار لم أستطع من معرفته، وقام بتحريرها إثنان: محمد عبد الحسين، ومحمد علي كمال الدين، غير أن الأخير أغفل اسمه لإعتبارت عائلية.

ولم تحمد أعمال المكتب وحزبه إلا بعد خمود نيران الثورة، وتفرق أعضاء الحزب.

الانتداب في النجف والشامية أو المسألة العراقية:

في منتصف شعبان صدر قرار الجامعة المتشعبة في كل القطر تقريباً[1] على اتخاذ التدابير الفعلية لتشكيل مؤتمر عراقي يطالب بحقوق البلاد وأستقلالها التام الخالي من كل حماية أو وصاية أو غيرها.

ولما رأى علماء البلاد وعقلائها وأدبائها وكتابها وأساتذتها ورجال جامعاتها، وجوب انتداب عدة افراد من عقلاء كل بلد وأعاظمها الوطنيين لينوبوا عن الأمة في مطالبة الحكومة بالسماح لها في تشكيل مؤتمرها وإعطائها الحرية التامة في الإجتماعات والمظاهرات السلمية، وفي المنشورات والمطبوعات الصحافية والمواصلات مع الأمم الأجنبية.

وقرروا ضرورة ذلك ليتكفل المؤتمر بتأسيس حكومة عربية عراقية يرأسها ملك مسلم عربي، باشر أهل مدينة النجف وبقية لواء الشامية في عمل الأعمال الضرورية مقدمة للإنتداب، كما باشر في ذلك البغداديون والكاظميون الذين سبقوا كل أهل العراق فإنه مذ حلّ شهر رمضان المبارك سنة ١٣٣٨هـ، أخذ البغداديون في الاجتماعات العلنية والجلسات المولودية ثم المظاهرات الكبرى.

الاجتماعات السرية في النجف:

يوم الحادي عشر من رمضان[2] طرق سمع عموم النجفيين مظاهرات بغداد فأخذ رجالهم وأفاضلهم يجتمعون سرّاً هم وبعض رؤساء الشامية، وبعد الاجتماعات

= الخميس ٢٠ محرم ١٣٣٩/ ١٣ تشرين الأول ١٩٢٠م.

(١) في ١٥ شعبان ١٣٣٨هـ/ ٥ آيار ١٩٢٠م، ويقصد بالجامعة المتشعبة هم الرؤساء والزعماء الذين حضروا هذا المؤتمر.

(٢) ١٣٣٨هـ.

العديدة صمموا على مذاكرة علمائهم واستفتائهم ليحوزوا رضائهم ومعونتهم.

الاجتماعات العلنية:

أجتمع علماء النجف الأعلام ليلتان مهمتان في دار حجة الإسلام شيخ الشريعة الأصفهاني ليلة السادس عشر[1]، وبعد المداولة أجمعوا على وجوب المطالبة بإستقلال البلاد وأنشاء حكومة عربية من أهل البلاد تجمعهم معها جامعة الدين والعنصرية[2] وعلى وجوب عقد المظاهرات الوطنية ليشد بها أزر البغداديين ويزيد نشاطهم في أعمالهم ثم مباشرة الأهلين في أنتخاب مندوبين عنهم ليطالبوا بحقوقهم الشرعية.

ثم أستحسن العلماء على أن يرشحوا هم رجالاً من أهل المعرفة والعلم والتدابير على طريق الانتخاب ليعرضوهم على أهل البلاد فيما إذا شاؤوا انتخابهم.

وفي الليلة السابعة عشر[3] اجتمعوا وقدموا أوراق الانتخاب فكانت الأكثرية على انتداب الشيخ الجزائري والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، ومحمد جعفر أبو التمن والميرزا أحمد نجل المرحوم الشيخ ملا كاظم، والشيخ اسحاق نجل المرحوم الميرزا حبيب الله.

ثم تريث العلماء والأشراف والتجار والأعيان في تنفيذ أعمالهم إلى أن يكسبوا الثقة من العائلات التي شنقت الحكومة رجالها، وصادرت أموالها في الثورة النجفية المشهورة، وأحضر زعمائهم أمام العلماء فوعظوهم، وبالغوا في إرشادهم على نبذ نوايا السوء، لأن الوقت قضى بالسكينة، ونزع الغل من الصدور لتجتمع كلمة الأمة في مطالبتها بحقوقها، وأجاب أولئك الزعماء دعوة علمائهم وأقسموا أن لا يصدر منهم أو من تابعيهم ما يعرقل مساعي الأمة، ويوقع بحكومة الإحتلال من الحركات الجهلية محافظة على تعاضد الشعب يداً واحدة ليصل إلى الغاية الشريفة التي لا تحصل إلا بالاتحاد في المطالبة.

ثم عرض العلماء على أعيان النجف وأهل الشامية تلك الأسماء المرشحة للانتداب

---

(١) من رمضان ١٣٣٨هـ.

(٢) يقصد التكتل الديني، ويعتبر الدين عنصراً أساسياً في جمع الكلمة.

(٣) من رمضان ١٣٣٨هـ.

من قبلهم، وبعدما مخّض الناس تلك الأسماء وغيرها قدموا إلى العلماء ضرورة تغيير هذا الترشيح ولا سيّما أهل الشامية المجتمعون آنئذ في أبي صخير والمشغولون في عمل المظاهرات الأدبية الكبرى، وغرضهم أن ينتخبوا رجالاً يمثلون عموم طبقات الأمة.

وفي ليلة عشرين من شهر رمضان دعا العلماء عموم زعماء الشامية فحضروا في النجف ثم عقد رجال الأعمال اجتماعاً في دار السيد نور حضرة جملة من أعيان النجف وبعض زعماء الشامية وساداتها، وتلي عليهم كتب الشيخ الشيرازي القاضية بوجوب المطالبة باستقلال البلاد العراقية، كما تليت عليهم كتب مندوبي بغداد، ثم جرى الكلام في ترشيح المندوبين من جديد.

انتخاب المندوبين:

كانت نتيجة الجلسات التي انعقدت عدة مرّات من أهل النجف والشامية والمداولات الطويلة فيها أن انتدبوا الأسماء الآتية بعدما عرضوهم على العلماء، وهم من قسم العلماء والأعيان حضرات الأفاضل: الشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ جواد الجواهري، والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، ومن قسم الأشراف ورؤساء القبائل: السيد نور، والسيد علوان، ومن قسم التجار: الحاج محسن شلاش.

ثم كتبت وثائق اعتمادهم، وأول من وقع عليها علماء البلاد وهذه صورتها:

صورة وثيقة الانتداب التي وقعت في ١٨ رمضان سنة ١٣٣٨ هـ ثم كتبت ثانية لتغيير صورة الانتخاب في ٢٠ رمضان سنة ١٣٣٨ هـ.

نحن عموم أهالي النجف علمائها وأشرافها وأعيانها وممثلي الرأي العام فيها وكافة أهل الشامية وساداتها وزعماء قبائلها وممثليها قد انتدبنا بعض علمائنا وأشرافنا ووجهائنا وهم حضرات:

لأن يمثلونا تمثيلاً قانونياً صحيحاً أمام حكومة الإحتلال في العراق، وأمام عدالة الدول الديمقراطية والتي جعلت من مبادئها تحرير الشعوب، وقد خوّلناهم أن يدافعوا عن حقوق الأمة، ويجهروا بإستقلال البلاد العراقية بحدودها الطبيعية العاري من كل تدخل أجنبي في ظل دولة عربية وطنية يرأسها ملك مسلم عربي مقيد بمجلس تشريعي وطني.

هذه هي مطالبنا لا نرضى بغيرها ولا نتوانى عن طلبها، ومنه نستمد الفوز والنجاح، وهو حسبنا ونعم الوكيل.

اجتماع تاريخي هام عقد لثلاثة أمور:

أولاً: التوقيع على ورقة الانتداب.

ثانياً: الإتحاد والإتفاق في عموم زعماء اللواء على المطالبة بالحقوق.

ثالثاً: تحريض العائلات المدميّة ـ المتضررة ـ من الحكومة على التزام السكون والطاعة مدة المطالبة بالحقوق الوطنية وحين المظاهرات الأدبية.

عقده الوطني الكبير الحاج عبد المحسن شلاش في داره ليلة الحادي والعشرين من الشهر المبارك ودعا علماء النجف الأعلام واشرافها وأفاضلها وكتابهاورجال العمل فيها وتجارها وزعماء حزبيها (الزكرت) و(الشمرت) المتشاكسين والمتحاقدين من مدة أكثر من قرن، ومن بينهم زعماء منكوبي الحكومة، كما دعا سادات الشامية والكوفة وزعماء قبائلها وأعيانها.

فكان إجتماعاً هاماً جداً لما حواه من أعاظم اللواء، وقد ساد فيه السكون والهيبة، وقد تكلّم فيه أغلب أولئك الأكابر، وكل كلامهم يرمي إلى وجوب الاتحاد والتعاون على العمل في خلاص البلاد.

وأطنب الشيخ الجواهري في خطابه حاثاً لهم على جمع الكلمة وإحكام عرى الإتفاق، ونبذ الأحقاد والضغائن الذميمة المفسدة للأعمال والمضيعة للحقوق محافظة على الإتحاد في المطالبة المشروعة كما هو دأب جميع أمم العالم اليوم في إدراك مقاصدها وتحصيل إستقلالها القومي طبقاً لمبدأ حرية الشعوب.

ثم بيّن لهم الخطر المحدق ببلادهم ووطنيتهم فيما إذا إستكانوا إلى ما هم عليه بدون مراجعة أو مطالبة، وأن ذلك مما يكسب لهم العار ويظهر للعالم سقوطهم وعدم أهليتهم.

وبعد أن أتمَّ خطابه قدمت بين أيدي الحضور وثائق الإعتماد، فوقع عليهم كل الذين لم يوقعوا بعد من السادات والأعيان والتجار والزعماء وغيرهم، ثم انفضّ الاجتماع وملأ نفوس الأمة آمالاً وسروراً.

تنفيذ قرار سابق:

وافق المندوبون على إقرار المرشحين من قبل العلماء الذي تمَّ في ليلة العشرين، والذي نظمت فيه مطاليب الأمة التي يجب تقديمها إلى حكومة الإحتلال.

تنفيذ قرار آخر:

ووافقوا أيضاً على وجوب تحرير صورتين تقدّم واحدة إلى الحاكم الملكي العام بتوسط حاكم لواء الشامية والنجف، وتبقى الأخرى محفوظة عندهم بعد التصديق عليها من قبل الحاكم المذكور لتعتبر رسمية، وقد وقعت هذه التنفيذات من المندوبين في الجلسة الأولى.

أول جلسة للمندوبين:

في نهار الثاني والعشرين من الشهر المبارك سنة ١٣٣٨هـ عقد مندوبو النجف الأشرف والشامية جلستهم، وقرروا فيها أن يطلبوا من حاكم النجف تعيين الوقت القريب للاجتماع به وتبليغه مطالب الأمة، فكتبوا في ذلك كتاباً حمله حضرة السيد علوان آل سيد عباس أحد المندوبين وسلّمه إلى الحاكم المذكور في الكوفة، وهذه صورة الكتاب:

إلى حضرة حاكم سياسة الشامية والنجف دام مجده.

بعد تقديم ما يلزم من الإحترامات.

نبدي إننا منتخبي النجف الأشرف والشامية المندوبين من قبل الأمة التي فوضتنا على المطالبة بحقوقها المشروعة ورغائبها المقدسة، نطلب من حضرتك تعيين اليوم والساعة لمفاوضتك، بصفتك ممثل الحكومة المحتلة حتى لا يبقى بعد مجال للشكوك والارتيابات وتزول بذلك دواعي القلق السائدة على الأمة.

واقبلوا فائق الاحترام.

وفي اليوم الثالث والعشرين أجاب الحاكم على كتاب المندوبين:

صورة جواب الحاكم البريطاني.

إلى حضرات الشيخ جواد صاحب الجواهر، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، والشريف السيد نور، والشريف السيد علوان،

والحاج محسن شلاش المحترمين.

بعدم تقديم الإحترامات اللائقة.

نعرض لحضراتكم أنه وصلنا كتابكم، وقد عيّنا بكرة صباحاً ـ يوم السبت ـ الساعة الثانية ونصف ـ لملاقاتكم جميعا في إدارة الحكومة في النجف، ودمتم موفقين.

١١ جون سنة ١٩٢٠ حاكم سياسة لواء الشامية

٢٣ رمضان نوربري

وفي ذلك النهار ـ نهار الاثنين والعشرين ـ كان قد قدم حضرة شيخ الشريعة الأصفهاني كتاباً إلى حاكم سياسة الشامية والنجف.

مضمون الكتاب:

المطالبة في الإسراع بتعيين وقت الإجتماع مع وكلاء الأمة للدفاع عن استقلال بلادها والتحذير للحكومة من وقوع الفتن والاضطرابات فيما إذا غضّت عن الجواب على مطالب الشعب.

فأجابه الحاكم المذكور يوم الثالث والعشرين.

صورة جواب ممثل بريطانيا إلى حضرة حجة الإسلام شيخ الشريعة.

إلى حضرة حجة الإسلام والمسلمين، آية الله في العالمين، شيخ الشريعة الأصبهاني دامت بركاته.

بعد تقديم الإحترامات الفائحة..

نعرض لحضرتكم أنه وصلنا كتابكم الشريف، فصرنا ممنونين ومتشكرين من عبارتكم.. وقد عينا بكرة صباحاً ـ يوم السبت ـ الساعة اثنان ونصف لملاقاة المندوبين في دائرة الحكومة في النجف. ليكون معلوم حضرتكم، بادرنا إلى تحرير هذا الكتاب ودمتم موفقين.

١١ جون سنة ١٩٢٠م حاكم سياسة لواء الشامية

٢٣ رمضان سنة ١٣٣٨ نوربري

الجلسة الثانية للمندوبين والمذاكرة فيها:

بعدما ورد من حاكم لواء الشامية الجواب المتقدّم نصه، عقد المندبون جلستهم ليلة السبت في دار الشيخ جواد الجواهري في الساعة الرابعة من الليل، وأفتتح الجلسة

الشيخ الجزائري، فقدم عدة أسئلة منتظمة على أحدث طراز للمجالس النيابية الراقية، ولا غرو فإنَّ لهذا الشيخ الكبير ماليس لغيره من سعة العلم والإطلاع والحنكة والتدبير، وهو المصدر لكل الحركات والأعمال الوطنية الكبرى في كل العراق، وسينصفه المؤرخ إذا أراد بيان فلسفة هذا التاريخ وتعداد رجال الأعمال وتقديرهم حسب أعمالهم وهو الحري بلقب (رئيس النهضة العراقية).

أسئلة رئيس النهضة الشيخ الجزائري:

أولاً: هل ترون رجحان تجمهر الأمة وتظاهرها صبيحة الغد، وتعطيل الأسواق، وتوقيف الأعمال لتأييد الوفد وتنشيطه؟

ـ وبعد إستشارتهم واحداً فواحد، جاء الأكثرية بعدم ترجيح ذلك، ثم إستشارتهم في المكان الذي سيجتمع فيه المندوبون قبل ذهابهم، فكان رأيهم الإجتماع في دار الحاج محسن شلاش.

ثانياً: هل يجب أن يكون المتكلم واحد عند ملاقاة الحاكم أو لكل فرد من النواب حق الكلام؟

ـ أتفق كل المندوبين في أن يكون المتكلم واحداً.

ثالثاً: من هو الرئيس للمندوبين والمتكلم عنهم؟

ـ رأى الجميع على أن يكون الشيخ الجواهري لسان المندوبين ومتكلمهم، إلا إذا اقتضى المقام أن يتكلم أحد النواب فلا يعارض، بل ينتظر المندوبون كلامه حتى يتم.

رابعاً: إذا قدم المندوبون صك المطالبة إلى الحاكم فهل يطالبه المندوبون بورقة وصول لتكون لنا سنداً على استلامه اياها؟

ـ الجميع: يريد منه أخذ الوصول.

وبعد إنتهاء هذه الأسئلة تباحث المندوبون فيها سيفاوضون الحاكم فيه عدا المواد المقدمة تحريراً في الصك، وبعد المداولة اتفقوا على عدم المطالبة بغير تلك المواد، إلا إذا اقتضت الحاجة ذلك. وختمت الجلسة على هذا الترتيب المنتظم.

مجلس عجيب ومظاهرة مدهشة:

في هذه الليلة ليلة السبت[1] عقدت مظاهرة كبرى في الجامع الهندي، وكان الساعي في تأسيسها والطالب من المندوبين عقدها حضرة الشريف الوطني الكبير السيد قاطع، وقد تبرع السيد المذكور ببذل جميع مصارفها، وقد وقف بنفسه بباب المسجد يحيي المجتمعين ويستنهض هممهم، وهو أول اجتماع جرت فيه مراسم المظاهرة الوطنية على أحدث طرز.

فقد رقى المنبر حضرة السيد الأديب السيد محمد نجل السيد باقر الحلي من آل العالم، ونشد عدة أبيات من منظومة، فاستعيدت الأبيات الوطنية مراراً وتكراراً مع الهتاف العالي والتصفيق الحاد الذي أبانا الحكومة الإحتلال عظيم تنبيه الأمة بما لها من الحقوق الوطنية والاستقلال الطبيعي، وشدة إحساسها بثقل وطأة الأجنبي الغاصب، وبعد إكمال الأبيات خطب خطبة مختصرة مفيدة أبان فيها مطاليب الأمة المشروعة، فهتف له المجتمعون وصفقوا كثيراً، وكان هذا المجتمع يضم معظم طبقات الأمة العلماء والمندوبين والسادات والزعماء والتجار والأدباء والكتاب وسواد الناس، وكان عددهم يناهز السبعة آلاف تقريباً.

مقابلة المندوبين حاكم لواء النجف والشامية:

في الساعة المعينة الثانية ونصف من نهار يوم السبت ٢٤ رمضان حضر في دار الحكومة المحتلة وفد الأمة المؤلّف من حضرات المشائخ والسادات المذكورة اسمائهم، وقابل حاكم النجف والشامية وسلمه صورة الطلب عدد (١) المشتمل على المواد الآتي بيانها، وقدموا للحاكم صورة أخرى أيضاً من صور المواد وطلبوا منه التصديق عليها، كما طلبوا منه تنفيذ القرارات.

ثم جرت بينه وبين الوفد مذاكرات مهمة دونّها حضرة الأديب الشيخ باقر الشبيبي كاتب الوفد، وأثبت نصّها في سجل خاص:

وقد أحال الحاكم الجواب النهائي عن هذه المذكرة إلى جلسة رسمية أخرى جعل موعدهايوم الاثنين ٢٦ رمضان.

---

(١) ٢٤ رمضان ١٣٣٨هـ.

صورة الطلبات والمواد التي قدمها المندوبون نهار السبت:

إلى حضرة حاكم سياسية النجف والشامية.

لما طال انتظار الأمة العراقية لتحقيق وعود الحلفاء الرسمية ولا سيّما الحكومة البريطانية وتنفيذ عهودهم الأولية المقطوعة باستقلال البلاد التام، رأت أن السكوت عن المطالبة بحقوقها الصريحة لا يجوز لها بوجه من الوجوه، ولا يحسن بالأمة التي عرفت من نفسها الكفاءة على تسليم أزمة البلاد وإدارة شؤونها السياسية والاقتصادية أن تغض النظر عن المجاهرة بمقاصدها العالية ورغائبها السامية.

لذلك قرّر علماء النجف وأشرافها وزعماؤها وممثلوا الرأي العام وسادات الشامية ورؤساء قبائلها وممثلوها أن ينتدبوا وفداً لملاقاة الحكومة المحتلة يطالبها بعهودها وانجاز وعودها، وقد ندبونا نحن الموقعون أدناه المنتدبون من قبلهم على أن ندافع عن حقوقهم الطبيعية دفاعاً قانونياً، فقررنا في جلستنا المنعقدة في ٢٢ رمضان سنة ١٣٣٨/ ١٠ جون سنة ١٩٢٠م أن نطالب الحكومة المحتلة بإستقلالنا التام المؤيد في بياناتها الدولية وأن تنفذ بسرعة المطالب الآتية:

أولاً: أننا نطلب أن يؤلف الشعب باختياره مؤتمراً عراقياً قانونياً يجتمع أعضاؤه في عاصمة البلاد بغداد، ومهمته تأليف حكومة عربية مستقلة كل الإستقلال، عارية عن كل تدخل أجنبي، يرأسها ملك مسلم عربي.

ثانياً: نطلب رفع الحواجز عن ارتباط الشعب العربي العراقي وتفاهمه مع الشعوب الأخرى بحرية المواصلات وكافة المنشورات والمطبوعات.

ثالثاً: نطلب تمكين الأمة من عقد مجتمعاتها وإقامة منتدياتها في سائر مناطق العراق.

لما تم هذا القرار المشتمل على رغائب الشعب المقدس وأمضيناه قررنا في جلستنا الأولى المنعقدة في اليوم الثاني والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٣٨/ ١٠ جون سنة ١٩٢٠م أن نفاوض حكومة الإحتلال المحلية في تنفيذ هذه القرارات فطلبنا باسم العلماء والأشراف والسادات والرؤساء وممثلي الرأي العام في النجف وفي الشامية أنْ تعين الحكومة المذكورة وقتاً للإجتماع حتى نتمكن من رفع سوء التفاهم الواقع بين

الأمة وبين الحكومة المحتلة صيانة للأمن العام وحفظاً للنظام والسلام.

عبد الرضا الشيخ راضي	عبد الكريم الجزائري	جواد الجواهري
الحاج محسن شلاش	السيد علوان الياسري	السيد نور الياسري

حديث المندوبين السياسي مع نوربري:

في الساعة الثانية والنصف من صباح يوم الرابع والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٣٨ هـ، حضر رجال الوافد في دائرة ممثل بريطانيا السياسي بين جماهير المتظاهرين ودوي الهاتفين وهم حضرات: الشيخ جواد الجواهري، والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، والسيد نور آل سيد عزيز، والسيد علوان آل سيد عباس الياسري، والحاج عبد المحسن شلاش.

ولما أخذوا مقاعدهم فاه الحاكم السياسي قائلا:

ح ـ تكلموا يا حضرات النواب، ولكني أرجو أن يكون المتكلم واحداً.

فاتفق الكل على تعيين الشيخ الجواهري لافتتاح المفاوضة.

ح ـ ما هي المهمة التي جئتم من أجلها؟

الجواهري: إننا مندوبون من قبل الأمة في النجف والشامية ومهمتنا أن نوضح لكم مقاصد الشعب الذي أصبح قلقاً على مصيره. فنحن نطلب أن تحقق الحكومة البريطانية رغائب الأمة العراقية بإستقلال البلاد التام.

ح ـ أرجو أن تكتبوا مطالبكم على حدة حتى استطيع عرضها على حضرة الحاكم الملكي العام.

الجواهري: إن جميع مطالبنا مُدونّة على حدة كم تجدونها في الطلب.

ح ـ أنا معتبر مطالبكم قانونية شرعية، نرجو أن لا تخرجها الضوضاء في النجف عن كونها كذلك، فإن الضوضاء تغير صبغتها وقد تؤخر تنفيذها.

الجواهري: نعم، إن الشعب محافظ على السكون، ولم يخرج عن حد الإعتدال في المطالبة بحقوقه. نعم، إنه لا يستطيع السكوت.

ح ـ إن أهل النجف والشامية قد ندبوكم للمطالبة بحقوقهم فأنتم قادرون على إسكاتهم حرصاً على المصلحة، وأعتقدوا إني لا أستطيع أن أسمع صوت الشعب وصوت ممثليه في آن واحد، إني لا أقدر على أن أصغي إلى طلب الحق بالأذن التي

يوقرها الضجيج.

الجواهري: إنا لا نسمع ضجة مزعجة، فما هي الضجة التي أقلقت بالكم؟ نعم، إن في النجف ضجة، ولكنها لتأييد المندوبين الذين جعل الشعب حقه الطبيعي وديعة مقدسة عندهم، فالمظاهرات التي قامت بها النجف ليست مخالفة للنظام.

ح ـ من الممكن أن تؤيدوا مطالبكم بدون أن تحدث في البلاد هياج عام؟

الجزائري: إنَّ دوي المحافل في النجف دوي مشروع من كل الوجوه، لم يقصد منه إثارة القلاقل وتعكير صفو السلام، فالنجف لا تريد في قيامها الجديد أن تجدد عهد الحركات الأولى.

النجف تريد أن تحتفظ اليوم بأصول المدينة الحقة، فإذا كان النداء لطلب الاستقلال والهتاف لتأييد الحكومة العربية مخالفاً للقوانين الدولية، فلماذا لا تعده الأمم الأخرى كذلك حينما يقع مثله في بلادها. وإني أؤكد لحضرتكم أنا لا نستطيع كم الأفواه وحبس الأصوات، كما إنا لا نسئل عن وقوع الحوادث والاضطرابات إذا لم تحقق الحكومة رغبات الأمة.

ح ـ قد يتعذر على الحكومة تحقيق أماني الأمة على الفور.

الجزائري: لا بُدّ من تنفيذ المطالب المندرجة في الطلب، وإلا فإن المغبّة سيئة والعاقبة وخيمة.

المهلة في الجواب على مواد الطلب:

بعد جريان الحديث السياسي المتقدم، وإستلام ورقة الطلب من قبل نوربري ممثل بريطانيا، ترجى هذا البريطاني أن يمهل قليلاً ريثما يراجع الحاكم العام في الجواب على المواد المذكورة. وضرب لذلك موعداً يوم الاثنين.

الخلف في الوعد:

في إجتماع السبت المتقدم ورد الحاكم العام بطيارته إلى الجسر صباحاً، وقبل المقابلة المندوبين لنوربري اجتمع والحاكم العام، وأعطاه تعاليماً كثيرة منها طلب المهلة ثم الخلف بالوعد، ولذا قدم نوربري المذكور كتاب الأعتذار قبل موعد الاثنين.

كتاب الاعتذار من الحاكم نوربري الوارد قبل موعد الاثنين. نهار الأحد ٢٥ رمضان:

إلى حضرات مندوبي النجف والشامية.

غب التحية وفائق الثناء:

نحيطكم علماً بغاية الأسف عن حضوركم غداً، حيث أن المعاريض التي قدمتموها إليَّ أمس قدمتها لفخامة الحاكم العام، وقد أمر انتظار جوابه، حيث اخذها معه إلى بغداد، فحينما يرد الجواب نخبر حضراتكم عنها. ولكم في الختام مزيد الشكر، دام علاكم.

١٢ جون سنة ١٩٢٠ حاكم لواء الشامية

نوربري

إن التعاليم المُدرجة في هذا الكتاب قُدّمت إلى نوربري قبل اجتماعه بالمندوبين، دليلنا على ذلك أن الحاكم العام لم يرجع من طريق الجسر إلى بغداد.

صورة رد المندوبين المحترمين على كتاب الحاكم المتقدم:

إلى حضرة حاكم لواء الشامية والنجف.

بعد تقديم الإحترام لمقامكم:

أخذنا كتابكم المؤرخ ١٢ جون سنة ١٩٢٠م وأحطنا علماً بمحتوياته التي تأسفتم فيها على تأخر الجواب عن يوم الاثنين لأجل أمر فخامة الحاكم العام، بانتظار الجواب إلى أمد غير معين، فبهذا الجواب ومثله لا نستطيع رفع سوء التفاهم الواقع بين الشعب وبين الحكومة المعظمة، فنأمل من حضرتكم أن تجعلوا كتابنا هذا مستمسكاً للمطالبة بالجواب حتى يحسن ظن الأمة بالحكومة، فإنَّ الشعب ينتظر منكم الجواب العاجل، ولكم مزيد الشكر والثناء.

٢٦ رمضان سنة ١٣٣٨هـ

محسن شلاش	سيد علوان	سيد نور
عبد الرضا	الجزائري	الجواهري

الجلسة الثالثة للمندوبين:

بعدما قدم المندوبون ردهم المذكور إلى الحاكم قرروا عقد جلسة ثالثة للبحث فيما يجب اتيانه من الأعمال المشروعة تأييداً لمطالب الشعب الموقوفة من دون مسوغ

عقلي، فوقع قرارهم الأخير على نشر المقررات والطالبات المتقدمة وإذاعتها في أنحاء دجلة والفرات ليطلع على محتوياتها عموم الشعب العراقي الناهض فيعرف مساعي مندوبي النجف والشامية الجليلة.

فنسخت صورة تلك الأوراق وكتبت معها كتب خصوصية سلّمت إلى البريد لترسل إلى عموم أنحاء العراق.

الجلسة الرابعة للمندوبين:

لما رأى المندوبون عدم إعتناء البريطانيين بمطالب الأمة ونوابها والأعراض عن الجواب على طلباتها، عقدوا جلسة رابعة قرروا فيها إرسال برقية مطولة إلى القائد العام في بغداد يطلبون فيها مساعدته على تنفيذ مطالب الشعب العراقي التي لم تحصل حكومة النجف عليها جواباً يرضي الشعب ونوابه المحترمين، وقد وقع المندوبون على الصورة الآتية في الثامن والعشرين من شهر رمضان سنة ١٣٣٨هـ، وأبرقت في التاسع والعشرين منه.

البرقية التي قدمت إلى القائد العام:

بغداد.. لحضرة صاحب الفخامة القائد العام لجيوش الإحتلال.

إننا بصفتنا ممثلي الشعب تمثيلاً رسمياً طالبنا مكرراً ممثلي الحكومة المحتلة في النجف باعطائها الأمة العراقية حقوقها المهضومة طبقاً للعهود الرسمية المقطوعة لها بإستقلالها، وكانت مطالبتنا قانونية بإجماع الروحيين واتفاق آراء الرؤساء والمفكرين لدى الحكومة.

والأسف ملأ نفوسنا لم تجب جواباً يقنع الشعب، ولا يخفى على حضرتكم أن حفظ النظام وتوطيد أركان السلم العام خطة العلماء المثلى؛ لذلك نرجو من فخامتكم مساعدتنا على إقناع الأمة وفقاً لقانون حقوق الأمم ومبدأ حرية الشعوب.

٢٨ رمضان ١٣٣٨

محسن شلاش	سيد علوان	سيد نور
عبد الرضا	الجزائري	الجواهري

٧ـ حوادث النجف أثناء الثورة العراقية

انسحاب الإنكليز من النجف:

يخشى الإنكليز سطوة النجفيين الحربيين التي لاقوا منها الويلات أيام الثورة النجفية المشهورة، ولكنهم غفلوا عن الضربة القاضية التي أنزلوها على شجعان النجف في تلك الثورة التي سحقت الروح الحربية في النجف نوعاً ما.

ومن شدة خوف الإنكليز من النجفيين سارعوا إلى الإنسحاب قبلما يتفاقم أمر الثورة الفراتية، فأنسحب حاكم لواء الشامية انسحاباً رسمياً ليلة الثامن والعشرين من شوال ومعه الجنود الهندية والسلام والذخيرة والأموال، بل وكل اثقال الحكومة، وسكن بلدة الجسر[١]، ولكنه خلّف في النجف صورة للحكومة وهو حميد خان بن أسد خان ومعه عدة من الجنود العجمية، ولو أنه سلّم أمر البلد كله بيد السيد مهدي السيد سلمان ـ زعيم البلد ـ وجعل أمر هؤلاء منوطاً به فلا إرادة لهم في كل شيء.

إنزال العلم البريطاني:

وبقيت النجف بحال المسالمة ظاهراً إلى أن أنزل النجفيون علم الإنكليز يوم السادس ذي القعدة[٢]، فانحلت تلك الصورة الكاذبة وتجاهر النجفيون بأعمالهم التي أثارت كل البلاد.

إنحلال حكومة بريطانيا قبل إنزال العلم:

ساس علماء النجف ورجال العمل فيها وزعمائها أمر إسقاط حكومتها وأن يكون ذلك بغير ثوران وإراقة دماء، ولذا تعطلّت حكومتها الصورية فيها وقتاً ما، ولولا دهاء رجال الأعمال فيها وزعمائها لسالت فيها الدماء، فإنَّ الثوّار فيها كثيرون ولكنهم ارتبطوا بعقلاء البلد فأوقفوهم عن التسرع.

---

(١) الجسر: من أسماء مدينة الكوفة، وقد شاع استعماله تلك الفترة وما بعدها بقليل.
(٢) ١٣٣٨هـ.

حادثان غريبان:

الحوادث التي وقعت في النجف مما يدل على مبلغ انحلال حكومة الإحتلال فيها والواقع التي وقعت كثيرة منها الحادثان الآتي بيانهما:

(الحادث الأول: سرقة العلم البريطاني): في الليلة الرابعة من شهر ذي القعدة سرق الوطنيون علم الإنكليز من دار الحكومة الرسمي وخرّقوه تخريقاً تاماً وتركوه مكانه، وفي النهار أبدله حميد خان.

(سرقة العلم مرة ثانية): في الليلة الخامسة سرق النجفيون علم الإنكليز مرة ثانية وتركوه عمداً فارغاً.

(الحادث الثاني: مقتل رئيس البوليس عبد الصمد): نهار الخامس[1] قتل أحد الجنود الفارسية رئيسهم بدعوى أنه أعلن فدائية نفسه إلى الإنكليز، فأعلن القاتل فدائية نفسه للوطنية والإسلامية وأطلق عليه الرصاص بمحضر من كل الناس، ولوقوف بعض النجفيين على هذا الحادث وعظيم تاثر البلد من بريطانيا وجنودها خصوصاً المقتول عبدل الصمد، إجتمعوا على القاتل محبذين عمله، ثم نقل الأطفال جثة ذلك الفدائي الخائن دينه وحملوها بالسخرية والشتم، حتى أوصلوها المغسل وأرجعوها إلى المدن على هذه الصورة.

تقسيم تركة الإنكليز:

بعد إنزال العلم اغتنم النجفيون بقيّة السلاح الإنكليزي البالغ مائتي بندقية تقريباً وقسموه على أحياء النجف الأربعة، ووضعوا أيديهم على دور الحكومة وأموالها، وقد استرجع كردي بن عطية أبو كلل خان أبيه المغتصب من قبل إنكلترا والواقع شرقي البلد وخارج سورها، وقد أبقى النجفيون دفاتر الإنكليز وبعض أسباب إداراتهم وأسباب المدرسة والمستشفى مع دكتوره الهندي.

الاهتمام في تشكيل حكومة وطنية:

بعد انحلال حكومة الإحتلال اهتم النجفيون في تشكيل حكومة وطنية حتى لا تبقى البلاد فوضى، فانتخبوا ستة عشر رجلاً من أشراف البلد وأعيانها وأدبائها ليباشروا في

---

(١) من ذي القعدة ١٣٣٨هـ.

تشكيل الحكومة[1]، ولكن إنشغال الوطنيين بمحاربة الإنكليز المحاصرين في الجسر وغيره أوقف الأعمال مؤقتاً إلى أن ينجلي العدو وتطهر الأرض من فساده.

تحليق طيارتين في سماء النجف:

صبيحة السابع والعشرين من ذي القعدة، الساعة (٣) حلّق في سماء النجف طيارتان وألقتا بعض المناشير السلمية.

مضمون المناشير:

إلى أهالي النجف: إنَّ حكومة الإنكليز تستحسن سير النجف وعدم إشهارها السلاح على الحكومة، والذين تريده من النجفيين الدوام على هذا الحال وأن لا تنضم إلى عشائر الشامية، والحكومة الإنكليزية تعرف المفسدين وتقدر على معاقبتهم، وليست كالأتراك الذين أفسدوا البلاد وظلموا أهلها، فإنَّ إنكلترا دولة عدالة ورحمة.

جواب النجفيين على المناشير:

بمجرد أن حلقت الطيارتان في سماء النجف أطلق عليها الرصاص من جميع جوانب البلد في حين إنها تلقي بتلك المناشير المفسدة.

تحليق الطيارتان في سماء الجسر:

رجعت الطيارتان عن النجف، وحلقتا في سماء الجسر، والقتا أربع قنابل، إثنين في جانب البلد، والباقي في الضفة اليسرى، وقد أصابت القنابل حماراً فقتلته.

سفر النجفيين لحرب الإنكليز:

لم تزل همم العلماء والأشراف مبذولة في تجهيز قسم من شجعان النجف وقيامها بحاجياتهم، ثم إرسالهم إلى خطوط القتال وقد تألفت لجان للغاية نفسها، فتم في يوم ٢٨ ذي القعدة تجهيز مئات من شبان الوطن بزعامة ثلاثة أشخاص ملؤهم غيرة ووطنية، وقد سافر من هؤلاء شابان نشيطان وهما: حضرة الوطني الصادق السيد كاظم السيد علي السيد سلمان أحمد أعضاء الجمعية الفراتية ورئيس من رؤساء البلد، والثاني حضرة الشاب النجيب غازي آل شربة، وقد بقي ثالثهم وهوكبيرهم ورئيسهم

---

(١) سترد تفاصيل الانتخابات في الصفحات اللاحقة.

الحقيقي حضرة الوطني المتدين السيد كريم السيد سلطان السيد سلمان أحد أعضاء الجمعية الفراتية ومن رجال الأعمال، والداعي إلى تعطيله هو القيام بما يحتاجه المتطوعون وإرساله إليهم.

ويبلغ عدد المسلحين المسافرين من النجفيين الثلاثمائة، وقد سافروا مساء الثامن والعشرين من ذي القعدة، وشيعهم جمع غفير من أهالي النجف، فقد غص الصحن الشريف بالعلماء والطلاب والسادات والأعيان، وخرجوا لتوديع المتطوعين بين الألوية المنشورة والأسلحة المشهورة، وقد تعالت الأصوات بالتهليل والتكبير، فكان مشهد توديعهم من أعظم المشاهد، وسافر قبلهم بيوم متطوعة الجعارة[1].

سفر موكب ثان من المتطوعين النجفيين:

تحرك مساء غرة ذي الحجة[2] موكب المتطوعة الثاني بزعامة السيد نعيم السيد رعد، وجرى توديعهم من قبل العلماء والأعيان.

سفر بقية مواكب النجفيين المتطوعين:

من ثان ذي الحج إلى تاسعة أخذت المواكب النجفية تعاقب بعضها وراء بعض، فقد سافر موكب العمارة أصحاب كردي بن عطية، وموكب محلة المشراق، وموكب النجفيين المهاجرين من جبل حائل، وهم بأزياء بدو شمر ومعهم الطبل العربي، وينشدون نشيد شمر أصحاب مغيض بن سعد الحاج راضي، وسافر موكب البراق بمعية مطلق من آل المعمار والكل قصدوا الجبهة الغربية والتحقوا بأخوانهم النجفيين أصحاب سيد كاظم سيد سلمان في السدة، وفي سفر كل موكب يهرع أغلب النجفيين لمشايعتهم حتى العلماء والأشراف.

الانتخابات في النجف لتشكيل مجلس تشريعي ومجلس تنفيذي:

بعد سفر النجفيين المحاربين مسَّت النجفيين الحاجة إلى تشكيل حكومة وطنية تدرأ عنهم مفاسد الفوضى، فنادوا كلهم بضرورة تشكيل مجلسين في النجف، تشريعي وتنفيذي، وتألفت لذلك لجنة جمعت أفاضل النجف وأعيانها واشرافها منهم الشيخ

---

(١) الجعارة: من اسماء مدينة الحيرة، وقد شاع استعماله أيضاً في تلك الفترة.

(٢) ١٣٣٨هـ/ ١٥ آب ١٩٢٠م.

عبد الكريم الجزائري، والشيخ جواد الجواهري، وآل النقيب، والميرزا مهدي الخراساني، والشاب النشيط محمد جعفر أبو التمن البغدادي، والحاج محسن شلاش. ومهمة هذه اللجنة تقرير صورة الانتخاب وقانونه الذي يجب أن يُتَّبع، فقرروا عدد أعضاء التشريعي ثمانية والتنفيذي أربعة وهم رؤساء المشاهدة، كما أن الثمانية في غيرهم.

ومن قرارات اللجنة وضع صناديق في رؤوس الأسواق لتكون ظرفاً وورق الانتخاب، وقد وضعوها يوم عاشر ذي الحج، وفتحوها ونظروا أوراقها يوم ١١ فكانت نتيجة الإنتخاب عن محلة الحويش السيد سعيد كمال الدين، ووضعوا معه السيد ضياء الخرسان أخيراً، وعن محلة العمارة السيد عباس النقيب، والسيد علوان الخرسان، وعن محلة البراق عبد الجليل ناجي، ومحمد جواد أبو عجينة، وعن محلة المشراق حمود شبيل، وعباس شمسة.

وقد عقدوا أول إجتماع يوم ١١ ذي الحج في دار السيد عباس النقيب وقرروا أن يكون محلهم وداراً لحكومتهم، الدار الملاصقة للباب الكبيرة شرقي البلد، وعقدوا فيها إجتماعهم في يوم ١٢ وقرروا تأليف حرس وطني ليحافظ على النظام في البلد وعدده ستون، ثم توالت جلساتهم صبحاً ومساءً، وباشروا في تنظيم البلد وتضمين وارداتها، ولكن لقلة وجود الأعضاء الأحرار العاملين بينهم أوجب استقالة ابن عمنا السيد سعيد كمال الدين، واستقالة زميله ضياء الخرسان، وعدم حضور عبد الجليل ناجي.

فقد سعى هؤلاء الوطنيون في إصلاح المجلس، وإصلاح البلد سعياً حثيثاً وبالأخص السيد سعيد الذي هو محل ثقة عموم الأهلين فلم ينجح لأكثرية الأعضاء غير المقتدرين، ومنهم أعضاء المجلس التنفيذي وهم: السيد مهدي آل السيد سلمان، والسيد علي جريو، وكردي بن عطية أبو كلل، وحسين الظاهر الحاج راضي.

وهناك أسباب أخرى دعت السيد سعيد، والسيد ضياء إلى الانسلاخ من المجلس يوم ٢٥ ذي الحج[1].

---

(١) أورد السيد عبد الرزاق الحسني في كتابه (الثورة العراقية الكبرى) ص٢٠٩ـ٢١٠ تشكيلاً للمجلس=

أعمال المجلس هذه المدة من يوم ١١ ذي الحج إلى يوم ٢٥ منه:

أسرجوا البلد وأضاءوها، وكنسوا السكك والأزقة ورتبوا الحرس الوطني، وأرجعوا البلدية ورئيسها الحاج عبد الرزاق شمسه، ووضعوا المالية بيد الحاج محسن شلاش، وجعلوا كل موارد البلد تحت الضمان، وبذلك أوقفوا الفوضى وأمنت الناس، وتحسنت التجارة ولم يقع أقل حادث مشوش من سرقة وغيرها.

حميد خان وأحواله:

إن هذا الفارسي المستعرب، وأحد سكنة النجف لم يقصر في خدمة الإنكليز

= البلدي على النحو التالي:

(محلة المشراق):

١ـ عبد الرزاق شمسه.

٢ـ عباس شمسه.

(محلة البراق):

٣ـ عبد الجليل ناجي.

٤ـ محمد جواد عجينة.

(محلة العمارة):

٥ـ كردي أبو كلل.

٦ـ علوان الخرسان.

(محلة الحويش):

٧ـ السيد سعيد كمال الدين.

٨ـ الحاج حسين الظاهر.

وهذا يختلف عما ذكره السيد كمال الدين والذي اطلق عليه (المجلس التشريعي).

كما أورد السيد الحسني صورة المجلس التنفيذي مكونة من:

١ ـ كردي عطية أبو كلل.

٢ ـ الحاج حسين الظاهر.

٣ ـ السيد علي جريو.

٤ ـ السيد مهدي السيد سلمان.

٥ ـ الحاج عبد الله الشمرتي.

٦ ـ غيدان عدوة.

٧ ـ الحاج حسون شربة.

٨ ـ الحاج محمد الشرباوي.

في حين أن كمال الدين أشار بأن النجفيين قرروا تشكيل مجلس تشريعي يضم ثمانية أعضاء، وتنفيذي يضم ٤ أعضاء. وذكر اسماءهم.

ومحاربة الأمة، وقد خلف أباه أسد خان في خدماته إلى الإنكليز، بل فاقه، فقد خدمها خدمات جليلة أيام وجود الحكومة التركية ولم يتجاهر إلاّ في أواخر الحرب العامة يوم هرب من بغداد إلى الإنكليز في البصرة، بعد أن قضى في جاسوسيته أعمالاً هامة أفسدت أمر الأتراك وعرقلت حركاتهم العسكرية، ومذ دخل البصرة، دخل هو وأخوته وأقاربه في خدمة الحكومة المحتلة بعد سقوط بغداد، سعى فعُيِّنَ حاكماً على بلدة النجف[1] مسقط رأسه، فكان مصيبة دهماء على رؤوس الوطنيين، وقد أفسد على الوطنيين كثيراً من أعمالهم أيام الانتخاب العام، وعرقل المساعي بجده ونشاطه وكبير نفوذه في النجف لدى العلماء والأشراف والرؤساء والتجار.

ثم حارب النجفيين بيده ولسانه أيام الثورة النجفية المشهورة سنة ١٣٣٦هـ، وبعدها. ولم يألوا جهداً في العمل للإنكليز حتى قبض، وأما أعماله أيام إعلان الإنكليز الوصاية على العراق وطلبهم من العراقيين التصديق عليها، فقد فاقت أعمال الإنكليز أنفسهم، وقد دخل لها واستعمل طرقاً كثيرة منها بث الجواسيس واعطاء الدراهم والتهديد بالفتك من الإنكليز، حتى بلغت به الحالة أن هدد العلماء بأنواع التهديد، ولم يعتن لا بدينه ولا عنصريته.

ولما رأى فوران العراق ومطالباته بحقوقه، أخذ يقاوم الوطنيين بطرق شتى ويفسد عليهم انتخاباتهم للانتداب، حتى أنه سعى أخيراً بعدما خاب في مسعاه الأول بأن يوقع الفتنة بين أهل البلاد فتتقسم على نفسها وتتخرب، ولكن رجال الأعمال قضوا على كل مفاسده حتى ألجأوه أخيراً بعد إنحلال حكومته وإنزال علم بريطانيا، وأجبروه على أن يلقي الدخالة عند رؤساء النجف، ومع ذلك صار جليس داره خوفاً من الوطنيين.

نقطة سوداء في التاريخ:

مع كل ما بينا من سخط الأمة بهذا الرجل الخائن وأرادتها الوقيعة به، لم يعدم من خونة أمثاله غرَّهم الاصفر فتركوا دينهم وسحقوا وطنيتهم، فأعانوا الأجنبي. ومن آخرين جبلوا على المداهنة والمحاباة يلبسون لكل حالة ثوباً، وهؤلاء على قلّتهم لم يقصروا في معونتهم لحميد خان وللبريطانيين.

---

(١) يذكر الأستاذ جعفر الخليلي بـ «أن دخول حميد خان إلى الوظيفة جرى بناءً على حثّ أئمة الوطنية وزعماء البلد كالشيخ الجزائري، وأن البلد قد أفاد من وجوده ما لم يفده من الكثير من أهل الحزم والاخلاص.. » «هكذا عرفتهم ١/٤٩».

نقل حميد خان من النجف إلى كربلاء:

يسعى الوطنيون في إتلاف هذا الخائن وطرده من النجف، وفي الوقت نفسه سعى أولئك الخونة بإرساله مُعززاً إلى كربلاء، فسيَّر من الوطنيين مطروداً، ومن الخائنين مكرّماً، وقد غرَّ الخونة بعض رجال الأعمال فأصحبهم ذلك الخائن ليحموه من القتل، فسافر في أواخر العشرة الوسطى من ذي القعدة سنة ١٣٣٨هـ، ومعه السيد كاظم السيد سلمان والشيخ عبد الكريم الجزائري، والشيخ عبد الرضا الشيخ راضي، وبعض أشخاص من المشاهدة ومنهم، موسى بن علوان الحاج سعدون وأوصلوه إلى كربلاء، فحلَّ عند الكربلائيين على الرحب والسعة، وتالف له حزباً كبيراً من الإيرانيين هناك، وأستفحل أمرهم حتى كاتبوا الإنكليز يستقدمونهم إلى بلدهم، ولما زحف الجيش الإنكليزي من بلدة المسيب في أوائل ذي الحج قاصداً كربلاء حمل عليه الجيش الوطني فصدَّه بعد ما كبَّده خسائر فادحة وأرجعه إلى المسيب[1].

اعتقال حميد خان:

بعد إنكسار الجيش الإنكليزي قصد رؤساء الجيش الوطني بلدة كربلاء، وقبضوا على حميد خان ونفوه إلى بلدة الهندية محبوساً[2]، وقضوا بذلك على آمال الحزب الإيراني الأجنبي عن البلاد وتفرّق أعضاؤه.

السعي لفكاك حميد خان:

تشتت حزب حميد خان وتفرّق بعد اعتقاله، ولكنه ما فتر عن العمل على أطلاقه حتى نجح أخيراً بأن ألف وفداً بمساعي رجال الأعمال أنفسهم وحمله مكاتيباً من المندوبين وغيرهم، وأعضاء هذا الوفد من المشاهدة: السيد عبود السيد مهدي،

---

(١) جاء في هكذا عرفتهم ١/ ٤٩: «أدرك حميد خان انه معرّض نفسه للهلاك إذا بقي في النجف ساعة واحدة، فهمَّ بأن يخرج منها متستراً يقصد مدينة كربلاء ويغيّب نفسه فيها، لأن محيط كربلاء كان أرحب صدراً من النجف يومذاك».

(٢) كان اعتقال حميد خان في بيت خصص لسجنه تحت رقابة عمران الحاج سعدون، وحظر على الناس مواجهته، ورغم هذا فقد تمكن أسد الله والد جعفر الخليلي أن يزوره لمرتين ويطيل المكوث عنده.
وقصد أحد النجفيين؟ لاغتيال حميد خان في معتقله بالهندية تقرباً إلى الله ولوجه الوطنية، ودخل إليه وهو شاهر سلاحه، فقبض عليه الحارس والخادم وحالا دون وقوع الحادث. «هكذا عرفتهم ١/ ٤٩ ـ ٥٠».

وكردي بن عطية، وسيد جواد السيد سلمان، وحسين الظاهر الحاج راضي، مع افراد آخرين.

وسافروا صبيحة السادس والعشرين من ذي الحج[1] إلى الهندية ليقابلوا رؤساء الجيش ويقدّمون لهم الكتب التي معهم المتضمنة إطلاق سراح حميد خان وارجاعه إلى النجف.

فشل الوفد الخائن:

وصل الوفد المسخّر للخائنين إلى معسكر المسلمين قرب السدَّة، وأجتمع بعبد الواحد الحاج سكر وأبدى مهمته، فأجابه بأن أطلاق سراح حميد خان لا يرجع للزعماء فقط، بل هو حق الأمة جمعاء، فلا يمكن أطلاقه أبداً، فخاب الوفد بمهمته، خيَّب الله آمال الإنكليز، ورجع إلى النجف بخفي حنين.

انحلال الادارتين التشريعية والتنفيذية:

بعد إستقالة ابن عمنا الفاضل السيد سعيد يوم ٢٥ ذي الحج طرأ على المجلس انحلال تام، ولكن الرجل العاقل محمد جواد أبو عجينة أبقى له صورة ببقائه فيه، ولكن يالأسف لم تدم الصورة أكثر من أسبوع حتى انحلّت، ولم يبق للبلد مجلس ما، فأختل النظام.

***

(١) ١٣٣٨هـ/ ١١ نل أيلول ١٩٢٠م.

مصادر ومراجع التحقيق

● **أربعة قرون من تأريخ العراق**: لونكريك، ستيفن همسفلي، ترجمة: جعفر خياط، ط بيروت ١٩١٤.

● **الإمام الثائر السيد مهدي الحيدري**: للسيد أحمد الحسيني الأشكوري، ط النجف ١٩٦٧م.

● **الإمام الحكيم السيد محسن الطباطبائي**: للسيد أحمد الحسيني الأشكوري، ط النجف.

● **البطولة في ثورة العشرين**: للسيد عبد الشهيد الياسري، مط النعمان، النجف ١٩٦٦.

● **تأريخ الحركة الإسلامية في العراق ١٩٠٠ ـ ١٩٢٤**: لعبد الحليم الرهيمي، ط٢/ بيروت ١٤٠٩هـ/ ١٩٨٨م.

● **التأريخ السياسي لإمارة عربستان العربية**: د. مصطفى عبد القادر النجار، ط دار المعارف بمصر ١٩٧١.

● **تأريخ العراق بين احتلالين**: لعباس العزاوي المحامي، ط بغداد ١٣٥٣ ـ ١٣٧٦هـ.

● **تأريخ الكويت السياسي**: لحسين خلف الشيخ خزعل.

● **ثورة النجف بعد مقتل حاكمها الكابتن مارشال**: للسيد عبد الرزاق الحسني، ط ٣/ صيدا ـ لبنان ١٤٠٠هـ/ ١٩٨٠م.

● **ثورة النجف على الإنكليز**: لحسن الأسدي، ط بغداد ١٣٩٥هـ/ ١٩٧٥م.

● **جواسيس العرب**: رياض نجيب الريس.

● **حرب العراق**: لطه الهاشمي.

● **الحرب العراقية**: لتشارلس طونزند، ترجمة: عبد المسيح وزير.

● **الحقائق الناصعة في الثورة العراقية**: لفريق المزهر الفرعون، مط النجاح ـ بغداد ١٩٥٢.

● **دور الشيعة في تطور العراق السياسي الحديث**: لعبد الله فهد النفيسي، ط دار النهار، بيروت ١٩٧٣م.

● **دور علماء الشيعة في مواجهة الاستعمار ١٩٠٠ ـ ١٩٢٠**: لسليم الحسني، ط بيروت ١٤١٥هـ/ ١٩٩٥م.

● **سعد صالح**: للسيد محمد علي كمال الدين، مط المعارف ـ بغداد ١٣٦٩هـ/ ١٩٤٩.

● **شعراء الغري**: لعلي الخاقاني، مط الحيدرية ـ النجف ١٩٥٤ ـ ١٩٥٦.

● **العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية**: للشيخ محمد الحسين آل كاشف الغطاء، تحقيق: د. جودت القزويني، ط بيروت ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م.

● **العراق، نشأة الدولة**: د. غسان العطية.

● **العرب والترك في العهد الدستوري العثماني**: د. توفيق برو.

● **فصول من تأريخ العراق القريب**: للمس جرورترود بل، ترجمة: جعفر خياط، مط دار الكتب ـ بيروت ١٩٧١ .
● **في مسيرة النضال ـ مذكرات الشبيبي**: للشيخ محمد رضا الشبيبي، مجلة البلاغ الكاظمية، س ع/ع ٥ .
● **لمحات اجتماعية في تأريخ العراق الحديث**: د. علي الوردي .
ج ٥/ ق ١/ مط المعارف ـ بغداد ١٩٧٧ .
ج ٥/ ق ٢/ مط الأديب ـ بغداد ١٩٧٨ .
● **ماضي النجف وحاضرها**: للشيخ جعفر الشيخ باقر محبوبة، ج ١/ مط العرفان ـ صيدا ١٣٥٣هـ .
● **مذكرات الفريق طونزند**: لتشارلس طونزند .
● **مذكراتي عن الثورة العربية الكبرى والثورة العراقية**: لتحسين العسكري، ج ٢، ط النجف ١٣٣٨هـ .
● **معجم المطبوعات النجفية**: للشيخ محمد هادي الأميني، مط الآداب ـ النجف ١٣٨٥هـ/ ١٩٦٦م .
● **معلومات ومشاهدات في الثورة العراقية الكبرى**: للسيد محمد علي كمال الدين، ط بغداد ١٣٩١هـ/ ١٩٧١م .
● **مقابر قريش أو الكاظمية**: للشيخ محمد حسن آل ياسين، مجلة الأقلام البغدادية: س ١ ع ٣/ ١٩٦٤ .
● **مقدرات العراق السياسية**: لمحمد طاهر العمري الموصلي، مط دار السلام ـ بغداد ١٩٢٥ .
● **من ذكرياتي**: لعبد العزيز القصاب، مط فضولي ـ بيروت ١٩٦٢ .
● **النجف الأشرف وحركة الجهاد عام ١٣٣٢ ـ ١٣٣٣هـ/ ١٩١٤م**: لكامل سلمان الجبوري، ط بيروت ١٤٢٢هـ/ ٢٠٠٢م .
● **هكذا عرفتهم**: لجعفر الخليلي، ط بغداد وبيروت ١٩٦٣ ـ . . . . .
● **الوقائع الحقيقية في الثورة العراقية**: لعلي البازركان، ط ١/ مط أسعد ـ بغداد ١٩٥٤ .

الملاحق

١ ـ ملحق الوثائق .

٢ ـ رسالة «منهج الرشاد لمن أراد السداد» لكاشف الغطاء .

٣ ـ رسالة «تنبيه الأمة وتنزيه الملّة» للنائيني .

الملحـق رقم (١)

الوثـائـق

[١]

البيان الذي وجهه بعض العلماء إلى زعماء المذاهب الإسلامية لدعوتهم إلى الإتحاد ونبذ الخلافات ووجوب إتحاد كافة المسلمين لحفظ بيضة الإسلام، وحراسة جميع الممالك الإسلامية، ترجمته:

لما ثبت عندنا أن خلاف المذاهب الخمسة (الشيعة والحنفية والحنبلية والمالكية والشافعية) من المسلمين في غير ما يتعلق بالأصول الدينية، والشقاق بين المذاهب الإسلامية كان هو السبب الوحيد لانحطاط الأمة الإسلامية والعلة التامة لاستيلاء الأجانب على بلاد المسلمين، فلذلك ولأجل حفظ كلمة الوحدة الدينية والذب عن الشريعة المحمدية، اجتمعت الآراء واتفقت الفتاوى بين المجتهدين العظام لرؤساء الجعفرية وعلماء أهل السنة الكرام في بغداد على وجوب الاعتصام بحبل الله تعالى كما أمر به فقال عز من قائل ﴿واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا﴾ وعلى وجوب اتحاد كافة المسلمين في حفظ بيضة الإسلام وحراسة جميع الممالك الإسلامية عثمانية وإيرانية، وصونها من تشبثات الأجانب وهجوم الأعداء، ولقد اتحدت آراؤنا واتفقت كلمتنا على بذل جميع قوانا وأعمال كل نفوذنا في حفظ الحوزة الإسلامية، وأن لا ندع أي مجهود يقتضيه المقام، نرجو من الدولتين العليتين المسلمتين أن تجتهدا في حفظ استقلال وحقوق كل منهما وتبذلا نهاية العناية والجهد، وقد أعلمنا الشعب الإيراني بوجوب التعاون في الحفاظ على استقلال الدولة وحماية الثغور الإسلامية من التدخل الأجنبي كما قال الله: ﴿أشداء على الكفار رحماء بينهم﴾، ونذكّر جميع المسلمين بالعقد الأخوي الذي عقده الله بين المؤمنين نعلمهم بوجوب الاحتراز من كل ما يوجب الشقاق والنفاق، ووجوب بذل نهاية الجهد في التعاون والتعاضد والمواظبة على اتفاق الكلمة حتى تبقى الراية المحمدية مرفوعة ومقام الدولتين العليتين العثمانية والإيرانية أدام الله شوكتهما محفوظة بمحمد وآله وصحبه خير البرية.

وذلك في غرة ذي الحجة ١٣٢٨.

علماء النجف: محمد كاظم الخراساني عبد الله المازندراني شريعة أصفهاني

علماء كربلاء: السيد صدر الأصفهاني حسين المازندراني

[٢]

نصّ البرقية التي بعث بها علماء الدين إلى السلطان العثماني محمد رشاد [الخامس] في ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م يعلمونه بفتواهم بوجوب الجهاد ضد الروس، حيث دخلت جيوشهم إلى إيران، وانتهكت حرمة المشهد الرضوي وتهديدهم استقلال إيران، وما صاحب ذلك من فضائع وويلات:

إلى أعتاب السدة السلطانية وحامي الخلافة الإسلامية:

بسم الله الرحمن الرحيم

بسبب الهجوم على الإسلام من كل جانب، أصبح العالم الإسلامي في هيجان، نحن بصفتنا رؤساء المذهب على ثمانين مليون من المسلمين الجعفريين القاطنين في إيران والهند وسائر النقاط الإسلامية، متفقاً حكمنا بوجوب الجهاد والدفاع عن الدين والنفوس، وعلى جميع المسلمين فرض عين، أن يضربوا على أيدي المسببين لإراقة دماء المسلمين، صيانة لدين محمد (ص).

لذلك فإنا نعرض أعتاب حامل الأمانة المقدسة وخادم الحرمين الشريفين، وخليفة الإسلام، ونعلمه مترحمين أن لا يحرموا المسلمين أعطاء (لواء محمد النبوي) إلى المسلمين مجتمعين من أقطار العالم للدفاع والجهاد، زمان السياسة اللادينية قد زال ومضى.

فالرجاء الأمر بذلك بمقتضى الشريعة وشأن الخلافة الإسلامية.

محمد كاظم الخراساني
محمد حسين الحائري المازندراني
سيد إسماعيل صدر الدين العاملي
عبد الله المازندراني
شيخ الشريعة الأصفهاني

[٣]

إعلان الجهاد ضد الغزو الإيطالي لطرابلس الغرب - ليبيا - سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م.

وقد أرسلت بيد السيد مسلم زوين عن الهيئة العلمية في النجف، وعزيز بك قائمقام النجف المستقيل عن حزب الاتحاد والترقي، وبعد وصولهم إلى طرابلس ذهبا إلى الأستانة:

بسم الله الرحمن الرحيم

من علماء النجف الأشرف

إلى كافة المسلمين الموحدين، وممن جمعتنا وإياهم جامعة الدين والإقرار بمحمد (ص) سيد المرسلين.

السلام عليكم أيها المحامون عن التوحيد والمدافعون عن الدين والحافظون لبيضة الإسلام.

لا يخفى عليكم أن الجهاد لدفع هجوم الكفار على بلاد الإسلام وثغوره مما قام إجماع المسلمين وضرورة الدين على وجوبه.

قال الله سبحانه ﴿انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم في سبيل الله﴾.

هذه جنود إيطاليا قد هجموا على طرابلس الغرب التي هي من أعظم الممالك الإسلامية وأهمها، فخربوا عامرها، وأبادوا أبنيتها، وقتلوا رجالها ونساءها وأطفالها، ما لكم تبلغكم دعوة الإسلام فلا تجيبون، وتوافيكم صرخة المسلمين فلا تغيثون، أتنتظرون أن يزحف الكفار إلى بيت الله الحرام، وحرم النبي (ص) والأئمة عليهم السلام، ويمحو الديانة الإسلامية والدولة العثمانية عن شرق الأرض وغربها، وتكونوا معشر المسلمين أذل من قوم سبأ.

فالله الله في التوحيد.

الله الله في الرسالة.

الله الله في أحكام الدين، وقواعد الشرع المبين، فما بعد التوحيد إلا التثليث،

ولا بعد الإقرار بمحمد صلى الله عليه وآله وسلم إلاّ عبادة المسيح، ولا بعد استقبال الكعبة إلاّ تعليق الصليب، ولا بعد الأذان إلاّ قرع النواقيس.

فبادروا إلى ما افترضه الله عليكم من الجهاد في سبيله، واتفقوا ولا تفرّقوا، واجمعوا كلمتكم، وابذلوا أموالكم، وخذوا حذركم، ﴿وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل ترهبون به عدو الله وعدوكم﴾، لئلا يفوت وقت الدفاع وأنتم غافلون، وينقضي زمن الجهاد وأنتم متثاقلون ﴿فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم﴾.

خادم الشريعة المطهرة: محمد كاظم الخراساني

الجاني: عبد الله المازندراني

الجاني: شيخ الشريعة الأصفهاني

الأقل: علي رفيش

أقل خدام الشريعة: محمد حسين القمشي

أقل خدام الشريعة: حسن ابن المرحوم صاحب جواهر الكلام

الجاني: السيد علي التبريزي

الجاني: مصطفى الحسيني الكاشاني

الراجي عفو ربه: محمد نجل المرحوم صاحب الجواهر (قدس سره).

الراجي عفو ربه الغفور: محمد جواد الشيخ مشكور (ق س).

الأحقر: جعفر ابن المرحوم الشيخ عبد الحسن (ق س).

بسم الله الناصر المعين، أنا وكل مسلم نستعين، الأقل: محمد سعيد الحبوبي.

[٤]

البرقية التي بعث بها العلماء إلى بعض الجمعيات والهيئات الإسلامية والصحف التركية في اسطنبول: «جمعية السعادة الإيرانية»، «جريدة يكي إقدام»، «طنين»، «ترجمان حقيقت»، «ترون ترك»، «علمدار»، «العدل»، «الخضار»، «مدير أثر أنص عثماني». لحث المسلمين كافة على التفاعل مع الدولة في مواجهة النشاط الاستعماري الذي يستهدف المسلمين بلا تمييز.

ظهرت منذ سنوات فكرة إستيلاء إيطاليا وروسيا على طرابلس وإيران، واستعباد المسلمين من أهلها وإذلالهم، وعملت الدولتان على فتح تلك الأراضي الإسلامية المقدسة.

نقول: إنه بعد أن أصبحت نوايا الدولتين معلومة للجميع في الوقت الحاضر، إذ اضمحلت كرامة إيران وقوميتها، وقضي على استقلالها، وأذل شعبها لا سمح الله، فإن ذلك سيكون ضربة مهلكة للعالم الإسلامي، ومهما أمعنت الدولتان اللئيمتان في تقطيع الممالك الإسلامية إرباً إرباً، فإن تمسك المسلمين بدينهم الحنيف كفيل بإرجاعهما خائبتين خاسرتين.

ونحن بصفتنا علماء المسلمين نؤكد ضرورة تخليص إيران، ونطلب منكم إعلان حكمنا المتضمن وجوب الدفاع بصحفكم إلى جميع المسلمين في شتى أنحاء العالم، ونعلمكم بأننا ملزمون ومستعدون لإراقة آخر قطرة من دمائنا في سبيل حفظ الإسلام والوطن الإسلامي.

الشيخ محمد كاظم الخراساني
السيد إسماعيل الصدر
الشيخ عبد الله المازندراني
الشيخ محمد حسين المازندراني
شيخ الشريعة الأصفهاني

[٥]

البيان المشترك الذي أصدره العلماء حول الهجمة الاستعمارية التي تقوم بها كل من روسيا وإيطاليا على البلاد الإسلامية، ودعوتهم للتصدي لها، والدفاع عن كيان البلاد الإسلامية.

إلى الإيرانيين ومسلمي الهند عامة:

إن هجوم روسيا على إيران، وإيطاليا على طرابلس الغرب موجب لذهاب الإسلام، واضمحلال الشريعة الطاهرة والقرآن.

فيجب على كافة المسلمين أن يجتمعوا ويطالبوا من دولهم المتبوعة رفع هذه التعديات غير القانونية من روسيا وإيطاليا. وليحرّموا السكون والراحة على أنفسهم ما لم تكشف هذه الغمّة والغائلة العظمى، وليعدّوا هذه النهضة منهم تجاه المعتدين على البلاد الإسلامية جهاداً في سبيل الله، كالجهاد في بدر وحنين.

الشيخ كاظم الخراساني.
شيخ الشريعة الأصفهاني.
السيد إسماعيل الصدر.
الشيخ عبد الله المازندراني.

[٦]

البيان الذي وجهه بعض العلماء في صفر ١٣٣٠هـ/ شباط ١٩١٢م، إلى الكثير من الشخصيات والهيئات الإسلامية يستنهضون فيه المسلمين لمواجهة التحدي الاستعماري، وتدعوهم إلى العمل المكثف من أجل حفظ البلاد الإسلامية.

نلفت أنظار جميع أهل التوحيد وكافة المسلمين بأن الإسلام والمسلمين لم يصلوا في أية فترة من الفترات، مثلما وصلوا إليه في هذه الفترة من الزمن. إن المصائب التي يمر بها الإسلام اليوم تعتبر من أشد المصائب.. وإن الضربات التي يتلقاها العالم الإسلامي اليوم هي من أشد الضربات.. وإن أساس الدين المبين في خطر، وآثار شريعة الرسول (ص) مهددة بالزوال، ولم تبقَ في هذه الفترة سوى دولتين إسلاميتين مستقلتين، هما الدولتين العليتين العثمانية والإيرانية اللتين تحملان اللواء المحمدي وتحميان حوزة الإسلام والحرمين الشريفين والمشاهد المقدسة.

إن بقاء حرمة القرآن الكريم وإعلاء كلمتي الشهادة وإقامة دعائم الدين المبين، يتوقف على بقاء هاتين الدولتين الإسلاميتين.. وإذا ما اضمحلت هاتان الدولتان ـ لا سمح الله ـ فلن يبقَ هناك للإسلام جامعة أو حوزة، وستلحق بالإسلام والمسلمين وصمة عار أبدية وخذلان دائم، لا أرانا الله ذلك اليوم أبداً.

واليوم يقوم بعض الأجانب بحملات مسعورة ضد هاتين الدولتين اللتين باتتا تعانيان كافة أشكال المضايقات والابتلاءات. فمن جهة امتدت يد الظلم الإيطالية نحو مسلمي الغرب، حيث تسلب أموال الأهالي ويتعرض النساء والأطفال إلى القتل. ومن جهة أخرى تقوم القوات الروسية بتصويب نيران مدفعيتها ضد الضعفاء والعجزة في تبريز وتقوم بإعدام كبار الشخصيات هناك، وفي قزوين ورشت تدّخل أجنبي ظالم...

واستناداً إلى ذلك وبالنظر إلى هجوم الكفار، فقد قررنا نحن خدمة الشرع المنير مع جميع العلماء الأعلام من كربلاء والنجف وسامراء، وحسب مسؤوليتنا الشرعية التجمع في الكاظمية عسى أن نجد حلاً لإنقاذ المسلمين من ظلم الأجانب وعدوانهم، وإذا لم يتمكن المسلمون في أقطار العالم الذي يعيشون في ظل حكم الأجانب بذل

النفس لمساعدة إخوتهم فبإمكانهم تقديم المساعدة عن طريق إبداء التضامن معهم . . .

الميرزا محمد تقي الشيرازي
شيخ الشريعة الأصفهاني
السيد إسماعيل الصدر
الشيخ عبد الله المازندراني
الشيخ محمد حسين المازندراني .

[٧]

الرسالة التي أصدرها جماعة من العلماء في ٢٠ آذار ١٩١٢م/ ١ ربيع الثاني ١٣٣٠هـ، موجهة إلى عموم المسلمين للإتحاد والتكاتف ونبذ الخلافات ومقاومة الهجوم الروسي على إيران:

إن وضع المسلمين عامة وفي إيران خاصة، وهجوم الدول المجاورة وتشبثها بأنواع الحيل والمكائد من أجل القضاء على استقلال المسلمين واستعبادهم ومحو شعائرهم، أمر بديهي لا يحتاج إلى توضيح، وأن أهم وسيلة تجعلهم يتوصلون إلى هدفهم تكمن في زرعهم الخلاف والنفاق وقطع أواصر الاتحاد بين المسلمين. وبعد أن تمكنوا من زرع الخلاف والنفاق بين رؤساء العشائر وغيرهم، تمكنوا وبكل قوة وبدون أي رادع من إدخال قواتهم إلى إيران وفعلوا ما فعلوا، ولم يكن أحد يتمكن من منعهم وطردهم لانعدام الوحدة.

وبما أن أول فريضة للمسلمين عامة والعلماء الأعلام خاصة هي حفظ بيضة الإسلام، لذلك فقد أوعزنا.. إلى السيد صدر الإسلام.. والحاج محمد باقر.. بالتهيؤ للسفر وانتخاب نقطة خارج مدينة بوشهر لتجمع كافة الخانات والزعماء وأخذ المواثيق والعهود المؤكدة منهم للاتحاد فيما بينهم ونبذ العداوات الشخصية والمنازعات القديمة، وأخذهم بعين الاعتبار رضى الله والرسول (ص) والأئمة الأطهار (ع)، وأن لا يقبلوا أن تمحى الشعائر الإسلامية ويتسلط الأجانب على التراب الإسلامي المقدس.. وأن لا يسكتوا وهم الذين تربوا في مهد الإسلام تجاه هذه الهجمات المدمرة للدين والدولة..

شيخ الشريعة

السيد إسماعيل الصدر

الشيخ عبد الله المازندراني

الشيخ محمد حسين الحائري

[٨]

تقرير الهيئة العليا للطيران ـ مكتب الخدمات العامة حول قيام أحد طلبة مدرسة الغري في النجف بتمزيق العلم الفارسي خلال زيارة الملك فيصل الأول إلى النجف .

من : الهيئة العليا للطيران .A.H.Q

إلى : هيئة أركان المخابرات الجوية .

التاريخ ٦/ أيار/ ١٩٢٥

الموضوع / تمزيق العلم الفارسي

إشارة إلى كتاب الدائرة ١١/ د والمؤرخ ٤/ ٥/

استلمت الرسالة التالية من كربلاء ومن المحتمل أنها الأكثر صحة حول القضية .

خلال وصول الملك فيصل إلى النجف قام طالب من مدرسة الغري والمسمى راضي بتمزيق العلم الإيراني الذي كان يزين أحد المحلات وبناء عليه فإن أصحاب المحلات من العرب والإيرانيين أغلقوا تلك المحلات واشتكى الناس عند سيد أبو الحسن .

وقد قيل بأن الطالب قال أنه وجهه بهذا العمل من قبل محمد علي أفندي، مفتش البوليس ولم تحصل أي مشاكل أخرى في غلق المحلات نتيجة ذلك العمل الأحمق .

PUBLIC RECORD OFFICE
Air 23 379 K/M 04583
COPYRIGHT - NOT TO BE REPRODUCED PHOTOGRAPHICALLY WITHOUT PERMISSION

Secret. Office of S.S.O. A.H.Q.
6th May 1925.

9.

No. D/11.

To:- Air Staff, Intelligence.

Enc 8.

With reference to this office No. D/11 dated 4th May the following letter received from Kerbala is probably the more correct version of the story.

On the arrival of H.M. King Faisul at Najaf a student from AL GHURRA school, named RADHI, tore down a Persian flag, which was decorating one of the shops. In consequence all Arab and Persian shopkeepers closed down their shops, and the people complained to Saiyid Abul Hasan. The student is reported to have said that he was instructed to do so by Muhammad Ali Mulendi, the Inspector of Police. Apart from the closing of the shops no further trouble occurred as a result of this foolish act.

Comment. It looks like the work of an extreme nationalist possibly urged on by others of that type. The people of Najaf, whose sympathies are much pro-Persian, would naturally be disgusted. However, if the man is punished, nothing further should be heard of the incident.

مصادر الوثائق

رقم الوثيقة	مصدرها
١	خطابة در خصوص اتحاد إسلامية مسلمين: للشيخ عبد الحسين الرشتي، مط حبل المتين ـ النجف ١٣٢٩هـ، ص٢٧.
٢	جريدة النجف الأشرف ع ٣٠ في ٢٣ ذي الحجة ١٣٢٩هـ، وأعاد نشرها د. عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، ص٢٨ ـ ٢٩.
٣	مجلة العلم النجفية، س٢/ع ٦ص ٢٤٦ ـ ٢٤٧ في ذي الحجة ١٣٢٩هـ/ ٢٢ نوفمبر ١٩١١م.
٤	جريدة النجف الأشرف ع٣٠ في ٢٣ ذي الحجة ١٣٢٩هـ، وأعاد نشرها د. عبد الله الفياض، الثورة العراقية الكبرى سنة ١٩٢٠، ص ٢٧ ـ ٢٨.
٥	جريدة النجف الأشرف، نفس العدد والتأريخ. مجلة لغة العرب البغدادية ع٧/ كانون الثاني ١٩١٢.
٦	نظام الدين زادة: هجوم روس بإيران وإقدامات رؤساء دين در حفظ إيران، ص٢٢١.
٧	نفس المصدر ص٢٢٢.
٨	المركز الوطني لحفظ الوثائق/ ملف رقم ٩٥٤.

ملحـق رقم (٢)

منهج الرشاد
لمن أراد السداد

رسالة الإمام
الشيخ جعفر كاشف الغطاء
(ت ١٢٢٨ هـ/ ١٨١٣م)

إلى الأمير عبد العزيز بن سعود
(ت ١٢١٨ هـ/ ١٨٠٣م)

تقديم وتحقيق

الدكتور جودت القزويني

بسم الله الرحمن الرحيم

الإمام الشيخ جعفر كاشف الغطاء

مدخل إلى التاريخ السياسي للنجف الأشرف

أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي

الإمام الشيخ جعفر كاشف الغطآء من أشهر مجتهدي الشيعة الإماميّة (أواخر القرن الثاني عشر، وأوائل القرن الثالث عشر الهجريين/ أواخر القرن الثامن عشر، وأوائل القرن التاسع عشر الميلاديين). ولد بالنجف سنة ١١٥٦هـ/ ١٧٤٣م، وتُوفي فيها سنة ١٢٢٨هـ/ ١٨١٣م.

عاش بمدينة النجف طوال عمره، بعدما تتلمذ بمدرسة الوحيد البهبهاني بكربلاء هو، وأغلب أعلام طبقته. ومن أظهر أساتذته السيد أحمد القزويني (ت: ١١٩٩هـ/ ١٧٨٥م) ـ جدّ أسرة آل القزويني الحلّية ـ، والشيخ مهدي الفتوني العاملي (ت: ١١٨٣هـ/ ١٧٦٩م)، والسيد صادق الفحّام (ت: ١٢٠٤هـ/ ١٧٩١م).

أمّا تلامذته فقد تخرّج على يديه جميع علماء عصره المجتهدين، ولم يفلت من شباك تلمذته أحد. وأول المتخرجين عليه أبناؤه الأعلام الذين تولّوا الزعامة الدينيّة بعده، واحداً بعد الآخر؛ أولهم؛ الشيخ موسى، الشيخ علي، الشيخ حسن، والشيخ محمد.

كما تتلمذ عليه أولاد استاذه السيد أحمد القزويني من المجتهدين الخمسة، وهم السيد حسن، السيد علي، السيد حسين، السيد محمد علي، والسيد باقر القزويني.

وأخذ العلم عليه أصهاره الشيخ أسد الله الدزفولي الكاظمي، صاحب مقابس الأنوار (ت: ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م)، والشيخ محمد علي الهزارجريبي (ت: ١٢٤٥هـ/ ١٨٢٩م)، والشيخ محمد تقي الأصفهاني (ت: ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م)، والسيد صدر الدين العاملي (ت: ١٢٦٣هـ/ ١٨٤٧م).

أمّا بقية تلامذته فهم جميعهم مجتهدون ممن تحلّت أحداق الدين بصحائف كتبهم، أمثال: السيد جواد العاملي (ت: ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م) صاحب كتاب «مفتاح الكرامة في شرح قواعد العلامة»، والشيخ محمد حسن النجفي ـ جدّ أسرة آل الجواهري ـ (ت: ١٢٦٢هـ/ ١٨٤٦م) صاحب كتاب «جواهر الكلام في شرح شرائع الإسلام»، والسيد عبد الله شُبّر الحُسيني (ت: ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م)، وغيرهم من أسماء الزعامات الفخمة.

كان الشيخ جعفر كاشف الغطاء عالماً يتدفّق علماً ومعرفة واعتدال سليقة. وكان يمتاز من بين الفقهاء بقوة الاستنباط. وكان العلماء من الأجيال التي جاءت بعده تعترف بمتانة معرفته في علوم الدين خصوصاً في علم الفقه، حيث كانوا يُنسبون له دليلاً لم يكن معروفاً لدى الفقهاء في استنباطاتهم الفقهية ـ على سبيل المزحة يسمونه دليل الشمّ. ويقصدون به أنّ الشيخ جعفر يمكن أنْ يُرجّح أمراً من خلال عُمق إحساسه بمطالب الفقه، وإنْ كان خارجاً عن الأدلة، لتبحّره فيه.

وكان يعترف هو بتفوقه الفقهي على علماء الإمامية في جميع عصورهم من خلال ما نُسب إليه من القول: «إنّ الفقه باقٍ على بكارته، لم يمسهُ أحد إلاّ أنا، والشهيد، وولدي موسى».

ويقصد بالشهيد محمد بن مكي الجُبعي العاملي المعروف بالشهيد الأول صاحب «اللمعة الدمشقية» المقتول سنة ٧٨٦هـ/ ١٣٨٤م، الذي أصبحت مؤلفاته من المصادر الأصلية للفقه الإمامي منذ تأليفها حتى الآن.

مؤلفاته:

كتب الشيخ جعفر مؤلفات فقهية عديدة اشتهر منها كتابه «كشف الغطاء عن خفيات مبهمات الشريعة الغراء» الذي عُرف به. واشتهرت أسرته بآل كاشف الغطاء نسبةً إلى هذا الكتاب.

كما كتب رداً سمّاه «الحق المبين في تصويب المجتهدين، وتخطئة الأخباريين»، وهو من عنوانه يدلّ على مناقشة ما ذهب إليه الأخباريون في نقد المجتهدين، والردّ عليهم.

أمّا مؤلفه «منهج الرشاد لمن أراد السَداد»، فقد مثّل من بين مؤلفاته نمطاً خاصاً في موضوعة تعلّق بالجدل الوهابي ـ الشيعي. وسيأتي الحديث حوله.

الحوادث التي وقعت له

وقعت حوادث مهمة في عصر الشيخ كاشف الغطاء، كان هو محوراً لها. وأهم حادثة هي الهجوم الوهابي على النجف.

أمّا الحادثة التاريخية الثانية التي إنجرّ لها فهو صراعه مع الميرزا محمد الأخباري المقتول سنة ١٢٣٢هـ/ ١٨١٧م.

وكان المحرّك لهذا الصراع هو الشاه فتح علي القاجاري (ت: ١٢٥٠هـ/ ١٨٣٤م) الذي حاول السيطرة على الإتجاهات الشيعيّة الدينيّة السائدة يومذاك؛ وهي: الشيخية، الأصولية، والأخبارية من خلال إحداث صلات بزعمائها الشيخ أحمد الاحسائي، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، الميرزا محمد الأخباري، والتحكّم بخلق المناظرات والمشاجرات الكلامية بينهم، وإسناد طرف على حساب الآخر لغرض السيطرة على جميع هذه الأطراف.

الحادثة الثالثة: حادثة الشمرت والزگرت بالنجف، والصراع على السلطة المحلية بالنجف.

بين كاشف الغطاء ومحمد بن عبد الوهاب

صوّرت بعض النصوص التاريخية التي نقلها الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء (ت: ١٣٧٣هـ/ ١٩٥٤م) أنّ هناك صلة بين الإمام الشيخ جعفر كاشف الغطاء، والإمام محمد بن عبد الوهاب.

أمّا عن مدى وثاقة هذه الصلة، فيبدو أنّها لم تكن مبتنيةً على جذور وأصول، وإنّما هي من الصلات التي يصادفها المرء في بعض مجريات حياته، وإنْ نُقلت مصاديق عنها.

والصلة كما تصوّرها المسموعات قائمة على دفع الضرر من طرف واحد هو طرف (كاشف الغطاء). أمّا الطرف الثاني المتمثّل بالشيخ ابن عبد الوهاب فهو الطرف المستجيب لما كان يقدّمه صاحبه من حقائق عن إستجابته، وإظهار محبته وطاعته له.

ويبدو أنّ نشأة هذه الصلة كانت منذ عام ١١٨٦هـ/ ١٧٧٢م عندما سافر الشيخ جعفر كاشف الغطاء إلى الحج للمرّة الأولى، وكان عُمرُه يومذاك ثلاثين عاماً، حيث توقّف بنجد (منازل حرب)، وبقي في ضيافتهم أربعة أشهر.

وبالرغم أنّ المعلومات التي أوردتها النصوص لم تكن كافية في الجزم بوجود علاقة صداقة بين كاشف الغطاء وابن عبد الوهاب، إلاّ أنّ سياق الأحداث التاريخية لا ينفي مثل هذه الصلة بين الطرفين.

إكتفى الشيخ محمد الحسين بالنقل أنّ جدّه الشيخ جعفر كان سبباً في تشيّع

بعض سكان نجد في سفرته هذه، وهم لا يزالون على مبدأ التشيع.

كما ذكر أيضاً أنَّ الشيخ جعفر كان قد نصّب بنجد علماً يرجعون إليه في الأحكام الشرعية[1].

ومما يؤكد وجود هذه الصلة:

١ ـ إنَّ المدن الشيعية المقدسة بالعراق لم تتعرض للغارات الوهابية طوال عهد شيخ الوهابية الإمام محمد بن عبد الوهاب. إلاَّ أنَّ المعادلة انقلبت بعد وفاته سنة ١٢٠٦هـ/ ١٧٩٣م، خلال تولّي الأمير عبد العزيز بن سعود (١٢٠٦ ـ ١٢١٨هـ/ ١٧٩٣ ـ ١٨٠٣م) للسلطة القتالية، يسانده فيها الشيخ عبد الله (١١٦٥ ـ ١٢٤٢هـ/ ١٧٥١ ـ ١٨٢٦م) بن الإمام محمد بن عبد الوهاب الذي تولى الزعامة الدينيّة بعد وفاة أبيه، وآزر الأمير عبد العزيز بن محمد بن سعود في حروبه[2].

٢ ـ أُشيع من قبل خصُوم الشيخ جعفر بعد النزاعات الداخلية التي ظهرت داخل المجتمع الشيعي أنَّ الشيخ جعفر كاشف الغطاء من أهل نجد، وأنَّ محمد بن عبد الوهاب هو من عشيرته نفسها، أو من أخوته. وقد شنّع الميرزا محمد الأخباري عليه في ذلك. ولو لم تكن هناك صلة مشهورة لما نُسبت إليه مثل هذه المقولات.

٣ ـ نُقل عن بعض أحفاد الإمام محمد بن عبد الوهاب أنَّ جدّه نزل بجيش من عشيرته منطقة (الرحبة) عند السيد محمود الرحباوي القريبة من مدينة النجف، فبعث له الإمام كاشف الغطاء وفداً بزعامة ولده الشيخ موسى، ومعه

---

(١) العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية، ص٧٧.

(٢) للشيخ عبد الله مؤلفات، منها: جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية. وقد أُصيب بمقتل ولديه سليمان، وعلي عند هجوم إبراهيم باشا على منطقة (الدرعية). أعتقله إبراهيم باشا، وأرسله إلى مصر مع ولده الثالث عبد الرحمن، وتوفي فيها سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٦م.

قرآن نفيس من هدايا سلاطين العجم، هديةً له[1].

وبالرغم أنَّ الرواية ـ إن صحَّ نقلها ـ ورد فيها تفصيل خارج عن سياق الأحداث إلاَّ أنها تكشف عن وجود حوار بين الفريقين.

أورد ناقل الرواية أنَّ الشيخ محمد بن عبد الوهاب جاء لغزو النجف، وتخريبها، فلمَّا بعث له الشيخ جعفر الهدايا، وطلب منه الأمان، وطمأنه بأنَّ أهل النجف غير خارجين عن طاعته رجع بجيشه، واشتغل بالوقائع التي حدثت بينه وبين خصومه.

* * *

في السنوات التي أعقبت وفاة شيخ الوهابية بدأت حقبة زمنية جديدة من الفتوحات. فقد تمَّ احتلال الاحساء سنة ١٢٠٧هـ/ ١٧٩٢م، وهُدّمت المشاهد والقباب. كما تكرّرت الإغارات على قطر، وعلى بني عتبة (العتوب) في السنة التالية عام ١٢٠٨هـ/ ١٧٩٣م، وعلى الكويت في الأعوام ١٢١٣هـ/ ١٧٩٨م، و١٢٢٣هـ/ ١٨٠٨م، وطالت جميع الأطراف الشرقية للجزيرة.

أمَّا في عام ١٢٠٩هـ/ ١٧٩٤م فقد بدأ الهجوم على قطر، وإحلال السلب والنهب في البلدة. كما تمَّ الهجوم على جزيرة العماير سنة ١٢١١هـ/ ١٧٩٦م.

وفي خضم هذه الأحداث سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م كان الأمير عبد العزيز ابن سعود قد وجَّه رسالته إلى الإمام الشيخ جعفر التي انتقد فيها ممارسات الشيعة في زيارة المراقد الدينية المقدّسة التي هي تقارب الشرك في مقام التوحيد ـ حسب العقيدة الوهابية ـ وكذلك التمسك بمفردات الشفاعة، والتوسل، والاستغاثة التي تنطوي على خلافات جدلية طبقاً لاختلاف تفسير النصوص.

كان الشيخ محمد بن عبد الوهاب قد جهرَ بدعوته سنة ١١٥٢هـ/ ١٧٣٨م

---

(١) العبقات العنبرية، ص١١٣.

بعد ظهوره بما يزيد على العقد من الزمن، وكان عمره يومذاك ٣٧ عاماً. يعني أنّه كان بمنتصف العشرينات من عمره حينما تبنّى حركته الإصلاحية، في عنفوان شبابه وتطلّعه. وقد وضع كتاب (التوحيد) لتوضيح مبادئه القائمة على إزالة البدع والضلالات في صفوف المسلمين التي تندرج تحت أنواع الشرك.

تحالف الشيخ محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٧هـ/ ١٧٤٤م مع الأمير محمد بن سعود على أنْ يكون الأمير، صاحب السيف، حارساً للدين، وناصراً للسُنّة، وأنْ يستمرّ الشيخ في الجهر بدعوته تحت ظلاله.

إتسعت الإمارة في عهد محمد بن سعود فشملت أكثر منطقة نجد، وتكرّست الفتوحات على القرى المحيطة بالدرعية التي قُضي على معظم زعاماتها المحلية، ولم يبق خارج سيطرته إلاّ مدن الرياض، والإحساء والقصيم.

وقد حكم محمد بن سعود عشرين عاماً حتى وفاته سنة ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م حيث تولّى الحكم بعده ولدُهُ عبد العزيز الذي دامت سلطته (٣٩) عاماً.

ولم تكن هذه الرسالة إلاّ إيذاناً بإعلان الحرب، ليس على الشيعة بالنجف أو كربلاء فحسب، وإنّما إلى إحلال الفوضى في الدولة العثمانية، وإظهار عجزها في حماية الأماكن الدينيّة الواقعة ضمن مدار سلطتها.

وقد ردّ الشيخ جعفر كاشف الغطاء على رسالة الأمير عبد العزيز بن سعود بما يُشبه الحوار المشوب بالإلفة والمودّة، برسالة اعتبرها منهاجاً للرشاد لمن أراد السداد.

وكان كاشف الغطاء يهدف إلى تغيير طبيعة تفكير الأمير عبد العزيز وإقناعه أنّ المسلّمات التي جاء بها قابلة للمناقشة والردّ. أمّا إذا لم يكن الردّ كافياً لتغيير قناعات الأمير الفكرية أو العقائدية فرُبّما يكون أمرُ تحييده على الأقل متحقّقاً من خلال اللغة التي تكلّم بها الإمام كاشف الغطاء مع الأمير عبد العزيز.

مقتطفات
من رسالة الامام الشيخ جعفر كاشف الغطاء
إلى الأمير عبد العزيز بن سعود

ورد إلى المُقصُر مع ربّه، التائب إليه من ذنبه، الطالب من الله السداد، جعفر أقلّ طلبة أهل بغداد ـ كتابٌ كريمٌ، مشتمل على كلماتٍ كالدرّ النظيم، ممّن لم يزل بالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً زاجراً. الآمر بعبادة المعبود، الشيخ عبد العزيز بن سعود.

فلمّا نظرته وتدبّرتُه وتأمّلته وتصوّرته، خلوتُ في زاويةٍ من الدار، وتصفّحته تصفّح الإنصاف والإعتبار. وقلتُ متّهماً لنفسي بالميل إلى العصبيّة والعناد، والركون إلى ما عليه الآباء والأجداد: يا نفس اعرفي قدر دنياك، واحذري شرّ من أغوى أباكِ. لقد تخلّيتِ عن نعيم الدنيا بحذافيرها، وقنعتِ بقليلها، ولو بقرص شعيرها، وتجنّبت دار العزّة والوقار، واخترتِ العزلةَ والخمولَ في هذه الديار.

فلو كنتِ في كبار البلدان، من ممالك بني عثمان، أو في بعض بلدان فارس وإيران، لجاءت إليكِ الدنيا من كلّ جانب ومكان، ونلتِ من النعيم ما لم ينله إنسان.

فأحذري أنْ تكوني مع الإعراض عن هذه النعم الفاخرة، ممّن قد خسر الدنيا والآخرة.

فلمّا شممتُ منها رائحة التصفية، ورأيتُ أنّ نسبة المذاهب ـ لولا الله

عندها ـ على التسوية، وجهتها إلى الكشف عن حقيقة الجواب عن الشُبهِ الموردة في ذلك الكتاب.

فأُقسمُ عليك ـ بمن جعلك متبوعاً بعد أنْ كُنتَ تابعاً، ومطاعاً بعد أن كنتَ لغيرك مطيعاً سامعاً، وأعزّك بعدما كنتَ ذليلاً، وكثّر جمعك بعدما كان نزراً قليلاً ـ أن تنظر ما رسمتُه سطراً سطراً، وتمعن في تحقيق ما رقمته نظراً وفكراً، متوخّشاً من الناس وقت النظر، متحذّراً من النفس الأمّارة كلّ الحذر، طالباً من الله كشف الحقيقة، سالكاً في المناظرة واضح الطريقة، فلعلّه يظهر أنّه ليس بيننا نزاع، فنحمد الله على الاتّفاق والاجتماع.

وفّقنا الله وإيّاكم لسلوك الجادة المستقيمة، والأخذ بالطريقة السليمة، وردّني الله إليك إنْ كنتَ أنتَ على الحقّ، وردّكَ إليَّ أنْ كان الحقُّ معي، ومع أكثر الخلق[1].

فيا أخي، فوَحقِّ مَنْ رفع السماء، وبسط الأرض على الماء، إنّي لمّا أجبتُكَ لمكارم أخلاقك، وحُسن سيرتك مع الناس، وإرفاقكَ بهم، أخشى عليك من سراية القَدْح إلى المشايخ الكبار، والعلماء الأبرار، الذين هم للشارع أبواب، ولأبواب الشرع بوّاب. عصمنا الله وإيّاكم، وكفانا شرّ الجهل وكفاكم[2].

فقف يا أخي في مواضع الشبهات لئلا تقع في الهلكات. وإني والله فرحٌ مسرور بدفعك عن أبناء السبيل كلّ محذور، وأمرك بالصلاة والصيام، وإنفاذ ما شرع النبيّ(ص) من الأحكام.

إلاّ أني أخشى عليك أنْ تأخذ العالم بذنب الجاهل، والمنصف بورطة المعاند المجادل[3].

---

(١) الفصل الأول: الأفعال والكلمات تختلف باختلاف المقاصد والنيات.
(٢) الفصل الثالث: الميزان التي يُرجع إليها إذا تشابهت الأمور.
(٣) المقصد الرابع: النذر بغير الله.

إنَّ أفعال الخير تُهدى إلى المولى. ومَنْ أولى بالهدايا من أنبياء الله وأوصيائه؟

فليس الذبح لهم وباسمهم حتى يكون الإهلالُ بذكرهم. وإنَّما ذلك عملٌ يُهدى إليهم ثوابُهُ كسائر الأعمال. حتى أنَّه لو ذُكرَ اسمُهم على الذبيحة كان ذلك عند المسلمين منكراً، فهو ذبيحٌ عنهم، لا لهم.

وإني ـ والذي نفسي بيده ـ منذ عرفتُ نفسي إلى يومي هذا، ما رأيتُ، ولا سمعتُ أحداً من المسلمين ذبح أو نحر، ذاكراً لاسم نبيّ، أو وصيّ، أو عبد صالح. وإنَّما يقصدون إهداء الثواب إليهم.

فإذا كان في أطرافكم قبل تسلطكم مثل ذلك، (فصاحبُ الدار أدرى بالذي فيها).

ولا شكَّ أنَّ نجداً وأعرابها قبل أن تُظهروا فيها أمر الصلاة والصيام، وتأمروهم بملازمة العبادة للملك الديَّان كانوا كالأنعام، أو أضل سبيلا. وقد رفع الله بكم عنهم الشقاق، وجعل بينهم الاتفاق، وفرَّقوا بين الحلال والحرام، وتوجُّهوا لأوامر الملك العلاَّم.

إنَّ المسلمين كافَّة يتبرَّؤن عمَّن يدعو غير الله، أو يستغيث بغيره، ويذبح أو ينحر لغير الله، أو يحلف بغير الله.

والذي فلقَ الحبَّة وبرأ النَسَمة لو علمتُ منهم ذلك لكفرتُهم، وهاجرتُ عنهم معتقداً وجوبَ ذلك عليَّ. ولكنْ وحقِّ مَنْ اشتقَّ من ظلمة العدم نور الوجود ما وجدتُ ذلك منهم، ولا صدر عنهم، فرُبَّما افترى الحاضرون لديكم تقرُّباً إليكم.

فاقتصرْ على حدودك التي أنتَ فيها، فإنَّ النفسَ إذا قنعت فقليلٌ من الدنيا يكفيها.

فمهلاً يا أخي مهلاً مهلاً فإنَّ القوم ليس حالهم كما وصل إليكم، وورد

عليكم. فإني بهم خبير، وبأحوالهم بصير. وليس غرضي مُجرّد تزكيتهم، ولكنْ ـ والله ـ هذا الذي علمتُه من سريرتهم[1].

أقسمتُ عليك بمَنْ جمع بيننا في كلمة الإسلام، وألّفَ بين قلوبنا في هذه الأيام أنْ تنفرد عن الأصحاب إذا ورد عليك الكتاب. وترى نفسك كأنّك ـ الآن ـ خُلقتَ مِنْ تراب، وتبذل الجهد في تمييز الخطأ من الصواب، فأنا وأنتَ لا حاجة بنا إلاّ إليه، ولا اعتماد لنا إلاّ عليه.

وإني منذ ثلاثين حُجّة أنظرُ في حال طوائف المسلمين، محقيّهم ومبطليهم فلم أجدْ أحداً يُعظّم كتاباً، أو نبيّاً، أو مكاناً، أو عبداً صالحاً من غير قصد قربة من الله، أو انتسابه إليه. فقد ظهر أنّ هذا كلّه من باب طاعة الله وتعظيمه.

فبحقّ مَنْ شقّ لك السمع والبصر، وسلّطك على طوائف من الأعراب والحضر أنْ تُوجّه ذهنك الوقّاد، وفكرك النقّاد صافياً عن ملاحظة العصبيّة والعناد، وتجعل مناظرتنا كأنّها حين حضورنا في المقابر، وانصرافنا عن مرارة الدنيا، طالبين للنعيم الفاخر، وقد فارقنا الأموال والأولاد، وانقطعنا إلى ربّ العباد[2].

فيا أخي، أقسمتُ عليك بمَنْ خلقنا من تراب، ثم أودعنا الأصلاب أنْ تترك الجدال، وتتأمّل في حقيقة الحال.

كيف تُشبّه أعمال المسلمين بأعمال عبدة الأصنام وغيرها؟

فيا أخي المقاصد متفاوتة، وإنّما الأعمالُ بالنيّات، ولكلّ أمرىء ما نوى. فرُبّ كلمة ظاهرها الإسلام تصيرُ بالنيّة كلمة كفر، وبالعكس.

يا أخي الوصيّة مشتركة بيني وبينك. فالذي عليّ ألاّ تأخذني حميّة الآباء والأجداد، وحبّ الطريقة المألوسة بين العباد، بل انظر بعين البصيرة، وإخلاص السريرة.

---

(١) المقصد الثالث: في الذبح لغير الله.

(٢) الباب الثالث: التبرُّك بالقبور ونحوها.

وأمّا أنتَ فإنّي أخشى عليك من حُبّ الإنفراد، حتى لا تكون كبعض الآحاد، فإنّ الأصابع لم تزل ممدودة، إلى مَنْ ركب جادة غير معهودة. وقد ورد في المَثَل: «خالفْ تُعرف».

ثم إني ـ والله ـ أخشى عليك من جهة أنّك كنتَ خالي البال بعيداً عن هذه المحال فوردت عليك شُبهات لم تستطع ردّها، وخيالات لم تبلغ حدّها. فكان الحال كما قيل: (فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنا).

وأمّا اليوم فليس لك عند الله عذر. فقد علمتَ الأخبار، وسمعتَ بطريقة الخلفاء الأبرار.

فأجدّ نظرك، واستعمل فكرك، وأخلغ عن نفسك ربقة التقليد، واطلب من ربّك التأييد والتسديد[1].

(١) كشف الجواب عمّا تضمّنه الكتاب.

الحوار الشيعي الوهابي

يمكن لهذه الرسالة أنْ تكون أول حوار عفوي، غير مبرمج له، تمَّ بين زعيم وهابي، وزعيم شيعي.

وكان لهذه الحوارية ميزات عديدة. أمّا نصّ الرسالة التي وجّهها الأمير عبد العزيز فلم يُثبتها كاشف الغطاء بمتن كتابه، بل إكتفى بعرض مقتبسات منها لمناقشتها، وبيان تهافتها بأحاديث وديّة متينة.

وقد تفنّن كاشف الغطاء في جواب الأمير عبد العزيز بابتداع أساليب للحوار، يمكن إجمالها بما يلي:

١ ـ جهدَ الإمام المؤلف أنْ يكون متواضعاً مع قرينه الأمير، وقد جعل الرسالة المتبادلة بينهما وصيَّة مشتركة حاول فيها الظهور بمظهر المتسائل الذي يقصدُ أنْ يتلقّى الجواب الذي يريدُهُ من سامعه مباشرة دون أنْ يفرضه عليه. ولكنْ بعد أنْ يقدّم له الحُجج والبراهين والأمثلة التي لا تُمكّن محاوره إلاّ أنْ يُذعن له.

٢ ـ ظهر كاشف الغطاء في خطابه مع الأمير عبد العزيز بمظهر المُنصف العالم، الباحث عن الحقيقة، محاولاً مناقشة المآخذ التي يقوم عليها التفسير الوهابي، والبرهان على معارضتها بالنصوص التي لا تقبل الجدل. كما فعل ذلك فيما تحدَّث عن اختلاف الأزمنة والأمكنة والجهات، الذي يكون باعثاً عن اختلاف الأحكام لإختلاف الموضوعات. مع التمثيل بشواهد قرآنية، وأحاديث نبوية تختص بأقوال الرسول، وسيرته.

كما ناقش كاشف الغطاء موضوع الجمود على النصّ، وفهمه لتحقيق المقاصد دون الرجوع إلى الفَهم العُرفي، وما يترتب عليه من المعاني التي تتسع بها اللغة العربيّة.

ومثّل لما جمد عليه الوهابيون من الاستغاثة مثلاً ببيت الله أو برسل الله أو المقربين عند الله إنّ ذلك اسناد حقيقي إلى الله بمجرد الربط الصُوري كما يُعبّر باللغة في جملة: «أنبتَ الربيعُ الورد»، والمُنبتُ هو الله.

كما ناقش المبدأ الذي أسماه مبدأ العناد والعصبيّة»، ونبّهَ إلى أنّ هذا المبدأ يقوم على المنافع الشخصيّة، وتحقيق الأهداف. وذكر أنّ الاختلاف في تفسير وجهات النظر ناشيء من تعدد المدارك والأدلة، فلكلٍّ مدرك يتشبث به. إلاّ أنّ منهج الرشاد لا يتحقق إلاّ برؤية الأهداف القائمة على المرجحات الخارجية، والتأمل في السُنة النبوية، وطريقة الأوائل من الصحابة.

٣ ـ حاول الإمام الشيخ كاشف الغطاء ـ من خلال مقدمته لرسالة نهج الرشاد ـ أنْ يُظهر استقلالية المؤسسة الدينيّة الشيعيّة عن الأنظمة السياسية التي تُحيط بها، واستقلاله الشخصي هو بالذات عن الدولتين الإيرانية، والعثمانية في آنٍ واحد. بمعنى أنّه أراد أنْ يُفهمَ الأمير عبد العزيز أنّ المتغيرات التي تطرأ على سياسة هاتين الدولتين هي سياسة خارجة عن موضوع اهتمامه واختصاصه. فلم يكن لكاشف الغطاء في هذه المرحلة بالذات، (مرحلة كتابة رسالة نهج الرشاد)، صلة تُذكَر مع مسؤولي الدولتين العثمانية والإيرانية. وقد أشار في مقدمته للرسالة بما يُثبتُ هذا الزعم[1].

وما ذكره الإمام كاشف الغطاء عن نفسه في هذه المرحلة كان صحيحاً، إلاّ

---

(١) قال الإمام كاشف الغطاء مخاطباً نفسه: (أعرفي قدر دنياكِ، لقد تخليتِ عن نعيم الدنيا بحذافيرها، وقنعت بقليلها، واخترتِ العزلة والخمول في هذه الديار. فلو كنتِ في كبار البلدان، من ممالك بني عثمان، أو في بعض بلدان فارس وإيران لجاءت إليك الدنيا من كل جانب ومكان، ونلتِ ما لم ينله إنسان).

أنّه بعد سنتين فقط من كتابة «منهج الرشاد» زار إيران بعد تنصيب الشاه فتح علي القاجاري للحكم رسمياً سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م ملكاً على البلاد.

وقد استُحدثت علاقة لكاشف الغطآء بالسلطان فتح علي شاه كانت تنصبُّ لحماية النجف، وربّما تحسين الأوضاع الاجتماعية والدينية فيها[1].

٤ ـ حثُّ الأمير عبدالعزيز على دراسة رسالته (التي بعثها جواباً إليه) بتجرّد للوصول إلى الحقيقة دون أن يتأثر بنتائج معرفته السابقة.

٥ ـ حذّر الأمير عبد العزيز من أنّ دعوته باتهام الطوائف بالشرك، وغير ذلك ستنجرّ إلى تكفير المسلمين جميعهم، والقدح في المشايخ الكبار، والعلماء الأبرار الذين يجب احترامهم على طول الفاصل الزمني، خصوصاً بعدما شبّه أعمال المسلمين بأعمال عبدة الأصنام.

٦ ـ شجّع كاشف الغطاء الأمير عبد العزيز على دعوته الناس للتمسك بأحكام الإسلام، وأمرهِ لهم بالصلاة والصيام، وبقية الأحكام، إلاّ أنّه حذّره أنْ يأخذ العالم بذنب الجاهل، والمنصف بورطة المعاند المجادل.

٧ ـ نبّه الإمام كاشف الغطاء الأمير عبد العزيز إلى أنّ المعلومات التي نُقلت إليه عن أهالي العراق عامة، (والمدن الشيعية المقدّسة خاصة) لم تكن صحيحة، وإنّما خالطها شيء من الوهم، وعدم الفهم.

٨ ـ تناولت الرسالة ردّاً للحُجج التي نشرها الوهابيون، وقد رتّبها على مقدّمة، وفصول، ومقاصد. ، وكان لا يملُّ من تكرار كلمة «أخي»، و«أقسم عليك» نهاية كلّ موضوع إثر بيان النتيجة التي يتوصّل إليها بعد إيراده جملة من

---

(١) تقلّد الشاه محمد علي الحكم في ٢٤ ربيع الأول سنة ١٢١٢هـ بعد مقتل الشاه أغا محمد في ٢١ ذي الحجة سنة ١٢١١هـ. وكان أغا محمد قد نُصّب للحكم صبياً سنة ١١٩٣هـ حتى توليه السلطة رسمياً سنة ١٢١٠هـ. وكان الشاه محمد علي قد باشر السلطة بعد مقتل سلفه منذ أول شهر محرم من العام الجديد متخذاً لقب (بابا خان) حتى تنصيبه للحكم فيها رسمياً في شهر ربيع الأول سنة ١٢١٢هـ.

الأحاديث النبويّة، لعلّ ذلك يكون سبباً لمراجعة المُعتقد من جديد.

٩ ـ استخدم في طيّات رسالته أسلوب الموعظة، وإلفات النظر إلى أن النفوذ الدنيوي مهما بلغ فإنه سيؤول إلى الزوال. وقد أطنب في اختيار بعض المرويّات المتعلّقة بنهاية الانسان وفنائه في الفصل الثالث، تحت عنوان: «في حياة سائر الموتى».

١٠ ـ لمّا كان المذهب الوهابي يعتمد على صحاح الأحاديث السُنّية، فقد التزم كاشف الغطاء في نقل أحاديثه، ومناقشاته على الصحاح فقط، ولم يتطرّق إلى غيرها من كتب الحديث. كما نقل أقوال كبار علماء السُنّة في بحثه، ولم يرجع إلى كتب الحديث الشيعيّة سوى ما نقله فقط عن كتاب (الاحتجاج) للشيخ الطبرسي في حديث عام يتصل بالمجادلة بين النبيّ محمد(ص)، وبعض المناوئين له من أبناء العصر الجاهلي.

١١ ـ نسب كاشف الغطاء نفسه في رسالته هذه إلى أنّه من تلامذة مدرسة بغداد. وقد ذكر حفيدُهُ الشيخ محمّد حسين كاشف الغطاء أنّ الشيخ جعفراً أراد بذلك أنْ يظهر بمظهر أهل السُنّة ليتوصّل إلى أهدافه، ويُقلع عبد العزيز من مداهمة العتبات الشيعية المقدسة.

ولم يكن هذا الرأي موافقاً للصواب لعلم الأمير عبد العزيز بهويّة كاشف الغطاء، ومخاطبته الصريحة في رسالته التي انتقد فيها زوّار قبر الإمام علي(ع) بالنجف.

ويمكن استنتاج أنّ العلاقة التي يشير إليها صاحب «العبقات» نفسه بين الشيخ كاشف الغطاء، وابن عبد الوهّاب يمكن أن تكون ممتدّة إلى أيّام تتلمذ الشيخ محمّد بن عبد الوهّاب على يد شيوخ الحنابلة البغداديين، وإظهار صلته به، وصداقته له. فأراد كاشف الغطاء أنْ يظهر أمام عبد العزيز بن سعود أنّه بمنزلة شيخه الذي نهض بأعباء الدفاع عن فكره، ونشر معتقداته بالقوّة، ليكون تعاون عبد العزيز معه، واحترامه له، على شاكلة تعاونه واحترامه مع شيخه الإمام.

١٢ ـ كُتبتْ هذه الرسالة سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م؛ أي في حياة الامام السيد مهدي بحر العلوم الذي تُوفي سنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م. وكانت المرجعية ـ في هذه المرحلة ـ مقسَّمة بين عدد من المجتهدين؛ حيث تخصّص بحر العلوم بالتدريس، وكاشف الغطاء بالزعامة والفُتيا، والشيخ حسين نجف بالصلاة جماعةً، ممّا يُبرهن على انحصار مرجعيّة التقليد السياسيّة والدينيّة في شخص كاشف الغطاء دون غيره من المجتهدين الكبار من طبقته.

١٣ ـ امتازت الرسالة بالموضوعيّة، والصدق، والواقعيّة، وغزارة المعرفة، وقوّة الاستدلال؛ حيث نهج مؤلّفها منهجاً عقلانيّاً متكاملاً ممّا جعلها ـ على رغم أنّها نافت على القرنين من الزمن ـ رسالةً فنيّةً طريّة الأفكار، متينة المباني، عَذْبة المُحاججة، خالية ممّا اعتاد عليه المؤلّفون من الخروج عن ذريعة العلم إلى ذرائع أُخرى لا تمتُّ إلى نهج المعرفة بصلة.

عندما تسلّم الأمير عبد العزيز بن سعود رسالة كاشف الغطاء كتب له هذه الرسالة المختصرة:

يصل الخط إنْ شاء الله إلى عبد الله جعفر

راعي «المشهد»

بسم الله الرحمٰن الرحيم

وبه نستعين

«السلام التام، والتحية والإكرام، يُهدى إلى سيّد الأنام، محمد عليه من الله أفضل الصلاة والسلام، ثمّ ينتهي إلى جناب الأجلّ الأكرم عبد الله جعفر سلّمه الله من كلّ شرّ، وأسكنه يوم القيامة جنّة المُستقر، وأعاذهُ من عذاب النار الذي يحذر.

أمّا بعد، فوصلَ كتابُك، وفَهمنا ما تضمّنهُ من خطابك، وما ذكرتَ أنّه بلغَكَ عنّا من حُسن الطريقة، واستقامة السيرة من الصلاة، والزكاة، والصيام، والحجّ، وغير ذلك من شرائط الاسلام، فالحمدُ لله الذي هدانا للاسلام، وجنّبنا

من عبادة الأصنام، حمداً كثيراً طيّباً مباركاً فيه، كما يُحبُّ ربُّنا ويرضى، وكما ينبغي لكرم وجهه وعزّ جلاله».

* * *

إن لحن الخطاب من خلال سطور هذه الرسالة المبطّنة بالحمد والثناء، يكشف أنّها واضحة الدلالة فيما تحمله من إصرار على النُهم، وما تُضمره من تهديد ووعيد أُجّل أمدُه إلى حين.

وفعلاً، لم تكن «منهج الرشاد» قد أدّت غرضها في منع الإغارة على مدن الشيعة المقدسة، وإنْ أخّرت الهجوم على مدينة كربلاء ست سنوات فقط، مما يعني أنّ قرار الحرب والسلم لم يكن بيد الأمير عبد العزيز بن سعود، وإنّما كان الأمير قائداً تنفيذياً لسلطة عليا.

إنّ الصراع الذي يختفي وراء رسالة «منهج الرشاد» هو صراع معقّد يدور بين القوى المتنازعة للسيطرة على الخليج، وبالتحديد بين النفوذ البريطاني المتغلغل بمنطقة الشرق، وبين الأمبراطورية العثمانية.

فقد كانت منطقة الجزيرة العربيّة واقعة تحت نفوذ السيادة العثمانية، من الناحية السياسية، عدا مسقط، شأنها في ذلك شأن الدول الأخرى كالعراق، وبلاد الشام، ومصر.

ولم تكن سيطرة الدولة العثمانية على مجموع هذه البلدان سيطرة فعلية، وإنّما كانت السياسة العثمانية تكتفي بتقديم المبالغ المناسبة لكل بلد دليلاً لخضوع الوالي لها.

وفي القرنين الثاني عشر، والثالث عشر الهجريين/ الثامن عشر، والتاسع عشر الميلاديين أصبح النفوذ البريطاني مستحكماً بمنطقة الشرق الأوسط بشكل ظاهر فعّال، وأصبحت الطرق مؤمنةً لسلامة المواصلات التجارية بين الهند، وانكلترا لوصول بضائع شركة الهند الشرقية الإنكليزية إلى موانىء الخليج.

وكانت إيران في هذه المرحلة تحت سلطة الأفشاريين بعد سقوط الدولة الصفوية سنة ١١٣٥هـ/ ١٧٢٢م.

ونظراً للاضطرابات التي طالت الأوضاع الداخلية فقد أصبح النفوذ البريطاني شبه منفرد بالمنطقة بشكل عام، متخذاً التحكم بعصب الاقتصاد من جهة، وتطوّر العلوم المعرفية والصناعية من جهة أخرى ـ طريقاً للسيطرة.

من هنا فقد كانت الحركة الوهابية واجهة من واجهات الصراع البريطاني ـ العثماني بالمنطقة تقومُ على ذريعة الاصلاح الديني في نسيج الجسم الإسلامي نفسه.

وعلى هذا الأساس بدأت حملة منظمة أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي للسيطرة على الدولة العثمانية، وهدّ كيانها وذلك باحتلال الأماكن الإسلامية المقدّسة، والإعتداء عليها بحجّة ذريعة الشرك التي أُتهم بها المسلمون. فقد هوجمت مدينة كربلاء سنة ١٢١٦هـ/ ١٨٠١م، وسُرقت خزائن مراقد الأئمة التي ملأها ملوك الهند وفارس بنفائس التحف والجواهر بعد تدنيس حرمها، واستباحة دماء أهاليها العزّل[1].

---

(١) نُقل أنّ جيشاً من أعراب نجد، قوامه عشرون ألف مهاجم إقتحم مدينة كربلاء في شهر ذي القعدة سنة ١٢١٦هـ، وقتل كل مَنْ كان في البلد، حتى الأطفال، ونهب خزائن الروضة الحُسينيّة الممتلئة بالجواهر النفيسة. كما هدم قبر الامام الحسين(ع)، واقتلع الشباك الموضوع عليه. وقيل إنّ المقاتلين ربطوا خيولهم في الصحن الشريف، ودقّوا القهوة فيه إمعاناً بالتشفّي.

وذكر المؤرخ الشيخ محمد حرز الدين بكتابه (معارف الرجال، ج١، ص٢٢٩) في ترجمة الشيخ حسن مرزة ـ جدّ أسرة آل مرزة النجفية ـ أنّ الشيخ حسن كان له خبرة في علم الطب. وفي عهد إمارة آل الرشيد كان قد قصد الحجّ فاستُقدم لطبابة بعض المرضى من ذوي الشأن، فأطال الإقامة بينهم. وهناك صادف أنْ أطّلع على خزائن الكتب والنفائس، فرأى من بينها منهوبات حرم الحسين(ع) من المصاحف والكتب المخطوطة الثمينة، وبعضاً من معلّقات حرم الحسين الذهبية والسيوف والتحف والسجاد، وعليها آثار الوقف، وإنّ جميع هذه الكتب كانت مهملة، ومتناثرة على الأرض بلا انتظام. وقد التقط الشيخ حسن قسماً منها ورجع به إلى العراق، وأرجع الموقوفات إلى خزانة الحرم.

ولم تكن هذه الحملة بطبيعة الحال ـ موجّهةً إلى طائفة الشيعة بمقدار ما كانت تستهدف إحلال الفوضى في الامبراطورية العثمانيّة، وإظهار عجزها في الحفاظ على أماكن المسلمين التي لم تستطع توفير الحماية اللازمة لها.

وقد بلغ التذمّر أوجه سنة ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م، أي بعد عام من الهجوم على كربلاء، عندما تمّت السيطرة على مكة، والطائف وعسير، وكافة القبائل الحجازية، كما تمّ احتلال المدينة، وتهديم المشاهد الدينية فيها الأمر الذي هزّ أركان الأمبراطورية العثمانية سياسياً بعد استيلاء الوهابيين على الحرمين الشريفين في مكة والمدينة، ومثّل تحدياً لنفوذهم الديني والسياسي في العالم الإسلامي.

وقد أصبحت الدولة الوهابية تمتدُّ، في هذه المرحلة الزمنية، من سواحل الخليج العربي ـ الفارسي شرقاً حتى سواحل البحر الأحمر غرباً. أمّا مناطق الجزيرة العربية فإنّ معظمها كان قد سقط بأيديهم.

وبالرغم من قيام العثمانيين بالردّ على التوسّع الوهابي إلاّ أنّ فشلهم تكرّر مرات عديدة، لكنّهم نجحوا بتهشيم القوة الوهابية على يد والي مصر محمد علي باشا عندما بعث ولده طوسون بك سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١هـ على رأس قوّة ضاربة استطاعت الاستيلاء على الحجاز، ومكة، وجدّة، والطائف.

تكرّرت الحروب بين القوتين سنة ١٢٣٠هـ/ ١٨١٣م، و١٢٣٢هـ/ ١٨١٥م، فأنتهت بعقد معاهدة صلح تكون فيها منطقة الحجاز تحت الإدارة المصرية، ونجد والقصيم في أيدي الوهابيين.

وقد تُركت حاميات من الجيش المصري في مدن الحجاز الكبيرة، وعاد محمد علي باشا، وولده طوسون إلى مصر.

وبعد أقلّ من عام واحد على عودة القادة الكبار استعاد الوهابيون تنظيم صفوفهم، فأنقضّ عليهم إبراهيم باشا الإبن الأكبر لمحمد علي باشا، وبعد حروب دامت إلى سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨١٨م سقطت الدولة الوهابية الأولى.

وفي سنة ١٢٣٧هـ/ ١٨٢٠م، بعد عامين من هذه الحوادث، استعاد

الوهابيون تنظيم صفوفهم من جديد. فاستولوا بقيادة الأمير تركي على منطقة الدرعية، وطردوا المصريين منها. وقد نقلوا عاصمتهم إلى مدينة الرياض المحصّنة، وبدأوا بمهاجمة القوات المصرية في جميع أنحاء نجد، حتى سقطت بأيديهم مرّة أخرى سنة ١٢٤٦هـ/ ١٨٨٣م، بعد عقد كامل من المناوشات القتالية.

لم يقف محمد علي باشا أزاء هذه الانتكاسة مكتوف الأيدي فبادر بارسال حملة عسكرية سنة ١٢٥٢هـ/ ١٨٣٦م استطاعت احتلال مدينة الرياض، والإحساء، والقطيف، ووصلت إلى البحرين.

كما تمكّن سنة ١٢٥٤هـ/ ١٨٣٨م من احتلال نجد، وإلقاء القبض على الإمام فيصل بن تركي، وإرساله إلى مصر أسيراً، وتنصيب خالد بن سعود حليفهم مكانه.

لم تَرُقْ هذه الإنتصارات للإدارة البريطانية المتابعة لخطر محمد علي باشا العسكري، ونفوذه المتنامي خوفاً على مصالحها الاقتصادية في الشرق الأقصى، والحفاظ على سلامة شركة الهند الشرقية، وطرقها التجارية، فبادرت إلى عقد مؤتمر بلندن صيف سنة ١٢٥٦هـ/ ١٨٤٠م ضمّ ممثلين عن انكلترا، النمسا، روسيا، وتركيا، انتهى بمطالبة محمد علي بالانسحاب عن الممتلكات التي احتلّها وإرجاعها إلى السلطة العثمانية، مع بقائه والياً وراثياً على مصر في ظلّ السيادة العثمانية.

وقد أُمهل محمد علي باشا عشرة أيام لتنفيذ هذه المطالب إلاّ أنّ السلطان القوي رفض هذه المهلة، الأمر الذي تسبَّبَ في نشوب حرب بينه، وبين الدول الموقّعة على المعاهدة أُضطرّ للانسحاب بعدها من السودان، وفلسطين، وبلاد الشام، والاحتفاظ بمصر تحت سلطته، وحدها.

وهكذا انتهت أسطورة المقاومة المصرية، ونفوذ السلطان محمد علي باشا، حيث عادت السلطة الوهابية إلى الواجهة من جديد بعد رجوع الأمير

فيصل بن تركي سنة ١٢٥٩هـ/ ١٨٤٣م من منفاه إلى نجد في محاولة لتوحيد مناطق الجزيرة. وبعد وفاته سنة ١٢٨٢هـ/ ١٨٦٥م تنافس ولداه عبد الله، وسعود في خلافته، وتجزأت البلاد بينهما وبين آل الرشيد، الموالين للسلطة التركية.

إلاّ أنّ بداية القرن الرابع عشر الهجري/ العشرين الميلادي أعاد بناء النهضة في الدولة السعودية الوهابية بعد الاستيلاء على المدن، وإجبار الأتراك بالانسحاب عنها، والقضاء على نفوذ سلطة آل الرشيد من جهة، والتفرّغ للشريف حسين (شريف مكة) الذي انتهت سلطته سنة ١٣٤٥هـ/ ١٩٢٦م، وقد أُطلق في ٢١ جمادى الأولى سنة ١٣٥١هـ/ ٢٢ أيلول ١٩٣٢م إسم «المملكة العربية السعودية» على الدولة.

الدفاع عن النجف

في زحمة الفتوح التي حقّقها الوهابيون كان الإمام كاشف الغطاء قد أحسَّ أنَّ النجف في خطر، بعد المداهمات التي طالتها في أوقات متفرّقة سواءاً قبيل غزو كربلاء، أو بعدها. إلاّ أنَّ النجفيين دافعوا عن بلدتهم بما يملكون من إمكانات محدودة.

أمّا الآن، وقد أصبحت الأمور أكثر تعقيداً، والمخاطر أكثر إستحكاماً، فقد استعدَّ زعيم النجف الإمام كاشف الغطاء لتوفير الحماية لها.

كانت النجف محاطة بسور كبير منذ بداية نشأتها خوفاً من هجمات الأعراب عليها، وكانت للسور أبواب، تُفتحُ صباحاً، وتغلق وقت الغروب. وله أبراجٌ يُسمّى كلُّ واحد منها (قولة) تستخدم للحراسة.

وقد نهض بعض الوزراء لتجديد سور النجف سنة ١٢٠٣هـ/ ١٧٨٩م، وسنة ١٢١٢هـ/ ١٧٩٧م، إلاّ أنَّ السور كان منخفضاً لا يصمد لحماية البلدة.وقد سعى كاشف الغطاء لدى الوزير القاجاري محمد حسين خان لتجديده عام ١٢١٧هـ/ ١٨٠٢م، واستُكمل بناؤه بالفعل سنة ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م.

وكان بعض تجّار الهنود، قبل هذه المرحلة، قد سعى لبناء ما يقرب من ربع السور من جهة القبلة، قبل بناء الوزير القاجاري له.

قام الإمام كاشف الغطاء بتأمين الحماية للنجف، وتعبئة أهلها للدفاع عن بلدتهم. فهيّأ طلبة العلوم الدينيّة للمنازلة ووفّرَ لهم السلاح، ومراكز التدريب.

كما قام باستخدام شباب النجفيين مخصّصاً لهم الرواتب، وموفراً لهم الأسلحة القتالية من البنادق، والتفك.

ولم تكن الهجمات الوهابيّة على النجف وليدة هذه الساعة، وإنّما كان الوهابيون يُغيرون على المنطقة بين الحين والآخر، فيطوفون خارج سور النجف بعدما تُغلّق أبوابه، فيقتلون كلّ ما يجدونه رجلاً كان أو إمرأة، أو حيواناً، ويرمون رأسه داخل البلدة.

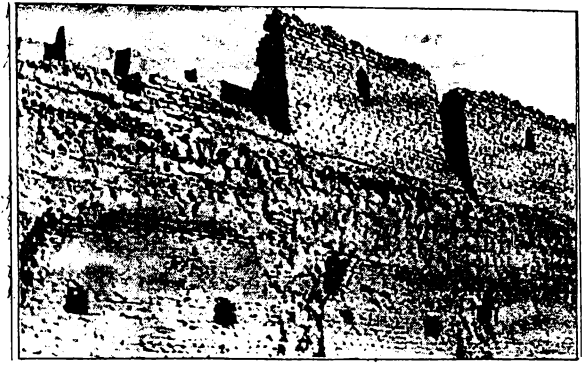

جانب من سور النجف «طرف محلة البراق»

كانت هذه الغارات تُثير الرعب في نفوس النجفيين خصوصاً وانها غارات مفاجئة ينطلقُ أصحابُها من منطقة (الرحبة) القريبة من النجف أو من نجد، والقصيم حيث يسود الخوف والهلع المدينة كلّها. وقد نقلت بعض النصوص أنّ المرأة الحامل إذا سمعت بهذه الغارات أسقطت ما ببطنها من شدّة الخوف والفزع[1].

(١) العبقات العنبرية، ص١٢٨.

في مثل هذه الأجواء انقسم العلماء بين مَنْ أوجب الخروج من النجف تقديماً لأدلة حفظ النفس، وبين مَنْ أوجب الجهاد تقديماً لأدلة حفظ الدين.

وقد صنّف السيد جواد العاملي (ت: ١٢٢٦هـ/ ١٨١١م) رسالةً ردّ بها على مَنْ خرج من النجف من العلماء. كما ساند حملة الجهاد كبار مجتهدي تلك المرحلة أمثال: الشيخ حسين نجف (ت: ١٢٥١هـ/ ١٨٣٥م)، والشيخ خضر شلّال (ت: ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م)، والشيخ مهدي ملاّ كتاب، وغيرهم.

وقد تمخّضت تعبئة النجفيين عن عدد لا يزيد عن مائتين من المقاتلين. إلاّ أنهم وطّنوا أنفسهم على الموت.

كان كاشف الغطاء يُشرف على جميع العمليات القتالية، وقد وضع خطّة الدفاع عن النجف على هذه الطريقة:

١ ـ توفير السلاح الحديث، وتهيئة الدروع وجمعها، وتسليح الأهالي حسب قدراتهم القتالية.

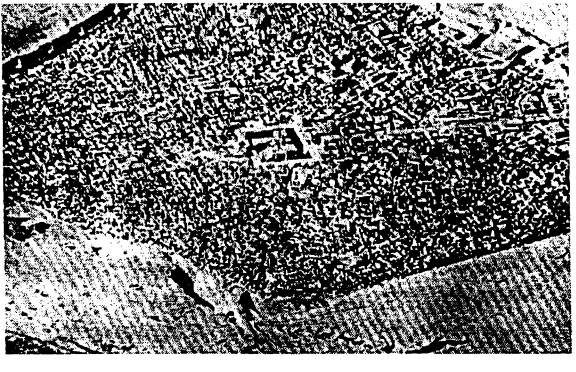

مدينة النجف محاطة بسورها الشهير يتوسطها مرقد الإمام علي بن أبي طالب(ع)

٢ ـ إغلاق أبواب البلدة، وإسنادها بصخور كبيرة تعزّز مقاومتها، لأنّ السور في تلك المرحلة ـ كان متآكلاً.

٣ ـ عيّن لكلّ موقع عدداً من المقاتلين مع كامل عُدّتهم القتالية.

٤ ـ هيّأ جماعة من المسلّحين (من طلبة العلوم) للرصد من أبراج سور البلدة (الواحدة منها تسمى حجرة أو قولة)، وكان بين كل واحدة منها مسافة أربعين أو خمسين ذراعاً.

٥ ـ بنى الشيخ جعفر سرداباً بداره، يُنْزَلُ إليه بأربعين دَرْجَة ليُخفي فيه عائلته خوفاً من السبي. وكان الوصول إلى هذا السرداب ليس بالأمر الهين، خصوصاً بعدما أخفى مدخله، ووفّر من الطعام ما يكفي مقدار شهر كامل.

كان عمل المقاتلين المرابطة على بُعد أميال من حدود بلدة النجف من جهاتها الستة. وهم مزيج من شباب النجف ممن يحسنون إستخدام الأسلحة النارية، وطلبة العلم الذين دُرِّبوا على مهارة الرمي بالبنادق، والأسلحة.

تعرّضت النجف لخمس هجمات كبيرة، كان أعنفها هجوم سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م حيث دافع النجفيون دفاعاً مستميتاً، ولم تستطع القوّة الغازية من اقتحام المدينة بعد الخسائر التي تكبّدتها، والتحصينات التي لم تكن بالحسبان.

أمّا الهجمات الأخرى فقد اعتاد النجفيون بعد صدّ غارتهم الأولى، وتهشيمها من صدّ الغارات اللاحقة، بعدما تفنّنوا بأساليب القتال، وطرقه. ففي عام ١٢٢١هـ/ ١٨٠٦م تعرّضت النجف لغارة مفاجئة مرّة أخرى، إلاّ أنّ ثقة النجفيين بممارساتهم القتالية، وتحصنهم بالأسوار والأسلحة جعلهم يتغلبون على القوة المهاجمة بسهولة فائقة.

ما بعد التهديد الوهابي للنجف

لم يكن الإمام كاشف الغطاء يحسب حساباً لما بعد الانتصارات التي حقّقها بصدّ الغارات الوهابية، وحفظ كيان جامعة النجف. فقد تشكّلت من القوّة التي خلقها الإمام زعامات حربيّة نسبت حفظ النجف إلى نفسها. وقد تشكّل صراع دبَّ بين القادة فيما بينهم، وتطوّر بمرور الزمن حتى أصبح مهدّداً كيان النجف نفسه بالنزاعات الداخلية المسلّحة، والاغتيالات، وتصفية الزعامات واحدها للآخر.

وقد امتدت المنازعات بين أهالي النجف بتشكيل فرقتي (الزگرت) و(الشمرت)، وهما مصطلحان اشتهرا في مفردات تاريخ النجف منذ ذلك الوقت حتى عصرنا الحاضر.

وبالرغم من غموض نشوء تاريخ هذه المرحلة وتشكّله، فقد قيل إنَّ إبتداء النزاعات تولّدت بعد مقتل السيد محمود الرحباوي سنة ١٢٢٧هـ/ ١٨١٢م الذي أُتهمَ بالتواطؤ مع الوهابيين، وإيوائهم، ولم يكن يصغي لتحذير الإمام كاشف الغطاء له.

وقد أُتهمَ بقتله أصحاب الإمام إغتيالاً الأمر الذي دفع أسرة (الملالي) المتنفذة بالنجف، وهم أولاد أخت السيد الرحباوي، إلى المطالبة بثأره مما سبَّب انقسام الأهالي إلى فريقين سُمّي مَنْ ينتصر لآل كاشف الغطاء ـ في فترة زمنية لاحقة (زگرتي).

وقد توارث العداء بين الملاّ محمد طاهر بن الملا محمود (حاكم النجف)؛ الذي تولّى سدانةِ الحرم العلوي سنة ١٢٣٥هـ/ ١٨٢٠م، وقُتل بالرصاص سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م وبين أبناء الشيخ جعفر كاشف الغطاء، حتى أُضطرّ الشيخ موسى كاشف الغطاء إلى الخروج من النجف إحتجاجاً على مقتل جملة من أصحابه اغتيالاً.

وبعد مقتل الملاّ محمد انتصبَ أصحابه للثأر، وسمّوا أنفسهم بالشمردل (أي الشجعان)، ثم تطورت اللفظة فسُمّوا بالشمرت[1].

وقد تطوّرت النزاعات المسلّحة بين الطرفين مما دفع عشائر الهلالات، والظوالم، والخزاعل إلى الدخول في أتون الحروب المتكررة بينهما.

(١) تولّى ملاّ سليمان بن ملاّ محمد حكومة النجف سنة ١٢٤٢هـ/ ١٨٢٧م لكنّه قُتل سنة ١٢٤٨هـ/ ١٨٣٢م بيد عباس الحدّاد الذي عُيّن حاكماً للنجف مكانه بدعم من السلطة التركية. إلاّ أنّ الحدّاد قُتل سنة ١٢٣٤هـ/ ١٨١٩م لترجع النجف لحكم الملالي، حيث استمرّ حتى الملاّ يوسف المتوفى سنة ١٢٧٠هـ/ ١٨٥٤م الذي فتك بجماعة الزگرت، وذبح رؤساءهم. وعُزل الملاّ يوسف عن منصبه حدود سنة ١٢٥٥هـ/ ١٨٣٩م ليُعيّن محلّه السيد رضا الرفيعي لرئاسة السدانة، ومفاتيح الخزانة العلوية. وقد قُتلَ الرفيعي سنة ١٢٨٥هـ/ ١٨٦٨م. وما زالت السدانة قائمة بهم حتى اليوم.

منهج الرشاد

النسخ المعتمدة في التحقيق

أ ـ النسخ المخطوطة

١ ـ نسخة مكتبة آية الله المرعشي النجفي. مكتوبة في حياة المؤلف، وهي قريبة لزمن التأليف. كتبها أحد تلامذة المؤلف العلّامة الشيخ قاسم الدلبزي سنة ١٢١٠هـ/ ١٧٩٥م، وعليها بعض التعليقات له.

وهذه النسخة مطابقة للأصل تمام المطابقة، سليمة العبارة، صحيحة، تتكوّن من (٥٥) صفحة كلُّ واحدة منها تحتوي على (٢٣) سطراً ـ عدا الصفحة الأولى ـ، ويتكوّن السطر الواحد ـ غالباً ـ من (١٢) كلمة.

أمّا ناسخُها العلّامة الدلبزي فهو من العلماء الذين اختفى تراثهم، ويبدو أنّه من تلامذة المؤلّف كاشف الغطاء، والسيّد مهدي بحر العلوم، كما يظهر من بعض المستندات أنّه كان حيّاً سنة ١٢٣١هـ/ ١٨١٦م. وربّما يُستظهرُ أنّه مات بالطاعون سنة ١٢٤٧هـ/ ١٨٣١م. وولده الشيخ حسين الدلبزي المُتوفى بالطاعون أيضاً سنة ١٢٤٧هـ من العلماء المشهود لهم بالفضل، وغزارة العلم، والأدباء الذين احتفظت المجاميع الأدبيّة بنماذج من قصائدهم البليغة الجزلة.

وبه

بسم الله الرحمن الرحيم وبه نستعين

الحمد لله الذي تفرد بالازلية والقدم واشتق نور الوجود من ظلمة العدم والصلوة
والسلام على [illegible] ونقل امته محمد صلى الله عليه وسلم سائر الامم وانزل القرآن فيه آيات
محكمات هن ام الكتاب واخر متشابهات وحذر عن اتباع الملاذ والشهوات
وامر بالوقوف عند الشبهات وانذر عن متابعة الاباء والامهات وبعد فيقول
على مرتقى بحمله جميع انبيائه ونقد على كافة اصفيائه محمد المختار صلى الله عليه وعلى
آله ما اظلم ليل وانار نهار اما بعد فقد ورد الى الامة ترجمة [illegible]
اليمن ذنبه الطالب من الله السداد حبقى قلوبه اهل بغداد لاتب [illegible]
على كلمات يالوقوف الفهم من تامل بنيل المعروف امر وعن المنكر نهاه يا زاجرا الزمن
بعبادة المعبود الشيخ عبد العزيز بن سعود نال رتبه وتاب [illegible]
[illegible] من ذنوبه فتوبوا الى الله وتضرعوا [illegible]
[illegible] بالجد الى المعبود [illegible] الى عليه الاباء والاجداد يا
العزيز [illegible] واجتنب شر من اغوى [illegible] عن تعليم
[illegible] وتخلقت بخلقها ولو بقرض شعر واحذر دار الغرة دار الوداع واحذر
الخلد والجلد ان هذه الدنيا لو كانت لو كنت وكيف الدنيات من هالك بين عشيات
بعض هذا دار سماك [illegible] تخيلت الك الدنيا من لاعاب وهان [illegible]
النعيم مالم [illegible] انسان ناحزن ان تكون مع الاعراض عن هذه النعم الزائفة
خرجه الى الدنيا والآخرة والسلام منها راجية المغفرة ورايت ان [illegible]

نزلا

الصفحة الأولى من مخطوطة مكتبة السيد المرعشي النجفي (قم)

الصفحة الأخيرة من مخطوطة مكتبة السيد المرعشي النجفي

وعلى هذه النسخة (تملُّكُ) جملة من الأعلام؛ منهم: الشيخ سليمان العاملي، والسيّد صدر الدين الصدر (صهر المؤلف)، والعلاّمة السيد عبد الله ابن محمد رضا شبّر، والشيخ محمد رضا بن علي بن محمد جعفر الاسترابادي.

وهذه النسخة الخطّية هي من مقتنيات مكتبة آية الله العظمى المرعشي النجفي، برقم ٣٨٩٢ من تعداد الكتب الخطّية.

٢ ـ نسخة مكتبة آل كاشف الغطاء، كتبها حفيد المُصنّف الشيخ محمد رضا بن الشيخ هادي بن عباس بن الشيخ علي بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء المُتوفى سنة ١٣٦٦هـ/ ١٩٤٧م الذي يُعد أحد أعلام عصره بالفقه والشعر والأدب. وفرغ من نسخها يوم الجمعة ١٥ جمادى الأولى سنة ١٣٢٥هـ وهي محفوظة بمكتبة العلاّمة الامام الشيخ علي كاشف الغطاء بالنجف ضمن مجموعة تحتوي على رسائل متعددة.

تقع هذه المخطوطة في (٧٦) ورقة، كلُّ واحدة تشمل (١٥) سطراً، تتفاوت كلماته بين (١٢) إلى (١٥) كلمة في السطر الواحد.

وقد كُتبتْ (١٢) صفحة من المخطوطة نفسها بخط آخر لم يُشر إلى إسم الناسخ، وهذه الصفحات متفرّقة في أماكن مختلفة من النسخة الخطيّة، وهي أجودُ خطّاً من الأصل.

وفي النسخة هذه سقطٌ كثير، وبعض الارتباك بالعبارات. إلاّ أنّها نسخةٌ مكمّلة للنسخة الأصلية التي كُتبتْ في عهد المؤلف.

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على خاتم النبيين محمد وآله الطيبين

الحمد لله الذي تفرد بالوحدانية والقدم، واشتق نور الوجود من ظلمة العدم،
واسس قواعد الشرع على وفق المصالح والحكم، وفضل امة محمد على سائر
الامم، وانزل القرآن فبيّن ان محكماته هن ام الكتاب وآخر متشابهات
وحذر عن اتباع الهوى والشهوات وامر بالوقوف عند الشبهات، وانذر عن
متابعة الرياء والامهات، والصلاة والسلام على من رفعه على جميع انبيائه،
وفضله على كافة اصفيائه محمد المختار ثم ما اظلم ليل واضاء نهار، اما بعد
فقد ورد الملتمس من ربة النائب البدر زينة الطالب من الله السداد
جعفر اقل طلبة اهل بغداد كتاب كريم مشتمل على كلمات كالدر النظيم

ممن

الصفحة الأولى من مخطوطة مكتبة آل كاشف الغطاء (النجف)

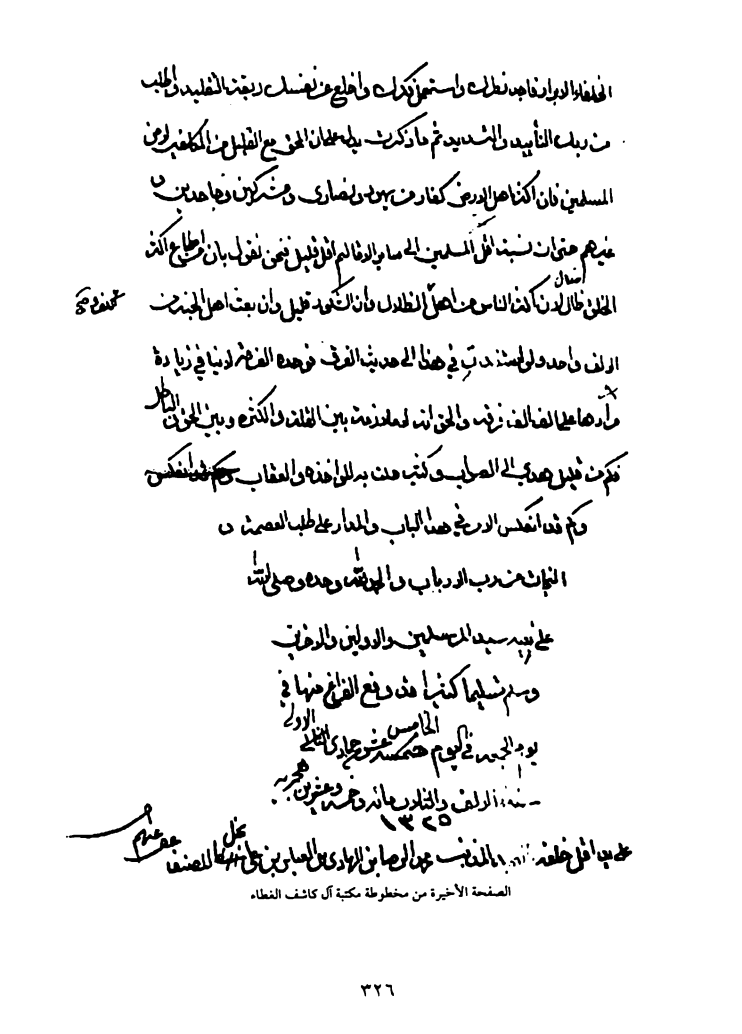

الصفحة الأخيرة من مخطوطة مكتبة آل كاشف الغطاء

ب ـ النسخ المطبوعة.

١ ـ طُبِعَ «منهج الرشاد» للمرّة الأولى في ثمانين صفحة بالمطبعة الحيدرية بالنجف الأشرف سنة ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م، باهتمام السيد عباس التبتي.

وقد ورد في الصفحة الأولى من هذه الطبعة النصّ التالي:

«منهج الرشاد لمن أراد السداد من تأليف واحد الدهور، ونادرة العصور، أفضل الربانيين، وأعظم أساطين الدين، شيخ الطائفة، الشيخ الأكبر، الشيخ جعفر النجفي، عطّر الله مرقده، صاحب كتاب «كشف الغطاء»، و«شرح القواعد» و«الحقّ المُبين»، وغيرها من المؤلفات الشهيرة المُتوفى في رجب سنة ثمانية وعشرين بعد الألف والمائتين هجرية.

كتبه بعنوان جواب مكتوب، كتبه بعض أمراء نجد من أبناء سعود، الذين هم الدُعاة إلى مذهب الوهابيّة. وهو كتاب جليل لم يُكتبْ مثله في هذا الباب».

٢ ـ نُشر للمرّة الثانية بمدينة قم سنة ١٤١٤هـ/ ١٩٩٤م من قبل المعاونية الثقافية للمجمع العالمي لأهل البيت بتحقيق السيد مهدي الرجائي. وشملت هذه الطبعة على مقدمة في التعريف بالمؤلف والكتاب، وعلى مجموعة فهارس الآيات القرآنية، والأحاديث والأماكن، وغيرها. وقد اعتمد المحقق في ضبط النصّ، وتحقيقه على نسخة مكتبة الإمام المرعشي النجفي، مع مطابقتها بالنسخة المطبوعة عام ١٩٢٥م.

٣ ـ صدرت طبعتُها الثالثة ملحقةً بكتاب «العبقات العنبرية في الطبقات الجعفرية لمؤلفه الإمام الشيخ محمد الحسين كاشف الغطاء المُتوفى سنة ١٣٧٣/ ١٩٥٤م الذي نشر بتحقيقنا في بيروت سنة ١٤١٨هـ/ ١٩٩٨م. وقد ألحقتُها «بالعبقات» لأنّ المؤلف لم يقف إلاّ على بضع صفحات منها، وقَدْ أجاز لمن يعثر عليها أنْ يُلحقها كاملةً بكتابه.

كان الهدف أولاً ضبط النصّ، والاشارة إلى أهمية هذه الرسالة دون الدخول بتفصيلات أخرى حول حياة المؤلف، وتحليل النصّ.

٤ ـ صدرت هذه الرسالة مُسْتَقِلَّةً مستلّة من كتاب «العبقات العنبرية» عن دار الغدير ببيروت سنة ١٤٢٠هـ/ ٢٠٠٠م في (١٢٢) صفحة. وفيها بعض التحريفات المخلّة، والاهمال المتعمّد.

٥ ـ أمّا الطبعة الحالية فقد اعتمدتُ فيها على نسخة المرعشي النجفي، ومخطوطة مكتبة آل كاشف الغطاء التي يبدو أنّ الطبعة الأولى التي صدرت بالنجف ١٣٤٣هـ/ ١٩٢٥م كانت قد نُشرت عنها.

وقد أثبتُّ الكلمات المختلفات، وقدّمتُ لها دراسة عن حياة الإمام جعفر كاشف الغطاء، ودوره في تاريخ النجف السياسي أوائل القرن الثالث عشر الهجري/ التاسع عشر الميلادي.

وأشير أنّ رسالة «منهج الرشاد» نالتْ تقدير علماء الشيعة، فأثنوا عليها. يقول علامة التحقيق الشيخ الطهراني في الذريعة: إنّها أول كتاب كُتب في الردّ على الوهابية، وقد حوت حقائق علمية، وحججاً دامغة.

وذكر العلاّمة السيد محسن الأمين: «أنّ رسالة منهج الرشاد حوت كثيراً مما لم يحوه بعض ما تأخّر عنها، فهي من مفاخر ذلك العصر».

وأقول: إنّ هذه الرسالة بعد مرور ثلاثة قرون على تأليفها لا يمكن أنْ تُقرأ على أنّها نقاشٌ جدلي يعتمد على متون النصوص وحرفيتها، بل إنّها صورة من صور الصراع السياسي المتخذ من الجدل والاختلاف الديني طريقاً للتسلّط.

وهذا ما برهنت عليه الأحداث الخارجة عن فصول هذه الرسالة.

بيروت: ٢٩ محرم ١٤٢٤هـ
١ نيسان ٢٠٠٣م

حمود العبودي

منهج الرشاد
لمن أراد السداد

رسالة الامام الشيخ جعفر كاشف الغطاء
إلى الأمير عبد العزيز بن سعود

تقديم وتحقيق
الدكتور جودت القزويني

مقدّمة المؤلّف

الحمد لله الذي تفرّد بالأزلية[1] والقِدم، واشتقّ نور الوجود من ظلمة العدم، وأسّس قواعد الشرع على وفق المصالح والحِكم، وفضّل أمّة محمّد(ص) على سائر الأمم، وأنزل القرآن فيه آيات محكمات هنّ أمّ الكتاب وأُخر متشابهات، وحذّر عن اتّباع الملاذ والشهوات، وأمرَ بالوقوف عند الشبهات، وأنذر عن متابعة الآباء والأمّهات. والصلاة والسلام على مَنْ قدّمه على جميع أنبيائه، وفضّلهُ على كافّة أصفيائه، محمّد المختار، صلّى الله عليه وعلى آله، ما أظلم ليل، وأضاء نهار.

أمّا بعد، فقد ورد ـ إلى المقصّر مع ربّه، التائب إليه من ذنبه، الطالب من الله السداد، جعفر أقلّ طلبة أهل بغداد ـ كتابٌ كريمٌ، مشتمل على كلماتٍ كالدرّ النظيم، ممّن لم يزل بالمعروف آمراً، وعن المنكر ناهياً زاجراً. الآمر بعبادة المعبود، الشيخ عبد العزيز بن سعود[2].

---

(١) في نسخة: بالوحدانية.

(٢) عبد العزيز بن محمّد بن سعود (أمير آل سعود في دولتهم الأولى)، ولد سنة ١١٣٢هـ/ ١٧٢٠م، وولّي بعد وفاة أبيه عام ١١٧٩هـ/ ١٧٦٥م، وكانت عاصمة حكمه الدُرعية بنجد، واتّسعت الفتوحات في أيّامه، وامتدّ مُلكُهُ من شواطىء الفرات إلى رأس الخيمة وعُمان، ومن الخليج الفارسي إلى أطراف الحجاز وعسير. إغتاله رجلٌ من أهل العمادية، من ديار الجزيرة، في جامع الدرعيّة، سنة ١٢١٨هـ/ ١٨٠٣م.

فلمّا نظرته وتدبّرتُه وتأمّلته وتصوّرته، خلوتُ في زاويةٍ من الدار، وتصفّحته تصفّح الإنصاف والإعتبار. وقلتُ متّهماً لنفسي بالميل إلى العصبيّة والعناد، والركون إلى ما عليه الآباء والأجداد: يا نفس اعرفي قدر دنياك، واحذري شرّ من أغوى أباكِ. لقد تخلّيتِ عن نعيم الدنيا بحذافيرها، وقنعتِ بقليلها، ولو بقرص شعيرها، وتجنّبت دار العزّة والوقار، واخترتِ العزلةَ والخمولَ في هذه الديار.

فلو كنتِ في كبار البلدان، من ممالك بني عثمان، أو في بعض بلدان فارس وإيران، لجاءت إليكِ الدنيا من كلّ جانب ومكان، ونلتِ من النعيم ما لم ينله إنسان، فاحذري أن تكوني مع الإعراض عن هذه النعم الفاخرة، ممّن قد خسر الدنيا والآخرة.

فلمّا شممتُ منها رائحة التصفية، ورأيتُ أنّ نسبة المذاهب ـ لولا الله عندها ـ على التسوية، وجهتها إلى الكشف عن حقيقة الجواب عن الشُبهِ الموردة في ذلك الكتاب، ورأيت أن أشرحَ في الحال رسالةً على وجه الاختصار، مستمدّاً من فيض الواحد القهّار، وسمّيتُها: «منهج الرشاد لمن أراد السداد».

فأُقسمُ عليك ـ بمن جعلك متبوعاً بعد أنْ كُنتَ تابعاً، ومطاعاً بعد أن كنتَ لغيرك مطيعاً سامعاً، وأعزّك بعدما كنتَ ذليلاً، وكثّر جمعك بعدما كان نزراً قليلاً ـ أن تنظر ما رسمتُه سطراً سطراً، وتمعن في تحقيق ما رقمته نظراً وفكراً، متوخّشاً من الناس وقت النظر، متحذّراً من النفس الأمّارة كلّ الحذر، طالباً من الله كشف الحقيقة، سالكاً في المناظرة واضح الطريقة، فلعلّه يظهر أنّه ليس بيننا نزاع، فنحمد الله على الاتّفاق والاجتماع. وقد رتّبتُها على مقدّمة، ومقاصد، وخاتمة.

أمّا المقدّمة، فتشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول

في أن الأفعال والكلمات تختلف باختلاف المقاصد والنيات

فمن قال: يد الله، وعين الله، وجنب الله، وأراد الجوارح على نحو ما في الأجسام، أو قال: إنّ الله على العرش استوى، أو في جهة الفوق، وأراد الحلول والاختصاص التام، أو أسند الرحمة إليه، أو الغضب، وأراد رقّة القلب، أو ثوران النفس على نحو ما يعرف بين الأنام، أو أسند الرزق إلى المخلوق، أو دعاه، أو استغاث به على نحو ما يسنده إلى الملك العلاّم، كان خارجاً عن مقالة أهل الإسلام.

وأمّا من قصدَ بها معاني أُخر، فليس عليه من بأس ولا ضرر. وليس هذا كصنيع المشركين، فإنّ الفرق ظاهر، كما سنبيّنه كمال التبيين. فالمستغيث بالمنسوب مستغيث بالمنسوب إليه، والمستجير بالمكان مستجيرٌ بمن سلطانه عليه.

فمن أراد الاستجارة والإستغاثة بزيد، فله طريقان:

أحدهما: أنْ يهتفَ باسمه.

وثانيهما: أن ينادي بصفاته، أو مكانه، أو خدمه.

وثانيهما أقربُ إلى الأدب، وأرغب لطباع أرباب الرُتب. فلا يكون المستغيث ببيت الله، أو بصفات الله، أو برسل الله، أو المقرّبين عند الله، إلاّ

مستغيثاً بالله. فكلُّ مَنْ دعا مخلوقاً مقرّباً عند الله، أو استغاث به قاصداً بحسن التعبير الاستغاثة باللطيف الخبير، فليس عليه بأسٌ في ذلك، بل هو سالكٌ في الآداب أحسن المسالك.

وكذلك مَنْ أسند تلك الأشياء لمجرّد الربط الصوري، لا على قصد التأثير الحقيقي، كما يقال: «أنبتَ الربيعُ البقل»، والمُنْبِتُ هو الله، و«بنى الأمير القصر»، والباني ظاهراً سواه[1].

فإطلاق السيّد والمالك على غير الله، وإضافة العبد والمملوك في الأحرار إلى غير الله، إن أُريد بها الملكيّة الحقيقيّة، كان خروجاً عن الطريقة الشرعيّة، وإلاّ لم يكن في ذلك بأسٌ بالكلّية.

ولهذا ورد في الأخبار النبويّة إطلاق السيّد على غير الله.

روى أبو هريرة[2] عن النبيّ(ص) أنّه قال: أنا سيّد ولد آدم يوم القيامة[3].

وعن أبي سعيد الخدري[4] عن النبيّ(ص) أنّه قال: الحسن والحسين سيّدا شباب أهل الجنّة[5].

---

(١) في نسخة: «بناه».

(٢) أبو هريرة: عبد الرحمن بن صخر الدوسي اليماني، تُوفّي سنة ٥٧هـ/ ٦٧٧م في المدينة.

(٣) سنن الترمذي (كتاب المناقب) حديث ٣٥٤٨؛ صحيح مسلم (كتاب الفضائل)، حديث ٤٢٢٣؛ مسند أحمد (باقي مسند المكثرين)، حديث ١٠٥٤٩؛ سنن ابن ماجه (كتاب الزهد)، باب ٣٧؛ سنن الدارمي، المقدمة، باب ٨.

(٤) أبو سعيد الخدري: سعد بن مالك بن سنان الخدري الأنصاري، تُوفّي بالمدينة سنة ٧٤هـ/ ٦٩٣م، وهو من الصحابة، ورتبهم أسمى مراتب العدالة والتوثيق.

(٥) سنن الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٧٠١، ٣٧١٤؛ ابن ماجة (المقدّمة)، حديث ١١٥؛ مسند أحمد (باقي مسند المكثرين)، حديث ١٠٥٧٦، ١١١٦٦، ١١١٩٢، ١١٣٥١. ورواه أيضاً في (باقي مسند الأنصار)، حديث ٢٢٢٤٠، ٢٢٢٤١.

وعن عليّ(ع)، عن النبيّ(ص) أنّه قال: أبو بكر وعمر سيّدا كهول أهل الجنّة[1].

وعن فاطمة(ع): أنّ النبيّ(ص) أخبرني أنّي سيّدة نساء العالمين. رواه الترمذي[2].

وروى أبو نعيم الحافظ، قال: قال النبيّ(ص): ادعوا لي سيّد العرب عليّاً.

وفي «حلية الأولياء» أنّ النبي(ص) قال لعليّ: مرحباً بسيّد المؤمنين[3].

وعن أبي بكرة عن النبيّ(ص) أنّه قال للحسن: ابني هذا سيّد[4].

وعن عائشة[5] عن النبيّ(ص) أنّه سأل[6] ابنته الزهراء، فقال لها: أما ترضين أنْ تكوني سيّدة نساء العالمين، أو نساء المؤمنين؟[7].

---

(١) سنن الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٥٩٧، ٣٥٩٩. ومثله حديث ٣٥٩٨؛ سنن ابن ماجه (المقدّمة)، حديث ٩٢، ٩٧؛ مسند أحمد بن حنبل (مسند العشرة المبشّرين بالجنّة)، حديث ٥٦٨.

(٢) سنن الترمذي، حديث ٣٨٢٨.

(٣) حلية الأولياء، ج١، ص٦٦. وقد وردت العبارة بالأصل هكذا: «وفي حلية الأولياء: أنّه قال النبي(ص) لعليّ».

(٤) البخاري (كتاب المناقب)، حديث ٣٣٥٧، ٣٤٦٣. وكذلك رواه في (كتاب الصلح، حديث ٢٥٠٥؛ والترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٧٠٦.

(٥) عائشة بنت أبي بكر التيميّة، أمّ المؤمنين، تُوفّيت في المدينة سنة ٥٨هـ/٦٧٨م.

(٦) في نسخة (ك): سارّ.

(٧) صحيح البخاري (كتاب المناقب)، حديث ٣٣٥٣؛ صحيح مسلم (فضائل الصحابة)، حديث ٤٤٨٦، ٤٤٨٨؛ الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٨٠٧؛ سنن ابن ماجه (ما جاء في الجنائز)، حديث ١٦١٠؛ مسند أحمد (باقي مسند الأنصار)، حديث ٢٣٣٤٣، ٢٤٨٢٩، ٢٥٢١٠.

وروي ذلك عن الصحابة أيضاً؛ فعن جابر[1] أنّ عمر كان يقول: أبو بكر سيّدنا، وأعتقَ سيّدنا (يعني: بلالاً)، رواه البخاري[2].

وعن أبي بكر ـ رضي الله عنه ـ أنّه قال: أتقولون هذا شيخ قريش وسيّدهم؟[3].

وعن عائشة عن النبيّ(ص) أنّه قال: أنا سيّد ولد آدم، وعليّ سيّد العرب.

وروي عن النبيّ(ص) أن سادات النساء أربعة: خديجة، وفاطمة، وآسية، ومريم.

وعن عليّ(ع): أنا سيّد البطحاء.

إلى غير ذلك ممّا يزيد على التواتر.

فالجمع بين ذلك وبين ما روي في الكتب المُعتبرة أنّه جاء وفدٌ إلى النبيّ(ص)، فقالوا: أنت سيّدنا، فقال: السيّد الله[4]. باختلاف القصد في معنى السيّد.

وكذا ما وردَ[5] من المنع من قول السيّد: عبدي وأَمَتي فلان وفُلانة. فقول العبد لمولاه: ربّي، مع وجود ذلك في كلام يوسف[6].

---

(١) جابر بن عبد الله بن عمرو الأنصاري، صحابي، أقام بالمدينة، وتُوفي فيها سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م.

(٢) صحيح البخاري (باب مناقب بلال بن رباح)، ج٤، ص٢١٧، حديث ٣٤٧١؛ سنن الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٥٨٩. وفي نسخة (ك) ورد النصّ: أنّ عمر كان يقول أنّ أبا بكر سيّدنا».

(٣) صحيح مسلم (باب فضائل سلمان، وصُهيب، وبلال)، ج٤، ص١٩٤٧.

(٤) سنن أبي داود (كتاب الأدب)، حديث ٤١٧٢؛ مسند أحمد (مسند المدنيّين)، حديث ١٥٧١٧، ١٥٧٢٦. وجاء فيه: «أنت سيّد قريش، قال النبيّ ـ ص ـ: السيّد الله».

(٥) في نسخة (ك): رُوي.

(٦) إشارة إلى قول يوسف(ع): ﴿قَالَ مَعَاذَ اللَّهِ إِنَّهُ رَبِّي أَحْسَنَ مَثْوَايَ﴾ [يوسف: ٢٣]؛ وقوله أيضاً: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُ الرَّسُولُ قَالَ ارْجِعْ إِلَىٰ رَبِّكَ فَسْئَلْهُ مَا بَالُ النِّسْوَةِ اللَّاتِي قَطَّعْنَ أَيْدِيَهُنَّ﴾ [يوسف: ٥٠].

وكذلك الاستغاثة بغير الله، إنْ أُريد بها الصورة، أو من باب استغاثة العبد بقصد المعبود، فلا بأس بها. وعلى ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[1]، وكذا قوله: ﴿يَسْتَصْرِخُهُۥ﴾[2].

وكذلك إطلاق الربّ في بعض المعاني على غير الله كفر، مع أنّ الصدّيق يوسف(ع) قال: ﴿ٱذْكُرْنِى عِندَ رَبِّكَ﴾[3]. وكذلك طلب الرّزق من غير الله على وجه الحقيقة كفر، وقال الله تعالى: ﴿وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[4]، وقولُهُ: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلْعَزِيزُ مَسَّنَا وَأَهْلَنَا ٱلضُّرُّ﴾[5]، ونحوه: ﴿ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا﴾[6].

ومن ذلك قول القائل: لولا (فلان) لكان (كذا). فإنْ أراد أنّه الفاعل المختار، دخل في أقسام الكفّار، وإن أراد العلّيّة الصورية بمجرّد رابطة جزئيّة، لم يكن عليه بأس بالكلّية.

ولذلك ورد عن سيّد الأنام أنّه قال: لولا قومك حديثو عهد بالاسلام لهدمتُ الكعبة[7].

وعن سفيان الثوري أنّه قال: لولا هذه الدنيا لكان الملوك صعاليك.

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٥.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٨.

(٣) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

(٤) سورة النساء، الآية: ٥.

(٥) سورة يوسف، الآية: ٨٨.

(٦) سورة الكهف، الآية: ٧٧.

(٧) عن عائشة، قالت: قال رسول الله(ص): «يا عائشة»، لولا أنّ قومَكِ حديثو عهد بشرك لهَدمتُ الكعبة، فألزقتُها بالأرض». صحيح مسلم (كتاب الحجّ)، حديث ٢٣٧٠، البخاري (كتاب العلم)، حديث ١٢٣؛ وكذلك رواه في (كتاب الحجّ): ـ حديث عهدهم بالجاهليّة ـ، حديث ١٤٨٠، ١٤٨٣.

وعن عمر أنّه قال لعليّ لمّا أشار عليه بعدم أخذ حلي الكعبة: لولاك لافتضحنا[1].

وعن النبيّ أنّه قال لعليّ: لولا أن تقول الناس فيك ما قالت النصارى لقلتُ فيك مقالاً.

وورد في صحيح الأثر، عن الفاروق عمر أنّه قال: «لولا عليٌّ لهلكَ عُمر». ولم ينكر عليه أحدٌ من الصحابة. إلى غير ذلك.

وكذلك الحلف بغير الله إنْ أُريدَ به الحلف على جهة إثبات الدعوى، كان خارجاً عن الشريعة، وإلاّ لم يكن قسماً على الحقيقة.

والحديث الذي فيه: «مَنْ حلف بغير الله، فقد أشرك»[2] محمول على حقيقة الحلف. وسيجيء تفصيله في المقصد الخامس.

وكذلك إطلاق اليد، والرِجل، والقدم، وغير ذلك بالنسبة إلى الله على الحقيقة، لا يُوافق الطريقة من غير تأويل، لم يتوهّمه سوى نزر قليل.

مع أنّه روى أبو هريرة عن النبيّ(ص) أنّ النار لا تمتلىء حتى يضع الله رجله فيها[3].

وعن أنس عن النبيّ(ص) أنّ النار لا تمتلىء حتى يضع الله قدمه فيها[4].

ومن ذلك نسبة الضحك والعجب إلى الله تعالى. فإنّ إرادة الحقيقة بعيدة عن الطريقة؛ مع أنّ أبا هريرة روى عن النبيّ(ص) أنّه قال: لقد عجب

---

(١) في نسخة (ك): لولا علي لافتضحنا.

(٢) سنن الترمذي (كتاب النذور والايمان)، حديث ١٤٥٥.

(٣) صحيح البخاري (كتاب تفسير القرآن)، حديث ٤٤٧٢؛ صحيح مسلم (كتاب الجنّة وصفة نعيمها وأهلها)، حديث ٥٠٨٢.

(٤) صحيح البخاري (كتاب التوحيد)، حديث ٦٨٩٥؛ صحيح الترمذي (كتاب صفة الجنّة)، حديث ٢٤٨٠، ٢٤٨٤.

الله، أو ضحك الله، عن فلان وفلانة، ونقل قصّته[1].

فباختلاف المعاني اختلفت المباني. وكذلك في مسألة الأفعال، فإنّها شبيهة الأقوال. فإنّ القيام للتواضع قد ورد النهي عنه.

روى أبو أسامة عن النبيّ(ص) أنّه خرج مُتّكئاً على عصا، فقمنا له، فقال: لا تقوموا كما تقوم الأعاجم بعضهم لبعض، رواه أبو داود[2].

وروى ابن عمر عن النبيّ(ص) أنّه قال: لا يقوم الرجل من مجلسه، ثمّ يجلس فيه، ولكن تفسحوا وتوسعوا[3].

وعن أنس أنّه قال: لم يكن شخصٌ أحبّ إليهم من النبيّ(ص)، وكانوا إذا رأوه لم يقوموا، لما يعلمون من كراهيته[4] لذلك، رواه الترمذي، وقال: هذا خبرٌ صحيح[5].

فينبغي أن ينزل المنع على قيام خاص؛ كأنْ يقوم منحنياً كالراكع على نحو ما يصنع الأعاجم[6]. وفي الخبر ما يرشدُ إليه اختلاف الأغراض والمقاصد.

كما روي عن معاوية أنّ النبيّ(ص) قال: مَنْ سرّهُ أنْ يتمثّل له الرجال قياماً، فليتبوأ مقعده من النار[7]. وحديث: «لا يقوم الرجل»، ظاهره

---

(١) صحيح البخاري (كتاب المناقب)، حديث ٣٥٢٤؛ صحيح مسلم (كتاب الأشربة)، حديث ٣٨٢٩، ٣٨٩٣٠؛ سنن الترمذي (باب تفسير القرآن)، حديث ٣٢٢٦.

(٢) سنن أبي داود (كتاب الأدب ـ باب قيام الرجل للرجل)، حديث ٥٢٣٠.

(٣) مسند أحمد، ج٢، ص١٧.

(٤) في نسخة (ك):كراهته.

(٥) سنن الترمذي (كتاب الأدب ـ باب كراهية قيام الرجل للرجل)، حديث ٢٦٧٨.

(٦) في نسخة (ك): على نحو ما يصنعه الفرس قبل الإسلام.

(٧) سنن أبي داود (كتاب الأدب)، حديث ٤٥٥٢؛ سنن الترمذي (كتاب الأدب)، حديث ٢٦٧٩.

اختصاص الجالس مجلسه. وربّما ينزل ما دلّ على كراهته كذلك[1] على نحو كراهته لملاذ الدنيا، وزهده في القيام كزهده في مباحاتها.

فلقد روى أبو سعيد الخدري أنّ سعداً جاء على حمار، فلمّا دنا من المسجد، قال النبيُّ(ص) للأنصار: قوموا إلى سيّدكم[2].

وعن عائشة قالت: كنتُ جالسةً متربّعة، فجاء النبيُّ(ص) فأردتُ القيام، كما هي عادتي عند دخوله، فمنعني[3].

فإنّ فيه دلالة على أنّ ذلك كان معتاداً لها، ولعلّ هذا المنع كان لسبب خاص، أو كزهد الدنيا، وكسر النفس.

وروي عن النبيّ(ص) أنّه لمّا قدم جعفر مبشّراً بفتح خيبر، قام، فقال: ما أدري بأيّهما أنا أشدّ فرحاً، أبقدوم جعفر أم بفتح خيبر[4].

مع ما ورد في الأخبار الكثيرة، من استحباب تعظيم المؤمن. ويدخل في تعظيم شعائر الله على نحو ما ورد في التفاسير المعتبرة[5].

---

(١) في نسخة (ك): لذلك.

(٢) سنن أبي داود، حديث ٥٢١٦.

(٣) أيضاً، حديث ٥٢١٧.

(٤) علّق العلاّمة الشيخ قاسم الدليزي (ناسخ الكتاب) على هذا الموضوع بقوله:

«لقائل أنْ يقول: إنّ حديث (جعفر) ليس فيه دلالة على المطلوب لأنّ قول النبيّ(ص): «ما أدري بأيّهما أنا أشدُّ فرحاً» لا دلالة فيه لاحتمال أنْ يكون من جمعة الفرح؛ يعني: ما أدري فرحي لقدوم جعفر، أو لفتح خيبر؛ لأنّ مطلوبنا القيام، وهذا لا دلالة فيه على أنّ القيام كان من النبيّ لجعفر من جمعة فرحه بفتح خيبر.

وكذلك حديث أبي هريرة، وحديث واثلة؛ لأنّ قول الأصحاب (قمنا قياماً)، حتى قوله: (دخل بيوت بعض أزواجه) لا دلالة فيه على أنّهم قائمين ـ هكذا وردت في الأصل ـ له(ص). وكذا قوله في حديث واثلة: (فإذا رآه أخوه تزحزح له) لاحتمال أنْ يكون التزحزح، والتفسُّح بمعنى واحد. والمنكر لا ينكر التفسّح»، (قاسم الدليزي).

(٥) علّق العلاّمة الدليزي على هذا الموضع بقوله: «وقيام الإحتمال لا يمنع الاستناد إليها، كما لا يخفى على أولي الأنظار».

وعن أبي هريرة أنّ النبيّ(ص) كان يجلس معنا في المسجد يحدّثنا، فإذا قام قمنا لقيامه، حتى نراه دخل بعض بيوت أزواجه.

وعن واثلة[1] قال: قال رسول الله(ص): إنّ للمسلم لحقّاً إذا رآه أخوه تزحزح له، رواه البيهقي في شعب[2] الإيمان[3].

ولعلّ هذا مبنيّ على أنّ التواضع تختلف أقسامه باختلاف الأزمان.

وكيف كان، فالذي يظهر بعد التأمّل التامّ اختلاف الأقوال والأفعال باختلاف المقاصد والأحوال. ومن ذلك اختلاف أحوال الزُّهّاد. فبعض ترك المآكل والملابس الحسان، واقتصر على الجشب والخشن، وبعضهم يأكل من أطيب المأكول، ويلبس من أنعم الملبوس[4].

ثمّ إنّ الأفعال المختلفة، بعضها لا ينسب إلى غير الله، كإيجاد الكائنات، وصنع المصنوعات، وبعضها لا ينسب إلى الله، كأفعال القبائح والمُنَفِّرات، وبعضها تختلف معانيها ومقاصدها، فتنسب إلى الخالق مرّة، وإلى المخلوق أُخرى. وهذا الحُكم متمشٍ على قول مَنْ لم يُثبتْ فاعلاً سوى الله، وعلى قول من أثبت.

والمعيار أنّه متى قام احتمال إرادة وجه صحيح بني عليه، لقوله(ص): «إدرأوا الحدود بالشبهات»، «ولا تقل في الناس إلاّ خيراً». وما دلّ على النهي عن سوء الظنّ، فكيف بالشكّ.

---

(١) واثلة بن كعب، تُوفّيَ سنة ٨٣هـ/ ٧٠٢م بدمشق عن ١٠٥ سنين.

(٢) في نسخة (ك): خصال.

(٣) سنن البيهقي (كتاب شعب الإيمان).

(٤) أورد الدلبزي، تلميذ المؤلف، على هذا المورد قوله: «وباعتبار اختلاف النيّات دخل العَمَلان في قسم العبادات».

وعن عائشة عن النبيّ(ص): إدرأوا الحدود عن المسلمين ما استطعتم[1].

فالناس ـ إذن ـ في صدور أمثال هذه الأمور عنهم على أنحاء:

بين علماء عاملين، مقاصدهم صحيحة، فلا يتعمّدون بالأقوال والأفعال، إلاّ الوجوه السليمة من القيل والقال.

وبين أعوام جُهّال بنوا على ما بنى عليه علماؤهم على الإجمال، وليس لهم قابليّة التفتيش على حقيقة الحال، فهم أيضاً معذورون عند ربُّ العزّة والجلال.

وبين مَنْ بنوا على طريق[2] الضلال، وعليهم المؤاخذة بضروب النكال.

والتحقيق أنّ تبدّل الأحكام بتبدّل الموضوعات ليس من باب التشريع والإبداع. مثلاً يستحبُّ للنساء التزين لرجالهنّ، فمتى كان لبس السواد زينة استُحبّ، فإذا انعكس وصار الميل إلى الأحمر والأصفر انعكس الخطاب.

وألوان اللباس تختلف باختلاف الناس. ففي كلّ بلاد يستحبّ لون ونوع، فإنّه قد يكون في مكان لباس شهرة، وفي آخر بعكسه، وفي موضع من لباس النساء، وفي موضع بعكسه.

وكذا كانت رغبة الناس في طيب الكافور، فكُرهت اليوم.

وكذلك إكرام الضيف بالمآكل، وكذا المراكب. فيختلف الحال باختلاف الأحوال.

---

(١) المستدرك، الحاكم، ج١، ص٣٨٤.

(٢) في نسخة (ك): طريقة.

وكذا طريق التواضع، وتعلية البناء، ولباس الزهد.

والزهد في المأكول يختلف باختلاف الأزمنة، والأمكنة، والأحوال، والمقاصد، وعلى ذلك مبنى كثير من اختلاف[1] الأخبار.

وكذا يستحبّ التأهّب لجهاد الكفّار بأحسن السلاح، وكان أطيبها السيوف والرماح، وصار الأحسن في هذه الأيام، البُندق (التفك)[2] المعروف بين الأنام.

وكذا الوصول إلى بعض الأرضين لا يستحبّ، حتى تجعل مقبرة للمسلمين.

فاختلاف الأزمنة والأمكنة والجهات، قد يبعث على اختلاف الأحكام لاختلاف الموضوعات. ورُبّما بُني على ذلك اختلاف كثير من الأخبار، وطريقة المسلمين على اختلاف الأعصار.

وفّقنا الله وإيّاكم لسلوك الجادة المستقيمة، والأخذ بالطريقة السليمة، وردّني الله إليك إنْ كنتَ أنتَ على الحقّ، وردَّكَ إليَّ أنْ كان الحقُّ معي، ومع أكثر الخلق.

---

(١) في نسخة (ك): مختلفات.

(٢) البُندق: يُقصدُ بها البنادق. والتفك من الكلمات الدارجة المستعملة في تسمية البنادق النارية.

الفصل الثاني

في بيان اختلاف ظواهر الآيات والروايات

وإنّ لكلٍّ من الحقّ والباطل مأخذاً، كما روي أنّ لكلّ حقّ حقيقة، ولكلّ صواب نوراً، فمن أراد الحقّ اهتُدي إليه، ومَنْ أراد الباطل كان له ميدان في المجادلة عليه. فمن خرج عن جادة الإنصاف، وسلك طريق الغيّ والاعتساف، ولم يرجع إلى سيرة الصحابة والتابعين، أمكنه أن يستند إلى ظاهر القرآن المبين، فيما يخرج عن شريعة سيّد المرسلين.

فإنّ الوعيديّة المنكرون للعفو، الموجبون[1]. للمؤاخذة على المعاصي، يمكنهم الاستدلال بآية سورة الزلزال ﴿فَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ، وَمَن يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ﴾[2].

والوعدية القائلون[3] برفع المؤاخذة بالكلّية، وإنّ الله لا يعاقب على معصية، لهم الاستناد إلى قوله تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا﴾[4]، ووعده لا خلف فيه.

والمشبتون للرؤية في الآخرة يستندون إلى قوله تعالى: ﴿وُجُوهٌ يَوْمَئِذٍ

---

(١) ثبتَ في الأصل: المنكرين، الموجبين.
(٢) سورة الزلزلة، الآيتان: ٧ ـ ٨.
(٣) في الأصل: القائلين.
(٤) سورة الزمر، الآية: ٥٣.

نَّاضِرَةٌ، إِلَىٰ رَبِّهَا نَاظِرَةٌ﴾[1]، والنافون إلى قوله تعالى: ﴿لَّا تُدْرِكُهُ ٱلْأَبْصَٰرُ وَهُوَ يُدْرِكُ ٱلْأَبْصَٰرَ﴾[2].

والقائلون بأنّ الله على العرش بآية ﴿عَلَى ٱلْعَرْشِ ٱسْتَوَىٰ﴾[3]، والنافون بقوله تعالى: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا﴾[4]، و﴿إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾[5]، و﴿مَا يَكُونُ مِن نَّجْوَىٰ ثَلَٰثَةٍ إِلَّا هُوَ رَابِعُهُمْ﴾[6].

والقائلون بالتجسيم على الحقيقة يستندون إلى مثل قوله: ﴿يَدُ ٱللَّهِ فَوْقَ أَيْدِيهِمْ﴾[7]، والنافون إلى قوله: ﴿لَيْسَ كَمِثْلِهِۦ شَيْءٌ﴾[8]، ونحوها.

والقائلون بجواز المعصية على الأنبياء يستندون إلى مثل قوله تعالى: ﴿وَعَصَىٰٓ ءَادَمُ رَبَّهُ فَغَوَىٰ﴾[9]، والنافون بمثل قوله: ﴿لَا يَنَالُ عَهْدِي ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[10].

والقائلون باستناد جميع الأفعال إلى الله، استندوا إلى قوله: ﴿خَٰلِقُ كُلِّ شَيْءٍ﴾[11]، وقوله: ﴿كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ﴾[12].

---

(١) سورة القيامة، الآيتان: ٢٢ ـ ٢٣.
(٢) سورة الأنعام، الآية: ١٠٣.
(٣) سورة طه، الآية: ٥.
(٤) سورة التوبة، الآية: ٤٠.
(٥) سورة الشعراء، الآية: ٦٢.
(٦) سورة المجادلة: الآية: ٧.
(٧) سورة الفتح، الآية: ١٠.
(٨) سورة الشورى، الآية: ١١.
(٩) سورة طه، الآية: ١٢١.
(١٠) سورة البقرة، الآية: ١٢٤.
(١١) سورة الأنعام، الآية: ١٠٢.
(١٢) سورة النساء، الآية: ٧٨.

والآخرون إلى قوله: ﴿مَّآ أَصَابَكَ مِنْ حَسَنَةٍ فَمِنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَصَابَكَ مِن سَيِّئَةٍ فَمِن نَّفْسِكَ﴾[1].

والقائلون بأنّ الكفّار مخاطبون بالفروع بعموم: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾[2]، والنافون لذلك بخطاب: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ﴾[3]، إلى غير ذلك.

وكذا في الفروع الفقهيّة، فإنَّ كلاًّ من الفقهاء له مأخذ من الكتاب والسنّة، مغاير لمأخذ صاحبه، كما لا يخفى على المتتبّع، فلمن أراد أن يُبيحَ جميع الأشياء قوله تعالى: ﴿خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ﴾[4]، ومن قصر التحريم على أربعة أستند إلى ما دلّ على تحليل جميع الأشياء ما عدا الميتة، والدم، ولحم الخنزير، وما أُهِلَّ به لغير الله، من جميع ما خلق الله.

والحاصل أنَّ كُلَّ مَنْ أراد العناد والعصبيَّة، فله مَدْرَك يتشبّث به من آية قرآنيّة، أو سُنّة مُحَمَّدية، ويكون صاحب مذهب ورأي، يباحث الفضلاء، ويُناظر أساطين العلماء، ما لم يكن له حاجب من تقوى الله.

ولقد أجاد بعض القدماء، من فحول العلماء حيث يقول: إنَّ المسائل الشرعيّة[5] عندي بمنزلة الشمع اللّين، أُصوّرُهُ[6] كيف شئتُ لولا تقوى الله.

ونُقلَ أنَّ بعضَ الفضلاء أخذ قطعةً من قرطاس في محفل من الناس، فأورد عليهم براهين على أنّها قطعة ذهب، حتى أقرّوا بذلك.

---

(١) سورة النساء، الآية: ٧٩.
(٢) سورة البقرة، الآية: ٢١.
(٣) سورة البقرة، الآية: ١٠٤.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٢٩.
(٥) في نسخة (ك): مسائل الشريعة.
(٦) في نسخة (ك): أصوّرها.

ولكنِ مَنْ أراد رضا الجبّار، ورجا الفوز بالجنّة، وخاف عذاب النار، ينظر إلى المعادلة في الدلالات، ثمّ ينظر المرجحات الخارجيّات، وأولاها التأمّل في طريقة الصحابة وسيرتهم، فإنّها أعظم شاهد على ما حَكَم به الجبّار، وجرت عليه سُنّةُ النبيّ المختار. فإنّ لكلّ ملّة طريقةً يرجعون إليها، ويُعوّلون عند وقوع الاشتباه عليها.

وقد يحصل العلم بما عليه الأمراء، من النظر إلى عمل أتباعهم، وأشياعهم، ورعاياهم، وخَدَمهم، وحشمهم، لأنّ الأثر يدلّ على مؤثره، والمنتهى يدلّ على مصدره.

وبُعدُ العهد بيننا وبين زمان الصدور، رُبّما أخفى علينا كثيراً من الأمور. فإذا حصل الإجماع والاتّفاق، ارتفع النزاع والشقاق. وكذلك إذا اشتهر أمر بين السلف وظهر، فلا وجه للانصراف عنه إلى ما شذّ وندر.

فقد علم أنّ الميزان الذي لا عيب فيه، ولا نقص يعتريه، هو الرجوع إلى كلام الصحابة، والتابعين، وتابعي التابعين؛ لأنّه موضح وكاشف لحكم سيّد المرسلين.

ولمّا اختلفت الأخبار في بعض ما أوردناه وشرحناه، لزم الرجوع إليهم، والاعتماد في تصحيح الأخبار ـ بعد الله ـ عليهم.

على أنّ الأخبار الدالّة على جواز ما منعه المانعون أكثر مورداً، وأوفر عدداً، وأقرب إلى ظاهر الكتاب والسُنّة وكلام الأصحاب.

وفّقنا الله وإيّاكم لإدراك حقائق الأمور، والتوفيق للسعادة يوم النشور، وجعلنا من المتمسّكين بالعروة الوثقى، والمتشوّقين إلى دار الآخرة التي هي خير وأبقى. والله وليّ التوفيق، وبيده أزمّة التحقيق.

الفصل الثالث

في بيان الميزان التي يرجع إليها إذا تشابهت الأمور

وهي ما عليه الصحابة والتابعون، وما أجمع عليه المسلمون. قال الله تعالى: ﴿وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾[1]، وقال ﴿إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ﴾[2].

وعن ابن عمر عن النبيّ(ص)، أنّه قال: لا تجتمع أمّتي ـ أو قال: «أُمّة مُحمّد» ـ على ضلال. ويد الله على الجماعة، ومن شذّ شذّ في النار، رواه الترمذي[3].

وعن ابن عمر، عن النبيّ(ص) أنّه قال: اتبعوا السواد الأعظم، فإنّه من شذّ شذّ في النار[4].

وعن عمر، عن النبيّ(ص) أنّه قال: مَنْ سرّهُ بُحبوحة الجنّة فليلزم الجماعة، فإنّ الشيطان مع الفرد[5]، وهو من الاثنين أبعد[6].

---

(١) سورة النساء، الآية: ١١٥.
(٢) سورة الأحزاب، الآية: ٣٣.
(٣) سنن الترمذي (كتاب الفتن، باب ما جاء في لزوم الجماعة).
(٤) مسند أحمد بن حنبل، ج٤، ص٣٨٣.
(٥) وفي رواية: الواحد.
(٦) سنن الترمذي، حديث ٢١٦٥.

وعن أسامة بن شريك[1]، عن النبيّ(ص): أيّما رجل يفرق بين أمّتي فاضربوا عنقه، رواه النسائي[2].

وعن النبيّ(ص): إنّ الله أجاركم من ثلاث خلال، وعدَّ منها: أن تجتمعوا على الضلال[3].

وعن النبيّ(ص): ما اجتمعت أمّتي على الخطأ[4].

وقال عليّ(ع) في بعض خطبه: عليكم بالسواد الأعظم، وإنّ الشاذّة للذئب[5].

وعن عمر، عن النبيّ(ص): أصحابي كالنجوم بأيّهم اقتديتم اهتديتم.

وعن رزين، عن عمر، عن النبيّ(ص) قال: سألتُ ربّي عن اختلاف أصحابي، فأوحى إليّ: إنّ أصحابك بمنزلة النجوم؛ بعضها أقوى من بعض، ولكُلٍّ نور، فمَنْ أخذ بما هم عليه من اختلافهم، فهو عندي على هدى[6].

وعن النبيّ(ص): إنّ مثل أهل بيتي كسفينة نوح، مَنْ ركبها نجا، ومن تخلّف عنها هلك[7].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص): لو سلك الناس وادياً، وسلك الأنصار وادياً أو شِعْباً، لسلكتُ وادي الأنصار[8].

---

(١) أسامة بن شريك الثعلبي الذبياني، كان من الصحابة، سكن الكوفة.
(٢) سنن النسائي (كتاب تحريم الدم)، حديث ٣٩٥٧؛ صحيح مسلم، ج٣، ص١٤٧٩.
(٣) سنن أبي داود، حديث ٤٢٥٣.
(٤) سنن ابن ماجه، حديث ٣٩٥٠.
(٥) نهج البلاغة، الخطبة ١٢٧.
(٦) كنز العُمّال، ج١، ص١٨١، حديث ٩١٧.
(٧) مستدرك الحاكم، ج٣، ص١٥٠.
(٨) صحيح مسلم، حديث ١٣٥.

وعن زيد بن أرقم[1]، قال: قام النبيّ(ص) خطيباً، فقال: أيُها الناس إنّما أنا بشرٌ يوشك أنْ يأتيني رسولُ[2] ربّي فأُجيب، وأنا تاركٌ فيكم الثقلين: كتاب الله فيه الهدى، وأهل بيتي، أُذكركم الله في أهل بيتي، رواه مسلم[3].

وعن جابر[4]، قال: رأيتُ النبيَّ(ص) في حجّه يخطب، فسمعتُه يقول: يا أيُها الناس إنّي تركت فيكم ما إنْ أخذتم[5] به لن تضلّوا: كتاب الله، وعترتي أهل بيتي، رواه الترمذي[6].

وقريبٌ منه ما رواه زيد بن أرقم[7].

وعن حذيفة، عن النبيّ(ص): اقتدوا باللذين من بعدي: أبي بكر، وعمر[8].

وعن جبير بن مطعم[9]، عن النبيّ(ص): إنَّ امرأته قالت للنبيّ(ص): إنْ لم أجدك فإلى مَنْ أرجع؟ فقال: إئت أبا بكر[10].

وعن ابن عمر، عن النبيّ(ص): وُضعَ الحقّ على لسان عمر يقول به[11].

---

(١) زيد بن أرقم بن زيد بن قيس الأنصاري الخزرجي، أقام بالكوفة أيّام المختار، وتُوفّيَ فيها سنة ٦٦هـ، وقيل: سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م.

(٢) في نسخة (ك): تأتيني رسل.

(٣) صحيح مسلم (فضائل الصحابة)، حديث ٤٤٢٥؛ مسند أحمد بن حنبل، (مسند الكوفيين)، حديث ٨٤٦٤؛ سنن الدارمي (فضائل القرآن)، حديث ٣١٨٢.

(٤) جابر بن عبد الله الأنصاري، توفّي سنة ٧٨هـ/ ٦٩٧م، عن ٩٤ عاماً.

(٥) في نسخة (ك): تمسكتم.

(٦) سنن الترمذي (باب مناقب أهل بيت النبيّ ـ ص ـ، حديث ٣٧٨٦).

(٧) أيضاً، حديث ٣٧٨٨.

(٨) أيضاً حديث ٣٦٦٢.

(٩) جبير بن مطعم بن عدي القرشي النوفلي، تُوفّي سنة ٥٩هـ/ ٢٦٠م.

(١٠) سنن الترمذي، حديث ٣٦٧٦.

(١١) أيضاً، حديث ٣٦٨٢.

وعن أبي داود، عن أبي ذرّ، قال: إنَّ الحقّ وضع على لسان عمر يقول به[1].

وعن عقبة بن عامر، عن النبيّ(ص) أنّه قال: لو كان بعدي نبيّ لكان عمر بن الخطّاب[2].

وعن سعد بن أبي وقّاص أنَّ النبيّ(ص) قال لعليّ: أنت منّي بمنزلة هارون من موسى[3].

وعن عبد الله بن عمرو[4]، عن النبيّ(ص) أنّه قال: ما أظلّت الخضراء، ولا أقلّت الغبراء، من ذي لهجة أصدق من أبي ذرّ. رواه الترمذي[5].

وعن النبيّ(ص) أنّه قال: اللّهمّ أدرِ الحقَّ مع عليّ حيثما دار. رواه الترمذي[6].

وعن عمّار، أنَّ النبيَّ(ص) قال: إذا سلك الناس طريقاً، وسلك عليّ غيره، فاسلك طريق عليّ(ع).

وعن ابن مسعود، عن النبيّ(ص) قال: مَنْ كان مستنّاً فليستنّ بمن قد مات، أولئك أصحاب محمّد(ص) كانوا أفضل هذه الأمة؛ أبرّها قلوباً، وأعمقها علماً. إلى أنْ قال: فاعرفوا لهم فضلهم، واتّبعوهم على إثرهم،

---

(١) أيضاً، حديث ٣٦٨٢.

(٢) سنن الترمذي، حديث ٣٦٨٦.

(٣) المصدر السابق، حديث ٣٧٣١.

(٤) هو ابن عمرو بن العاص السهمي القرشي، صحابي، أقام بمصر، وتُوفي بالطائف سنة ٦٣هـ/ ٦٨٣م.

(٥) سنن الترمذي، حديث ٣٨٠١؛ سنن ابن ماجه (المقدّمة)، حديث ١٥٢.

(٦) سنن الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٣٦٤٧.

وتمسّكوا بما استطعتم من أخلاقهم وسيرتهم، فإنّهم كانوا على الهدى المستقيم، رواه رزين[1].

وعن عرباض بن سارية[2]، قال: صلّى بنا رسول الله(ص)، ووعظ ثمّ قال: إنّه من يعيش منكم بعدي فسيرى اختلافاً كثيراً، فعليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين، تمسّكوا بها، وعضّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعةٍ ضلالة. رواه أحمد، وغيره[3].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص) أنّه قال: من خرج عن الطاعة، وفارق الجماعة مات ميتة جاهليّة[4].

وعن الحارث الأشعري[5]، عن النبيّ(ص) أنّه قال: مَنْ خرجَ عن الجماعة قدر شبر، فقد خلع ربقة الاسلام من عنقه.

وعن ابن عبّاس، عن النبيّ(ص): إنّ مَنْ فارق الجماعة قدر شبر مات ميتة جاهليّة[6].

---

(١) صحيح مسلم، ج٤، ص١٩٦٢. وفي رواية (ك): «إنّ أصحابي كانوا أفضل هذه الأمّة، فاعرفوا لهم الفضل، واتبعوهم على آثارهم، فانّهم كانوا على هدى مستقيم».

(٢) عرباض بن سارية السلمي الحمصي، صحابي، أقام بالشام، وتُوفي سنة ٧٥هـ/ ٦٩٤م.

(٣) مسند أحمد بن حنبل (مسند الشاميّين)، حديث ١٦٦٩٢، ١٦٦٩٤، ١٦٦٩٥؛ سنن الدارمي، (المقدّمة)، حديث ٩٥؛ الترمذي (كتاب العلم)، حديث ٢٦٠٠؛ ابن ماجه (المقدّمة، حديث ٤٢، ٤٣.

(٤) في نسخة (ك) ورد الحديث كالآتي: «مَنْ مات، ولم يعرف إمام زمانه مات ميتة جاهليّة». صحيح مسلم (كتاب الإمارة)، حديث ٣٤٤١.

(٥) هو الحارث بن الحارث الأشعري، صحابي، أقام بالشام.

(٦) مسند أحمد بن حنبل (مسند الشاميّين)، حديث ١٦٧١٨ (ضمن حديث طويل)، وحديث ١٧٣٤٤.

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبيّ(ص): إنّ أمّته تفترق ثلاثاً وسبعين فرقة، وليس فيها ناجٍ سوى واحدة، فسُئِلَ عنها، فقال: ما أنا عليه اليوم وأصحابي[1].

إلى غير ذلك من الأخبار.

ومقتضى ذلك أنّه من اللازم الرجوع إلى سيرة الصحابة وطريقتهم، وأنّها الميزان إذا اشتكلت علينا الأمور، وتعارضت علينا الأدلّة، وسيتّضح أنّ جميع ما ينكر من هذه الأفعال الموردة صادر عن الصحابة، وطريقتهم مستمرّة عليه، مع أنّ في السُنّة ما يدلّ على جوازه.

وما ورد عنه(ص) أنّ الإسلام بدأ غريباً وسيعود غريباً[2]، فلا ينافي ما ذكرناه؛ لأنّ فرقة الإسلام بين طوائف الكفر كنقطة في بحر.

وروى أبو سعيد الخُدري عن النبيّ(ص): ما أنتم في الناس إلاّ كالشعرة البيضاء في جلد الثور الأسود[3]. وعوده غريباً في أيّام الدجّال، ونحوه يكفي في صدق الخبر.

وروى عبد الله بن مسعود[4] عن النبيّ(ص) أنّه قال: لا تقوم الساعة إلا على شرار الخلق. رواه مسلم[5].

---

(١) سنن الترمذي (كتاب الايمان)، حديث ٢٥٦٥. وفي نسخة (ك) وردت بداية الحديث على هذه الشاكلة: «إنّ أمتي تفترق على ثلاث وسبعين فرقة».

(٢) صحيح مسلم، حديث ١٤٥.

(٣) صحيح البخاري (كتاب تفسير القرآن)، حديث ٤٤٦٤؛ صحيح مسلم (كتاب الايمان)، حديث ٣٢٧؛ مسند أحمد بن حنبل (باقي مسند المكثرين)، حديث ١٠٨٩٢.

(٤) في صحيح مسلم ورد اسم عبد الله بن عمرو بن العاص.

(٥) صحيح مسلم (كتاب الامارة)، حديث ٣٥٥٠.

وعن أبي سعيد الخدري[1] عن النبيّ(ص) أنه قال: لا تقوم الساعة حتى لا يقال في الدنيا: الله[2].

وكلّ ما صدر في زمان[3] الصحابة من الأعراب بمحضر منهم ولم ينكروه، فهو موافق لرضاهم، وإلاّ لأنكروه. ولهذا أوردنا في هذه الرسالة كثيراً ممّا صدر في زمانهم منهم، ومن غيرهم.

وعلى كلّ حال، فلا كلام في أنّ الأدلّة فيها عام، وفيها خاص، وفيها ناسخ، وفيها منسوخ، وفيها مجمل، وفيها مبيّن، وفيها مطلق، وفيها مقيّد، ومنها قطعيّ الصدور ظنّي الدلالة، ومنها قطعيّ الدلالة ظنّي الصدور، ومنها ظنّيهما، ومنها قطعيهما. ومن جهة اختلاف السند منها صحيح، وضعيف، وحسن، ومُوَثّق، وقويّ إلى غير ذلك.

فإذا تعارضت الأدلّة، فلا بُدَّ من النظر إلى المرجحات من جهة السند، أو من جهة الدلالة، أو من جهة سبك العبارة، أو من جهة كثرة الرواية، أو من جهة شهرة الفتوى، أو من جهة موافقة الأصول ومخالفتها، أو من جهة موافقة العمومات ومخالفتها، أو من جهة موافقة الكتاب وعدمها، إلى غير ذلك.

فإذا فُقدت المرجحات، وقامت الحَيْرة، فلا يبقى مدارٌ إلاّ على سيرة الأصحاب[4]، وطريقتهم، والنظر إلى ما هم عليه صاغراً عن كابر، وما عليه الأوّل والآخر.

---

(١) من المصادر «أنس بن مالك».

(٢) مسلم (كتاب الايمان)، حديث ٢١١؛ الترمذي (كتاب الفتن)، حديث ٢١٣٣؛ مسند أحمد (باقي مسند المكثرين)، حديث ١١٦٣٢. وزاد في المصادر كلمة «الله» مرّة ثانية في نهاية الحديث. وقد ورد في نسخة (ك): الأرض بدل الدنيا.

(٣) في نسخة (ك): زمن.

(٤) في نسخة (ك): الصحابة.

وما نحنُ عليه اليوم من طريقة القوم أكثر الروايات موصلة إليه. وطريقة الأصحاب والصحابة مستمرّة عليه. وقد ذكرتُ منها قليلاً من كثير ليُعْلَم حال السلف، وليرتفع الإنكار على خلفهم.

فيا أخي، فَوَحَقِّ مَنْ رفع السماء، وبسط الأرض على الماء، إنّي لمَّا أحببتُكَ لمكارم أخلاقك، وحسن سيرتك مع الناس، وإرفاقك بهم، أخشى عليك من سراية القَدْح إلى المشايخ الكبار[1]، والعلماء الأبرار، الذين هم للشارع نواب، ولمدائن الشرع بواب[2].

عصمنا الله وإيّاكم، وكفانا شرَّ الجهل وكفاكم، والله الموفّق.

وأمّا المقاصد فثمانية:

---

(١) في نسخة (ك): من حمل راية القدح في المشايخ الكبار.

(٢) في الأصل: «ولأبواب الشرع أبواب». وما وردَ في المتن هو نصّ «العبقات العنبرية».

المقصد الأول

في تحقيق ضروب الكفر

وأقسامه كثيرة:

أوّلها: كفر الإنكا؛ر بإنكار وجود الإله، أو إثبات أنّ غير الله هو الله، أو بإنكار المعاد، أو نبوّة نبيّنا أشرف العباد.

ثانيها: كفر الشرك؛ بإثبات الشريك[1] للواحد القهّار، أو في النبوّة للنبيّ المختار.

ثالثها: كفر الشكّ؛ بالشكّ في إحدى الثلاثة التي هي أصول الإسلام في غير محلّ النظر، ولا عبرة بالأوهام، التي هي كخيالات المنام[2].

رابعها: كفر الهتك؛ لهتك حرمة الدين، بالبول على المصحف، أو في الكعبة، أو سبّ خاتم النبيّين(ص).

خامسها: كفرُ الجحود؛ بأنْ يجحد باللسان أُصول الإسلام، ويعتقدها بالجَنان، قال تعالى: ﴿وَجَحَدُواْ بِهَا وَٱسْتَيْقَنَتْهَآ أَنفُسُهُمْ﴾[3].

سادسها: كفر النفاق، بأن ينكر في الجنان، ويقرّ باللسان، كما قال

---

(١) في نسخة (ك): الشريك.

(٢)العبارة الأخيرة زيادة في نسخة (ك).

(٣) سورة النمل، الآية: ١٤.

تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ﴾[1].

سابعها: كفر العناد، بأن يقرّ بلسانه، ويعتقد بجنانه، ولم يدخل نفسه في ربقة العبوديّة، بل يتجرّأ على الحضرة القدسيّة، كإبليس (لعنه الله).

ثامنها: كفر النعمة، بأن يستحقر نعمة الله، ويرى نفسه كأنّه ليس داخلاً تحت مِنّة[2] الله.

تاسعها: كفر إنكار الضروري[3].

عاشرها: إسناد الخلق إلى غير الله على قصد الحقيقة.

وليست جميع المعاصي العظام مخرجة عن الإسلام، فإنّ المعاصي لا تنفكّ على الدوام، حتى في مبدأ حدوث الإسلام، ولذلك وضعت الحدود والتعزيرات، وأُقيمت الأحكام على ممرّ الأوقات.

نعم قد يُطلقُ على كثيرٍ منها اسم «الكفر» تعظيماً للذنب، وتحذيراً منه، وتشبيهاً لمؤاخذته، لعظمها بمؤاخذة الكفر.

فهو ـ إذنْ ـ في الشرع قسمان: كُفرٌ صغير، لا يُخرِجُ عن اسم الإسلام. وكبيرٌ مخرجٌ عن اسمه بلا كلام.

ولو بنينا على أنّ كُلّ ما أطلق عليه اسم الكفر يكون مكفراً، لم تنجُ إلاّ شرذمةٌ قليلة من الورى. فإطلاق اسم الكفر قد يكون استعظاماً للذنب ـ كما مرّ ـ، وقد يراد أنّه ربّما انجرّ بالآخرة إلى ذلك. كما ورد في الحديث: إنّ في قلب المؤمن نكتة بيضاء، فإذا عصى الله اسودّ منها جانب، وهكذا إلى أنْ يتمّ سوادُها، فذلك الذي طبع الله على قلبه[4].

---

(١) سورة البقرة، الآية: ٨.

(٢) في نسخة (ك): «نعمة».

(٣) في نسخة (ك): «الإنكار للضروري».

(٤) الموطأ (باب الكلام)، باب (١٨).

وممّا يدلّ على أنّ لفظ «الكفر» يُطلقُ على سائر المعاصي كثيراً في كلام الشارع ما رواه أنس، عن النبي(ص) أنّه قال: لا دين لمن لا عَهدَ له[1].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص) أنّه قال: لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن، ولا يسرق السارق حين يسرق وهو مؤمن، ولا يشرب الخمر حين يشربها وهو مؤمن، ولا يقتل حين يقتل وهو مؤمن[2].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص): إنّ علامة النفاق الكذب، وسوء الخلق، والخيانة[3].

وعن عبد الله بن عمرو، عن النبيّ(ص): إنّ النفاق عبارة عن أربع: الخيانة، والكذب، والغدر، والفجور[4].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص): إنّ المراء في القرآن كفر[5].

وعن النبيّ(ص) أنّه قال: لا يترك[6] حضور الجماعة إلاّ منافق[7].

وعن أبي ذر، عن النبيّ(ص): المسلم من سَلِمَ المسلمون من يده ولسانه[8].

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج٣، باب ١٣٥، ١٥٤، ٢١٠، ٢٥١.
(٢) صحيح البخاري (كتاب الأشربة)، حديث ٥٢٥٦؛ صحيح مسلم (كتاب الأيمان)، حديث ١٨٦؛ النسائي (كتاب قطع السارق)، حديث ٤٧٨٧
(٣) صحيح مسلم، حديث ١٠٧.
(٤) أيضاً، حديث ١٠٦.
(٥) سنن أبي داود (كتاب السُنّة)، حديث ٤؛ مسند أحمد بن حنبل (الباب الثاني)، حديث ٢، ٢٥٨، ٢٨٦.
(٦) في نسخة (ك): «يفوت».
(٧) صحيح مسلم، ج١، ص٤٥١.
(٨) البيهقي، ج١٠، ص١٨٧.

وعن عبد الله بن مسعود، عن النبيّ(ص) : إنَّ الرُّقى والتمائم من الشرك[1].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص) أنّه قال: مَنْ قال: مطرنا بكوكب كذا، فهو كافر[2].

وعن زيد بن خالد[3]، عن النبيّ(ص) أنّه مَنْ قال: مطرنا بنوء كذا، فهو كافر[4].

وعن أبي هريرة قال: قال رسول الله(ص): من أتى حائضاً أو امرأته في دبرها، فقد كفر بما أُنزلَ على مُحمَّد. رواه الدارقطني، وابن ماجة، والترمذي[5].

وروى عمر بن لبيد، عن النبيّ(ص): إنَّ الرياء الشرك الأصغر[6].

وعن أبي سعيد، عن النبيّ(ص): إنَّ الرياء الشرك الخفي[7].

وعن عمر بن الخطّاب، عن النبيّ(ص): إنَّ يسير[8] الرياء شرك.

وعن شداد بن أوس[9]، عن النبيّ(ص): من صلّى برياء[10]، فقد

---

(١) المستدرك، للحاكم، ج٤، ص٢١٧.

(٢) صحيح مسلم، ج١، ص٨٤.

(٣) زيد بن خالد الجهني المدني، أبو عبد الرحمٰن، صحابي، أقام بالكوفة، وتُوفّي بالمدينة سنة ٦٨هـ/ ٦٨٧م.

(٤) صحيح مسلم (باب بيان كفر مَنْ قال: مطرنا بالنوء).

(٥) سنن ابن ماجة، ج١، ص٢٠٩، حديث ٦٣٩؛ سنن الترمذي، ج١، ص٢٤٣.

(٦) مسند أحمد بن حنبل، ج٥، ص٤٢٨.

(٧) ابن ماجة ج٢، ص١٤٠٦، حديث ٤٢٠٤. وفي نسخة (ك) ورد: شرك خفي.

(٨) في نسخة (ك): كسب.

(٩) شدّاد بن أوس بن ثابت الخزرجي، تُوفّي سنة ٥٨هـ/ ٦٧٨م عن (٧٥) عاماً.

(١٠) في نسخة (ك): «وهو يُرائي».

أشركَ، ومَنْ صام برياء، فقد أشرك، ومَنْ تصدَّقَ برياء، فقد أشرك.

وروي: إنَّ تارك الصلاة كافر[1]. إلى غير ذلك.

بل قلَّما يسلم شيء من المعاصي من إطلاق اسم الكفر، فلا تبقى ثمّة حدود ولا تعزيرات، ولزم الحكم بالارتداد، وكفر العباد، ولا ينجو من الكفر إلاَّ قليلٌ من الأحياء والأموات، ولنادت الخطباء بذلك على رؤوس الأشهاد، ولشاع ذلك في أقاصي البلاد، مع أنّ المعهود من سيرة النبيّ(ص)، والصحابة والتابعين، وتابعي التابعين معاملة الناس على الاكتفاء بإظهار الشهادتين.

وعنه(ص): أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يقولوا الشهادتين.

وعن أبي هريرة أنَّ رسول الله(ص) أُتي بمخنث قد خضب يديه ورجليه بالحِنَّاء، فقال: ما بال هذا؟ قالوا: يتشبَّهُ بالنساء، فنفاه إلى البقيع، فقيل: يا رسول الله، ألا نقتله؟ فقال: نُهيتُ عن قتل المُصَلِّين.

وروى عبد الله بن مسعود، عن النبيّ(ص): إنَّ قتال المسلمين كفر[2].

وعن ابن عمر، عن النبيّ(ص): إنّ نسبة المسلم إلى الكفر كفر[3].

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص): إذا قال الرجل: هلك الناس، فهو أهلكهم[4].

وعن ابن عمر: قال رسول الله(ص): أُمرتُ أن أُقاتل الناس حتى يشهدوا أنْ لا إله إلاَّ الله، وأنَّ مُحمّداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا

---

(١) سنن ابن ماجة ج١، ص٣٤٢.

(٢) صحيح مسلم، ج١ (باب بيان قول النبيّ ـ ص ـ: سباب المسلم فسوق وقتاله كفر)، ص٨١.

(٣) صحيح مسلم، ج١ (باب بيان حال إيمان مَنْ قال لأخيه المسلم: يا كافر)، ص٧٩.

(٤) مسند أحمد بن حنبل، ج٢، ص٤٦٥.

الزكاة، فإنْ فعلوا ذلك عصموا منّي دماءهم وأموالهم، وحسابهم على الله[1].

وعن أنس أنّه قال: قال رسول الله(ص): مَنْ صلّى صلاتنا، واستقبل قبلتنا، وأكل ذبيحتنا، فذلك المسلم الذي له ذمة الله وذمة رسوله[2].

إلى غير ذلك من الأخبار.

وليس غرضي أنّه لا طريق للكفر سوى[3] ذلك، ولكن يستفاد منها أنّه بعد إظهار الشهادتين يبني على الإسلام ما لم يعلم شيئاً ينافيه، ولا حاجة إلى التجسّس، بل نهى الله تعالى عنه.

وبيان الأمر على التحقيق: هو أنّه قد عُلِمَ أنَّ لسان الشارع جارٍ على نحو لسان العرب؛ ففيه حقائق، ومجازات، واستعارات، وكنايات، وخطابات، تشتمل على المبالغات، كما أنَّ لساننا يشتمل على ذلك من غير إنكار، فإنَّ الذنب إذا صدر من شخص وأردنا استعظامه، صحَّ لنا أنْ نُسمّيه كفراً، وأنْ نسمّي فاعله كافراً. ولا يزال ذلك يقع على مرور الأزمان من أيّام النبيّ(ص) إلى هذا الآن، مع أنّه ليس في ذلك إنكار، بل قد يُعَدُّ من أفعال الأبرار، على أنَّ كُلَّ مَنْ صدر منه ذنبٌ ولو صغير[4]، لم يفِ بجزاء نِعَم اللطيف الخبير.

فإطلاق الكفر لعلّه من باب الكفر ببعض النعم الذي هو كفر صغير.

على أنَّ أنظار الأنبياء والأولياء ليس إلى المعاصي، حتى يكون فيها

---

(١) صحيح مسلم، ج١، ص٥٣، حديث ٣٦.
(٢) النسائي (باب المناسك)، حديث ٢١١.
(٣) في نسخة (ك): بعد.
(٤) هكذا وردت بالأصل، حفظاً لملازمة السياق.

صغيرٌ وكبير، بل إلى مَنْ عصاه الناس؛ وهو اللطيف الخبير[1].

فإذا لاحظتَ أنَّ المعصية كانت في حقّ الله، تجدها ـ ولو صغرت ـ أكبر من الجبال الرواسي، حتى أنّه بلسان الورع والتقوى دون الفقه والفتوى، ربّما لا يفرق بين الصغائر والكبائر. بل ربّما نقل عن بعض الأولياء أنّه لا فرق بين المكروه والحرام، والمسنونات وفرائض الأحكام، قال: لأنَّ الكُلَّ مطلوب للملك العلاّم.

وإذا بُنيَ على هذا استُحسن هذا الإطلاق، وحسن إطلاق اسم المعاصي والمحرّمات على فعل المكروهات، والفرائض والواجبات على فعل المستحبّات والمندوبات، وكبائر الخطيئات على صغائر التبعات، والكفر والكفْار، على كلّ مَنْ عمل ما يوجب دخول النار.

ولولا ذلك للزم كفر أكثر مَنْ في الأرض، لأنّه قلّما خلت معصية من هذا الغرض، ولو عملنا بجميع ظواهر الأخبار، لاختلّت علينا أحكام ملّة النبيّ المختار.

وفّقنا الله وإيّاك، وهدانا الله إلى الحقّ وهداك[2].

---

(١) في نسخة (ك): وردت العبارة على هذه الصورة: «إلتفات الأنبياء والأولياء(ع) ليس إلى المعاصي بل إلى مَنْ عصوا».

(٢) في نسخة (ك): «وفّقنا الله وإيّاكم، وهداك إلى الحقّ المُبين».

المقصد الثاني

في تحقيق معنى العبادة

لا ريب أنّه لا يراد بالعبادة التي لا تكون إلاّ لله، ومن أتى بها لغير الله فقد كفر، مطلق الخضوع والخشوع والانقياد، كما يظهر من كلام أهل اللغة، وإلاّ لزم كفر العبيد والأجراء، وجميع الخدّام للأُمراء، بل كفر الأبناء في خضوعهم للآباء، وجميع مَنْ تواضع للإخوان، أو لأحد من أصحاب الإحسان.

وإنّما الباعث على الكفران، الانقياد لبعض العباد مع اعتقاد استحقاقهم ذلك بالاستقلال، من دون توجّه الأمر من الكريم المتعال، وأنّ لهم تدبيراً واختياراً.

ولفظ «العبد»، و«العبادة» قد يُطلقُ على مطلق المطيع والطاعة، فقد ورد: أنّ العاصي عبد الشيطان، وإنّه عبد الهوى. وإنّ الإنسان عبد الشهوات، وإنّ مَنْ أصغى إلى ناطقٍ فقد عبده.

ثمّ مَنْ اتّبع قول قائلٍ لأنّه مُخبِرٌ عن غيره، فهو عابد للمُخبِر عنه، لا للمُخبِر. ومَنْ خدم شخصاً بأمر آمر، فالمعبود هو الآمر، ومن تبرّكَ بشيء لأمره، كان ذلك من عبادة الآمر. فالملائكةُ في سجودهم لآدم، ويعقوب في

سجوده ليوسف، والناس في تقبيلهم للحجر الأسود والأركان، لم يعبدوا سوى مَنْ أمرهم بذلك.

ثمّ السجود والخضوع لعروض بعض الأسباب، لا يُنافي الإخلاص لربِّ الأرباب.

روى أبو داود والترمذي، عن عكرمة، قال: قيل لابن عبّاس: ماتت (فلانة) ـ بعض أزواج النبيّ(ص) ـ، فخرّ ساجداً، فقيل له: تسجد في هذه الساعة؟ فقال: قال رسول الله(ص): إذا رأيتم آيةً فاسجدوا، وأيّ آية أعظم من ذهاب أزواج النبيّ(ص)[1]؟!.

فعلى هذا، لو سجَدَ مَنْ رأى ميّتاً، أو قبراً، أو رأى شيئاً عجيباً، ذاكراً لعظمة الله ـ كما يصنعُهُ بعضُ العارفين ـ لم يكن به بأس.

وعبادة الأصنام وبعض الصالحين، مع نهي الأنبياء والمرسلين الذين دلّتْ على صدقهم المعاجز[2] والبراهين، محض عناد وخلاف على ربّ العباد، ولو أنّهم أخذوا عن قول الله ورسله، لم يكن عليهم إيراد.

كما أنّ السيّد لو قال لعبده: تبرّكْ بثياب فلان، ونعله، وترابه، فَفَعلَ، كان عابداً للمولى. وأمّا لو نهاه المولى، أو أخذ بمجرّد الظنّ الذي لا يُغني عن الحقّ شيئاً، أو الخَرْص[3]، لكان عاصياً مخالفاً.

ألا ترى أنّ مَنْ جعل المرضعات أُمّهات، ليس كمن جعل

---

(١) سنن أبي داود، ج١، ص٣١١، حديث ١١٩٧؛ سنن الترمذي، ج٥، ص٦٦٥، حديث ٣٨٩١.

(٢) في نسخة (ك): «المعجزات».

(٣) الخرْص: الحدس، والكذب والافتراء.

المصاهرات، ومَنْ حرَّم الوصيلة، والسائبة، والحام[1]، ليس كمن حرَّم الجلَّالة[2] من الأنعام؟!

وليس تحريم الأشهر الحرام، كتحريم غيرها من باقي أشهر العام، وليس صيام آخر شهر رمضان كصيام أوّل شوّال؛ كلّ ذلك للفرق بين الأمر والاختراع، والقول بمجرّد الابتداع[3].

ثمّ العبادة تختلف باختلاف النيّات، فمَنْ قصد حقيقة العبادة اختراعاً وابتداعاً، ومخالفة لأمر الله سبحانه كان كافراً، سواءاً قصد القرب إلى الله زلفى أو لا، بل هذا في الحقيقة عين العناد والشقاق بعد نهي الأنبياء والرسل. كما قال قوم شعيب له: ﴿يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا﴾[4].

وقال الصديق: ﴿يَٰصَٰحِبَىِ ٱلسِّجْنِ ءَأَرْبَابٌ مُّتَفَرِّقُونَ خَيْرٌ أَمِ ٱللَّهُ ٱلْوَٰحِدُ

---

(١) من معتقدات العرب أنَّ الوصيلة من الغنم (وهي الشاة) إذا ولدت أُنثى فهي لهم، وإذا ولدت ذكراً أوقفوه لآلهتهم، فإن ولدت ذكراً وأنثى قالوا: وصلتْ أخاها، فلم يذبحوا الذكر لآلهتهم.

أمّا السائبة فقد كان الرجل إذا نذر القدوم من سفر، أو الشفاء من علّة، فإنَّ ناقته ستكون سائبة (أي لا تستخدم للانتفاع بها، ولا تخلّى عن ماء، أو تمنع عن مرعى).

والحام هو الذكر من الإبل إذا أنتجت من صُلب الفحل عشرة أبطن. قال العرب: قد حمى ظهره، فلا يُحمل عليه.

وقد حرَّم القرآن هذه المعتقدات، كما ورد في سورة المائدة، آية (١٠٣) قوله تعالى: ﴿مَا جَعَلَ ٱللَّهُ مِنۢ بَحِيرَةٍ وَلَا سَآئِبَةٍ وَلَا وَصِيلَةٍ وَلَا حَامٍ وَلَٰكِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يَفْتَرُونَ عَلَى ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ وَأَكْثَرُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾. والبحيرة هي الشاة التي بُحرُ أُذنها (أي شُقّ) علامة على تحريم الانتفاع بها.

(٢) الحيوان الجلّال: هو الذي يأكل العذرة، وقد ورد النهيُ عن أكل لحمه، وشرب لبنه، حتى يستبره.

(٣) في نسخة (ك): «للفرق بين الأمر والاتّباع، والقول بمجرّد الاختراع والابتداع».

(٤) سورة هود، الآية: ٨٧.

ٱلْقَهَّارُ، مَا تَعْبُدُونَ مِن دُونِهِۦٓ إِلَّآ أَسْمَآءً سَمَّيْتُمُوهَآ أَنتُمْ وَءَابَآؤُكُم﴾.

وحكى الله عن قوم نُوح وعادٍ وثمُود أنّهم ردّوا أيديهم في أفواههم، وقالوا: ﴿وَقَالُوٓاْ إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ وَإِنَّا لَفِى شَكٍّ مِّمَّا تَدْعُونَنَآ إِلَيْهِ مُرِيبٍ﴾[1] إلى غير ذلك من الآيات الدالة على ردّهم على الأنبياء، وبنائهم على الاختراع والابتداع.

وفي الاحتجاج: في حديث طويل عن النبيّ(ص) أنّه أقبل في مشركي العرب، فقال لهم: وأنتم فلم عبدتم الأصنام من دون الله؟ فقالوا: نتقرّب بها إلى الله زلفى، فقال: أو هي سامعة مطيعة عابدة لربّها حتى تتقرّبوا بها إلى الله؟ قالوا: لا، قال: أفأنتم نحتّموها بأيديكم؟ فقالوا: نعم، قال: فلئن تعبدكم هي أحرى من أن تعبدوها، إذا لم يكن أمركم بتعظيمها مَنْ هو العالم بمصالحكم، وعواقبكم، والحكيم فيما يكلّفكم[2].

فإذا كان الله قد نهى على لسان أنبيائه عن عبادة الأصنام والصالحين من الأنام، على نحو عبادة الصلاة والصيام، فَفعلُهم بعد ذلك ردٌّ لكلام العليم العلاّم.

وكشف الحقيقة: إنّ العبادة إنْ أُريد بها مجرّد الامتثال والطاعة، كانت الزوجة، والأمة، والعبد، والخادم، والأجير، ونحوهم، عابدين لغير الله.

وإن أُريد الامتثال والانقياد للعظيم في ذاته، المستوجب للطاعة، لا بواسطة أمر غيره، فأين ذلك من أفعال المسلمين؟

فأُقسمُ عليك بمَنْ سلّطَكَ على طائفة من عباده، ومكّنَكَ من كثير من بلاده، أنْ تُخلي نفسك من حبّ الانفراد، الباعث على الامتياز بين العباد،

---

(١) سورة إبراهيم، الآية: ٩.

(٢) أوردها أحمد بن عليّ الطبرسي (من علماء القرن الخامس الهجري) في كتاب الاحتجاج، ج١، ص٢٦.

وتحذر من قولهم: «لكُلِّ جديد لذَّة»، و«خَالِفْ تُعْرَفْ»، كما أنّي أُحذِّر نفسي، وأصحابي مِنْ حُبِّ اتّباع الآباء والأجداد، وإرادة الدخول في الجماعة، وكراهة الانفراد.

وأمّا ما صدر من أهل الإسلام، فإنّما هو عن أمر زعموه، فإنْ كان حقّاً أُثيبوا، أو كان خطأً فكذلك.

فأين حال المسلمين من حال مَنْ جعل الآلهة ثلاثة، أو اثنين، واتّخذَ الملائكة أرباباً، واتّخذ بعض المخلوقين أنداداً وشركاء، يُعْبَدُونَ من دون الله أو مع الله، إمّا لأهليّتهم، أو لترتّب التقرّب إلى الله زلفى من دون أمر الله لهم بذلك؟ قال تعالى: ﴿مَّآ أَنزَلَ ٱللَّهُ بِهَا مِن سُلْطَٰنٍ﴾[1].

ورُوِيَ أنَّ قريشاً كانوا يعبدون الأصنام، ويقولون: ليقرّبونا إلى الله، ولا طاقة لنا على عبادة الله. وسيجيء في بعض المقامات الآتية ما يكشف عن حقيقة ذلك.

وإن أردتَ تمام الكلام في هذا المقام، فانظر بعين البصيرة إلى ما نحاول في هذا المقام تحريره.

إعلم أنَّ الألفاظ اللغويّة والعُرفيّة العامّة، قد تبقى على حالها من المعاني القديمة، فتلك لا تحتاج إلى بيان، سواءاً وردت في السُنَّة أو القرآن.

وأمّا إذا نُقلتْ عن المعاني الأوّلية إلى غيرها، أو استُعمِلتْ في المعاني الثانويّة على وجه المجازيّة، فهي من المجمل المحتاج إلى البيان، كلفظ الصلاة والصيام والحجّ، فإنّه لو لم يبينها الشرع لبقيت على إجمالها؛ حيث لا يُرادُ منها مطلق الدعاء والإمساك والقصد، بل معنى جديد، تتوقّف معرفتُهُ على بيان وتحديد.

---

(١) سورة يوسف، الآية: ٤٠.

ومن هذا القبيل ما نحن فيه من لفظ العبادة والدعاء ونحوهما، فإنّه لا يراد بهما في لحوق الشرك بهما المعنى القديم، وإلاّ للزم كفر الناس من يوم آدم إلى يومنا هذا. لأنّ العبادة بمعنى الطاعة، والدعاء بمعنى النداء، والإستغاثة للمخلوق لا يخلو منها أحد.

ومن أطوع من العبد لسيّده، والزوجة لزوجها، والرعيّة لملوكها، ولا زالوا ينادونهم، ويطلبون إعانتهم ومساعدتهم، بل الرؤساء لم يزالوا يستغيثون بجنودهم وأتباعهم ويندبونهم.

فعُلِمَ أنّه لا يُرادُ بهذه المذكورات، المعاني السابقات، وتَعيّن إرادة المعاني الجديدة، فصارت بذلك من المجملات والمتشابهات، فلا يجوز الحكم بمقتضاها، إلاّ في الموضع المعلوم دون المشكوك والموهوم.

وإنّما هو خطاب الوضيع لمن شأنه رفيع، على أنْ يكون مالك التصرّف، أو خدمته الخاصّة لرفعته الذاتيّة، وشرافته الأصليّة، من دون أمر آمر، ولا تكليف مكلّف، بل من مجرّد الابتداع والاختراع.

وأمّا ما كان عن أمر آمر، فالمعبود هو الآمر، ولا فرق بين أن يقول: ضع جبهتك في الصلاة على الأرض، أو على بدن إنسان، أو غير ذلك، وبين أنْ يقول: ضعها على قبر كذا، أو حجر كذا.

وإنّما كُفِّرَ عبدةُ الأصنام، لأنّهم فعلوا ما يُعدُّ عبادةً من دون أمر الله، ولأنّهم خالفوا أنبياء الله في نهيهم عن تلك الأشياء، فكانت قصد تقرّبهم فيما نهى الله عنه. إمّا بناء على أنّ الأصنام للجبّار قاهرون، فيقرّبونهم قهراً، أو كان استهزاءاً بالرسل، وتكذيباً لهم، وكلٌ من الكُفْرَين أعظم من الآخر، فإنّ المتقرّبين محصّل كلامهم أنّا نخالف أمر الله وأمر رسوله، ونعبد ما نُهينا عن عبادته ليقرّبنا إلى الله.

المقصد الثالث

في الذبح لغير الله

لا يشكّ أحدٌ من المسلمين في أنَّ من ذبح لغير الله ذبح العبادة (كما يذبح أهل الأصنام لأصنامهم حتى يذكروا على الذبائح أسماءهم، ويهلّون بها لغير الله) خارجٌ عن ربقة المسلمين، سواءاً اعتقدوا آلهيّتهم، أو قصدوا أن يقرّبوهم زلفى؛ لأنَّ ذلك من عبادة غير الله تعالى.

وأمّا مَنْ ذبح عن الأنبياء أو الأوصياء، أو المؤمنين ليصل الثواب إليهم، كما يُقرأ القرآن ويُهدى إليهم، ونصلّي لهم، وندعو لهم، ونفعل جميع الخيرات عنهم، ففي ذلك أجرٌ عظيم، وليس قصد أحد من الذابحين للأنبياء أو لغيرهم سوى ذلك.

أمّا العارفون منهم، فلا كلام. وأمّا الجُهّال، فهم على نحو عرفائهم.

وقد رُويَ عن النبيّ(ص) أنّه ذبح بيده، وقال: اللّهُمَّ هذا عنّي، وعن مَنْ لم يُضحِّ من أمّتي. رواه أحمد، وأبو داود، والترمذي[1]. وفي سنن أبي

---

(١) مسند أحمد بن حنبل، ج٦٣، ص٣٥٦؛ سنن أبي داود، ج٣، ص٩٩، حديث ٢٨١٠؛ سنن الترمذي، ج٤، ص٧٧، حديث ١٥٠٥.

داود أنَّ عليّاً كان يُضَحّي عن النبيّ(ص) بكبش، وكان يقول: أوصاني أن أُضحّي عنه دائماً[1].

وعن عليّ: إنّ النبيّ(ص) أوصاني أن أُضحّي عنه[2].

وعن بُريدة، عن النبيّ(ص) أنّ امرأةً سألتْهُ: هل تصوم عن أُمّها بعد موتها؟ وهل تحجّ عنها؟ قال: نعم[3].

وعن ابن عبّاس عن النبيّ(ص) أنّه قال: تقضي البنتُ نَذْرَ أُمّها[4].

ورُويَ أنَّ العاص بن وائل أوصى بالعتق فسأل ابنه عمرو النبيّ(ص) عن العتق له، فأمره به.

ورُويَ عن عائشة أنَّ النبيّ(ص) قال عند الذبح: اللّهُمّ تقبّل من مُحمَّد، وآله، وأُمّته.

والحاصل: لا كلام ولا بحث في أنَّ أفعال الخير تُهدى إلى الموتى، ومَنْ أولى بالهدايا من أنبياء الله وأوصيائه. فليس الذبح لهم وباسمهم، حتى يكون الإهلال لذكرهم، وإنّما ذلك عملٌ يُهدى إليهم ثوابُهُ كسائر الأعمال، حتى أنَّهُ لو ذكر اسمهم على الذبيحة، كان ذلك عند المسلمين منكراً، فهو ذبح عنهم لا لهم.

وإنّي ـ والذي نفسي بيده ـ منذ عرفتُ نفسي إلى يومي هذا، ما رأيتُ، ولا سمعتُ أحداً من المسلمين ذبحَ أو نحرَ، ذاكراً لاسم نبيّ، أو وصيّ، أو عبد صالح، وإنّما يقصدون إهداء الثواب إليهم، فإن كان في أطرافكم قبل تسلّطكم مثل ذلك، (فصاحب الدار أدرى بالذي فيها).

---

(١) سنن أبي داود، ج٣، ص٩٤، حديث ٢٧٩٠.
(٢) مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص١٥٠.
(٣) صحيح مسلم، ج٢، ص٨٠٥، حديث ١١٤٩.
(٤) سنن ابن ماجة، ج٢، ص٩٠٤.

ولا شكّ أنّ نجداً وأعرابها قبل أن تُظْهِرُوا فيها أمرَ الصلاة والصيام، وتأمروهم بالملازمة لعبادة الملك العلاّم، كانوا كالأنعام أو أضلّ سبيلاً، وقد رفع الله بكم عنهم الشقاق، وجعل بينهم الاتّفاق، وفرّقوا بين الحلال والحرام، وتوجّهوا لأوامر الملك العلاّم.

ويؤيّدُ ذلك ما رواه ابن عمرو عن النبيّ(ص) أنّه قال: اللّهُمّ باركْ لنا في شآمنا، اللّهمّ بارك لنا في يمننا، قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا، فقال: اللّهُمّ بارك لنا في شامنا، وفي يمننا، ثمّ قالوا: يا رسول الله، وفي نجدنا، فأظنّه قال في الثالثة: هناك موضوع الزلازل والفتن، وبها مطلع قرن الشيطان، رواه البخاري[1]. وإلحاق غير أهل نجد بهم من قياس الشاهد على الغائب.

وكيف يخفى على فحول العلماء، وأساطين الفقهاء الذين أقاموا الجمعات والجماعات، وأقاموا الأحكام، وأوضحوا الشبهات، وأمعنوا نظرهم في فهم الآيات والروايات، أنّ الذبح لا يكون إلاّ لجبّار السماوات؟ مع أنّ ذلك تلقّاه عن الأكابر الأصاغر، وعن الأوائل الأواخر. فلم يزل أهلُ الإسلام من قديم الأيّام يذبحون للأنبياء والأوصياء والعباد الصالحين، ويهدون الثواب إليهم طلباً لمرضاة ربّ العالمين.

واختيارهم للأماكن الشريفة، كحرم النبيّ(ص) ونحوه، لما ورد أنّ الأعمال يتضاعف أجرُها لشرف الزمان والمكان، كشرف الكوفة.

روى الأصبغ بن نُباتة[2] عن أمير المؤمنين أنّ الخضر قال له: إنّكَ في مدينة لا يريدها جبّار بسوء إلاّ قصمه الله.

ورُويَ أنّ البركة فيها على اثني عشر ميلاً من سائر جوانبها.

---

(١) صحيح البخاري، ج٩ (باب الفتن)، حديث ١٦؛ سنن الترمذي (كتاب المناقب)، حديث ٧٣.

(٢) الأصبغ بن نباتة المجاشعي التميمي الكوفي، تُوفّي أوائل القرن الثاني الهجري.

وإنّ المسلمين كافّة يتبرّؤون ممّن يدعو غير الله، أو يستغيث بغير الله، أو يذبح وينحر لغير الله، أو يحلف بغير الله، على النحو الذي وقع في نظركم أنّهم يقصدونه ويتعمّدونه، ومعاذ الله أن يكونوا كذلك.

والذي فلقَ الحبَّة، وبرَأ النَسَمَة، لو علمتُ منهم ذلك، لكفّرتُهم، وهاجرتُ عنهم، معتقداً وجوب ذلك عليَّ، لكنْ وحقّ مَنْ اشتقّ مِنْ ظُلْمةِ العدم نُورَ الوجود، ما وجدتُ ذلك منهم، ولا صدرَ ذلك عنهم، ولا بأس عليكم، فربّما افترى الحاضرون لديكم تقرُّباً بذلك إليكم، فاقتصرْ على حدودِكَ التي أنتَ فيها، فإنَّ النفس إذا قنعتْ، قليلٌ من الدنيا يكفيها.

وفي المشكاة: عن رسول الله(ص): إنّي لستُ أخشى عليكم أنْ تُشركوا بعدي، ولكنْ أخشى عليكم الدنيا أنْ تنافسوا فيها فتهلكوا، كما هلك مَنْ كان قبلكم[1].

وبعد التأمّل الصادق لا نجد ـ عند مَنْ شاهدناه ممّن يدّعي الإسلام وينتسب إلى ملّة سيّد الأنام ـ ذبحاً، ولا نحراً، ولا نذراً، ولا عتقاً، ولا تصدّقاً، ولا وقفاً، ولا شيئاً من العبادات ممّا يتعلّق بالماليّات أو البدنيّات، ولا توسّلاً، ولا تقرُّباً، إلاّ إلى جبّار الأرضين والسماوات، ولو أعلمُ ذلك منهم لما قبلتُ كلمة الإسلام الصادرة عنهم.

فمهلاً يا أخي، مهلاً، فإنّ القوم ليس حالُهم كما وصلَ إليكم، ووردَ عليكم، فإنّي بهم خبير، وبأحوالهم بصير، وليس غرضي تزكيتهم، ولكنْ ـ والله ـ هذا الذي علمتُهُ من سيرتهم، والله الموفّق.

---

(١) صحيح البخاري (كتاب المغازي)، حديث ١٧، و(كتاب الجهاد)، حديث ٣٨؛ صحيح مسلم (كتاب الزكاة)، حديث ١٢١؛ سنن ابن ماجة (كتاب الفتن)، حديث ١٨؛ مسند أحمد بن حنبل، الباب الخامس، حديث ٤٨.

المقصد الرابع

في النذر لغير الله

هذا المقام من مزال الأقدام، وإنّما كثرت فيه الأقاويل، لخفاء الموضوع إلاّ على القليل، فإنّه لا ينبغي الشكّ في أنّ النذر لغير الله على أنّه أهلٌ لأنْ يُنذرَ له، لأنّه مالك الأشياء وبيده زمامها، من الكفر والشرك؛ لأنّ النذر من أعظم العبادات، وإن أُريد أنّه ينعقد بذلك وإن لم يُذْكَر اسمُ الله عليه فهي مسألةٌ فقهيّةٌ فرعيّةٌ. واعتقاد ذلك لا عن دليل تشريع حرام، لا يُخْرِجُ عن ملّة الإسلام.

وليس المعروف في هذه البلدان النذر لغير الله إلاّ على معنى أنّه صدقة يُهْدَى ثوابها إلى أولياء الله. فمعنى النذر للنبيّ(ص) ـ مثلاً ـ أنّه صدقةٌ منذورة يُهدى ثوابها له، وهكذا النذر لسائر الأولياء. فلا يزيد هذا على من نذر لأبيه وأُمّه، أو حلف، أو عاهد أن يتصدّق عنهم، كما رُوي عنه(ص) أنّه قال للبنت التي نذرت لأُمّها عملاً: فِ بنَذْرِكِ[1].

فإن كان النذر للآباء والأمّهات كفراً، كان هذا كفراً، وإلاّ فلا. فمَنْ

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الاعتكاف)، حديث ٥، ١٥، ١٦؛ صحيح مسلم (كتاب الإيمان)، حديث ٢٧؛ سنن أبي داود (كتاب الأيمان)، حديث ٢٢؛ سنن الترمذي (كتاب النذور)، حديث ١٢؛ ابن ماجة (كتاب الطلاق) حديث ٣٦.

حاول بالنذر حصول الثواب والتقرّب إلى الله زُلْفى من المنذور له، على أنْ يكون الفعل له لا على أن يكون الثواب له، فهو ضالٌ مضلٌ. وأمّا من قصد خلاف ذلك، فلا بأس عليه.

واختيار بعض الأمكنة للنذور طلباً لشرف المكان، حتى يتضاعف ثواب العبادة، كما يختار بعض الأزمنة لبعض العبادات فلا بأس به، بل لا بأس بتخصيص بعض الأمكنة المباركة، وهو مستفادٌ من الأخبار، كما لا يخفى على من حام حول الديار.

روى ثابت بن الضحّاك[1]، عن النبيّ(ص) أنّ رجلاً سأله أنّه نذر أن يذبح ببوّانة، قال: هل كان فيها وثن يعبد؟ قال: لا، قال: فهل كان فيها عيدٌ من أعيادهم؟ فقال: لا، فقال: فِ بنذرك[2].

ثم إنّي أعلم ـ والله ـ أنّك لو وضعتَ منادياً ينادي في بلاد الإسلام، ويُعلن بصوته في كلّ مقام، ليجد شخصاً يُعَدُّ من نوع الإنسان يقصد بنذره غير وجه الملك الديّان، لرجع إليك صفر اليدين، ولم يجد ناذراً للنبيّ(ص)، أو الصحابة، أو الحسنين.

وكيف يقصدونهم بنذورهم وعباداتهم مع علمهم بمماتهم؟ وإذا دخلوا إلى مواضع قبورهم قرأوا لهم القرآن، وأهدوا إليهم من صلاتهم بعض ما كان، ودعوا لهم برفعة الدرجات، وزيادة الأجر عند ربّ السماوات، فإن كانوا معبودين باعتقادهم، فكيف يهدون إليهم عبادة العبيد؟!

ليتَ شعري كم من الفرق بين مَنْ يَعْبدُ ليُقرّب إلى الله زلفى، وبين من يُعْبَدُ الله عنه ليُقرّبه الله زلفى.

---

(١) ثابت بن الضحّاك بن خليفة بن ثعلبة بن عدي الأنصاري، مات سنة ٤٥هـ/ ٦٦٥م.

(٢) سنن أبي داود (كتاب الأيمان)، حديث ٢٢، سنن ابن ماجة (باب الكفّارات)، حديث ٢١٨؛ مسند أحمد بن حنبل، الباب الأوّل، حديث ٩٠.

والله ما نُذِرتْ نذور، ولا جُزِرَتْ جزور، ممّن يتّصف بالإيمان، ويقرُّ بالشهادتين بالقلب واللسان، إلاّ لوجه الملك الديّان، وطلباً لرضى الواحد المنّان.

فمن كانت هذه مقاصدهم، وعلى ذلك بنوا قواعدهم، كيف ينسبون إلى عبادة غير الله، ويُشَبِّهُون بعبدة الأصنام المُثْبِتين شريكاً للملك العلاّم؟!

ليتَ شعري لو أنَّ الرسل جاءت بالسجود للأحجار، أو لبعض الكواكب والأشجار، لم يكن ذلك السجود إلاّ عبادة للملك الجبّار؛ لأنَّ الطاعة للآمر لا لمن يكون له في ذلك اختيار.

ولو أنَّ الناظر لصور الكواكب وهيئة الأفلاك، تدبَّرَها تفكُّراً في عظمة الخالق، وسجد، كان عابداً لمدبّرها.

ثمّ ليس المراد بالعبادة مجرّد الخضوع والتذلّل، كما هو المعنى القديم، بل يُراد معنى جديد، وهو التذلُّل الخاص، على شرط أنْ يكون في كمال الصفاء والإخلاص.

وعلى فرض أن يصدر من بعض أعوام المسلمين، لعدم قربهم من محال العلماء العاملين؛ فلا ينبغي معاملة الجميع بهذه المعاملات، والبناء على نسبتهم إلى الشرك من دون قيام البيّنات.

فقفْ ـ يا أخي ـ في مواضع الشبهات، لئلاّ تقع في الهلكات. وإنّي ـ والله ـ فرحٌ مسرورٌ، بدفعك عن أبناء السبيل كلّ محذور، وأمرك بالصلاة والصيام، وإنفاذ ما شرع النبيّ(ص) من الأحكام. إلاّ أنّي أخشى عليك أنْ تأخذ العالم بذنب الجاهل، والمنصف بورطة المعاند المجادل.

وفّقنا الله لطريق الصواب، والفوز برضاه في يوم الحساب، فإنّه أرحم الراحمين.

المقصد الخامس

في القسم بغير الله

لا يرتاب مسلم في أنّ القَسَمَ بغير الله، على وجه إرادة صاحب العظمة والكبرياء والملكوت والقدرة والجبروت، باعث على الخروج عن ربقة المسلمين.

وأمّا إرادة مجرّد التأكيد، فلا يلزم منه كفر ولا إشراك بديهةً، إذ ليس مدار الكفر على مجرّد العبارات. ويدلّ على ذلك أنّه قد ورد القسم بغير الله متواتراً في كلام الصحابة والتابعين، بل في كلام خاتم النبيّين.

ففي كتاب عليّ إلى معاوية: لعمري لئن نظرتَ بعقلك دون هواك، لتجدني أبرأ الناس من دم عثمان[1].

وفي كلام له آخر إلى معاوية: وأمّا تحذيرك إيّاي أن يحبط عملي وسابقتي في الإسلام، فلعمري لو كنتُ الباغي عليك لكان لك أنْ تحذّرني ذلك.

وفي كتاب معاوية: فإنْ كنتَ ـ أبا الحسن ـ إنّما تحارب على الأمرة والخلافة، فلعَمْري لو صحّتْ خلافتك لكنت قريباً من أن تعذر في حرب المسلمين.

---

(١) نهج البلاغة، ص٣٦٧.

وقد وقع هذا القَسَمُ بلفظ «لَعَمْري» في كلام الصحابة والتابعين، في نثرهم وشعرهم كثيراً؛ بحيث يتعذّر ضبطه.

وعن بعض أهل البيت أنّ واحداً من أصحابه حلفَ عنده: وحقّ رسول الله، وحقّ عليٍّ ما فعلتُ (كذا)، وأقرّهُ على ذلك.

وفي حديث طلحة: إنّ رجلاً من أهل نجد جاء يسأل عن الإسلام، فقال: أفلح الرجل ـ والله ـ إنْ صدق[1].

وفي شرح مصابيح الطيّبي عنه(ص): أفلح الرجل وأبيه ـ والله ـ. وحُمِلَ على أنّها لم يرد بها حقيقة القَسَم، وإنّما تجري على اللسان لمجرّد التأكيد.

وروى نصر بن مزاحم[2]، عن رجاله، عن عمرو بن العاص أنّه سمعَ رسول الله(ص) وهو يقول لعَمّار: تقتلُكَ الفئةُ الباغية، وكان ذكره لأهل الشام قبل وقعة صفّين بعشرين سنة، فسمعه عبد الله بن عمر العَبْسي، وكان أعبد أهل زمانه، فخرج ليلاً وأصبح في عسكر عليّ، فحدّث الناس بقول عمرو، وقال شعراً:

والراقصاتُ بركب عابدينَ له ... إنّ الذي جاء من عمروٍ لمأثورُ

ما في مقال رسول الله في رجلٍ ... شكٌّ، ولا في مقال الرسل تحبيرُ

ومن الشعر المقول عن عليّ بن الحسين(ع) قوله:

«نحنُ ـ وبيتِ الله ـ أولى بالنبي»

وكم للصحابة والتابعين من حلف بشيبة رسول الله، وضريحه، وعينيه،

---

(١) صحيح البخاري (كتاب الأيمان)، حديث ٣؛ سنن أبي داود (كتاب الصلاة)، حديث ١؛ سنن النسائي (كتاب الصلاة)، حديث ٤؛ سنن الدارمي (كتاب الصلاة)، حديث ٢٠٨.

(٢) وقعة صفّين لنصر بن مزاحم، ص٣٤٣.

وتربته، وليس هذا من القَسَم الحقيقيّ في شيء؛ إذ المراد مجرّد التأكيد والتثبّت دون حقيقة القَسَم التي هي مدار القضايا والحكومات، ويدور عليها ما لزم من الكفّارات.

فما ورد عن ابن عمر، عن النبي(ص): إنّ الله نهاكم أن تحلفوا بآبائكم[1].

وفي الصحيحين: إنّ الله ينهاكم أنْ تحلفوا بآبائكم، فمَنْ كان حالفاً فلا يحلف إلاّ بالله، أو يصمت[2].

وعن عبد الرحمٰن بن سمرة، عن النبيّ(ص): لا تحلفوا بالطواغي، ولا بآبائكم. رواه مسلم[3].

وعن أبي هريرة عن النبيّ(ص) أنّه قال: لا تحلفوا بآبائكم، ولا بأُمّهاتكم، ولا بالأنداد. رواه أبو داود، والنسائي[4].

وعن بريدة، قال: قال رسول الله(ص): من حلف بآبائه فليس منّا[5].

فهذه الأخبار محمولة على من قصد اليمين الحقيقيّة المثبتة والنافية التي تترتّب عليها الكفّارة، فإنّها لا تكون إلاّ بالله، كما يرشد إليه ذكر الطواغيت، والأنداد.

ونُقِلَ عن أحمد أنّ الحلف بالنبيّ(ص) ينعقد لأنّه أحد ركني الشهادة،

---

(١) سنن النسائي (كتاب الأيمان والنذور)، ج٤، ص٤.
(٢) صحيح مسلم (كتاب الأيمان)، باب النهي عن الحلف بغير الله تعالى، حديث٣.
(٣) صحيح مسلم (كتاب الأيمان)، حديث ٦. والطواغي هي الأصنام، ومفردها: طاغية، وكلّ مَنْ طغى وجاوزَ الحدّ المعتاد من الشرّ سُمّي طاغية.
(٤) سنن أبي داود، ج٣، ص٢٢٢، حديث ٣٢٤٨؛ سنن النسائي (كتاب الأيمان والنذور)، ج٤، ص٥.
(٥) سنن أبي داود، ج٣، ص٢٢٣، حديث ٣٢٥٣.

أو يُحْمَلُ على الكراهة، كما في شرح «المنهاج». وفيه: الحلف بالمخلوق كالنبيّ، والكعبة، وغيرهما مكروه، لقوله(ص): لا تحلفوا بآبائكم، ولا بأمّهاتكم، ولا تحلفوا إلاّ بالله.

والتحقيق أنّ الحلف غير المقصود معناه لا بأس به.

روى أبو هريرة عن النبيّ(ص) أنّه قال: اليمين على نيّة المستحلف.

القَسَمُ الثاني أن يُرادَ به الإثبات والنفي؛ فإنْ كان مأخوذاً عن دليل، لم يكن فيه بأس، وترتّب عليه الأثر عند الفقيه المُثْبِت له، ولم يكن عليه شيءٌ، وإنْ قصدَ بالحلف بالمخلوق أنّه ذو الكبرياء والجبروت والمُلك والملكوت، فهو كفر.

وربّما نزل عليه ما رواه ابن عمر، عن النبيّ(ص): أنَّ مَنْ حلف بغير الله فقدْ أشرك، رواه الترمذي[1].

ورُوي عن ابن عمر، عن النبيّ(ص): إنَّ مَنْ حلف بغير الله فقد كفر.

أو ينزّل هذا على المبالغة، كما ورد في كثير من فعل المعاصي وترك الواجبات، وما عدا هذا القسم والذي قبله بناؤه[2] على الكراهة؛ إذ لو كان حراماً ما صدر من الصحابة بمحضر من الناس، ولم ينكر عليهم.

مضافاً إلى أنّه ممّا توفر الدواعي على نقله، ولو كان محرّماً للهجتْ به ألسنةُ الخطباء والوعّاظ، ولم يخفَ على الصبيان، فضلاً عن العلماء الأعيان، وليس الغرض المهمّ سوى دفع الكفر عن الناس إذا صدر منهم مثل ذلك.

وتفصيل الحال: إنَّ القَسَمَ والعهد بغير الله إن قُصِدَ بهما ذو العزّة

---

(١) سنن الترمذي (كتاب النذور)، باب ٩؛ سنن النسائي (كتاب الأيمان)، باب ٤؛ ابن ماجة (كتاب الكفّارات)، باب ٢؛ سنن الدارمي (كتاب النذور)، باب ٦.

(٢) في نسخة (ك): يُحملُ.

والجلال، والعلوّ فوق كلّ عالٍ، كما يحلف المربوبُ بربّه، فذلك كفرٌ وإشراك.

وإنْ قصد ترتّب الأحكام عليه من إثبات حقوق الناس، ولزوم الكفّارات، فذلك تشريعٌ وعصيان، إلاّ مَنْ أثبت ذلك بزعم[1] الدليل والبرهان، وإن رأى وجوب العمل بذلك لمجرّد الإكرام؛ لأنّ عدم العمل ينافي الاحترام، فلا أرى فيه بأساً في المقام.

وإنْ أُريد به مجرّد التأكيد من دون ترتّب شيءٍ من الأحكام، فأولى بالدخول في المباح، والخروج من الحرام. وإنْ وقعَ لغواً، وهذراً من غير قصدٍ، فلا يُعَدُّ من الأيمان، ولا مدار عليه في شيء كائناً ما كان، والله الموفّق.

---

(١) في نسخة (ك): «إلاّ ممن أثبته ممن عمّم».

المقصد السادس

في الاستغاثة

لا يخفى أنَّ الإستغاثة بالمخلوق على أنّه الفاعل المختار تُدخلُ المستغيث[1] في أقسام الكفّار، وإنّما المراد منه طلب الشفاعة، وسؤال الدعاء.

وقد روى النسائي، والترمذي في حديث الأعرابي، أنَّ النبيّ(ص) علَّمَهُ قول: يا مُحمّد، إنّي توجّهت بك إلى الله، ونحوه ما في حديث ابن حنيف[2].

وروى البيهقي في خبرٍ صحيح أنّه في أيّام عمر ـ رضي الله عنه ـ جاء رجل إلى قبر النبيّ(ص)، فقال: يا مُحَمّد، إستسق لأُمّتك، فسقوا[3].

وروى الطبراني، وابن المقري، وأبو الشيخ أنّهم كانوا جياعاً، فجاءوا إلى قبر النبيّ(ص) فقالوا: يا رسول الله، الجوعَ، فأُشبعوا.

وروى البيهقي عن مالك الدار خازن عمر (رض)، قال: أصاب الناس

---

(١) في نسخة الأصل (م): مدخلٌ للمستغيث.

(٢) سنن الترمذي (كتاب الدعوات)، باب ١١٨؛ سنن ابن ماجة (كتاب إقامة الصلاة والسُنّة فيها)، باب ١٨٩، حديث ١٣٨٥. وابن حنيف هو عثمان بن حنيف الأنصاري، سكن الكوفة، ومات في خلافة معاوية.

(٣) سنن البيهقي، ج٣، ص٣٢٦.

قحط، فذهب إلى قبر النبيّ(ص) فقال: إستسق لأمّتك فقد هلكوا، فأتاه النبيّ(ص) في المنام، وقال له: قُلْ لعُمر: إنّهم سقوا.

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[1].

وعن معاذ أنّه لمّا كان في اليمن جاءه نعي النبيّ(ص)، فرجع وهو يقول: «يا مُحمّداهُ، يا أبا القاسماهُ»، وبقي على ذلك برهة من الزمان. وفيه ظهور بالاستغاثة.

وعن أبي بكر بن محمّد بن الفضل أنّ بلالاً لمّا أخذَ في النَزْع، قالت امرأته: وآويلاه، وآحزناه، فقال لها: لا تقولي: وآحزناه، فإنّي قصدتُ الذهاب إلى مُحمّدٍ، وحزبه.

وروى الكازروني ندبة الزهراء(ع)، وروى ندبة معاذ النبيّ(ص).

وعن النعمان بن بشير، قال: أُغمي على عبد الله بن رواحة، فجعلتْ أختُهُ عمرة[2] تبكي وتقول: واجبلاه[3].

وما رُويَ عن أبي موسى عن النبيّ(ص) أنّه ما من ميّت يموت، فيقوم باكيه ويقول: وآجبلاه، وآسيّداه، إلاّ وكّلَ الله به ملكين يلهزانه ويقولان له: أكان هكذا؟[4] ـ فمبنيٌّ على النهي عن العزاء والبكاء.

وفي قصّة إدريس أنّ المطر انقطع عن قومه عشرين سنةً، فجاؤا إليه يدعو لهم.

وعن رسول الله(ص) أنّ ملكاً غضب الله عليه، فأُهبط من السماء،

---

(١) سورة القصص، الآية: ١٥.

(٢) في نسخة (ك): أخت عمر.

(٣) سنن البيهقي، ج٤، ص٦٤. وفي نسخة (ك): وآويلاه.

(٤) في نسخة (ك): أكنتَ هكذا.

فأتى إدريس، فاستشفع به، فدعا له، فأذن له في الصعود، فصعد.

وفي الحقيقة أنَّ المُستغيث بالمخلوق إنْ أراد طلب الدعاء والشفاعة من المُسْتَغاث به، فلا بأس به، وإنْ أراد إسناد الأمور بالاستقلال إليه، فالمسلمون منه براء.

على أنَّا بيَّنا فيما سبق أنَّ الاستغاثة بدار[1] زيد، وصفاته، وغلمانه، وخَدَمه، رُبَّما أُريد بها الاستغاثة به، فيكون هذا أولى في بيان ذلّ المستغيث، وأنّه لا يرى لسانه أهلاً لأن يجري عليه اسم المولى. ولهذا ترى أنَّ طاعة الله تُذكر بعدها طاعة رسول الله(ص)، ورضاه يذكر بعد رضى الله، وإذا انفردتْ إحداهما دخلت فيها الأُخرى.

روى أبو هريرة عن النبيّ(ص) أنّه قال: مَنْ أطاعني فقد أطاع الله، ومَنْ عصاني فقد عصى الله، ومَنْ يُطع الأمير فقد أطاعني، ومَنْ يَعْصِ الأمير فقد عصاني[2].

وكيف يستغاث حقيقةً بمن لا يدفع عن نفسه ضُرّاً ولا شرّاً، ولا يملك رزقاً، ولا موتاً، ولا حياةً، ولا نشوراً، المبدىء من تراب، ثمّ نطفة مودعة في الأصلاب، ثمّ جسم مُعَرَّض للبليّات[3]، ثمّ بعدها يكون من الأموات.

وإنّما شرفُهُ بالعبوديّة والانقياد للحضرة القدسيّة، ولولا أمرُ الله ما سُمعَ له كلام، ولا رُفعَ له مقام، وليس بيننا وبينه ربط سوى أمر الملك العلاّم.

فليس المراد بالاستغاثة إلاّ طلب الدعاء من المُسْتغاث به، لما في

---

(١) في نسخة (ك): بذات.

(٢) صحيح البخاري (كتاب الجهاد)، باب١٠٩؛ صحيح مسلم (كتاب الامارة)، باب ٢٣؛ سنن النسائي (كتاب البيعة)، باب ٢٧؛ ابن ماجة (المقدّمة)، باب ١.

(٣) في نسخة (ك): جامع للعذرات.

الحديث القدسيّ: يا موسى، ادعني بلسانٍ لم تَعْصِني فيه، فقال: يا ربِّ وأين ذلك؟ فقال: لسان الغير.

فالمستغيث إنْ طلب أصالةً واستقلالاً من المستغاث به، كان معوّلاً عليه في كلّ أمر يرجع إليه، وإلاّ فالمستغاث به حقيقةً هو الذي تنتهي إليه الأمور.

وكذلك الدعاء إن قُصِدَ أنّ المدعوّ هو الفاعل المختار الذي تنتهي إليه الأشياء، فذلك كفر بربّ السماء، وإن أُريدَ المجاز، فلا يدخل تحت حقيقة الدعاء.

ولا ريب أنّ كُلّ مَنْ قال لشخص: أعنّي على بناء الدار، أو قضاء الدَين، أو قال: أعطني، أو غير ذلك، بقصد الدعاء؛ أعني: طلب المربوب من الربّ، فهو كفرٌ وإشراك. وإن قصد الطلب لا على ذلك النحو، لم يكن كفراً.

ولو كان المدار على هذه الصورة، لكُفِّرت الخلائق من يوم آدم إلى يومنا هذا. بل صدور هذه العبارات عن الأنبياء والأوصياء أبين من الشمس.

وكذلك الاستجارة، والندبة، ونحوهما، فإن كانت على الطور المعهود، كقوله تعالى: ﴿وَإِنْ أَحَدٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ٱسْتَجَارَكَ فَأَجِرْهُ﴾[1]، ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾[2]، ﴿فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ يُخْرِجْ لَنَا مِمَّا تُنۢبِتُ ٱلْأَرْضُ﴾[3]، فلا محيص عن القول بجوازه. فتفاوت العبارات باختلاف النيّات.

فمن كان داعياً دعاء الأصنام وسائر الأرباب، أو مسغيثاً كذلك، فهو كافر مشرك. وإن أراد المُتعارف بين سائر الناس، فليس به بأس.

فبحقّ مَنْ شقّ سمعك وبصرك، أنْ تُمْعِنَ في هذا المقام نظرَك، وتُصَفّي

---

(١) سورة التوبة، الآية: ٦.

(٢) سورة القصص، الآية: ١٥.

(٣) سورة البقرة، الآية: ٦١.

نفسك عن حب الانفراد، كما يلزمنا التخلية عن حبّ متابعة الآباء والأجداد.

ولا فرق بين الأحياء والأموات؛ لأنَّ مَن استغاث بالمخلوق أو استجار به على أنّه فاعلٌ مختار، فقد دخل في أقسام الكفّار، فالاستغاثة بعيسى أو بمريم حيّين أو ميّتين كفرٌ، تقع على القسمين.

واعتقاد أنَّ الميّت يسمع أو لا يسمع، ليس من عقائد الدين التي تجبُ معرفتُها على المسلمين. فمن اعتقدَها: فإمّا أنْ يكون مصيباً مأجوراً، أو مخطئاً معذوراً.

ومن ذلك القبيل الألفاظ التي تفيد الرجاء، والتوكّل، والاعتماد، والتعويل، والالتجاء، والاستعانة[1] بغير الله. فإنّ هذه العبارات لو بني على ظاهرها لم يبقَ في الدنيا مسلمٌ. إذ لا يخلو أحدٌ من الاستعانة على الأعداء، والاعتماد على الأصدقاء، والالتجاء إلى الأمراء، ونحو ذلك.

إلاّ أنّه إنْ قصد الملتجأ إليه والمعوّل عليه من المخلوقين في أنَّ له اختياراً وتدبيراً في العالم لنفسه لا عن أمر الله، فذلك كفرٌ بالله، وإلاّ فلا بأس.

وممّا يناسب نقله في هذا المقام ما نقله القتيبي، قال: كنتُ جالساً عند قبر رسول الله(ص) فجاء أعرابيٌ فسلّمَ على النبي(ص)، ثمّ أنشأ يقول:

يا خيرَ مَنْ دُفِنتْ بالقاع أعظمُهُ ... فطابَ مِنْ طيبهنَّ القاعُ والأكمُ

نفسي الفداء لقبرٍ أنتَ ساكنُهُ ... فيه العَفافُ، وفيه الجُودُ والكرمُ

ثمّ قال: ها أنا ذا يا رسول الله، فقد ظلمتُ نفسي، وأنا أستغفرُ الله وأسألك يا رسول الله أنْ تستغفرَ لي. قال القتيبي: ثمّ نمتُ، فرأيتُ النبيَّ(ص) في المنام، فقال يا قتيبي، أدرك الأعرابي وبشّره أنّه قد غَفَر الله له، قال: فأدركتُهُ وبشّرتُه.

---

(١) في نسخة (ك): والاستغاثة.

المقصد السابع

في التوسل

ولا ريب أنّه من سنن المرسلين، وسيرة السلف الصالحين، ودلّت عليه الأخبار والآثار.

نُقِلَ أنّ آدم لمّا اقترفَ الخطيئة، قال: يا ربّي، أسألك بحقّ مُحمّد(ص) لما غفرت لي، فقال: يا آدم، كيف عرفت؟ قال: لأنّك لمّا خلقتني نظرتُ إلى العرش، فوجدتُ مكتوباً فيه: «لا إله إلاّ الله، مُحمّدٌ رسول الله»، فرأيتُ اسمه مقروناً مع اسمك، فعرفتُهُ أحبُّ الخلق إليك. (صحّحه الحاكم)[1].

وعن عثمان بن حنيف أنّ رجلاً ضرير البصر أتى النبيّ(ص) فقال: ادعُ الله أن يعافيَني، فقال النبي(ص): إن شئت صبرتَ فهو خيرٌ لك، وإن شئتَ دعوتُ، قال: فادْعُهُ، فأمره أن يتوضّأ، ويدعو بهذا الدعاء: «اللّهم إنّي أسألك وأتوجّه إليك بنبيّكَ مُحمّد نبيّ الرحمة، يا محمّد، إنّي توجّهتُ بك إلى ربّي في حاجتي ليقضيها، اللّهمّ شفّعْهُ فيّ»[2].

وفيه دلالة على جواز الشفاعة في الدنيا، وعلى الاستغاثة. رواه

---

(١) مستدرك الحاكم، ج٢، ص٦١٥.

(٢) سنن الترمذي (كتاب الدعوات)، باب ١١٩، حديث ٣٥٧٨؛ سنن ابن ماجة (كتاب إقامة الصلاة)، باب ١٨٩، حديث ١٣٨٥.

الترمذي، والنسائي، وصحّحه البيهقي، وزاد: «فقام وقد أبصر».

ونقل الطبراني عن عثمان بن حنيف أنَّ رجلاً كان يختلف إلى عثمان ابن عفّان في حاجته، فكان لا يلتفت إليه، فشكا ذلك لابن حنيف، فقال له: إذهب وتوضّأ وقل: (وذكر نحو ما ذكر الضرير)، قال: فصنع ذلك، فجاء البوّاب، فأخذه وأدخله على عثمان، فأمسكه على الطنفسة، وقضى حاجته[1].

وروي أنّه لمّا دعا النبيّ(ص) لفاطمة بنت أسد، قال: اللّهمّ إنّي أسألك بحقّ نبيّك والأنبياء الذين من قبلي، (إلى آخر الدعاء)[2].

وفي الصحيح عن أنس أنّ عمر بن الخطّاب ـ رضي الله عنه ـ كان إذا أقحط الناس استسقى بالعبّاس، فقال: اللّهمّ إنّا كنّا نتوسّل إليك بنبيّكَ فتسقينا، وإنّا نتوسّل إليك بعمّ نبيّك.

وفي رواية الحافظ عن ابن عباس انَّ عمر قال: اللّهم إنّا نستسقيكَ بعمّ نبيّنا ونستشفع إليك بشيبته، فَسُقوا[3].

وروى الشيخ عبد الحميد (ابن أبي الحديد) عن علي(ع) أنّه قال: كنتُ من رسول الله كالعضد من المنكب، وكالذراع من العضد، وبّاني صغيراً، وواخاني كبيراً، سألتُه مرّةً أن يدعوَ لي بالمغفرة، فقام فصلّى، فلمّا رفع يديه سمعتُهُ يقول: اللهمّ بحقّ عليّ عندك اغفر لعليّ، فقلتُ: يا رسول الله، ما هذا؟ فقال: أوَ أحد أكرم منك عليه، فأستشفعُ به إليه؟[4].

---

(١) سنن ابن ماجة (كتاب إقامة الصلاة)، باب ١٨٩، حديث ١٣٨٥.
(٢) كنز العمّال، ج٦، ص١٨٩.
(٣) صحيح البخاري (كتاب الاستسقاء)، باب ٣، و(كتاب فضائل أصحاب النبيّ)، باب ١١.
(٤) شرح نهج البلاغة، ج٤، ص٥٥٨.

وفي هذين الخبرين دلالةٌ على شفاعة الدنيا.

وفي مسند ابن حنبل أنّ عائشة قال لها مسروق: سألتك بصاحب هذا القبر ما الذي سمعتِ من رسول الله؟ (يعني: في حقّ الخوارج)، قالتْ: سمعتُهُ يقول: إنّهم شرُّ الخلق والخليقة، يقتلهم خير الخلق والخليقة، وأقربهم عند الله وسيلة[1].

وعن الأعمش أنّ امرأةً ضريرةً بقيت ستّ ليالٍ تُقْسِمُ على الله بعليّ، فعوفيت.

فما رواه جبير بن مطعم عن النبيّ(ص) أنّه أتاه أعرابيّ، فقال: جهدت الأنفس، وجاع العيال، فاستسق لنا، فإنّا نستشفع بك إلى الله، ونستشفع بالله عليك، فقال النبيّ(ص): «ويحك إنّه لا يستشفع بالله على أحد، شأن الله أعظم»، فليس ممّا نحن فيه؛ لأنّه نهى عن الاستشفاع بالله لا بأحد إلى[2] الله.

وعن عليّ(ع) أنّه قال لسعد بن أبي وقاص: أسألك برحم ابني هذا، وبرحم حمزة عمي منك ألاّ تكون مع عبد الرحمٰن[3].

وعن عائشة ـ رضي الله عنها ـ أنّ النبيّ أسرّ إلى فاطمة سرّاً، فبكتْ بكاءاً شديداً، فسألتُها، فقالت: ما كنتُ لأفشي سرّ رسول الله(ص)، فلمّا قُبِضَ سألتُها وقلتُ لها: عزمتُ عليكِ بما لي عليك من الحقّ، (الخبر)[4].

---

(١) سنن الدارمي (كتاب الجهاد)، باب ٣٩؛ مسند أحمد بن حنبل، ج١، ص١٤٠؛ سنن ابن ماجة (المقدّمة) باب ١٢، حديث ١٧٠.

(٢) في نسخة (ك): على.

(٣) الترمذي، ج٥، ص٦٠٧.

(٤) صحيح البخاري، ج٤، ص٢١٠؛ صحيح مسلم، ج٤، ص١٩٠٥؛ الترمذي، ج٥، ص٦٥٨.

وروى أبو مخنف عن أبي[1] الخليل، قال: لمّا نزل طلحة والزبير في موضع (كذا)، قلت: ناشدتكما الله وصُحبة رسول الله.

وعن علي(ع) أنّ يهودياً جاء إلى النبيّ، فقام بين يديه، وجعل يحدّ النظر إليه، فقال: يا يهودي، ما حاجتُك؟ فقال: أنت أفضل أم موسى؟ فقال له: إنّه يكره للعبد أن يزكّي نفسه، ولكن قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا بِنِعْمَةِ رَبِّكَ فَحَدِّثْ﴾[2]، إنّ آدم لمّا أصابته خطيئته التي تاب منها كانت توبته: «اللّهمّ إنّي أسألُكَ بمُحمّد وآلِ مُحمّد لما غفرتَ لي»، فغُفِرَ له[3].

وعن عليّ أنّه بعد دفن النبيّ(ص) قام عند قبره الشريف، فقال مخاطباً له: طبتَ حيّاً وطبتَ ميّتاً، انقطع عنّا بموتك ما لم ينقطع بموت أحد سواك من النبوّة والأنبياء، وأخبار السماء، (والحديث طويل)، إلى أن قال: بأبي أنت وأمّي اذْكُرْنا عند ربّك، واجعلنا من بالك وهمّك.

ونقل الشيخ عبد الحميد أنّ معاوية سأل عقيلاً عن عليّ، فقال له عقيل: يا معاوية، جاءته زقاق عسل من اليمن، فأخذ الحسين منها رطلاً واشترى إداماً لخبزه، فلمّا جاء عليّ ليقسّمها قال: يا قُنْبُرُ، أظنُّ أنّه قد حَدَثَ بهذا حدثٌ، قال: نعم، وأخبره بقصّة الحسين(ع)، فَغَضِبَ، وقال: عليَّ بحسين، فرفع الدرة عليه، وقال: بعمّي جعفر، (وكان إذا سئل بحقّ جعفر سكن)، فأجابه الحسين بما أجاب.

ونقل الشيخ عبد الحميد أنّ رجلاً وفد من مصر، فاستعاذ بعُمر.

وكيف كان، فقد بانَ أنّ مَنْ توسَّلَ إلى الله بمُعظَّم من: قرآن، أو نبيّ،

---

(١) في نسخة (ك): ابن.

(٢) سورة الضحى، الآية: ١١.

(٣) كنز العمّال، ج١١، ص ٤٥٥.

أو عبدٍ صالح، أو مكانٍ شريف، أو بغير ذلك، فلا بأس عليه، بل كان آتياً بما هو أولى وأفضل.

ولا بأس بالتوسّط بحقّ المخلوقات، فإنّ للمولى على عبده حقّ المالكيّة، وللعبد حقّ المملوكيّة، وللخادم حقّ الخدمة، وللأرحام حقّ الرحم، وللصديق حقّ الصداقة، وللجار حقّ الجوار، وللصاحب حقّ الصحبة. فالحقّ عبارةٌ عن الرابطة بأيّ نحوٍ اتّفقت، وعلى أيّ جهةٍ كانت.

وعلى ذلك جرتْ عادة السلف من أيّام النبيّ(ص) إلى يومنا هذا، لا ينكره أحدٌ من المسلمين، والدعوات والمواعظ مشتملة عليه، والإجماع منعقدٌ عليه، فلم يبقَ في المقام إشكال، ولا بقي محلٌّ للقيل والقال، والله وليّ التوفيق، وهو أرحم الراحمين.

المقصد الثامن

في الشفاعة

الشفاعة ـ في الحقيقة ـ قِسمٌ من الدعاء والرجاء، وليست من خواص الأنبياء والأوصياء، وليس لأحد على الله قبول شفاعته[1]، وإنّما ذلك من ألطافه ومننه، ولا شفاعة إلاّ بإذنه ورضاه، والأخبار فيها متواترة.

روى محمّد بن عمرو بن العاص، عن النبيّ(ص) أنّه قال: من سأل الله لي الوسيلة، حلّتْ عليه الشفاعة، (رواه مسلم)[2].

وعن جابر عن النبيّ(ص): «من سمع الأذان ودعا بكذا، حلّت له شفاعتي يوم القيامة»، (رواه البخاري)[3].

وعن عبد الله بن عبّاس، عن النبيّ(ص) أنّه قال: ما من رجل مسلم

---

(١) في نسخة (ك): الشفاعة.

(٢) صحيح مسلم (كتاب الصلاة)، باب ١١؛ سنن أبي داود (كتاب الصلاة)، باب ٣٦؛ سنن الترمذي (كتاب المناقب)، باب ١؛ سنن النسائي (كتاب الأذان)، باب ٣٧؛ مسند أحمد ابن حنبل (كتاب المثاني)، الباب ١٦٨.

(٣) البخاري (كتاب الأذان)، باب ٨؛ صحيح مسلم (كتاب الصلاة)، باب ١١؛ سنن أبي داود (كتاب الصلاة)، باب ٣٦.

يموت، فيقوم على جنازته أربعون رجلاً، لا يُشْرِكون بالله شيئاً، إلاّ شفّعهم الله فيه، (رواه مسلم)[1].

وعن عائشة (رض)، عن النبيّ(ص) أنّه قال: ما من ميّتٍ تصلّي عليه أمّةٌ من الناس يبلغون مائة، كلّهم يشفعون له إلاّ شُفّعُوا فيه، (رواه مسلم)[2].

وعن جابر، عن النبيّ(ص) أنّه قال: أُعطيتُ خمساً، (وعدّ منها الشفاعة)[3].

وعن ابن عبّاس عن النبيّ(ص): أنا أوّل شافع وأوّل مشفّع في القيامة، ولا فخر[4].

وعن جابر عن النبيّ(ص): أنا أوّل شافع وأوّل مشفع. ونحوه عن أنس[5]، وأُبيّ بن كعب[6].

وعن جبير بن مطعم، عن عثمان بن عفّان، عن النبيّ(ص) أنّه قال: يُشَفَّعُ يوم القيامة ثلاثة (وعدّ منهم الأنبياء).

وعن أبي سعيد، عن النبي(ص) أنّ الشفاعة على مراتب الناس في القابليّة[7].

وعن عبد الله بن مالك عن أبيه، عن النبي(ص) أنّه: أتاني آتٍ من

---

(١) صحيح مسلم (كتاب الجنائز)، باب ١٩ (مَنْ صلّى عليه أربعون شفعوا فيه)، حديث ٥٩.
(٢) أيضاً، باب ١٨، حديث ٥٨.
(٣) صحيح مسلم (كتاب المساجد ومواضع الصلاة)، باب ٥، حديث ٣.
(٤) صحيح مسلم (كتاب الفضائل)، باب ٢ (تفضيل نبيّنا ـ ص ـ على جميع الخلق)، حديث ٢٢٧٨.
(٥) أيضاً، (كتاب الأيمان)، باب ٣٣٠.
(٦) سنن الدارمي (المقدّمة)، باب ٨.
(٧) سنن ابن ماجة، ج٢، ص١٤٤٣.

ربّي، فخيّرني بين أن يدخل نصف أُمّتي الجنّة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة.

وعن عبد الله بن أبي الجذعاء، عن النبيّ(ص): يدخل الجنّة بشفاعتي رجال من أمّتي، (رواه الترمذي والدارمي)[1].

وعن أنس قال: سألتُ النبيَّ(ص) أن يشفع لي يوم القيامة، فقال: أنا فاعل، قلتُ: فأين أطلبك؟ قال: أوّلاً على الصراط، قلت: فإن لم ألقك؟ قال: عند الميزان، قلت: فإن لم ألقك؟ قال: عند الحوض، فإنّي لا أخطىء هذه المواضع. (رواه الترمذي)[2].

وعن أبي سعيد الخدري، عن النبيّ(ص): إنَّ الله يقول بعد فراغ الشافعين من الشفاعة: شُفّعت الملائكة، وشُفّعَ النبيّون، وشُفّعَ المؤمنون، ولم يبقَ إلاّ أرحمُ الراحمين[3].

وعن أنس عن النبيّ(ص) أنّه يحبس[4] المؤمنون يوم القيامة، فيقولون: لو استشفعنا، فيأتون آدم، فيعتذر بخطيئته، ثمّ إبراهيم، فيعتذر بثلاث كذبات كذبهنّ، ثمّ موسى، فيعتذر بقتل النفس، ثمّ عيسى، فيقول: لست هناك، فيقول الله تعالى بعد أن أسجد له: إشفع تشفع، (الخبر، وهو طويل)[5].

وعن النبيّ(ص) أنّ مَلَكاً غُضِبَ عليه، فأُهبطَ من السماء، فجاء إلى إدريس فقال له: اشفع لي عند ربّك، فدعا له، فأُذن له في الصعود.

وفيه دلالةٌ على الشفاعة في الدنيا. وستجيء في باب «زيارة القبور»

---

(١) الترمذي، ج٤، ص٥٤١.
(٢) الترمذي، ج٤ (باب صفة القيامة)، ص٥٣٧.
(٣) الترمذي، ج٤، ص٥٤١.
(٤) في نسخة (ك): يجلس.
(٥) أيضاً، ص٥٣٧.

أخبارٌ كثيرةٌ عن النبيّ(ص) أنّه قال: «مَنْ زارني كنتُ له شفيعاً»[1].

وبيان الحال: أنّ الشفاعة إن كانت من قبيل الدعاء، فيرجع طلبها إلى التماس الدعاء من الأنبياء والأولياء، فتكون عبارة عن دعاء مخصوص لنجاة الغير، أو قضاء حاجته في أمور الدنيا والآخرة، فلا كلام ولا بحث في جواز طلبها من كلّ أحد فهي كما لو سألتَ إخوانك الدعاء. ويؤيّد ذلك أنّه لما سئل إدريس الشفاعة دعا.

ولا فرق بين الأحياء والأموات، فإنّا سنُبيّنُ ـ إن شاء الله ـ تواتر الأخبار في أنّ الأموات يسمعون وينطقون، لكنّ الناس لا يسمعون كلامهم. فالشفاعة بهذا المعنى لا غضاضة في طلبها؛ إذ لسنا في ذلك بمنزلة من قالوا: لا طاقة لنا بعبادة الله، ونحن نعبد الأصنام، وهم يوصلوننا إلى الله.

وإنْ أُريدَ بالشفاعة منصبٌ أعطاه الله لنبيّه وأوليائه، فيدفعون بالإذن العامّ عن الناس؛ بمعنى أنّ الله أذن إذناً عامّاً لنبيّه(ص) في إنقاذ بعض أهل العذاب من العذاب يوم يقوم الحساب؛ فبهذا المعنى تكون مخصوصةً في الآخرة.

ولا ريب أنّ المستشفع بالنبيّ، والأولياء في دار الدنيا، يريد المعنى الأوّل.

فليتَ شعري ما الذي يُنْكَرُ من طلب الشفاعة؟ أمن جهة خطاب الموتى فذلك لا يوجب كفراً ولا إشراكاً، لو كان خطأ، فكيف لو كان صواباً؟ أو من جهة إسناد الأمر إلى غير الله سبحانه وهذا أعجب من السابق؟ فإنّ الداعي والساعي في حاجة أحد إلى مولاه لا يرتفع عن درجة العبوديّة، ولاسيّما إذا لم يحدث شيئاً إلاّ عن إذنه.

ومن الأمور البديهيّة أنّ العبيد والخدّام القائمين بشرائط العبوديّة

---

(١) سنن البيهقي، ج٥، ص٢٤٥.

والخدمة مع الإذن يُشَفَّعونَ عند مواليهم في قضاء حوائج الناس، ولا يخرجهم ذلك عن العبوديّة والخدمة، بل هذا نوع من العبوديّة.

وفي أحاديث الشفاعة ما يدلّ على عموم الشفاعة في دفع المضار الدنيويّة والأخرويّة.

وقد نقل عن الصحابة بطرق معتبرة أنّهم كانوا يلجأون إلى قبر النبيّ(ص) ويندبونه في الاستسقاء، ورفع الشدائد والأغراض الدنيويّة.

روى البيهقي بطريق صحيح عن مالك الدار خازن عمر أنّه أصاب الناس قحط، فذهب رجل إلى قبر النبيّ(ص)، فقال: يا رسول الله، إستسق لأمّتك فقد هلكوا، فأتاه النبيّ في المنام، فقال له: قل لعمر: قد سُقوا[1].

وقد روي أنّ من رأى النبي في نومه فكأنّما رآه في يقظته؛ لأنّ الشيطان لا يتمثّل به[2].

وروى البيهقي بطريق صحيح أنّ رجلاً في أيّام عمر ـ رضي الله عنه ـ جاء إلى قبرالنبيّ(ص)، فقال: يا مُحمّد، إستسقِ لأمّتك[3].

وروى الطبراني وابن المقري أنّهم كانوا جياعاً، فجاءوا إلى قبر النبيّ(ص)، فقالوا: يا رسول الله، الجوع، فأشبعوا.

والغرض أنّ ذلك ظاهر بين الصحابة والسلف، لا يتناكرونه أبداً. وحيث كان لا يزيد على سؤال الدعاء، واتّضح في البحث الآتي أنّ الأنبياء والأولياء أحياء، لا يبقى كلام أصلاً.

---

(١) البيهقي، ج٣، ص٣٤٤.
(٢) صحيح مسلم (كتاب الرؤيا)، باب ١، حديث ١١.
(٣) البيهقي، ج٣، ص٣٥٠.

وأنا:

الخاتمة

فتشمل على أبواب

الباب الأول

في حياة الأموات بعد موتهم

وفيه فصول:

الفصل الأول

في حياة النبيّ(ص) بعد موته

وإنّه يسمع الكلام ويردّ الجواب، كما في حياته، غير أنّ الله حبس سمع الناس إلاّ قليلاً من الخواص، ولا بعد في ذلك بعد الإقرار بعموم قدرة الجبّار، فإنّ من أودع تلك النطفة روح الإنسان، قادر أن يودعها في أيّ محلّ كان.

ولا ينافي ذلك إطلاق اسم الموت عليه، وأنّ الحياة إنّما هي وقت البعث؛ لأنّ المراد أنّ عود تلك الأجسام على الحال السابق والكيفيّة السابقة، إنّما يكون في ذلك الوقت، وأنّ ظهور ذلك للناظرين، إنّما يكون في ذلك الحين، ولا بُدّ من أن تتلقّى ما ورد عن النبيّ الكريم، بأشدّ القبول والتسليم.

روي عن أُمّ سلمة (رضي الله عنها)، قالت: رأيتُ النبيّ(ص) والتراب على شيبته، فسألته، فقال: شهدتُ قتل الحسين(ع).

وعن ابن عبّاس أنّه رأى النبيّ(ص) في المنام، وفي يده قارورة، فقلت: وما هذه؟ فقال: هذا دم الحسين(ع)[1].

وقال المبارزي: نبيُّنا حيٌّ بعد وفاته.

وقال شيخ الشافعي[2]: نبيّنا حيٌّ بعد وفاته، فإنّه يستبشر بطاعات أمّته، ويحزن من معاصيهم، وتبلغه صلاة مَنْ يُصَلّي عليه.

وعن عليّ(ع) أنّ أعرابيّاً جاء إلى قبر النبيّ(ص)، فقال: يا رسول الله، استغفر لي، فنودي من داخل القبر ثلاث مرّات: قد غفر الله لك[3].

وروى أبو داود في مسنده، عن أبي هريرة، مرفوعاً عن النبيّ(ص)، قال: ما مِنْ أحدٍ يسلّم عليّ إلاّ ردّ الله روحي حتى أردّ عليه.

وذكره ابن قدامة من رواية أحمد أنّ النبيّ(ص) قال: ما مِنْ أحد يُسلّم عليّ عند قبري إلاّ ردّ الله عليّ روحي. وذكره بعض أكابر مشايخ البخاري.

وفي خبر النسائي وغيره، عن النبيّ(ص)، قال: إنّ لله ملائكة سيّاحين في الأرض، يبلغونني من أُمتي السلام.

فعلى هذا، لا فرق بين السلام من قرب، أو بعد.

وعن أبي هريرة عن النبيّ(ص) أنّه قال: مَنْ صلّى عليّ عند قبري سمعتُه[4].

---

(١) تاريخ ابن عساكر، ص٢٦٣.

(٢) عبد القاهر بن طاهر البغدادي الأسفراييني، ولد ونشأ ببغداد، ورحل إلى خراسان واستقرّ بنيسابور، ومات باسفرائين. له مؤلّفات كثيرة.

(٣) كنز العمّال، ج١، ص٥٠٦.

(٤) كنز العمّال، ص٤٨٨، (الباب السادس في الصلاة عليه وعلى آله)، حديث ٢١٩٧.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص) أنّه قال: مَنْ صلّى عليَّ عند قبري، وكّلَ الله به ملكاً يبلغني[1].

وروى ابن أوس مرفوعاً عن النبيّ(ص) أنّه قال: أكثروا عليّ من الصلاة يوم الجمعة، فإنّ صلاتكم معروضةٌ عليَّ، قالوا: أوَ كيفَ تعرض عليك وأنت رميم؟! فقال: إنَّ الله حرَّم على الأرض لحوم الأنبياء[2]. وهذا يعمّ الأنبياء صلّى الله عليهم.

وروى الحافظ عن النبيّ(ص) أنّه قال: علمي بعد مماتي كعلمي في حياتي[3].

وعن النبيّ(ص): إنَّ الله وكّلَ مَلَكاً يُسْمِعُني أقوالَ الخلائق، يقوم على قبري، فلا يُصلّي عليَّ أحدٌ إلاّ قال: يا مُحمّد، فلان بن فلان يُصلّي عليك، صلُّوا عليّ حيثما كنتم، فإنّ صلاتكم تبلغني.

وعن النبيّ(ص): إنَّ أعمالكم تُعْرَضُ عليّ[4].

والأخبار في ذلك أكثر من أن تحصى، وفيها دلالة على أنّه(ص) يُخاطَبُ في مماته كما يُخاطَبُ في حياته. بل يظهر من بعض الروايات[5] أنَّ كلامه يسمعه بعض الخواص.

أخرج أبو نعيم في «دلائل النبوّة»، عن سعيد بن المسيب، قال: لقد كنتُ في مسجد رسول الله(ص)، فما يأتي وقت صلاة إلاّ سمعتُ الأذان من القبر.

---

(١) كنز العمّال ج١، حديث ٢١٩٦.
(٢) أيضاً حديث ٢١٤١.
(٣) كنز العمّال، ج١، الباب السادس، حديث ٢٢٤٢.
(٤) صحيح مسلم (كتاب المساجد)، باب ٥٧؛ مسند أحمد بن حنبل، الكتاب الخامس.
(٥) في نسخة (ك): الأخبار.

وأخرج ابن سعد في «الطبقات»، عن سعيد بن المسيب، أنه كان يلازم المسجد أيّام الحرّة، فإذا جاء الصبح سمع أذاناً من القبر الشريف[1].

وأخرج زبير بن بكار[2] في أخبار المدينة، عن سعيد بن المسيب، قال: لم أزل أسمع الأذان والإقامة من قبر رسول الله أيّام الحَرّة، حتى عاد الناس.

وأخرج الدارمي في مسنده، عن مروان، عن سعيد بن عبد العزيز أنّه كان لا يعرف وقت الصلاة إلاّ بهمهمةٍ تخرج من القبر[3].

---

(١) الطبقات الكبرى، ج٥، ص١٣٢.

(٢) الزبير بن بكّار: من أهل المدينة، تُوفي سنة ٢٥٦هـ/ ٨٧٠م عن ٨٤ عاماً، له مؤلّفات في الأنساب والتاريخ.

(٣) سنن الدارمي، ج١، ص٥٦.

الفصل الثاني

في حياة سائر الشهداء والأنبياء

قد سبق أنّ الأرض لا تأكل لحومهم.

قال البيهقي في كتاب «الاعتقاد»[1]: إنّ الأنبياء بعدما قُبِضوا رُدَّتْ إليهم أرواحهم، فهم أحياءٌ كالشهداء[2].

وقال القرطبي في «التذكرة»[3]: الموت ليس عدماً محضاً، يدلّ على ذلك أنّ الشهداء أحياء، فالأنبياء أولى. وقد صحّ أنّ الأرض لا تأكل أجساد الأنبياء، وأنّ النبيّ(ص) اجتمع بالأنبياء ليلة الإسراء في بيت المقدس وفي السماء.

وقال الأستاذ أبو منصور عبد القاهر بن طاهر البغدادي شيخ الشافعي: إنّ الأنبياء لا تبلى أجسادهم، ولا تأكل الأرض منهم شيئاً، وقد التقى نبيُّنا مُحمّد(ص) مع إبراهيم، وموسى بن عمران.

وعن أنس، عن النبيّ(ص) أنّه مرّ بقتلى بدر فكلّمهم، فقال له أصحابه: كيف تُكلّم أجساداً لا أرواح فيها؟! فقال: لستُم أسمعَ منهم لكنّهم لا يتكلّمون.

---

(١) الاعتقاد والهداية إلى سبيل الرشاد، للحافظ البيهقي الشافعي، طبع بيروت، ١٩٨٨م.

(٢) في نسخة (ك): شهداء.

(٣) التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، لشمس الدين محمّد بن أحمد القرطبي، المُتوفى سنة ٦٧١هـ/ ١٢٧٣م، وهو مطبوع بالقاهرة سنة ١٩٨١م، ضمن جزأين.

وعن قتيبة وأبي الفضل، عن ابن عبّاس أنّ الحواريّين قالوا لعيسى: أحيي لنا يحيى بن زكريا، حتى ننظر إلى وجهه، فخرج معهم وأحياه، وإذا نصف شعر رأسه أبيض، وقد كان أسود، فسألوه، فقال: لمّا نوديت زعمتُ أنّها القيامة، ، فقال عيسى: أتريد أنْ أسأل الله أن يردّك إلى الدنيا؟ فقال: إنّ مرارة الموت لم تخرج من حلقي بعد.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص) أنّه مرّ بإبراهيم يُصلّي، وبموسى يُصلّي. وفي حديث المعراج أنّه مرّ بكثير من الأنبياء يصلّون.

وقال الحافظ شيخ السنّة أبو بكر البيهقي في «الإعتقاد»: إنّ الأنبياء تُردُّ إليهم أرواحُهم بعدما يقبضون، فهم أحياء عند ربّهم كالشهداء، وقد رأى النبيّ(ص) جماعة منهم، وصلّوا خلفه. وقد أخبر هو عن ذلك، وخبرُهُ صدق، وأنّ صلاتنا تُعرضُ عليه، وأنّ الأرض لا تأكل من لحمه.

وعن الشيخ عفيف الدين أنّ الأولياء من جملة خصائصهم رؤيا الأنبياء.

وقال الشيخ تقي الدين السبكي: إنّ حياة الأنبياء والشهداء في القبور كحياتهم في الدنيا، ويدلّ على ذلك صلاة موسى وجماعة من الأنبياء ليلة الإسراء مع النبيّ(ص).

وروى الثقات عن أنس مرفوعاً، عن النبيّ(ص): إنّ الأنبياء أحياءٌ في قبورهم.

وعن النبيّ(ص) أنّه قال: مررتُ بقبر موسى بن عمران فرأيتُهُ يُصلّي[1].

وقال الله تعالى في حقّ مَنْ قُتلوا في سبيل الله: ﴿أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ﴾[2]، إلى غير ذلك من الأخبار.

---

(١) تُراجع هذه الأحاديث في كنز العمّال، المجلّد الخامس، الفصل الثالث: في زيارة القبور.

(٢) سورة آل عمران، الآية: ١٦٩.

الفصل الثالث

في حياة سائر الموتى

روى ابن عبّاس مرفوعاً عن النبيّ(ص) أنّه قال: ما من أحدٍ يمرّ بقبر أخيه المؤمن فيسلّم عليه إلاّ عرفَهُ، وردَّ عليه السلام.

وفي رواية: ما من أحدٍ يمرّ بقبر رجلٍ يعرفه إلاّ عرَفَهُ، وردَّ عليه السلام[1].

ونقل أبو عبد الله البخاري أنّ الشهداء وسائر المؤمنين إذا زارهم المسلم، وسلّم عليهم عرفوه، وردّوا عليه السلام.

وروى الثعلبي في تفسيره، وابن المغازلي الواسطي في «المناقب»: أنّ النبيّ(ص)، وأصحابه لمّا حملهم البساط، وصَلَوا إلى موضع أهل الكهف، فقال: سلّموا عليهم، فسلّموا عليهم، ولم يردّوا، فسلّم النبيّ(ص) عليهم، فقالوا: وعليك السلام ورحمة الله[2].

وأخرج الشيخ ابن حيّان في كتاب «الوصايا»، عن قيس، قال: قال النبيّ(ص): من لم يوص، لم يُؤذَنْ له بالكلام مع الموتى، قيل: يا رسول الله، الموتى يتكلّمون؟! فقال: نعم، ويتزاورون.

---

(١) كنز العمّال، ج٥، ص٦٤٦.

(٢) ابن المغازلي، مناقب عليّ بن أبي طالب، ص٢٣٢ ـ ٢٣٤.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص) أنّه رأى جعفراً يطير في الجنّة.

ونقل أبو بكر محمّد بن عبد الله الشافعي أنّ عيسى لمّا دفن مريم، قال: السلام عليك يا أمّاه، فأجابته من جوف القبر: وعليك السلام حبيبي، وقرّة عيني، فقال لها: كيف وجدتِ طعم الموت؟ فقالت: والذي بعثك بالحقّ ما ذهبتْ مرارة الموت من حَلْقِي، ولا خشونته من لساني.

وروى الحاكم عن سالم بن أبي حفصة قال: توفّي أخٌ لي، فوضعتُهُ في القبر، وسوّيتُ عليه التراب، ثمّ وضعتُ أذني على لحده، فسمعتُ قائلاً يقول له: مَنْ ربُّكَ؟ فسمعتُ أخي يقول بصوت ضعيف: ربّي الله، فقال له: وما دينُك؟ فسمعتُ أخي يقول بصوتٍ ضعيف: ديني الإسلام، فسمعتُهُ يقول له: ومَنْ نبيُّك؟ فسمعتُهُ يقول بصوت ضعيف: مُحمّد نبيّي، فسمعتُهُ يقول له: نَمْ نومَ العروس، وسمعتُ المَلَكَ الآخر يقول له: أبشرْ برَوْحٍ وريحان، وربٍّ غير غضبان[1].

وروي في الأخبار، عن عمر بن الخطّاب أنّه قال: ما من ميّت يموت، يوضع على سريره، فَيُخْطَى ثلاثَ خُطوات، إلاّ ويُنادى بنداءٍ يسمعه ما شاء الله من الخلائق غير الثقلين، فيقول: يا إخوتاه، يا خدماه، يا حملة نعشاه، لا تغرّنكم الدنيا كما غرّتني، ولا يلعبنّ[2] بكم الزمان كما لعب بي، خلّفتُ ما جمعتُ لورثتي، ولم يحملوا من خطيئتي شيئاً، والديّان يحاسبني، وأنتم تشيّعون جنازتي، ثمّ تدعوني في لحدي.

وَزِيدَ في آخر: ثمّ تسلموني إلى منكر ونكير، وآندامتاه، وآندامتاه، وآندامتاه[3].

---

(١) كنز العمّال، ج١٥، ص٦٠٥.
(٢) في نسخة (ك): يلعب.
(٣) المصدر السابق، ج١، ص٥٩٦.

وعن الفقيه الزاهد إسماعيل بن الحسن، عن عمر بن الخطّاب أنّه دخل المقابر، فنادى: يا أهل المقابر، الأموال قد قُسِمتْ، والدور قد سُكنتْ، والأزواج قد نُكحتْ، فهذا خبر ما عندنا، فأخبرونا ما عندكم، قال: فهتف به هاتف، وهو ينادي ويقول: يا بنَ الخطّاب، وجدنا ما عملنا ربحاً، وما خلفنا خسراناً، والجبّار سألنا عن جميع ما فعلنا، ثمّ سكت.

وعن كعب، عن النبيّ(ص) أنّه قال: لا يمرُّ أحدٌ بالمقابر إلاّ وينادیه أهل القبور: يا غافلاً لو علمتَ بما نحن فيه لذاب لحمك وجسمك كما يذوب الثلج في النار[1].

وعن الضحّاك، عن ابن عبّاس، عن النبيّ(ص) أنّه قال: الموتى ينادون في كلّ يوم ثلاث مرّات من قبورهم: يا أهل الديار، عجّلوا عجّلوا، فإنّما نحن محبوسون من أجلكم، الرحيل الرحيل، لا تحبسوا إخوانكم، خرّبوا ما بنيتم، واتركوا ما جمعتم، نوّرتم البيوت، وأظلمتم القبور، وبنيتم البيوت، ونسيتم القبور، وعمرتم البيوت، وخربتم القبور، ووسّعتم البيوت، وضيّقتم القبور، (وذكروا غير ذلك)[2].

وعن أبي عبد الله محمّد بن عمر، يروي عن عمر، عن النبيّ(ص) أنّه قال ما من يوم يمضي إلاّ ومَلَكٌ يهتف: يا أهل القبور، مَنْ تغبطون اليوم؟ فيقولون: نغبط أهل المساجد، يصلُّون في مساجدهم، ويصومون ويصدّقون، ولا نقدر نصلّي ونصوم ونتصدّق.

وعن محمّد بن أبي عبد الله بن الفضل، عن محمّد بن كعب، قال: مرَّ عيسى(ع) على قبر، فرأى فيه عذاباً شديداً، فدعا الله حتى أحياه، فقال له عيسى: لِمَ تُعذَّب؟ قال: كنتُ جالساً في سوق مصر، وقد أكلتُ شيئاً،

---

(١) في نسخة (ك): «الملح بالماء».

(٢) كنز العمّال، ج١٥، ص٦٢٦.

فأخذتُ عُودةً من حزمة شوك لأُخلّل أسناني بها، ومتُّ منذ أربعة آلاف سنة وأنا في عذابها، ثمّ قال: يا روح الله، منذ أربعة آلاف سنة ومرارة الموت باقيةٌ في حَلْقي. فقال عيسى: اللّهمّ يسّرْ علينا سكرات الموت.

وعن وهب بن منبة أنّ عيسى مرّ على نهرٍ فيه ماء عذب، وحوله خابية[1]، كُلّما يوضع[2] فيها من ذلك الماء يصير مالحاً، فقال: إلهي، ما خبر هذا الماء المالح؟! فأذن الله للخابية بالكلام، فقالت: إنّي كنتُ آدمياً، فبقيتُ في قبري ثلاثمائة سنة، ثمّ جاء لبّانٌ، فشرب ترابي لِبْناً، وبنيت في قصر ثلاثمائة سنة، ثمّ خرب القصر، فبقيتُ تراباً مائتي سنة، ثمّ جاء شخص فجعلني جِبّاً، ووضعني سقايةً على شاطىء هذا النهر من مائة سنة، وكلّ ما يجعل فيّ يكون مالحاً، لما فيّ من مرارة نزع الروح، وأنا معذّبٌ منذ مِتُّ؛ لأنّي أخذت إبرةً من جاري، وما رددتُها حتى مِتُّ، فما أدري أنّ عذابي أشدّ أم مرارة الموت، فقال عيسى: اللّهُمّ يسّرْ عليّ الموت، ونجّني من عذاب القبر (الحديث). وقد ذكرنا من مضمونه محلّ الحاجة.

وعن عائشة، عن النبيّ(ص): إنّ أشدّ الأحوال على الميّت حين يدخل الغسّال داره ليغسّله[3]، فيخرج خواتم[4] الشبّان من أصابعهم، وينزع قميص العروس من بدنها، ويرفع عمائم المشايخ عن رؤوسهم. فعند ذلك يقول بصوتٍ يسمع الخلائق غير الثقلين: يا غسّال، بالله عليك انزع ثيابي برفق، فإني الساعة استرحتُ من مخاليب مَلَك الموت، فإذا صبّ عليه الماء صاح كذلك، فإذا رُفعَ عن المغتسل، وشدّ مواضع قدميه بالكفن، يقول: بالله

---

(١) الخابية: الجرّة الكبيرة المُتّخذة لحفظ الماء.

(٢) في نسخة (ك): يضع.

(٣) في نسخة (ك): لغسله.

(٤) في نسخة (ك): خواتيم.

عليك لا تشدّ رأس كفني ليرى وجهي أهلي وأولادي وعروسي التي كنتُ أُحبُّها، وينظرُ إلى وجهي[1] أقربائي، وأحبّائي، وإخواني، وجيراني، ورفقائي، فإنّ هذه آخر رؤياي.

فإذا خرج من الدار، نادى: بالله عليكم يا حملة نعشي، لا تُعَجِّلوا بي، حتى أُودِّعَ داري التي بنيتُها، وزيّنتُها، ونقشتُها بأنواع النقوش، وأهلي، ومالي، وأولادي، فإنّ هذا خروجٌ لا مردَّ بعده إلى يوم القيامة.

فإذا رُفعت الجنازة، نادى: يا حملَة نعشي، بالله عليكم لا تُعجِّلوا بي، حتى أسمع أصوات أولادي الذين يعولُونَ خلف جنازتي، وعروسي التي تبكي عليَّ، ووالدي الذي تقوَّس ظهره لموتي، ووالدتي التي شدَّتْ وسطها بالمنديل لمفارقتي، وقد نشرتْ شعرها، وضربتْ صدرها، وتقوَّس ظهرها، وابيضَّتْ عيناها لفقدي.

فإذا صُلّي على جنازته[2]، ورُفعَ من المصلّى، ورجع بعض أصدقائه، يقول: يا إخوتاه، كنتُ أعلمُ أنَّ الميّت ينساه الأحياء، لكن لا بهذه السرعة، رجعتم قبل أن تدفنوني، ونسيتموني بهذه السرعة، وجسمي بعد بين أظهركم.

فإذا وُضعَ في لحده، وَوُضعَ عليه التراب، يناديِ: وآورثتاه، تركتُ لكم الكثير، فلا تنسوني، تصدَّقوا عنّي على فقرائكم، ولو بكسرة خبز محترق، وعلّمتكم القرآن والأدب، فلا تنسوني من الدعاء، فإنّي صرت محتاجاً، كفقرائكم على أبوابكم، ومحتاجاً إلى دعائكم، كصاحب حاجتكم إلى ساداتكم[3].

---

(١) في نسخة (ك): وأنظر إلى وجه.

(٢) في نسخة (ك): الجنازة.

(٣) تُراجع هذه الأحاديث في الجزء الخامس عشر من كنز العمّال في الباب الأوّل (في ذكر الموت وفضائله)، حديث ٤٢٠٩٤ حتى حديث ٤٣٠١١ (من ص٥٤٨ حتى ص٧٥٨).

وممّا يدلّ على بقاء حياتهم في قبورهم، ما دلّ على أنّ الميّت بعدما يُسأل، يُفتح له بابٌ إلى الجنّة، إن كان من أهل الخير، أو إلى النار إنْ كان من أهل الشرّ، وبقاء اللذّة والألم ظاهرٌ في بقاء أثر الحياة.

وعن عبد الله بن عمر، قال: قال رسول الله(ص): إذا مات أحدكم، عرض عليه مقعده بالغدوة والعشيّ، إن خيراً فخير، وإن شرّاً فشرّ.

وعن أبي هريرة، عن النبيّ(ص): إنّ الميّتَ يُسأل في قبره عن النبيّ(ص)، فإن أجاب بالحقّ قيل له: نَمْ نومةَ العروس، وإلاّ فُتِحَ له بابٌ إلى قبره يكون معذّباً إلى يوم القيامة[1].

وعن البراء بن عازب، عن النبيّ(ص)، قال: يأتيه ملكان يجلسانه، ثمّ ذكر أنّهما يسألانه، فإن أجاب بحق، فُتح له بابٌ إلى الجنّة، فيأتيه من رَوْحها وطيبها، وإلاّ يُفتحُ له بابٌ إلى النار، فيأتيه من حرّها وَسَمُومِها. إلى غير ذلك من الأخبار الكثيرة الدالّة على أنّهم في قبورهم يتلذّذون ويتألّمون. وهذه من توابع الحياة ولوازمها.

وكيف كان، فقد بلغت هذه الأخبار فوق التواتر، وبعد عموم قدرة الفاعل المختار، لا بُعدَ ولا غرابة في مداليلها.

وما دلّ من الكتاب والسنّة على أنّ الإحياء يكون عند النفخ في الصُور، فقد بيّنا أنّ المراد: إمّا الحياة على النحو المعهود من تلك الأشخاص[2] الخاصّة بعينها، أو يُرادُ أنّهُ يوم البروز والظهور على عيون[3] الأشهاد.

وإذا تبيّنَ بهذه الأخبار المتواترة، أنّهم يسمعون ويعقلون ويعرفون مَنْ

---

(١) سنن الترمذي (كتاب الجنائز)، باب ٧٠ ـ ما جاء في عذاب القبر ـ ، حديث ١٠٧١.
(٢) في نسخة (ك): الاشكال.
(٣) في نسخة (ك): رؤوس.

يُخاطَبُهم، صحَّ لنا أنْ نخاطبهم مخاطبة الأحياء فنلتمس[1] دعاءهم، ونقسم عليهم بالأقسام في أنْ يكونوا شفعاء لنا في الدنيا وفي يوم القيامة؛ لأنَّ الشفاعة أظهر فرديها أنّها دعاءٌ خاص، واختصاص الخواص بها باعتبار قبولها.

فلو قال قائلٌ لنبيّ، أو وصيّ، أو عبدٍ صالح: اشفع لي، أو إدعُ لي، أو أغثني، أو أعنّي (أي بدعائك)، أو قال: اقضِ لي حاجتي، أو ارزقني مالاً، وادفع الضرر عنّي، ونحو ذلك، ولا يريد سوى التوسّط بالدعاء وسؤال الله، لم يكن عليه شيء.

وقد وقع كثيرٌ من ذلك في كلام الصحابة والتابعين، بل ربَّما كان هذا التعبير أولى، لدلالته على قرب منزلة العبد عند مولاه واحترامه، فتكون شهادة[2] له بنبوّته، وقرب منزلته.

وليس على مَنْ قال للعبد المقرّب، أو إلى الخادم المقرّب: اقضِ حاجتي، (بمعنى: اسعَ لي في قضائها عند مولاك)، بأسٌ، بل هو أنسب في التواضع إلى المولى.

وأمّا مَنْ قال مثل ذلك معتقداً أنَّ الأنبياء والأوصياء بأيديهم الأمر أصالةً، يفعلون ما يشاؤون، فعليه لعنة الله والملائكة والناس أجمعين.

وإنّي قد طفتُ بشطرٍ من بلاد المسلمين، وخالطتُ كثيراً منهم منذ سنين، فلم أرَ أحداً يعتقد أنَّ في الوجود فاعلاً مختاراً سوى الفاعل المختار العزيز الجبّار تبارك وتعالى، وذلك مراد العوام في خطاباتهم، فضلاً عن العلماء الأعلام، إلاّ أنّهم لا يمكنهم كشف الحال، وإن كان مقصدهم ذلك على الإجمال.

نسأل الله وإيّاكم طريق السداد والنجاة من أهوال يوم المعاد.

---

(١) في نسخة (ك): ونلتمس.

(٢) في نسخة (ك): الشهادة.

الباب الثاني

في الزيارات[1]

وفيه فصلان:

الفصل الأول

في زيارة قبر النبي(ص)[2]

روى الدارقطني في «السنن» وغيرها، والبيهقي، وغيرهما من طريق موسى بن هلال العبدي، عن عبد الله العمري، عن نافع، عن ابن عمر، قال: قال رسول الله(ص): مَن زار قبري وجبتْ له شفاعتي.

وعن نافع، عن سالم، عن ابن عمر مرفوعاً، عن النبيّ(ص) أنّه قال: مَنْ جاءني زائراً ليس له حاجة إلاّ زيارتي، كان حقّاً عليَّ أنْ أكون له شفيعاً يوم القيامة.

وعن ليث، ومجاهد، عن ابن عمر مرفوعاً عن النبيّ(ص): مَنْ حَجَّ وزار قبري بعد وفاتي، كان كمَن زارني في حياتي.

وروي عن عائشة أيضاً، وعن نافع، عن ابن عمر، عن النبيّ، قال: مَنْ زارني كنتُ له شهيداً أو شفيعاً.

---

(١) في نسخة (ك): في زيارة القبور.

(٢) في نسخة (ك): في زيارة النبيّ.

وعن نافع، عن ابن عمر، عن النبيّ(ص)، قال: مَنْ حجَّ فلم يزرني، فقد جفاني[1].

وعن أبي هريرة مرفوعاً، عن النبيّ(ص)، قال: مَنْ زارني بعد موتي، فكأنّما زارني حيّاً[2].

وعن أنس مرفوعاً، عن النبيّ(ص)، قال: مَنْ زارني في المدينة، كنتُ له شهيداً أو شفيعاً يوم القيامة[3].

وعن أنس مرفوعاً، عن النبيّ(ص)، قال: مَنْ زارني ميّتاً كمَنْ زارني حيّاً، ومَنْ زار قبري وجبتْ له شفاعتي يوم القيامة.

وعن ابن عباس، عن النبي(ص) قال: مَنْ زارني في مماتي، كان كمن زارني في حياتي، ومَنْ لم يزرني فقد جفاني.

وعن علي مرفوعاً، عن النبي(ص): مَنْ زار قبري بعد مماتي، فكأنما زارني في حياتي، ومَنْ لم يزرني فقد جفاني.

وعن ابن عبّاس، عن النبيّ(ص) قال: مَنْ حجَّ وقصدني في مسجدي، كانت له حجّتان مبرورتان.

وروى ابن عساكر، عن عليّ، قال: مَنْ زار قبر رسول الله(ص) كان في جوار رسول الله(ص).

وعن بكر بن عبد الله مرفوعاً، عن النبيّ(ص)، قال: مَنْ أتى المدينة زائراً لي، وجبتْ له الجنّة.

وعن كعب الأحبار أنّ عمر لمّا فتحَ بيت المقدس، قال لي: هل لك أنْ

---

(١) تُراجع هذه الأحاديث في سنن البيهقي، ج٥، (كتاب الحجّ)، باب زيارة قبر النبيّ(ص).
(٢) كنز العمّال، المجلّد الخامس (باب زيارة قبر النبيّ)، حديث ١٢٣٨٢.
(٣) كنز العمّال، المجلد ١٥ (باب زيارة قبر النبيّ ـ ص ـ، حديث ٤٢٥٨٤).

تسير معي إلى المدينة نزور قبر النبيّ(ص)؟ فذهبتُ معه، فلمّا دخل بدأ بالمسجد، وسلّمَ على النبيّ(ص).

وفي «الموطّأ» عن ابن عمر: كان يقف عند قبر النبيّ(ص)، فيُسَلّم عليه، وعلى أبي بكر، وعمر.

وسئل نافع: هل كان ابن عمر يسلّم على قبر النبيّ(ص)؟! فقال: رأيتُهُ مائة مرّة أو أكثر يُسلّم على النبيّ(ص)، وعلى أبي بكر، وعمر.

وعن ابن عمر: إنّ سُنَّةَ السلام منْ قبل القبلة.

ونقل الدارقطني، عن عليّ أنّه دخل المسجد فسلّم على القبر. ورُويَ عن آل الخطّاب، وعن بعض الحُفّاظ زيارة النبيّ(ص).

وكيف كان فالروايات في استحباب زيارته وشفاعته لزوّاره، داخلةٌ في قسم المتواتر، وعمل الصحابة[1]، والتابعين، وأهل البيت أجمعين على ذلك.

قال عياض: زيارة قبر رسول الله سُنَّة أجمعَ عليها المسلمون. وروى غيرُهُ إجماعَ المسلمين قولاً وفعلاً على استحباب زيارته، وصريحٌ بعضُها[2] أنّ شدَّ الرحال إليها لا مانع منه.

وفيما دلٌ على استحباب التعظيم، وأنّ حرمة الأموات كحرمة الأحياء، كفاية.

---

(١) في نسخة (ك): الأصحاب.

(٢) في نسخة (ك): «وصرّح بعضهم».

الفصل الثاني

في زيارة باقي[1] القبور

قد مرّ في الأخبار الماضية زيارة الصحابة قبري الشيخين.

وروى بريدة عن النبيّ(ص): إنّي نهيتكم عن زيارة القبور فزوروها[2].

ولعلّ السرّ ـ والله أعلم ـ أنّه في مبدأ الإسلام[3] كانت زيارة القبور وتذكار الموتى والقتال باعثاً على الجبن عن الجهاد، حتّى إذا قوي الإسلام أمرهم بها. ونحو ذلك في خبر آخر.

وعن أبي هريرة، أنّ النبيّ(ص) زار قبر أُمّه، ولم يستغفر لها، قال: أُمرتُ بالزيارة، ونهيتُ عن الاستغفار، فزوروا القبور، فإنّها تذكّر الموت[4].

وعن بريدة أنّ النبيّ(ص) كان إذا خرج إلى المقابر، قال: «السلام عليكم أهل الديار من المؤمنين والمسلمين»، رواه مسلم[5].

---

(١) في نسخة (ك): سائر.

(٢) صحيح مسلم، المجلّد الثاني (كتاب الجنائز)، باب ٣٦، حديث ١٠٦؛ سنن ابن ماجة (باب ما جاء في زيارة القبور)، باب ٤٧، حديث ١٥٧١.

(٣) في نسخة (ك): والله أعلم أنّه كان في ابتداء الإسلام لأنّه.

(٤) صحيح مسلم، باب استئذان النبيّ(ص) ربّه في زيارة قبر أمّه، حديث ١٠٨.

(٥) المصدر السابق، باب ما يقال عند دخول القبور، حديث ١٠٤.

وعن عائشة[1] أنَّ النبيّ(ص) كان يخرج إلى البقيع آخر الليل، فيقول: السلام عليكم (الخبر)، رواه مسلم[2].

وكيف كان، فالأخبار متظافرة على زيارة القبور، ولا حاجة لنقل[3] جميعها. وفيما ورد من أنَّ حرمة المسلم ميتاً كحرمته حيّاً دلالة على ذلك، وزيارة النبيّ(ص)، والصحابة لقبور الشهداء أوضح من الشمس في رابعة النهار.

---

(١) في نسخة (ك): ابن عباس.
(٢) أيضاً، حديث ١٠٢.
(٣) في نسخة (ك): إلى نقل.

الباب الثالث

في التبرك بالقبور ونحوها

اختلف العلماء من أهل السنّة والجماعة في جواز التبرّك بالقبور؛ فمنهم: من أجازه على كراهة[1]:

قال النووي: لا يجوز أنْ يُطافَ بقبر النبيّ(ص)، ويكره إلصاق البطن والظهر به. وقال: يكره مسّهُ باليد وتقبيله، بل الأدب أن يبعد عنه، كما لو حضر في حياته.

وكلامه ظاهرٌ في أنَّ المسّ أبعد من التعظيم، وشبهة العبوديّة.

وذكر ابن عساكر في «تُحَفِهِ»[2]، عن ابن عمر أنّه كان يكرهُ مسَّ قبر النبيّ(ص).

ويظهر من بعضهم نَدْبَه واستحبابه:

نقل عبد الله بن أحمد بن حنبل في كتاب «العلل والسؤالات»، قال: سألتُ أبي عن الرجل يمسّ منبر رسول الله(ص)، يتبرّك بمسّه وتقبيله، ويفعل بالقبر ذلك رجاء ثواب الله تعالى، فقال: لا بأس به..

---

(١) في نسخة (ك): الكراهة.

(٢) في نسخة (ك): التحفة.

وعن إسماعيل أنّ ابن المنكدر[1] يصيبه الصمّات، فكان يقوم ويضع خدّهُ على قبر النبيّ(ص)، فعُوتبَ في ذلك، فقال: يستشفى بقبر النبيّ(ص). والاستشفاء أعظم من التبرّك.

ونقل عن ابن أبي الضيف، والمحبّ الطبري، جواز تقبيل قبور الصالحين، وظاهره الندب.

وفي رواية عن ابن حنبل: إني لا أعرف التمسّح بالقبر، أمّا المنبر فنعم، لما روي أنّ ابن عمر كان يفعله.

ونقل عن مالك التبرّك بالمنبر.

وروي عن يحيى بن سعيد شيخ مالك أنّه حينما أراد الخروج إلى العراق، جاء إلى المنبر، وتمسّح به.

وقال السبكي: مَنْعُ التمسّح بالقبر ليس ممّا قام الإجماع عليه، واستدلّ بما رواه يحيى بن الحسن، عن عمر بن خالد، عن أبي نباته، عن كُثير ابن يزيد، عن المطلب بن عبد الله، قال: أقبل مروان بن الحكم، فإذا رجلٌ ملتزم القبر، فأخذ مروان برقبته وقال: ما تصنع؟! فقال: إنّي لم آتِ الحجر ولا اللبن، إنّما جئتُ رسول الله. وذكر رواية أحمد، قال: وكان الرجل أبا أيّوب الأنصاري.

ونقلَ هذه الرواية أحمد، وزاد فيها: إنّه قال: سمعتُ رسول الله يقول: لا تبكوا على الدين إذا ولّوه أهله، ولكن أبكوا عليه إذا وليه غير أهله.

وعن أبي الدرداء أنّ بلالاً رأى النبيّ(ص) في المنام، فقال له: ما هذه الجفوة يا بلال، أمَا لَكَ أن تزورني؟! فانتبه حزيناً خائفاً، فركب راحلته،

---

(١) محمّد بن المنكدر القرشي التيمي، أحد الأئمة التابعين، تُوفي سنة ١٣٠هـ/ ٧٤٨م.

وقصد المدينة، فأتى قبر النبيّ(ص) فجعل يبكي عنده، ويمرّغ وجهه عليه، إلى أنْ ذكر حضور الحسنين وبكاء أهل المدينة، وأذان بلال، قال: فما رُئي أكثر باكياً ولا باكية بعد رسول الله(ص) من ذلك اليوم.

وذكر ابن جملة أنّ بلالاً وضع خدّيه على القبر، وأنّ ابن عمر كان يضع يده اليمنى عليه.

ونُقلَ عن مالك، والزعفراني تحريمه، وهو الظاهر من كلام أنس ابن مالك؛ حيث قال: ما كنّا نعرفه.

وكيف كان، كيف يدَّعي المسَّ والتبرّك عبادة مع أنّهما أبعد عن التعظيم؟ وقضيّة الذمّ على عبادة يعقوق ويغوث ونسر، ليس من جهة التبرّك، كما نصَّ عليه المُفَسّرون[1]؛ حيث قالوا: تبرّكت الآباء فانتهى الأمر إلى عبادة الأنبياء، فوقع الذمّ على الأبناء.

وتحقيق الحال، أنّ التقبيل يقع على أنحاء:

منها: تقبيل المحبّة؛ لأنّ مَنْ أحبَّ شخصاً أحبَّ مكانه، وثيابه، وداره، ومزاره، فلا يكون تقبيل الأعتاب، والجدران، والأبواب إلاّ كتقبيل بعض ثياب الأحباب، فهو من قبيل قوله:ـ

أمرُّ على الديارِ، ديارِ ليلى ... أُقبّلُ ذا الجدارَ وذا الجدارا
وما حُبُّ الديار شغفنَ قلبي ... ولكنْ حُبُّ مَنْ سكنَ الديارا

وسُئلَ رسول الله(ص) عن تقبيل اليد، فنهى عن ذلك، إلاّ في تقبيل يد الزوجة للشهوة، ويد الولد للمحبّة.

وعن عليّ(ع) أنّه قال: قال رسول الله(ص) بعد فتح خيبر: لولا أنْ تقول فيك طوائف من أمّتي ما قالت النصارى في عيسى بن مريم، لقلتُ اليوم

---

(١) في تفسير الآية (٢٣) من سورة نوح.

فيك مقالاً، لا تمرّ على ملأ من المسلمين إلاّ أخذوا من تراب رجليك، وفضل ظهورك يستشفون به، ولكن حسبك أنّكَ منّي وأنا منك[1].

وروي عن علي(ع) أنّه قال: قدم علينا أعرابيٌّ بعد دفن النبي بثلاثة أيّام، فرمى بنفسه على القبر، وَحَثَا من ترابه على رأسه.

وعلى كلّ حال، فالذي يظهر بعد تحقيق النظر أنّ التقبيل للمحبّة من قبيل تقبيل الوالد لولده[2]، والأرحام بعضهم لبعض، فلو قبّلَ بعضهم جدران بعض، أو ثياب بعض، أو مكان بعض، حبّاً وإرادة، لا تعظيماً ولا عبادةً، فليس فيه بأس.

وأمّا قصد التعظيم والإكرام، فليس فيه خروجٌ عن ملّة الإسلام، قصارى ما هناك إنّه عدّهُ بعض العلماء من الآثام، فليس على الفاعل عن دليل في الردّ عليه من سبيل. وأمّا من فعل مشرّعاً فهو عاصٍ لربّه، حتّى يتوب عن ذنبه.

ولقد نقل عن بعض أمراء دار السلام (بغداد) أنّه وشى بعض الوشاة على جماعة أنّهم يُقَبّلُون أعتاب الأولياء، فقال: سبحان الله، في كلّ يوم تقبّلون جلد الميتة (يعني الفروة التي هو لابسها)، ولا تقبّلُون أعتاب أبواب الأولياء.

وعلى أيّ تقدير، فالغرض إنّما هو نفي التكفير. ونسبة فعل هؤلاء إلى فعل عبدة الأصنام خروجٌ عن الإنصاف في هذا المقام؛ لأنّ الذاهبين إلى الجواز منّا إنّما أخذوا عن الدليل، لا لمجرّد الاختراع والابتداع، فإن اشتبهوا عُذِروا وأُجِروا.

---

(١) نهج البلاغة، ج٢، ص٤٤٩.

(٢) في نسخة (ك): «الوالدة لولدها».

فمن قبّلَ الحجرَ الأسود، والركنَ اليمانيَّ، أو باقي الأركان، أو مسّها، أو لزم المستجار، فقد تبرّك بتلك الأحجار؛ لأنّها بأمرٍ من العزيز الجبّار، ولو أخطأ الأمر، كان مثاباً.

ومن طاف بين المروتين، عملاً بالكتاب وسنّة سيّد الثقلين، لم يكن عليه مؤاخذة في البين.

وطوائف المسلمين بأجمعهم لا يتبرّك منهم أحدٌ بقبر أو غيره، إلاّ بزعم أنّه مأمورٌ من الله، ومَنْ تبرّكَ قاصداً للعبادة، فهو خارجٌ عن ربقة المسلمين.

ومن البيّن المعلوم أنّه لو أمر المولى عبده بالتبرّك بثياب عبده المقرّب، أو مكانه، أو قبره، فامتثل، كان مطيعاً لمولاه، لا للعبد الذي قرّبه وأدناه.

فأقسمتُ عليك بمَنْ جمعَ بيننا في كلمة الإسلام، وألّفَ بين قلوبنا في هذه الأيّام، أنْ تنفرد عن الأصحاب إذا ورد عليك الكتاب، وترى نفسك كأنّك الآن خلقت من تراب، وتبذل الجهد في تمييز الخطأ من الصواب، فإنّه ـ والله ـ[1] لا حاجة بنا إلاّ إليه، ولا اعتماد لنا إلاّ عليه.

وليس لنا مع الأنبياء والأولياءقرابة نسب، ولا لهم علينا ما نخاف منه الطلب، وإنّما عظّمناهم لأمر الله، وأخذنا بأقوالهم عملاً بقول رسول الله، وما أُبرّىء نفسي، إنّ النفس لأمّارةٌ بالسوء إلاّ ما رحم ربّي.

وكشف الحال على وجه يدفع ما قيل أو يقال: إنّ التواضع والتبرّك والإكرام والإحترام لما هو مُعظَّم عند الملك العلاّم من تعظيم الله، كما أنّ قرآنه، وبيته، ومساجده لانتسابها إليه، احترامٌ له تبارك وتعالى. فمن عظّمَ عيسى ومريم وعزيراً لعبوديّتهم، وقرب منزلتهم، فهو معظّم لله.

---

(١) في نسخة (ك): «فأنا وأنتَ».

كما أنّ من عظّم بيت السلطان وعبيده وغلمانه وأتباعه من حيث التبعيّة، يكون معظّماً للسلطان. وأمّا من وجدها قابلة للتعظيم، وأهلاً له من حيث ذاتُها لا لأجل العبوديّة والتابعيّة، وإنْ كان غرضُهُ التقريب زلفى، إنّما يكون معظّماً لها، لا للسلطان.

وإنّي منذ ثلاثين حجّة أنظرُ في حال طوائف المسلمين، محقّيهم ومبطليهم، فلم أجد أحداً يعظّم كتاباً، أو نبيّاً، أو مكاناً، أو عبداً صالحاً من غير قصد قربة من الله، أو انتسابه إليه، فقد ظهر أنّ هذا كلّه من باب طاعة الله وتعظيمه.

وأمّا عبدة الأصنام والعباد الصالحين، فإنّما أرادوا عبادتهم حقّ العبادة، كأنْ يُصلّوا لهم، ويصوموا، ويكون ذلك لاستحقاقهم بربوبيّتهم في أنفسهم، أو للتقريب زلفى، فهي عبادة حقيقيّة على الوجهين.

وعلى كلٍّ من الإحتمالين على أنّي ذكرتُ مكرّراً أنّهم عاندوا الرسل، وكذّبوهم، واستهزأوا بهم، وقالوا أيضاً: لا طاقة لنا بعبادة الله، وإنّما نعبد الأصنام لأنّ عبادتهم مقدورة لنا، وهم يقرّبونا إلى الله زلفى، ولقد نقلتُ روايةً مشتملةً على ذلك المعنى في مقام آخر. فالفرق بين الأمرين أوضح ممّا يُرى رأي العين.

فبحقّ مَنْ شقّ لك السمع والبصر، وسلّطكَ على طوائف من الأعراب والحضر، أنْ تُوجّهَ ذهنكَ الوقّاد، وفكرك النقّاد، صافياً عن ملاحظة العصبيّة والعناد، وتجعل مناظرتنا كأنّها حين حلولنا في المقابر، وانصرافنا عن مرارة الدنيا، طالبين للنعيم الفاخر، وحضورنا يوم فصل القضاء بين يدي جبّار الأرض والسماء، وكأنّ الملائكة بيننا شهود، وقد حضرنا في اليوم الموعود، وقد فارقنا الأموال والأولاد، وانقطعنا إلى ربّ العباد.

اللّهُمّ اجمعْ بيننا بالحقّ، وأعصمنا عن الميل إلى رضا الخَلْق.

الباب الرابع

في بناء قبور الأنبياء والأولياء
وتعميرها وتعلية بنائها وتشييد أركانها

لا يخفى على مَنْ أمعنَ النظر، وتتبَّع الآثار والسير، أنَّ الأزمنة مختلفة الأحوال بالنسبة إلى جميع الأقوال والأفعال، فرُبَّ شيءٍ كان في قديم الزمان[1] في أعلى مراتب الاستحسان، فانعكس وصار أدنى ما يكون أو كان.

وحيث أنَّ الشارع حكيم، وبالعباد رحيم، يراعي[2] أحوالهم، ففي مبدأ الإسلام لمّا كان المعاش ضيّقاً، والأسعار متصاعدة في المآكل والملابس، حافظ النبيّ(ص)، والصحابة في أيّامهم على المآكل الجشبة، والملابس الخشنة الخَلِقَة، لئلا تنكسر قلوب الفقراء، ولتطيب نفوسهم، فإنّهم إذا رأوا سيّد الجميع لابساً رثَّ اللباس، وآكلاً أدنى المأكول، استقرّت نفوسهم، واطمأنّت قلوبهم، وارتفعت كدورتهم.

ثمّ لمّا توسّعت أحوال الناس، وقوي الإسلام، ورخصت الأسعار،

---

(١) في نسخة (ك): الأزمان.

(٢) في نسخة (ك): يرعى.

استعمل الأكثر من الخلفاء أحسن الملبوس، وأكلوا أطيب المأكول، وهذا التعليل مستفاد من الأخبار أيضاً.

وكذلك نقول في أمر بناء المساجد والحَضْرَات، فإنّهم كانوا لا يرفعون البناء، ولا يزينون الدور، لما بهم من القصور، فإذا كانت بيوت الله، وبيوت أنبيائه لم يرفع بناؤها طابت نفوس الفقراء، واطمأنّتْ قلوبهم.

أمّا في مثل هذه الأيّام ونحوها؛ حيث ارتفع بناءُ الدور، فلا وجه لجعل بيوت الله أخفض منها، ومَنْ يرضى بتعلية بيوت الخلق على بيوت الخالق؟ مع أنّ في تعليتها تعظيماً لشعائر الله، وهي البيوت التي أذن الله أن ترفع، ويُذكر فيها اسمه.

والقباب منها؛ لأنّها جُعلتْ للعبادة، وليس في بناء القباب تجديد قبر؛ لأنّ القبر باقٍ على حاله لم يجدّد، وإنّما وضع أساس القبّة بعيداً عنه، ليكون فيها علامة على المزار الذي نَدَب إلى زيارته العزيزُ الجبّار، ولتكون ظلالاً للزائرين، فلا تدخل في باب التجديد أصلاً، وكذا صندوق الخشب، فإنّه أجنبيٌ عن القبر لا دخل له به.

وعلى كُلّ حال، فأصل وضع البناء لهذه المقاصد الجليلة[1] ليس فيه بأس أصلاً، ولو تُركت العلامات ما أمكن التوصّل إلى زيارة أكثر الأموات إلا نادراً لاندراس آثارهم، فوُضعَ هذا للتمكّن من إدراك فضيلة زيارة القبور، وكلّما كان الشاهد أحكم، كانت دلالتُهُ على المَشْعَر أدوم.

وأمّا قضيّة الزينة، فقد رُويَ عن عليّ أنّ بعض الصحابة أشاروا[2] على عمر أنْ يأخذ زينة الكعبة ليقوّي بها جيوش المسلمين، فقال له عليّ: إنّ

---

(١) في نسخة (ك): لبقاء آثارهم.

(٢) في نسخة (ك): أشار.

الأموال قسّمها النبيّ(ص) على الفقراء، وكانت في ذلك اليوم الحليّ موجودة ولم يقسّمها، فلا تخالف وضع رسول الله(ص)، فقال عمر ـ (رضي الله عنه): «لولاك لافتضحنا»، وأبقى الحليّ على حالها.

والأصل في بناء القباب وتعميرها، ما رواه البناني (واعظ أهل الحجاز) عن جعفر بن محمّد، عن أبيه، عن جدّه الحسين، عن أبيه عليّ أنّ رسول الله(ص) قال له: والله لتقتلنّ في أرض العراق، وتدفن بها. فقلت: يا رسول الله، ما لمن زار قبورنا وعمّرها وتعاهدها؟ فقال لي: يا أبا الحسن، إنّ الله جعل قبرك وقبر ولديك بقاعاً من بقاع الجنّة، وإنّ الله جعل قلوب نجباء من خلقه، وصفوة من عباده تحنُّ إليكم، ويعمرون قبوركم، ويكثرون زيارتها، تقرّباً إلى الله تعالى، ومودّةً منهم لرسوله. يا عليّ، مَنْ عمّرَ قبوركم وتعاهدها، فكأنّما أعان سليمان بن داود على بناء بيت المقدس. ومن زار قبوركم عدل ذلك ثواب سبعين حجّة بعد حجّة الإسلام، وخرج من ذنوبه كيوم ولدته أمّه.

ونُقِلَ نحو ذلك أيضاً في حديثين معتبرين؛ نقل أحدهما الوزير السعيد بسند، وثانيهما بسندٍ آخر غير ذلك السند، ورواه أيضاً محمّد بن عليّ ابن الفضل[1].

فبعد دلالة هذه الأخبار على تعمير القباب، واستمرار طريقة الأصحاب، مع أنّها داخلة في المواضع المعدّة للطاعات، كالمساجد والمدارس، والرباطات، مع أنّ فيها تعظيماً لشعائر الإسلام، وإرغاماً لمنكري دين النبيّ عليه الصلاة والسلام.

وبعد أن بيّنا أنّ الحكم والمصالح تختلف باختلاف الأوقات، وذكرنا

---

(١) المجلسي، بحار الأنوار، ج٩٧، ص١٢١.

اعتضاد ذلك بالروايات، لم يبق بحث من جميع الجهات.

وعلى تقدير ثبوت الخطأ في هذا الباب، لا يلزم على المخطىء تكفير ولا عصيان، بل ربّما يثاب؛ لأنّ الخالي من التقصير، وإن اتّصف بالقصور معذور كلّ العذر، بل هو مأجور.

فيا أخي، لا تعارض المسلمين فيما هم عليه، إنْ لم تركن إلى ما ركنوا إليه، واحملهم على المحامل الحسان، فإنّا هكذا أُمرنا بحمل الإخوان. وفّقنا الله وإيّاكم، وهدانا وهداكم، والله وليّ التوفيق.

وحيث انتهى ما أردنا ذكره، وأحببنا رسمه وسطره، على غاية من السرعة والاستعجال، وعدم التمكّن لاستيفاء[1] كثير ممّا يناسب هذا المجال، والاستقصاء لا في كتب الأخبار والاستدلال، أحببنا أن نضيف إلى ذلك:

---

(١) في نسخة (ك): من استيفاء.

كشفُ الجواب
عما تضمنه خصوص ذلك الكتاب

من الإنكار على أكثر المسلمين في جميع الأقطار.

فنقول: أمّا ما ذكرتَ من الإنكار على كثير من الناس الاستغاثة بغير الله ودعوة غير الله فإنْ أُريدَ بدعوة غير الله والاستغاثة إسناد الأمر إلى المخلوق على أنّه الفاعل المختار الذي تنتهي إليه المنافع والمضار، فذلك من أقوال الكفّار. والمسلمون بجملتهم براءٌ من هذه المقالة ومن قائلها. وما أظنّ أنّ أحداً ممّن في بلاد المسلمين[1] يرى هذا الرأي، ولا سمعناه من أحد إلى يومنا هذا.

وإن أُريد أنّ المدعوّ والمستغاث به له اختيار وتصرّفٌ في أمر الله تعالى، فيحكم على الله، فهذا أشدّ كفراً من الأوّل.

وإنْ أُريدَ دعاؤه والإستغاثة به للدعاء والشفاعة، أو من التصرّف في العبارة، كما تقول: «يا رحمة الله، يا بيت الله، ويا عبد الله»، ولا تريد إلاّ نداء الله ودعاءه، واستغاثته، فهذا من أعظم الطاعات، وفيه محافظة على الآداب من كلّ الجهات.

وكون الدعاء عبادة إنّما يجري في قسم منه؛ وهو الطالب من الخالق

---

(١) في نسخة (ك): الإسلام.

المدبّر الذي جلّ شأنُهُ عن الأشباه والنظائر. ولو جعلت كلّ دعاء عبادة، للزم أنّ دعاء زيد لإصلاح بعض الأمور، أو دفع بعض المحذور، وطلب الأفعال، كلّها من قبيل الكفر.

فالسُؤال، والأزواج، والعبيد، والخُدّام في طلب المآكل والملابس مربوبون، ومقابلوهم أرباب، فيكون ذلك مكفراً. وإن أقررت[1] بالتخصيص خصَّصناه بما ذكرناه.

وبيانُهُ: إنَّ لفظ «الدعاء» لا يُرادُ به المعنى اللغوي، وإلاّ لكفر جميع الخلق، فالمراد دعاء العبوديّة والمربوبيّة، كمن دعا الأصنام أو الصالحين، مع اعتقاد ربوبيّتهم، وقصدَ عبوديّتهم، مكتفين بها عن عبادة الله، أو مشركين أولئك مع الله لقصد وصول النفع إليهم منهم، وليقربوا إلى الله زُلفى.

وأمّا ما ذكرتَهُ من (النذر لغير الله، والذبح لغير الله)، وهذا أيضاً إنْ أُريدَ أنّهم يذبحون مُهِلّينَ باسم غير الله، أو ينذرون تعبّداً لغير الله. فذلك لم يصدر من أحد من المسلمين، وكلّ من فعل ذلك، فهم منه براء، سواء كان ذلك عبادةً لغير الله، أو كان لأجل أن يقرّب إلى الله.

وأمّا لو كان من باب إهداء ثواب المذبوح والمنحور والمنذور إلى أولياء الله وعباده الصالحين، فهو من أعظم الطاعات، وأفضل القربات، وقد بيّنا ذلك في بعض المقامات.

وأمّا ما ذكرتَهُ من قولك: إنّ ذلك حقيقة دين المشركين أعداء رسل ربّ العالمين، كقوم نوح وعاد وثمود، وقوم إبراهيم، فأخبر الله عنهم بذلك في كتابه المبين؛ حيث يقول، وهو أصدق القائلين: ﴿وَيَعْبُدُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ مَا

---

(١) في نسخة (ك): أفرده.

﴿لَا يَضُرُّهُمْ وَلَا يَنفَعُهُمْ وَيَقُولُونَ هَٰؤُلَاءِ شُفَعَاؤُنَا عِندَ اللَّهِ﴾[1]، فأخبر الله أنهم ما عبدوهم إلا ليقربوهم إلى الله زلفى، وقال سبحانه وتعالى: ﴿مَا نَعْبُدُهُمْ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَا إِلَى اللَّهِ زُلْفَىٰ﴾[2].

فتأمل كيف أخبر الله سبحانه عنهم أنهم ما قصدوا بعبادتهم غير الله إلاَّ التقرّب إلى الله والشفاعة عنده، وإلاَّ فهم مُقِرُّون أنَّ الله هو المُدَبِّر لأمر هذا العالم العلوي والسفلي، كما أخبر الله عنهم أنهم أقرّوا بذلك، قال الله تعالى: ﴿قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ أَمَّن يَمْلِكُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَمَن يُخْرِجُ الْحَيَّ مِنَ الْمَيِّتِ وَيُخْرِجُ الْمَيِّتَ مِنَ الْحَيِّ وَمَن يُدَبِّرُ الْأَمْرَ فَسَيَقُولُونَ اللَّهُ فَقُلْ أَفَلَا تَتَّقُونَ﴾[3].

أقول: إنَّ لكُلِّ حقّ حقيقة، وعلى كلّ[4] صواب نوراً، إنَّ عبدة غير الله قد اتّخذوا آلهة دون[5] الله تعالى أو مع الله، وجعلوهم[6] أنداداً وأمثالاً لله. قال الله تعالى: ﴿أَتَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ مَا لَا يَمْلِكُ لَكُمْ ضَرًّا وَلَا نَفْعًا﴾[7]، وقال: ﴿فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا﴾[8]، وقال: ﴿وَجَعَلُوا لِلَّهِ شُرَكَاءَ الْجِنَّ﴾[9]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ﴾[10]، وقال: ﴿يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ أَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ اتَّخِذُونِي وَأُمِّيَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ اللَّهِ﴾[11]، وقال:

---

(١) سورة يونس، الآية: ١٨.
(٢) سورة الزمر، الآية: ٣.
(٣) سورة يونس، الآية: ٣١.
(٤) في نسخة (ك): ولكلّ.
(٥) في نسخة (ك): غير.
(٦) في نسخة الأصل: وجعلوا لهم.
(٧) سورة المائدة، الآية: ٧٦.
(٨) سورة البقرة، الآية: ٢٢.
(٩) سورة الأنعام، الآية: ١٠٠.
(١٠) سورة المائدة، الآية: ٧٣.
(١١) سورة المائدة، الآية: ١١٦.

﴿أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ ءَالِهَةً أُخْرَىٰ﴾[1]، وقال: ﴿لَّقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوٓا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ﴾[2].

ثمّ المذمّة لم تكن على اعتقاد الشفاعة، أو التقرّب زلفى، بل على العبادة بهذا القصد، والمراد بالعبادة أعمال خاصّة كما بيّناه.

وقولك: «إنّ ذلك حقيقة دين المشركين، كقوم نوح وعاد وثمود». كيف ذلك؟ وقد أخبرَ الله عليهم بقوله: ﴿أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَبَؤُا الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ قَوْمِ نُوحٍ وَعَادٍ وَثَمُودَ﴾ إلى قوله: ﴿فَرَدُّوٓا أَيْدِيَهُمْ فِيٓ أَفْوَٰهِهِمْ وَقَالُوٓا إِنَّا كَفَرْنَا بِمَآ أُرْسِلْتُم بِهِۦ﴾[3]، وأخبر عن قوم عاد أنهم قالوا لهود: ﴿وَمَا نَحْنُ بِتَارِكِىٓ ءَالِهَتِنَا عَن قَوْلِكَ﴾[4]، وعن قوم صالح أنهم قالوا له: ﴿أَتَنْهَىٰنَآ أَن نَّعْبُدَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَا﴾[5]، وعن قوم شعيب أنهم قالوا له: ﴿أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ﴾[6]، وعن قوم إبراهيم أنهم كذّبوا الرسل.

فهؤلاء الطوائف بصريح القرآن كذّبوا الرسل، وردّوا قولهم، وعاندوهم، فلو كانوا مقرّين لكانوا كفّاراً لكفر العناد[7] ككفر إبليس.

فيا أخي، أقسمتُ عليك بمَنْ خَلَقَنا من تراب، ثمّ أودعنا الأصلاب أن تترك الجدال، وتتأمّل في حقيقة الحال. كيف تُشَبِّهُ أعمال المسلمين بأعمال عَبَدة الأصنام وغيرها مع أنهم أنكروا نبوّة الأنبياء، وردُّوا عليهم بعد أن

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١٩.
(٢) سورة المائدة، الآية: ١٧.
(٣) سورة إبراهيم، الآية: ٩.
(٤) سورة هود، الآية: ٥٣.
(٥) سورة هود، الآية: ٦٢.
(٦) سورة هود، الآية: ٨٧.
(٧) في نسخة (ك): العباد. والصواب ما أثبتناه في المتن.

أمروهم، ولم يسمعوا لهم قولاً، ولا قبلوا لهم فعلاً؟!.

ثمّ إنّهم عبدوا طواغيتهم بالعبادة الحقيقية، لاعتقاد أنَّ لهم تصرّفاً في الأكوان، أو في إرضاء الملك الديّان، وإلاّ لم يذمّهم الرحمان، ولا أنكر عليهم كلّ فعل كان.

ثمّ تعلّلوا بأنّا لا نقدر على عبادة الله سبحانه، فنعبدهم ونكتفي بعبادتهم وهم يقرّبونا، كما أوردنا بذلك بعض الروايات في بعض المقامات.

وعلى كلّ حال، لا يتأمّل مسلم في أنَّ العبادة الحقيقيّة من الصلاة والصيام وغيرهما[1] لا تكون لغير الله، فإن كان التصدّق عن الأولياء والذبح لهم والنذر لهم عبادة، فنحن عبيد آبائنا وأمّهاتنا وأمواتنا الذين نتصدّق عنهم، أو ننذر لهم، ونذبح.

وإن كان طلب الدعاء منهم، وندبتهم على الدعاء والشفاعة كفراً، فعلى الإسلام السلام، فإنّه ليس في الوجود أحدٌ لا يلتمس الدعاء من إخوانه، أو يستغيث بهم في طلب نجاته، وإنّ دعاء المؤمن للمؤمن أسرع للإجابة[2] لأنّه دعاء بلسان لم يعصِ به.

فيا أخي، المقاصد متفاوتة، وإنّما الأعمال بالنيّات، ولكُلّ امرىء ما نوى[3]، فربَّ كلمة ظاهرها الإسلام، تصير بالنيّة كلمة كفر، وبالعكس.

وأمّا قولك: فإنَّ الذي يُفعلُ عندنا في مشهد عليّ(رض) من دعوة، واستغاثة، ورجاء، وخوف، وخشية. إنّه ليس بعبادة، فإنّهم ما قصدوا بدعوتهم (عليّاً)، وغيره إلاّ ليشفع لهم عند الله.

---

(١) في نسخة (ك): وغيره مما.

(٢) في نسخة (ك): إجابةً.

(٣) البخاري (بدء الوحي)، باب١؛ صحيح مسلم (كتاب الأمارة)، باب ١٥٥؛ النسائي (كتاب الطهارة)، باب ٥٩؛ ابن ماجة (كتاب الزهد)، باب ٢٦.

فإنْ قلتَ: أُولئك يدعون الأصنام، ونحن لا ندعو إلاّ الصالحين.

قلنا: وكذلك المشركون منهم يدعون الصالحين ويعبدونهم مع الله، كعيسى ومريم والملائكة.

فإنْ قلتم: إنّ الدعوة لا تُسَمّى عبادة.

قلنا: بل هي عبادة وأيّ عبادة، ففي الحديث عن رسول الله(ص): الدعاء هو العبادة. ويلي قوله تعالى: ﴿ٱدْعُونِيٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ﴾[1].

وأصل دين الإسلام هو إخلاص العبادة بجميع أنواعها من الذبح، والدعوة، والنذر، والتوكّل، والخشية، والرغبة، والإنابة، ولا يقبل الله من الأعمال إلاّ ما اجتمع فيه شرطان:

الأوّل: ألاّ يعبد إلاّ الله وحده[2].

الثاني: ألاّ يعبد إلاّ بما شرع على لسان رسوله، كما قال الله تعالى: ﴿فَمَن كَانَ يَرْجُواْ لِقَآءَ رَبِّهِۦ فَلْيَعْمَلْ عَمَلًا صَٰلِحًا وَلَا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِۦٓ أَحَدًۢا﴾[3].

أقول: إن كان المدار على الصور دون الحقائق، فسجود الملائكة لآدم، وسجود يعقوب ليوسف، قاضٍ بأنهما عبدا غير الله.

وإن قلت: بأنّ تعلّق إرادة الشرع دفعت المنع. فقد أوردنا من الأخبار وكلام الصحابة ما يفيد عدم المنع، من أمثال الصور التي ذكرت.

ثمّ بالله عليك أنصفْ، ما الفرق بين قول الصدّيق لصاحبه في السجن: ﴿ٱذْكُرْنِي عِندَ رَبِّكَ﴾[4] وبين قولنا لرسول الله(ص): «اذكرني عند ربك».

---

(١) سورة غافر، الآية: ٦٠.

(٢) في نسخة (ك): أنْ يعبد الله وحده.

(٣) سورة الكهف، الآية: ١١٠.

(٤) سورة يوسف، الآية: ٤٢.

ثمّ كيف باستغاثة وليّ موسى[1] ولم يحكم[2] عليه بالكفر؟! ثمّ كيف باستطعام موسى والخضر أهل القرية؟[3] ثمّ كيف يقول أصحاب موسى: ﴿لَن نَّصْبِرَ عَلَىٰ طَعَامٍ وَٰحِدٍ فَٱدْعُ لَنَا رَبَّكَ﴾[4]، ثمّ ما معنى قول الأسباط ليعقوب: ﴿ٱسْتَغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَآ﴾ فقال: ﴿سَوْفَ أَسْتَغْفِرُ لَكُمْ رَبِّىٓ﴾[5]؟!.

وعلى كلّ حال، إن أريدت الحقائق في الاستغاثات والدعوات وغيرها، ففي ذلك خروج عن طريقة الإسلام، وإلاّ فلا بأس، وإلاّ للزم ألاّ يخرج من الكفر أحدٌ من العالم، فلا يمكنك ـ والله ـ، ولا يسعك إلاّ أنْ تقول: إنّما يُراد دعاءٌ خاص، واستغاثة خاصّة، ونحو ذلك، فيرتفع المحذور.

وأمّا مَنْ قصد حقيقة العبادة مع غير الله، ليتقرّب إلى الله زلفى، أو لغير ذلك، فهو خارج عن ربقة الإسلام[6].

وما ذكرتم من أنّا نفرّق بين الصالحين وغيرهم، فمعاذ الله أن نفرّق بين مَنْ يعبد موسى أو محمّداً(ص)، أو يناديهم ويدعوهم، أو يستغيث بهم أحياءاً وأمواتاً، ويلجأ إليهم على أنّ لهم الأمر أو ليقرّبوه زلفى، وبين مَنْ يعبد فرعون، وهامان، وإبليس.

أين النفوس المقرونة بالأبدان التي تتغيّر من أدنى حوادث الزمان، ولا زالت مورداً للأمراض، ومحلاً للأغراض، لا تدفع شيئاً من حوادث الدهور،

---

(١) إشارة إلى الآية (١٥) من سورة القصص: ﴿فَٱسْتَغَٰثَهُ ٱلَّذِى مِن شِيعَتِهِۦ عَلَى ٱلَّذِى مِنْ عَدُوِّهِۦ﴾.
(٢) في نسخة (ك): يحكموا.
(٣) إشارة إلى قوله تعالى في سورة الكهف، الآية(٧٧): ﴿فَٱنطَلَقَا حَتَّىٰٓ إِذَآ أَتَيَآ أَهْلَ قَرْيَةٍ ٱسْتَطْعَمَآ أَهْلَهَا فَأَبَوْا۟ أَن يُضَيِّفُوهُمَا﴾.
(٤) سورة البقرة، الآية: ٦١.
(٥) سورة يوسف، الآية: ٩٧.
(٦) في نسخة (ك): المسلمين.

وليس لها في كلّ الأمور من أمر من رتبة المعبود، ومن لا يصلح لغيره الركوع والسجود إنّما هم عبيد زادت علينا عبوديّتهم، وخدّام سبقت خدمتنا خدمتهم.

فإن أُمرنا بتقبيل بنائهم، أو تعظيم أبنائهم، أو التماس دعائهم، فعلنا امتثالاً لأمر ربّنا، كما صنعنا ذلك في أحجار الكعبة وأركانها. وإن نهانا تركنا؛ إذ لا خوف إلاّ من الله، ولا رجاء إلاّ له.

وأمّا قولك: إنّه قد ورد في الحديث عن الصادق الصدوق، قال: «عليكم بسنّتي وسنّة الخلفاء الراشدين المهديّين من بعدي، عضّوا عليها بالنواجذ، وإيّاكم ومحدثات الأمور، فإنّ كلّ محدثة بدعة، وكلّ بدعة ضلالة»[1].

وفي الحديث الثاني، قال: «افترقت اليهود والنصارى عن اثنين وسبعين فرقة، وستفترق هذه الأمّة عن ثلاثة وسبعين فرقة، كلّها في النار إلاّ واحدة». وسُئِلَ عن الواحدة، فقال: «ما أنا عليه اليوم وأصحابي»[2].

أقول: اللّهُمَّ إنّي رضيتُ بسُنّة الخلفاء الراشدين حكماً، وما عليه أصحاب مُحمّد متمسّكاً وملتزماً، فأُجِلُّ ما أحلّوه، وأفعلُ ما فعلوه. وهذه أقوالهم وسيرتهم في هذه الرسالة أوضحتُها، فلا أزيغُ عنها، ولا أبعد مسافةً منها، أتتبّع ما رويتُ من أخبارهم، وما نقلتُ من آثارهم.

رزقني الله وإيّاكم حلاوة الإنصاف، وجنّبنا مرارة الجدال والاعتساف.

وأمّا قولك: «فلا تغترّ بالكثرة وهذا الثابت عن نبيّك، والله يقول: ﴿وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ ٱلشَّكُورُ﴾[3]، وقال: ﴿وَإِن تُطِعْ أَكْثَرَ مَن فِى ٱلْأَرْضِ يُضِلُّوكَ

---

(١) سنن الترمذي، ج٥، حديث ٢٦٧٦؛ سنن أبي داود، ج٤، حديث ٤٦٠٧؛ سنن ابن ماجة، ج١، حديث ٤٢.

(٢) كنز العمّال، ج١، ص١٠٦٠.

(٣) سورة سبأ، الآية: ١٣.

عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ﴾[1]. وفي الحديث: إنَّ بعث الجند من الألف واحد، فأنت اختر لنفسك، والمهديّ من هداه الله».

أقول: يا أخي، الوصيَّة مشتركة بيني وبينك، فالذي عليَّ ألاَّ تأخذني حميَّة الآباء والأجداد، وحبّ الطريقة المأنوسة بين العباد، بل أنظر بعين البصيرة، وإخلاص السريرة.

وأمّا أنتَ، فإنّي أخشى عليك من حُبّ الانفراد، حتى لا تكون كبعض الآحاد، فإنّ الأصابع لم تزل ممدودة إلى مَنْ ركبَ جادة غير معهودة. وقد ورد في المثل: «خالفْ تُعْرَفْ».

ثمّ إنّي ـ والله ـ أخشى عليك من جهة أنّك كنتَ خالي البال، بعيداً عن هذه المحال، فوردتْ عليك شبهاتٌ لم تستطع ردَّها، وخيالاتٌ لم تبلغ حدَّها، فكان الحال كما قال: «فصادفَ قلباً خالياً فتمكَّنا»[2].

وأمّا اليوم، فليس لك عند الله عذرٌ، فقد علمت بالأخبار[3]، وسمعتَ بطريقة الخلفاء الأبرار، فأجدَّ نظرك، واستعمل فكرك، واخلع عن نفسك ربقة التقليد، واطلب من ربّك التأييد والتسديد.

ثمّ ما ذكرتَ إنّما يدلّ على أنّ الحقَّ مع القليل من المكلّفين لا من المسلمين، فإنّ أكثر أهل الأرض كفّار؛ من يهود، ونصارى، ومشركين، وجاحدين، وغيرهم، حتى أنَّ نسبة إقليم المسلمين إلى سائر الأقاليم أقلُّ قليل.

فنحن نقول بأنَّ مَنْ أطاع أكثر الخلق ضالّ؛ لأنَّ أكثر الناس من أهل

---

(١) سورة الأنعام، الآية: ١١٦.

(٢) إشارة إلى قول القائل:

عرفتُ هواها قبلَ أن أعرفَ الهوى فصادفَ قلباً خالياً فتمكّنا

(٣) في نسخة (ك): الأخبار.

الكفر والضلال، وأنّ الشكور قليل، وأنّ بعث أهل الجنّة من الألف واحد، ولو استندت في هذا إلى حديث الفرق، فوحدة الفرقة لا تنافي زيادة أفرادها على ألف فرقة.

والحقّ أنّه لا ملازمة بين القلّة والكثرة، وبين الحقّ والباطل، فكم من قليل هُدي إلى الصواب، وكثير حلّتْ به[1] المؤاخذة والعقاب، وكم قد انعكس الأمر في هذا الباب، والمدار على طلب العصمة والنجاة من ربّ الأرباب، ولا حول ولا قوّة إلاّ بالله العليّ العظيم[2].

تمّت على يد أقلّ العباد عملاً، وأكثرهم زللاً، محمّد قاسم ابن شيخ محمّد بن حمزة الدلبزي في سنة ألف ومائتين وعشرة.

---

(١) في نسخة الأصل: حلّ عليه.

(٢) في نسخة (ك): والحمد لله وحده، وصلّى الله على نبيّه سيد المرسلين والأولين والآخرين، وسلّم تسليماً كثيراً.

وقد وقع الفراغ منها في يوم الجمعة في اليوم الخامس عشر من جمادى الأولى سنة الألف والثلثمائة وخمسة وعشرين هجرية، ١٣٢٥هـ، على يد أقلّ خلقه العبد المذنب محمد الرضا بن الهادي بن العباس بن علي نجل المُصَنِّف (عُفي عنهم).

مصادر البحث

مالك، الإمام (ت: ١٧٩هـ/ ٧٩٥م).

موطأ الإمام مالك (رواية يحيى بن يحيى الليثي)، تح: أحمد راتب عرموش، (بيروت، ١٣٩٧هـ/ ١٩٧٧م).

ابن مزاحم، نصر، (ت: ٢١٢هـ/ ٨٢٧م).

وقعة صفين، (القاهرة، ١٩٦٢م)، تحقيق عبد السلام محمد هارون.

ابن سعد، محمد بن سعد، (ت: ٢٣٠هـ/ ٨٤٥م).

الطبقات الكبرى، (بيروت، ١٩٦٢م).

إبن حنبل، الإمام (ت: ٢٤١هـ/ ٨٥٥م).

المسند، (القاهرة، ١٣٧١هـ/ ١٩٥٢م) شرح أحمد محمد شاكر.

البخاري، محمد بن إسماعيل (ت: ٢٥٦هـ/ ٨٦٩م).

صحيح البخاري، (القاهرة، لا. ت).

مسلم، مسلم بن الحجاج (ت: ٢٦١هـ/ ٨٧٤م)

صحيح مسلم، (القاهرة، لا. ت).

إبن ماجة، محمد بن يزيد القزويني (ت: ٢٧٥هـ/ ٨٨٨م).

سنن ابن ماجه، ج١ (القاهرة، ١٣٧٢هـ/ ١٩٥٣م). تح: محمد فؤاد عبد الباقي.

الترمذي، الحافظ محمد بن عيسى (ت: ٢٧٩هـ/ ٨٩٢م).
سنن الترمذي (الجامع الصحيح)، (القاهرة، ١٣٨٤هـ/ ١٩٦٤م). تح: عبد الوهاب عبد اللطيف.
النسائي، عبد الرحمان (ت: ٣٠٣هـ/ ٩١٥م).
سنن النسائي، ج٦ (القاهرة، ١٣٨٣هـ/ ١٩٦٣م).
الدارقطني، علي بن عمر (ت: ٣٨٥هـ/ ٩٩٥م).
سنن الدارقطني، ج٢ (القاهرة، لا. ت).
الحاكم، محمد بن عبد الله (ت: ٤٠٥هـ/ ١٠١٤م).
المستدرك على الصحيحين، ج١ (بيروت، لا. ت).
البيهقي، أحمد بن الحسين (ت: ٤٥٨هـ/ ١٠٦٥م).
السنن الكبرى، ج٧ (بيروت، أوفسيت طبعة ١٣٥٣هـ/ ١٩٣٤م).
ابن عساكر، علي بن الحسن، (ت ٥٧١هـ/ ١١٧٦م).
تاريخ مدينة دمشق، (دمشق، ١٩٥١م)، تحقيق صلاح الدين المنجد.
الطبرسي، أحمد بن علي، (ت: ٦٢٠هـ/ ١٢٢٣م).
الاحتجاج، (بيروت، ١٩٨١م).
ابن أبي الحديد، عزّ الدين (ت: ٦٥٦هـ/ ١٢٥٨م).
شرح نهج البلاغة، (بيروت، ١٩٦٥م).
القرطبي، شمس الدين محمد بن أحمد، (ت: ٦٧١هـ/ ١٢٧٢م).
التذكرة في أحوال الموتى وأمور الآخرة، (القاهرة، ١٩٨١).
الأصبهاني، أحمد بن عبد الله (ت: ٩٤٨هـ/ ١٠٣٨م).
حلية الأولياء وطبقات الأصفياء، (بيروت، ١٩٦٤م).
المجلسي، محمد باقر (ت: ١١١١هـ/ ١٦٩٩م).
بحار الأنوار، (بيروت، ١٩٨٢م).

الفهرست

الإمام كاشف الغطاء: مدخل إلى التاريخ السياسي للنجف الأشرف ٢٩٣
ترجمة الإمام الشيخ جعفر كاشف الغطاء ٢٩٣
الحوادث التي وقعت له ٢٩٥
بين كاشف الغطاء ومحمد بن عبد الوهاب ٢٩٦
مقتطفات من رسالة الإمام كاشف الغطاء إلى الامير عبد العزيز بن سعود .. ٣٠٠
الحوار الشيعي ـ الوهابي ٣٠٥
الدفاع عن النجف ٣١٥
ما بعد التهديد الوهابي للنجف ٣١٩
منهج الرشاد ـ النسخ المخطوطة ٣٢١
النسخ المطبوعة ٣٢٧

منهج الرشاد لمن أراد السداد

مقدمة المؤلّف ٣٣١
الفصل الأوّل: في أنّ الافعال والكلمات تختلف باختلاف المقاصد والنيّات ... ٣٣٣
الفصل الثاني: في بيان اختلاف ظواهر الآيات والروايات ٣٤٤

الفصل الثالث: في بيان الميزان التي يُرجع إليها إذا تشابهت الأمور ٣٤٨
المقصدالأوّل: في تحقيق ضروب الكفر ٣٥٦
المقصد الثاني: في تحقيق معنى العبادة ٣٦٣
المقصد الثالث: في الذبح لغير الله ٣٦٩
المقصد الرابع: في النذر لغير الله ٣٧٣
المقصد الخامس: في القَسَم بغير الله ٣٧٦
المقصد السادس: في الاستغاثة ٣٨١
المقصد السابع: في التوسّل ٣٨٦
المقصد الثامن: في الشفاعة ٣٩١
الخاتمة ٣٩٧

الباب الأول

في حياة الأموات بعد موتهم

الفصل الأول: في حياة النبي(ص) بعد موته ٣٩٩
الفصل الثاني: في حياة سائر الشهداء والأنبياء ٤٠٣
الفصل الثالث: في حياة سائر الموتى ٤٠٥

الباب الثاني

في الزيارات

الفصل الأوّل: في زيارة قبر النبيّ(ص) ٤١٢
الفصل الثاني: في زيارة باقي القبور ٤١٥

الباب الثالث

في التبرّك بالقبور ونحوها

في التبرّك بالقبور ونحوها ٤١٧

الباب الرابع

في بناء قبور الأنبياء والأولياء

في بناء قبور الأنبياء والأولياء وتعميرها وتعلية بنائها وتشييد أركانها ٤٢٣
كشفُ الجواب عمَّا تضمَّنه ذلك الكتاب ٤٢٧
مصادر البحث ٤٣٧

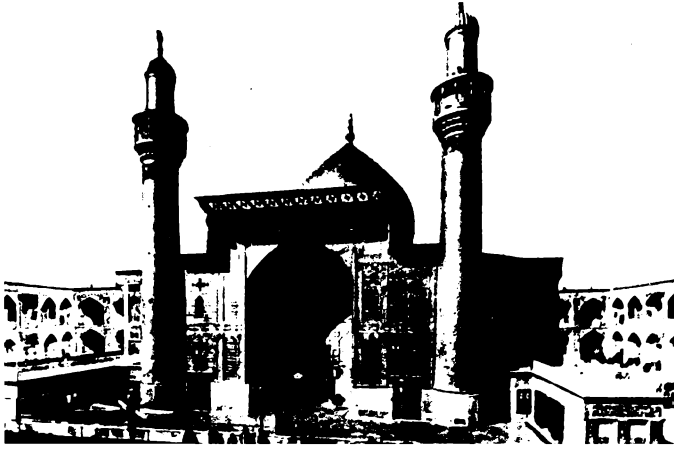

مرقد الإمام علي عليه السلام في النجف

ملحق رقم (٣)

تنبيه الأمة
وتنزيه الملّة

تأليف

الشيخ محمد حسين النائيني

(١٢٧٣ ـ ١٣٥٥ هـ)

الكتاب ومؤلفه

بقلم: كامل سلمان الجبوري

أولاً: تنبيه الأمة وتنزيه الملّة:

أصل هذا الكتاب، رسالة كتبها الإمام الشيخ محمد حسين الغروي النائيني (١٢٧٣ ـ ١٣٥٥هـ) أيام حركة المشروطية والمستبدة ـ قبل أن يصبح مرجعاً دينياً كبيراً ـ عندما كان أحد دعاتها في عهد أستاذه الإمام محمد كاظم الآخوند الخراساني الذي عُرف بتبنيه لهذه الحركة التحريرية.

وقد بيّن فيها أن الدين الإسلامي يدعو إلى الشورى وتشكيل المجالس النيابية لأخذ آرائهم في مقررات الدولة، وأن الدين الإسلامي دين الحرية لا دين التعسفية والذلة، وأنه يدعو إلى التعليم العام للنساء والرجال، وأنه يدعو إلى وجوب التعبير عن الآراء بصراحة ومنه وجوب إصدار الصحف والنشرات إلى غير ذلك من الأمور التي كانت محظورة عند بعض أهل الدين المتطرفين.

وهي تمثل رأي المؤلف إضافة إلى عدد من أعاظم علماء عصره مثل الملا محمد كاظم الآخوند الخراساني، والميرزا حسين خليل الطهراني، والشيخ عبد الله المازندراني.

وقد طبع الكتاب لأول مرة في النجف الأشرف بطريقة الطبع الحجري باللغة الفارسية سنة ١٣٢٧هـ/ ١٩٠٩م، وهي الطبعة التي أشرف عليها المؤلف.

ثم أُعيد طبعه في إيران سنة ١٩٥١ بطريقة ألواح الزنكوغراف وهي أحدث من الطريقة السابقة. وبعد وفاة شيخ الشريعة، وظهور مرجعية الشيخ النائيني في أواخر ١٩٢٠ أمر بجمع هذا الكتاب لما يراه في وجوده بيد خصومه حجر عثرة في طريقه إلى المرجعية، حيث يصوّر الخصوم زعيماً سياسياً وليس زعيماً دينياً[1].

وبعد أن قام الشيخ بإتلاف الكتاب، بقيت هناك نسخ منه عثر عليها بعض دعاة

---

(١) علي الخاقاني: شعراء الغري ٤/ ٣٠١.

التغيير والإصلاح، ووجدوا فيها وسيلة جيدة لبث الوعي التجديدي في الأمة، وظهرت محاولتان لترجمتها ونشرها:

الأولى: للأديب جعفر الخليلي، وقد أفشلها الشيخ النائيني بتوسيط الشيخ عبد الحسين الحلي وسحب الترجمة وحمله على العدول عن نشرها[1].

الثانية: للأديب صالح الجعفري، الذي عثر - بعد تفتيش واسع - على نسخة من الكتاب ثم وجده في مكتبة الحسينية الشوشترية في النجف، فقام بترجمة أكثر فصول الكتاب ونشر عمله في مجلة العرفان اللبنانية، فأثار بذلك ضجة وصخباً، وتعرّض المترجم لعدة محاولات وضغوط بهدف صرفه عن الاستمرار في ذلك، لكنه لم يستجب لتلك الضغوط، وواصل نشر الكتاب في المجلة في أعدادها الصادرة بين عامي ١٩٣٠ - ١٩٣١ بعنوان: «الاستبدادية والديمقراطية».

ثم أُعيد نشره في مجلة الموسم الهولندية، بعددها الخامس من المجلد الثاني ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ص٧١ - ١٤٢.

وأُعيد طبعه بعد ذلك مرات عديدة.

كما تُرجم الكتاب - فيما عدا ترجمة الأستاذ الجعفري - مرتين:

١ - ترجمة الأستاذ عبد الحسن آل نجف المطبوعة في إيران ١٤١٩هـ، وقد حقّقها وكتب المدخل إليها الأستاذ عبد الكريم آل نجف.

٢ - ترجمة الأستاذ توفيق السيف المطبوعة في بيروت ١٩٩٩م، ضمن دراسته التي عنوانها (ضد الاستبداد)، قراءة في رسالة تنبيه الأمة وتنزيه الملّة.

وقد اعتمد في ترجمته على الطبعة الثامنة، التي طبعتها (شركة سهامي انتشار) في طهران، سنة ١٤٠٣هـ، تقع في ١٤٢ صفحة.

وقد اخترنا واخترلنا هذه الترجمة - النص فقط - من كتابه المشار إليه.

واستأذنت الأستاذ السيف هاتفياً وهو بمقره في لندن، فسمح لي بنشره ملحقاً بهذا الكتاب. شكر الله سعيه، ووفقنا لمراضيه....

---

(١) مجلة العرفان، المجلد ٤٣/ ١٩٥٦م، ص١٠٤٢.

وأخيراً:

فإن هذا الكتاب يُعدّ وثيقة نادرة تصلح للاستشهاد به على واقع الفكر والسياسة الذي كان قائماً في أيام صدوره، وبإمكان المؤرخ أن يعتمد على الكتاب، وما انطوى عليه من بحوث ومناقشات، خاصة في هذه الظروف التي يمر بها العالم المعاصر ويشهد سقوط الأنظمة الوضعية، ففيه توضيح للمنهج الإسلامي الذي يحقق لكل أمة مصالحها وما يلائم بيئتها وما يثبت أن الشريعة الإسلامية ليست ارستقراطية و دكتاتورية، وإنما هي ديمقراطية، وقد انفردت في ديمقراطيتها عن الأشباه، وتنزهت عن النظائر.

والشريعة الغرّاء ناطقة ونصوصها صريحة بأنها ديمقراطية بأتم معاني الديمقراطية وأوفاها، فإن كانوا يريدون من الديمقراطية أنها هي الحرية والإخاء والمساواة والعدالة، فالشريعة الإسلامية لم تترك مطمعاً لمستزيد في هذه الأشباه الأربعة بل هي المثل الأعلى في كل ذلك[1].

ثانياً: الشيخ الميرزا محمد حسين ابن شيخ الإسلام الميرزا عبد الرحيم النائيني النجفي.

مجتهد خالد الذكر، من أعاظم علماء الشيعة وأكابر المحققين.

ينتمي إلى أسرة معروفة في بلاده، بلدة نائين ـ إيران، وأباؤه من مشاهيرها، فقد كان والده شيخ الإسلام في عصره وكذا غيره من سلفه.

ولد في نائين ـ بلدة من نواحي يزد تبعد عنها عشرين فرسخاً وتتبع إدارياً إلى أصفهان ـ سنة ١٢٧٧هـ/ ١٦٨٠م ونشأ بها.

فتعلم المبادىء وبعض أوليات العلوم، ثم هاجر إلى أصفهان فأكمل بها المقدمات، ثم حضر في الفقه على الشيخ محمد باقر الأصفهاني، وفي الأصول على الميرزا أبي المعالي الكلباسي، وفي الحكمة والكلام على الشيخ جهانكير خان القشقائي وغيرهم، كالشيخ محمد تقي المعروف بآغا نجفي، والشيخ محمد حسن الهزارجريبي الشهير بالنجفي حتى نال من ذلك قسطاً وافراً وحظاً عظيماً.

---

(١) انظر: مجلة الموسم، المجلد ٢/ ١٤١٠هـ/ ١٩٩٠م، ع٥ ص٤٦.

وفي سنة ١٣٠٣هـ، هاجر إلى العراق مع السيد محمد باقر الدرجهي فتشرفا معاً إلى سامراء ثم ذهب السيد إلى النجف فتتلمذ على الميرزا حبيب الله الرشتي وبقي ـ الشيخ النائيني ـ يحضر بحث السيد إسماعيل الصدر، والسيد محمد الفشاركي الأصفهاني، ثم أخذ بالحضور في بحث السيد المجدد الشيرازي، وفي الأواخر صار كاتباً ومحرراً له ولم ينقطع عن بحث الأصفهاني وبقي ملازماً لبحث المجدد إلى أن توفي سنة ١٣١٢هـ، واشتغل السيد الصدر المذكور بالتدريس هناك فبقي ملازماً له إلى سنة ١٣١٤هـ، التي هاجر فيها إلى كربلاء فصحبه أيضاً إليها وبقي معه عدة سنين.

ثم غادرها وتحوّل إلى النجف، وكان الشيخ محمد كاظم الخراساني قد استقل بالتدريس على عهد السيد المجدد، ولما توفي زادت تلامذته وعظم شأنه وأصبحت بين الشيخ النائيني وبينه رابطة أكيدة واختصاص وثيق، وصار من أعوانه وأنصاره في مهماته الدينية والسياسية كما صار من أعضاء مجلس الفتيا الذي كان يعقده في داره مع بعض خوّاص أصحابه للمذاكرة في المسائل المشكلة أوان تأليفه حاشية «نجاة العباد» ولم يحضر معه درسه العام، لأنه كان غنياً عنه وشأنه أرفع من حضّاره، واتفق أن حدث أمر النهضة وتبديل حكومة إيران الاستبدادية إلى الدستورية وكان زعيم هذه النهضة الشيخ محمد كاظم الخراساني وذلك في سنة ١٣٢٤هـ، فوقف معه جنباً إلى جنب لأنه كان يرى رأيه وكان يومذاك من أكبر الدعاة إليها، وألف بالفارسية كتابه الموسوم بـ «تنبيه الأمة وتنزيه الملة» طبع سنة ١٣٢٧، وقرّضه كل من الخراساني والشيخ عبد الله المازندراني وغيرهما، وبذلك برز بين الجموع بشكل رائع وتعرفت به الطبقات كلها.

ولما توفي الخراساني سنة ١٣٢٩هـ، حفّ به جمع من الطلاب واستقل بالتدريس وكان بحثه من الأبحاث الآهلة برجال الفضل، وازدادت حوزته اتساعاً في عهد شيخ الشريعة، ولما انتقل الأخير إلى جوار ربه سنة ١٣٣٩هـ ارتفع ذكر المترجم له ورجع إليه كثير من أهل البلاد البعيدة.

وفي الثورة العراقية كان أحد الموقعين على مضبطة توكيل مندوبي النجف في ١٨ رمضان ١٣٣٨هـ.

ولما تم احتلال العراق على يد الإنكليز وأقيم الملك فيصل ملكاً على العراق وقرروا فتح مجلس نيابي وتعيين وزراء للدولة كان هو والسيد أبي الحسن الأصفهاني

معارضين في أمر الانتخابات وكذا بعض معاصريهما كالشيخ مهدي الخالصي، والسيد محمد الفيروز آبادي، واتفق أن نفي الخالصي إلى إيران وقامت قيامة الشيعة بالاحتجاجات واحتفل العلماء في النجف، وكربلاء لمبادلة الآراء، فاستقر الرأي على مغادرة البلاد احتجاجاً على الحكم فهاجر المترجم له والأصفهاني إلى إيران وأقاما في قم واحتفى بهما زعيمها الديني يومذاك الشيخ عبد الكريم اليزدي الحائري، وأمر تلاميذه بالحضور عليهما فكانت لهما مجالس تدريس حافلة.

ثم لما ارتفعت القلاقل وانتظمت الأمور عادا إلى النجف الأشرف ورأسا معاً ونهضا بأعباء الزعامة الروحية.

ـ وكان المترجم له ـ متورعاً تقياً صالحاً غير متهالك على حطام الدنيا ولا متفان في الحصول على الرئاسة، وكان إذا وقف للصلاة ارتعدت فرائصه وابتلت لحيته من دموع عينيه، وكان مشاركاً جامعاً، له تضلع وبراعة في الآداب اللغوية فارسية وعربية، ورسوخ في الكلام والفلسفة، وتوحّد في الفقه.

أما في علم الأصول فله شأن عظيم لأنه أحاط بكلياته، ودققه تدقيقاً مدهشاً، وأتقنه إتقاناً غريباً، وقد رنَّ الفضاء بأقواله ونظرياته العميقة، كما انطبعت أفكار أكثر المعاصرين بطابع خاص من آرائه، حتى عدّ مجدداً في هذا العلم كما عدت نظرياته مماثلة لنظريات الآخوند الخراساني، وكان لبحثه ميزة خاصة لدقة مسلكه وغموض تحقيقاته فلا يحضره إلا ذوو الكفاءة من أهل النظر ولا مجال فيه للناشئة والمتوسطين لقصورهم عن الاستفادة منه، ولذلك كان تلامذته المختصون به هم الذين تعلّق عليهم الآمال، وهكذا كان فقد برز فيهم أفذاذ أصبحوا قادة الحركة العلمية والفكرية، والمدرسين المشاهير كالسيد أبي القاسم الخوئي، والشيخ حسين الحلي، والسيد حسن البجنوردي، والميرزا باقر الزنجاني فإن هؤلاء أساتذة أساتيذ الجامعة النجفية، ومن مواردهم يستقي الطلاب.

ومن تلاميذه أيضاً: الشيخ محمد علي الخراساني صاحب «فوائد الأصول» والشيخ موسى الخوانساري وآخرون انتشروا في أرجاء البسيطة.

اعتل جسمه في الأواخر ونهكت قواه فذهب إلى بغداد للمعالجة وقد اعتنت به الحكومة العراقية كثيراً وعيّنت له قصراً وخصّصت أطباء رسميين لمباشرته، ولم يُجدِه

ذلك، فتوفي يوم السبت ٢٦ جمادى الأولى ١٣٥٥هـ/ ١٩٣٦م، وحمل جثمانه إلى النجف، فكان يوماً مشهوداً وتولى تغسيله الشيخ علي القمي على نهر الملك غازي الأول في بحر النجف، وصلى عليه السيد أبو الحسن الأصفهاني، ودفن في الحجرة الخامسة على يسار الداخل إلى الصحن الشريف من باب السوق الكبير، وأقيمت له فواتح لا تعدّ ولا تحصى، وأبّنه الشيخ محمد حسين آل كاشف الغطاء بكلمة نشرت في جريدة الكرخ في العدد التأبيني الخاص، ورثاه جمع كثير منهم تلميذاه الشيخ عبد الحسين البغدادي ـ وقد أبّنه بكلمة جليلة نشرت في جريدة الكرخ أيضاً ـ والسيد علي نقي النقوي، والشيخ محمد علي اليعقوبي، والشيخ محمد رضا المظفر، والشيخ عبد المنعم الفرطوسي، والسيد محمود الحبوبي، والسيد مسلم الحلي، والسيد مهدي الأعرجي وغيرهم.

وأقيمت له حفلة أربعينية كبرى.

وقال النقوي في آخر مرثيته له مؤرخاً عام وفاته:

وحيث زاد الأسى نادى مؤرخه: (مضى حسين فحاكى طفه النجف)

والحق أن تلميذه النقوي قد وفى له، فقد ترجم له في مجلة «الرضوان» الهندية ترجمة واسعة مسلسلة في ثلاثة أعداد وشاد بذكره على صهوات المنابر وفي الأندية والمحافل والفواتح، ونشر الإعلانات وغير ذلك.

له آثار هامة منها: حاشية العروة الوثقى، ورسالة مبسوطة في المعاني الحرفية وعدّة رسائل أُخر في التزاحم والترتيب، وفي التعبدية والتوصيلة، وفي قاعدة لا ضرر، وفي الشرط المتأخر، وغيرها من المباحث الأصولية، وفي الفقه: الخيارات والمعاطات والبيع الفضولي، ورسالة في اللباس المشكوك، ورسالته العملية، وغير ذلك.

أعقب: ثلاثة أولاد أكبرهم الشيخ الميرزا علي.

مصادر ترجمته:

نقباء البشر ١/ ٥٩٣ ـ ٥٩٦، معارف الرجال ١/ ٢٨٤ ـ ٢٨٨، مشهد الإمام ٣/ ١٣٣ ـ ١١٦، أسرة المجدد الشيرازي ١٣٧ ـ ١٤٠.

الشيخ محمد حسين النائيني

تنبيه الأمة
وتنزيه الملّة

تأليف

الشيخ محمد حسين النائيني

(١٢٧٣ ـ ١٣٥٥ هـ)

ترجمة

توفيق السيف

تقريض أستاذ فقهاء العصر

آية الله العظمى الآخوند محمد كاظم الخراساني

هذه الرسالة الشريفة (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) من إفاضات جناب مدار الشريعة صفوة الفقهاء والمجتهدين، ثقة الإسلام والمسلمين، العالم العامل أقا ميرزا محمد حسين النائيني الغروي دامت إفاضاته، أجلُّ من أن تمجد، وحري أن تكون دراستها وتدريسها، سبيلاً إلى إدراك أن أصول المشروطية مستمدة من الشريعة الحقة، وهي مفاد وحقيقة الكلمة المباركة (بموالاتكم علمنا الله معالم ديننا وأصلح ما كان فسد من دنيانا). أرجو أن يدرك ذلك بعين اليقين إن شاء الله تعالى.

في شهر ربيع الأول سنة ١٣٢٧

حرره الأحقر الجاني محمد كاظم الخراساني

تقريض آية الله العظمى الشيخ عبد الله المازندراني

بحمد الله تعالى وحسن تأييده فإن الرسالة الشريفة (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) كما تفضل ـ الآخوند ـ أجلُّ من أن تمجد، وهي كافية لتعزيز اعتقاد المسلمين وتصديقهم وجدانياً، بما هو ثابت من أن جميع الأصول والمباني السياسية، المستفادة والنابعة من دين الإسلام القويم، كافية وفوق ما يؤمل. فللّه در مصنفه المحقق، وجزاه الله عن الإسلام وأهله خيراً، وكثَّر في الفقهاء والمجتهدين أمثاله، بمحمد وآله الطاهرين صلوات الله عليهم أجمعين.

في شهر ربيع الأول ١٣٢٧

حرره الأحقر عبد الله المازنداراني

تمهيد

الحمد لله رب العالمين، والصلاة على أشرف الأولين والآخرين وخاتم الأنبياء والمرسلين محمد وآله الطيبين الطاهرين، ولعنة الله على أعدائهم أجمعين إلى يوم الدين وبعد.

قبل الحروب الصليبية كانت الأمم المسيحية الأوروبية محرومة من الحكمة بكل أنواعها، إما لأنها لم توجد ضمن الشرائع السماوية الرائجة في أوروبا، أو لأن الكتب السماوية قد تعرضت للتحريف والانتقاص. وكان من بين ما افتقر إليه الأوروبيون، الحكمة العملية، والعلوم الضرورية للتمدن، إضافة إلى الفكر السياسي وما يترتب عليه من أحكام.

على أن الفشل الذريع للجيوش الأوروبية في تلك الواقعة العظيمة ـ الحروب الصليبية ـ قد قادهم إلى التأمل في أسباب تخلفهم وضعفهم، فوجدوا أن السبب الأساس في إخفاقهم يعود إلى عدم تمدنهم وافتقارهم للعلم، ومن هنا فقد جعلوا التعليم على رأس أولوياتهم، واندفعوا بكل حماسة لعلاج ما استشرى في مجتمعاتهم من الجهل، الذي هو أشد الأمراض وأكثرها إفساداً للأمم.

وفي البداية تجاوز الأوروبيون حاجز التنافر الديني، فأخذوا بأصول التمدن الإسلامية وسياسات الإسلام من مصادره الأصلية، الكتاب والسنة وتعليمات الرسول (ص) وأقوال أمير المؤمنين (ع) وغيرها. وإذا قرأت اليوم ما كتبه المنصفون من قدامى مؤرخي النهضة الأوروبية، فستجد اعترافاً صريحاً بفضل المسلمين عليهم، وستجد إقراراً بأن التطورات الاستثنائية التي شهدتها أوربا خلال نصف القرن التالي للحروب الصليبية، لم تكن لتتحقق لولا استفادتها من ذلك النبع الصافي، الذي تقصر العقول عن إدراك مستواه أو إيجاد مثيله.

في هذا الوقت كان الأوروبيون الذين انكبوا على علوم الإسلام، يتقدمون بفضل حماستهم للتعلم، وحسن ممارستهم للعلم، وفاعليتهم في البحث، وجودة استنباطهم واستنتاجهم لفروعه، بينما وعلى خط مواز، كان المسلمون يخبون في مسيرة التراجع التي بدأوها قبل حين من الزمن، لا سيما مع اكتمال الدائرة الرهيبة التي

أحاطت بهم، بعد سيطرة المتسلطين والطغاة المعرضين عن الكتاب والسنة، مما جعل عامتهم أسرى أذلاء مكبلين بقيود العبودية لهؤلاء المتكبرين.

وكنتيجة لهذه المفارقة فقد تشكل التباين الكبير الذي نشهده اليوم، بين حال البؤس والضعف التي آل إليها المسلمون، وما يقابلها من حال التقدم والقوة، التي تعيش في نعمتها الأمم الأوروبية، وفي وقت لاحق، فإن ذلك التسلسل التاريخي للأحداث، والبدايات التي انطلق منها كل فريق قد نسيت تماماً. فالذي حدث بصورة تدريجية، هو تراجع في شعور المسلمين بالتميز، والاعتزاز بدينهم، مقابل ارتفاع في شعور الأوروبيين بعزتهم ومكانتهم، إلى أن أصبح هؤلاء ينكرون فضل الإسلام عليهم، وتأثيره في إطلاق قوتهم ومدنيتهم. بل أصبحوا ينظرون إلى الدين الحنيف، باعتباره علة لخضوع النفوس المسلمة الأبية لما هي فيه، من عبودية وحشية وذلة أسر للمتسلطين.

ومن جانبهم فإن المسلمين قد نسوا بدورهم المبادى التاريخية التي قادتهم إلى العزة والرفعة، وأمسى بعضهم يظن بأن الخضوع للذل والأسر، هو لازمة من لوازم التدين والإيمان. وعلى هذا فقد أصبح رائجاً القول بأن أحكام الإسلام منافية للتمدن والعدالة، وعقبة أمام استقلال العقل وحرية التفكير. وفي النهاية فقد وصف التزام المسلمين بدينهم، باعتباره سبب الخراب الذي يحيط بالأمة وأساسه، مع ما نعلمه من كون الشريعة المقدسة أساس التقدم ومحركه وحاميه.

لقد استمر الحال على هذا المنوال حتى يومنا هذا، حيث تدل البوادر على استعادة المسلمين لوعيهم بذاتهم واكتشافهم قسوة واقعهم. هذا الوعي هو نقطة النهاية لمسيرة التقهقر، وهو إيذان بانقضاء زمن الخضوع الذليل لإرادة الجائرين الشهوانية، بل هو إيذان بأن شمس الاستبداد والذلة توشك على الأفول. فعامة المسلمين اليوم بفضل إرشاد مراجعهم وعلماء دينهم، واعون بمقتضيات الإيمان ومتطلبات الشريعة، بعد أن أدركوا ضرورة استنقاذ أنفسهم، من ذل العبودية لفراعنة الأمة، واستعادة حريتهم التي وهبها الله لهم، وممارسة حقوقهم الوطنية المشروعة، والمشاركة المتساوية في تقرير أمور بلادهم.

ولأن الحق لا يستنقذ بغير التضحية الغالية، فقد انبعثوا من سباتهم كما ينبعث

(السمندر) من بحار النار، فبذلوا الغالي والنفيس في سبيل كسر طوق العبودية للجبابرة، واستعادة حقوقهم المغصوبة، غير خائفين ولا وجلين، معتبرين إراقة دمائهم الطيبة في هذا السبيل، من أعظم أسباب سعادة وطنهم وإعادة بعثه إلى الحياة، مفضلين أن يغرقوا في دمائهم على أن يعيشوا في ظل أسر الظالمين. وهذي هي الصورة المثلى للتآسي بسيد الشهداء الحسين المظلوم الذي يصف المؤمنين الأحرار بأنهم (نفوس أبية من أن تؤثر طاعة اللئام على مصارع الكرام).

وكان مما أثلج الصدر قيام حجج الإسلام مراجع النجف الأشرف وهم رؤساء الشيعة الاثني عشرية بإصدار الأحكام التي فضحت الاستبداد، وأوجبت السعي لتحقيق ذلك الهدف المقدس. ثم التعقيب عليها بفتوى المشيخة الإسلامية في اسطنبول وهي مرجعية أهل السنة. لقد كانت هذه الخطوة ضرورية، لتبرئة ساحة الإسلام المقدس من تلك الأحكام الجورية، المخالفة لما تسالم عليه العقلاء، وكانت بينة ظاهرة، وحجة قاطعة لألسن العائبين في الدين، والباحثين عن عيوب المسلمين.

لكن عصابة الذئاب في إيران لم يرق لها موقف أهل العلم ولا موقف عامة المسلمين، فبحثت عن كل وسيلة تستعين بها على إبقاء الشجرة الخبيثة، شجرة الظلم والاستبداد والسيطرة على الرقاب وغصب أموال المسلمين بالباطل. فلم تجد سبيلاً غير التخفي وراء دعوى الدفاع عن الدين القويم، والحيلولة دون تحريف الأحكام، سائرةً في هذا المسعى على طريق فرعون عندما واجه نبي الله موسى. فبدلاً من أن تذعن للحق، روجت الادعاءات الباطلة، بأن المطالبة بإصلاح أمر البلاد تبديل للدين، وخروج على الصراط المستقيم. تماماً كما فعل فرعون حينما ظهرت دعوة موسى **﴿وقال فرعون ذروني أقتل موسى وليدع ربه إني أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد﴾**.

لقد وضع هؤلاء أيديهم في أيدي فراعنة إيران، وفعلوا ما فعلوا من قبائح، فجددوا شنائع فهد الضحاك ومآسي جنكيز خان، كل ذلك تحت عباءة الدين وبدعوى حمايته من التبديل والتحريف، كما لو أن الفراعنة هم حماة الدين، والذابون عن شريعة سيد المرسلين.

كان المنتظر منهم أن يحفظوا قداسة العقيدة، التي خدشها سعي الجبابرة لاستلاب

صفات الخالق عز اسمه، أو ادعاء حقوقه من العمل بما يشاؤون، وعدم المسؤولية عما يفعلون، وغير ذلك من الصفات الخاصة به سبحانه وتعالى. لكنهم عوضاً عن ذلك زينوا للجائر قبيح عمله، وحاولوا خداع المسلمين بدعوى أن تجريد الجائر من صلاحياته المطلقة مناف للإسلام، غير عابئين بما أدى إليه هذا الموقف من تلويث للشرع المقدس بوصمة الذل والعار العظيم. كما وفروا الفرصة للنصارى، والباحثين عن المعايب، للتشنيع على الإسلام، واتهام نبيه المصطفى، بل ذات الواحد الأحد تعالى شأنه بتشريع الظلم أو تسويغه.

وهكذا فإن ظلمهم لأنفسهم لم يقف عند حد، حتى وصل إلى حد الجرأة على ظلم الخالق، لتبرير ظلم المخلوق ﴿**ثم كان عاقبة الذين أساؤوا السوأى أن كذبوا بآيات الله وكانوا بها يستهزئون**﴾ [الروم: ١٠].

***

واتباعاً لمفاد الحديث النبوي الصحيح: (إذا ظهرت البدع في أمتي فليظهر العالم علمه فمن لم يفعل فعليه لعنة الله). فقد وجدت السكوت على مثل هذه الزندقة والإلحاد والعبث بالدين، خلاف المسؤولية الشرعية المنوطة بأهل العلم، بل وجدته تسهيلاً لهذا الظلم البين وعوناً لأصحابه. ولهذا قمت وأنا أقل خدام الشرع الأنور، بالتصدي لأداء المسؤولية الشرعية، في مناصرة الشريعة المقدسة، ودفع الضيم عنها منطلقاً مما أراه واجباً عليّ، من بيان حقيقة تلك الزندقة، ونقضها لضرورات الدين، وتمييزها عن واضح الشريعة، حتى لا تختلط الأمور على المسلمين. آملاً الفوز بعون الله وحسن تأييده، راجياً القبول والرضى، عسى أن يكون في هذا العمل توفير لجهد الآخرين، وتخفيف لبعض ما يتحملون من مسؤولية، وما توفيقي إلا بالله.

وقد أسميت هذه الرسالة (تنبيه الأمة وتنزيه الملة) لأن وضعها كان بغرض تنبيه الأمة إلى ضروريات الشريعة، وتنزيه الدين عن الزندقة والإلحاد والبدعة، وقد قسمتها إلى مقدمة وخمسة فصول وخاتمة.

المقدمة

في تحليل حقيقة الاستبداد ودستورية الدولة والتدليل على الدستور ومجلس الشورى الوطني وتوضيح معنى الحرية والمساواة

ثمة مسلّمة توافق عليها جميع الأمم، وأقرها جميع عقلاء العالم، مفادها أن استقامة النظام العام، وانتظام حياة البشر، مرهون بوجود الدولة ذات السلطة القادرة على فرض النظام. وفي هذا المستوى فليس ثمة فرق في الإقرار بالحاجة إلى السلطة، بين القائلين بضرورة كونها فردية أو جماعية، أو مشروعية حكمها بالنظر إلى وصولها إلى مركز القدرة عن طريق الانتخاب، أو عن طريق الوراثة أو الغلبة والقهر.

ومثل ذلك، فإنه مسلَّم ومعلوم بالضرورة، أن صيانة شرف البلاد واستقلالها وتماسكها كأمة، والمحافظة على مختصاتها الدينية أو القومية، منوط بالضرورة بقيام سلطة نابعة من ذاتها، معبرة عن ثقافتها وهويتها، تحفظها وتدافع عنها، وإلا فإن جوانب تفوق الأمة وتمايزها عن غيرها من الأمم، معرضة للزوال والضياع، مهما بلغت من الثروة والتمكن والعمران والتقدم.

ولذا فإن الشريعة المطهرة جعلت حفظ بيضة الإسلام، التكليف الشرعي الأهم بين جميع الواجبات الأخرى. ومن هذا المنطلق أيضاً، فإن السلطة الإسلامية هي من أعظم وظائف ومتعلقات الإمامة، وتفصيل هذا الموضوع في مباحث الإمامة وهي خارج نطاق بحثنا هذا.

الوظيفة الأساسية للسلطة:

من تحديد الوظيفة الأساسية للسلطة، سيتضح لنا السبب الذي من أجله اعتبرنا أصل قيام السلطة، ضرورياً لنظام العالم. واعتبرنا حفظ شرف وقومية الأمة مرهوناً بكون السلطة الحاكمة فيها ممثلة لها ونابعة منها، وفي هذا المجال فثمة وظيفتان أصليتان للسلطة:

الأولى: حفظ النظام الداخلي للبلاد، وتنمية المجتمع وإيصال كل ذي حق إلى

حقه، والحيلولة دون بغي أفراد الشعب على بعضهم، أو تطاول أقوياثهم على ضعفائهم، وغير ذلك من الوظائف النوعية المتعلقة بمصالح البلاد والشعب، ضمن حدود الدولة.

الثانية: التحفظ من تدخل الأجانب في أمور البلاد، والاحتياط من مؤامراتهم، وتهيئة القوة الدفاعية والاستعداد الحربي وغير ذلك مما يلزم لصيانة الاستقلال.

وقد ورد هذا المعنى عند المتشرعين تحت اسم: حفظ بيضة الإسلام، وعند غيرهم تحت عنوان: حفظ الوطن. كما وضعت الأحكام الشرعية المعنية بإقامة هاتين الوظيفتين تحت باب الأحكام السياسية والتمدنية، والجزء الثاني من الحكمة العملية.

وبالنظر للعلاقة الوثيقة بين إقامة هذه الوظائف وبين كفاءة القائمين عليها في مجال السياسة والحكمة، فقد اهتم عظماء السلاطين المتقدمين في فارس والروم أشد الاهتمام، بانتخاب حكماء كاملين في العلم والعمل، لتولي منصب الوزارة والقيام بأمر الدولة. ومن ناحيتهم فإن أولئك الحكماء لم يقبلوا هذه الولاية، مع ما كانوا عليه من كمال التورع عن التكبر والقهر، لولا وجود هذه العلاقة.

بل يمكن القول: إن إقامة تلك الوظائف الضرورية، هي السبب الذي لأجله قامت السلطة ابتداء، كما شرع الخراج، وجرى تنظيم سائر الأجهزة السياسية، القائمة بالوظائف النوعية للدولة. وفي مختلف الحقب التاريخية وجدنا الأنبياء والحكماء قد سعوا في نفس الاتجاه، أي إقامة السلطة التي تتكفل بإقامة وحفظ الواجبات المذكورة، كما تقررت هذه الأغراض في الشريعة الإسلامية المطهرة، التي تضمنت أيضاً من شروط ممارسة السلطة ومحدداتها، ما يسد الثغرات ويكمل النواقص، بحيث تصبح قائمة وعاملة على هذا الوجه بالذات.

صور السلطة:

من حيث طريقة قيامها ونوعيتها لا تخرج السلطة عن واحدة من صورتين، فهي إما تمليكية أو ولايتية، ولا توجد صورة ثالثة. وفي كلا الحالتين فإن طريقة تصرف الحاكم، والأساس الذي يبني عليه سياسته متصور على إحدى صورتين:

الصورة الأولى: حكم الجور

وفيه ينظر صاحب السلطة إلى وضعه بالنسبة للبلاد، كما ينظر المالك العادي إلى

أملاكه الشخصية، فيتصرف فيها تصرف المالك المسلط على ما تحت يمينه، دون حدود أو قيود. فهي بما فيها من عناصر مادية، مثل أمواله الخاصة، وأهلها مثل عبيده وإمائه، بل مثل الأغنام وغيرها من المواشي التي خلقت وسخرت لتحقيق رغباته وإشباع شهواته.

ويستتبع هذا إجبار الرعية على الخضوع لأمره والتسليم لمشيئته. فكل من أخلص الولاء للحاكم وتفانى في سبيل رضاه، نال القربى وحظي بالأمان. وكل من أنكر أو خالف، نفاه من البلاد التي يعتبرها ملكاً خاصاً به، أو أعدمه وتركه طعمة للذئاب البشرية يريقون دمه وينهبون داره وماله.

وإذا تعلق الأمر بأموال العباد، فإن الجائر لا يقيم حرمة لحقوق المستحقين ولا لاختصاص المالكين، فكل مال أراده انتزعه من أهله، أو أهداه للسرّاق المحيطين به. وإذا تعلق الأمر بالحقوق، فكل حق أرادوا إحقاقه أحقوه، وإذا أرادوا إبطاله ضيعوه.

ولا يجد الجائرون غضاضة في العمل على هذا النحو، فهم يعتبرون أنفسهم ملاَّكاً لما تحت أيديهم، أحراراً في التصرف بالأخذ والعطاء، فإذا تعلق الأمر بثروات البلاد وموارد العامة، تصرفوا فيها دونما تحفظ، كما لو أن المال العام المتأتي من الخراج أو المقاسمة أو الزكوات وغيرها من مصادر مالية الدولة إيجارات يدفعها الناس إلى مالك الأرض، يجمعها ويصرفها في مصالحه وأغراضه الشخصية، لا باعتبارها أموالاً عامة مملوكة لمجموع الشعب، تصرف في مصالحه وإصلاح أمره.

وفي مقابل هذا التصرف اللامحدود في أمور وأملاك البلاد والعباد، فإن اهتمامه بحفظ وتنظيم البلاد، والقيام بمصالحها المختلفة مما يوكله العقلاء إلى الدولة، لا يعدو أن يكون تابعاً لميوله وأهوائه الشخصية، كما هو شأن المالك العادي في مزارعه واستثماراته. فالقيام بأمرها ليس منظوراً إليه بمنظار الواجب والمسؤولية الشرعية والوطنية، بل هو مرهون بميول الحاكم ورغباته، إن شاء قام بإصلاحها، وإن شاء أهملها، وربما رهنها أو باعها، لإعداد العدة لنزهاته ولهوه ورفاهيته وعبثه. بل ربما لم يتورع وهو بهذه الصفة عن التجاوز على حرمات الناس بانتهاك الأعراض، والتجاهر بالفجور والمجون.

ومع كل هذا الطغيان، وهذه التجاوزات، فإن الحاكم من هذا النوع لا يستحي من

ادعاء صفات الكمال، الصفات التي هي من مختصات الباري عز اسمه، كما لا يستحي من اعتبار نفسه منزهاً عن الخطأ، مقدساً يتعالى بذاته عن النقد والمساءلة. ثم تحويل جميع السلطات والقوى الخاصة بالبلاد، إلى وسائل لتعزيز سلطاته وإظهار قدرته وقوة قهره، فضلاً عن تحقيق شهواته ورغباته.

وهو لا يعدم في تحقيق هذه المقاصد أشباه علماء، يصطنعون له من المبررات ما شاء، فهو بعونهم ودعمهم يضع نفسه في مقام الرب سبحانه وتعالى الذي ﴿**لا يسأل عما يفعل وهم يسألون**﴾ [الأنبياء: ٢٣].

ولأن هذا النوع من السلطة قائم على الميول الشخصية، فقد أطلق عليه اسم الحكم التملكي أو الاستبدادي، كما يوصف بأنه اعتسافي وتسلطي وتحكمي.

وواضح أن السبب في إطلاق هذه الصفات هو مطابقة الاسم للمسمى، فالسلطان فيه حاكم بما يشاء، فعال لما يريد، متصرف في البلاد وأهلها، كما يتصرف المالك العادي في أملاكه الشخصية.

وكما وصفت السلطة بتلك الأوصاف، فقد وصف صاحب السلطة بالظالم والقهار، والحاكم المطلق، والحاكم بأمره، ومالك الرقاب، وأمثال هذه الصفات التي تشير إلى حقيقة أعماله.

وعلى النحو ذاته يوصف أفراد الشعب المبتلى بهذا النوع من السلطة القاهرة، بالأرقاء والأسرى والأذلاء، بل إنهم يمكن أن يوصفوا بالمستصغرين، لما بينهم وبين صغار الأيتام الذين لا يعرفون حقوقهم، ولا يتصرفون في أملاكهم، من تشابه في الحال.

والذي أرى أن حال الشعوب الذليلة والأسيرة، أدنى من هذا التقدير فهي أقرب شبهاً إلى النباتات التي ليس لها حظ مستقل في الحياة، وغاية ما تعيش لأجله هو الفناء في الغير، من حيوان أو إنسان، فهي مسخرة لحاجاته، مرهونة في بقائها أو فنائها بإرادته. ولهذا وصف أفراد الأمم الذليلة المظلومة، والجاهلة بحقوقها والظالمة لنفسها، بالمستنبتين.

تناسب عكسي:

على أنه لا ينبغي الظن بأن هذه الصفات جميعها قابلة للتحقق في كل سلطة

جورية، فقد نجدها بكمالها في دولة ونجد بعضها فحسب في غيرها. إن التفاوت في أحوال الأمم الخاضعة لسلطات الجور، يرجع بالدرجة الأولى إلى ما يتمتع به كل من طرفي الدولة ـ السلطة والشعب ـ من ملكات نفسانية واستعدادات. فثمة حكام يتمتعون هم وأعوانهم بقدر من الإدراك العقلي للأمور والعواقب، ويحملون بعض الصفات الإنسانية الحسنة، التي تمنعهم عن الإفراط في البغي.

من الطرف الثاني فإن بعض الشعوب تمتلك قدراً من الوعي بحقوقها ومسؤولياتها، كما تعي حقيقة حال السلطة التي تحكمها، ومدى قربها أو بعدها عن الالتزام بواجباتها، بل بدرجة إيمانها بمسؤوليتها أمام الله وأمام شعبها. فإذا وجد هذا الوعي في الشعب كان من العسير على السلطان أن يدعي القداسة والعصمة، حتى يفعل ما يشاء وينكر مسؤوليته عما يفعل، مما هو من مختصات الباري جل وعلا.

وعلى كل حال فإن الصواب هو القول بوجود التوازن العكسي بين مستوى الوعي الشعبي في طرف، ومستوى التسلط في الطرف الآخر، فكلما ارتفع الأول تنازل الثاني والعكس بالعكس. إن الظلمة لا يتوقفون عند حد كما سبق القول، بل لا يتورعون عن ادعاء الصفات الخاصة بالله جل اسمه. لقد كان آخر ما وصل إليه فرعون من الطغيان هو ادعاء الألوهية، وهو نموذج لكل متسلط ظالم في سالف الزمن وفي حاضره: **﴿وقال فرعون يا أيها الملأ ما علمت لكم من إله غيري فأوقد لي يا هامان على الطين فاجعل لي صرحاً لعلّي أطلع إلى إله موسى وإني لأظنه من الكاذبين﴾** [القصص: ٣٨]. لكن هذا لا يتحقق إلا إذا وجد الجائر شعبه ظالماً لنفسه، جاهلاً بحقه، ملقياً حبله على غاربه. أما إذا كان الشعب متسلحاً بالوعي مستضيئاً بنور العلم، فإنه سيوقف هذا التطور السلبي، ويحول بين السلطان وبين بلوغ غاياته.

واستناداً إلى قاعدة (الناس على دين ملوكهم). فإن خضوع أفراد الأمة إلى قهر السلطة واستسلامهم لإرادتها، سيعاد إنتاجه بين الطبقات المختلفة من الشعب. فالفرد المقهور يسعى من جانبه إلى قهر من هم دونه، واستغلال من أوقعتهم أقدارهم تحت يديه، بحيث يمكن القول إن كل فرد يحاول تقليد السلطان في علاقته مع من هو أدنى منه.

ولا نجد سبباً وراء نمو هذه الشجرة الخبيثة سوى جهل الأمة بحقوقها وواجباتها،

وجهلها بوظيفة الدولة وحدودها، والحقوق الخاصة المشتركة بين الطرفين، وأخيراً تنزيه السلطة عن المسؤولية عن الأخطاء، وغياب المحاسبة والمراقبة.

الصورة الثانية: حكم العدل

وهو الحكم الذي يقوم من أجل الوفاء بالمسؤوليات الخاصة المناطة بالدولة، المسؤوليات النوعية التي هي مبرر وجود السلطة. فمشروعية قيامها واستمرارها، وتمتعها بالصلاحيات المناطة بها، مشروطة بوفائها بتلك المسؤوليات ومحدودة بحدودها، فشرعيتها قائمة مادامت في نطاقها لا تتجاوزها.

لكل من هاتين الصورتين للسلطة حقيقة مباينة للأخرى، وبالتالي فهي متمايزة عنها في نتائجها وتأثيراتها:

فالصورة الأولى بجميع أصنافها ودرجاتها، قائمة على قهر وتسخير البلاد وأهلها، لرغبات السلطان الخاصة، واستثمار القوى النوعية للسلطة، من مالية وغيرها، لتحقيق مراداته الشخصية، فضلاً عن تنزيهه عن المحاسبة والمساءلة عن أخطائه، بل عن مجمل سياساته.

ويعتقد أصحاب هذا النوع من السلطات بأن وجودهم منة عظيمة على شعوبهم، يضيفون إليها من المكارم ما يشاؤون، بالتورع عن ارتكاب المظالم، والتحرز عن الجهر بالمآثم. فإذا اكتفى بنهب الأموال، ولم ينتهك الأعراض، أو يقتل من الناس أو يعذب، فهو في اعتقاده متكرم على الشعب، مستحق للشكر على امتنانه.

وبالمثل فإن نسبة الشعب إلى السلطة في هذا الحال هي نسبة العبيد والإماء، بل أقل من ذلك. فلربما لم يكونوا في المقياس الواقعي أرفع شأناً من الأغنام والبهائم، بل لربما كانوا بمنزلة النبات الذي لا قيمة له في الحياة، سوى كونه مسخراً للغير ممن يعلوه قدراً، دون أن يكون له حظ مستقل في الحياة، أو فائدة تعود عليه بالخصوص.

ولهذه الأسباب فإن هذا النوع من السلطة، يستبطن في حقيقته نوعاً من الربوبية المدعاة من جانب السلطان، تقابلها عبودية مطلوبة أو متحققة من جانب الرعية.

أما الصورة الثانية فهي في حقيقتها ولاية على إقامة الوظائف المتعلقة بنظم البلاد وحفظ مختصاتها، وليست تملكاً لها. فتولي السلطة بهذا المعنى هو نوع من الأمانة النوعية التي غرضها تصريف واستعمال القوى الخاصة بالدولة في أغراضها، وليس في

أغراض صاحب السلطة. ولهذا السبب فإن مقدار السلطة، والصلاحيات التي يتمتع بها السلطان، محدودة بالقدر الذي يتطلبه القيام بأمر الولاية. كما أن حقه في التصرف مشروط بعدم تجاوز حدودها، بغض النظر عن كونه قد وصل إلى كرسي الحكم بطريق صحيح، أو الاستيلاء والغصب.

وفي هذه الحالة فإن نسبة أفراد الأمة إلى السلطان، هي نسبة الشريك إلى شريكه، في الأمور المالية أو غيرها من القوى النوعية، فكلا الطرفين مساوٍ للآخر. كما أن كل المتصدين لأمور البلاد العامة هم بمثابة الأمناء، لا المالكين أو المخدومين، فهم مثل غيرهم مسؤولون أمام شعبهم في أمور وظيفتهم، خاضعون للمحاسبة والعقاب على أي تقصير.

ومن جهتهم فإن جميع أفراد الشعب، اعتماداً على شراكتهم في السلطة وتساويهم في الحقوق مع أهلها، قادرون على مساءلة السياسيين ومحاسبتهم والاعتراض على أعمالهم، مع تمتعهم بالأمان وحرية الرأي والتعبير عنه، ولن يكون بإمكان السلطان أن يطوق رقابهم بقيد التسخير والجبر لإرادته الشخصية أو إرادات أفراد جهاز الحكم.

ولقد أطلق على هذا النوع من السلطة اسم السلطة المقيدة والمحدودة والعادلة والمشروطة والمسؤولة والدستورية. ويتضح مما سبق ذكره وجه التطابق بين كل صفة من الصفات وموصوفها. أما الحاكم بهذه الصورة فقد وصف بحافظ البلاد وحارسها والقائم بالقسط والمسؤول والعادل. وبدورهم فإن أفراد الشعب الذي أنعم الله عليه بهذه السلطة، موصوفون بالمحتسبين والأباة والأحرار والأحياء.

ولأن هذا النوع من السلطة هو في حقيقته، من نوع الأمانة والولاية كما سبق الذكر، وهو مثل سائر الولايات والأمانات، قائم ومحدود بعدم التعدي والتفريط. فإن ضمانة حفظه عن التحول إلى ملكية مطلقة، وردع احتمالات التعدي والتفريط فيه، منوط باستمرار المحاسبة والرقابة، وتحمل الشعب لمسؤوليته الكاملة.

الضمانات:

على أن البلاد تحتاج في كل الأحوال، إلى وسائل فعالة لحفظ العدالة، ومنع تحول السلطة ـ من كونها أمانة ـ إلى وسيلة للاستئثار والغصب، والحيلولة دون أي انحرافات شهوانية أو ميول من جهة الحاكم، لاستعمال القوة المادية للدولة في القمع

والاستبداد. إن أرفع تلك الوسائل التي يمكن تصورها هي العصمة الذاتية في الحاكم، وهي من الأسس التي بنى مذهب الشيعة الإمامية على اعتبارها في صاحب الولاية السياسية.

ولم يكن البناء على هذا الأصل عبثاً، بل لما ينطوي عليه مقام العصمة الرفيع، من تحلي الموصوف به من علوم لدنيّة، وتحرر من غلبة الشهوات البهيمية، واجتماع سائر الصفات اللازمة لذلك المقام الرفيع، حتى يبلغ مستوى إصابة الواقع وعدم الوقوع في منافيات الصلاح، حتى بسبب الخطأ والاشتباه، هذا إضافة إلى درجة عالية من محاسبة الذات ومراقبة الله عز اسمه في كل شيء، وشعور بالمسؤولية عن جميع أفراد الأمة، وإيثار المجموع على الذات، حتى يصل إلى درجة من السمو لا يقدر على إدراك حقيقتها أحد، ولا يعرف كنهها عقل بشر.

ومع غياب المعصوم وعجزنا عن الوصول إلى هذا المقام المبارك، فإنه من النادر أيضاً العثور على حاكم حكيم، مستجمع للكمالات في ذاته. كما كان أنوشيروان، أو بوذر جمهر الذي فضلاً عن قدرته العلمية، اختار من العلماء هيئة تشير عليه، وتنبهه إلى أخطائه، وأقام بعمله هذا أساساً للرقابة والحساب والمسؤولية.

يعتبر نموذج أنوشيروان وبوذر جمهر، فاضلاً بالقياس إلى نماذج الحكومات الجورية، إلا أنه بعيد عن الصورة المثلى المطلوبة، بالنظر إلى عدم ضمانه للمشاركة الشعبية الكاملة، وانعدام المساواة بين الشعب والسلطان، وغياب الضمانات الكافية لسد أبواب الاستئثار والتفرد، وتمتع الشعب بكامل حقه في إبداء الرأي والاعتراض، هذا فضلاً عن أن سياساته الموصوفة بالعدل والفضل، تابعة لمقولة التفضل والامتنان من جانب السلطان الحكيم، لا على أساس استحقاق الشعب وكونه سيداً للبلاد وشريكاً في مغنمها ومغرمها. بكلمة أخرى فإن القضية تعتمد أولاً وأخيراً على إرادة الحاكم لا على إرادة الشعب، وكون العدالة حقاً ثابتاً له.

علاوة على هذه الثغرة الأساسية، فإن مصداق هذا النموذج الفاضل وحيد، بل هو أندر من العنقاء والكبريت الأحمر، ونمطيته واطِّراده أيضاً مما يمتنع عادة.

ولما كان الأمران كلاهما (العصمة والحكمة الفردية) غير متيسرين ولا مُطَّردين، فإن البديل الممكن هو إيجاد وسائل أخرى، تساعد على توفير الحد المقبول من

الصفات الفاضلة في الحاكم والسلطة. وإذا كانت هذه الوسائل خارجية، أي غير معتمدة تماماً على ذات الحاكم كما نفترض، فإنها ستجعل من الممكن وضع ضوابط وإطارات لعمل السلطة، تؤدي إلى قيام نمط من الحكم يتصف بالصفات الفاضلة. إن وجود هذا النظام هو الذي يوفر إمكانية استمرار الحكم على الصورة المطلوبة، ويحرر البلاد من قلق انقلاب السلطان على الشعب، والاتجاه إلى القهر والاستبداد.

بطبيعة الحال فإنه لا يمكن القول بأن الوسائل المقترحة، سترفع السلطان إلى مقام العصمة الذي عرضنا له آنفاً، لكنها قد تكون فعالة في جعله أقرب إلى النموذج الأعلى، ولو بمقدار التناسب بين المجاز والحقيقة، أو بين الصورة والمعنى. إن هذه الوسائل فعالة بغض النظر عن الطريقة التي سلكها السلطان حتى وصل إلى كرسيه، بالطريقة الشرعية كان، أو بالاستيلاء والغصب.

أهم تلك الوسائل اثنتان:

الضمانة الأولى: الدستور

يعتبر الدستور أعلى القوانين، وأحكامه لازمة الإجراء على كل فرد في جهاز الدولة، بمن فيهم الحاكم. ينبغي أن يتضمن الدستور تعريفاً وافياً يحدد طبيعة السلطة وأغراضها وواجباتها وكيفية ممارستها، كما يميز المصالح السياسية التي يجب على الحكومة العمل لإقامتها وحفظها، من المصالح الخاصة التي لا يحق لها التدخل فيها. كما يحدد صلاحيات الحاكم، ويعرف حقوق الشعب وحرياته، والحقوق الخاصة بكل طبقة من طبقاته، باعتبارها موافقة لمقتضيات الدين. كما يعين الحدود التي لا يجوز تخطيها، والأعمال التي يعتبر القيام بها من نوع التقصير في وظيفة الحراسة وحفظ الأمانة، التي يتحمل مسؤوليتها أصحاب القرار السياسي، بحيث يعتبر التفريط فيها مثل سائر أنواع خيانة الأمانة، موجباً للعزل الأبدي من السلطة، وسبباً لمواجهة العقوبات المقررة على كل من يدان بجريمة الخيانة.

وأخذاً بعين الاعتبار انتماء الدستور، بما فيه من تحديدات للمصالح والأنظمة، إلى أبواب السياسة والأنظمة النوعية، من الفقه، فإنه يعتبر في بابه بمنزلة الرسالة العملية التي يطرحها الفقيه لمقلديه، فيعرض خلالها فتاواه الخاصة في أبواب العبادات والمعاملات، باعتبارها واجبة على المقلد. إن الأساس في حفظ حدود السلطة هو

الالتزام بأحكام الدستور والحذر من تخطيها، كما هو و الشأن في الرسالة العملية بالنسبة للمكلف العادي، لهذا السبب فقد أُسمي الدستور (القانون الأساسي) و (الرسالة النظامية).

يستمد الدستور مشروعيته، من عدم مخالفة أي بند من بنوده لأحكام الشريعة المقدسة، وتضمنه جميع ما يلزم لحفظ مصالح البلاد والعباد. ولا نرى بعد هذا التحديد، ضرورة لأي شرط آخر لإثبات شرعيته أو تأكيد صحته. وسنعود في الصفحات الآتية لمزيد من التوضيح حول هذا الأمر وما يلزم لحفظه وحسن إجرائه.

الضمانة الثانية: الرقابة والمحاسبة

ولكي نضمن التزام السلطة بالدستور، وحسن قيامها بالمهام المنوطة بها، ينبغي إقامة هيئة للإرشاد والرقابة، تضم علماء البلاد وحكماءها، من المعروفين بالصلاح، والعارفين بأمور الدولة، ومقتضيات السياسة والقانون الدولي، تتولى النظر في أعمال المسؤولين التنفيذيين، للتأكد من مطابقتها لمصالح الشعب، كما تمنع أي تعد على حقوق المواطنين أو تفريط في حقوق الدولة. ويعتبر أعضاء هذه الهيئة ممثلين للشعب، وقوته العلمية، والمجمع الرسمي للهيئة هو مجلس الشورى الوطني.

إن فاعلية مجلس الشورى وقدرته على الوفاء بواجباته كاملة، وخضوع كل فرد من أعضاء السلطة التنفيذية لقراراته، هي الضمان الأعظم لاستقامة السلطة التنفيذية، وإلا فإن اختلال الميزان، بعجز المجلس عن ممارسة الرقابة، أو ترفع السياسيين عن مواجهة المجلس باعتبارهم مسؤولين عن أعمالهم، سوف ينتهي إلى الإخلال بمبدأ (محدودية السلطة) الأمر الذي يبدل السلطة الولايتية إلى سلطة تمليكية، ويعيد إحياء غول الاستبداد والتحكم.

وعلى الوجه الثاني من الصورة فإنه يلزم أن يكون أعضاء الهيئات الرقابية، مثل مجلس الشورى، مسؤولين أمام الشعب عن أعمالهم. فإذا لم يجر الأمر على هذا النحو فلا يؤمن من استبدادهم، وتحولهم إلى سلطة أخرى متجاوزة لحدودها، أو تهاونهم في محاسبة السلطة التنفيذية، مما يؤدي إلى نفس النتيجة.

أما مشروعية مجلس الشورى، فهي بناء على أصول أهل السنة والجماعة، تابعة لدليل ولاية أهل الحل والعقد، فهم يرون أن رأي أهل الحل والعقد من الأمة، ملزم

وواجب الاتباع. إن انتخاب هذه الهيئة من جانب الشعب هو الذي يعطيها صفة أهل الحل والعقد، ولا نجد من ثم داعياً للبحث عن دليل آخر للمشروعية.

وبناء على أصول مذهبنا الجعفري فإننا نعتبر أمور الولاية والنظام في عصر الغيبة، من وظائف نواب الإمام، وهم الفقهاء المجتهدون. وعليه فإن وجود بعض الفقهاء العدول في المجلس، أو على أقل التقادير الفضلاء المأذون لهم من الفقيه العادل، ثم موافقة الفقهاء على صحة ونفاذ الآراء الصادرة عن مجلس الشورى، يعتبر كافياً لإسباغ المشروعية على عمل المجلس. وسنعود إلى مزيد من التوضيح في الصفحات القادمة بعون الله.

اتضح لنا مما تقدم التمايز الكبير بين صورة السلطة التمليكية ونقيضتها الولايتية، وحال الشعب في ظل كل منهما، وصفات الدولة وأعمالها. والراهن أن جميع النتائج المترتبة على الاستبداد هي فروع لذلك الأصل الخبيث، كما أن جميع نواتج الولاية العادلة هي فروع لهذه الشجرة الطيبة.

إطلالة على التاريخ

إذا نظرنا إلى واقعنا الراهن، فإن ما حل بالبلاد الإيرانية من الخراب، وما انتشر فيها من أنواع الفساد، إنما هو ناتج طبيعي لخضوع شعبها للاستبداد السياسي، وجبروت أهل السلطة. ومع استمرار هذا الحال البائس، فإنه لا يستغرب تدهور أوضاع البلاد من كل النواحي، وأيلولة المجتمع إلى التمزق، بل إلى الفساد في الدين والدولة والأمة معاً، الفساد الذي لا يتوقف عند حد، هذه المآسي التي نخشاها ونشعر بالقلق من انحدار بلادنا إلى دركها، كلها نتائج لأصل الاستبداد، فهو الباب الذي ينتهي إلى طريق الخراب، ولا حاجة لبيان بعد العيان، ولا لأثر بعد عين.

إذا أردنا التأكد من فاعلية الحرية والمساواة، وما ينتج عنهما من ثمرات طيبة، فلننظر إلى تجربة الأسلاف. فعندما كان هذان الأصلان المباركان مستحكمين في حياة الأمة في صدر الإسلام، لم يتردد المواطنون العاديون في توجيه النقد إلى الحاكم، أمامه وفي حضور العشرات من الناس، حينما ظنوا أنه ميز نفسه عليهم ببعض المال. حيث يروي لنا التاريخ أن الخليفة عمر بن الخطاب، الذي يصفه المؤرخون بأنه كان مهاب الجانب، صعد المنبر يوماً وهو يرتدي حلة يمانية، فخطب داعياً المسلمين

للجهاد. فقام له أحدهم وصاح (لا سمعاً ولا طاعة) فلما سأل عن السبب، قيل له إن الحلة التي يلبسها غالية الثمن، بحيث لا يمكن أن يكون قد اشتراها من عطائه المخصص له من بيت المال، فلا بد أنه قد تجاوز على مال المسلمين فأخذ فوق ما هو مقرر له. عندها اضطر الخليفة إلى الإيضاح بأنه قد جمع عطاءه إلى عطاء ابنه عبد الله، لكي يدفع قيمة الحلة التي يلبسها.

وفي مناسبة أخرى كان يتحدث في أمر الخلافة، فسأل الحاضرين مختبراً ردّ فعلهم: ماذا لو ملت بكم؟. فبادر أحدهم وقال مخاطباً الخليفة: إذن لقومناك بالسيف.

ونستطيع الادعاء بأن الخليفة، شأنه شأن بقية الحضور، قد داخله السرور، حينما سمع هذا الجواب، لما ينطوي عليه من تأكيد على استقامة الأمة ووعيها بمضامين العلاقة بينها وبين الحاكم، وتمسكها بحقها الثابت في الرقابة على عمل الوالي ومحاسبته على سياساته. إن سرور الطرفين هو تعبير عن إيمانهم بحقيقة أن استمرار حاكمية الإسلام مرهونة باستمرار الولاة في الالتزام بواجباتهم ومسؤوليتهم تجاه شعبهم.

وحينما كانت الحكومة في عهد الإسلام الأول مؤسسة على هذين الأصلين (التزام الحاكم ورقابة الشعب) مع كل ما يترتب عليهما من تفريعات ومفاعيل، بحسب ما هو مقرر في الشريعة المقدسة، وحينما كانت السلطة لا تزال محتفظة بمضمونها كولاية، فإن المجتمع الإسلامي الذي بدأ صغيراً وبدائياً، أخذ في الانطلاق والتطور بسرعة حيرت العقول.

لقد انقلبت صورة الدولة الإسلامية بعد استيلاء بني أمية على الخلافة، فتحولت من ولاية وأمانة إلى ملكية مستبدة. وتحولت كل الفضائل التي تبلورت في المرحلة السابقة إلى نقائضها. وبدأت علائم الانحطاط تتسرب إلى الجسد الإسلامي، على الرغم من أن الأمة الإسلامية بقيت في الإجمال متميزة على الأمم الأخرى، بالنظر لأن هذه الأمم قد بقيت أسيرة لحكامها المستبدين.

لكن مع مرور الزمن فإن الأمم غير المسلمة قد اكتشفت السر الكامن وراء تقدم المسلمين، وبقائها ـ في المقابل ـ أسيرة للتخلف، في الوقت الذي كانت شجرة

الاستبداد التي نبتت في الدولة الإسلامية تؤتي أوائل ثمارها الخبيثة، حيث توقف العالم الإسلامي عن التقدم، وفي وقت لاحق بدأ بالانحدار، بينما كانت الأمم المسيحية قد انطلقت في المضمار المعاكس، وهكذا وجدنا، أن الأمة الإسلامية قد عادت في نهاية دورتها الحضارية إلى مستنقع الذلة والتخلف، وأصبحت كما كانت قبل الإسلام أسيرة النشأة النباتية الخسيسة، بعد أن بلغت من مدارج الرقي الإنساني أعلاها، مصداقاً لقوله جل اسمه: **﴿إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم﴾**.

الاستبداد والعبودية:

قلنا فيما سبق: إن الحرية والاستبداد هما المعلمان الرئيسيان اللذان يميزان بين الحكومات العادلة، ونقيضتها الجورية. وإذا تأملنا في المعاني العميقة لهذا التمايز فسنجد أن الصنف الثاني من الحكومات هو نوع من الاسترقاق والاستعباد للبشر. بينما نرى الصنف الأول تحريراً لهم من الاسترقاق والاستعباد. وبملاحظة التكييف الشرعي لكلا الحالتين، نجد في كلام الله المجيد وفي أحاديث الرسول والأئمة المعصومين عليهم السلام، تركيزاً على دعوة المؤمنين لتخليص رقابهم من عبودية الطغاة.

إن تحقق معنى العبودية، لا ينحصر في القيام بأداء فروض العبادة المتعارفة في العرف الديني الخاص، مثل التوجه للمعبود وإقامة الصلاة له على سبيل المثال، بل تشمل أي خضوع تام من جانب أحد للآخر، خضوعاً ينطوي على الاستسلام النفسي، المصحوب بالتنازل عن الحق الأصلي الذي وهبه الخالق للإنسان في الإرادة والاختيار الحر. ويصف القرآن الكريم خضوع بني إسرائيل لفرعون وتحملهم لما يوقعه بهم من العذاب، بأنه عبودية، على الرغم من أنهم لم يؤلهوه ولم يعتبروه ربّاً، كما فعل الأقباط. يقول تعالى على لسان نبيه موسى مخاطباً فرعون: **﴿وتلك نعمة تمنها علي أن عبّدت بني إسرائيل﴾** [الشعراء: ٢٢]. وهو يظهر أن موسى قد اعتبر قهر فرعون للإسرائيليين نوعاً من الاستعباد. وفي آية أخرى يرد على لسان قوم فرعون في سياق حديثهم عن موسى وأخيه: **﴿فقالوا أنؤمن لبشرين مثلنا وقومهما لنا عابدون﴾** [المؤمنون: ٤٧]. وفي ثالثة **﴿قال سنقتل أبناءهم ونستحي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾** [الأعراف: ١٢٧].

من الواضح أن عبودية الإسرائيليين لفرعون، التي يحكي عنها القرآن الكريم، لم

تكن بمعنى التدين، ولم تنطو على إقرار له بالألوهية، إن جوهرها هو الخضوع المطلق لمشيئته. ويقول النبي (ص) في الرواية المشهورة المتواترة عن استيلاء بني أمية على السلطة الإسلامية (إذا بلغ بنو العاص ثلاثين اتخذوا مال الله دولاً وعباده خولا)، وقد فسر صاحب المجمع معنى (خول) الأرقاء والعبيد، وفي القاموس ورد بمعنى المواشي وورد في الآية المباركة ﴿وتركتم ما خولناكم وراء ظهوركم﴾ [الأنعام: ٩٤]. وهي أيضاً دليل على التعميم.

ومحصلة ما يستفاد من الحديث النبوي المذكور، هو أن الدين سينقلب ـ بعد بلوغ الشجرة الملعونة ثلاثين ـ إلى دولة، وسيصبح عباد الله إماء وعبيداً، وحينها فإن مقامهم قابل للمقارنة بالمواشي والإنعام. وفي حديث للإمام علي بن أبي طالب عن محن بني إسرائيل وما لاقوه على يد فرعون، يقول (اتخذتهم الفراعنة عبيداً).

وفي شرح معنى هذه العبودية يقول: (فساموهم سوء العذاب وجرعوهم المرار)، فلم تبرح بهم الحال في ذل الهلكة، وقهر الغلبة لا يجدون حيلة في امتناع ولا سبيلاً إلى دفاع. وفي الخطبة ذاتها يعرض (ع) لحال بني إسماعيل وبني إسرائيل، تحت سيطرة الأكاسرة والقياصرة، فيبين أن هؤلاء لم يدعوا الألوهية، بل مارسوا القهر فطردوا أولئك المغلوبين على أمرهم من مساكنهم، ونفوهم عن أراضيهم من أطراف دجلة والفرات إلى أعماق الصحراء القاحلة من الماء والكلأ، كما هي سيرة الجائرين في كل الأعصار. ويعتبر الإمام علي هذه السياسة استعباداً للمقهورين، وادعاء عملياً للربوبية من جانب الجائرين (كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم يحتازونهم عن ريف الآفاق وبحر العراق، إلى منابت الشيح ومهافي الريح ونكد المعاش).

وفي خطبة ثالثة ينذر المسلمين بأن انهيار الدولة الإسلامية، سينحدر بهم إلى أسر الطغاة فيسومونهم سوء العذاب. ثم يقول بعدها: (وأيم الله لتجدن بني أمية أرباب سوء من بعدي) وعدوله عن تعبير (الولاة) إلى تعبير (الأرباب) يفيد هذا المعنى أيضاً، وهو متحد المعنى مع مستفاد الحديث النبوي الآنف الذكر.

وفي زمن لاحق تحدث الإمام الحسين (ع) عن غلبة بني أمية وتمكين دعيهم (يزيد بن معاوية بن أبي سفيان) من خلافة المسلمين، فاعتبر القبول بها إقرار بالعبودية لهم، فحينما طالبه أهل الكوفة بالنزول على حكم يزيد بن معاوية، أجابهم (لا أعطيكم بيدي

إعطاء الذليل ولا أقر لكم إقرار العبيد). ويقول أيضاً (هيهات منا الذلة، يأبى الله لنا ذلك ورسوله وجدود طابت وحجور طهرت النزول على طاعة اللئام عبودية لهم، فرفض هذا الخضوع، وضحى بكل ما يملك فداء للمحافظة على حريته وإفراد عبوديته لله تعالى، وقد أقام بهذا العمل سنة طيبة ونبراساً للأحرار من بعده، وتنزيهاً لعمله عن شوائب العصبية المذمومة.

ولهذا أفردت التواريخ الإسلامية لأصحاب مثل هذه الأدوار، مكاناً رفيعاً وأسمتهم أباة الضيم، يقول المرحوم الحلي في قصيدة له: [من الخفيف]

كيفَ يَلْوي عَلَى الدَّنِيَّةِ جيداً ... لِسِوَى الله ما لَوَاهُ الخُضُوعُ

إن أحرار الأمة الإسلامية على اختلاف الأعصار هم أغصان تلك الدوحة الندية، وفروع تلك الشجرة المباركة، إنهم قطرات من ذلك النهر الذي شقه سيد الشهداء.

ونجد في قصة الحسين مع الحر بن يزيد الرياحي. تأكيداً مجدداً من جانبه عليه السلام، على قيمة الانخلاع من أسر الطغاة والاحتماء بظلال الحرية والكرامة. يقول في تأبينه بعد أن سقط شهيداً في المعركة مع الجند الأموي (أنت الحر كما سمتك أمك، حر في الدنيا وحر في الآخرة).

***

وعودة إلى القرآن المجيد، يعد الله المؤمنين بالغلبة وبلوغ الخلافة الربانية، والتمكين في الأرض **﴿وعد الله الذين آمنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم في الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكنن لهم دينهم الذي ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمناً يعبدونني لا يشركون بي شيئا﴾** [النور: ٥٥]. إن وعد الله حتمي ومتحقق مهما طال الزمن، وبمطابقة مفاد الآية بالفقرات الأخيرة من دعاء الافتتاح فقد أشار بعض المفسرين إلى أن الآية، تشير إلى الكرامة الموعود بها المؤمنون في دولة صاحب الزمان (ع). وقالوا: إن القرآن ينفي الشرك عن صاحب تلك الدولة المهدي المنتظر عجل الله فرجه. والذي نفهم أن نفي الشرك عنه متحقق بعدم إذعانه لأي طاغوت، وتحرره من أي بيعة لطاغية في أي زمان، حيث يقول ولي الأمر فيما روي عنه (ليس في عنقي بيعة طاغية زماني).

وقد ورد أيضاً في تفسير الآية المباركة **﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون**

الله والمسيح بن مريم وما أمروا إلا ليعبدوا إلهاً واحداً لا إله إلا هو سبحانه عما يشركون﴾ [التوبة: ٣١]. إن المقصود باتخاذ الأحبار والرهبان أرباباً، هو الخضوع المطلق والطاعة الكاملة من جانب أهل الكتاب للأحبار والرهبان، وهو في هذا المعنى لا يختلف عن العبودية للطغاة والجائرين، من حيث أنه يحقق نفس الثمرات والنتائج.

وإلى هذا المعنى بعينه تشير الزواية الشريفة الواردة في كتاب الاحتجاج في ذم علماء السوء، ومنع اتباع طلاب الدنيا. وبهذا فقد اتضح لنا أن الاستعباد قابل للتحقق على صورتين: عبودية الأبدان، وهي التي يقوم بها الجبابرة، بإخضاع السلاطين رعيتهم بالقهر، وعبودية القلوب والعقول وهي التي يقوم بها الأحبار والرهبان، الذين أخضعوا أتباعهم بالدين وادعاء القداسة تدليساً ودجلاً وتضليلاً. ونستطيع تلمس الفرق بين الحالتين في المقارنة بين قول نبي الله موسى (ع) لفرعون، كما يحكيه القرآن عنه ﴿عبدت بني إسرائيل﴾ وقول علي (ع) (اتخذتهم الفراعنة عبيدا). وفي الجانب الثاني تقول الآية: ﴿اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله﴾ فهو يظهر لنا أن منشأ العبودية الأولى هو تملك الأبدان، ومنشأ العبودية الثانية هو تملك القلوب. كما أن الحالة الأولى تحكي عن استعباد الأقوياء للضعفاء بالجبر والقوة، بينما تحكي الحالة الثانية عن عبودية من جانب الضعفاء للأقوياء، تنطوي على قدر من القبول، وواضح أن هذه لا تكون إلا بتملك القلوب.

الاستبداد الديني والاستبداد السياسي:

من هنا تظهر جودة استنباط بعض علماء الفن الذين قسموا الاستبداد إلى نوعين: سياسي وديني، يرتبط كل منهما بالآخر ويسنده، واعتبروهما توأمين لا ينفك أحدهما عن الآخر. من المعلوم أن قطع شجرة الاستبداد الخبيثة، والخلاص من هذه العبودية الخسيسة، أسهل في الجانب السياسي منه في الجانب الديني. فالخلاص من الاستعباد السياسي قابل للتحقق، إذا التفت الشعب إلى حقيقة حاله وتنبه إلى إمكانية التحرر من قيوده.

وعلى العكس فإن التخلص من الاستبداد الديني أشد صعوبة، بالنظر إلى فاعلية السيطرة على القلوب، فإذا كان هذا سنداً وحافظاً للاستبداد السياسي، فإن الخلاص من قهر الطواغيت يصبح هو الآخر، شديد الصعوبة، إذ أنه لا يتحقق قبل الخلاص من

الاستبداد الديني.

ولسوء الحظ فإن أيامنا السوداء هذه، تشهد بما لا يدع مجالاً للشك، على الارتباط الوثيق بين نوعي الاستبداد، وقيام كل منهما بالآخر. إن هذه العلاقة مشهودة عياناً في بلادنا إيران، ولذلك سوف نشرح في خاتمة الكتاب وجه الصعوبة في معالجة الاستبداد الديني وامتداده في الاستبداد السياسي، عندما نعرض أيضاً لطريق الخلاص منه.

ونستطيع القول بصورة إجمالية، إن السماح للطغاة بالاستبداد والتفرد، لا يعد ظلماً للنفس وحرماناً من التنعم بنعمة الحرية، التي هي أعظم المواهب الإلهية للإنسان فحسب، بل هو كما تنص الآيات المباركة وروايات الأئمة المعصومين عبودية للطغاة، ومن درجات الشرك بالله الواحد الأحد، في المالكية لما خلق، والحاكمية بما يريد وعدم المسؤولية عما يفعل.

إن الغاصب لمقام الولاية لا يعتبر ظالماً للعباد، ومتعدياً على مقام الولاية بغصبه من أصحابه الشرعيين فحسب، بل إنه يعد فوق هذا بموجب النصوص الشرعية منازعاً لله في كبريائه، فهو ظالم لساحة الواحد الأحد عزت كبرياؤه.

وفي المقابل فإن التحرر من هذه العبودية الخسيسة، يعد من مراتب التوحيد ولوازم الإيمان الخالص بالوحدانية، في مقام الأسماء والصفات، فوق أنه علامة على الإقلاع في مستنقع البهيمية والنشأة النباتية، إلى عالم الشرف والمجد الإنساني. ومن هذا المنطلق فإن استنقاذ الأمم المقهورة، وتخليص رقابها من الرقية المنحوسة، ومساعدتها على نيل حريتها التي أنعم الله بها عليها، كانت من أهم أهداف الرسالات السماوية، ومن أجلّ الأعمال التي قام بها أنبياء الله عليهم الصلاة والسلام.

نجد في القرآن الكريم أن المطلب الأول لموسى وهرون عليهما السلام، من فرعون، هو تحرير بني إسرائيل من قهره وعبوديته، والسماح لهم بالخروج من مصر إلى الأرض المقدسة، **﴿إنّا رسولا ربك فأرسل معنا بني إسرائيل ولا تعذبهم﴾** [طه: ٤٧]. بل لقد ورد في خطبة أمير المؤمنين المعروفة بالقاصعة، أن موسى ضمن لفرعون بقاء ملكه لو استجاب له طلبه تحرير بني إسرائيل، لكن عدم استجابته، ومحاولته لإرجاع الإسرائيليين إلى أسرهم في مصر، كان سبباً في غرقه وجنده وانهيار

سلطانه. ونجد في الخطبة المذكورة نفسها تأكيداً من جانب الإمام (ع) على أن خلاص بني إسرائيل وبني إسماعيل من رق الفراعنة والقياصرة والأكاسرة، هو أحد الثمار الطيبة لبعثة خاتم النبيين صلوات الله عليه.

المساواة:

أما مساواة أفراد الشعب مع شخص الوالي في جميع الحقوق والأحكام، وشدة اهتمام الرسول (ص) بتكريس هذا الأساس المهم لسعادة الأمة، فنستفيده من سيرته (ص) في المسلمين. ونذكر هنا بعض الأمثلة من هذه السيرة العطرة:

١ ـ المساواة في الحقوق: أسر جند المسلمين أبا العاص بن الربيع زوج زينب ابنة الرسول، واقتيد إلى المدينة المنورة. فلما علمت زينب بأسره وكانت في مكة أرسلت حلية كانت لأمها خديجة بنت خويلد، إلى المسلمين لتفتدي به زوجها. فلما رأى رسول الله حلي خديجة زوجته هاجت به الذكرى وبكى، لكنه لم يطلب من المسلمين التنازل عن حقهم في الفدية التي يتوجب دفعها لإطلاق سراح زوج ابنته. فلما رأى المسلمون الأمر تأثروا أيضاً لموقف الرسول (ص) فتنازلوا عن حقهم، وأرجعوه إلى النبي ليتصرف فيه كما يشاء، فكان أبو العاص ممن أطلق سراحه بدون فداء.

٢ ـ المساواة في الأحكام: فقد أمر بتقييد عمه العباس بن عبد المطلب وابن عمه عقيل بن أبي طالب حينما أسرهما المسلمون، شأنهما في ذلك شأن بقية أسرى قريش، على الرغم من كونهما قد شاركا في الحرب جبراً. وقد أكد النبي بهذا على أنه لا توجد عائلة متميزة، أو شخص يمكن أن يستثنى من الأحكام العامة دون مبرر.

٣ ـ المساواة في الجزاء والقصاص: ففي أواخر أيامه (ص) خطب في المسلمين فأبلغهم بقرب رحيله إلى الدار الآخرة، وطلب من كل صاحب حق عنده يطلب حقه. فقام إليه أحدهم قائلاً: إن الرسول قد أصابه يوماً بعصا في كتفيه العاريتين، حينما أخطأ ناقته. فكشف النبي (ص) عن كتفيه وأمر بإحضار عصا غليظة، سلمها الرجل ليقتص حقه، فما كان من الرجل إلا أن قبّل رسول الله.

ومثلها إعلانه أن القصاص حق لكل صاحب حق، وأن الحدود جارية على كل مذنب مهما علا كعبه، حتى «لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها». ومن هذه الأمثلة وكثير مما سواها، نفهم مقدار اهتمام النبي الأكرم بتعليم الناس حقوقهم،

وتأكيده على مسؤوليتهم في حفظ هذه الحقوق وصيانتها من الانتقاص.

ونجد عصر علي (ع) زاخراً بالأمثلة على اهتمامه بإحياء هذه السنة المباركة، ومحو بدعة التمييز في العطاء، واسترداد القطائع التي أعطيت بغير حق. حتى إن بعض أصحابه مثل مالك الأشتر وعبد الله بن العباس وغيرهما، شجعوه على اتباع سيرة من سبقوه لإطفاء ثائرة الفتنة، بتفضل المهاجرين والبدريين وأمهات المؤمنين على من عداهم، وتفضيل العرب على غيرهم وما أشبه ذلك لكنه أسمعهم جواباً، كان من الحزم والخشونة بحيث لم يجرأوا على العودة إلى مثل هذا الاقتراح.

ويذكر المؤرخون أن عقيل بن أبي طالب قد أملق في خلافة علي، فطلب من أخيه زيادة عطائه صاعاً من حنطة، وكان ضريراً، فقدم إليه علي حديدة محماة، ما أن أحس عقيل وهجها حتى ضجّ. فقال له علي: (ثكلتك الثواكل يا عقيل، اتضجُّ من حديدة أحماها صاحبها للعبه، وتجرني إلى نار سجرها جبارها لغضبه). ومثلها عتابه لولده الحسن حين اقترض مدّ عسل من بيت المال، وهي القصة التي بكى معاوية حينما ذكرت له، مع كل ما كان يحمله في قلبه من غل لعلي وأهل بيته. وفي حادثة ثالثة: وجه على أشد اللوم إلى إحدى بناته وإلى خازن بيت المال حين أعارها عقداً، رغم أنها ضمنت ترجيعه. كما ينقل الطبري في تاريخه، وغير هذه من القصص التي سجلها المؤرخون عن عهده عليه السلام.

إن المبرر الوحيد لهذا التشدد من جانب أمير المؤمنين، هو ما رآه علي من ضرورة قصوى لتثبيت ركن المساواة العظيم، وإبراء ذمته من مسؤولية التفريط في صيانته وحفظه.

واتباعاً لهذه السنة الطيبة، فإن العلماء والروحانيين ورؤساء مذهب أهل البيت (ع) يتحملون مسؤولية الالتزام بهذه السيرة، وأن يسعوا في هذا العصر الميمون، الذي سيكون بعون الله وتوفيقه عصر اليقظة والسعادة، وانقضاء مرحلة السير التراجعي للإسلاميين، أن يسعوا بكل ما أوتوا من قوة لاستنقاذ حرية المسلمين المكبلة، واستعادة حقوقهم المسلوبة، وتخليص رقابهم من ذل عبودية الجائرين، عليهم أن يبذلوا من الجد أعظمه، ومن الهمة أعلاها، لاستئناف سيرة الأنبياء والأولياء وإدامة طريقهم، حتى لو لم يدركوا كل ما يبتغون فـ (ما لا يدرك كله لا يترك كله).

عليهم الاجتهاد في تحويل السلطة الغاصبة من صورته الملكية الاستبدادية إلى الصورة الولايتية، التي ستكون بإذن الله سبباً في إعادة الأمور إلى مجاريها وإصلاح أمور الأمة، بعد أن أدى تطاول الزمن في ظل الاستبداد، إلى سيطرة الكفرة على بلاد المسلمين، وشيوع المفاسد وتفاقم أسباب الخراب الذي نشهده عياناً، حتى ليوشك أن يصبح أصل الدولة الإسلامية على شرف الانقراض والتآكل.

على علماء الإسلام بذل مهجهم في المجاهدة من أجل حفظ بيضة الإسلام العزيز. وأول خطوة في هذا الطريق، تنبيه الغيورين من بني الإسلام إلى ضرورة تحرير رقابهم من رقية الجاثرين، وتعليمهم بأن الله قد منحهم حقاً ثابتاً في المساواة مع كل أحد في البلاد، والمشاركة الكاملة في أمور البلاد مع أهل السلطة. لا بد من تنبيههم إلى الأخطار المترتبة على احتكار السلطة من جانب طبقة محددة، تستفرد بالأمر، ولا تقيم وزناً لمسؤولياتها، كما لا تتعرض للمحاسبة والرقابة.

إن تنبيه الشعب إلى هذه الحقائق، هو الأساس الذي سيقوم عليه سعيهم الجاد من أجل حريتهم، ويقدح نار الحماسة في أنفسهم، حتى يبذلوا غاية الجهد في سبيل بلوغ الهدف الأسمى.

تحريف الدين:

قلنا: إن علاج الاستبداد الديني أشد صعوبة من توأمه السياسي، فبعد أن عرف أهل الاستبداد شدة اهتمام الناس بحفظ دينهم، وقبولهم لكل ما ينطوي في إطاره، أخذوا في استغلال المحذورات الشرعية لتشويه صورة العدل، تاركين مفاد الأمر الرباني المبارك ﴿**ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون**﴾ [البقرة: ٤٢]، وراء ظهورهم. فبدل أن يعلموا الناس قيمة العدل والحرية، ويعرفوهم بسيرة الأنبياء والأولياء، في إقامة الحق ورفض الظلم، فقد فسروا هذه المطالب بصورة قبيحة، جعلت قلوب الناس في وجل منها. فحرية الشعب التي يطالب بها الشرفاء والغيارى، فسرت على لسان أهل الاستبداد بأنها مطالبة بحرية الإلحاد، والسماح للزنادقة والفساق بإظهار بدعهم، بل ادعوا أن إقرار الحرية سوف يؤدي ضرورة إلى ترك النساء لحجابهن الشرعي، وغير ذلك من الأمور التي لا علاقة لها بالموضوع، لكنهم عرضوها للناس باعتبارها من لوازم الحرية، طمعاً في تشويه صورة الحرية الحقيقية

ودفاعاً عن أصل الاستبداد.

أما المساواة في الحقوق والواجبات، فقد عرضوها باعتبارها مقدمة لمساواة المسلمين بأهل الذمة، في أبواب التناكح والتوارث والقصاص والديات، بل مساواة أصناف المكلفين في نوعية التكاليف الشرعية المتوجهة إليهم. مثل مساواة البالغ بالقاصر، والعاقل بالمجنون، والمختار بالمضطر، والموسر بالمعسر، والقادر بالعاجز، إلى غير ذلك من الأمور والموضوعات التي تختلف باختلافها التكليفات والأحكام.

مثل هذه الموضوعات أبعد ما تكون عن قضية الحرية والاستبداد، بل إن المسافة بين هذه وتلك كالمسافة بين السماء والأرض، لكن المستبدين يلحّون في خلط الأمرين، وعرضهما على مائدة واحدة، طمعاً في تنفير المسلمين الحريصين على دينهم، والحريصين على تقاليدهم من دعاة الحرية والمطالبين بالمساواة، واستقطاب تعاطفهم مع السلطات المستبدة، التي تدعي الدفاع عن حريم الدين وتقاليد الشعب.

لقد عرضت الحرية والمساواة اللتان هما من أعظم النعم الإلهية على البشر، عرضت على لسان المستبدين، خالية من كل مضمون وفاقدة لكل معنى، سوى خرق الحرمات، ونقض التقاليد، وتساوي المختلفين في التكليف. وربما اعتذر البعض لهؤلاء بأنهم يدافعون عن مواقف سياسية آنية، لكن هذا التبرير لا يشفع لهم في تشويه أصلين عظيمين، هما رأسمال الشعب وباب سعادته، بل هما من لوازم الإنسانية ومن أسس الشرائع السماوية. لقد بذلوا في هذا الغرض كل جهد استطاعوه، لكن مسعاهم بإذن الله خائب وريحهم نفخ في شبك، فالشمس لا يحجبها غربال، والنهر لا توقف دفقه مسحاة، والظن بأن تيار الحرية قابل للوأد ضرب من البله وسخافة العقل.

لقد مر زمن على شعب إيران تطاول فيه الاستبداد واتسع نطاق الجهل، حتى لم يعد هذا الشعب يسمع أو يرى أو يدري عن حقائق الحياة ومقتضيات الدين، كما لا يعرف حقوقه الوطنية، ولا يعي ما هو فيه من رقية لعينة، فأمسى بسبب هذا الاغتراب عن واقعه، لقمة سائغة بيد الناهبين والسرقة أكلة الحرام، من لابسي العمائم أو لابسي القبعات. وأصبح لهذا السبب أيضاً، عاجزاً عن اكتشاف العلاقة بين هذا الواقع الأليم، وبين غياب الدستورية وتحديد سلطات الحاكم. ولم يعد يرى لنفسه محلاً أو مقاماً،

سوى خدمة الغالبين والوفاء بمطالب المتسلطين.

لكن مهما حدث، ومهما تطاول الجهل واستشرى، فلن يغيب عن بال الشعب، حقيقة أن المحاولات المستميتة للعلماء والعقلاء والتجار والأخيار، وجميع الغيورين على الوطن والدين بطبقاتهم المختلفة، لم تبذل من أجل إطلاق النساء في الشوارع بلا حجاب، أو السماح بنشر الفساد والزندقة والبدع، أو إلغاء الأحكام الشرعية وتبديلها. سيفهم الشعب أن مطالبة رؤساء المذهب بالحرية والمساواة وتحديد صلاحيات الحاكم، لا تستهدف إلا نيل رضا ولي الأمر، إمام العصر، أرواحنا فداه، بالعمل لحفظ بيضة الإسلام، وصيانة البلاد الإسلامية من الخراب والفساد، وهذا لا يتحقق إلا بإقرار تلك الأمور.

أما أولئك النفر من الجبابرة وطواغيت الأمة، ومبدلي أحكام الله ومروجي أصناف الفسوق والفجور في البلاد، فإنهم يعرفون حق المعرفة، أن أعمالهم الشنيعة لا تستهدف غير حفظ مناصبهم وامتيازاتهم، وتسلطهم على رقاب الناس، حتى يفعلوا ما يشاؤون ويحكموا بما يرون، ولا يسألوا عما يفعلون، هذا هو مقصدهم الوحيد لا يرومون سواه.

وأما أعوان الظلمة وحراسهم من حملة لواء الاستبداد الديني، فهم أسوأ حالاً. فقد وصفتهم الروايات الواردة عن المعصومين (ع) بأشنع الأوصاف. ففي (الاحتجاج) بعد أن يعدد أوصافهم يقول عليه السلام في آخر الرواية: (أولئك أضر على ضعفاء شيعتنا من جيش يزيد على الحسين).

أخيراً فإن هؤلاء الفاسدين لا مكان لهم، ولا مكاسب من وراء عملهم سوى الفضيحة الأبدية، وخزي الدارين، وعذاب الله العظيم ﴿**وإذ أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب لتُبيِّنُنَّهُ للناس ولا تكتمونه، فنبذوه وراء ظهورهم واشتروا به ثمناً قليلاً فبئس ما يشترون**﴾ [آل عمران: ١٨٧]. هذا طريق الخائنين، وهذه نتيجة عملهم ﴿**سنة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنة الله تبديلا**﴾ [الأحزاب: ٦٢].

الفصل الأول

في أن أصل جعل السلطة كان ولاية وأن تحويلها إلى التمليكية من بدع الطواغيت والظالمين

وفيه مقامان:

المقام الأول: في أصالة تحديد السلطة شرعاً

أوضحنا في المقدمة أن الغرض الأصلي للسلطة، هو صيانة النظام ورعاية مصالح الرعية، وتيسير الوسائل اللازمة لتقدم الشعب ورفاهيته. ولهذه الأغراض جرى ترتيب القوى الخاصة بالسلطة، ووضع المال العام تحت يديها، لا لغرض الاستمتاع بالتسلط وإنفاق ثروات البلاد، في إشباع شهوات الحاكم، وتسخير الرقاب لإراداته.

وقد تقررت هذه الأغراض في كل الشرائع، بل لدى كل عاقل، واعتبر إنجازها أمانة عند من هي بيده، بغض النظر عن كيفية حصوله عليها، بالحق أو بالقوة والاغتصاب، ونستطيع تشبيه الولاية السياسية من حيث التناسب بين صاحبها وبين عامة الشعب، بالمثال الآتي: لنفرض أن لدينا وقفاً عاماً يستفيد منه أناس عديدون، فجرى تكليف أحد الموقوف عليهم بالقيام على ولاية الوقف المشترك بينه وبين الآخرين. فالمتفق عليه أن الولاية على الوقف تلقي على كاهل الولي مسؤولية حفظ هذا المال، وضمان تساوي المستفيدين في الاستفادة منه، وإيصال كل حق إلى صاحبه، وبكلمة أخرى فإن نفس مفهوم الولاية هنا، يتضمن منع أي تصرف من قبل الولي يؤدي إلى خلاف مصلحة الموقوف عليهم. فالقيام بأمر الولاية في هذه الحالة، مختلف عن القيام على الملك الشخصي، من حيث أن المالك قادر على التصرف كيف شاء في ملكه، لكن تصرف الولي في موضوع الولاية، مشروط بقصد الوفاء بأغراضها المحددة، والاقتصار على ما يضمن مصالح المستفيدين، والتسوية بينهم في الاستفادة من مالهم، دون غيرها من التصرفات.

فالولاية على أمر المسلمين هي من هذا النوع لا من نوع التملك، أو تصرف المالك في ملكه. ولذلك أطلق أئمة الدين وعلماؤه على صاحب هذه الوظيفة اسم

الوالي والراعي، كما أطلق على الشعب اسم الرعية.

فممارسة السلطة إذن، ولاية على حفظ نظام البلاد وصيانة مصالحها، وهي متوقفة على النصب الإلهي، لأن الله سبحانه هو المالك الحقيقي، وهو الولي بذاته وهو واهب الولاية للغير. وتجد تفصيل هذا الأمر في مباحث الإمامة من الكتب المختصة.

وبالنظر لما علمت من كون القهر وتسخير العباد والبلاد، من أشنع مظاهر الظلم والعلو في الأرض، ومنازعة الله رداءه (الكبرياء) ومنافاته لأهم مقاصد الأنبياء. فإن السكوت عن شجرة الاستبداد الخبيثة، لم يكن محتملاً أو مقبولاً في أي دين من الأديان السابقة. بل يظهر من القرآن الكريم أنه حتى بعض الحكومات الكافرة، كانت بسبب رجحان عقول ولاتها، تأخذ بالشورى ولا تعمل بالاستبداد.

كما في قصة بلقيس ملكة اليمن التي كانت وقومها يسجدون للشمس من دون الله، إلا أنها مع ذلك ما كانت تقرر أمراً قبل مشورة عقلاء قومها **﴿قالت يا أيها الملأ أفتوني في أمري ما كنت قاطعة أمراً حتى تشهدون﴾** [النمل: ٣٢]. بل حتى في النظام الفرعوني. الذي كان مستبداً ببني إسرائيل، أظهر القرآن أنه كان لديهم نوع من الشورى فيما يتعلق بأمور قومهم، كما فعلوا حين أرادوا تقرير الموقف تجاه دعوة موسى (فتنازعوا أمرهم بينهم وأسروا النجوى). وفي أيامنا هذه نجد تعامل الحكومة البريطانية مع شعبها، قائماً على الشورى ومنع الاستبداد، في الوقت الذي تعامل الشعوب الواقعة تحت استعمارها بالظلم والتجبر، كما هو حالهم في الهند، وبقية البلاد الإسلامية المستعمرة، التي يعامل أهلها كالأرقاء والأسرى على يد الإنجليز **﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم ويستحي نساءهم﴾** [القصص: ٤]. من البديهي أن غفلة الهنود وغيرهم من المسلمين عن واقعهم، هو السبب الذي أدى بهم إلى هذا المآل، وهم لا زالوا مع شديد الأسف في نوم عميق.

على كل حال فإنه من الثابت لدينا، أن أصل السلطة في الإسلام، بل في جميع الشرائع السماوية السابقة، يرجع إلى باب الأمانة والولاية، أي ولاية أحد المشتركين في المصلحة على إنجاز حاجات البقية، دون تميز له بما يتجاوز حقه، ومع اشتراط ضمان أن لا يتحول بالولاية، إلى الاستفراد والتحكم، وتقديم إراداته الشخصية على

إرادة المجموع. فهذه الحقيقة من أظهر الضروريات في الدين الحنيف، بل في كل الأديان والشرائع، كما أن رجوع التجاوزات والتحكم الشهواني، إلى تحكيم الهوى، وطغيان فراعنة الأمم من أوضح الواضحات.

لكن ما جرى من الانحراف في العصور الإسلامية المتقدمة، هو الذي أخرج الولاية الإسلامية عن هذا الأصل، وجعلها ملكاً عضوضاً يقوم على التحكم والاستبداد. وكما في الحديث النبوي الشريف المتواتر بين الأمة، واتفاق التواريخ الإسلامية على وقوع ما أخبر به النبي (ص) فإن تحويل السلطة الإسلامية من الولاية إلى الاستبداد، قد جرى على يد معاوية بن أبي سفيان، الذي باستيلائه على السلطة، انتهى عصر الخلافة الإسلامية، وأصبح النظام الحاكم ملكاً، يتوارثه الأبناء بعد الآباء، ضمن العائلة الواحدة.

المقام الثاني: في درجة محدودية السلطة

قلنا مجملاً: إن المذهب الجعفري الإمامي، يعتمد القول بالنصب الإلهي للولي على أمر الأمة. ثم إننا نقول بضرورة العصمة لصاحب هذا المقام، ليس فقط لحفظه من التحكم، بل وللوفاء بالمسؤوليات التي يقتضيها تولي هذا المقام.

أما بناء على أصول أهل السنة الذين لا يعتبرون التنصيب الإلهي ولا العصمة في ولي الأمر، بل أقاموا الولاية على انعقاد بيعة أهل الحل والعقد لشخص معين. فإن الولاية عندهم مشروطة بعدم تجاوز حدود ما أقره الكتاب المجيد والسنة المطهرة، بل اعتبروا ذكر هذا الشرط لازماً في عقد البيعة ذاته. كما قالوا بأن مخالفة الكتاب والسنة أياً كان مقدارها، منافية لشروط البيعة والولاية، وهم متفقون على وجود الحيلولة دون هذا التجاوز.

ومع غض النظر عن كفاءة المتصدي للولاية، مع الإغماض عما هو لازم لمقام العصمة مما يختص به مذهبنا، فإن تحديد السلطة الإسلامية بما لا يصل إلى الاستفراد، والعمل بالهوى الشخصي والاستئثار، والمنع من اشتغال أصحابها بغير أغراضها المجعولة لها أصلاً، هو القدر المسلم به بين الفريقين، والمتيقن على المذهبين، وهو مورد اتفاق الأمة، وهو إلى ذلك من ضروريات الدين الحنيف.

ولكن لأن حفظ هذه الدرجة المسلم بها بين الأمة، غير ممكن بحسب الطاقة

البشرية الاعتيادية إلا مع تمتع الولي بملكة العصمة، ولأن الوصول إلى المعصوم غير متيسر في كل الأزمنة والأماكن، فقد أصبح من اللازم إيجاد وسائل أخرى لضبط وصيانة مقام الولاية، لا سيما مع ما نراه من تصدي الغاصبين، وهذا أمر لا ينكره مسلم يظهر الشهادتين، إلا أن يخرج من ملتنا أو يدين بغير ديننا.

الفصل الثاني

في بيان التكليف في عصر الغيبة

في هذا العصر حيث الإمام المعصوم غائب عن الأنظار، ومقام الولاية مستلب من نوابه العامين، بحيث لا يستطيعون القيام بوظيفتهم، أو أنهم لا يقدرون على استرجاعها واستنقاذها من الغاصب، فهل نعتبر أنفسنا مكلفين شرعاً بالعمل لإعادة الولاية إلى صورتها الصحيحة، أو على أقل التقادير تحديد الاستيلاء الجوري بالقدر الممكن. أم أن التكليف قد سقط عنا بقيام الغصب؟ فهذا هو موضوع هذا الفصل، وهو تنقيح للمقام الثاني من الفصل الأول.

وفي البداية نعرض ثلاثة مطالب من باب المقدمة:

المطلب الأول: من الثابت في باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، أن الردع عن كل منكر بمفرده واجب مع وجود القدرة عليه بمفرده أيضاً، فلو أن شخصاً معيناً ارتكب منكرات متعددة، فردعه من كل واحدة من هذه المنكرات، تكليف مستقل بذاته، يثبت وجوب الإتيان به حالما يصبح ممكناً بمفرده، وليس له أي ارتباط بالتمكن من ردعه عن المنكرات الأخرى.

المطلب الثاني: من جملة قطعيات مذهبنا، أن الولايات النوعية (العامة) التي علم عدم رضا الشارع بإهمالها في زمن الغيبة، تندرج تحت عنوان (الوظائف الحسبية). وفي رأينا أن قيام فقهاء عصر الغيبة بها نيابة عن المعصوم من الثوابت، وهي القدر المتيقن في مقام ولاية الفقيه، حتى مع عدم ثبوت النيابة العامة في جميع المناصب.

وبالنظر إلى قطعية عدم رضى الشارع باختلال نظام الأمة، وذهاب بيضة الإسلام، فإن عدم رضاه عن إهمال الوظائف المتعلقة بحفظ البلاد الإسلامية، صيانة نظامها، هو ـ تبعاً لذلك ـ من أوضح القطعيات. إن هذه الوظائف، بالنظر إلى تأثيراتها الكبرى على الإسلام والمسلمين، من أهم الأمور الحسبية، بل أهمها جميعاً. ولهذا فإن ثبوت نيابة الفقهاء، والنواب العامين للإمام (ع) في عصر الغيبة، في إقامة تلك الوظائف، من قطعيات المذهب.

المطلب الثالث: من الثابت عندنا، بل من المسلم به عند جميع علماء الإسلام، في أبواب الولايات على مثل الأوقاف العامة والخاصة، أنه لو أن غاصباً وضع يده عدواناً على شيء منها، ولم يمكن رفع يده مباشرة وبصورة كاملة عنها، لكن أمكن تحديد تصرفه بترتيبات أخرى، مثل تعيين هيئة أمناء على الوقف، للنظر في تصرفات الغاصب، ومنع التعدي والحيف، وصيانة المال عن الاستهلاك في غير الموارد الموضوع لها (جزئياً أو كلياً) فوجوب القيام بهذه الترتيبات بديهي، وخلافها غير محتمل، ليس عند المتشرعين فقط، بل عند جميع العقلاء. إن عدم التمكن من إدراك المصلحة بتمامها، لا يخلي المكلف من مسؤولية إدراك بعضها الممكن.

إذا تمت هذه المطالب الثلاثة، فإنه لا مجال للتشكيك في وجوب تحويل السلطة الغاصبة، من الصورة الأولى (التملك) إلى الصورة الثانية (الولاية) عند توفر القدرة للمكلفين. ذلك لأن الصورة الأولى تنطوي على اغتصاب لرداء الكبرياء الإلهي، وغصب لمقام الولاية، وظلم لصاحب الإمامة، كما أنها ظلم للعباد والبلاد، بخلاف الحال في الصورة الثانية، حيث أن الظلم فيها متوجه إلى مقام الإمامة المقدس فحسب، ومنفي عن صور الظلم الأخرى بما فيها الظلم لله والناس.

فحقيقة التحويل والتبديل للسلطة الجائرة إذن، هي تحديد سلطة الجائر وردعه عن ظلم الله والناس، وليس إزالة أحد مصاديق الظلم ووضع مصداق آخر محله. وبعبارة أوضح فإن تصرفات السلطة في الصورة الثانية، محدودة بحدود ما ينبغي فعله لحفظ البلاد وصيانة نظامها، ولا تتجاوزها إلى ما هو أبعد. بينما هي في الصورة الأولى مطلقة لا تتوقف عند حد، فتبديل هذه السلطنة هو في حقيقته إيقافها عند الحد الممكن، ومنعها من التعدي إلى غيره من التصرفات، الزائدة عن وظيفتها الأصلية.

بتقريب آخر فإن تصرفات السلطة في الصورة الثانية، هي نفس التصرفات الثابتة لصاحب الولاية الشرعية. وفي حال كون المتصدي غير كفءٍ للمقام، فإنها تكون مثل تدخل المتولي الغاصب في أمر الموقوف، كما في المثال الذي أوردناه في المطلب الثالث آنفاً، إذا أمكن تحديد تصرفه بتعيين هيئة من النظار والأمناء.

وأما تحصيل المشروعية لهذا الترتيب، فهو ممكن إذا صدر به الإذن ممن له الولاية الشرعية، بل يمن أن يكون إذن صاحب الولاية الشرعية، سبيلاً إلى إخراجه من صفة

الغصب، فلا يعود المتصدي غاصباً أو ظالماً لمقام الإمامة والولاية، مثله في ذلك مثل المتنجس عرضاً، الذي يطهر بسكب الماء عليه.

وهذا على خلاف الحال في الصورة الأولى، حيث أن تصرفات المتصدي هناك ظلم قبيح بالذات، وغير لائقة لارتداء ثوب المشروعية، وصدور الإذن فيها غير جائز أصلاً، وهو أشبه بتملك الغاصب للعين الموقوفة، وإبطال وقفيتها، أو مثل المتنجس بالأعيان النجسة، الذي لا يقبل الطهارة ما دامت عين النجاسة باقية في المحل، إلى أن تزال، فهذه لا تصحح إلا بتحويلها، بمثل تعيين هيئة نظار يقومون على صيانة العين الموقوفة المغصوبة، وتحديد تصرفات المتصدي بوجوه الصلاح دون غيرها، وصرف عائدها في الموارد المقصودة بها، ومنع الحيف والميل، فكل هذه من نوع إزالة عين النجاسة عن المحل المتنجس.

من المناسب هنا ذكر هذه الرؤيا الصادقة التي حصلت لأقل خدام الشرع الشريف (الكاتب) في هذه الأيام. فقد رأيت قبل عدة ليال في الرؤيا، المرحوم آية الله ميرزا حسن خليل الطهراني (قدس سره)، وبعد ما التفت إلى وفاته، أخذت أسأله عن عالم الموت والبرزخ والآخرة، فامتنع عن الجواب، فسألته أسئلة أخرى فأجاب على لسان صاحب العصر أرواحنا فداه. فمنها سؤال عن نظره (ع) في مسألة المشروطة، فكانت عبارته هكذا: إن حضرته قال: إن اسم المشروطة مع أنه جديد إلا أن أصل المسألة قديم، وذكر مثالاً للمسألة لم يبق في ذهني، ثم قال: إن المشروطة مثل أمة سوداء يدها قذرة، فتطهر بغسل يدها.

ولعمري إن هذا المثال المبارك منطبق أدق الانطباق على المسألة، مع أنه لم يصل إلى ذهن أحد. ويدل على صحة الرؤيا إضافة إلى القرائن، ما هو واضح من أن السواد إشارة إلى غصبية أصل التصدي، وقذارة اليد إشارة للغصب الزائد، والمشروطة لما كانت مزيلة له فقد شبهت بغسل اليد الغاصبة (القذرة).

وعلى أي حال فإن حفظ تلك الدرجة المتفق عليها من محدودية السلطة الإسلامية، هو كما علمت موضع اتفاق الأمة، بل من ضروريات الدين الإسلامي، إضافة إلى أنه في نفسه من أهم الواجبات النوعية (العامة) على المسلمين، ومن أعظم نواميس الدين.

وفي حال اغتصاب مقام الولاية من جانب أحد الجائرين، كما هو حال إيران الآن فإنه من ضروريات مذهبنا، عدا عن أنه يتبع من جهات عديدة، عنوان الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وحفظ النفوس والأعراض والأموال الخاصة بالمسلمين، ودفع الظالمين.

فضلاً عن هذا فإن السياسيين والمطلعين على أحوال العالم، من الإسلاميين وغيرهم، يتفقون على أن بداية انحطاط العالم الإسلامي، كان بسبب سيادة الاستبداد والعبودية، التي وقع تحت نيرها المسلمون، منذ قيام حكومة معاوية ومن بعده يزيد وأمثالهما. بينما تنسب انطلاقتهم الأولى إلى ما تمتعوا به في تلك الأيام الزاهرة من سلطة عادلة شورية، وحرية لكل واحد منهم، ومساواة بينهم وبين أهل السلطة وبطانة الحاكم، في الحقوق والواجبات.

وإذا لم يخرج المسلمون من غفلتهم هذه، ويتحرروا من ذل العبودية لفراعنة الأمة، فإنه لن يمضي وقت طويل، حتى يمسوا مثل مسلمي معظم البلاد الأفريقية والآسيوية، الذين ضيعوا نعمة وشرف الاستقلال القومي والديني، وخضعوا لحكم النصارى. ولن يمر وقت طويل حتى يمسوا مثل مسلمي الأندلس، الذين بدل الغاصبون إسلامهم إلى النصرانية، ومساجدهم إلى الكنائس وآذانهم إلى النواقيس. بل لعلنا نجد المشهد المقدس لثامن الأئمة، يداس بأقدام النصارى، وقى الله المسلمين هذا المصير ولا أرانا مثله.

ومع الوضوح الكامل لهذا الأمر وحصول بعض مقدماته القريبة ومباديه، إلى درجة قيام جيراننا في الشمال والجنوب، بوضع خريطة لتقاسم بلادنا بينهم، وتوالي مشاهدة أشباه هذا الأمر، فلا بد من لزوم الحذر.

وعلى هذا فمن البديهي أن يكون تحويل السلطنة الغاصبة من الصورة الأولى الاستبدادية، إلى الصورة الثانية، موجباً لحفظ بيضة الإسلام، وصيانة حوزة المسلمين، من استيلاء الكفار، فضلاً عما ذكرناه من موجباتها على الصعيد الداخلي. ولهذا فإن السعي فيه من أهم الفرائض الشرعية، جمع الله على الهدى كلمتنا، ولا جعلنا ممن يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت، بمحمد وآله الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين.

الفصل الثالث

هل المشروطة بركنيها (الحرية والمساواة) الوسيلة المتيقنة والمأمونة لتحديد السلطة

يستوجب تحقيق الفصل وإيضاحه بيان ثلاثة مطالب:

المطلب الأول: أوضحنا سابقاً أن حقيقة السلطة الإسلامية، ولاية على أمور الأمة، وأن صلاحيات الحاكم محدودة بحدود مقررة، كما أنها قائمة على أساس المساواة بين الوالي والرعية في جميع الأمور النوعية، وعلى مشورة عقلائها، وهو ما نسميه بالشورى الوطنية العامة. وليس اقتصار الشورى على عدد محدود من أعوان الحاكم، وهو ما يسمى شورى البلاط، وهذا ثابت بالنص القرآني الكريم، وبالسنة والسيرة النبوية الشريفة. وقد كانت هذه الأمور محفوظة في الدولة الإسلامية حتى استيلاء معاوية على الخلافة، فهي تعتبر عند عامة المسلمين من المسلمات.

وينبغي هنا ملاحظة أن الأحكام الشرعية خارجة عن مقام الشورى، وخروجها من باب التخصص لا التخصيص. أما الآية المباركة ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ [الشورى: ٣٨]، فإنها وإن كانت في نفسها غير دالة على أكثر من رجحان المشاورة، إلا أن دلالتها على الارتباط بين وضع الأمور النوعية (السياسية العامة) ومشورة النوع (أهل الحق والخبرة في هذه الأمور) في غاية الظهور.

وأما الآية المباركة ﴿وشاورهم في الأمر﴾ [آل عمران: ١٥٩]، فخطابها موجه لرسول الله (ص) وهو العقل الكلي المعصوم، حيث كلفه الباري سبحانه وتعالى بمشاورة عقلاء الأمة، ودلالة الآية على ضرورة الشورى في غاية البداهة وكمال الظهور. معلوم بالضرورة أن الضمير في (شاورهم) عائد إلى جميع أفراد الأمة، مهاجريهم وأنصارهم، وليس على أفراد معينين. أما تخصيصنا لأهل الشورى بالعقلاء من الأمة وأهل الحل والعقد، فعلى أساس المناسبة الحكمية والقرينة المقامية، وليس من باب الصراحة اللفظية.

ونستفيد من كلمة (الأمر) في الآية المباركة، أن متعلق المشورة المقررة في

الشريعة المطهرة، جميع الأمور السياسية، فالكلمة محلاة بـ ال التعريف) المفيدة للعموم الإطلاقي، وهذه الدلالة في غاية الوضوح، ولكن يخرج من هذه العموم ـ كما سبق وأشرنا ـ الأحكام الإلهية، من باب التخصص لا التخصيص.

كما أن في سيرة النبي صلوات الله عليه دلائل كثيرة على اعتماده المشورة مع الأصحاب في الأمور العامة (أشيروا علي أصحابي). وتنطوي كتب السير، على روايات لكثير من الحوادث الدالة على موافقة النبي على رأي الأكثرية، حتى لو جاء رأي الأكثرية على خلاف رأيه (ص). ومنها مثلاً أخذه برأي الأصحاب في غزوة أحد. فعلى الرغم من أنه ومعه جمع من الأصحاب كان يرى عدم الخروج من المدينة، إلا أنه أخذ برأي الأكثرية التي مالت إلى الخروج، وتحمل لأجل هذا ما تحمل من معاناة في تلك المعركة.

وعلى سيرة النبي (ص) جرت سيرة الخلفاء الأولين، وتشهد التطورات الإيجابية على حسن وصحة هذا السيرة. أما أمير المؤمنين فيخاطب الناس في صفين بحضور ما لا يقل عن خمسين ألفاً من المسلمين، فيقول في بيان الحقوق المتقابلة بين الراعي والرعية:

(فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي، ولا التماس إعظام لنفسي، فإنه من استثقل الحق أن يقال له، والعدل أن يعرض عليه، كان العمل بهما عليه أثقل، فلا تكفوا عن مقالة بحق أو مشورة بعدل).

وما أجمل أن نتأمل نحن الذين ندعي الانتماء إلى مذهب أهل البيت، في هذا الكلام الرفيع، فنحاول فهمه بعيداً عن الأهواء النفسية، حتى نصل إلى مراميه الواقعية، لا سيما مستوى الاهتمام الذي يبديه الإمام (ع) برفع حجاب الهيبة والأبهة، التي ربما تحيط بمقام الخلافة والإمامة، والتي قد تمنع الناس من مصارحة الخليفة بما يظنونه كارهاً له، أو مخالفاً لرأيه، تكميلاً لحريتهم وتحريضاً لهم على التمسك بحقهم في إبداء رأيهم، ووضع هذه الأمور ضمن حقوق الرعية على الراعي، وحقوق الراعي على الرعية. كذلك لنتساءل عن الحديث النبوي الشريف «أشيروا علي أصحابي» المطابق للأمر الإلهي ﴿وشاورهم في الأمر﴾ لأي غرض كان؟

فإذا كان هذا مبلغ اهتمامه صلوات الله عليه في الاحتياط عن الوقوع في الخطأ والاشتباه ـ حاشا لله ـ وهو المعصوم والمسدد، والمستغني عن عقول الغير بالوحي والعلم بالواقع، فاللازم علينا لمنع التعديات العمومية على أقل التقادير، تكريس هذا الأساس المتين للسعادة. وإذا كان المقصود من سيرة المعصومين هذه، مجرد تنزيه السلطة الإسلامية الولايتية، عن مجرد التشبه الصوري بالسلطات الاستبدادية وفراعنة الأمم، في عدم اتخاذ الأمر شورى، وحفظ أساس مسؤوليتها أمام الرعية وشورويتها. ورعاية الأصلين الطيبين (حرية الأمة ومساواة أفرادها بالوالي على رفعة قدره) كما هو الظاهر بل المتيقن، فلا بد إذن من حفظ صورة السلطة الإسلامية بكل ما أمكن وحسب الإمكان، حتى مع كون المتصدي غاصباً.

وإذا كان المقصود من سيرة المعصومين في السياسة، تعليم الأمة وضرب المثال للقضاة والولاة والعمال، وإلزامهم بالتصرف طبقاً لهذا النهج، وعدم مخالفة هذا النظام، فمن اللازم علينا أيضاً تعلم هذه السيرة.

وعلى كل حال، فإن من موجبات الأسى والحسرة، أن نبقى جاهلين إلى حد بعيد بمداليل الكتاب والسنة وأحكام الشريعة، وسيرة النبي والإمام، فنكون ـ ونحن ندعي حمل علم أهل البيت (ع) ـ متزلفين للظالم، رافعين لواء الاستبداد الديني في هذا الزمان. وبدل أن نقول عن الشورى الوطنية العامة، التي يطبقها الغربيون ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ نصمها ـ مكابرة وعناداً ـ بمخالفة الإسلام، حتى كأننا لم نقرأ أبداً الآية المباركة الواضحة الدلالة ﴿وشاورهم في الأمر﴾ والآية ﴿وأمرهم شورى بينهم﴾ في الكتاب المجيد، أو أننا لم نفهم مفادها، أو لعلنا وجدناها منافية لشهواتنا ورغباتنا وطموحنا إلى استعباد الآخرين، فنبذناها وراء ظهورنا، وصممنا آذاننا عنها، ادعاء لعدم المعرفة، أو مكابرة على الحق ﴿ولما جاءهم رسول من عند الله مصدق لما معهم نبذ فريق من الذين أوتوا الكتاب كتاب الله وراء ظهورهم كأنهم لا يعلمون﴾ [البقرة: ١٠١].

المطلب الثاني: في ظل ظروفنا الراهنة، فإننا محرومون من الحضور المبارك للمعصوم، بل ومحرومون من تصدي الأكفاء والصلحاء، وأهل العدالة والعلم والتقوى للسلطة، ومبتلون بسيطرة النقيض، من الجهلة والظلمة والفاسدين على أمور

البلاد.

وكما مر آنفاً فإننا مكلفون شرعاً بحفظ الحد الأدنى المتفق عليه بين الأمة، وهو تحديد السلطة، وحفظ أساس الحكم الشوروي (الثابت كتاباً وسنة). ومع الأخذ بعين الاعتبار عدم تيسر الوصول إلى المعصوم، فإنه ليس ثمة وسيلة لحفظ ذلك الحد، سوى إيجاد مسدد ورادع خارجي، يقوم مقام العصمة، أو على الأقل مقام القوة العقلية وملكة العدالة والتقوى، التي يفترض توافرها في الحاكم، والتي سبقت الإشارة إلى أنها غير متوفرة بالفعل. فمن الواضح أن حفظ أساس الشورى ومحدودية السلطة، غير ممكن بدون هذا الحل.

إن المتصدين الفعليين غير مؤهلين إطلاقاً، للقيام بواجباتهم على النحو والصحيح، والظن بقدرتهم على ذلك، أو إيكال أمر إصلاح أنفسهم إليهم، هو بمثابة تكليف الذئب بحراسة الغنم، أو الطمع في تبريد وهج الحر بالنار. فإذا كانت العصمة مفقودة، وملكة العدالة والتقوى مفقودة، وقوة العلم مفقودة، ومع استحالة قيام الغاصبين المستبدين بإصلاح أنفسهم، والعودة بالسلطة إلى أصل الولاية، فلا يبقى ثمة طريق لتصحيح أمر السلطة، سوى إقامة الهيئة المسددة لسياسات الحاكم، والرادعة له عن ارتكاب الآثام والخطايا، فهذه النتيجة من البديهيات غير القابلة للإنكار.

من يضمن الهيئة المسددة:

على الرغم من أن وجود هذه الهيئة، وقيامها بعملها على الوجه الأكمل، هو الضمان الأكبر لتصحيح وظيفة السلطة، وتحديدها بالاتجاه المحدد، إلا أن وجودها وحصولها على القوة السياسية، قد يحيلها هي بالذات إلى ممارسة الاستبداد، والتدخل فيما ليس من وظائفها. ولذلك ينبغي التأكيد هنا على أن نجاحها، ومواصلتها لعملها على الوجه الأكمل، غير مضمون إلا إذا كانت الإرادات النفسية لأفراد الهيئة المسددة، خاضعة للملكات والمدارك.

كما أنه وبموازاة هذا، فإن من الضروري التأكيد على الفصل بينها وبين السلطة التنفيذية، بحيث يتحدد دور المتصدين لممارسة السلطة بالتنفيذ، بينما يوكل وضع القوانين والرقابة والمحاسبة إلى الهيئة المسددة، فتكون السلطة التنفيذية تابعة للهيئة المسددة ومنبعثة عنها، مع بقائهما منفصلتين عن بعضهما.

إن قابلية هذا الوضع للاستمرار، منوط بقيام أساس الدولة على هذا الوجه بصورة رسمية، قانونية ومعلنة. كما أن يقظة عقلاء الأمة وحكمتهم، ستكون سداً يحول دون عودة قوى الاستبداد للتسلل من أبواب أخرى، أو فتح ثغرات في هذا النظام، واتخاذ الذرائع والحيل للالتفاف عليه، وإلا فإننا نخشى حقاً من الغفلة، التي قد تسمح بفتح الباب لعودة القوى اللعينة. إن الاستبداد لا بد متحرك لاستعادة مواقعه، وإن نائرة الطغيان والتسلط لا بد منقدحة، ومآل الأمر لا محالة، خراب بيوتنا نحن الإيرانيين، إن لم نحكم الأمر.

المطلب الثالث: اتضح أن إحلال الهيئة المسددة، هو القدر الممكن في غياب العصمة، كما عليه أصول مذهبنا، وهو القدر الممكن للحلول محل القوة العلمية والعقلية وملكة العدالة والتقوى، كما عليه أصول أهل السنة، لحفظ منهج السلطة الإسلامية من التبديل، أو تجاوز الحدود، بل إن الإمكان منحصر فيه.

والركن الأعظم لقيام الهيئة بهذا الدور، والأساس الأهم للرقابة، هو ترتيب دستور للدولة (كما مر في الحديث المجمل في المقدمة) يتضمن تمييز الوظائف النوعية، التي للسلطة حق التدخل فيها من تلك التي هي خارج اختصاصها. وتفصيل الحدود بين الأمرين وفق مقتضيات المذهب كقانون ومنهاج رسمي، وإلا فإن العملية المذكورة بدون الدستور، تصبح كالمحمول بلا موضوع.

وبالجملة: فكما أن من غير الممكن ضبط أعمال المقلدين، في أبواب العبادات والمعاملات، بدون توفير الرسالة العملية وتطبيق أحكامها على أعمال الليل والنهار، فكذلك الأمر في سياسة البلاد، حيث لا يمكن في غياب الدستور، ضبط عمل المتصدين للحكم، وجعلهم تحت الرقابة وتحديد مسؤوليتهم، وفي الحقيقة فإن الدستور، هو قاعدة وأساس حفظ محدودية السلطة، وهو الأساس الذي تبنى عليه مسؤوليتها، وهو الأصل الأصيل في هذا الباب والمقدمة الحصرية للموضوع. ومن هنا فإن وضعه وتطبيق مفاده، ضروري لإصلاح السلطة وتقويمها.

فصل السلطات:

بعد بيان هذه المطالب الثلاثة، نقول: إن تمامية هذا الترتيب، غير ممكن إلا بقيام النظام الجديد على الأصلين المباركين: (الحرية والمساواة) باعتبارهما هدف الحكم،

ومضمون العلاقة بين الولاة والرعية. كما أن إحلال الهيئة المسددة محل الملكات الذاتية المفترضة للولاة، متوقف على فصل السلطات في الدولة، وأخذ جميع هذه المباني من الشرع الإسلامي القويم، بعد رد كل فرع تطبيقي إلى أصله النظري في الشريعة، وخاصة من مقتضيات مذهبنا، وهذا بديهي.

أما إذا لم يجر هذا الترتيب، فلن يكون من الممكن ـ لأسباب عديدة ـ إنجاز التكليف الشرعي الذي أوضحناه، أي تحديد الاستيلاء الجوري.

وكم كان جميلاً ما استنبطه ذلك الحكيم الذي لامس هذه المعاني، فبين أساس السلطة العادلة ودونها، وجعلها مسؤولة وشورورية ومقيدة، وأنها مبنية على ذينك الركنين الراسخين: (الحرية والمساواة) والمسؤوليات المترتبة عليهما، وقد استفاد مما بيناه وقام بترتيبه على أساس قانوني مكتوب، وأوضح إمكانية إقامة القوة المسددة الخارجية، محل قوة العصمة، أو محل ملكة التقوى والعدالة والعلم، وبين إمكانية إيجادها في الواقع الخارجي، عن طريق فصل السلطات، وتحديد مجال عمل المتصدين بالأمور التنفيذية، وجعلهم تحت رقابة الهيئة المسددة القادرة على سؤالهم ومحاسبتهم. وأوضح مسؤولية أعضاء الهيئة بدورهم أمام الأمة، فكم سيكون له وللشعب من الفخر والشرف، وكم سيغبط من جانب الناس، لو أمكن نقل مقترحاته من مستوى النظرية إلى أرض الواقع.

المفارقـــة:

من المفارقات المثيرة للدهشة في حياتنا العلمية، ما وجدته بين طلاب العلوم الدينية، من قدرة فائقة في التفريع على القواعد، واستخراج الأحكام، في مقابل غفلة كاملة عن مقتضيات وأصول ومباني مذهبنا، وعناصر امتيازه على سائل الفرق والمذاهب.

فكم من القواعد اللطيفة استنبطنا من الكلمة المباركة (لا تنقض اليقين بالشك) بينما ـ في مقابل هذا ـ غفلنا عن بعض أهم مقتضيات ومباني المذهب، في جانب الفقه العام، الفقه الذي يعالج أمور الناس باعتبارها كلاً واحداً. وفي ظل هذا القصور أو التقصير، لم نتحرك خطوة واحدة مهمة لاستنباط ما نحتاجه من الأحكام في أبرز الأمور العامة، على الرغم مما أظهرناه من قدرة عظيمة على استنباط أدق القواعد

والأحكام في المجالات الأخرى.

لقد توهمنا أننا سنبقى محلاً للابتلاء بطواغيت الأمة، وما يفعلونه من استبداد وتسخير للرقاب، حتى يأذن الله لصاحب الأمر بالفرج. واعتبرنا أن هذا المرض سيبقى بغير علاج حتى ذلك الوقت، فلم نتحرك شبراً في طريق الاستعداد للمستقبل. بينما أخذ الآخرون قصب السبق في استيعاب مقتضيات تلك المباني والأصول، فسعوا في خلاص رقابهم من أسر الطواغيت، بينما بقينا نرفل في قيود الأسر والعبودية.

لقد انطلق غيرنا في مضمار التقدم الإنساني، وحصلوا على الرفعة والنفوذ في العالم، بما أخذوه من السياسات الإسلامية، وما رتبوه على أصولها من الفروع الصحيحة، وما توفر لديهم من جودة الاستنباط وحسن التفريع، فوصلوا إلى هذه النتائج الباهرة التي نشاهد اليوم مظاهرها عندهم.

وعلى النقيض من هذا حال المسلمين الذين رجعوا القهقرى. واليوم بعد اللتيا والتي، وبعد أن عاد إلينا شيء من الوعي، صرنا نأخذ مما عند الآخرين الذين سبقونا إلى الأخذ بأحكام ديننا ومقتضياته، فصرنا مصداقاً لقوله تعالى: ﴿هذه بضاعتنا ردت إلينا﴾ [يوسف: ٦٥].

ومع أن ما ندعو إليه اليوم، لم يكن في الأصل غريباً عنا، بل هو مما أخذه الآخرون من أصولنا، إلا أننا مع ذلك نواجه اعتراضات من بعض الجهلة، وعبدة الطاغوت، وحملة لواء الاستبداد الديني، الذين لم يستثنوا وسلية في معاضدة الظالم، ولم يتثاقلوا لحظة عن الوقوف في وجه دعاة الإصلاح.

من وجوه الغفلة تلك ما نسمعه من اعتراضات ترتدي زوراً عباءة الدين، مثل القول بأن سلب الجائر ما يتمتع به من صلاحيات مطلقة، مناف لمقتضيات الدين الحنيف وآيات القرآن. مع أن ما يدعيه أهل الجور من صلاحيات وحقوق، لا تصح لأي أحد من البشر، بل هي من مختصات الخالق سبحانه وتعالى، من قبيل فعل ما يشاء والحكم بما يريد، وعدم المسؤولية عما يفعل.

فتحديد سلطات الحاكم لا تستهدف سوى منعه من الاعتداء على ساحة الواحد الأحد، وادعاء صفاته التي يختص بها دون الغير. لكن أولئك الجهلة الغافلين، لا يقرون بهذه الحقيقة، أو لا يريدون سماعها، كما لو أن الإسلام الذي يتذرعون به

في محاولتهم هذه، غير الإسلام الذي جاء به محمد (ص).

نعلم بالضرورة أن الإسلام لا يقوم بدون التوحيد، والتوحيد لا يعني غير إفراد الله بأسمائه وصفاته. بينما نرى سعي الجائر منصباً على استلاب هذه الصفات المقدسة، فدعمه وإعانته فيما يريد، هو بمثابة إشراكه في أسماء الله وصفاته.

ولا شك أن أعوان الاستبداد لا يعتمدون على قرآننا في تبرير عملهم هذا، بل على كتاب الجور الذي أنزل عليهم من بلاد الكفر الروسية متضمناً هذه الأنظمة الجورية، ومبنياً على مبانيها **﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم﴾** [الأنعام: ١٢١]. لقد أطلقوا على كتابهم هذا اسم القرآن، لكنهم أظهروا المعاضدة التامة للطواغيت، مجاهرين بكل ما يتنافى مع الضرورات الواضحة، ولا سيما ضرورة إفراد الله بصفاته وأسمائه، وعدم منازعة الغير له فيما اختص به نفسه، فكأن عبدة الطاغوت، يكررون قصة أهل الجاهلية، الذين أظهروا الدهشة حينما دعاهم الأنبياء عليهم السلام، إلى إفراد الخالق سبحانه بصفاته **﴿أجعل الآلهة إلهاً واحداً إن هذا لشيء عجاب * وانطلق الملأ منهم أن امشوا واصبروا على آلهتكم إنّ هذا لشيء يراد * ما سمعنا بهذا في الملة الآخرة إن هذا إلا اختلاق﴾** [ص: ٥ ـ ٦ ـ ٧].

عصمنا الله تعالى من غلبة الهوى، وإيثار العاجلة، ومعاونة الظلمة، وسوء الخاتمة، بمحمد وآله الطاهرين، صلوات الله عليهم أجمعين.

الفصل الرابع

في ذكر جملة من الوساوس وردها

على الرغم من أن الشبهات التي يلقيها رواد الاستبداد الديني، بوجه الدعوة إلى تحديد السلطة الجائرة، ناشئة في الأساس من الرغبة الشديدة في صيانة أركان الاستبداد، وحفظ شجرته الخبيثة. ولا هدف لها سوى إبقاء رقية رقاب المسلمين للطواغيت، مما يجعلنا في حل من مناقشتها والرد عليها.

لكن بالنظر إلى احتمال توجه الأمم الأجنبية وغير المطلعين على أحكام الدين، إلى هذه الأباطيل المغرضة، واحتسابها من أقوال علماء الإسلام، ثم مؤاخذة الإسلام بما فيها من الباطل الجلي، أو اعتبار ما هو ضروري في الدين موضع خلاف بين العلماء، فينفتح باب للطعن في الشريعة الغراء، فسنكتفي برد مختصر يدفع تلك الشبهات. أما استقصاء جميع الإشكالات التي قد ترد، مع أن الوقت الذي يصرف عليها أشرف منها، فنوكله إلى بحث آخر منفصل.

عرضنا فيما سبق أن السلطة الولايتية، بغض النظر عن كون التصدي لها، قام في البدء على الحق أو بالاغتصاب، مبنية على الأصلين الطيبين (الحرية والمساواة). وأن حفظ الشوروية وتقييد الصلاحيات وسائر مقوماتها الأخرى، متوقف على ترتيب الدستور وعقد مجلس الشورى الوطني، لهذا نبدأ بالرد على المغالطات الواردة على أصل الحرية المبارك، ونتبعه بما يليه.

أ ـ مسألة الحرية:

جوهر ما يقوله أهل الاستبداد في موضوع الحرية، هو أن حصول الناس عليها، سيتلازم ضرورة، مع قيام القدرة على التحرر من الالتزام بالأحكام الشرعية التي أمر بها الدين الحنيف. وبالتالي فإن الدعوة إلى الحرية، تتوازى ـ عملياً ـ مع الدعوة إلى عدم الالتزام بأحكام الشريعة المقدسة.

وقد سبق القول: إن حقيقة السلطة التمليكية، عبارة عن استرقاق رقاب المسلمين

وإذلالهم. ومبدأ قيام هذه الصورة من السلطة كان كما ورد في الحديث المتواتر بلوغ بني العاص ثلاثين. وقلنا أيضاً بأن حقيقة السلطة الولايتية، هي تحرير رقاب المسلمين من ذلك الرق، حتى لو كان المتصدي غاصباً. والحقيقة أن جوهر التبديل الذي سيطال السلطة الغاصبة الجائرة، هو عبارة عن منعها من استرقاق الرقاب، واستنقاذ حرية المواطنين.

لقد قامت جميع المنازعات بين الأمم المختلفة وحكوماتها حول هذه النقطة، لا حول رفع اليد عن أحكام الدين ومقتضيات المذهب. إن هدف كل أمة، متدينة كانت أو غير متدينة، هو الخلاص من عبودية الطواغيت، والانعتاق من الأسر، لا الخروج من عبودية الله جلت آلاؤه، أو التخلص من الالتزام بأحكام الشريعة. فطرف النزاع المقابل للأمة هو الحكومة الجائرة والمستعبدة للرقاب، لا الخالق المالك الرحيم.

بل إنه حتى النزاعات التي وقعت بين الأنبياء صلوات الله عليهم، وبين معاصريهم من الفراعنة والطواغيت، دارت حول هذه النقطة. لهذا فإن اهتمام الأنبياء (ع) بتبديل السلطات الطاغوتية، إنما كان من أجل استنقاذ هذه النعمة الإلهية العظمى من مغتصبيها. فحقيقة التبديل للسلطة الغاصبة، هو استعادة الأمة لنعمة الحرية، لا التحلل من الالتزامات الدينية.

إن غش العامة والتدليس عليهم ليس سياسة جديدة، ففي الأزمان السابقة وفي العصور الحديثة كان عباد الظلمة في أوربا يكافحون في سبيل صرف قلوب المسيحيين عن إدراك حقيقة التلازم بين الحرية والتدين الصحيح، بتصوير الخضوع للاستبداد كضرورة من ضرورة الإيمان المسيحي، ومحاربته باعتبارها خروجاً على مقتضيات هذا الدين. وربما يحاول رواد الاستبداد الديني اليوم استعمال نفس السلاح في سبيل التأثير على الشعب الإيراني، الذي كانت فئات كبيرة منه أسيرة للجهل، تماماً كما جرى في القرون الماضية حين استخدم جهل العامة وقوداً لمعارك المستبدين، ضد الروحانيين الشرفاء وطلاب الصلاح. وفي إحدى هذه المعارك جرى استدراج كثير من العامة، لإعلان العداوة والكراهية لأحد كبار العلماء، وهو قدوة المتألهين الآخوند ملا محراب الحكيم عليه الرحمة الذي أصبح ملعوناً على ألسنة الناس، بعد أن جرى

تضليلهم وإيهامهم بأن الآخوند كافر، لأنه يقول بوحدة واجب الوجود، مستغلين الخلط الذي يقع فيه العوام بين ما اشتهر من تحريم القول بوحدة الوجود، وقوله عليه الرحمة بوحدة واجب الوجود. ومثل هذا القول بالتبري من نبي الله موسى، عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، لأنه نبي اليهود، بل حتى التجرؤ على مقام سابع الأئمة، موسى بن جعفر الكاظم عليه السلام، لتشابه اسمه مع اسم كليم الله موسى عليه الصلاة والسلام.

ولعل رواد الاستبداد الديني يطمعون اليوم، في إشهار سلاح الجهل مرة أخرى، وتضليل العامة، باستغلال الخلط بين التحرر من الالتزامات الشرعية، والحرية العامة التي هي أعظم نعم الله على الإنسان. لكن هيهات أن ينجح أهل الاستبداد في إعادة عقارب الزمن، فقد ولى ذلك العصر الذي كان فيه الشعب الإيراني لا يرى ولا يسمع، وكانت تنطلي عليه الأكاذيب والتدليسات. نحن الآن وبحمد الله أمة تعي وترى وتسمع، فلم تعد قابلة لسماع تلك الأباطيل. إن اختلاف الديانة بين المسلمين وغيرهم، بل بين أصحاب الديانات السماوية وغيرهم من سائر البشر، لا علاقة له إطلاقاً بموضوع الحرية والاستبداد، فالجميع ـ متديّناً كان أو غير ذي دين ـ يعرف بمجرد الفطرة أن الحرية من لوازم الفطرة الإنسانية، وأن انتزاعها من الإنسان بمثابة انتزاع أبرز مميزات إنسانيته. فالاختلاف في السلوك والاختلاف في الالتزامات بين أصحاب الديانات والطوائف المختلفة، راجع إلى الاختلاف بين متطلبات الشرائع، وليس إلى حصول بعضهم على الحرية وحرمان الآخرين منها.

إن أصالة الحرية وارتباطها بالإنسانية، وكونها من ضرورات الدين، هو مما يعرفه كل عاقل بغض النظر عن دينه أو مذهبه، وهو مورد إجماع كافة الأمم والمجتمعات، على ما بينها من شدة الاختلاف في سائر الأمور، كما هو حال المسيحيين، بل حتى المجتمعات التي لا تدين بشريعة سماوية محددة. فمع اختلافهم الشديد في مجال الأفكار، إلا أنهم نهضوا جميعاً لاستنقاذ حريتهم فصارعوا الغاصبين، وابتلي بعضهم بأشد مما ابتلينا به من المصائب، وبذلوا من نفوسهم أضعاف ما بذلنا، حتى أقاموا أساس الحرية الوطيد، هكذا فعل الروس على سبيل المثال، حيث يشهد العالم على مقدار ما لاقوه من عنت وذلة، تحت سيطرة حكومتهم الجائرة، التي تدعي الدفاع عن

المسيحية، فنهضوا مرات لاستعادة حريتهم، لكنهم لم ينجحوا بسبب ما تملك الحكومة من أسباب القوة والبأس. نجد هنا أن هؤلاء الذين لم يذوقوا طعم الحرية، لا يختلفون عن نظرائهم من الأمم المسيحية الأخرى التي نجحت في تحرير رقابها، في سعي الطرفين ـ كلاً بقدر استطاعته ـ للتبشير بالمسيحية، وبذل المال في سبيل الدعوة إليها وإقامة شعائرها. وهذه إشارة إلى أن الحصول على الحرية أو الخضوع للاستبداد، لا يؤثر سلباً أو إيجاباً في التزام المؤمنين بمقتضيات ديانتهم، فمع اختلافهم في جانب السياسة، إلا أنهم متشابهون في جانب الدين، وهم لذلك سواء في الالتزام بالمسؤوليات الدينية والتمتع بالمباحات التي توفرها شريعتهم. فحرمان الروس من حريتهم لم يجعلهم أشد التزاماً بمقتضيات المسيحية، وتمتع غيرهم بالحرية، لم يجعلهم أقل التزاماً بمقتضياتها.

وبعد اتضاح هذه المعاني وملاحظة اشتراك المسيحيين ـ بجميع أقسامهم، قديماً وحديثاً ـ في السعي للحرية، يتبين أن اختلاف الآراء والمذاهب، لا علاقة له بمسألة الحرية، وضرورة السعي للخلاص من الاستبداد. والشعب الإيراني اليوم، على وعي كاف بما يقتضيه التزامه بدينه، وهو يفهم جيداً أن التحرر من عبادة الطواغيت مطلب مشترك لكافة الأديان السماوية، بما فيها المسيحية والإسلام، كما يفهم القضايا التي يختلف فيها الإسلام عن المسيحية، ولذا فلن ينساق راضياً إلى أسر الجبابرة والطغاة مرة أخرى، مهما نشر المستبدون من مفتريات، ومهما صنفوا من أكاذيب. نحن نعلم أن ادعاء أرباب الاستبداد الدفاع عن الدين، والتحذير من مخاطر الحرية على الشرع القويم، ليس إلا كلام حق يراد به الباطل، والمراد به إقناع المؤمنين بالتخلي عن رؤساء مذهبهم، وحمل سيوفهم في وجه إمام زمانهم، أرواحنا فداه. كما فعل خوارج النهروان، حينما رفعوا شعار (لا حكم إلا لله) ليبرروا به خلع بيعتهم عن أمير المؤمنين (ع) وإشهار سيوفهم في وجه أهل ملتهم، بدل أن يشهروها في وجه الفساق والظلمة.

لقد بالغ رواد الاستبداد الديني في تصوير الحرية والدستورية، كما لو كانت وضع دين جديد بدل الإسلام، أو تحكيم المذاهب الملحدة كالبابية وغيرها، وحاولوا إقناع الناس برفض الدستورية وقبول الاستبداد، لكن مسعاهم منتهٍ إلى الخيبة بإذن الله، ولن يروا ما يطمحون إليه إلا في أحلامهم.

ب ـ مسألة المساواة:

كما أن الحرية هي أساس ولايتية السلطة، وخروجها من صورة التملكية. كذلك فإن المساواة بين عامة الناس ورجال السلطة في الحقوق والواجبات، هي أساس عدالة السلطة ومسؤوليتها، وحفظها من التبدل والانقلاب إلى ضدها. وقد ورد في وصف أمير المؤمنين (وأنت القاسم بالسوية والعادل في الرعية) فهذه الكلمة ناظرة إلى ذلك المعنى، حيث أن المساواة هي الركن الثاني لسعادة الأمة، والمانع عن استئثار المتصدين وتجاوزهم حدهم، والاستبداد بالأمر، كما ألمحنا إلى ذلك في المقدمة.

وبالنظر إلى هذا المعنى، فقد تعرض أصل المساواة هو الآخر للمغالطات من جانب رجال الاستبداد الديني، الذين حاولوا تشويهه بادعاء أن تطبيق أصل المساواة، سيؤدي إلى رفع التمايز بين أصناف المكلفين، في أداء الأحكام الشرعية. فمن جملة ما ادعوا أن الأحكام الشرعية، ستطبق بصورة متماثلة على العاقل والمجنون، وعلى المرأة والرجل، والمسلم والكافر، وستزال الفروقات بين هذه الأصناف، في التناكح والتوارث وغير ذلك من الأحكام، التي تستدعي التمييز بين أصناف المكلفين، بحسب عناوينهم.

لكن من البديهي أن هذا الكلام باطل من أساسه، فإزالة هذا التمايز مستحيل، وتطبيق القانون دون النظر إلى موضوعه خلاف ما يفعله العقلاء، وهذا أمر لا يختص بالمسلمين، بل عام لكافة الأمم والأديان، حيث من المعلوم بالضرورة، أن اختلاف أصناف المكلفين بالنسبة إلى أنحاء التكاليف، ليس خاصاً بأهل الإسلام، بل هو مطّرد في جميع الشرائع والأديان. بل حتى لدى منكري الشرائع والأديان، فلديهم أحكام عقلانية يتفق عليها جميع العقلاء، مع اختلاف أصنافهم ومذاهبهم وتوجهاتهم، بل هي لازمة من لوازم النشأة الإنسانية، وبها تميّز البشر عن صنوف الحيوان، فالكل يعلم ويعتقد أن التكاليف تختلف باختلاف حال المكلف بين القادر والعاجز، وبين المختار والمضطر، والموسر والمعسر، والعاقل والمجنون، وأمثالها، فكل حالة لها تكاليفها الخاصة، ووجود الاختلاف والتعدد ضروري في كل أمة، ورعايته والبناء عليه عند التكاليف، ضروري كذلك.

فإذا علمنا أن هذا المعنى بديهي حتى للطفل المميز، اتضح أن التسوية الكاملة فيما

بين الأصناف المختلفة، وعدم التمييز بين الطبقات المتنوعة من المكلفين، مخالف لضرورة الأديان والشرائع، ومخالف لحكم العقل المستقل، بل هو موجب لإبطال القوانين السياسية في جميع الأمم، ومقتض لهدم أساس النظام في العالم، ولا وجود خارجياً له لدى أي أمة، متمدنة كانت أو متخلفة، حتى يحمل عليه عنوان المساواة.

إن قانون المساواة من أشرف القوانين المباركة، التي تنطوي عليها السياسات الإسلامية، وهو مبنى وأساس العدالة وروح القانون. وقد أوضحنا ـ إجمالاً ـ في الأوراق السابقة شدة اهتمام الشارع، بتحكيم هذا الأساس الهام لسعادة الأمة.

وحقيقته في الشريعة المطهرة، عبارة عن أن أي حكم في موضوع أو عنوان عند ترتيبه على شكل قانون عام، فإنه في مرحلة التنفيذ يجري على كل مصاديقه وأفراده بالسوية وبدون تفاوت. ولا يلحظ في التطبيق أي جهات شخصية أو إضافات خاصة، كما لن يلحظ إمكانية استثناء بعض الأشخاص، من وضع الحكم والمخالفة بصورة كاملة، كما يجري على الحالات العامة المشتركة بين جميع الرعية، في مختلف قضاياهم، مثل الاطمئنان على النفس والمال والعرض والمسكن، ومنع التعرض بدون سبب، وعدم التجسس على الخفايا، وعدم الحبس والنفي من دون موجب، وعدم الممانعة من الاجتماعات المشروعة، ونحو ذلك مما هو مشترك بين عموم الناس، وليس متعلقاً بطائفة خاصة.

أما إذا تعلق التكليف بطائفة خاصة يجمعها عنوان معين، فالقانون المختص بأفراد ذلك العنوان، يجري على كل فرد داخل فيه، كما يجري على سواه، ممن يدخل تحت العنوان نفسه، بلا تمييز: بين أن يكون شريفاً أو وضيعاً، جاهلاً أو عالماً، مسلماً أو كافراً. فإذا أقيمت الدعوى على أي منهم، فلا بد أن يأتي إلى المحكمة ليتحقق من فعله فيلقى جزاء ما فعل، وهكذا الأمر في إجراء الحكم، على القاتل والسارق والزاني، والغاصب للمقام، والمستولي على الوقف، والمرتشي والراشي، إذ لا يفرق القانون بين المحكومين بحسب مراتبهم الاجتماعية، أو انتماءاتهم العائلية أو مقدار ثروتهم، وغير هذه من التمييزات، فكل من هؤلاء سواء بغيره أمام القانون والقاضي، يجري عليه الحكم، كما يجري على سواه دون تبديل أو تعطيل.

هذه هي حقيقة المساواة ومعنى التسوية، وعليها يقوم أساس العدالة، وهي روح

القوانين السياسية. كما أن قيام ضرورة الدين الإسلامي على حرمة تخطيها يعتبر من البديهيات، وانطباق رأي الفريقين: (السنة والشيعة) المتحد المفاد والمتطابق على هذا المعنى ضروري، بل إن هذا المعنى، هو مورد لفظ المساواة عند جميع الأمم، وإلا فإرادة غيره مناقض وهادم لجميع قوانينهم.

أما منشأ الخلافات بين شرائعهم وشريعة الإسلام، فمن عدم تطابق قوانينهم التفصيلية مع أحكام الإسلام، وليس من التزامهم بالعدالة والمساواة في إجراء هاتيك القوانين.

ولكن لما كان هدف رواد الاستبداد، وجوهر دعواهم، هو الترفع عن بني جلدتهم، والحيلولة دون مساواتهم بغيرهم من المسلمين، وتحرير أعناق الظالمين من مسؤولية التمييز المحروم بين المسلم وأخيه، والحفاظ على تلك الحاكمية الطاغوتية، فلهذا كله صوروا أصل المساواة بتلك الصورة القبيحة. فحاولوا إيهام العامة وجهال الناس، بأنها رفع للتمايز بين الأصناف المختلفة الأحكام، وهو ـ كما علمت ـ مما تتبرأ منه جميع الأمم ﴿يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون﴾ [البقرة: ٧٥]، وكرروا مصداق ﴿لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها أولئك كالأنعام بل هم أضل أولئك هم الغافلون﴾ [الأعراف: ١٧٩].

نقول: إنهم قاموا بهذه المغالطة مع علمهم بأن الدولة، بما فيها من دستور ومجلس شورى وسلطة تنفيذية، لا دخالة لها في الأحكام الشرعية، وإنما المرجع في الأحكام إلى الفقهاء ورسائلهم العملية. من الواضح تماماً عند رجال الاستبداد الديني وعند غيرهم، أن وضع الدستور، لا يستهدف غير تحديد سلوك المسؤولين التنفيذيين، وتحديد وظائفهم، وتشخيص ما يجب القيام به من غيره، وهكذا القضايا التفصيلية فيه، والسياسات المقررة من أجل حفظ النظام، أو الشرعيات المشتركة وغير المختلفة الصنف.

ومن الواضح لهم أيضاً أن هذه الوظائف كلها، لا مدخلية لها في التكاليف التعبدية أو التوصلية، أو المناكحات وسائر العقود والإيقاعات، والمواريث والقصاص، ونحو ذلك مما يرجع فيه إلى الرسائل وفتاوى المجتهدين، أو ما هو مربوط بدين الإنسان المسلم، ولا علاقة له أصلاً بالمسؤولين التنفيذيين ولا ممثلي الشعب.

كما لا علاقة للحكومة بالوظائف المقررة للحاكم الشرعي، وتفصيل موارد الحكم، باستيفاء القصاص والدية، وإجراء الحدود الإلهية على المسلم والكافر، الأصلي والمرتد، والفطري والملي، وغير ذلك مما هو موكول إلى المجتهد النافذ للحكم (المبسوط اليد) وخارج اختصاص السلطة التنفيذيه، التي لا تتدخل إلا بمقدار إجراء الأحكام التي يأمر بها المجتهد ضمن قيامه بوظيفته، فهذا يظهر أن أبواب تدخل السلطة في وظائف الفقيه ـ بحمد الله ـ مسدودة.

أما ضم أصل المساواة إلى قانون المحاكمات، فلا ينطوي على أي تدخل في شأن القضاء، ولا يؤدي إلى مصادرة حق الفقيه في القيام بهذه الوظيفة، بل إنها ـ على العكس مما يدعون ـ من شروط عدالة القضاء واستقلاله. فالمساواة عند تطبيقها في مجال القضاء، تعني مسؤولية السلطة عن إنفاذ أحكام المحاكم بلا تردد. ومهما كانت هذه الأحكام، وكائناً من كان المحكوم عليه، فلا تمييز في المثول أمام القاضي، أو في إنفاذ أحكامه بين رفيع ووضيع، أو بين عالم وجاهل، أو بين غني ومملق، وخلاف هذا فلا محل لادعاء أي نتيجة أخرى أو مفاد آخر.

أما فيما يتعلق بالأمور السياسية، فإن قانون المساواة يجري معناه في تساوي أهل البلاد أمام القانون، وتساويهم في الفرص، وفي الحقوق والواجبات، كقاعدة عامة، يخرج منها بعض الاستثناءات عند اختلاف العنوان. وعلى كل حال فإن الكلام في أصل المساواة فيما يتعلق بموضوع تحديد السلطة، منصرف إلى وظائف السلطة ومسؤوليتها تجاه الأمة، وغرضه هو تحديد صلاحيات القائمين على السلطة، كي لا يذهبوا بسياساتهم إلى ما يخالف الشريعة، لا أن تكون الأحكام بدءاً من كتاب الطهارة حتى آخر الديات هي السياسات النوعية، التي يطالب بها المسؤولون ويسأل عنها التنفيذيون.

ج ـ مسألة الدستور:

أبرز المغالطات التي أوردها رجال الاستبداد الديني على الدستوري، هو ادعاؤهم بأنه تشريع ثان مواز للشريعة. وحاصل ما قالوه في هذا الباب هو: إن ديننا هو الإسلام وقانوننا هو القرآن وسنة الرسول، وأن تدوين أي قانون آخر في بلاد الإسلام، هو بدعة ومعارضة لعمل صاحب الشريعة، نبينا محمد عليه الصلاة والسلام. والالتزام بهذا

القانون أو الالتزام به ـ بدون مجوز شرعي ـ هو بدعة ثانية، والمحاسبة على مخالفته بدعة ثالثة، هذا محصل ما قالوه من مغالطات.

ويمكن لكل شخص يفهم حقيقة هذه المغالطات، أن يستعيد قصة رفع الشاميين للمصاحف في حربهم ضد أمير المؤمنين في صفين. وقول الخوارج ـ من ثم ـ لا حكم إلا لله، بل إن يد هؤلاء المعاصرين في المغالطة أعلى، وهنا مطلبان ينبغي بيانهما:

الأول: في بيان معنى البدعة:

من أظهر بديهيات الإسلام، ومما اتفق عليه علماء الأمة، هو أن المواجهة مع النبوة، والمنافسة مع الشرع مما ورد في الأخبار باسم البدعة، وفي اصطلاح الفقهاء بالتشريع، إنما يتحقق حين يكون القانون المستحدث مخالفاً للمجعول الشرعي. لكنه يعرض باعتباره تشريعاً دينياً مجعولاً من قبل الشارع، سواء كان ذلك القانون حكماً جزئياً شخصياً، أو عنواناً عاماً، أو تعليمات محددة في كتاب أو ودستور وما إليه، ويلتزم به على أساس كونه كذلك.

أما إذا لم يكن القانون المستحدث مقترناً بعنوان الجعل الشرعي، فإنه لا ينطبق عليه مسمى البدعة، كما لا ينطبق معناها على أي من موارد الإلزام والالتزام بهذا القانون، أياً كان مورد انطباقه، سواء كان شخصياً، كالالتزام بالنوم واليقظة والأكل والشرب في ساعات محددة، وغير ذلك من التنظيمات الشخصية، أو الالتزامات النوعية قليلة الأفراد، مثل إلزام أو التزام أهل قرية معينة، أو بيت معين، بوجه خاص أو نظام خاص، يستهدف تنظيم أمورهم وتحسين معايشهم. أو كان مورد انطباقه الالتزامات النوعية كثيرة الأفراد، مثل التزام أو إلزام أهل قطر أو إقليم، بنظام معين لتنظيم أمورهم الحياتية. ويستوي في هذا الأمر التنظيمات المدونة والمرتبة على صورة كتاب أو دستور أو قانون، أو التنظيمات العرفية التي هي مجرد تبان وتسالم بين أهل القطر المعين، على العمل وفق طريقة محددة، بحيث تتحول إلى نوع من العرف الخارجي الملزم لكافة أفراد القطر.

والخلاصة: إن ملاك تحقق مفهوم البدعة والتشريع والمحرم، أو عدم تحققه هو اقتران القانون المستحدث، أو عدم اقترانه بالقصد والعنوان المذكور، أي اعتباره تشريعاً دينياً مجعولاً من قبل الشارع المقدس، وإلزام الناس به على هذا الأساس،

ويجري هذا، بغض النظر عن كون القانون المستحدث مدوناً على صورة دستور، أو كتاب، أو كان غير مدون أصلاً.

الثاني: الواجب لذاته والواجب لغيره:

تعارف الفقهاء على تصنيف الواجب إلى نوعين: واجب بالذات، وهو المأمور به ذاتاً، والواجب لغيره، كما إذا تعلق غير الواجب بأحد الواجبات، كما هو الشأن في متعلقات العهد والنذر واليمين، أو طاعة أمر الآمر الواجب الطاعة، فهي تصبح واجبة، تبعاً لوجوب الوفاء بالعهد والنذر واليمين والطاعة. على الرغم من أنها لم تكن واجبة بالذات، قبل أن تتعلق بهذه الأمور، ومثل ذلك متعلقات الوفاء بالشرط المتضمن في العقد اللازم، فهي تصبح واجبة لذلك.

كذلك الأمر فيما لو توقفت إقامة الواجب على أمر يمهد له أو يتطلبه، فإنه يلزم عقلاً القيام بذلك الأمر، كما يجب بالعرض. وحتى مع عدم القول بالوجوب الشرعي المستقل لمقدمة الواجب، فإن توقف أداء الواجب على إحدى المقدمات، يجعل من اللازم ـ عقلاً ـ الإتيان بالمقدمة، وهذا المقدار من لزوم المقدمة محل اتفاق بين علماء الإسلام، ومن الضروريات.

بعد اتضاح هذين المطلبين نعود إلى أصل الموضوع، فنقول: إن المغالطات المتعلقة بالدستور، مردودة عند كل عاقل، فوجوب ترتيب الدستور الأساسي، على الوجه الذي سبق بيانه، من كونه محدداً ومقيداً لسيطرة الجور، وكون بنوده موافقة لمقتضيات المذهب. هذا الوجوب من البديهيات، نظراً إلى توقف حفظ النظام، وصيانة محدودية ومسؤولية السلطة على وجوده..

كما أظهر العرض السابق أن الدستور غير مندرج بذاته تحت عنوان التشريع، كما لا يدعي أحد أن بنوده بذاتها من عند الله، وبالتالي فإنه ليس تشريعاً مقابلاً للتشريع الإلهي، وليس مواجهة للنبوة، فلا يندرج تحت عنوان البدعة المحرمة.

على أنه من الواضح أن تلك المغالطة المغرضة، إنما هي استعادة لمقولات جهلة الإخباريين الذين ـ لجهلهم بحقيقة البدعة والتشريع ـ زعموا في أوقات سابقة، أن كتابة الفقهاء للرسائل العملية في عصر الغيبة، بدعة وتشريع محرم، ومقابلة لصاحب النبوة.

سبحان الله! إن شدة الانهماك في الأغراض الشخصية، والخلود إلى الأرض واتباع الهوى ﴿**واتل عليهم نبأ الذي آتيناه آياتنا فانسلخ منها فاتبعه الشيطان فكان من الغاوين * ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه فمثله كمثل الكلب إن تحمل عليه يلهث أو تتركه يلهث ذلك مثل القوم الذين كذبوا بآياتنا فاقصص القصص لعلهم يتفكرون**﴾ [الأعراف: ١٧٥ ـ ١٧٦]، يوصل الإنسان إلى حيث لا يتمنع عن هدم أساس الدين، وهدر جهود حفظة الشريعة، خصوصاً مجددي الدين في القرن الثالث عشر، في سبيل الحيلولة دون تحديد سلطة الجائرين، وإقرار مسؤوليتهم عما يقترفون، من تجن على دماء المؤمنين وأعراضهم وأموالهم.

وبدلاً من تعليم الناس حقائق الدين فإنه يصرف جهده في تجميع الأراجيف ونسج الشبهات الواهية لجهلة الإخباريين، ويعيد إظهارها والدعوة إليها، والتسلح بها لدحض دعوة الإصلاح. فهل يا ترى كانت حقيقة التشريع وحقيقة البدعة مجهولتين، حتى يأتي هذا وذاك لإيضاحها؟..

ومع أنها في غاية الوضوح والجلاء، ترى هل يطمع هذا في جهل الناس بما يقول أو اختلاط الأمر عليهم؟..

بلى إن الأمر واضح معلوم لدى هؤلاء، لكن الغرض طاغ وقهار، كما يقول أمير المؤمنين، عندما يصف هذه الفئة من أعوان الطواغيت، في آخر الخطبة الشقشقية المباركة (بل قد سمعوها ووعوها ولكن حليت الدنيا في أعينهم وراقهم زبرجها).

سنفترض أن الجهل وعدم المعرفة هو الذي يحمل هؤلاء على المغالطة والتدليس، فإذا لم يكن كذلك، فلا بد أنه الجحد بحقوق الأمة المظلومة، وإلا فما هو تفسير هؤلاء لسكوتهم على أفعال الجائرين، لا سيما بعدما أعلنت الأحكام العرفية، مع ما فيها من مخالفات لضرورات دين الإسلام، وكون القائم على تنفيذها الضابط الروسي (لياخوف). لقد أقيم هذا النظام على أنقاض ما جرى هدمه من أسس السعادة للشعب الإيراني، وبتوجيه ودعم مباشر من الدولة الروسية، فهل كان سكوت أولئك النفر على هذا النظام، وعلى وضع البلاد في قبضة العسكري الروسي، حتى يتحكم في دماء المسلمين وأعراضهم وأموالهم، راجع إلى كونه الوسيلة التي يرونها لحفظ بيضة الإسلام؟.

لقد افترضنا سلفاً أن الجهل هو الذي يدفعهم إلى هذا الموقف، فإذا لم يكن الجهل فهل هو التواطؤ مع الظلمة؟.

د ـ من هينة النظار ومجلس الشورى:

هذا هو الجزء الأخير من العدة اللازمة لتحديد سلطة الجور. لذلك فقد جاهد أهل الاستبداد وأعوانهم، لإبطاله بكل قوة. ونسجوا من أصناف التهم ما استطاعوا، حول كل عضو من الأعضاء، المنتخبين في الدورة الأولى لمجلس الشورى الوطني، ظناً بأن نسيج الاتهامات هذا سوف يلتف على أصل الموضوع. كما أشاعوا الشبهات حول مشروعية انعقاد المجلس وأعماله، ويمكن تصنيف الشبهات التي أثيرت إلى أربعة عناوين:

الشبهة الأولى: القول بأن عقد المجلس تدخل في شأن الإمامة:

وهو ما صدر عن متنسكي وجهلة أهل تبريز، الذين أقاموا الدنيا وأقعدوها من الضجيج. ثم تمخض نهوضهم العظيم هذا عن كراس، جمعوا فيه الآيات والروايات، التي اعتبروها دالة على عدم جواز تدخل الأمة في أمر الإمامة.

وكناقل التمر إلى هجر، وجهوا الكراس إلى علماء النجف الأشرف مصدراً بعبارات مثل: ما للرعية ولدخول في أمر الإمامة، وما لها وسلطة ولي الأمر، أرواحنا فداه. والحق أن الانهماك الكلي في الأغراض والمصالح الشخصية قد أعماهم عن الحقائق، فلربما تخيلوا أن طهران هي مركز ولاية صاحب الزمان، أرواحنا فداه، أو أننا نعيش في الكوفة المشرفة في عهد أمير المؤمنين (ع) وأن الذي يحتل مركز السلطة هنا أو هناك هو واحد من هذين العظيمين. وأن الذين انتخبوا من قبل الشعب لعضوية مجلس الشورى، إنما أرسلوا للتدخل في تلك الولاية المطلقة والخلافة الحقة.

فليكن الله في عون الأسارى والأذلاء من أهل إيران، وليتنزل روح القدس حتى يكون الأمر عياناً مشهوداً. إنه لا صاحب الزمان يمسك بأزمة الحكم في طهران، ولا الزمان زمان علي في الكوفة، ولا الذين يحتلون كرسي السلطة هنا أو هناك هم أولئك الأماجد، ولا نواب الأمة في مجلس الشورى مأمورون بغير المنع من الغصب، وتحديد الاستيلاء الظالم.

لا ندري فلعل إدراك أولئك المحتجين والمغالطين وغيرهم، لهذه المحسوسات

هو السبيل لدفع هذه الشبهة، وحل الطلسم العويص.

الشبهة الثانية: القول بأن انتخاب المجلس حق لنواب الإمام:

بعد أن فشل أرباب الاستبداد الديني في دحض مشروعية تحديد سلطة الجور بقدر ما يمكن. وضرورة إقامة الهيئة المسدّدة والرادعة، لمنع المسؤولين التنفيذيين من تجاوز صلاحياتهم المحددة، فقد شرع أعوان الاستبداد أولئك في بث شبهة أخرى حاصلها: أنهم لا ينكرون صحة هاتين المقدمتين (أصل التحديد وضرورة الهيئة) لكن لما كان القيام بأمر الأمة وسياستها، من الوظائف الحسبية، وهي إلى ذلك من باب الولايات، فأمر إقامتها موكول حصراً إلى الفقهاء العدول، بصفتهم نواباً لصاحب العصر (ع). فلا يجوز للعوام التدخل في هذا الأمر، بالترشح لعضوية مجلس الشورى أو انتخاب المرشحين، وأن الجهة الوحيدة المؤهلة شرعاً لانتخاب المرشحين لتمثيل الأمة وممارسة السلطة، هي الفقهاء العدول، أما انتخاب ممثلي الأمة بالتصويت العام، فهو تدخل غير محمود من جانب من لا يتصف بالأهلية، وهو من أنواع اغتصاب المقام.

ومع أن هذه الشبهة، قد قررت في مجملها بلسان علمي، وليست كسابقاتها الواهية، ولأنها تقوم على التسليم بأصل وجوب التحديد ونصب هيئة النظار، وإنما تتمحور حول اعتبار هذا العمل، تدخلاً غير مشروع في أمر الإمامة، لذلك فلا بد من شكر قائليها على ذلك التأسيس العلمي، وعلى قبول المقدمتين.

ولكن مع هذا فهي من المصاديق الواضحة للمثال المعروف:

«حفظت شيئاً وغابت عنك أشياء»[1]

فمع أن عمل نواب المجلس مصنف ضمن وظائف الحسبية، وهذا أمر مسلم لا يمكن إنكاره، إلا أنه ينبغي الالتفات إلى ما يترتب على هذه الولاية وأي ولاية أخرى، من حقوق للأمة. وهو ما نوجزه في النقاط الثلاثة الآتية:

١ ـ نظراً لكون السلطة الإسلامية قائمة على الشورى، فإن للأمة حق الرقابة

---

(١) عجز بيت من الشعر، والبيت هو: [من البسيط]

وقُلْ لمَنْ يدَّعي في العلمِ مَعْرِفَةً ... حَفِظْتَ شيئاً وغابَتْ عنكَ أشياءُ

والمحاسبة، على كل متصد للولاية، في أي مرتبة من مراتبها. وهذا الحق متقرر حتى مع جعل الولاية للفقيه في الوظائف الحسبية.

٢ ـ ونظراً لما يدفعه المواطنون من الضرائب، التي تعتمد عليها السلطة في إقامة المصالح العامة، فإن الدولة بما فيها من موظفين وعمال، تعتبر تابعة للشعب الذي يدفع لها ما تحتاجه من مال. ومن المقرر أن لمن يدفع حق محاسبة من يستلم، على حسن تصرفه في المال العام، وقيامه بأداء وظائفه.

٣ ـ ثم إن المراقبة والمحاسبة هي المقدمة الضرورية لمنع التجاوز وقمع المنكر، فهو لا يعرف من جانب الناس إلا إذا كانوا في موضع المراقبة والمحاسبة، ويجب النهي عن المنكر بأي وسيلة تحقق المطلوب. وبطبيعة الحال فإن عامة الناس لا يستطيعون ـ لأسباب سياسية وعملية ـ ممارسة الرقابة ومنع التجاوز.

فهذه النقاط تبين أن الرقابة والمحاسبة، من حقوق الرعية على الراعي، لكن هذا الحق لا يمكن إنجازه على وجهه الأكمل، إلا بوجود جهة منظمة، تحظى بدعم واضح من جانب الشعب، للقيام بهذا الأمر نيابة عنه. وإيجاد هذه الجهة وتخويلها هذه الصلاحية، غير ممكن إلا بالانتخاب الشعبي العام، هذا فضلاً عن أن إقامة المجلس يعتبر ـ من الناحية السياسية ـ الوسيلة الوحيدة الممكنة لحفظ حق الأمة، وتحديد السلطة، وذلك بالنظر إلى كون مقام الولاية مغصوباً بالفعل.

بين ولاية المجتهد وعدول المؤمنين:

إضافة إلى النقاط السالفة الذكر، فإن من المفيد بيان مطلبين آخرين، مما يتعلق بوجوب إقامة الوظائف الحسبية، وولاية المجتهد فيها، وهي من الأمور الواضحة، بل من المسلمات:

المطلب الأول: الثابت أن جعل الولاية للمجتهد في الوظائف الحسبية، لا يستلزم قيامه بهذه الوظائف بنفسه مباشرة، بل يكفي في صحة ومشروعية القيام بها، حصول المتصدي على إذن المجتهد. ووضوح هذا الأمر وبداهته، مما يغني عن الزيادة في البيان، فهو معروف ومعمول به حتى من طرف عوام الشيعة، فضلاً عن العلماء.

المطلب الثاني: إن عدم تمكن الفقهاء بصفتهم نواباً للإمام جميعهم أو بعضهم، من إقامة بعض الوظائف المجعولة لهم، لا يوجب سقوطها أو انتفاء التكليف بها، بل

ينتقل التكليف بإقامتها إلى عدول المؤمنين. ومع عدم تمكن العدول ينتقل التكليف إلى عموم المؤمنين، حتى تصل النوبة إلى فساق المسلمين، إن لم يقم بها من قبلهم، وهذا محل اتفاق جميع فقهاء الإمامية.

إن تحديد السلطة وإقامة تلك الوظائف اللازمة، منحصر بهذه الوسيلة، التي تعارفت عليها جميع أمم العالم. وهي وجود هيئة ممثلة للشعب فوق السلطة التنفيذية، واشتراك مجموع الشعب في انتخابها، بالنظر إلى عمومية هذا الحق، وكون جميع أفراد الشعب مشتركين فيه.

وبغير هذا الطريق، ومع بقاء الوضع الحالي، فإنه لا الفقهاء قادرون على تعيين ناظرين ومراقبين، وحتى لو قاموا بذلك، فإن ممثليهم لن يستطيعوا القيام بمهمتهم، بل لن ينالوا سوى سياط الإهانة والزجر وربما النفي عن مواطنهم. هذا فضلاً على أن أساس الرقابة والمحاسبة لن يتحول إلى قانون ثابت، مطرد وحاكم على ما عداه.

لهذا فمع غض الطرف عن كون هذه الجهات من المشتركات العامة، المتعلقة بعموم الشعب، والتي تخرج بهذا المقتضى عن باب الولايات، فإنه حتى لو اعتبرنا أن الأساس فيها، هو كونها من الولايات المجعولة للفقهاء، فإنّ النتيجة التي توصلنا إليها، وهي انتخاب مجلس الشورى من قبل عامة الشعب، هي الوظيفة المتعينة. وغاية ما يتطلبه الأمر هو ملاحظة هذه الجهة (ولاية الفقهاء) من باب الاحتياط الواجب الرعاية. وهذا ممكن بطلب إذن الفقيه المبسوط اليد من أصل الانتخاب، وفي قيام المنتخبين بوظيفتهم التي تتضمن تدخلاً في أمر السلطة، أو وضع قانون ثابت وملزم يوجب تمثيل الفقهاء في المجلس، كأن يضم في عضويته عدداً من المجتهدين، لتصحيح أو تفنيد القوانين الصادرة عنه، والتأكد من مطابقتها لمقاصد الشريعة الغراء، كما هو مقرر في متمم الدستور.

ومع هذا الترتيب فإن جميع الجهات والاحتياطات قد روعيت، فأصبح باب الشبهة والإشكال غير المغرض مسدوداً على العوام، فضلاً عن أهل العلم.

الشبهة الثالثة: عدم انطباق تمثيل النواب للشعب على باب الوكالة الشرعية:

مرة أخرى ـ وكناقل التمر إلى هجر ـ ادعى أولئك البسطاء في كراس وجهوه إلى فقهاء النجف الأشرف، إن انتخاب هيئة النظار لا يطابق الأحكام الواردة في باب

الوكالة الشرعية.

والذي يظهر أننا ـ أشباه العوام المتلبس بزي أهل العلم ـ لم نفهم حقيقة الوكالة، لا من معناها اللغوي ولا مفادها العرفي، الذي هو مطلق جعل زمام الأمر بيد الوكيل. وقد أسمي هذا التحويل من الموكل إلى الوكيل (عقد الوكالة) لهذه المناسبة.

وكما لم نفهم المعنى اللغوي والعرفي للوكالة، فإننا عجزنا أيضاً عن فهم مفاد الآيات المباركات، التي ورد فيها تعبير الوكالة مثل ﴿حسبنا الله ونعم الوكيل﴾ [آل عمران: ١٧٣]، ﴿وما أنت عليهم بوكيل﴾ [الأنعام: ١٠٧]، ﴿والله على كل شيء وكيل﴾ [هود: ١٢]، مع وضوح عدم انطباق معناها على الوكالة الشرعية، كما عجزنا عن بلوغ الحد الأدنى، وهو تصور حدود النقاش في الموضوع. فما دام الكلام في انطباق أو عدم انطباق تمثيل النواب للشعب على باب الوكالة الشرعية، فهذا يعني أن الاتفاق قائم على صحة أصل الموضوع ولزوم وضع الهيئة المذكورة، فيكون النقاش في الانطباق وعدمه لفظياً، ولا يخرج عن حدود التأكد من كونه إطلاقاً حقيقياً أو مجازياً. وبغض النظر عن الاتفاق أو عدمه على حقيقية أو مجازية الإطلاق، فأي أثر سوف يترتب على النتيجة التي سننتهي إليها؟

لكن الحقيقة أن النقاش لم يكن بسبب الاختلاف على التطبيق، بل لأسباب أخرى. فلولا أن تحديد سلطة الجائر يتنافى مع مقاصد أولئك النفر من أعوان الظالم، لما بلغ بهم الأمر إلى هذا الجهل. لقد ختم حب المصلحة على قلوبهم، وأغشى أسماعهم وأبصارهم، حتى لم يعودوا قانعين بما يفعلون من تشويش الأذهان العامة، بل تجرؤوا على إرسال ترهاتهم إلى النجف الأشرف. هذه الدائرة العلمية والخطة القدسية، على مشرفها (أمير المؤمنين علي بن أبي طالب) آلاف التحية والسلام.

الشبهة الرابعة: فساد التعويل على آراء الأكثرية:

من المغالطات التي أثيرت للتشكيك في صحة ومشروعية مجلس الشورى، القول بأن التعويل على أكثرية الآراء في تقرير الأحكام بدعة وغير مشروع. فأما دعوى بدعية هذا العمل، فقد أوضحنا فيما سبق معنى البدعة وحقيقة التشريع المحرم بما يغني عن الإعادة.

أما اعتماد الأخذ بأكثرية الآراء فيتضح من كونه لازماً للشورى، كما أنه أخذ

بالترجيحات عند التعارض. وقد جرى العقلاء على اعتبار تأييد الأكثرية لأحد الأطراف أقوى المرجحات النوعية، عندما يدور الخيار بين طرفين يتساويان في المبنى والدليل. كما أن أخذ الطرف الذي يراه أكثرية العقلاء أرجح من الأخذ بالشاذ من الآراء، وعموم التعليل الوارد في مقبولة عمر بن حنظلة يشعر بذلك.

ومع اختلاف الآراء والتساوي في جهات المشروعية، فإن الأخذ برأي الأكثرية متعين، حفظاً للنظام، وأدلة تعيّنه هي نفس الأدلة الواردة في لزوم حفظ النظام. هذا بالإضافة إلى المستفاد من السيرة النبوية، مثل ما ثبت من اعتماد النبي (ص) رأي أكثرية الأصحاب في مواقع عديدة، مما رواه الفريقان، كما فعل صلى الله عليه وآله في غزوة أحد التي أشرنا إليها سابقاً. وهكذا في غزوة الأحزاب، حيث ذهب أكثر الأصحاب إلى عدم مصالحة قريش بمقدار من تمر المدينة، وهكذا أخذ أمير المؤمنين علي بن أبي طالب برأي الأكثرية في قضية التحكيم المشؤومة، مع أن رأيه كان على خلاف هذا، ومع علمه بما حصل لأصحابه، الذين خدعهم أهل الشام برفع المصاحف على رؤوس الرماح. وقوله فيما بعد إن نصب الحكمين لم يكن ضلالة، بل ضعفاً في الرأي، وأنه لم يمنعه بسبب اتفاق الأكثرية عليه. وغير ذلك من الوقائع، التي يكفي بعضها لإبطال تلك الدعوى، ورد التشكيك في صحة ومشروعية الأخذ برأي الأكثرية.

عود على بدء:

لأن شبهات المخالفين لهذا الأساس المتين لسعادة الأمة (المشروطة) منحصر في ما ذكرناه، فمن الواضح أن أساسها لم يكن الحرص على الدين القويم، بل إن بناءها قائم على الأغراض والمصالح الشخصية، وهذا واضح لكل أحد. وقد تعرضنا إليها وأظهرنا فسادها وضعف مبانيها، ويتضح بما قلناه دفع سائر الشبهات الأقل منها قوة والأضعف بناء، مع أن ما يصرف في الجدل حولها من الوقت أشرف منها وأعظم قيمة.

وقبل أن نختتم الفصل، نأتي على ذكر رأي رئيس المشيخة الإسلامية في اسطنبول، الذي كتبه عن لسانه بعض أفاضل الإيرانيين المقيمين في العاصمة التركية، وأرسلوه إلى آية الله الآخوند ملا محمد كاظم الخراساني دام ظله في النجف الأشرف، فيما يرتبط بالفظائع التي يقوم بها عباد الظلمة في إيران.

ففي ضمن بيانات مفصلة، حول لزوم الاهتمام بتشييد هذا الأساس لسعادة الأمة، نقل عن ذلك المخلص العظيم للإسلام قوله: (يجب علينا نحن ـ الرؤساء الدينيين ـ أن ننهض لمواجهة هذا السيل العظيم للتمدن البشري، الذي ينهال على البلاد الإسلامية من الغرب. فإن لم ننهض ونأخذ قصب المبادرة في تشييد حضارة الإسلام، بشكل كامل قبل أن يفوت الزمن، فإن أساس الإسلام سوف يندثر تحت أمواج هذا السيل العظيم).

انظر إلى الفرق من أين وإلى أين، وكيف نظر هذا الرجل العظيم في العواقب، واهتم بحفظ مقام الإسلام، هذا مع أن استقلال الدولة العثمانية لا يزال محفوظاً. ومع ذلك فقد التفت إلى عواقب الحال التي نحن عليها، وفكر في وسائل حفظ هذا الدين على المدى البعيد. ورأى أن المدنية الإسلامية التي هي أساس سعادة المسلمين، قائمة على التزامهم بمفاد الكتاب والسنة. وأن القيام بأمر الدين لا معنى له إلا بالسعي الحثيث لتشييد أبنية التمدن والحضارة الإسلامية.

أما نحن في إيران ـ عباد الظلمة الذين ندعي التمسك بمذهب أهل البيت ـ فمع كل ما فينا من جهل بمقتضيات الدين، ومداليل الكتاب والسنة النبوية وسيرة المعصومين، إلا أنه لا يسعنا إنكار ما قامت عليه ضرورة مذهبنا، من اعتبار المتصدين للسلطة غاصبين لمقام الولاية. كما لا يمكن إنكار لزوم تحديد سلطة الغاصب، بقدر ما لدينا من قوة وإمكان، وقصر تصرفاته على أقل ما يمكن. خاصة ونحن نرى عياناً كيف كنا ذات يوم أولى أمم الدنيا، فأصبحنا بسبب استبداد أهل الأهواء، وفعلهم لما يشاؤون، وعدم محاسبتهم على ما يرتكبون، أصبحنا في أشد محنة وأصعب ورطة، بل في مهلكة قريبة الوقوع.

مع ذلك فإننا ـ بسبب طول الأمل في الدنيا، والظن بأن أعمارنا متطاولة، واستيلاءنا على المال العام غير منقطع، واستبدادنا واستئثارنا محفوظ ـ منهمكون في التعاون مع طواغيت الأمة، ومخربي البلاد، والعابثين بالأموال والدماء والأعراض. بل إننا نضع أيدينا في أيدي الأجانب، الذين يخشون أن تذهب مصالحهم وامتيازاتهم أدراج الرياح، فيما لو توفق الإيرانيون لإقامة الحكم الدستوري، هذا الركن الركين لسعادة الأمة.

مغالطات أخرى:

ولأجل رفع لجام الدستور الذي وضعه الشعب على فم الظالم، شمر المتزلفون عن ساعد الجد، وبذلوا منتهى الهمة والجهد لحفظ الاستبداد وتثبيت بنيانه، فلكل يوم خطة، ولكل زمن دعوة:

١ ـ فتارة ـ وفي سبيل تحكيم أساس استبدادهم وزرع بذور الفتنة والفساد ـ أثاروا الجدل حول أسماء المجتهدين المقترحين لعضوية هيئة النظار. في الفصل المتعلق بنظارة هيئة كبار المجتهدين من الدستور الأساسي، باعتبارها القضية الأهم، مع أن تعيين مصاديقها محل شجار وتنازع، وسبب للخصام والاختلاف.

٢ ـ وكأن هذا لم يكفهم، فأثاروا دعوى عدم عضوية هيئة النظار في المجلس، وأنهم بالفعل خارج إطاره، من أجل إبطال قانونية المجلس، ودمغه بالنقصان عما هو مقرر له. من زاوية أن عدم وجود مجتهدين بين أعضائه يسلبه الولاية المدعاة له، والخاصة بالفقيه.

٣ ـ ومع أن الفصل الخاص بهيئة النظار في الدستور، صريح في بيان حاكمية رأي هيئة المجتهدين، على كل أعمال المجلس وما يتوصل إليه من قوانين وقرارات. وكون أكثرية الآراء متأخرة في الرتبة عن هذا المطلب بل أجنبية عنه، مع ذلك فإنهم ـ لأجل خداع السذج ـ رتبوا هذه الشبهة الواهية، بادعاء أن قبول هيئة المجتهدين لشيء أو رفضه، سيكون محكوماً برأي أكثرية أعضاء المجلس.

٤ ـ ولأن هذه المغالطة لم تنطل على أحد، فقد رتبوا حيلة أخرى على غرار رفع المصاحف في صفين، لأجل إبطال الدستورية. فمع قيام ضرورة المذهب على عدم مشروعية، بل وحرمة تصدي الغاصب لأمر الولاية على كل تقدير، إلا أنهم وفي سبيل هدم أساس المشروطة، رفعوا شعاراً عريضاً اسمه (المشروعة) باعتبارها نقيضة للمشروطة.

ولعمري كم أثارت هذه الكذبة من الجدل بين الناس. هذه الكذبة، وإن كانت تستهدف في ظاهرها الانتصار لتحكيم الشريعة، إلا أنها بحسب الهدف والواقع، كانت تستخدم شعاراً لهدم أساس تحديد سلطة الجور، ورفع اللجام من على أفواه الظالمين.

وفي الجملة: فكأن الجائرين وعبّادهم يتقاسمون الأدوار، في خطة محكمة هدفها

إبقاء الاستبداد وهدم أساس سعادة الأمة. فبينما انهمك أولئك في حبك الحيل والدسائس، وإثارة الفتن، وتوفير أسباب الاضطراب الداخلي وعلى الحدود، من أجل إشغال قلوب الناس عن قضية الإصلاح الداخلي، فإن عباد الظلمة، وجرياً على نفس الخطة، تحركوا وحبكوا من فنون الحيل والتزويرات، ما قصر عن بلوغه دهاة العرب، بل جميع من في العالم من المحتالين. وأما بعد أن يفشل رجال الاستبداد الديني والسياسي، عن بلوغ مبتغاهم بتلك الحيل والأحابيل، فسيعود أولئك الظلمة إلى إحياء سنة جنكيز خان في سفك دماء المسلمين، وانتهاك أعراضهم، وسلب أموالهم. وسيعود عباد الظلمة إلى تبرير هذه الشنائع والفظائع، وسيلقون وصمة الكفر والخروج عن ربقة الدين، على جباه الداعين إلى الإصلاح، وتجريد الطغاة والجبابرة من صفات الواحد الأحد التي يدعونها، بل وسيلقون رداء الدين على كتف أركان الاستبداد، حتى يظن الناس أن هذه البدعة التي سنها معاوية هي حكم الدين.

لقد لوثوا ساحة الإسلام المقدسة بهذا الاتهام، وشوهوا صورته عند سائر الأمم، ونكسوا هامة المذهب الجعفري على مشيده الصلاة والسلام، بين سائر الفرق والمذاهب الإسلامية، بما نسبوه إلى أهله من الإفك والبهتان.

بلى بلى.. من يزرع الشوك لا يحصد غير الجراح. فطلب العلم من أجل زينة الحياة الدنيا، والاستضاءة بمصباح العقل في السطو والسرقة، واقتعاد كراسي أهل العلم رغبة في التطاول والكبرياء، لا ينتج غير هذا الثمر المرّ. فبينما يقف المخلصون من أهل العلم مع الضعفاء ضد الجبابرة، فإن طلاب الدنيا يتوسلون بما حصلوا عليه من وادي العلم لتدعيم أركان التجبر. ولنعم ما قاله الشاعر الفارسي: إن إعطاء الموسى للرجل المخمور أقل خطراً من حصول الأحمق على العلم.

الفصل الخامس

في شرائط صحة ومشروعية
تدخل النواب في الأمور السياسية وبيان وظائفهم

المقام الأول في شرائط ممثلي الأمة:

أوضحنا فيما سبق الشرائط المعتبرة في صحة ومشروعية تدخل ممثلي الأمة في الوظائف الحسبية والعامة. كما اتضح أيضاً أنه مع توفر إذن المجتهد النافذ الحكم، واشتمال المجلس على عدد من المجتهدين العدول العارفين بالسياسة، لتصحيح أو تفنيد الآراء من حيث مطابقتها أو مخالفتها لأحكام الشريعة (كما هو مبين في متمم الدستور) فإن المجلس لا يحتاج لأي شرط آخر، لتحقق مشروعيته وصحة قيامه بمهامه.

فإذا انتهينا من هذا المطلب، فينبغي الحديث عن المواصفات التي ينبغي أن تتوفر في كل عضو من أعضاء مجلس الشورى، فمنها:

الأولى: العلم:

فينبغي أن يتمتع عضو المجلس بالمعرفة الكاملة في أمور السياسة، بل ينبغي أن يكون مجتهداً في فن السياسة، عالماً بالقانون الدولي والحقوق المشتركة بين الأمم، مطلعاً على خفايا الحيل المتداولة في العلاقة الدولية، متمتعاً بالخبرة الكاملة والتفصيلية فيما يتعلق بوظيفته، مطلعاً على مقتضيات العصر. بحيث إذا انضمت هذه المعرفة السياسية الكاملة، إلى فقاهة هيئة المجتهدين، المنتخبين لمطابقة عمل المجلس مع مقتضيات الشريعة المقدسة، فقد اكتمل عقد القوة العلمية اللازمة لسياسة الأمة وإدارة أمورها، بحسب حدود الطاقة البشرية، وأصبحنا قادرين على بلوغ الهدف المقصود.

الثانية: النزاهة:

وتتضمن اتصاف عضو المجلس بالتورع عن المطامع والأغراض الشخصية. وإلا

فإن أدنى درجة من الطمع أو الاستئثار، أو الرغبة في جمع الأموال، أو تسرب حب الرئاسة والنفوذ إلى العمل ـ لا سمح الله ـ سوف يبدل الاستبداد الشخصي للحاكم إلى استبداد جمعي من جانب المجلس، وهو أسوأ من الأول. وإنما ينبغي أن يكون ممثل الشعب مهذباً عن البخل والحرص والجبن، مصداقاً للصورة التي وصفها الإمام علي في عهده لمالك الأشتر (ولا تدخلن في مشورتك بخيلاً، يعدل بك عن الفضل، ويعدك الفقر، ولا جباناً يضعفك عن الأمور، ولا حريصاً يزين لك الشره بالجور..).

الثالثة: الحرص على الدين والوطن:

أن يتصف بالغيرة الكاملة والإخلاص للدين والدولة والوطن الإسلامي، بل نوع المسلمين، بحيث تكون أجزاء وحدود المملكة وثغورها، أعز عنده ـ ألف مرة ـ من ماله وملكه الشخصي وبيته. وأن يعتبر دماء وأعراض وأموال المسلمين كريمة مثل دمه وماله وعرضه، والدين ناموساً أعظم بل أهم النواميس. ويعتبر حفظ استقلال الدولة الإسلامية أعظم المهمات بعد حفظ الدين.

إن عضوية المجلس لا تقتصر على المسلمين، بل لا بد أن تتمثل الأقليات غير المسلمة في المجلس، ولا بد أن تشارك في الانتخابات. لأن أتباعها شركاء في الوطن، وشركاء في أموال الدولة وغيرها، ولتوقف عمومية الشورى والانتخاب على دخولهم.

وهؤلاء لو انتخبوا شخصاً من صنفهم، فهو وإن لم ينتظر منه حفظ ناموس الدين الإسلامي، لكن الإخلاص للوطن وللناس متوقع منه، واتصاف نواب الأقليات الدينية هؤلاء بالأوصاف المذكورة ـ عدا التدين بالإسلام ـ كاف لصحة عضويتهم.

ولا يقال بوجوب اتصاف أعضاء المجلس بصفات أئمة الجماعات أو أهل الفتوى، مضافاً إلى ما ذكرناه من الأوصاف. فإن مهمة المجلس هي مراقبة ومحاسبة المتصدين للسلطة التنفيذية، وإقامة الوظائف المؤدية إلى تنظيم البلاد وحفظها، وسياسة أمور الناس وإحقاق حقوقهم، ولم يعقد لأجل القضاء الشرعي أو للإفتاء وصلاة الجماعة. وبالتالي فالصفات المطلوبة في أعضائه أجنبية عن الصفات المطلوبة في هذه الأمور، ويكفي للمنع عن صدور الآراء المخالفة للشريعة، وجود هيئة المجتهدين، وكون وظيفتهم الأساسية هي هذه الوظيفة، وينبغي أن يكون توفر هذه الأوصاف والشروط

كافياً للجم ألسنة العائبين والمستشكلين، هذا إذا كانت إشكالاتهم خالية من الأغراض الذاتية.

التصويت:

وعليه فإن كل مواطن يتحمل جانباً من المسؤولية، عن وصول أكفأ المرشحين إلى عضوية المجلس. وعليه ـ انطلاقاً من إيمانه الديني وحبه لوطنه ـ أن يساعد في إنجاح المرحلة التالية لإصلاح النظام السياسي، وهي تمكين مجلس الشورى، هذا الأساس الثابت للسعادة، من القيام بعمله على أحسن الوجوه. وهذا قابل للتحقق، إذا شارك كل مواطن في الانتخابات، ودقق في صفات المرشحين لعضوية المجلس قبل التصويت.

على المواطنين أن يجعلوا الإنصاف دليلاً لهم، في قيامهم بهذه المسؤولية الدينية والوطنية، فيستبعدوا الأغراض الشخصية في منح التأييد أو حجبه، مثل قرابة زيد أو عداوة عمرو. فلا يكونوا مثل بعض عباد الظلمة، الذين هم مصداق للحديث الشريف «شر الناس من باع دينه بدنيا غيره» وأن يسألوا أنفسهم عن الأسباب التي تحدوهم إلى تقديم زيد وتأخير عمرو، ومدى ما يتمتع به الشخص المراد من الصفات المذكورة آنفاً، ومدى قدرته على إنجاز الوظيفة المتوقعة منه. وليعلموا أن الله سائلهم عن الأمور، فإذا رأوا أنفسهم قادرين على الإجابة، في المحكمة الإلهية يوم القيامة فلينتخبوه، وإلا فإن مسؤولية الحقوق العامة، التي يمكن أن تضيع على أيدي غير الأكفاء وغير المؤهلين، إضافة إلى مسؤوليات أخرى من جهات متعددة، سوف تقع على عاتقهم، فلا يحملوا أنفسهم وزرها، من أجل قرابة أو صداقة أو أمور نفسية أخرى.

إن حفظ الدين المبين، وصيانة استقلال الدولة، ووحدة الشعب، وتنظيم البلاد الإسلامية، مقدم على كل هدف آخر. نسأله سبحانه أن يؤيدنا ويسدد مسعانا، ويجمع على الهدى كلمتنا، وعلى التقى شملنا بمحمد وآله الطاهرين.

المقام الثاني في وظائف ممثلي الأمة:

من اللازم ـ بعد غض النظر عن مغصوبية المقام ـ أن نبين أصول الوظائف السياسية في عصر الغيبة ونقتبس من خلالها الوظيفة الفعلية:

١ ـ الأموال العامة: فأول وأهم وظائف هذا الباب، ضبط وتعديل الخراج، ومعادلة النفقات بالمداخيل على المستوى الوطني. فمن البديهي أن حفظ النظام وصيانة حوزة الإسلام، لا يتم إلا بترتيب القوى الدفاعية، سواء هذه التي في الداخل، أو تلك التي على الحدود والثغور. ومن الواضح أن القيام بهذه الترتيبات والأنظمة، متوقف على تصحيح وتعديل الخراج (المال العام) وضبطه عن أن يصرف في الأمور الشخصية، أو يستنزف في تحقيق رغبات الطواغيت. يقول سيد الأوصياء في عهده لمالك الأشتر، الذي تضمن قوانين كلية فيما يتعلق بالخراج: (وتفقد أمر الخراج بما يصلح به أهله، فإن في صلاحه وصلاحهم، صلاحاً لمن سواهم، ولا صلاح لمن سواهم إلا بهم، لأن الناس كلهم عيال على الخراج وأهله). . إلى أن قال: (ومن طلب الخراج بغير عمارة، خرب البلاد، وأهلك العباد، ولم يستقم أمره إلا قليلا) إلى آخر ما كتبه عليه السلام.

وقد كانت سيرة الرسول في صدر الإسلام، وقبل الفتوحات الإسلامية، واستيلاء المسلمين على الأراضي الخراجية المفتوحة عنوة، هي توزيع مداخيل الخراج على المسلمين وسائر مواطني الدولة الإسلامية من المعاهدين كاليهود وغيرهم، بحسب التمكن والقدرة بنسب متساوية، وفي مقابل اختصاص كل مواطن بنصيبه من المال العام. فقد كان ملتزماً أيضاً بنصيبه من المسؤولية عن الالتزامات المادية أو المعنوية، التي تترتب على الدولة الإسلامية، وكان هذا الالتزام المتقابل من شروط العهد مع المعاهدين. وقد سجل التاريخ أن فسخ العهد بين المسلمين ويهود بني النضير، كان نتيجة لإخلال هؤلاء بالتزاماتهم المنصوص عليها في المعاهدة بينهم وبين المسلمين، الأمر الذي دفع النبي إلى أمرهم بالجلاء عن المدينة المنورة.

أما في هذا العصر، فإن الأراضي الخراجية المفتوحة عنوة، لا تجري عليها الأحكام الواردة في باب الخراج، بالنظر لكونها مجهولة وغير قابلة للتعيين والتحديد. وحتى على افتراض إمكانية تعيينها، فإن استقرار الملك للمتصرفين فيها، واحتمال استناد هذا التصرف إلى نقل شرعي وصحيح، يمنع من إجراء الأحكام المقررة في باب الأراضي الخراجية.

لذلك فإن الوظيفة الراهنة في تصحيح العلاقات المالية، منحصرة في تطبيق تلك

السيرة المقدسة التي كانت في صدر الإسلام. وذلك بتعيين الموارد اللازمة لحفظ وإدارة البلاد، وتخليصها من يد الدخلاء الأجانب، الذين أخذوها بالتعاون مع خونة البلاد. ثم يتم التخطيط العلمي الصحيح لتوزيع الثروة على طبقات المجتمع، وأرباب الصناعات والمواشي والأملاك، بالتساوي وبحسب حاجة كل مواطن، وقدرته على الانتفاع منها.

وهكذا بالنسبة إلى طبقات الموظفين الحكوميين والمتصدين لأمور الدولة، الذين لهم نصيب في المال العام يناسب كفاءتهم في أداء الوظائف الموكولة إليهم. كما توضع الترتيبات اللازمة لحفظ المال العام من الحيف والميل، ومن أن ينفق في الفجور والشهوات والفسوق وتحقيق الشهوات، التي أفسدت الوضع الديني والسياسي للأمة والدولة.

فإذا تم تصحيح أمر الخراج بالصورة المذكورة، وتمت مطابقته للمأثور من السيرة النبوية المقدسة، فقد وجب على كل مواطن الالتزام بأداء الواجبات المالية للدولة. نظراً لأن ما هو مطلوب من صيانة البلاد الإسلامية وتنظيم أمورها، متوقف على القدرة المالية للدولة. وفي المقابل فإن أخذ الموظفين العموميين للمال من الدولة، مقابل قيامهم بالوظائف المقررة، وبشرط عدم تجاوز مستحقاتهم، حلال وخال من أي إشكال أو شبهة.

على أنه لا بد من ملاحظة احتمال يعتبر بديهياً، وهو أن هذه الطائفة من لابسي العمائم أو لابسي القبعات، التي اعتادت على النهب والسلب والاستئثار بالمال العام، سوف لن تسكت على مساواتها بسائر الناس في الموارد المالية، ولن تقبل بأدنى تدخل من جانب ممثلي الشعب، إذا كان سيؤدي إلى منع أفرادها مما اعتادوا عليه، من سلب ونهب أفسد حياة البلاد والعباد. ولذلك لا ينبغي توقع الانتظام الكامل، وزوال جميع التجاوزات، فور أن يشرع ممثلو الأمة في عملهم.

لقد أدى تطاول الاستبداد إلى سريان الفساد إلى أنفس العامة، لكن مع ذلك فإن المأمول من أعضاء مجلس الشورى أن يبادروا ـ بالاعتماد على عون الله وحسن تأييده ـ في هذا الشأن بما يلزمه من الحكمة، فيقيموا أساساً صحيحاً ومتيناً. وأن يسعوا في إرجاع عموم المسلمين إلى فطرتهم الأصيلة الصافية، بتأسيس ما يكفي من المدارس

العلمية والعملية لإعداد وتأهيل موظفي الدولة، بل جميع الناس بمختلف طبقاتهم، وتهذيب الأخلاق العامة، حتى يتمكنوا من تخليص المجتمع من الرذائل، الموروثة عن معاوية وسائر أغصان الشجرة الملعونة الأموية، فيقوموا بأداء الخراج اللازم لحفظ وتنظيم البلاد الإسلامية، ويعرفوا حلية بل لزوم صرفه في المصارف المذكورة بعد تعديله وتنظيمه بما ذكر، وحفظه عن الحيف والميل.

وليعلم المسلمون أن أداء الخراج واجب لا ينبغي التثاقل في أدائه، شأنه شأن بقية الواجبات الشرعية التي عرف عنهم المسارعة في القيام بها، كما هو مقتضى تدينهم والتزامهم.

إن تحريم أداء الخراج في السابق، لم يكن إلا بسبب تحوله إلى مورد للعبث، وإنفاقه على الشهوات من جانب الجائرين، وكونه وسيلة لتعزيز وتوسيع الظلم والاستبداد. أما بعد تصحيحه وتطبيقه على السيرة النبوية المقدسة، فإنه لم يعد ثمة مورد لمقايسته على الوضع السابق ولذا وجب النظر إليه باعتباره وظيفة دينية، فلا يتهاونوا في أدائه، وليهتموا بأفضل ما يمكن في أداء الحقوق النوعية الواجبة، التي شرعت في الدين حفظاً للنظام، وصيانة لحوزة الإسلام.

ونستعرض هنا للمناسبة، جملة من إرشادات سيد الأوصياء، حتى يتضح مقدار ظلمنا لأنفسنا، وقناعتنا من التشيع بمجرد الادعاء، وليتبين أن ما نجده لدى الآخرين، إنما هو غيض من فيض هذا النبع المبارك. يقول علي في بيان الحقوق المتقابلة بين الوالي والرعية:

(أما بعد فقد جعل الله لي عليكم حقاً بولاية أمركم، ولكم علي من الحق مثل الذي لي عليكم، فالحق أوسع الأشياء في التواصف، وأضيقها في التناصف، لا يجري لأحد إلا جرى عليه، ولا يجري عليه إلا جرى له، ولو كان لأحد أن يجري له ولا يجري عليه، لكان ذلك خالصاً لله سبحانه دون خلقه، لقدرته على عباده، ولعدله في كل ما جرت عليه صروف قضائه، ولكنه جعل حقه على العباد أن يطيعوه، وجعل جزاءهم عليه مضاعفة الثواب، تفضلاً منه وتوسعاً بما هو من المزيد أهله، ثم جعل سبحانه من حقوقه حقوقاً افترضها لبعض الناس على بعض، فجعلها تتكافأ في وجوهها ويوجب بعضها بعضاً. ولا يستوجب بعضها إلا ببعض.

وأعظم ما افترض سبحانه من تلك الحقوق حق الوالي على الرعية وحق الرعية على الوالي، فريضة فرضها الله سبحانه لكل على كل، فجعلها نظاماً لألفتهم وعزاً لدينهم، فليست تصلح الرعية إلا بصلاح الولاة، ولا تصلح الولاة إلا باستقامة الرعية.

فإذا أدت الرعية إلى الوالي حقه، وأدى الوالي إليها حقها، عز الحق بينهم، وقامت مناهج الدين، واعتدلت معالم العدل، وجرت على أذلالها السنن فصلح بذلك الزمان، وطمع في بقاء الدولة، ويئست مطامع الأعداء.

وإذا غلبت الرعية وإليها، وأجحف الوالي برعيته اختلفت هنالك الكلمة، وظهرت معالم الجور، وكثر الإدغال في الدين، وتركت محاج السنن، فعمل بالهوى، وعطلت الأحكام. وكثرت علل النفوس، فلا يستوحش لعظيم حق عطل، ولا لعظيم باطل فعل، فهنالك تذل الأبرار وتعز الأشرار، وتعظم تبعات الله عند العباد. فعليكم بالتناصح في ذلك وحسن التعاون عليه، فليس أحد ـ وإن اشتد على رضاء الله حرصه وطال في العمل اجتهاده ـ ببالغ حقيقة ما الله أهله من الطاعة له، ولكن من واجب حقوق الله على العباد النصيحة بمبلغ جهدهم، والتعاون على إقامة الحق بينهم.

وليس امرؤ وإن عظمت في الحق منزلته، وتقدمت في الدين فضيلته بفوق أن يعاون على ما حمله الله من حقه، ولا امرؤ وإن صغرته النفوس واقتحمته العيون بدون أن يعين على ذلك أو يعان عليه).

(فقام رجل من أصحابه وأجابه بكلام طويل أكثر فيه الثناء عليه، وذكر سمعه وطاعته له) فقال عليه السلام:

(إن من حق من عظم جلال الله في نفسه، وجل موضعه من قلبه، أن يصغر عنده ـ لعظم ذلك ـ كل ما سواه، وإن أحق من كان كذلك، لمن عظمت نعمة الله عليه، ولطف إحسانه إليه، فإنه لم تعظم نعمة الله على أحد إلا ازداد حق الله عليه عظماً، وإن من أسخف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حب الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر.

وقد كرهت أن يكون جال في ظنكم أني أحب الإطراء واستماع الثناء، ولست بحمد الله كذلك. ولو كنت أحب أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً لله سبحانه عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبرياء، وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء، فلا تثنوا

علي بجميل ثناء لإخراجي نفسي إلى الله وإليكم من التقية في حقوق أفرغ من أدائها وفرائض لا بد من إمضائها، فلا تكلموني بما تكلم به الجبابرة، ولا تتحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البادرة، ولا تخالطوني بالمصانعة، ولا تظنوا بي استثقالاً في حق قيل لي ولا التماس إعظام لنفسي..).

٢ ـ تقنين القوانين ومطابقتها بأحكام الشريعة: إن مجموعة الوظائف المرتبطة بالنظام وحفظ الدولة، وسياسة الأمة، سواء كانت دساتير أولية، وهي التي تتكفل ببيان أصل القانون العام، أو وكانت ثانوية تتضمن الجزاء على مخالفة القوانين الأولية، هذه لا تخرج عن أحد قسمين بالضرورة:

ـ إما أنها منصوصة في الكتاب أو السنة، بحيث تكون الوظيفة العملية لأرباب التشريع معينة، وحكمها في الشريعة المطهرة مضبوطاً.

ـ أو أنها غير منصوصة، فالوظيفة العملية المترتبة عليها غير معينة، لعدم اندراجها تحت ضابط خاص، فهي ـ حينئذ ـ موكولة إلى رأي وترجيح الولي النوعي.

ومن الواضح أو الوظيفة المترتبة على القسم الأول (القوانين المنصوصة الأحكام) لا تقبل التغيير باختلاف الأعصار والأمصار، ولا يمكن تصور شيء فيها غير التعبد بما ورد عليه النص إلى قيام الساعة.

أما الوظيفة المترتبة على القسم الثاني، فهي تابعة للمصالح، فكل ما أدى إلى مصلحة صح، والعكس بالعكس. ولهذا أيضاً فهي تتأثر بمقتضيات الزمان والمكان، فقد تختلف الوظيفة الشرعية أو تتغير، من مكان إلى آخر، ومن زمان إلى آخر.

وكما أن هذه الأمور موكولة إلى رأي وترجيحات الوكلاء المنصوبين من قبل الإمام المعصوم في سائر الأقطار، عند حضوره وكونه مبسوط اليد، فكذلك الأمر في عصر الغيبة، فهي موكولة أيضاً إلى نظر وترجيحات نوابه العامين، أو المأذونين من قبل من له ولاية الإذن.

وبعدما اتضح هذا المعنى، فإن الفروع السياسية المترتبة على هذا الأصل، هي كما يلي:

الأول: القوانين التي ينبغي الاهتمام بدقة انطباقها على الشرعيات، مقصورة على القسم الأول، أي تلك القوانين القائمة على أساس أحكام منصوصة. أما في القسم

الثاني فهذا المطلب لا موضوع له أصلاً ولا محل.

الثاني: الشورى، التي هي ـ كما علمت ـ أساس الدولة الإسلامية، بنص الكتاب والسنة، موضوعها القسم الثاني. أما القسم الأول فهو خارج عن هذا العنوان تماماً، ولا محل للمشورة فيه أبداً.

الثالث: كما أن آراء وترجيحات الولاة والعمال، المنصوبين من قبل المعصوم في زمن حضوره وبسط يده، ملزمة في القسم الثاني (الوظائف التي لم تنص الشريعة على أحكامها). كذلك فإنه في عصر الغيبة، تكون ترجيحات النواب العامين أو المأذونين من قبلهم، ملزمة في هذا القسم، بمقتضى النيابة القطعية الثابتة.

فبمقتضى الآية المباركة ﴿أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولي الأمر منكم﴾ [النساء: ٥٩]، فإن طاعة ولي الأمر (المعصوم) عليه السلام، واقعة في عرض طاعة الله ورسوله، بل عدت الطاعة المفترضة للنبوة والإمامة معاً في عرض طاعة الخالق عز اسمه، بل إن هذا المعنى هو من وجوه ومعاني إكمال الدين بتعيين صاحب الولاية يوم الغدير.

ومن هذا البيان تتضح قيمة الهفوات والأراجيف، التي أثارها المغرضون حول عدم لزوم الطاعة لغير المعصوم. والادعاء بأن هذا الإلزام والالتزامات القانونية الأخرى غير ذات أساس شرعي وغير ملزمة. فأقوالهم تلك تنم عن مصدرها، الذي لا يخرج عن الأغراض الشخصية، أو الجهل بمقتضيات وأصول المذهب.

الرابع: اتضح مما سبق أن القيام بوظيفة تمثيل الشعب في مجلس الشورى من الوظائف الحسبية، وليس في هذا أدنى إشكال أو شبهة، نظراً لكون معظم السياسات العامة، مندرجة تحت القسم الثاني (الوظائف التي لم ترد فيها أحكام منصوصة) وهي تابعة لعنوان ولاية ولي الأمر ونوابه الخاصين أو العامين أو وترجيحاتهم، وأن أصل تشريع الشورى في الشريعة، إنما هو بهذا المنظور.

واتضح أن قيام أعضاء المجلس بوظيفتهم في حفظ النظام، والمنع عن تعدي المغتصبين، متوقف على تدوين متعلقات الوظيفة في صورة قانون. كما أن نفاذ مقرراتهم متوقف على صدورها من مجلس الشورى كما سبق بيانه، وهذا بدوره يعتمد على كفاءة وخبرة ممثلي الأمة، مع إمضاء وإذن من له الإذن والإمضاء ـ كما شرحنا

سابقاً ـ فإذا تم هذا فإن جميع جهات الصحة والمشروعية مجتمعة في هذا العمل، وجميع الشبهات والإشكالات مندفعة. وكون هذه الهيئة المنتخبة من الأمة، مرجعاً في التقنين، وأنها القوة العلمية، منحصر في هذا المعنى، بغض النظر عما قاله بعض ذوي الشبهات المغرضة، من أن تقنين القوانين هو أمر تعسفي، ومواجهة للنبوة.

الخامس: لا يندرج القسم الثاني من السياسات العامة تحت ضابط معين، وإنما يختلف باختلاف المصالح والمقتضيات. وهو من هذه الجهة غير منصوص في الشريعة، بل موكول إلى مشورة وترجيح من له ولاية النظر. وعلى ذلك فالقوانين المرتبطة بهذا القسم ـ نظراً لاختلاف المصالح باختلاف الزمان ـ ستكون مختلفة ـ لا محالة ـ وفي معرض النسخ والتغيير دائماً، دون القسم الأول الذي هو مبني على الدوام والتأبيد. ومن هنا يظهر أن القانون الذي ينظم التغيير والنسخ مربوط بذلك القسم فقط.

مما يثير التعجب أن غير المطلعين على دقائق الأحكام الإسلامية، قد توصلوا لفهم مثل هذه الوظائف الدقيقة، ورتبوها بصورة صحيحة. وأعجب من ذلك أن المدعين للإسلام غفلوا أو تغافلوا أو تجاهلوا لوازم ومقتضيات وأصول المذهب ورددوا تلك المغالطة التي لا ربط لها بالموضوع. فتساءلوا ـ مستنكرين ـ عن هذا النسخ والتغيير، هل هو عدول عن الواجب إلى الحرام أو من الحرام إلى الواجب، أو من مباح إلى آخر مثله؟

والحق أن الغرض من إلقاء هذه الشبهة هو تشويش أذهان العامة. إذ أنه كما علمت، فإن النسخ والتغيير خارج عن تلك الأقسام، وإنما هو من باب العدول من فرد واجب إلى فرد واجب آخر، والقدر المشترك بينهما هو حفظ النظام وإدارة شؤون الأمة وهو واجب حسبي. واختيار الأفراد تابع للخصوصيات والمصالح الوقتية ومقتضيات الزمان، وموكول لنظر من له الولاية، ومع ملاحظة أصلحية وأفضلية الفرد الآخر يكون العدول إليه لازماً.

٣ ـ تقسيم قوى الدولة وأعمالها: وهو خلاف ما كان يجري في السابق، من جعل الحاكم مرجعاً لجميع أمور الدولة وأعمالها. فينبغي أن يقوم المجلس بتجزئة الوظائف السياسية، بحسب الموارد المختلفة لعمل الدولة، وأن يضع قانوناً صحيحاً ومؤسساً

على أساس علمي، لضبط كل وظيفة وبيان أغراضها، وحدود عمل القائمين عليها، ثم يكلف أهل الخبرة والتجربة فيها، بمراقبة أولئك وتقييم كفاءتهم في أداء المسؤوليات الموكلة إليهم.

ويقول مؤرخو الفرس أن الملك جمشيد هو الذي ابتكر نظام تقسيم السلطات والوظائف الحكومية، ونجد في عهد الإمام أمير المؤمنين لمالك الأشتر تعليمات تنطوي على نفس الفكرة:

(واعلم أن الرعية طبقات لا يصلح بعضها إلا ببعض، ولا غنى ببعضها عن بعض، فمنها جنود الله.. ومنها كتاب العامة والخاصة، ومنها قضاة العدل. ومنها عمال الإنصاف والرفق، ومنها أهل الجزية والخراج من أهل الذمة ومسلمة الناس، ومنها التجار وأهل الصناعات..) إلى أن يقول عليه السلام، (فالجنود بإذن الله حصون الرعية، وزين الولاة، وعز الدين، وسبل الأمن، وليس تقوم الرعية إلا بهم. ثم لا قوام للجنود إلا بما يخرج الله لهم من الخراج، الذي يقوون به في جهاد عدوهم، ويعتمدون عليه فيما يصلحهم، ويكون من وراء حاجتهم. ثم لا قوام لهذين الصنفين إلا بالصنف الثالث من القضاة والعمال والكتّاب، لما يحكمون به من المعاقد ويجمعون من المنافع، ويؤتمنون عليه من خواص الأمور وعوامها، ولا قوام لهم جميعاً إلا بالتجار وذوي الصناعات..).

ويشبه التصنيف الذي يقترحه أمير المؤمنين لأعمال الدولة، التقسيم المعاصر للوزارات في الدول المتقدمة، مع اختلاف في بعض العناوين، مثل وزارة الداخلية والمالية، التي تندرج تحت عنوان الكتاب، وتندرج جميع المحاكم تحت عنوان القضاء، وأما وزارة الخارجية فلم يكن لها وجود يومذاك.

وطلب أمير المؤمنين من مالك الأشتر اختيار رئيس لكل صنف من الأصناف المذكورة، يتمتع بصفات الكمال، مما يندر وجوده في عصرنا الحاضر. وفي المجمل فإن هذا العهد المبارك كثير الفوائد، وينبغي لممثلي الأمة دراسته جيداً. وما أحسن أن نقتدي بسيرة سيدنا الأستاذ آية الله العظمى الميرزا الشيرازي رحمه الله، الذي كان مواظباً على قراءة هذا العهد المبارك، وهكذا ينبغي لسائر من يرجع إليهم الناس في الأمور الشرعية أو السياسية، كلاً بمقدار مرجعيته.

ونكتفي بما ذكر من الوظائف السياسية في عصر الغيبة، ونوكل الباقي إلى حسن دراية ممثلي الأمة، وهيئة النظار المجتهدين بعد تأسيسها.

الخاتمة

وتشتمل على مقصدين:

المقصد الأول:

في استقصاء قوى الاستبداد الملعونة:

١ـ الجهل:

وأول تلك القوى وعلتها وروحها هو الجهل، جهل الأمة بالحقوق والواجبات المتبادلة بينها وبين السلطة. فمثلما كان العلم سبيلاً إلى جميع السعادات، فكذلك الجهل هو منشأ ومنبع كل الشرور، والمؤدي إلى أسفل الدركات، وهو الذي يحمل الإنسان على عبادة الأصنام وإشراك الفراعنة والطواغيت مع الخالق سبحانه وتعالى في أسمائه الحسنى وصفاته. وبوجود الجهل ينسى الإنسان أو يغفل عن حريته التي وهبها الله له، ويذهل عن تساويه مع الجبابرة والغاصبين في جميع الأمور، بل يسعى لتطويق رقبته بنير العبودية لهم، بينما يعتبر حريته التي هي أعظم النعم الربانية، وأهم مقاصد الأولياء أمراً موهوماً.

إنه الجهل الذي يدفع بأزلام الظلمة، هذه البهائم الإنسانية، إلى بذل ما تملك من جهد ومال، لتحكيم أساس الذل والاستعباد في حياتها. فالإنسان الجاهل لا يسعى ولا يتعاون مع إخوانه في الدين والوطن، في استنقاذ حريته وحريتهم وتخليص نفسه وأنفسهم، من الذل والعبودية للجبابرة، بل تراه ـ على العكس تماماً ـ باذلاً همته في سفك الدماء ونهب الأموال وهتك الأعراض.

وهو الجهل الذي يصور لهم هذا البغي على النواميس، والإلحاد في الدين، وعبادة الظالمين، وقطع الطريق على الآمنين، شجاعة وشهامة، بل خدمة للدين والوطن والدولة، وسبباً لنيل الفخار والشرف تماماً مثل أراذل الكوفة وأوباش الشام، الذين ـ لجهلهم ـ افتخروا بقتل العلماء والسادات والأخيار والأحرار، أو أسرهم ونهب أموالهم.

وهو الجهل الذي أقنعهم بأن لا عيب عليهم، إذا صنفوا في عداد أتباع يزيد فأصبحوا ـ بغبائهم وعدم إدراكهم ـ كالأنعام، بل هم أضل سبيلاً.

وتجدهم اليوم، معرضين عما ينبغي لهم من التضحية، في سبيل حفظ الدين وحماية ديار المسلمين، مقبلين على التعاون مع أعداء الإسلام، من الروس الذي لا هم له سوى إماتة الدين، وتدمير الدولة، واستئصال الأمة، وابتلاع البلاد. مع أنهم يفعلون كل هذه الفظائع والشنائع، باسم الدفاع عن الدين والولاء للدولة.

إن السجود للفراعنة والطواغيت، وعبادة البقر في الهند، وامتلاك الرقاب أيام الأمويين والعباسيين وأخلافهم، وسير الإيرانيين وراء كل ناعق، بل سير عموم المسلمين. وتوزيع الأحبار والرهبان لصكوك الغفران في الغرب، وقعود بني إسرائيل في انتظار النبي الموعود، واتباع المسلمين لعباد ظلمة الزمان، وبقايا خوارج النهروان إلى غير ذلك من الشنائع، كلها ناشئة من الجهل، وهو أم الشرور والأمراض، بل إن كل بلاء يحل على أي أمة من ابتداء العالم إلى نهايته إنما هو وليد هذه الأم وثمرتها.

٢ـ الاستبداد الديني:

وهو في المرتبة الثانية من حيث أثره، لكن علاجه أصعب من سابقه، لرسوخه في القلوب، وكونه معدوداً من لوازم الدين، بل لعل علاجه من الممتنعات، وقد تقدم بيانه في المقدمة إجمالاً. وعلمت أن حقيقته عبارة عن إلقاء عباءة الدين، على الرغبات والإرادات الشخصية البحتة، لبعض المتلبسين بزي العلماء، الذين استغلوا جهل الأمة بنفسها، وجهلها بمقتضيات دينها، فأوهموها بأن ما يدعونها إليه هو الدين الحنيف، الذي يجب اتباعه وطاعتهم فيه.

وقد علمت أن هذه الطاعة والاتباع، من مراتب الشرك بالله الواحد، لأنها تنطوي على طاعتهم في خلاف ما أمر الله به. ومع اعتبارهم لها طاعة في الدين، فإنها تندرج تحت معنى عبادة الأحبار والرهبان، التي تشير إليها الآية المباركة ﴿**اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أرباباً من دون الله والمسيح بن مريم**﴾ [التوبة: ٣١]. وتقرر هذا المعنى أيضاً في الأخبار الواردة في تفسير العبودية، كما في رواية الاحتجاج.

وينقسم أهل الاستبداد الديني إلى طائفتين، الأولى: تمارس التحريف والتدجيل عن سابق علم وإصرار، والثانية: ترى الحق منتهكاً مغلوباً، والباطل شاخصاً مرهوباً،

فلا تعترض، ولا تظهر شهادة الحق.

وقد ابتدع القسم الأول من هذه القوة المشؤومة واخترع على يد معاوية، الذي لم يوفر وسيلة ولا سلاحاً في صراعه ضد أمير المؤمنين. فجمع عدداً من طلاب الدنيا الذين ينظر إليهم الناس باعتبارهم من صحابة الرسول (ص)، واستعملهم في تفريق كلمة المسلمين، والحط من مقام الإمام. واستفادوا في مسعاهم هذا من السمعة الطيبة للصحابة، وما يتمتعون به من نفوذ وكلمة مسموعة عند عامة المسلمين.

وكان من بين الذين استعملهم معاوية لهذا الغرض، عمرو بن العاص، ومحمد بن مسلم، ومسلم بن مخلد، والمغيرة بن شعبة، وأشباههم ممن كانوا في نظر عوام الناس محسوبين في عداد الصحابة.

أما القسم الثاني: فيتكون من أولئك العلماء، الذين عرفوا مواقع الحق والباطل، لكنهم اختاروا اعتزال الميدان، والسكوت عن كلمة الحق، من أمثال أبي موسى الأشعري، الذي لم يكن ليقبل التحالف مع معاوية، كما فعل الأولون. فاكتفى معاوية منه باعتزاله الناس، وقعوده عن نصرة أمير المؤمنين، وخداع أغبياء الأمة بإظهار هذا الاعتزال، وكأنه من مصاديق الزهد في الدنيا، مع أنه في مثل هذه الحالة ليس زهداً بل قعود عن الحق، وسكوت عن تفشي الباطل.

وبعمل هاتين الفئتين، تدليس عباد الدنيا من جهة، واعتزال المتنسكين وسكوتهم من الجهة الأخرى. فقد استحكم بناء الاستبداد في الأمة، بل لقد وضع طلاب الدنيا لمعاوية بن أبي سفيان ما اشتهاه، من بدع وأقوال، نسبت ـ زوراً ـ إلى الرسول (ص)، واستعان على نشرها بسكوت الفئة الثانية. ومن بينها على سبيل المثال، سب الإمام علي (ع) على منابر الجمعة، الذي اعتبر لعشرات السنين من لوازم الصلاة. فأولئك دعوا إليه، وهؤلاء سمعوه فسكتوا عنه، ولا لسبب إلا لحفظ مكانتهم، وترجيحاً للمنافع العاجلة في الدنيا الفانية، على ما أعده الله لأوليائه في الدار الباقية.

وبمرور الزمان وتوالي الحوادث، وتبلور الجيل والأفكار، فقد اتحد الاستبداد الديني الموروث عن أمثال عمرو بن العاص وأبي موسى الأشعري، مع الاستبداد السياسي الموروث عن معاوية، بل امتزج به، وأصبح كل منهما متقوماً بالآخر، حتى وصل إلى ما نراه اليوم، من تحول معاضدة الظالمين إلى وسيلة لنفاذ الكلمة وارتقاء

المراتب الاجتماعية.

وبموازاة هذا فإن السكوت عن المظالم، واعتزال الدعوة إلى رفض الظلم، وعدم التقدم بالعون للمصلحين، أصبح وسيلة للظهور بمظهر المتنسكين، الزاهدين في الدنيا، واستقطاب تأييد العوام الأضل من الأنعام، والحال الراهن يشهد بهذا بما يغني عن البيان.

٣ـ سيادة التملق للشاه:

وقد تعززت هذه الفكرة في البلاد، فأصبحت أساساً لتقريب المنافقين والجهلة، واستبعاد الأكفاء وأصحاب الدرجات العلمية والعملية، والمتفوقين والمبدعين في مجالات عملهم، من ميدان العمل والمساهمة في إدارة البلاد وتنظيمها. وبهذه الرذيلة الخبيثة، جعلت مرجعية أمر البلاد والجيش، وسائر الأمور النوعية، للأكثر حظاً في التملق والنفاق. وبمقدار التفنن فيه أصبح الشخص قادراً على نيل المراتب، والتمتع بالنفوذ.

إن مستوى الاستبداد واستعباد الرقاب، يسير في خط مواز لنفوذ هذه الرذيلة وتعمقها في الحياة السياسية. فوجود المتملقين هو الذي يزين للشاه استبداده بالأمر، كما أن أولئك لا يترددون في استثمار قربهم من الشاه في ممارسة الظلم والتسلط، بنفس الطريقة التي يمارسها الشاه.

إن قيام الحياة السياسية على النفاق والتملق، هو الذي يجعل الجهل العام مستحيل العلاج، فهو يحط من قيمة العلم، ويجعل المعرفة وسائر موجبات السعادة، غير ذات نفع لصاحبها، بل يمحو أثرها، ويستلب مبررات نهوض القوة الوطنية، ويدفعها إلى الانحلال، فتصبح دائمة الحاجة إلى الأجانب في مختلف جوانب حياتها، أسيرة لإراداتهم، كأنها العصفور بين مخالب الصقر.

مما يوجب الأسف حقاً، أن هذه الرذيلة قد ترسخت في الحياة الاجتماعية والسياسية، حتى عند المتلبسين برداء أهل العلم، فضلاً عن العوام، مع علمهم بأن وجود المستبدين على رأس الدولة غصب محرم ـ بالضرورة ـ للمقام، وعلمهم بحرمة الإعانة على الظلم، والسكوت على فعل الظلمة ما يشاؤون والحكم بما يشتهون، لكن مع ذلك، وباقتضاء ما جبلوا عليه من حب الدنيا، فإنهم يقدمون على هذا الضرب من

إعانة الظالم، مبررين عملهم ببعض الترهات التي نسجتها عقولهم. مثل الادعاء بأن موقفهم هذا موجب لحفظ للدين، بينما هو تلويث لساحة الدين، بل إنهم يستهلكون وجودهم ـ من حيث لا يشعرون ـ في تكريس هذا الصنم، وتحكيم أساس العبودية له.

وهكذا فإن نظام التراتب الاجتماعي، وموقع كل طرف في سلم القوى الاجتماعية، قد أصبح انعكاساً لمستوى التملق الذي يمارسه ارتفاعاً وانخفاضاً. وأصبح من السهل على أي رعديد فاسد الفطرة، أو لص غاصب، أو فاقد للعلم والكفاءة، أن يملك رقاب الناس وأن يتحكم في أزمة البلاد، دون أن يبذل جهداً أو يواجه مشقة سوى التفنن في إظهار النفاق والتملق. ثم يعود بعد أن يؤتى ثمن تملقه من قوة وعلو شوكة، فيعامل الناس وما يملكون، كما لو أنهم بعض عبيده وأملاكه، فيسترجع ثمن تملقه بسلب أموال أولئك الأرقاء الأذلاء.

وتحدثنا صفحات التاريخ، وتجارب الأمم التي سبقتنا، بأن نفوذ المتملقين والمنافقين هو الذي تسبب في انقراض الدول والحكومات السابقة، وأيلولة عظمتها وسلطانها إلى الزوال. فهؤلاء لا يتورعون عن التفريط في أعز ما تملك البلاد، من شرفها القومي واستقلالها، وثرواتها وإمكاناتها الطبيعية والعمرانية، بتسليمها للأجانب الطامعين، عن طريق الامتيازات والمعاهدات المشؤومة التي جرَّت على البلاد الإيرانية الفقر وسواد الأيام. إنهم وبسبب من جهلهم وخبث فطرتهم، وافتقارهم للغيرة على دينهم وأمتهم ووطنهم، لا يتورعون عن التضحية ببلدهم من أجل منافع جزئية يحصلون عليها لأنفسهم. لقد أصبح الإيرانيون ـ بسبب أولئك الأراذل ـ أذل من قوم سبأ، وإذا كانوا قد فازوا بما يضمن رفاهيتهم، فقد كلفوا البلاد والعباد الكثير الكثير.

إن العلامة الأولى على فساد الحياة السياسية هو ظهور النفاق والتملق، ثم يتطور هذا الفساد ـ بعد ظهور ثمراته المبكرة ـ إلى الاختلاف وتفرق الكلمة بين الدولة والأمة، يتبعه التنافر والخوف المتبادل بين الحاكم وشعبه. ذلك أن إفراط المنافقين في غصب حقوق الناس، سوف ينعكس على صورة نفور من جانب الشعب، ويأس من صلاح الحكومة.

وفي ظل هذا التنافر، فإن المنافقين يبالغون في إدعاء الولاء لشخص الحاكم،

وإيهامه أن أعمالهم اللاأخلاقية تجاه الشعب، تستهدف حمايته وحفظ سلطته من مؤامرات الشعب، مما يجعل الحاكم في ريب من مواطنيه. ويتضح من استقراء أسباب انهيار الدول التي سجلها المؤرخون، أن هذا الريب والتنافر، الذي نتج عن سيادة النفاق، كان في أكثر الحالات سبباً رئيسياً لانهيار الدول والحكومات، وأيلولة مجدها إلى البوار والفناء.

يقول علي بن أبي طالب (ع) في وصف هذه الفئة من المتملقين، وتحذير مالك الأشتر من ثني الوساد لهم:

(وليس أحد من الرعية أثقل على الوالي مؤونة في الرخاء، وأقل معونة له في البلاء، وأكره للإنصاف، وأسأل بالالحاف، وأقل شكراً عند الإعطاء، وأبطأ عذراً عند المنع، وأضعف صبراً عند ملمات الدهر من أهل الخاصة، وإنما عماد الدين وجماع المسلمين والعدة للأعداء العامة من الأمة، فليكن صغوك لهم وميلك معهم..) والمراد من الخاصة، هذه الفئة من أكلة الحرام، الذين يلصقون أنفسهم بالولاة والمسؤولين، عن طريق ادعاء الولاء للدولة وتعظيم الشاه. يقول علي (ع) (... ثم إن للوالي خاصة وبطانة، فيهم استئثار وتطاول، وقلة إنصاف في معاملة. فاحسم مادة أولئك بقطع أسباب تلك الأحوال، ولا تقطعن لأحد من حاشيتك وخاصتك قطيعة، ولا يطمعن منك في اعتقاد عقدة تضر بمن يليها من الناس، في شرب أو عمل مشترك يحملون مؤونته على غيرهم، فيكون مهنأ ذلك لهم دونك، وعيبه عليك في الدنيا والآخرة، وألزم الحق من لزمه من القريب والبعيد).

٤ـ تفريق الكلمة:

إن أصل هذه القوة الخبيثة وأساسها، بل وجودها المادي الواقعي راجع إلى وجود الاستبداد الديني، وبنسبة ما إلى سيادة التملق، وليست قائمة بصورة مستقلة، في موازاة القوتين السابقتين.

إلا أنه لما كانت أنواع الاستبداد، الواقعة في الأمم السابقة وعندنا أيضاً، تنتهي إلى التمزق الاجتماعي وتفرق الكلمة، ولما كانت القوى الثلاث السابقة (الجهل، الاستبداد الديني، النفاق) بمنزلة المقدمات التي تنتهي إلى هذه النتيجة، بحيث يمكن اعتبار الرابعة بمثابة العلة، والثلاث السابقة عليها بمثابة المعدات لها. لذلك فقد

جعلت أنواع الاستعباد الواردة في الآيات والروايات، مستندة إلى تفرق الكلمة وتشتت الأهواء واختلاف الآراء، كما قال عز اسمه: ﴿إن فرعون علا في الأرض وجعل أهلها شيعاً يستضعف طائفة منهم يذبح أبناءهم﴾ [القصص: ٤]، وقد فسروا كلمة (شيعاً) بمعنى متفرقين. ودلالة الآية المباركة على التراتب القائم بين الطغيان واستبدادية السلطة وبين تفرق الكلمة واضحة جلية.

وقد بين أمير المؤمنين في الخطبة القاصعة ما يوضح حقيقة السلطة الاستعبادية. وقد نقلنا بعضها في المقدمة، وسوف ننقلها هنا بالكامل من أجل تشخيص الداء، وتحديد الدواء، ولكي يتنبه الصادقون في تشيعهم، المخلصون في إيمانهم من كل غرض استعبادي واستبدادي، لكي يتنبهوا لما يقوله لهم إمامهم، وليعرفوا كم هو التملق للظلمة شنيع. قال صلوات الله عليه:

(واحذروا ما نزل بالأمم قبلكم من المثلات بسوء الأفعال وذميم الأعمال، فتذكروا في الخير والشر أحوالهم، واحذروا أن تكونوا أمثالهم، فإذا تفكرتم في تفاوت حاليهم، فالزموا كل أمر لزمت العزة به شأنهم، وزاحت الأعداء له عنهم، ومدت العافية فيه عليهم، وانقادت النعمة له معهم، ووصلت الكرامة عليه حبلهم، من الاجتناب للفرقة. واللزوم للألفة، والتحاض عليها والتواصي بها، واجتنبوا كل أمر كسر فقرتهم، وأوهن متنهم، من تضاغن القلوب، وتشاحن الصدور، وتدابر النفوس، وتخاذل الأيدي.

وتدبروا أحوال الماضين من المؤمنين قبلكم، كيف كانوا في حال التمحيص والبلاء، ألم يكونوا أثقل الخلائق أعباء، وأجهد العباد بلاء، وأضيق أهل الدنيا حالاً، اتخذتهم الفراعنة عبيداً فساموهم سوء العذاب، وجرعوهم المرار، فلم تبرح الحال بهم في ذل الهلكة وقهر الغلبة، لا يجدون حيلة في امتناع، ولا سبيلاً إلى دفاع، حتى إذا رأى الله جد الصبر منهم على الأذى في محبته، والاحتمال للمكروه من خوفه جعل لهم من مضايق البلاء فرجاً، فأبدلهم العز مكان الذل، والأمن مكان الخوف، فصاروا ملوكاً حكاماً، وأئمة أعلاماً، وبلغت الكرامة من الله لهم، ما لم تبلغ الآمال إليه بهم. فانظروا كيف كانوا حيث كانت الأملاء مجتمعة، والأهواء متفقة، والقلوب معتدلة، والأيدي مترادفة، والسيوف متناصرة، والبصائر نافذة، والعزائم واحدة.

ألم يكونوا أرباباً في أقطار الأرضين، وملوكاً على رقاب العالمين، فانظروا إلى ما صاروا إليه في آخر أمورهم حين وقعت الفرقة، وتشتت الألفة، واختلفت الكلمة والأفئدة، وتشعبوا مختلفين، وتفرقوا متحازبين، قد خلع الله عنهم لباس كرامته، وسلبهم غضارة نعمته، وبقي قصص أخبارهم فيكم عبراً للمعتبرين.

فاعتبروا بحال ولد إسماعيل وبني إسحاق وبني إسرائيل عليهم السلام، فما أشد اعتدال الأحوال، وأقرب اشتباه الأمثال، تأملوا أمرهم في حال تشتتهم وتفرقهم، ليالي كانت الأكاسرة والقياصرة أرباباً لهم، يحتازونهم عن ريف الآفاق، وبحر العراق وخضرة الدنيا إلى منابت الشيح، ومهافي الريح، ونكد المعاش، فتركوهم عالة مساكين إخوان دبر ووبر، أذل الأمم داراً، وأجدبهم قراراً، لا يأوون إلى جناح دعوة يعتصمون بها، ولا إلى ظل ألفة يعتمدون على عزها، فالأحوال مضطربة، والأيدي مختلفة، والكثرة متفرقة، في بلاء أزل، وإطباق جهل، من بنات موءودة، وصنام معبودة، وأرحام مقطوعة، وغارات مشنونة.

فانظروا إلى مواقع نعم الله عليهم حين بعث إليهم رسولاً صلى الله عليه وسلم فعقد بملته طاعتهم، وجمع على دعوته ألفتهم، كيف نشرت النعمة عليهم جناح كرامتها، وأسالت لهم جداول نعيمها، والتفت الملة بهم في عوائد بركتها، فأصبحوا في نعمتها غرقين، وعن خضرة عيشها فكهين، قد تربعت الأمور بهم، في ظل سلطان قاهر، وآوتهم الحال إلى كنف عز غالب، وتعطفت الأمور عليهم في ذرى ملك ثابت، فهم حكام على العالمين، وملوك في أطراف الأرضين، يملكون الأمور على من كان يملكها عليهم، ويمضون الأحكام في من كان يمضيها فيهم).

وقد أسند (ع) في خطب أخرى وأحاديث عديدة، اضمحلال الأمم ووقوعها في هوان الذلة إلى تفرق كلمتها. وقد ثبت ذلك برهاناً، بل هو من أول البديهيات، السبيل إلى حفظ الحقوق القومية وأعظمها الحرية والاستقلال الوطني، منحصر باستحكام عرى هذه الرابطة، التي تشد كل مواطن إلى أخيه. كما أن أول ما يترتب على اختلال هذا الحصن الحصين، هو ضياع الحريات العامة، والابتلاء ببغي طواغيت الأمة وأقويائها، الذين يستثمرون قوتهم، كما ينتهزون فرصة تفرق الكلمة، وما يترتب عليها من تلاشي واضمحلال المقاومة الاجتماعية، في تسخير سائر طبقات المجتمع،

وتطويق رقابها بنير العبودية.

إن اتحاد الأمة واجتماع كلمتها في الدفاع عن حقها، هو العائق الأول أمام مخططات الجبابرة والمستبدين. لذلك فإنهم يسعون في كل حال إلى استئصال قوة المقاومة هذه، باصطناع أسباب الفرقة، حتى ينتهي الأمر إلى انحلال شوكة المجتمع، وخضوعه لجبروتهم، ثم ـ فيما بعد ـ تلاشي قدرته على سد ثغراته، وجعل أبوابه مشرعة أمام تطلعات الأجانب الطامعين.

ومع تواصل القمع، وتهميش قيمة العلم والمعرفة، وتكريس أولوية الولاء على الكفاءة، وسيادة التملق وغيره من الأفكار الملعونة، وهكذا المنع من الاجتماعات واللقاءات، وجميع موجبات اليقظة الوطنية، فإن البلاد تتحول إلى معزل كبير للأمة، محاط من كل جانب بالألسنة والأنياب، حتى يصل الشعب إلى الحالة التي تصفها السيدة الزهراء بقولها: (أذلة خاسئين، تخافون أن يتخطفكم الناس من حولكم). وما نراه اليوم من بؤس الشعب وإفلاسه، وخراب الديار الإيرانية، خير عيان لهذا البيان.

٥ـ القمع والإرهاب:

وهي الوسيلة المباشرة لإظهار القوة، وإجبار الناس على تجاهل حقوقهم، وقد أخذها طغاة العصر من سيرة الفراعنة والطواغيت، الذين ساموا دعاة الحرية الإلهية والمقيمين لسيرة الأنبياء والأولياء أنواع العذاب، من الأسر والقتل والتنكيل والتمثيل، والحبس في المضايق، ودس السموم، وهتك الأعراض، ونهب الأموال.

وغرض هذه القسوة التي يتوارثها الظلمة خلفاً عن سلف، هو استئصال تلك الشجرة الطيبة، شجرة الإباء والحرية، لكيلا تمتد فروعها وتسري إلى سائر الناس. كما أن سيطرة الخوف على نفوس الناس لفترة طويلة، يجعلها تألف الخنوع وتتعايش مع الذلة، فتغفل عن شرفها القومي، وتعرض عن السعي لاستعادة المجد والعزة. فضلاً عن أن شعور الطغاة بخوف الشعب، يوهمهم بحصولهم على الهيبة، كما يشفي نفوسهم المريضة، ويبرد غليل قلوبهم.

ويتدرج مستوى القسوة في معاملة الشعب صعوداً أو نزولاً، بحسب تمكن العاطفة الإنسانية من قلب الجائر، وخوفه من الحساب الإلهي يوم القيامة. فكلما ازداد انسلاخاً عن فطرته التي فطره الله عليها، أوغل في القسوة والانتقام. وكلما استشعر

القلق على المصير، والموقف يوم الحساب، تراجع عن أعمال القمع والإرهاب.

لكن لكل شيء نهاية، وكلما تفاقم أمر من الأمور، فقد اقترب من غايته، وآذن نجمه الصاعد بالانتكاس. وهكذا دورة عمر الطواغيت التي توشك أن تصل في هذه الأيام ـ بإذن الله وعونه ـ إلى نقطة النهاية. لقد بلغ فراعنة الزمان وأعوانهم، من القسوة والانسلاخ عن الفطرة الإنسانية والدينية، درجة ليس فوقها من مزيد، وشهدنا ما لم تعرفه أمة من الأمم في تاريخها.

لكن ظلمة هذه الأيام توشك أن تتبدد، وتوشك الشمس على الانبلاج، ولم يكن تأخر انقضاء هذا الليل، إلا لكثرة أشباه يزيد وابن زياد وعمر بن سعد وشمر وسنان، بينما لم يوجد حسين في مقابلهم، ولم يوجد أشباه لأصحابه الأحرار صلوات الله عليهم أجمعين.

جدير بالذكر أن بعض الأخبار المأثورة، تشير إلى أن طينة الطغاة وأعوانهم واحدة على امتداد العصور والأزمان، كما أن طينة الصالحين والمصلحين واحدة. فطغاة اليوم هم امتداد طغاة الأمس وورثتهم، الذين جبلوا من نفس طينتهم، وقد تشابهت مكنونات نفوسهم، وتساوت أغراضهم وأصناف عملهم.

٦ـ تطبيع الاستبداد:

وأساس هذه القوة الخبيثة هو سيادة التمايز الطبقي، وقيام العلاقة بين الطبقات العليا والسفلى في المجتمع، على أساس أولوية الكبار والملاكين والأثرياء، وحقهم في استثمار حياة ونشاط الضعفاء والفقراء. ويؤدي هذا التأسيس الباطل إلى جعل استبداد الكبار بالصغار، أمراً طبيعياً ومقبولاً في الحياة الاجتماعية.

إن الطبقات المتنفذة في البلاد، وخاصة الملاكين، هم الحلفاء الطبيعيون للاستبداد السياسي، وهم بمنزلة الفروع والأغصان لهذه الشجرة الخبيثة، وأصحاب المصلحة الأولى والكبرى من بقاء شجرة الاستبداد. وذلك لأن تحقيق أغراضهم الشخصية من النفوذ والثروة والهيبة، غير ممكن مع سيادة العدالة والمساواة بين مختلف الطبقات. كما أن انشغالهم بأنفسهم، وإيثارهم لشهوات الدنيا الفانية على نعيم الآخرة الباقية، أعمى قلوبهم عن حقيقة ما يترتب على إفراطهم في دنياهم من تضييع لدينهم، وتفريط في استقلال وطنهم.

وفي بداية الأمر، حين هبت بواكير نسيم المشروطة والعدالة على أرض الحاكمين. وكان يبدو أن الطبقات الأخرى من الملاكين والمعممين الغاصبين لزي العلماء وأشباههم، قد رحبوا بالحركة الإصلاحية، بل ظهروا بمظهر المساعد والمعين على تمكين أساس العدل، ظناً منهم بأن حركة الشعب ليست أكثر من إعصار موضعي، ما يلبث إلا قليلاً حتى ينجلي غباره، فيعود كل فريق إلى ما اعتاد من حياته.

لكن توالي الأيام أظهر لهؤلاء أن الحركة الإصلاحية، لم تكن إعصاراً موضعياً ولا غمامة صيف. وظهر أن المصلحين عازمون على الوصول بالحركة إلى غاياتها في تحقيق الحرية والمساواة، ومنع الغصب والسلب. عند ذاك تمزقت الحجب، فانجلى المستور وبانت حقائق الأمور، فنهض رجال الاستبداد الديني، تحت شعار حفظ الدين، ونهض المنافقون تحت شعار المحافظة على الدولة، ونهض غيرهم من المرتزقة كلاً بالسلاح الذي يملكه، جبهة واحدة في الصراع ضد رؤساء المذهب وحفظة أحكام الله. يقول علي: (فلما نهضت بالأمر نكثت طائفة، وفسقت أخرى، ومرق آخرون) مع علمهم بما ينطوي عليه هذا النهوض المضاد لحركة الأمة ورؤساء المذهب، من استخفاف بأحكام الله، كما هو منطوق الحديث الشريف «فإذا حكم بحكمنا فلم يقبله منه فإنما بحكم الله استخف، وعلينا رد، والراد علينا كالراد على الله وهو في حد الشرك بالله».

٧ـ حشد قوى الدولة ضد الشعب:

ترتب على اغتصاب السلطة، السيطرة على القوى النوعية للدولة، المالية والعسكرية وغيرها. وبالنظر للتنافر القائم بين الجمهور والسلطة، فإن الهم الأول للحاكم هو السيطرة على الشعب، وهو يستعمل في ذلك جميعه قوى الدولة التي تحت يده. وهكذا فإن العقيدة العسكرية التي يتربى الجند عليها، لم تعد متمحورة حول دفع الأعداء عن حدود الوطن، بل حفظ السلطة باعتبارها محور وظيفته، ومقياس إخلاصه وكفاءته. ولهذا الغرض فإن معظم التدريبات التي يتلقاها، تدور حول وسائل قمع الشعب وإرهابه. ولهذا السبب أيضاً فقد أعرضت الحكومة عن تعيين الضباط الوطنيين في مراكز القيادة العسكرية، واختارت بدلاً منهم عسكريين أجانب، أو معادين للإسلام، فجعلت أزمّة أمور الجيش في أيديهم، وفوضت تدريب الجند وتربيتهم

إليهم.

ونظراً لقلة مبالاة أولئك الجند الحمقى، بأحكام الشريعة المقدسة، وعدم استنكافهم عن القتل، وهتك الأعراض، ونهب الأموال، فقد قاموا بالمهمة الموكولة إليهم على أتم ما يكون، وعلة العلل في ذلك كله هو الجهل وعدم المعرفة. وقد سبق القول: إن الفساد والخراب الحاصل في البلاد كله، مترتب على الجهل، وهو بعض من ظلاله.

المقصد الثاني

إشارة إجمالية إلى علاج تلك القوى الملعونة

١ـ الجهل:

فأول وأهم ما ينبغي علاجه هو جهل طبقات الأمة بواقعها وما ينبغي لها، وبعض الناس يجهلون جهلاً بسيطاً بحقائق الأمور، والبعض الآخر يجهل الحقائق مع أنه يظن نفسه عالماً بها، وهو الجهل المركب.

وبالنسبة لذوي الجهل البسيط: فيجب تعريفهم بحقيقة الاستبداد والمشروطة، والفرق بينهما، كما سبق أن بيناه، لكن ينبغي أن يتم ذلك باتباع الأسلوب اللين واجتناب ما يؤدي إلى النفرة والاشمئزاز. كما قال عز من قائل: ﴿**ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن**﴾ [النحل: ١٢٥].

ونظراً لأن الدعوة إلى الحرية، وخلع نير عبودية الظالمين من الرقاب، هي دعوة إلى التوحيد، بنص الآيات والروايات التي سبق بيانها، وهي في حقيقتها من وظائف الأنبياء والأولياء عليهم السلام. لذلك فعلى كل من وضع رجله على هذا الطريق، سواء كان صحفياً أو صاحب جريدة، أو خطيباً من أهل المنبر أو غير ذلك، أن يقتدي بتلك السيرة المقدسة لأصحاب الدعوة. ولا بد أن يجعل هذه الآية المباركة دستوراً لعمله، فليقم بمحاربة الجهل في الأمة، وليعقد العزم على تهذيب النفوس، وتكميل الأخلاق، وليتجنب السباب والفحش في القول بشكل مطلق، وليكن على حذر من الخلط بين الأهداف السامية للتعليم والأغراض الشخصية.

وما لم يكن عالماً وعارفاً بشكل كامل بالمسألة، فلا يدخلن في هذا الوادي، رياء أو طلباً للشهرة، أو انتهازاً للفرصة، كما صنع بعض الصحفيين ورجال المنبر، الذين

كانوا إما أصدقاء جهلة أو أعداء عارفين، وكانوا سبباً في معظم المشاكل والعثرات، التي حصلت لهذا الأساس الوثيق للسعادة (المشروطة). فلا ينبغي لهم أن يوفروا ـ بعملهم الخاطىء ـ مبرراً وحجة لأركان الاستبداد، فإنهم يتسببون في إبعاد الأمة المنكوبة عن أهدافها، بدل تشويقها وتشجيعها على البذل والتضحية في سبيل الاقتراب منها، فكأنهم يزيدون ـ بأخطائهم أو غفلتهم ـ في قوة أهل الاستبداد، ويتسببون في إطالة عمر دولتهم.

إن ممارسة الحرية سلاح ذو حدين، فيجب أن لا تستعمل حرية الرأي والتعبير في إيذاء الناس، وتجريح شرف أرباب الشرف، وهتك الكرامة الشخصية لذوي الاحترام، أو الابتزاز بالضغط على زيد لدفع ثمن السكوت عنه، أو الأخذ منه لتجريح عمرو. بل حتى إذا تعلق الأمر بدفع الأقاويل والأباطيل التي يطلقها أعوان الظالمين، فليكتف الخطيب أو الكاتب بالحديث عن الكليات والأفكار، دون التعرض للأشخاص، حتى بالإشارة والتلويح فضلاً عن التصريح.

إن وظيفة الخطباء والكتاب هي توثيق الصلة بين أبناء المجتمع، وليس تعميق الانفصال. يجب أن يتجه أصحاب المنابر والأقلام إلى خدمة أمتهم، واستثمار ما أنعم الله عليهم به من الحرية في توجيه الأمة المظلومة إلى أهدافها المفترضة. وأهم تلك الأهداف هو الانعتاق من قيود الطاغوت واستبداده بأمرها، ويتحقق هذا بتنبيه الأمة وتوعيتها بحقوقها، والمبادىء التي ينبغي لها الالتزام بها، مثل مبادىء التقدم والشرف، والاستقلال الوطني والقومي، والجد في حفظ الدين والشريعة، وتوحيد كلمتها في سبيل انتزاع حريتها، واستنقاذ حقوقها الوطنية المغصوبة، وأمثال ذلك.

أما بالنسبة لذوي الجهل المركب: خاصة أولئك الذين شأنهم العنادة واللجاج، والإصرار على كلامهم، كما لو أن لسان حالهم (النار ولا العار)، فهؤلاء وإن كان الأمر معهم في غاية الصعوبة إلا أن اتخاذ جانب المداراة والملاينة، وإزالة أسباب العناد واللجاج، قد يوجد بعض فرص العلاج.

أما الأشخاص المتابعين للظلمة لا عن جهل أو عناد، بل لغلبة الهوى، وارتباط مصالحهم بوجود الظلم، فلا علاج لهم سوى دفعهم إلى اليأس الكامل من عودة الماضي، وانقطاع الأمل من بقاء شجرة الاستبداد الخبيثة. وفي مقابلة هؤلاء فإن

الأرجح هو اجتناب التعرض لأشخاصهم بالذم والشتم، والاكتفاء بطرح الأمور الكلية، مما يتعلق بحرمة الظلم وحرمة مساعدته، والخزي الدنيوي والأخروي الذي ينال أعوان الظلمة، حتى مع القول بأن تناولهم بالنقد المباشر، يمكن أن يفيد في تنبه الأمة، واتخاذها جانب الحذر من مكائدهم، والله المسدد للصواب.

٢ـ الاستبداد الديني:

وهذا داهية الدواهي، فعلاجه هو الأصعب والأشد إشكالاً، بل قد يصل إلى حدود الامتناع. ذلك لأن الرادع عن الاستبداد الديني، وإلباس المرادات الشخصية ثوب الدين، ليس سوى ترويض رجل الدين لنفسه على طاعة الله، ومعاندة الهوى، واجتناب الشبهات، والتورع عن المآثم صغيرها وكبيرها، حتى يحصل على ملكة التقوى والعدالة، وتجتمع فيه الأوصاف التي يقررها الأئمة المعصومون للعلماء، كما وردت في رواية الاحتجاج (صائناً لنفسه مخالفاً لهواه مطيعاً لأمر مولاه) والتي اعتبر توفرها ضرورياً في المرشحين لمقام المرجعية الشرعية.

أما مع اتّصاف المتلبس بزي العلماء بأضداد الصفات المذكورة، ولا سيما الأوصاف الواردة في علماء السوء، وقطّاع طريق الدين، ومضلي ضعفاء المسلمين، الذين يقول الإمام عنهم في ذيل الرواية: (أولئك على ضعفاء شيعتنا أشد من جيش يزيد على الحسين)، فلا يتصور وجود مانع يمنعهم عن الاستبداد، أو استعباد رقاب الناس، أو إلباس الرغبات الشخصية رداء الدين.

وعلى الجانب الآخر فإن معظم العامة من الناس، عاجزون عن تمييز وفرز المعممين الذين يتعاملون معهم، بناء على الصفات الواردة في الرواية، غافلون عن الفخاخ التي نصبها قطاع الطريق هؤلاء، فإذا أوقعتهم المقادير في شبكة الصياد، فإن استنقاذهم منها يصبح أشد صعوبة وأكثر تعقيداً. فالذي يدخل الفخ طمعاً في الاستجابة لأمر الله، وظناً أن عمله من أسباب تحكيم مباني الدين الحنيف، سوف يبقى فيه، لقصور معرفته بحقيقة الدين وحقيقة الواقع، أو لتقصيره في المقارنة بين ما يراه وما يجب أن يكون!. ولذلك فإن الطريق هنا مسدود والعلاج متعذر.

لكن مع هذا فإن الاستبداد واستيلاء الطواغيت على الصفات الخاصة بالخالق عز اسمه، من فعل ما يريد، وعدم المسؤولية عما يفعل، مستحيل التبرير في أي دين أو

مذهب أو كتاب، فضلاً عن الإسلام وخاصة على مذهب الإمامية. ولذلك فإن رجال الاستبداد الديني سيقفون عاجزين عن تبرير دعمهم أو سكوتهم عن هذا النوع من عبادة الأصنام، سواء كان الدعم مادياً مباشراً، أو غير مباشر بالسكوت وخذلان الحق، بل حتى لو كان الدعم مغطى بعباءة التورع والاحتياط في الشبهات، خصوصاً في هذا الزمان، الذي يشهد عودة الشعب الإيراني إلى وعيه، وتفتح سمعه وبصره.

لقد نجح الشعب في تشخيص أمراضه المزمنة المهلكة، وأحسن قليلاً بقيمة الحرية، وهذا ما يجعلنا متفائلين بأن الاستبداد الديني ـ في كلا نوعيه المباشر وغير المباشر ـ سوف يضمحل، فلا يبقى له أثر.

وبمقتضى الحديث المأثور (يعرف الرجال بالحق ولا يعرف الحق بالرجال) الذي يعتبر مفاده من المستقلات العقلية، وهو موجب لتمام الحجة على أعوان الاستبداد، فلم يعد لهم اليوم من عذر يعتذرون به عن مساندتهم المباشرة للظالم، أو غير المباشرة بسكوتهم عنه، وامتناعهم عن سلب الصفات الخاصة بالخالق عنه. هذا العون كاشف ـ على كل تقدير ـ عما يخفون من سرائرهم ومكنونات أنفسهم، وهذا التقابل بين الحق الصريح والباطل الصريح محك للامتحان، كما قال سبحانه وتعالى: ﴿**أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين**﴾ [العنكبوت: ٢ ـ ٣].

٣ـ اقتلاع شجرة النفاق:

وسبيلها نشر العلم والثقافة بين عامة الشعب، وترسيخ القيم الصحيحة، مثل قيمة العلم، والبناء على أن مرجعية الأمور العامة تابعة لأهل الكفاءة والخبرة، لا للمقربين والمتزلفين، واقتلاع جذور التحايل والغصب والخيانة.

لكن هذا غير ممكن ما دامت شجرة الاستبداد الخبيثة قائمة، وكيان الاستبداد قوياً. إن الحاكم هو المسؤول الأول عن سيادة التزلف والتملق والنفاق في الحياة السياسية لبلده، وسبب قيام هذا الوضع هو جهله بحقيقة السلطة التي بين يديه. فكل عاقل يفهم أن غرض وجود السلطة هو حفظ النظام العام، وإن الحاكم في منزلة الحارس لثروات بلاده وأنفس شعبه. لكن الحاصل فعلاً هو أن الحاكم قد انهمك في عبادة هواه، فتوهم بأن حيازته للسلطة، تؤهله لمشاركة الله سبحانه في اتصافه

بالكبرياء، ومالكيته للكون، والقهر فوق العباد، وفعل ما يشاء، وعدم المسؤولية عما يفعل.

وبناء على هذا الوهم فهو لا ينظر إلى طلاب الإصلاح، إلا باعتبارهم متمردين على حقه المطلق، كما يرى تمرد الأمة على طاعته، وسعيها للخلاص منه، بغياً وعصياناً. وفي المقابل فإنه يعتبر معونته على قهر الأمة والاستقواء عليها، خدمة محمودة للدولة. وعلى هذا سوف يرتب علاقته بكل من الطرفين، فيسعى إلى استئصال الفئة الأولى المعارضة، بينما يفسح المجال للفئة الثانية التي يراها خادمة لدولته ومحافظة عليها.

ويفتح هذا التصنيف الباب للمتزلفين للتقدم على حساب أمتهم، كما يضع الأساس لحلول التملق محل الكفاءة والخبرة، بحيث يكون التملق للشاه وتقديسه، العامل الأساس لتقدم الفرد، وحصوله على النفوذ والتأثير.

ويترتب على هذا فساد أحوال البلاد، وتزايد الفجوة بين الشعب والدولة، وانفصام المجتمع إلى أكفاء عاجزين عن بلوغ مآربهم، وجهلة قادرين على تحصيل مراداتهم بتملقهم ونفاقهم، فتصبح السلطة لعبة في يد هؤلاء المتزلفين الماكرين. وحتى شخص السلطان سوف لن يسلم من التأثيرات السلبية لهذا الوضع الشاذ، فسوف يصبح معزولاً عن شعبه، وجلاّ منه، مشغول القلب بالبحث عن وسائل القهر والتخريب، محروماً من لذة المحبوبية عند الناس ولذة إعمار البلاد. وبدلاً من ذكره بالخير والصيت الحسن جنباً إلى جنب مع عظماء ملوك العالم، فسيذكر على ألسنة الناس باعتباره ملكاً فارغاً، ولعبة بيد اللصوص الفاسدين. وفي النهاية فإن مصيره إلى الموت ومآل ملكه إلى البوار، كما جاء في الأثر (الملك يبقى مع الكفر ولا يبقى مع الظلم). وهذا من القضايا البرهانية الظاهرة، بل من الأمور المشهودة المحسوسة عياناً، وهو صريح كلام الإمام (ع) في عهده للأشتر وكلامه في حقوق الوالي والرعية والذي نقل سابقاً.

إن بقاء الملك ودوامه منوط باتحاد الوالي مع الرعية وقربه منها. وإن الاستئثار والإجحاف سيؤدي إلى انقراض الدولة عاجلاً، بل إن بقاء السموات كما في أخبار أخرى مأثورة، مستند إلى عدل الله سبحانه وإلى غير ذلك من الأخبار. وما دلت عليه التجربة والبرهان من أن سبب زوال النعمة، وانقراض الملك، ينتج عن هذه الأعمال

الظالمة، وسوف لن يتمتع أهل الاستبداد إلا أياماً معدودات، هي أسوأ من ليلة الوحشة من قبر مثل قبر يزيد ﴿سنة الله في الذين خلوا من قبل﴾ [الأحزاب: ٣٨ ـ ٦٢]، ولن ينتهي الأمر عند ذهاب الملك، بل سيكون عبرة لغيره، وسوف يقترن إلى الأبد مع المذكورين بالسوء والشر، مثل نبوخذ نصر والضحاك، وجنكيز خان وتيمورلنك ويزيد مصداقاً لقوله تعالى: ﴿خسر الدنيا والآخرة ذلك هو الخسران المبين﴾ [الحج: ١١].

الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

في العموم فإن علاج معضلة النفاق والتملق، غير ممكن قبل استئصال شجرة الاستبداد الملعونة، لكن لا ينبغي ترك وظيفة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبذل أقصى الجهد لمعالجة هذه المعضلة وإزالة أسبابها. لقد خسر المسلمون سعادتهم منذ أن أهملوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، الذي هو كناية عن تحمل كل فرد منهم حصته من المسؤولية العامة، كما يقول الحديث الشريف: (لتأمرن بالمعروف ولتنهن عن المنكر أو ليسلطن عليكم شراركم فيسومونكم سوء العذاب). إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أقوى دعائم الإسلام ومبانيه، ولولا تركه لما ضاع منهم حظهم في التمتّع بالولاية العادلة، ولما بلغ من أمرهم أن حاكمهم لم يكتف ـ بحسب كونه مسلماً أو بحسب فطرته الإنسانية ـ باغتصاب مقام الولاية والرئاسة، بل تجرأ على منازعة الله رداء كبريائه، ووضع نفسه في مقام ﴿أنا ربكم الأعلى﴾ [النازعات: ٢٤]، وأطلق يده في استعباد الناس وحرمانهم من حريتهم.

إن استنقاذ حريتهم المغتصبة، والوقوف أمام الجور والتعسف، وحفظ الحمية الدينية والوحدة الوطنية، لتثبيت أركان الاستقلال، كلها تابعة لإقامة وظيفتي الأمر بالمعروف والنهي عن هذا الذي هو أعظم المنكرات. ولو توانى المسلمون في هذا وتهاونوا، فإن مصيرهم إلى المزيد من التسافل، والنزول من عبودية الفجرة إلى رق الكفرة والعياذ بالله.

لذلك فالمأمول منهم أن يضيعوا هذه الفرصة، وأن لا يتهاونوا في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعد هذا، وليقيموا ـ بعون الله وتوفيقه ـ أساس العدل، الذي يوجب بقاء الملك، وليدمروا بنيان الظلم الذي ينتهي إلى الانقراض، وليستنقذوا الحقوق

الوطنية المغتصبة، وليرموا بأخلاقيات النفاق والتزلف والتملق إلى المزابل، ففي هذا السعي مصلحتهم، كما أن فيه مصلحة السلطان.

وحري بالسلطان أن يقف مع شعبه حتى يتذوق لذة العدل والإحسان، ويرتقي من مقام جزار الرقاب وقاطع الطريق إلى مقام الملوك، وعندما يذوق حلاوة العدل ومودة الأمة فترة من الزمن، فإنه سينتقل من عالم الوحوش إلى وادي الإنسانية، وسيتعرف على وظيفته الحقيقية في إدارة البلاد وحفظ شعبها، وبذلك قوة الدولة في تأهيل المجتمع وإنمائه، هذا إذا لم يكن قد انسلخ عن فطرته البشرية، وخرج من دائرة النوع الإنساني.

٤ـ تفرق الكلمة:

يستفاد من كلمات سيد الأوصياء عليه السلام، التي سبق ذكر بعضها، أن حفظ موجبات الشرف الدين والاستقلال الوطني، وعدم الوقوع في ما هو أشر من محنة بني إسرائيل، متوقف على اتحاد الكلمة وعدم تشتت الآراء. بل إن الارتباط الوثيق بين هذه الأمور وبين وحدة الأمة، من البديهيات التي لا محل فيها للنقاش. هذا فضلاً عن أن تلاحم المجتمع ووقوفه صفاً واحداً، هو السبيل لصيانة الحريات وصيانة الحقوق، ومنع الذئاب البشرية من التعدي على حقوق الغير أو تجاوز الحدود.

ولهذا السبب فقد أولت الشريعة الإسلامية اهتماماً كبيراً، بحفظ الوحدة وإزالة أسباب الفرقة. حتى لقد ورد في النصوص أن الحكمة من تشريع الجمعة والجماعة، هو اجتماع المسلمين كل يوم وليلة خمس مرات مع بعضهم، واتخاذ هذا الاجتماع وسيلة لكي يعرف كل منهم حال الآخر.

وهكذا أيضاً ما ورد في التشجيع على الاجتماعات الأخرى، الموجبة للألفة والمحبة، والترغيب في الضيافة غير المكلفة، وعيادة المرضى، وتشييع الجنائز، وتعزية المصاب، وقضاء الحوائج، والعفو والصفح عن الزلات، وتحريم النميمة والإيذاء، والفتنة والإفساد، إلى غير ذلك من التشريعات، المؤدية إلى تحكيم الوحدة والألفة، وإزالة أسباب التنافر، وكل ذلك من أجل حفظ هذا الحصن الحصين.

كما أن شدة اهتمام الشارع المقدس، بتهذيب الأخلاق، وتصفية النفوس من حب الذات، والتخلق بالمواساة والإيثار ونحو ذلك، إنما هو لأجل تمكين أركان الوحدة

بين المسلمين، وإزالة عوامل التفرق.

من المعلوم بالضرورة أن مفتاح تفرق الكلمة وتشتت الآراء، هو حب الذات والتكرس للأغراض الشخصية، وتقديمها على المصالح والأهداف العامة النوعية. وما دامت هذه الرذائل والصفات البهيمية هي المحرك للإنسان، وما دامت مبادى الإيثار والمواساة، أو على الأقل التغاضي عن الأهداف الشخصية عند تعارضها مع الأهداف العامة، ضعيفة في النفوس، فإن حفظ الوحدة مستحيل، ففي كل لحظة سينبت مولود جديد لتلك الصفات الخبيثة. وانطلاقاً منها سيصنف انتزاع الصفات الإلهية من الطواغيت باعتباره خروجاً عن حدود الدين، وسيرتدي حب الظلمة وإعانتهم عباءة الإسلام. وسيغدو سلب الحريات العامة مباحاً في أحكام المذهب. وسيقوم الناس ضد مساواة أفراد الأمة مع المستبدين، بدعوى (حرمة رفع التمايز بين أصناف المكلفين المختلفة الأحكام). وتعود إلى الحياة مرة أخرى، حيل عمرو بن العاص ومعاوية، في اتهام أمير المؤمنين بالمسؤولية عن قتل عمار بن ياسر، بل حتى سفك الدماء على يد جنكيز خان، وغير ذلك من الفظائع، ستغدو جريمة الأمة المظلومة، وليست جريمة السفاحين الذين ارتكبوها!

***

فبناء على ذلك فإن الخطوة الأولى التي يجب القيام بها، هي مكافحة جهل الأمة، وتبيين حقيقة المشروطة والاستبداد، والمساواة والحرية، ثم بذل الجهد والتضحية من أجل تهذيب أخلاق الأمة من الرذائل التي سبق إيضاحها، وإزالة عوامل حب الذات وغيرها من أسباب التفرقة واختلاف الآراء.

والوسيلة التي نقترحها للقيام بهذه الوظائف، هي تشكيل المجامع العلمية الصحيحة، وإيكالها إلى الأعضاء المهذبين، الكاملين في العلم والأخلاق والعمل، المحبين للمصلحة العامة، الحاصلين على الخبرة والكفاءة في المحافظة على المجتمع، وإحياء الروابط الاجتماعية. فبهؤلاء يمكن لهذه المؤسسات العلمية، أن تتميز على تلك التي أقيمت بناء على المصالح الشخصية، والإرهاب، وأكل أموال الناس وانتهاز الفرص، وحب الجاه، وسائر الأغراض والأمراض الشخصية والأنانية، التي لم تنتج سوى عكس المطلوب، ولم تثمر سوى انشغال القلوب عن الوحدة، ولم

تكن بذلك سوى وسيلة من وسائل الاستبداد، بل إنها أكثر ضرراً من أصل الاستبداد. لأن فسادها ويأس الناس منها، قد دفع بأفراد الأمة مرة أخرى إلى أحضان قوة الاستبداد الملعونة، فأصبح الناس يذهبون إليها عن طيب خاطر.

إن الهدف من تشكيل هذه المجامع العلمية، والقسم عليها بالقرآن الكريم وسائر المقدسات الدينية، إنما هو لأجل الابتعاد عن الأغراض الشخصية، والتعاون لإعلاء كلمة الإسلام، وحفظ المجتمع وتقدمه، دون غيره من الأهداف، التي تشغل قلوب العقلاء والمخلصين عن أهداف أمتهم الرئيسية. إن دخول المغرضين والأفاقين المخادعين في هذا الوادي، من أصعب الآفات علاجاً. وأخشى أن تؤدي محاولاتهم الدؤوبة لانتهاز هذه الفرصة، وإلباس مراداتهم الذاتية رداء المصلحة العامة، إلى إقعاد الأمة على بساط الفقر.

لا يتورع الانتهازيون عن حمل أي لافتة، أو المناداة بأي شعار، إذا كان طريقاً إلى أغراضهم الخاصة. فكما رفعوا سابقاً شعار الولاء للشاه تزلفاً وتملقاً، وألقوا رداء الدين على أكتافهم تدليساً وتضليلاً للعامة، فكذلك هم اليوم يرفعون شعار المصلحة العامة، ويظهرون أنفسهم بمظهر الحريص على حقوق الناس، فهم من ناحية النظرية والشعار من أتباع المشروطة وتحديد السلطة، أما من ناحية الفعل فهم الأشد دأباً في تحكيم أسس الاستبداد، ومن أنشط السعاة إلى تفريق كلمة الأمة.

إن هؤلاء الانتهازيين أشد ضرراً على الحركة الإصلاحية من سواهم، ومن المناسب أن يعتبروا ضمن قوى الاستبداد الملعونة، وأن يسعى عقلاء الأمة في علاج هذه القوة قبل غيرها، حتى يسد هذا الباب من الفساد العظيم.

وبالجملة: فإن تهاون الأمة وعدم اتفاقها على القيام بالواجبات المتعلقة بالمجموع، كان نتيجة تسرب الانتهازية، وقيام البعض بإلباس الأغراض الشخصية ثياب المصالح العامة، مما أدى إلى تفرق الأمة وفتورها في أداء وظائفها التي لا تقوم إلا بوقوف المجموع جبهة واحدة. والأمثلة على هذا في الماضي والحاضر تفوق القدرة على العد والإحصاء. وفي الرواية أن النبي (ص) دعا ربه أن يرفع عن أمته أنواع العذاب السماوي والأرضي الذي كان يحل بالأمم السابقة، حين نزلت الآية المباركة ﴿هو القادر على أن يبعث عليكم عذاباً من فوقكم أو من تحت أرجلكم أو يلبسكم شيعاً

ويذيق بعضكم بأس بعض انظر كيف نصرف الآيات لعلهم يفقهون﴾ [الأنعام: ٦٥]، فاستجاب الله لدعائه، ورفع عنها العذاب بالكوارث الطبيعية، لكن بقي العذاب الآخر وهو التفرق والتمزق والمشاكل الداخلية.

وهذه الأنواع من العذاب الدنيوي هي نتائج للفساد والابتعاد عن صراط الله المستقيم. وبؤر هذا العذاب هي ذاتها بؤر الفساد، التي تجد فيها أهل الاستبداد السياسي أو أهل الاستبداد الديني، أو حاشية السلطان، وعباد الظلمة والمتملقين، وغيرهم من القوى الملعونة، وكذلك نهازي الفرص المندسين في تيار الإصلاح لإنجاز أغراضهم الخاصة تحت شعار المصلحة العامة، فهذه كلها مسببات للعذاب الإلهي لهذه الأمة. وعلاج ذلك خارج عن القدرة العادية لعقلاء الأمة وحكمائها، ولا يحصل إلا بالتوبة والإنابة والتضرع والتوسل إلى الله بمظاهر رحمته صلوات الله عليهم ﴿ربنا اكشف عنا العذاب إنا مؤمنون﴾ [الدخان: ١٢]. عسى أن يستجيب الله فيكشف عنا هذا العذاب، اللهم اجمع على الهدى كلمتنا وعلى التقوى شملنا بمحمد وإله الطاهرين.

وأما علاج بقية القوى الملعونة، فلا يحصل إلا باقتلاع شجرة الاستبداد الخبيثة، ومنع الظلمة من فعل ما يشاؤون. فما دامت هذه الشجرة قائمة، وأساس الحكم التعسفي ثابتاً، والإمكانات الوطنية مغصوبة، فإن قتل الناس وتعذيبهم ونفيهم وحبسهم، وإذلال النفوس الأبية وأشراف البلاد وأحرارها، لن يقف عند حد. وهكذا فإن سلب خيرات الأمة وصرفها في قمعها وتدميرها، لن ينتهي إلى مدى. وكما في الأسطورة: فإن بومة خطبت فطلبت مهراً عشر قرى خراباً، فقالت لها الخاطبة: إذا أطال الله عمر الملك فسأعطيك مئة ألف قرية خراباً: [من المتقارب]

إذا الملـــك هـــذا وهـــذي الحيـــاة سـأعطيـك مـا شئـت أرضـاً مـوات

لا بد من وضع قانون شامل يحدد واجبات كل صنف من أصناف المجتمع، ولا يفرق بين الكبير والحقير في أحكامه القانونية، حتى لا يطمع القوي في باطله، ولا يَيْئَس الضعيف عن حقه.

إنّ تعدي الأقوياء على الضعفاء عادة جارية وستبقى بلا علاج، إلاّ إذا وضع ذلك القانون، وجعلت القوى الفاعلة في البلاد من مالية وغيرها تحت رقابة ممثلي الأمة،

وبقيت مصونة من الاستعمال في الشهوات الشخصية للحاكم، أو حاشيته أو المتزلفين إليه، وأصبح الجيش والجند في خدمة الشعب، بعد أن ارتضوا ـ لفرط جهلهم وغبائهم ـ البقاء سنوات طوالاً مسخرين للإرادات الطاغوتية، بدل أن يكونوا كما قال أمير المؤمنين: حصون الرعية، فيظهرون الوفاء لأولياء نعمتهم وهم عامة الشعب، لا الحكام الظلمة.

ولأنه لا ينتظر من المستبدين غير القمع، واستئصال الأمة، وصرف الأموال في الشهوات، فقد صدر الحكم الشرعي ـ في وقته ـ بتحريم أداء الضرائب التي يمكن أن تستعمل في القيام بهذه المفاسد.

ولم يستطع أهل الاستبداد إنجاز مآربهم، إلا بعد الاطمئنان إلى من تحت أيديهم من العساكر الذين هم أشبه بالبهائم، فبغباوة هؤلاء حاز قادتهم ما طلبوه من المراتب والمال والسلطة. أما الجند أنفسهم، ومعظم من ينضم إليهم من العشائر المتخلفة والمتوحشة، فقد فازوا بقصب السبق في الغباوة والغفلة وعدم الإدراك، وتفوقوا حتى على أهل الشام وأتباع معاوية، فقد حرموا من أي نصيب في الدين، أو الفطرة الإنسانية، ولم تعد ثمة وشيجة تربطهم بالوطن وحب الوطن. ولا أرى من علاج لهم غير انتزاع ما تحت أيديهم من قوة، وسلب فعاليتهم.

من المناسب ونحن على أبواب الفراغ من هذه الرسالة، أن ننقل بقية الرؤيا، التي نقلناها سابقاً مما يرتبط بالرسالة. فقد كان عزمنا على جعل هذه الرسالة في خمسة فصول، وأضيف إليها فصلان آخران، في إثبات نيابة الفقهاء العدول في عصر الغيبة، في إقامة الوظائف المرتبطة بسياسة أمور الأمة، والفروع المترتبة على تلك الوجوه، فيكون مجموع الفصول سبعة.

وفي الرؤيا السابقة، بعدما نقل المرحوم الطهراني عن صاحب الأمر، تشبيهه للمشروطة بغسل يدي الأمة السوداء، سألته: هل توافقون على الرسالة التي أكتبها الآن أم لا؟ فقال: نعم إلا في موضعين. وبحسب القرائن فإن الموضعين هما الفصلان المذكوران، لوجود مباحث علمية فيه لا تتناسب مع مستوى العامة الذين نوجه إليهم هذه الرسالة. لهذا أعرضنا عن إضافة الفصلين المذكورين، وأبقينا على الفصول الخمسة.

وبه ختم على يد مصنفه

الفقير الجاني محمد حسين الغروي النائيني

في الوادي المقدس الغري، على مشرفها أفضل الصلاة والتسليم

في شهر ربيع الأول سنة ألف وثلاثمائة وسبع وعشرين من الهجرة المقدسة،

على مهاجرها وآله أفضل الصلاة والسلام

الفهرس

الكتاب ومؤلفه

بقلم: كامل سلمان الجبوري ٤٤٧

أولاً: تنبيه الأمة وتنزيه الملة ٤٤٧

ثانياً: الشيخ محمد حسين النائيني ٤٤٩

صورة الشيخ النائيني ٤٥٣

تنبيه الأمة وتنزيه الملّة

بترجمة الأستاذ توفيق السيف ٤٥٥

تقريض الشيخ محمد كاظم الآخوند، والشيخ عبد الله المازندراني ٤٥٦

تمهيد ٤٥٦

المقدمة:

في تحليل حقيقة الاستبداد ودستورية الدولة ٤٦١

الفصل الأول:

في أن أصل جعل السلطة كان ولاية، وأن تحويلها إلى التمليكية من بدع لطواغيت والظالمين ٤٨٣

الفصل الثاني:

في بيان التكليف في عصر الغيبة ٤٨٧

الفصل الثالث:

هل المشروطية بركنيها الحرية والمساواة، الوسيلة المتيقنة والمأمونة لتحديد السلطة .. ٤٩١

الفصل الرابع:

في ذكر جملة من الوساوس وردّها ٤٩٩

الفصل الخامس:

في شرائط صحة ومشروعية تدخل النواب في الأمور السياسية وبيان وظائفهم ٥١٩

الخاتمة:

المقصد الأول: في استقصاء قوى الاستبداد الملعونة ٥٣١

المقصد الثاني: إشارة إجمالية إلى علاج تلك القوى الملعونة ٥٤٢

الفهارس العامة

١ ـ فهرس الأعلام .

٢ ـ فهرس الأماكن والبقاع .

٣ ـ فهرس القبائل والعشائر والأُسر .

٤ ـ فهرس الوثائق .

٥ ـ فهرس الصور الفوتوغرافية .

٦ ـ فهرس الموضوعات .

١ـ فهرس الأعلام

ـأـ

ابراهيم الإيراني، الشيخ ٢٣٥ .
ابراهيم السيد باقر البهبهاني، السيد ٩٢، ١٠٦، ١٨٨، ١٩٥، ٢٠٦، ٢٠٧، ٢١٢
ابراهيم، الشيخ ١٩٧ .
ابراهيم، الطباطبائي ٨٣ .
ابراهيم كمال السوري ٢٤٨ .
ابراهيم بن محمد باقر، السيد ١٧٣، ١٨٢ .
ابراهيم المظفر، الشيخ ١٦٨ .
أحمد بك أوراق ١٨٥ .
أحمد بن حسن الصراف ٢٣٦ .
أحمد بن السيد حسين العذاري، السيد ٢٣٦ .
أحمد الحاج سعد ١٩٦، ٢٣٤ .
أحمد شاه ١٣٤ .
أحمد الصافي، السيد ١٣، ١٨٢، ٢٠٧، ٢٤٤ .
أحمد عزة بك الأعظمي ٧٨ .
أحمد القزويني، السيد ٢٩٣ .
أحمد كاشف الغطاء، الشيخ ٩٢، ١٠١ .
أحمد الملا محمد كاظم الخراساني، الشيخ ٢٤٨، ٢٥٢ .
أحمد يحيى البغدادي ٩٦، ٩٨ .
إسحاق حبيب الله الرشتي، الشيخ ٢٥٢ .
اسد الله الدزفولي الكاظمي، الشيخ ٢٩٤ .
أسد خان آل نظام الدولة ٢٧٠ .
أغا أسد خان ٧٨ .
اسماعيل الصدر، السيد ١٥١، ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٤٥٠ .
أبو الأسود الدؤلي ١٩ .
أكرم رؤوف ١١٠ .
أمهرست اللورد ٦٧ .
أمين الدولة آل نظام الدولة ٥٣ .
أمين زكي بك، القائمقام ١٦٤، ١٦٦ .
أمين شمسه ٩٢، ٩٤، ٢٤٥ .
أمين بك الطرابلسي، القائمقام ١٦٤ .
أمين أفندي بن ليلى، مدير ناحية الكوفة ٤٥ .
أنستاس الكرملي، الأب ٧٨ .

ـبـ

باقر الجواهري، الشيخ ٢٤٥ .
باقر آل حيدر، الشيخ ١٧٢، ١٧٣ .
باقر الزنجاني، الميرزا ٤٥١ .
باقر زيني، السيد ١٠٣ .
باقر الشبيبي، الشيخ ٨٠، ٢٠٧، ٢٤٤، ٢٥٨ .
انظر: محمد باقر الشبيبي .
باقر القزويني، السيد ٢٩٣ .
بريسل، الكابتن ٢٠٤ .
بشير، مملوك الحاج راضي ٢٣٥ .
ابن بطوطة، الرحّالة ٣٢ .
بلفور الكابتن، الميجر ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٩، ١٩٠، ٢٠٥، ٢١٢، ٢١٤، ٢٢٢، ٢٢٣، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣ .
بهيج بك، قائمقام النجف ١٦٠ .

ـتـ

توفيق بك الخالدي ١٧٥ .
توفيق السيف ٤٤٨ .
تومان الغضبان بقر الشام ١٩٧، ٢٣٥ .

تومان غيدان عدوة ٩٢، ١٩٧، ٢٣٩، ٢٤٥.

-ث-

ثريا بك ١٣٩، ١٤٤.

-ج-

جاد غاوي المصري ١٩٥.
جاسم آل چياد، الحاج ٨٧.
جاسم السيد محمد علي طبار الهوا ٢٠٩، ٢١٠.
جاسم بن محمد أبوگلل ٢٣٨.
جبر السيد حمادي الفحام، السيد ٢٣٥.
جبر الحاج شبيب جبرين ٢٣٦.
جبر ابن اخت الحاج نجم، السيد.
جدوع الروازق ٢٣٥.
جرجي زيدان ١٤٤.
جواد البلاغي، الشيخ ٨٣.
جعفر السيد حسن الصائغ، السيد ٢١٠، ٢٤٠.
جعفر حسن مرزه ٩٢.
جعفر الحلي، السيد ٨٣.
جعفر حمندي، السيد ٨٥، ١١٦، ١٢٦.
جعفر الخليلي ٤٤٨.
جعفر الخياط ٦٧.
جعفر الشبيبي ٢٤٨.
جعفر شمسة، الحاج ٩٢.
جعفر عبد الحسن الشيخ راضي، الشيخ ١٧٤، ٢٨٢.
جعفر بن علي المانع، الشيخ ١٣٨.
جعفر قسام، الشيخ ٢٤٥.
جعفر كاشف الغطاء، الشيخ ٥، ٣٣، ٣٧، ٤٠، ٢٩١، ٢٩٤، ٢٩٥، ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩.
جعفر الكيشوان، السيد ٨٨، ٩١، ٩٤، ٩٦، ١٠٥.
جما باشا السفاح ١٤٦.
جهانكير خان القشقائي، الشيخ ٤٤٩.
جواد الجواهري، الشيخ ٧٨، ٨٨، ١٤٩، ١٥١، ١٩٠، ٢١٩، ٢٢١، ٢٢٨، ٢٤٤، ٢٤٥، ٢٥٣، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٦، ٢٥٧، ٢٦٩، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٨.
انظر: محمد جواد الجواهري.
جواد بن خنياب ٢٤٠.
جواد زيني، السيد ٢٤٥.
جواد السيد سلمان، السيد ٢٧١.
جواد العاملي، السيد ٢٩٤.
جواد الكليدار، السيد ١٢٢.
جواد المسير، الحاج ٢٤٠.
جواد مطر أبو غنيم ٢٣٨.
جواد مطرقانة ٢٣٩.
جودت القزويني، الدكتور ٢٩١.
جودي قنبر أغا ١٣٩.
جودي ناجي ١٩٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٣٤.

-ح-

حاجم بن محمد أبوگلل ٢٣٨.
حامض بن محمود صبي ١٩٧، ٢٣٥.
حبيب الله الرشتي، الشيخ ٤٥٠.
حبيب بن جاسم خضير ٢١٠، ٢١٢، ٢٣٢.
حبيب أبو الجاموس ٢٣٦.
حبيب (صانع السيد منصور الرفيعي) ٢٠٩.
حتروش (نسيب غيدان عدوة) ٢٣٦.
حساني الحاج عبود المختار الرماحي ١٩٧، ٢٣٦.
حسن الحاج أحمد مرزة ٩٢.
حسن البجنوردي، السيد ٤٥١.
حسن جوري ٢١٠، ٢١٢، ٢٣٢.
حسن آل صاحب الجواهر ٢٨٢.
حسن ملا حسين النجم، الملا ١٣٨.

حسن الرفيعي، السيد ١٠٥ .
حسن زيني، السيد ٩٢ .
حسن الصدر، السيد ١٥١ .
حسن بن علوان السوّاد العكايشي ٢٣٨ .
حسن علي القطيفي، الشيخ ١٥٠، ١٧٤ .
حسن القزويني، السيد ٢٩٣ .
حسن بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء، الشيخ ٣٨، ٢٩٣ .
حسن العكراوي ٢١٠، ٢٣٩ .
حسن، الشيخ مهدي، الشيخ ٢٤٥ .
أبو الحسن الموسوي الأصفهاني، السيد ٢٨٨، ٤٥٠، ٤٥٢ .
حسن هادي ادريس ٢٢٣ .
حسون بادرنك صبي ٢٣٥ .
حسون أبو جحيفة الرماحي ٢٣٦ .
حسون شربة، الحاج ٢٦٩ .
حسوني العلوان الملا ٢٣٦ .
حسين الأصفهاني، الشيخ ٧٩ .
حسين جبرين ٢٣٦ .
حسين جريو، السيد ٩٢ .
حسين الحلي، الشيخ ١٣، ٢٤٥، ٤٥١ .
حسين الخليلي (الشيخ، الميرزا، ابن الشيخ خليل الطهراني) ٦٨، ٤٤٧ .
حسين الرفيعي، السيد ٢٤٥ .
حسين زين العابدين ١٥١ .
حسين بن شاهين ٢٣٦ .
حسين الصحاف، الشيخ ٨٣، ٢٤٥ .
حسين صكبان بقر الشام ٢٣٥ .
حسين الظاهر، الحاج ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١ .
الحسين بن علي، الشريف ٢٤٩ .
حسين علي كور، حسين العرب ٢٠٩، ٢٣٩ .
حسين القزويني، السيد ٢٩٣ .
حسين كمال الدين، السيد ٨٦، ٨٧، ٩٠، ٩٣، ٩٤، ٩٦، ٩٨، ١٠٤، ١٠٧، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠، ١٧٤، ٢٠٣، ٢٤٤ .
حسين كنو (ابن خالة حميد عيسى حبيبان) ٢٠٩ .
حسين المازندراني ٢٧٩ .
حسين نجف الكبير، الشيخ ٦١ .
حسين بن يوسف أبوكلل، الحاج ٢٣٨، ٢٤١ .
حسين (حسيني) ابن محمد الصراف ٢٣٦ .
حلوس بن محمد الصبار ٢٣٨ .
حليم بك، القائد ١٧٣، ١٧٤ .
حمود شبيل ٢٦٨ .
حمود عبد الحسين الحار ١٩٧، ٢٣٩، ٢٤٥ .
حمود معلة، الحاج ٢٤٥ .
حميد أحمد ياسين أبو السبزي ٢٠٩، ٢١٠، ٢٤٠ .
حميد الحاج أحمد مرزه ٩٢، ٩٤ .
حميد خان ١٨٤، ٢٠٥، ٢٤١، ٢٦٤، ٢٦٩، ٢٧١، ٢٧٢ .
انظر: عبد الحميد خان .
حميد زاهد ٩٢ .
انظر: عبد الحميد زاهد .
حميد شكر ١٠٥ .
حميد الصكر ٢٣٨ .
حميد عيسى حبيبان ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢٣٢
حنتوش الرماحي ٢٣٦ .
حيدر الحلي، السيد ٨٣ .
حيدر كمال الدين ١٧٤ .
حيدر السيد نور، السيد ١٧٣ .

-خ-

خزعل، الشيخ ١٧٤، ١٧٨، ١٩٦، ٢٤٠ .
خضر بن عباس الصراف ٢٣٥ .
خطّار بن سلمان البديري (العبد) ٢٠٩، ٢١٠،

٢٣٨ .
خليل أبو شبع ٢٣٩ .

-د-

داود باشا ٣٧ .

-ر-

رئيس التجار، الحاج ١٢٣، ١٢٤ .
راشد باشا ٤٥ .
راضي الحاج سعد راضي ٢٣٤ .
رحيم الظالمي (الشيخ رحّوم) ٢٤٨ .
رديف بن الحاج محمد ثالثة، الحاج ٢٣٥ .
رسول تويج (الحاج عبد الرسول) ٢٤٥، ٢٤٩ .
رسول كمال الدين (السيد عبد الرسول) ١٣ .
رشيد الصفّار ٧٨ .
رشيد غانم كرماشة ٢٣٨ .
رشيد هادي إدريس كرماشة ٢٣٨، ٢٤١ .
رضا الأصفهاني، الشيخ ٨٣ .
رمضان، الحاج، قائمقام النجف ١٦٤ .
رؤوف الجواهري، الشيخ ٢٤٥ .
رؤوف شلاش، الحاج ٩٢، ١٠٣، ١٠٩، ٢٤٥ .
انظر : محمد رؤوف شلاش .
أبو رويشات، الحاكم ١٩٨ .

-ز-

زاير جبر العكايشي ٢٣٨ .
زبالة بن عزيز كور الشمرتي ٢٣٥ .

-س-

سادن الحرم العلوي ١٨٤ .
ساطع بك الحصري ٩٥، ١٠٨، ١٠٩ .
سامي نصير المصري ١٠٤، ١٠٨، ١٠٩، ١١٠ .
ساندرز ٢٤٢ .
سركيس أفندي، حاكم الكوفة ١٨٤ .
سعادة خان ٦٦ .
سعد الحاج راضي، الحاج ١٩٧، ٢٠٨، ٢٣٤، ٢٤٠ .
سعد صالح ١٣، ١٥، ٩٣، ٩٧، ١٢٢، ٢٠٧، ٢٤٤ .
سعد العامري ٢١٠، ٢٣٤ .
سعدون العامري ٢٠٩ .
سعود العبد العزيز الأمير ٣٢، ٣٧ .
سعيد بن حبيب الحار ٢٣٩ .
سعيد الخليلي، الشيخ ٢٤٥ .
سعيد العبد (مملوك الحاج سعد) ٢٣٤ .
سعيد كمال الدين، السيد ١٣، ٨٥، ٨٧، ٨٨، ٩٤، ٩٧، ١٠٠، ١٠٢، ١٠٨، ١٠٩، ١٤٠، ٢٠٣، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٢ .
انظر : محمد سعيد كمال الدين .
سعيد مرزة، الحاج ١٠٣، ٢٤٥ .
سعيد المعمار، الحاج ٩٨ .
سلطان، الملا ٤٥ .
سلمان أبو حميد، الحاج ١٣٨ .
سلمان بن السيد علي الحجّار، السيد ٢٣٥ .
سلمان بن محمد صبي ٢٣٥ .
سلمان بن الملا علي الدلاّل، الملا ٩١، ٩٤، ٩٦، ١٠٤، ١١٠، ٢٤٥ .
سلمان، السيد ٤٣، ٤٤ .
سليمان باشا ٣٣، ٣٤ .
سليمان عسكري بك ١٧٢ .

-ش-

الشريف المرتضى ١٨ .
شعلان أبو الچون، الشيخ ٢٤٦ .
شعلان بن عباس أبو نصيحة ٢٣٦ .

شمران بن عبد الله العامري ٢١٠، ٢٣٢، ٢٣٤.
شنون الممعار ٢٣٦.
شيخ الشريعة الأصفهاني ١٥٠، ١٧٣، ٢٥٢، ٢٥٦، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٤٤٧، ٤٥٠.

-ص-

صادق الأديب ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢٣٢.
صادق الفحام، السيد ٢٩٣.
صادق الكتبي، الشيخ ٨٣.
صالح البغدادي، السيد ٢٤٥.
صالح جبر ٩٣.
صالح الجعفري ٤٤٨.
صالح بن حبيب جودة كرماشة ٢٣٨.
صالح الحلي، السيد ٩٩، ١٠٠، ١٠١، ١٠٢، ١٠٤.
صالح شمسه ٩٦، ١٠٠، ١٠١.
صالح كمال الدين الحلي، السيد ١٥٠.
صدر الاسلام، السيد ٢٨٧.
صدر الأصفهاني، السيد ٢٧٩.
صدر الدين العاملي، السيد ٢٩٤.
صكبان عزيز بقر الشام ٤٥.

-ض-

ضياء الخرسان، السيد ٩٢، ٩٤، ١٠٣، ٢٤٥، ٢٦٨.

-ط-

طالب باشا النقيب، السيد ١٤.
طه البدري، السيد ٢٥٠.
طاهر أفندي، الضابط ١٤٥.
طاونزند ١٧٤، ١٧٦.
طلال بن حميد السوّاد العكايشي ٢٣٨.
طماطة بن سعيدان ٢٤٠.
طنوش بن علي الرماحي ٢٣٥.

-ع-

عاصي (من بني طرف)، الشيخ ١٧٤.
عاكف بك الألباني ١٦٦.
عباس حسون أبو شبع ٩٣، ٢٣٩.
عباس الخليلي ١٨٢، ١٩٥، ٢١٧، ٢٣٠، ٢٣٢، ٢٣٤.
عباس شمسة ٢٦٨، ٢٦٩.
عباس بن عجمي العجمي ٢٣٨.
عباس علي الرماحي ٢٠٨، ٢٣٤.
عباس علي آل سبع ١٦٤.
عباس علي ١٩٦.
عباس الكليدار النقيب، السيد ١٠٩، ٢٦٨.
عباس بن مطر ٢٣٩.
عباس الحاج نجم البقال ١٨٤، ١٨٥، ٢٠٦.
عبد الامير الشكري ٢٤٥، ٢٤٩.
عبد الجليل ناجي ٢٦٨، ٢٦٩.
عبد الحسن آل نجف ٤٤٨.
عبد الحسين البغدادي، الشيخ ٤٥٢.
عبد الحسين الحلي، الشيخ ٢٠٣، ٢٤٥، ٤٤٨.
عبد الحسين سرخدمة، السيد ١٠٢.
عبد الحسين مطر، الشيخ ١٧٩، ٢٤٥، ٢٤٩.
عبد الحمامجي ٢٠٩، ٢١٠.
عبد الحميد خان ١٩٣، ٢٢٣، ٢٢٨.
انظر: حميد خان.
عبد الحميد الزاهد ٢٤٤، ٢٤٥.
عبد الحميد، السلطان ١٣٣، ١٣٤، ١٤٠، ١٤١.
عبد الحميد مرزة ٢٤٥.
عبد حميمة النداف ٢٠٩، ٢١٠، ٢٤٠.
عبد الرحمن الباچه جي ١١٨.
عبد الرحيم بلبلة، الشيخ ٨٥، ١٤٤.
عبد الرحيم محمد علي ٧٧.

عبد الرزاق الحسني، السيد ٢٦٩ .
عبد الرزاق الحلو، السيد ١٧٣ .
عبد الرزاق علوان عدوة ١٨٨، ١٩٧، ٢٣٩، ٢٤٥ .
عبد الرزاق الحاج مسعود ٩٢، ٩٤، ٩٦، ١٠٠، ١٠٩، ٢٤٥ .
عبد الرزاق شمسة، الحاج ٩٢، ١٠٢، ١٦٥، ٢٦٩ .
عبد الرسول شريف، الحاج ٩٢، ٢٤٥ .
عبد الرضا الشيخ راضي، الشيخ ٨٨، ١٣٩، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٧١ .
عبد الصاحب هويدي ٩٢، ٢٤٥ .
عبد الصمد، رئيس الشرطة ٢٦٥٥ .
عبد العزيز بك، القائمقام ٧٠، ١٠٣، ١٤٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٥٣، ٢٨١ .
عبد العزيز الجواهري ٢٠٣ .
عبد العزيز شاويش المصري ٧٨ .
عبد العزيز بن محمد آل سعود، الأمير ٣٣، ٣٧، ٢٩١، ٢٩٧، ٢٩٨ .
عبد علي الطرفي، الشيخ ٩٢، ٢٤٥ .
عبد عويّد العامري ٢٠٩ .
عبد عيسى حبيبان ٢٣٩ .
عبد الغني الجواهري، الشيخ ٢٤٥ .
عبد الغني الحكيم ١٧ .
عبد الفتاح ابراهيم ١٦ .
عبد القادر البغدادي ١١٠ .
عبد الكريم الجزائري، الشيخ ١٧٤، ١٧٦، ٢٤٤، ٢٥٢، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٥٧، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٧١ .
عبد الكريم كمال الدين، السيد ٥ .
عبد الكريم آل نجف ٤٤٨ .
عبد الكريم اليزدي الحائري، الشيخ ٤٥١ .
عبد الله ابراهيم الرويشدي ٢٣٥ .
عبد الله الروازق ٢٣٥ .
عبد الله شبر الحسيني، السيد ٢٩٤ .
عبد الله الشمرتي، الحاج ٢٦٩ .
عبد الله المازندراني، الشيخ ١٥٠، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٢٨٦، ٢٨٧، ٤٤٧، ٤٥٠ .
عبد المحسن شلاش، الحاج ٩٢، ١٢٣، ٢٥٤ .
انظر: محسن شلاش .
عبد الحاج محمدالحممجي ٢٣٩ .
عبد المعطي حجازي المصري ١٠٤ .
عبد المنعم العكام، الشيخ ٩١، ٩٤، ٩٦ .
عبد المنعم الفرطوسي، الشيخ ٤٥٢ .
عبد المهدي البرمكي ٩٦، ١٠٦ .
عبد المهدي البغدادي ١١٠ .
عبد المهدي المظفر، الشيخ ٢٤٩ .
عبد المولى الطريحي، الشيخ ٩٥، ٩٦ .
عبد النبي الشكري، الحاج ٢٤٥ .
عبد الهادي البغدادي، السيد ١٥٠ .
عبد الواحد الحاج سكر، الحاج ٢٤٦، ٢٧٢ .
عبد يوسف أبو شبع ٢٣٩ .
عبود صخيلة بن سلمان عنوز ٢٣٦ .
عبود شوشي ٤٥ .
عبود الفيخراني ٤٣ .
عبود مرزه ٢٤٥ .
عبود السيد مهدي السيد سلمان، السيد ٩٢، ٢٧١ .
عبود نورية ٢٣٦ .
عجمي بك السعدون باشا ١٧٩، ١٨٢، ٢٠٤ .
عراك عزيز كور الشمرتي ٢٣٥ .

عزيز بقر الشام ٤٥ .
عزيز جاسم الجيلاوي ٢٣٩ .
عزيز جاسم الحارس ٢٣٥ .
عزيز خان ٢٠٥ .
عزيز الرفيعي، السيد ٩٢ .
عزيز عجينة ٩٢ .
عزيز مهدي الأعسم ٢٣٦ .
عطية أبوكلل، الحاج ٤٥، ٥٤، ٥٦، ١٨٠، ١٨١، ١٨٢، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٤، ٢٠٦، ٢٣٨، ٢٤١ .
عطية بن محمد العتاكي (عطية بن حسن) ٢٣٨ .
عطية بن محمود صبي ٢٣٥ .
علوان الخرسان، السيد ٢٤٥، ٢٦٨، ٢٦٩ .
علوان من البودليهم الفتلاوي ٢١٠، ٢٣٦ .
علوان الحاج سعدون ١٨٣، ١٨٤، ٢١٦، ٢٣٦ .
علوان علي ١٩٦ .
علوان علي الرماحي ٢٣٤ .
علوان السيد عباس الياسري، السيد ٢٤٦، ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣ .
علوان الملا ٢٣٦ .
علي بن أبي طالب، الإمام أمير المؤمنين ١٩ .
علي أمين الصندوق، الملا ٧٨ .
علي البازركان ٢٥٠ .
علي البازي، الشيخ ٢٢ .
علي التبريزي، السيد ٢٨٢ .
علي جربو، السيد ٢٦٨ .
علي آل جعفر كاشف الغطاء، الشيخ ٢٩٣ .
علي بن السيد جواد الرفيعي، السيد ١٣٩ .
علي حسين علي عودة ٢٢٣ .
علي الحلي، السيد ٢٤٥ .
علي الخاقاني ١٧ .
علي الداماد، السيد ١٧٣ .
علي الدلال الملا ٢٤٥ .
علي دوكي ٢٢٣ .
علي بن السيد رضا الطباطبائي بحر العلوم، السيد ٦٧ .
علي رفيش .
علي زين العابدين ١٥١ .
علي السكافي ٩٢ .
علي السيد سلمان، السيد ٩٥ .
علي شاه طالبي ١٠٦ .
علي الشرقي، الشيخ ٦٨، ٢٠٣، ٢٤٨ .
علي، الشيخ عبد علي الكتبي، الشيخ ٢٠٧ .
علي عيسى حبيبان ١٩٧، ٢٣٩ .
علي الملا قاسم ٩٥، ١١٠ .
علي بن قاسم أفندي ٢٤٥ .
علي القزويني، السيد ٢٩٣ .
علي القمي، الشيخ ٤٥٢ .
علي كبة، الحاج ٩٢، ٢٤٥ .
علي الكتبي، الشيخ ١٣ .
علي المانع، الشيخ ١٣٨، ١٣٩ .
علي بن محمد تقي الطباطبائي بحر العلوم، السيد ٦٧ .
علي بن مهدي جوزة ٢٣٦ .
علي نقي النقوي، السيد ٤٥٢ .
علي هادي الحبوبي، السيد ٢٤٥ .
عمر الخيام ١٥ .
عمر نظمي ١٣٩ .
عودة الشكري ٢٠٩ .
عيسى الخلف ٩٢، ١٠٩ .
عيسى كمال الدين، السيد ١٤، ١٧، ١٧٤، ١٧٦ .
عيسى مال الله، الشيخ ١٧٠ .

-غ-

غازي جواد طوبة ٢٣٦ .
غازي الدين حيدر السابع ٦٧ .
غازي شربه ٢٦٦ .
غثيث الحرجان ٢٤٦ .
غلوم بن رضا ملكي (قلوب ملكي) ٢٣٩ .
غني الجواهري، الشيخ ٩٢ .
غني الشوشتري ٩٢ .
غني بن غانم كرماشه ٢٣٨ .
غني الغروي ٩٥، ٩٦ .
غيدان عدوة ١٩٧، ٢٦٩ .

-ف-

فاضل الجمالي، الدكتور ١٦ .
فتح علي شاه القاجاري، الشاه ٣٤، ٣٧، ٢٩٥ .
فنجان صكبان بقر الشام ٢٣٥ .
فهد الهذال ٢٠٣ .
فيصل الأول، الملك ٩٣، ٩٧، ١٠٥، ١٠٧، ٢٨٨، ٤٥٠ .

-ق-

أبو القاسم الخوئي، السيد ٤٥١ .
أبو القاسم الشيراوي (القنصل الروسي) ٧٠ .
أبو القاسم العلامة، السيد ٢١٦ .
قوام الدين نجم الدين، الشيخ ٨٧، ٩١ .

-ك-

كاطع العوادي، السيد ٩٣، ٩٧، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٨ .
كاظم الحبوبي ١١٠ .
كاظم الخليلي، الشيخ ١٨٢ .
كاظم صبي ١٨٤، ١٩٦، ٢٠٥، ٢٠٨، ٢٣٤، ٢٤١ .
كاظم السيد علي السيد سلمان، السيد ٨٧، ٩٤، ٢٤٥، ٢٦٦، ٢٦٧، ٢٧١ .
كاظم عوزي، السيد ٢٤٨ .
كاظم آل مسير، الحاج ٢٤٠ .
كاظم المظفر ١٧ .
كاظم بن الحاج مهدي البستاني ٢٣٤ .
كاظم موسى الغروي ١١٠ .
الكبيسي، التاجر ١٨١ .
كردي عطية أبوكلل ٩٢، ٢٣٨، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧١ .
كريم الحاج سعد راضي ١٨٤، ١٨٧، ١٨٩، ١٩٦، ٢٠٥، ٢٣٤، ٢٤١ .
كريم السيد سلطان السيد سلمان، السيد ٨٧، ٩٤، ٢٤٥، ٢٦٧ .
كريم الطيار النداف ٢٠٩ .
كريم بن عبود الجيلاوي ٢٣٩ .
كريم بن غانم كرماشة ٢٣٨ .
كريم بن محمد أبوكلل ٢٣٨ .
كرينهاوس ١٩٩، ٢٤٣ .
كوكس، السير برسي ١٨١، ١٨٣، ٢٤١ .

-ل-

لجمن، الكولونيل ١٨٣، ١٨٤، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٦ .
لورنس ٢٢٣ .
لوريمر ٦٧ .

-م-

مارشال، الكابتن ١٨٨، ١٩١، ٢٠٦، ٢١٢، ٢٢٠، ٢٣٤، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٣ .
مجيد الحاج مهدي دعيبل ١٩٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٣٤ .
مجيد طبار الهوى ١٩٧ .
مجيد (أو حميد) بن عباس بن حميد ياسين ٢٤٠ .
مجيد الحاج عبود المختار الرماحي ٢٣٦ .

مجيد بن عزيز طالب ٢٣٥ .
مجيد بن السيد محمد علي طبّار الهوى ٢٣٨ .
مجيد بن غانم كرماشة ٢٣٨ .
محسن الحكيم، السيد ٦١ .
محسن الحاج سعد راضي ١٩٦، ٢٣٤ .
محسن شلاش، الحاج ٨٨، ٩٥، ٩٧، ٩٨، ١٠٨، ١١٨، ١٢٢، ١٢٤، ٢٤٥، ٢٥٣، ٢٥٦، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣، ٢٦٨، ٢٦٩ .
انظر : عبد المحسن شلاش .
محسن أبو طبيخ، السيد ٢٥٠ .
محسن أبو عجينة ٨٧، ٩٤، ١٠٣، ١٠٩، ٢٤٥ .
محسن أبو غنيم ١٩٦، ٢٠٩، ٢١٠، ٢٣٤ .
محمد الإخباري، الميرزا ٢٩٥، ٢٩٧ .
محمد إسماعيل المحلاتي، آغا ٧٩، ٩٩ .
محمد باقر الأصفهاني، الشيخ ٤٤٩ .
محمد الباقر الحلي، السيد ٤٥٠ .
محمد باقر زوين ٩٢ .
محمد باقر الشبيبي، الشيخ ٨٤، ٢٤٨، ٢٥٠ .
انظر : باقر الشبيبي .
محمد بحر العلوم الكبير، السيد ٦٧ .
محمد باقر . . .؟، الحاج ٢٨٧ .
محمد أفندي البنياشي ١٣٩ .
محمد تقي الأصفهاني، السيد ٢٩٤ .
محمد تقي آغا نجفي، الشيخ ٤٤٩ .
محمد تقي الشيرازي، الشيخ، الميرزا ١٥١، ٢٢٨، ٢٤٨، ٢٥٣، ٢٨٦ .
محمد بن جبر العامري (محمد الجبار) ٢٣٩ .
محمد جعفر أبو التمن، الحاج ١٣، ٢٤٧، ٢٤٨، ٢٥٢، ٢٦٨ .
انظر : جعفر أبو التمن .
محمد بن الشيخ جعفر كاشف الغطاء، الشيخ ٢٩٣ .
محمد جواد الجزائري، الشيخ ١٨٢، ١٩٥، ١٩٧، ٢٠٤، ٢٣٢، ٢٣٩، ٢٤٠، ٢٤٤ .
محمد جواد عجينة، الحاج ٢٦٨، ٢٦٩، ٢٧٢ .
محمد جواد الشيخ مشكور، الشيخ ٢٨٢ .
محمد نجل صاحب الجواهر، الشيخ ٢٨٢ .
محمد حرز الدين، الشيخ ٦٧ .
محمد بن حمادي الدبّي ٢٣٦ .
محمد الحمود الحبيب ٢٤٠ .
محمد حسن الجواهري، الشيخ ٢٤٥ .
محمد حسن صاحب الجواهر، الشيخ ٢٩٤ .
محمد حسن محمد رضا الشبيبي، الشيخ ٢٠٧ .
محمد حسن الشيرازي، الميرزا، المجدد ٣٨، ٤٥٠ .
محمد حسن الطالقاني، السيد ٢٣ .
محمد حسن القطيفي ٩٤، ٩٦ .
محمد حسن الكليدار، السيد ١٦٤ .
محمد حسن ابو المحاسن الكربلائي، الشيخ ١٠٢، ٢٤٨ .
محمد حسن محبوبة، الشيخ ٢٤٥ .
محمد السيد حسن الصدر، السيد ١٣، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٥٠ .
محمد حسن الهزار جريبي، الشيخ ٤٤٩ .
محمد حسين البغدادي، الشيخ ١٨٢ .
محمد حسين خان، الصدر الأعظم ٥٣ .
محمد حسين الحائري المازندراني، الشيخ ٢٨٠، ٢٨٣، ٢٨٦، ٢٨٧ .
محمد بن الحاج حسين الصنم ٢٣٥ .
محمد حسين القمشي ٢٨٢ .
محمد حسين آل كاشف الغطاء، الشيخ ٨٣، ٢٩٨٦، ٤٥٢ .

محمد حسين النائيني، الشيخ ٥، ١٣٦، ٤٤٥، ٤٤٧، ٤٤٨.
محمد رشاد الخامس، السلطان ١٣٤، ٢٨٠.
محمد رضا الجعفري (آل كاشف الغطاء)، الشيخ ٢٠٣.
محمد رضا الشبيبي، الشيخ ٨٥، ١٣٨، ٢٠٣، ٢٠٧، ٢٤٤، ٢٤٩، ٢٥٠.
محمد رضا الصافي، السيد ١٧٥، ٢٤٤.
محمد رضا المانع، الشيخ ٩٥، ٩٦.
محمد رضا المظفر، الشيخ ٤٥٢.
محمد زوين، السيد ٢٤٥.
محمد الزين اللبناني ١٠١.
محمد بن سعود، الأمير ٩٩.
محمد سعيد الحبوبي، السيد ٨٣.
محمد سعيد كمال الدين، السيد ١٣٩، ١٧٢، ١٧٣، ٢٨٢، ١٣٨، ٢٤٤.
انظر: سعيد كمال الدين.
محمد أبو شبع، الحاج ١٩٧، ٢٣٥، ٢٤٥، ٢٤٩.
محمد الشبيبي، الشيخ ٢٤٥.
محمد الشرباوي، الحاج ٢٦٩.
محمد صالح الشاهبندر ١١٨.
محمد الطريحي، القتيل ٩٦، ١٠٥، ٢٢٣.
محمد طه نجف، الشيخ ٦٧.
محمد عبد الحسين الكاظمي، المحامي، السيد ١٣، ٨٠، ٨٤، ٢٥١.
محمد الحاج عبد الله الهندي، الحاج ٢٤٥.
محمد عبد الوهاب، الإمام ٢٩٦، ٢٩٧، ٢٩٨، ٢٩٩.
محمد العبطان ٢٣٤.
محمد عزيز بقر الشام ٥.
محمد علي أفندي، مفتش الشرطة ٢٨٨.
محمد علي باشا ١٤٥.
محمد علي بحر العلوم، السيد ٧٨، ٨٨، ١٠٢، ١٠٩، ١٣٩، ١٨٢، ١٩٥، ١٩٦، ٢٠٤، ٢٣٤، ٢٤٠.
محمد علي الخراساني، الشيخ ٤٥١.
محمد علي الخليلي، الشيخ ٢٤٥.
محمد علي الدمشقي، الشيخ ١٨٢، ٢٣٢.
محمد علي شاه ١٣٣، ١٣٤، ١٤٦.
محمد علي الصحاف، الشيخ ٢٤٥.
محمد علي طبّار الهوى ٤٥.
محمد علي القزويني، السيد ٢٩٣.
محمد علي قسام، الشيخ ٢٤٥.
محمد علي كمال الدين، السيد ٥، ١١، ١٣، ١٤، ٢٢، ٨٧، ٩١، ٩٤، ١٠٠، ١٠١، ١٨٨، ٢٠٤، ١٠٧، ٢٤٠، ٢٤٤، ٢٤٦، ٢٥١، ٢٦٩.
محمد علي ناصر المصري ٩٦، ١٠٤، ١٠٧.
محمد علي الهزار جريبي، الشيخ ٢٩٤.
محمد علي اليعقوبي، الشيخ ٤٥٢.
محمد فتيان الراوي ١١٠.
محمد الفشاركي الأصفهاني، السيد ٤٥٠.
محمد الفيروز آبادي، السيد ٤٥١.
محمد كاظم الخراساني، الشيخ، الآخوند ١٥٠، ١٥١، ١٢، ٢٧٩، ٢٨٠، ٢٨٢، ٢٨٣، ٢٨٤، ٤٤٧، ٤٥٠.
محمد كاظم اليزدي، السيد ١٤٨، ١٤٩، ١٥٠، ١٥٢، ١٨١، ١٩٢، ٢١٤، ٢١٩، ٢٢٤، ٢٢٨، ٢٤٢.
محمد بن السيد محمد كاظم اليزدي، السيد ١٧٤.
محمد مرزة ٩٢.
محمد بن مطر العكايشي ٢٣٨، ٢٤١.

محمد بن مكي الجبعي العاملي، الشهيد الأول، الشيخ ٢٩٤.
محمد مهدي البصير، الدكتور ٨٨.
انظر: مهدي البصير.
محمد بن الحاج مهدي ثالثة ٢٣٥.
محمد السيد موسى كمال الدين، السيد ٢٤٨.
محمد آغا الهندي، السيد ٢١٦.
محمد الهندي ٢٤٦.
محمد الشيخ يوسف الوائلي، الشيخ ٢٤٥.
محمد وجيه ستمني ٢٢٣.
محمود الحبوبي، السيد ٤٥٢.
محمود الرحباوي، السيد ٣٩، ٢٩٧.
محمود السيد سلمان، السيد ٤٥.
محمود الشاهبندر ٩٣.
محمود عبد الله الششترلي ٩١.
محمود الحاج عبد الله ٩٢.
محمود، السيد مدير مطبعة النجف ٨٣.
مسلط حبيب الحار ٢٣٩.
مسلم الحلي، السيد ٤٥٢.
مسلم زوين، السيد ١٣٩، ١٤٥، ١٤٧، ١٥٢، ٢٨١.
مشكور بن بجاي العامري ٢١٠.
مصطفى أفندي عاصم اليوزباشي ١٣٨.
مصطفى الحسيني الكاشاني، السيد ١٥٠، ١٧٣، ٢٨٢.
مصطفى السوري، السيد ٩٦.
مصطفى كمال أتاتورك ٩٥.
مطرود جاسم الجعباوي ٢٠٩.
مطشر الرماحي ٢٣٦.
مطلك العلاوي المعمار، الحاج ٢٦٧.
مظفر الدين شاه ١٣٣.
أبو المعالي الكلباسي، الميرزا ٤٤٩.
معين التجار، الحاج ٥٤، ١٢٠، ١٢٥.
مغيض الحاج سعد راضي ٩٣، ٢٣٤، ٢٦٧.
مكي الشكري ٩٢، ٢٤٥.
موسى تقي زاير دهام، الشيخ ١٧٣.
موسى بن، الشيخ جعفر كاشف الغطاء، الشيخ ٣٨، ٢٩٣، ٢٩٧.
موسى الخوانساري، الشيخ ٤٥١.
موسى بن علوان الحاج سعدون ٢٧١.
مولود مخلص باشا ١٠٠.
مهدي الأعرجي، السيد ٤٥٢.
مهدي البصير، الدكتور، الشيخ ٩٣، ٩٧، ٢٤٨.
انظر: محمد مهدي البصير.
مهدي البغدادي، السيد ٧٨، ١٣٨.
مهدي بن حبيب الحار ٢٣٩.
مهدي السيد حمادي ٢١٠.
مهدي السيد حيدر، السيد ١٧٣.
مهدي الخالصي، الشيخ ١٥١، ١٧٤، ٤٥١.
مهدي ملا كاظم الخراساني، المرزا، الأخوند ١٤١، ١٥١، ٢٤٤، ٢٦٨.
مهدي السيد سلمان، السيد ١٨٩، ١٩٢، ٢١٢، ٢١٣، ٢١٤، ٢١٩، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤٢، ٢٦٤، ٢٦٨، ٢٦٩.
مهدي شمسة، الحاج ١٠٩.
مهدي عجينة ٩٢.
مهدي الفتوني العاملي، الشيخ ٢٩٣.
مهدي الفيخراني ٤٣.

-ن-

ناصر حسن حاجي ٢٣٩.
ناصر الحسون الرماحي ٢٣٦.
ناصر الخشمان ٤٢.
ناصر كمونة، السيد ٩٢، ١٠٩.

ناظم باشا ٤٦ .
نجم البقال، الحاج ١٩٦، ٢٠٨، ٢٠٩، ٢١٠، ٢١٢، ٢٣٤ .
نجم العبود العامري ٢٣٩ .
نجيب باشا ٤٦ .
نعمة الشيخ كاظم ٢٤٥ .
نعيم السيد رعد، السيد ٢٦٧ .
نقيب الأشراف ١٠٩ .
نوربري، الميجر ٢٥٦، ٢٦١، ٢٦٢ .
نور السيد عزيز الياسري، السيد ٢٥٣، ٢٥٥، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٣ .
نوري كمونة، السيد ٩٢ .
نوري بك ١٦٤ .

-هـ-

هادي جلو ٩٣ .
هادي الحسن الحداد ٢٠٩ .
هادي بن السيد حسن السلطاني، السيد ٢٣٥ .
هادي زوين، السيد ٢٤٥، ٢٤٩ .
هادي بن عبد الحسين أبو شبع ٢٣٩ .
هاشم كمونة، السيد ٩٢، ١٠٣ .
هاشم الهندي، السيد ٢١٦ .
هبة الدين الحسيني الشهرستاني، السيد ٨٠، ٨٣، ٩٠، ١٤١، ١٥٢ .
انظر : السيد محمد علي هبة الدين .
هوبرت يونغ، السير ١٨٠ .
هندي عطية أبوكلل ٢٣٨ .
هو ليستر، د. جون ٦٧ .

-و-

وادي (العبد)، الحاج ٢٤٠ .
وسموس، الضابط الألماني ١٧٨ .
ولسن، السير أي تي ١٧٦، ٢٤٦ .
وينكيث بن ريجنالد وينكيت ٢٤٣ .

-ي-

يحيى الحبوبي، السيد ٨٧، ٩٤، ١٠٢، ١٠٣، ١٠٩، ٢٤٥ .
يحيى ق أفندي الموصلي ٩١، ٩٢، ٩٤، ٩٦، ٩٨ .
يعقوب، حاكم النجف ٤٤ .
يوسف، الملا ٣٢، ٤١، ٤٣ .
يوسف رجيب ٩٢، ٩٦، ١٠٥، ١٠٦، ١١٠ .
يوسف أبو عجينة ٨٧، ٩٤، ١٠٣، ١٠٧، ١٠٩، ٢٤٥ .
يوسف المعمار ١٠٧ .

٢ـ فهرس الأماكن والبقاع

الأستانة ١٣٩ .
أصفهان ١٧٨ .
الأكمكخانة (المخبز) ١٦٢ .
الإمام الرضا (ع) ٣٨ .
الأهواز ١٢٣ ، ١٧٤ ، ١٧٥ ، ١٧٨ .
أوده ٦٦ ، ٦٧ ، ٦٨ .
ايـــران ٣٨ ، ١٤٩ ، ١٥٠ ، ١٥٢ ، ١٥٣ ، ١٧٤ ، ١٧٨ ، ٢٢٣ ، ٢٤٣ ، ٢٨٠ ، ٢٨٣ ، ٢٨٧ ، ٤٤٧ ، ٤٤٩ ، ٤٥١ .
إيطاليا ١٤٦ ، ١٤٧ ، ١٥٣ ، ٢٨٣ ، ٢٨٤ .
بئر زمزم ٣٤ .
بئر ابن عبيد ٢٣٤ .
باب اشتابيه ٥٦ ، ٢٣٠ .
باب الثلمة ٥٦ .
باب الطوسي ١٣٩ .
بحر النجف ٥٦ ، ١٢٦ ، ١٩٠ ، ٤٥٢ .
بحيرة النجف ٥٣ .
البراق (محلة) ٥٤ ، ٢٣٥ ، ٢٦٧ ، ٢٦٨ ، ٢٦٩ .
البرجسية ١٧٢ .
برلين ٦٩ .
بريطانيا ٦٩ .
البصـــــرة ١١٨ ، ١٢٢ ، ١٦٧ ، ١٦٨ ، ١٧٠ ، ١٧٢ ، ١٧٨ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٣١ ، ٢٤٩ ، ٢٧٠ .
بطربورغ ١٤٧ .
أم البعرور ٢٤٣ .
بغداد ٦٩ ، ٧٨ ، ٨٨ ، ٩٦ ، ١٣٨ ، ١٦٦ ، ١٦٨ ، ١٨٦ ، ١٨٩ ، ١٩٤ ، ١٩٧ ، ٢٠١ ، ٢٣١ ، ٢٤٠ ، ٢٤٦ ، ٢٤٨ ، ٢٥٣ .
البقيع ٣٤ .
بناية البرق والبريد ٢٠٥ .
بهبهان ١٧٨ .
بوشهر ٢٨٧ .
بومباي ١٩٧ .
بيروت ٨٥ .
تبريز ١٤٧ .
التراموای ١٩٦ .
تكريت ١٨٠ ، ١٨٤ .
الثكنة العثمانية في النجف ٥٤ .
الثلمة (محلة) ١٩٣ .
جادة السلام ٨٣ ، ١٣٩ .
جامع الحيدر خانة ٦١ .
جامع الهندي ٦١ ، ١٤٧ ، ٢٥٨ .
الجبانة (مقبرة النجف) ٣٤ ، ٥٣ ، ٥٤ ، ٥٦ .
جبل حائل ٤١ ، ٢٦٧ .
جدول الأمير غازي ١٢٦ .
جدول النجف ١٢٣ .
الجديدة (محلة) ٢٢٥ .
الجزيرة ٢٤٦ ، ٢٤٨ .
جزيرة العمایر ٢٩٨ .
جسر بغداد ١٨٥ .
الجسر (الكوفة) ٢٦٤ ، ٢٦٦ .
الجمارة ٢٦٧ .
حائل ٣٩ ، ٤١ ، ٤٣ ، ١٨٣ .
الحجاز ٢٤٩ .

الحرم العلوي ٣٢، ١٢٠ .
الحلة ٣٥، ٦٥، ١٦٦، ١٩٤، ٢٣١، ٢٤٨ .
أم الحليب ١٧٥ .
الحويش (محلة) ٥٦، ١٩٢، ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٣٠، ٢٣٩، ٢٦٨، ٢٦٩ .
الحيرة ٢٤٠، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٠ .
خان الشيلان ١٦٢ .
خان عطية أبوگلل ٥٤، ٢٠٨، ٢٤١ .
خان محسن شلاش ١٩٥ .
خان الهنود ١٦٢ .
خراسان ١٤٧ .
خرم شهر ١٠٦ .
دار الحكومة العثمانية في النجف ٥٤، ٢٠٥ .
دار الفاضلي ٨٥، ٨٧، ٩٧ .
دار آل مانع ١٣٩ .
دجلة ١٧٢، ١٧٣، ١٨٠ .
درعية آل رشيد ٥٦ .
درعية آل سعود ٥٦ .
درعية عطية أبوگلل ٥٦ .
الدغارة ١٧٥، ٢٤٨ .
دمشق ٢٤٦ .
دهلي ٦٦، ٦٧ .
الديوانية ٢٣١ .
رامز ١٧٨ .
الرحبة ٣٩، ٤٠، ٢٩٧ .
الرمادي ١٨٥ .
الرشيد ٢٤٨، ٢٥٠ .
روسيا ٣٨، ٤٤، ١٥٣، ٢٨٣، ٢٨٤ .
الرياض ٣٩، ٤٢ .
سامراء ٢٠٥، ٢٢٨، ٢٨٥ .
السدّة (ناحية) ٢٦٧، ٢٧٢ .
سلانيك ١٣٩ .
سلمان باك ١٧٩ .
السماوة ٣٤، ٦٥، ١٦٦، ١٩٤، ٢٣١، ٢٤٨
سمرپور ١٩٤، ١٩٧ .
السودان ٢٤١ .
سورية ١٦٧، ٢٤٩، ٢٥٠ .
سور النجف ٥٣ .
سوق الشيوخ ٣٦، ١٧٢، ١٧٣، ٢٤٩ .
سوق العمارة ٨٣ .
سوق القبلة ٦١ .
السوق الكبير في النجف ٤٥٢ .
سيحان ١٦٨ .
الشامية ١٩٥، ٢٠٧، ٢١٠، ٢٢٣، ٢٣١، ٢٤٠، ٢٤١، ٢٤٣، ٢٥١، ٢٥٢، ٢٥٤، ٢٥٥، ٢٥٨، ٢٥٩، ٢٦٠، ٢٦٢، ٢٦٦ .
ششتر ١٧٨، ٢٤٣ .
الشطرة ٦٥، ١٧٩ .
الشعيبة ١٧٢ .
شمال العراق ٢٤٦ .
الشنافية ١٩٨ .
الصحن الحيدري ٤٤، ٥٦، ١٤٧، ١٤٨، ١٦١، ١٩١، ٢٤٤، ٤٥٢ .
أبو صخير ٥٣، ٦٥، ١٢٣، ١٢٦، ١٨٤، ١٩٠، ٢٠٦، ٢١٧، ٢٣١، ٢٤٣، ٢٤٩ .
طرابلس الغرب ١٤٧، ١٥٢، ٢٨١، ٢٨٣، ٢٨٤ .
طهران ١٥٠، ١٧٨، ٤٤٨ .
عانة ١٨٣، ٢٠٤، ٢٠٦ .
أبو عران ١٧٣ .
عفك ١٧٥، ٢٤٨ .
علوة الفحل ١٩٠، ٢١٣ .

العمـــارة (لـــواء) ١٧٣، ١٧٥، ١٧٩، ١٩٤، ٢٣١، ٢٤٦.
العمـــارة (محلـــة) ٨٣، ٢٠٤، ٢٢٣، ٢٣٨، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩.
الغراف ٣٦، ١٧٩، ٢٤٦، ٢٤٨، ٢٤٩.
غماس ٢٤٣.
غيد الدعي ١٧٥.
الفاو ١٠٤.
الفـــــرات ١١٨، ١٢١، ١٧٢، ١٧٩، ١٨٠، ١٩٠، ٢٤٣.
الفرات الأوسط ٨٨.
قبر السيد عزيز الياسري ٢٠٦.
قبر الإمام علي ٦٤.
القرنة ١٦٦، ١٦٧، ١٧٠، ١٧٣، ١٧٤، ١٧٥.
قطر ٢٩٨.
فقفازية ٢٢٣.
قم ٤٥١.
قناة النجف ٤٤.
الكـــاظميـــة ١٤٩، ١٧٩، ١٩٤، ٢٣١، ٢٤١، ٢٨٥.
كبيسة ٢٠٣.
كـــربـــلاء ٣٣، ٣٥، ٣٦، ٤٦، ٤٧، ٥٣، ٥٤، ٦٥، ٦٧، ٦٨، ٩٥، ١٠٢، ١٠٤، ١٠٧، ١٤٦، ١٤٩، ١٥٠، ١٥١، ١٧٤، ١٨٨، ١٩٤، ٢١٢، ٢١٧، ٢٣١، ٢٤٨، ٢٥٠، ٢٧١، ٢٧٩، ٢٨٥، ٢٨٨، ٤٥٠، ٤٥١.
كري الشيخ ٢١٣، ٢١٧، ٢٣٤.
الكفل ٢٤٩.
كنهو ٦٧.
الكوت ١٦٤، ١٧٥، ١٧٩.
الكـوفـة ١٣، ٦٥، ١١٨، ١٢١، ١٢٤، ١٦٥، ١٦٦، ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥، ١٨٨، ١٩٠، ١٩٥، ١٩٨، ٢٠٦، ٢١٣، ٢٢٢، ٢٢٨، ٢٣١، ٢٣٩، ٢٤١، ٢٤٢، ٢٤٥، ٢٤٩، ٢٥٠.
الكويت ١٤، ١٧٨، ٢٩٨.
اللصف ١٨٢.
ليبيا ٢٨١.
المحمرة ١٧٨، ١٩٦.
مدرسة الآخوند (الملا محمد كاظم الخراساني) ٢٢٣، ٢٢٤، ٢٤٦.
المدرسة الأميرية ٨٧.
مدرسة الخليلي (المرزا حسين) ١٤٢، ١٤٥، ١٨٢.
المدرسة الرشدية المسائية ١٣.
المدرسة العثمانية ٥٤.
مـدرسـة الغـري الأهليـة ١٤، ٥٤، ٨٥، ٨٦، ٩٠، ١٠٣، ١٠٧، ١٦١، ٢٨٨.
مدرسة الفيصلية الأهلية في كربلاء ٩٥، ١٠٠.
المدرسة المرتضوية ٨٥.
مدرسة الوحيد البهبهاني ٢٩٣.
المدينة المنورة ٣٤، ٣٩، ٤٢، ٦٧.
مرقد الامام الرضا ١٤٧.
مزيرعة ١٧٠.
المستشفى الملكي في النجف ٥٤، ١٦٢.
مسجد سليمان ١٧٨.
المسيب ٢٤٣.
المشخاب ٢٤٣.
المشراق (محلة) ٤٣، ٥٤، ٨٧، ٢١٢، ٢٣٤، ٢٦٧، ٢٦٨، ٢٦٩.
المشهد الرضوي ٢٨٠.
المغل ٦٦.
مقام كميل بن زياد ١٩٠، ٢١٣.
مقبرة السيد عزيز الياسري ٢١٣.

مقبرة الهنود ١٩٦ .
مكتبة الامام الرضا ١٤٧ .
مكتبة الحسينية الشوشترية في النجف ٨٣، ٤٤٨ .
مكة المكرمة ٣٤، ٦٧ .
المنتفك ١٦٧، ١٧٩ .
المهدران ٢١٣ .
الموصل ٩٦، ٢٤٦ .
نائين ٤٤٩ .
الناصرية ١٧٥، ١٧٨، ١٧٩، ٢٠١، ٢٤٩ .
ناصرية الأهواز ١٧٤ .
ناصرية المنتفك ١٦٦، ١٧٢ .
نجد ٣٥ .
النجف، وردت كثيراً في طيّات الكتاب .
النصب التذكاري للدستور العثماني في النجف ٥٤ .
نهر التاجية ١٢١ .
نهر السنية ١٢١ .
نهر الشاه ١٢١ .
نهر الطهمازية ١٢١ .
نهر قارون ١٧٥ .
نهر الملك غازي ٤٥٢ .
نهر الهندية ١٢١ .
الهاشمية ٢٤٨ .
الهند ٣٧، ٦٦، ٦٧، ١٩٧، ١٩٨، ٢٤٣ .
الهندية ١٩٥، ٢٣١، ٢٧١ .
هور الحمار ١٧٣ .
هور الدخن ٢٤٣ .
هيت ٣٥، ١٨٠ .
وادي المسحب ٢١٧ .

٣ ـ فهرس القبائل والعشائر والأُسر

بيت الإسكافي ٤٨ .
الألمان ٢٤٣ .
الإمارة ١٧٣ .
آل بحر العلوم ٤٩ .
البختيارية ١٧٨
آل بقر الشام ٤٠، ٤٥ .
الترك ١٨١ .
جمعية الاتحاد والترقي ٥٤ .
جمعية منتدى النشر ١٩ .
جمعية النهضة الاسلامية ١٨٢، ٢٠٤ .
الجوابر ١٧٣ .
حجام ١٧٣ .
بيت الحداد ٤٨ .
حزب الاتحاد والترقي ٧٨، ١٣٨ .
الحزب الدمقراطي الايراني ١٤٢ .
آل حسن ١٧٣ .
بني حسن ١٨٣ .
آل حسين النجم ٩٥ .
الخزاعل ١٩٥، ٢٣٤ .
آل الخليلي ٤٩ .
آل رشيد ٤٢، ٤٣ .
الروس ١٤٩، ١٥٠، ٢٨٠ .
الزكرت ٣٢، ٣٩، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٦١، ١٨١، ١٨٩، ٢٥٤، ٢٩٤ .
بيت أبو السبح ٤٨ .
آل سعود ٣٣، ٣٥، ٤٢، ٤٣ .
آل السيد سلمان ٤٥ .
السيخ ١٩٢، ٢٢٢ .
آل شدّود ١٧٣ .
بيت الشمّاع ٤٨ .
الشمرت ٣٢، ٣٩، ٤٣، ٤٥، ٤٦، ٦١، ١٨٧، ٢١٤، ٢٥٤، ٢٩٥ .
شمّر ٤١، ٤٢، ٢٦٧ .
بيت الصراف ٤٨ .
بني طرف ١٧٤ .
بني عتبة ٢٩٨ .
عنزة ٣، ٤١، ٤٢، ١٨١، ١٨٤، ١٩٨، ٢٠٣، ٢٠٥ .
بيت الفحام ٤٨ .
آل القزويني ٤٩، ٢٩٣ .
القشقائية ١٧٨ .
الكرد ٢٤٠ .
الكركة ١٩٢، ٢٢٢ .
آل كرماشة ٢٢٣ .
آل كمال الدين ٩٥ .
الملالي ٣٢ .
المنتفك ٣٦ .
مؤتمر السلام ٢٤٩ .
نادي الإصلاح ٨٣ .
آل النقيب ٢٦٨ .

٤ ـ فهرس الوثائق

رقم الوثيقة	عنوانها	الصفحة
[١]	البيان الذي وجهه بعض العلماء إلى زعماء المذاهب الإسلامية لدعوتهم إلى الإتحاد ونبذ الخلافات ووجوب إتحاد كافة المسلمين لحفظ بيضة الإسلام، وحراسة جميع الممالك الإسلامية	٢٧٩
[٢]	نصّ البرقية التي بعث بها علماء الدين إلى السلطان العثماني محمد رشاد الخامس في ١٧ ذي الحجة سنة ١٣٢٩هـ/ ١٩١١م يعملونه بفتواهم بوجوب الجهاد ضد الروس، حيث دخلت جيوشهم إلى إيران، وانتهكت حرمة المشهد الرضوي وتهديدهم استقلال إيران، وما صاحب ذلك من فظائع وويلات	٢٨٠
[٣]	إعلان الجهاد ضد الغزو الإيطالي لطرابلس الغرب ـ ليبيا ـ سنة ١٣٣٠هـ/ ١٩١١م	٢٨١
[٤]	البرقية التي بعث بها العلماء إلى بعض الجمعيات والهيئات الإسلامية والصحف التركية في اسطنبول: «جمعية السعادة الإيرانية»، «جريدة يكي إقدام»، «طنين»، «ترجمات حقيقت»، «ترون ترك»، «علمدار»، «العدل»، «الخضار»، «مدير أثر أنص عثماني». لحث المسلمين كافة على التفاعل مع الدولة في مواجهة النشاط الاستعماري الذي يستهدف المسلمين بلا تمييز	٢٨٣
[٥]	البيان المشترك الذي أصدره العلماء حول الهجمة الاستعمارية التي تقوم بها كل من روسيا وإيطاليا على البلاد الإسلامية، ودعوتهم للتصدي لها، والدفاع عن كيان البلاد الإسلامية	٢٨٤
[٦]	البيان الذي وجهه بعض العلماء في صفر ١٣٣٠هـ/ شباط ١٩١٢م، إلى الكثير من الشخصيات والهيئات الإسلامية يستنهضون فيه المسلمين لمواجهة التحدي الاستعماري، وتدعوهم إلى العمل المكثف من أجل حفظ البلاد الإسلامية	٢٨٥
[٧]	الرسالة التي أصدرها جماعة من العلماء في ٢٠ آذار ١٩١٢/ ١ ربيع الثاني ١٣٣٠هـ، موجهة إلى عموم المسلمين للإتحاد والتكاتف ونبذ الخلافات ومقاومة الهجوم الروسي على إيران	٢٨٧
[٨]	تقرير الهيئة العليا للطيران ـ مكتب الخدمات العامة حول قيام أحد طلبة مدرسة الغري في النجف بتمزيق العلم الفارسي خلال زيارة الملك فيصل الأول إلى النجف	٢٨٨

٥ ـ فهرس الصور الفوتوغرافية

الصورة	الصفحة
السيد محمد علي كمال الدين ـ المؤلف	١١
النجف في مطلع القرن التاسع عشر	٥٥
من بقايا سور النجف «طرف محلة البراق»	٥٧
الصحن الحيدري	٧٩
الصفحة الأولى من جريدة الفرات	٨١
الصفحة الأولى من جريدة الاستقلال	٨٢
الشيخ محمد باقر الشبيبي صاحب جريدة الفرات	٨٤
السيد محمد عبد الحسين الكاظمي صاحب جريدة الاستقلال	٨٤
بناية مدرسة الغري الأهلية، وقد كانت مقر الثكنة العسكرية العثمانية	٨٩
زيارة الملك فيصل الأول إلى النجف عام ١٩٢٥	٨٩
السيد صالح الحلي الخطيب	٩٩
الشيخ محمد المحلاتي صاحب جريدة در النجف	٩٩
النجف ـ صورة جوية	١١٧
السكة الحديدية	١١٩
الحاج معين التجار	١١٩
الشيخ محمد كاظم الآخوند الخراساني	١٣١
علماء النجف عند خروجهم إلى جبهة العمارة لمدافعة الاحتلال البريطاني عن ثغور الاسلام في الحرب العامة عام ١٣٣٤هـ	١٣٥
اتفاق الهيئة العلمية في النجف مع ثريا بك مندوب حزب الاتحاد والترقي العثماني على الثبات في نصرة الحرية «عن مشاهير الشرق»	١٤٣
صورة اخرى لاتفاق الهيئة العلمية مع ثريا بك	١٤٣
خان الشيلان	١٦٣
الأسرى الانكليز في خان الشيلان	١٦٣
خروج المجاهدين من النجف، ويظهر السور الخارجي للمدينة	١٦٩
علماء النجف الذين حضروا إلى الكاظمية للتوجه إلى ساحة الجهاد بجبهة كوت العمارة	١٧١
السيد محمد سعيد الحبوبي في مسجد السهلة بالكوفة قبيل توجهه إلى ساحة الجهاد، مع مجموعة من أبناء أسرته وتلامذته	١٧٧

الحاج نجم البقال ٢١١
السيد محمد كاظم الطباطبائي اليزدي ٢١٥
الكابتن وليم . م مارشال ٢٢٧
السيد مهدي السيد سلمان ٢٢٧
كريم الحاج سعد ٢٢٩
كاظم صبي ٢٢٩
الحاج عطية أبوكلل ٢٢٩
الحاج عبد المحسن شلاش ٢٢٩
السيد محمد علي بحر العلوم ٢٣٣
الشيخ عبد الكريم الجزائري ٢٣٣
الشيخ محمد جواد الجزائري ٢٣٣
الشيخ محمد علي الدمشقي ٢٣٣
مغيض سعد راضي ٢٣٧
حسين صگبان بقر الشام ٢٣٧
الحاج نجم العبود العامري ٢٣٧
تومان عدوة ٢٣٧
جانب من سور النجف «طرف محلة البراق» ٣١٦
مدينة النجف محاطة بسورها الشهير يتوسطها مرقد الإمام علي بن أبي طالب (ع) ٣١٧
الشيخ محمد حسين النائيني ٤٥٣

٦ـ فهرس الموضوعات

مقدمة المحقق ٥
الصفحة الأولى بخط المؤلف ٧
الصفحة الأخير بخط المؤلف ٨
محمد علي كمال الدين، ترجمته بقلمه ٩
نصّ الكتاب (النجف في ربع قرن) ٢٥
توطئة ٢٧
مقدمة الكتاب:
فكرة عامة عن النجف في القرن الثالث عشر الهجري ٢٩
١ ـ نشأة النجف، مركزها، طابعها ٣١
٢ ـ النجف والوهابية ٣٣
٣ ـ النجف والسياسة ٣٧
٤ ـ النجف ودور التكامل ٣٨
٥ ـ ظاهرة انصداع الوحدة النجفية ٣٩
٦ ـ حائل، طريق النجف الاقتصادي ٤١
٧ ـ الحكم العثماني في النجف ٤٣
٨ ـ النجف والهجرة الأجنبية ٤٦
الفصل الأول: ٥١
١ ـ جغرافية النجف التأريخية وأماكنها العامة ٥٣
٢ ـ الصحن الشريف أكبر مجمع عام ٥٨
٣ ـ جامع الهندي ٦١
٤ ـ طبقات السكن النجفي الحالي وأثر كل طبقة ٦١
٥ ـ مكانة النجف ومنزلتها بين المدن ٦٤
٦ ـ النفوذ الأجنبي في النجف على عهد الحكومة العثمانية ٦٦

الفصل الثاني : ٧٣
١ ـ الصحن والكتّاب والأدباء ٧٧
٢ ـ المطابع والمؤلفات ٨٠
٣ ـ النوادي والمكتبات العامة ٨٣
٤ ـ مدرسة الغري الأهلية ٨٥
الفصل الثالث :
التطور الاجتماعي والعمراني ١١٣
١ ـ النجف بين القديم والجديد ١١٥
٢ ـ المستشفيات والمستوصفات ١١٦
٣ ـ الخط الحديدي ١١٨
٤ ـ الكهرباء ١٢٠
٥ ـ مضخات الماء ومشاريع الجداول ١٢١
الفصل الرابع :
التطور السياسي في النجف ١٢٧
● التربية السياسية ١٢٩
١ ـ فرع حزب الإتحاد والترقي وأعماله في النجف ١٣٨
٢ ـ الهيأة العلمية وأعمالها ١٤١
٣ ـ إتفاق الحزبين وأعمالهما الجبّارة ١٤٢
الفصل الخامس :
التطور الحربي في النجف وأحزابه ١٥٥
● التربية الحربية في النجف ١٥٧
١ ـ الثورة النجفية ضد الحكومة العثمانية ١٥٩
٢ ـ عهد الفترة في النجف ١٦٥
٣ ـ النجف والحرب العالمية ١٦٧
٤ ـ عهد الاحتلال في النجف والحزبان السياسي والحربي ١٨٠
٥ ـ ثورة النجف أو قبس الثورة العراقية ١٨٨

ـ عوامل الثورة النجفية ١٩١٨ ضد الاحتلال ٢٠٠
١ ـ زوال الثقة بالانكليز ٢٠١
٢ ـ زوال الثقة بالأجانب عامة ٢٠٢
٣ ـ العوامل المباشرة للثورة ٢٠٣
ـ فصول المأساة: ٢٠٨
١ ـ تفاقم الأمر وتدبير الثورة ٢٠٨
٢ ـ الاطلاقة الأولى ٢١٠
٣ ـ زحف الجيش البريطاني ٢١٣
٤ ـ وساطة العلماء ٢١٤
٥ ـ شروط السلطة المحتلة ٢١٦
٦ ـ الخطة الحربية ٢١٧
٧ ـ التحرّش بالحامية المحاصرة وخطة الدفاع ٢١٧
٨ ـ شعور الفراتيين أزاء الثورة ٢١٨
٩ ـ وساطة العلماء أيضاً ٢١٨
١٠ ـ التناقض في سياسة الحاكم ٢٢٠
١١ ـ المعركة الأولى ٢٢٠
١٢ ـ مخاوف المتحاربين والسياسة العسكرية ٢٢١
١٣ ـ الاستيلاء على التل وعلى المدينة ٢٢٢
١٤ ـ اليومان العصيبان ٢٢٤
١٥ ـ التصلب في تنفيذ الشروط ٢٢٦
١٦ ـ أيام الحصار العصيبة واستسلام الثوار ٢٢٦
١٧ ـ يوم الإنطلاق ٢٣٠
١٨ ـ تنفيذ شروط مجلس الحكّام العسكريين ٢٣٢
٦ ـ الثورة العراقية الكبرى ١٩٢٠ ..... ٢٤٤
ـ حزب الثورة العراقية ومكتبها في النجف ٢٤٤
ـ الانتداب في النجف والشامية أو المسألة العراقية ٢٥١
ـ الاجتماعات السرية في النجف ٢٥١

ـ الاجتماعات العلنية ٢٥٢
ـ انتخاب المندوبين ٢٥٣
ـ اجتماع تأريخي هام عقد لثلاثة أمور ٢٥٤
ـ تنفيذ قرار سابق ٢٥٥
ـ أول جلسة للمندوبين ٢٥٥
ـ الجلسة الثانية للمندوبين ٢٥٦
ـ أسئلة رئيس النهضة الشيخ الجزائري ٢٥٧
ـ مجلس عجيب ومظاهرة مدهشة ٢٥٨
ـ مقابلة المندوبين حاكم لواء النجف والشامية ٢٥٨
ـ صورة الطلبات والمواد التي قدمها المندوبون ٢٥٩
ـ حديث المندوبين السياسي مع نوربري ٢٦٠
ـ المهلة في الجواب على مواد الطلب ٢٦١
ـ الخلف في الوعد ٢٦١
ـ صورة ردّ المندوبين على كتاب الحاكم المتقدم ٢٦٢
ـ الجلسة الثالثة للمندوبين ٢٦٢
ـ الجلسة الرابعة للمندوبين ٢٦٣
ـ البرقية التي قدمت إلى القائد العام ٢٦٣
٧ـ حوادث النجف أثناء الثورة العراقية ٢٦٤
ـ إنسحاب الانكليز من النجف ٢٦٤
ـ إنزال العلم البريطاني ٢٦٤
ـ إنحلال حكومة بريطانيا قبل إنزال العلم ٢٦٤
ـ حادثان غريبان ٢٦٥
ـ تقسيم تركة الانكليز ٢٦٥
ـ الاهتمام في تشكيل حكومة وطنية ٢٦٥
ـ تحليق طيارتين في سماء النجف ٢٦٦
ـ مضمون المناشير ٢٦٦
ـ جواب النجفيين على المناشير ٢٦٦

ـ تحليق الطيارتان في سماء الجسر ٢٦٦
ـ سفر النجفيين لحرب الانكليز ٢٦٦
ـ سفر موكب ثان من المتطوعين النجفيين ٢٦٧
ـ سفر بقية مواكب النجفيين المتطوعين ٢٦٧
ـ الانتخابات في النجف لتشكيل مجلس تشريعي ومجلس تنفيذي .. ٢٦٧
ـ أعمال المجلس للفترة من ١١ـ٢٥ ذي الحجة ٢٦٩
ـ حميد خان وأحواله ٢٦٩
ـ نقطة سوداء في التأريخ ٢٧٠
ـ نقل حميد خان من النجف إلى كربلاء ٢٧١
ـ اعتقال حميد خان ٢٧١
ـ السعي لفكاك حميد خان ٢٧١
ـ فشل الوفد الخائن ٢٧٢
ـ انحلال الإدارتين التشريعية والتنفيذية ٢٧٢
مصادر ومراجع التحقيق ٢٧٣
الملاحق ٢٧٥
١ ـ ملحق الوثائق ٢٧٧
٢ ـ رسالة «منهج الرشاد لمن أراد السداد» لكاشف الغطاء ٢٩١
٣ ـ رسالة «تنبيه الأمّة وتنزيه الملّة» للنائيني ٤٤٥
الفهارس العامة ٥٥٥
١ ـ فهرس الأعلام ٥٥٧
٢ ـ فهرس الأماكن والبقاع ٥٦٩
٣ ـ فهرس القبائل والعشائر والأُسر ٥٧٣
٤ ـ فهرس الوثائق ٥٧٤
٥ ـ فهرس الصور الفوتوغرافية ٥٧٥
٦ ـ فهرس الموضوعات ٥٧٧